

التاريخ السريع للمعتقل

أحمد زكي

البوابة السوداء

صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين

الترجمة
للإمام
المفتي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تحسبنَّ اللهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ آلَ رَسُلِكَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

صدق الله العظيم

إبراهيم / ٤٢ - ٥٢

إهداء

إلى أشقاء السجن :

الذين تحملوا ضراوة المحنة، وآلام الغربة، في
إيمان وصبر . ذكرى أيام قضيناها هناك، وراء
السدود والقيود، نرجو أن تكون في ميزان
الحسنات يوم الحساب .

والله من وراء القصد .

أحمد رائف

مقدمة الطبعة الأولى الشرعية البوابة السوداء

أخي القارىء

إن هذا الكتاب الذى نقدمه إليك وثيقة اتهام خطيرة لاتدين نظاما بعينه بل تدين جيلا بأكمله ، لأن النظام لم يقو على ارتكاب هذه الفظائع إلا بعد أن استخف بالإنسان على الخريطة العربية كلها .

ومن العجيب المخجل ، ليس للنظام فقط بل للجيل بأكمله ، أن ترتكب كل هذه الفظائع تحت شعار الحرية . واليوم وبعد أن تكشفت عيوب ذلك النظام إلى درجة الفضيحة ، هل استطاع المواطن العربى أن يصل إلى مرحلة الوعى بحيث لايسمح للجريمة أن تتكرر من جديد ؟

وأولئك الذين بغى عليهم الجلادون ورفضوا الظلم وأعلنوا الرفض بكل شجاعة وإباء هل هم قادرون على الإفادة من التجربة المرة ليأخذوا بيد هذا الشعب الذبيح على يد أولئك الطغاة الذين انكشف أمرهم وبانت عورتهم ؟، وهل أيقن الشعب أن الدواء الناجح للخلاص هو نبذ كل الشعارات والمبادئ التى أركمت الأنوف بعد التجربة القاسية ، وأن السبيل الوحيد للعزة والكرامة هو طريق الإسلام ، والإسلام وحده .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو واحد من بين عشرات الآلاف الذين آثروا البلاء ، وعانوا مرارة السجن ، فكتب حروف كتابه بدمه ، ليقدم تجربته للتاريخ لتكون رفدا للأحرار على طريق الحرية الطويلة ، وكذلك لتكون وثيقة للتاريخ الذي سيكشف الطيب من الخبيث .

إن مسئولية الناشر في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ العروبة والإسلام أن يقدم المادة الفكرية القادرة على إزالة الغشاوة عن عيون النائمين وأحسب أن أحمد رائف في كتابه البوابة السوداء - التاريخ السرى للمعتقل-كان واحدا من القلة النادرة في ساحة الفكر العربي الذي قدم زادا فكريا على مائدة الحرية .

حسن التل

مدير ورئيس تحرير دار اللواء
الأردن - عمان
ناشر الطبعة الأولى

عمان في مارس سنة ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف للطبعة الأولى

كان لا بد من قدر غير قليل من الشجاعة حتى أمسك القلم
وأخط الصفحات التي بين يدي القارئ الكريم . ففى هذا
الكتاب قصة طغيان أجهزة الأمن ووصولها إلى أبعد مدى فى
العبث بأرواح الناس وأمنهم ، حتى أحوالوا نهار مصر إلى ليل
طويل بالغ الحلكة شديد الوطأة .

ولعلنى إذ أقص عليكم قصة ما حدث لى من لحظة أن طرق
بابى ضابط المباحث عند الفجر حتى قدر لى أن أخرج حيا
بعد سنوات ، أقول لعلنى بهذا أعطى علامات تضىء لنا طريقا
لا بد من أن نسلكها كمجتمع ، أن له أن يأخذ مكان القيادة
والريادة ، بعد نوم طويل بعضه فى سراديب الشيطان الملتوية
حيث أودعت طليعة هذا الشعب بالسجون والمعتقلات ،
وبعضه الآخر فى جحور الخوف المحض والانتظار الطويل .

ويأتى هذا الكتاب فى أعقاب فترة طويلة من الاستبداد
السياسى وحكم الفرد فى مصر ، وقد طويت هذه الصفحة
وفتحت بدلها أخرى جديدة نرجو لها أن تزهو وتعيد إلى
مصر مافاتها من خير كثير .

هذا الكتاب للناس جميعا ، صغيرهم وكبيرهم ، رجالهم
ونسائهم ، إن الذى يسمح بالطغيان فى بلد ما هم أفراد
الشعب ، وإذا كان الناس على درجة من الوعى فلن يسمحو
أن يستبد بهم حاكم مهما علا شأنه وذاع صيته ، وأنهم
بالشمس والقمر ، وخلق فيهم العزة والكرامة فى الخطب
والتصريحات .

ولارىب أن العزة الحقيقية فى أن يعيش الناس أحرارا فى
أمن من طرقة الفجر المفزعة ، والعزة الحقيقية فى أن يقول

كل واحد ما يريد أن يقول ، وأن يعبر عما يختلج في صدره وعقله دون خشية السجن أو الاعتقال .

وإني أقدم هذا الكتاب إلى القراء ليعرف الجميع بعضا مما حدث في معتقلات أجهزة الأمن في مصر قبل أن ينتهى عهداها إلى غير رجعة إن شاء الله .

فلتقرأوا هذه الصفحات وليتحول ألكم من هول ما جاء بها إلى إصرار عاقل على ألا يتكرر ما حدث ثانية .

وأذكركم أن سيادة القانون لا تصعها القرارات بقدر ما يقرها وعى الشعب وحسن إدراكه وطرح الجنب جانباً ، والذي يسكت على الاستبداد لابد أن ينكوى بناره ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

فهذا الكتاب ليس للتسلية ، رغم مافيه من تسلية مرة ، ولكنه وثيقة ينبغي أن توضع نصب أعيننا دائما ، حتى يقف الناس فى الوقت المناسب ويحولوا بين الظالم وظلمه ، وكفى ما حدث! فقد دفع المجتمع ثمنه غالبا .

وكنى قد خشيت على هذه الأحداث أن تأخذ سبيلها إلى النسيان والضياغ فأردت أن أسجل جانباً منها كوثيقة أقدمها إلى محكمة التاريخ .

وقد ارتفعت السنة فى هذه الأيام تدين ماكان أيام الاستبداد ، ومن أصحاب هذه السنة من اكتوى بنار هذا الاستبداد ، وللهولاء نقول لهم : سلام عليكم بما صبرتم ، أما أولئك الذين كانوا يحرضون (الظلمة) ويحولون لهم مايفعلون على صفحات الصحف ويهللون أثناء سلخ الضحايا ويرسلون صفيرا عاليا والأسود تنهش لحم الشهداء ، ثم ذهب

العهد وبدأت حياة جديدة في مصر وبدءوا ينتقدون وينعون على الظلم والظالمين ، فلهؤلاء نقول لهم : ماأخبتكم وأنعسكم ! أين كنتم آنذاك ؟ ألم تكونوا سدة هذا الضلال ؟ ألم تكن الأقلام في أيديكم وأنتم للأسف كثر ؟ وجميعكم يعرف ماكان يدور في السجن الحربي وأبى زعبل والقلعة وكانت أجهزة الأمن هي التي تتولى تبليغكم بأنباء التعذيب لتغرس الخوف في نفوسكم .

آن الأوان أن نتذكر هذه الولايات لا لنستقم منها بل لتتأشأها في مستقبل الأيام ، وقد علمنا الإسلام أن نتسامح مع من آذونا ، وأن ندعو لهم بالهداية ، فنحن - معشر المسلمين - دعاة حضارة ، ونحن أولى من غيرنا بالتخلق بأخلاق الإسلام ، ولنحتسب كل ماحدث لنا عند الله سبحانه وتعالى ، حيث لا يضيع عنده شيء ، ويثيب المؤمن الصادق على كل ما يصيبه في الحياة ، حتى الشوكة يشاكها ، والأمر كما تعلمون ، لم يكن شوكا ، بل كان سياطا من عذاب وأسياخا من حديد أحمر .

وأرجو من الله عز وجل أن يجمعنا على الخير ليس في السجن ولكن في معترك الحياة الفسيح حيث العمل الدؤوب لرفع كلمة الإسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أحمد رائف

بيروت في

الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٩٤ هـ

الموافق ١١ مارس سنة ١٩٧٤ م

مقدمة الطبعة الثانية الشرعية

قدر لكتاب «البوابة السوداء» رواج كبير بين القراء في العالم العربي والإسلامي ، وقد طبع الكتاب أكثر من عشرين طبعة في دول مختلفة ، وقام على نشره وتوزيعه كثيرون ، عرفت بعضهم ولم أعرف البعض الآخر ، وفي الحالين لم أتقاض مليما واحدا من كل هذه الطبعات ، وكان عزائي أن رواج الكتاب معناه أن الناس يعرفون مايجرى في السجون ، وأن هذا يكون سببا في عدم تكرار ماحدث ، وأن يسود القانون ، وتهب رياح الحرية على هذه البلاد التي شاء لها سوء الطالع أن تظل أبدا ليس باليسير تحكمها عصبة ، ويتغشاها إله ، والكل يدين له بالطاعة والولاء ، والويل كل الويل لمن يخرج عن سلطانه أو يفكر في عصيانه .

«البوابة السوداء» تغلق بمصراعيها على شعوب بأكملها ، فتحول بينهم وبين رؤية الحقائق ، وتحجب عنهم حقهم في عيش كريم ، وكرم العيش أن يكون للإنسان رأى في حياته ، كيف يعيش ، ومن يحكمه ، وأن يسمع له إن أراد الحديث ، ويمنح الفرصة الكاملة ليدلى برأيه فيما يشاء من أشياء .

حرية في اختيار من يحكمه .

حرية في اختيار من يمثله .

حرية في التعبير عما يراه .

حرية في اختيار النظام الذي يرتضيه .

على الأقل بالرأى والكلمة !

«البوابة السوداء» قد أوصدت على الحاكم والمحكوم على حد سواء .

« ومن بينهما حجاب وعلى الأعراف رجال » .

صار الحاكم في هذه البلاد في حجاب منيع من أصحابه

وحاشيته وأجهزته ، فهو لا يرى إلا مايرون ، وهم الذين يصنعون قراره ويمدونه بالمعلومات ، ومن ثم فهو لا يعرف ما يدور إلا من خلال هؤلاء ، وهم بشر ليسوا كسائر البشر ، يصيبون ويخطئون ، ولكنهم مختلفون ، فهم يخطئون ، ولا يعرف الصواب طريقه إلى قلوبهم وعقولهم أبداً .

ومن لا يصدق فليفتح كتاب التاريخ .
وكتاب التاريخ الحديث في هذه البلاد مليء بالعبر والشواهد .

« البوابة السوداء » قد أغلقت على شعب مسكين لا يكاد يجد قوت يومه ، يريد أن يصل صوته إلى من يحكمه ، فلا تجيبه غير صرخات المعذبين ، وصفير السياط ، وأصوات الزنازين وهي تغلق في عنف وصرامة .

ارتفع الحجاب منيعا بين الحاكم والمحكوم ، لم يعد أحدهما يفهم الآخر ، لأنه لا يراه ولا يسمعه ، هذا في وادٍ وذاك في وادٍ آخر .

وصرنا بين « شعب » قد صنعتها الأجهزة وقدمته لحاكم لا يعرفه الشعب ولا يفهمه ، وبينهما مرارة وكراهية ، واحتقار صامت ، وتربص بالآخر ، كل من الاثنين يتمنى زوال الآخر ، وهي حالة فريدة من حالات التاريخ ، لعل قريبتها ومثيلتها تلك الأيام التي كانت تعيشها مصر أيام المماليك .

« ممالك » يعرف كل واحد منهم الآخر ، يتهادنون ويتقاتلون ، وما الشعب إلا أجراء يعملون بالضيعة لزيادة « الغلة » ، وهؤلاء الأجراء لا يعرفون شيئا عن سادتهم العظماء ، فيم يفكرون ، وماذا يفعلون ؟ ولكنهم يسوقونهم كالنعايج إن كان هناك قتال ، بين بعضهم البعض ، أو بينهم جميعا وبين آخرين .

وهذا الحجاب المانع بين السلطان وبين الإنسان في هذه البلاد قد تكوّن عبر سنين ، صنعته الملابسات ، وكرسته الحوادث ، حتى صار شيئاً لا يتكرر ، قد تمثل في أجهزة وتشكيلات لها عقلها الخاص ، ونظامها الذى تحميه ، ووجهة نظر غريبة لا يفهمها سواهم ، وهم يكرهون الحاكم والمحكوم على حد سواء .

« البوابة السوداء » قد أغلقت بمصراعيها على قلوب هؤلاء الناس وعقولهم ، حتى زادوا الفرة والكراهية بين الحاكم والمحكوم ، فلا عيش لهم إلا فى ظل هذه الكراهية المتبادلة ، ومن هنا يأتى دورهم وتبرز أهميتهم ، فهم يحكمون الشعب والحاكم فى وقت واحد .

الشعب يمقتهم ويكرههم ويخشاهم ويهابهم فى آن واحد ، ويتمنى لو نقلوا كلمة صادقة عنه إلى السلطان .

وهم لا يفعلون فى أغلب الأحيان ، إلا بالقدر الذى يتفق مع مصالحهم ويحقق أهدافهم ويجعلهم دائما فى عليلين .

والحاكم يسألهم ويصدقهم ولا يرى إلا ما يروونه ، وإلا انفرط العقد وضاع النظام ، وذهب كل واحد إلى بيته .

وفى مثل هذه البلاد لا طريق ينفذ منه الحاكم إلى المحكوم ، أو المحكوم إلى الحاكم إلا عبر هؤلاء الغلاظ الشداد ، والكل فى غفلة وفى حجاب عن الآخر ، وكم من أموال تنفق ، وأرواح تزهد ، لتظل هذه الهوة أبدية ، حتى يرتفع على الأعراف رجال .

كيف يمكن للحاكم أن يرى المحكوم ويسمع صوته ، ويعيش مشكلاته ، ويعرف آلامه وآماله ؟

كيف يستطيع الحاكم أن يطلع على المحكوم ، من وجهة نظر الأخير ؟

كيف يحس نبضه ويعرف ما يريد ؟
مشكلة عويصة أعيت الأذهان ، وكلت النفوس دون الوصول
لغايتها ، مع بساطتها وسهولتها وإمكانيتها ، ويتحقق حلم
السلام والرخاء والأمن .
ومن يدري ؟ لعل الكون يتغير إن التقى الحاكم
بالمحكوم .
ولكنه حجاب منيع من الصلف والقوة والقهر .

هناك من يريد أن يثبت وجوده وأهميته والحاجة إليه ، ولو
أدى هذا إلى دمار شعب بأكمله ، حاكمه ومحكوميه .
ولن يؤدي هذا إلا إلى الكوارث التي لا تبقى ولا تذر
« البوابة السوداء » إذا أغلقت تجعل الحاكم يبيع ويشترى في
الأمة دون وازع أو رقيب أو حسيب ، وتنصب منه زعيما
ملهما ، أفكاره وحى من السماء ، وكلامه قدسى منزل .
يبيع الأرض والجيش والناس في لحظة من نهار صيف قائف
شديد الحرارة ، ويضيع شرف الأمة على بحر من رمال لا
أول له ولا آخر ، ثم يأتي الحجاب الحاجز فيملأ الشاحنات
بالأنفار ، ويجعلونهم يطبلون ، ويزمرون ويرقصون لأن القائد
المنهزم بقي في مكانه حاكما . وأفهموا المساكين البلهاء
التعساء أنه لا عاصم لهم منه ، وأنه الأول والآخر ولا حاكم
غيره ، ولا يهتم من مات ! ، ولا يعنيننا ماضع ! ، ولكن النصر
الأعظم أن يبقى « الملهم » يجر الناس من خراب إلى
خراب ، ومن هوان إلى هوان ، حتى أدركتهم عناية الله
بالموت أو القتل .

« البوابة السوداء » إذا أغلقت تجعل الحاكم يستهين بأئمة
وقومه ، ولا يعنيه أن يسخر الناس منهم ، وأن يكون هو سببا
في ذلك ، فيقولون له : اجعل اتفاقك مع أعدائك رهنا بموافقة

قومك كما يفعلون ، فيقول لهم :
- أنا الدولة وأنا الشعب وأنا القانون وأنا كل شيء .
ولا يعمل حسابا لشعبه حتى فى الشكليات .

وتخرج صحافة الدنيا تقول إن الاتفاقية ينبغي أن يوافق
عليها مجلس اليهود حتى تصير سارية المفعول .
أما المسلمون فلا مجلس لهم !

« البوابة السوداء » إذا أغلقت تجعل الحاكم يترك كل
أصحاب الخبرة والرأى فى أمر الاقتصاد وهو أمر عظيم ،
ويجعل من لا يعرف يقرر ما لا يفهم فى أمور الحياة ، ويتوقف
كل شيء فى هذه البلاد ، ويسأل القاصى والدانى ، والكل
يشهد أن الوزير الجاهل يضر ضررا عظيما بمصالح الأمة ،
ورغم هذا يقيه الحاكم ، ربما لأنه لا يصل إليه إلا ما يسمح
به « الحجاب الحاجز » ، وربما لم يعرف بمدى الضرر الذى
أصاب البلاد والعباد .

ويأتى حكم المحكمة فيندد بالقائمين على أمر الاقتصاد
وينصح الدولة ألا تعين فى هذا المكان إلا من كانت له خبرة
أو حرص على مصالح البلاد ، وهو أمر لا يحتاج إلى نصيحة
أو توجيه من محكمة ، فالمفروض أن يتم ذلك بشكل
بدهى ، ورغم كل هذا ، فلا أحد يرى ولا أحد يسمع .
« الحجاب الحاجز » قد ملأ الآذان بالضين والعجيب .

« البوابة السوداء » جعلتنا لا نستطيع نقد الحاكم إلا إذا مات
أو قتل . والحاكم الحالى فى أى زمن هو العظيم القادر
الفاهم ، وعصره هو عصر النقاء والطهارة والخير والنماء ،

لا يخطيء ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم يموت فتتكشف الحجب ، ويبدو لنا أن كل ماعشناه كان وهما وخيالا ، وتظهر الخطايا ، وتطل الأخطاء والجرائم برؤوسها من بين ثنايا تاريخ لم توشك صفحته أن تنطوى . ويدور الزمن ، وتتكرر نفس الأحداث « والحجاب الحاجز » يعظم ويعظم حتى كأنه يحجب السماء عن الأرض .

من يستطيع أن يرفع هذا الحجاب ؟ الحاكم أم المحكوم ؟ أم الاثنان معا ؟ إن نظرة إلى تاريخنا القريب تؤكد لنا أن الحكومات المتعاقبة قد أوقفت نمو هذا الشعب وحوالته -- أو تكاد -- إلى شعب قاصر ، وعينت من نفسها وصيا عليه ، وصيا مستفيدا ، من مصلحته أن لا يبلغ الغلام رشده أبدا ، فلا ينبغي عليه أن يسمع أو يتكلم أو يفعل إلا مايملى عليه ، وأرادته الحكومات المتعاقبة فاقد الأهلية ضعيفا لا يقدر على شئ ، فيسهل عليهم حكمه والتسلط عليه ، والبيع والشراء دون مااعتراض أو احتجاج ، وأجبروه ألا ينقد نظاما إلا بعد موت صاحبه .

وهذا الشعب القاصر هو الذى أنشأهم وأوجدتهم ، وهو الذى صنع أمجادهم ولو أرادوا رد الجميل لما فعلوا معه هذا ، ولكانوا قدروا له دوره فى تكوينهم ، وإضافته النعمة عليهم .

وما الفرق بين الأوصياء القادرين والقصر المساكين ؟ الفرق هو القدرة والقوة والجبروت ولاشئ آخر . الاستكبار والتعالى فى الأرض ، ومكر السيئ .

إنها كلمة قالها حكيم :
- كُن فردا فى جماعة الأسود ، خير لك من أن تكون
رئيسا على قطع من النعاج .

ما الفائدة التى يجنيها المجتمع من شعب أبكم يعذب
ويضرب وتلفق له القضايا أو تفصل له على مقاسه ، وتكون
همة الناس أن تجرد نفسها من كل محتوى فكرى أو دينى ،
حتى تبدو باهتة مسطحة مأمونة الجانب ، لا يخشى منها ؟
ومثل هذا النوع لا يصلح لشيء وهو عبء على الحياة
نفسها .

الخائفون لا يعرفون الطريق الصحيح إلى النهضة والحضارة
والازدهار .

ورغم كل مانرى ومايمر بنا فإن الأصل لايجب أبدا ..
هناك نور ينبثق من خلف الظلمة .
والأيام لاتجرى القهقرى .
والتاريخ يصتوب إلى الأمام .

الدنيا تتغير ، ربما ببطء ولكنها تتغير إلى الأحسن بالتأكيد .
الذى ننشده من الناس أن تحاول بطريقة واعية أن تمهد لمكان
لها صحيح فى عالم قد لفظ الضعفاء .

أن يصبر الناس إصرارا عاقلا على حكم أنفسهم ، وألا يتهاونوا
فى أقل جزئية من هذا مهما هانت فى نظرهم ، فالطريق إلى
أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها طريق شاقة وطويلة ،
والضحايا كثير على جانبيه ، ولاينى الممالك كالضحايا كما
يقول أحمد شوقي .

ودور الحكومات كبير فى إصلاح الشعوب إن كان الخير
رائدها ، فهى الوحيدة القادرة على رفع « الحجاب الحاجز »
بجرة قلم كما يقولون ، ولكنهم لا يريدون . أما الأجهزة

فماذا نذكرها به غير الوطنية والمروءة والدين ، وكل معنى طيب ينبغي على الإنسان أن يتمسك به ويجاهد في سبيله ، ويستطيع كل إنسان أن يفهم واجبه على نحو شريف ومفيد لو أراد .

ونريد أن نقول هنا مقولة مشهورة ردها الناس :
العدل أساس الملك ، وبغيره لا يتحقق الانضباط والنظام .
وليس في التعذيب نظام .
وليس في جلد الناس نظام .

ولا توجد جريمة في هذا الكون تعادل تعذيب برىء والتمثيل به ، حتى ولو كان مسيئا .

وإن النظام الذى يهدد كرامة الإنسان لا يقوى أمام أى هجمة مهما كانت يسيرة . وإذا أردنا أن نصنع بلدا قويا وشعبا عظيما فلنعط كل واحد حقه في حياة كريمة ، ولنجعله يأمن من طرفة الليل المفزعة ، ومن زيارة الفجر التي تبعث الخوف والذعر في قلوب الجميع ، الرجال والنساء والأطفال ، وفي هزيمة يونيو ١٩٦٧ عظة وعبرة .

ولن يتحقق أمن في دولة مهما ظنت نفسها قوية وقادرة إلا بالقدر من الحرية الذى تسمح به لأفراد شعبها ، وفي حادث المنصة أكتوبر ١٩٨١ عظة وعبرة .

والأيام دول ، والناس لا يخلدون ، وكل حاكم أو رئيس له أيام في علم الغيب قد قضاها الله له ، وقضاها عليه أيضا . ثم يذهب ويأتى آخر على قدر ومشية من الله سبحانه وتعالى .

ولنا في الأيام القريبة والبعيدة عظة وعبرة .

فإن كانت أمور الحياة والموت تجري بقدر معلوم من الله سبحانه وتعالى ، فلماذا التعالى والاستكبار ومكر السييء ؟
فإن كانت الدنيا فانية ، والموت قادم لامحالة ، فالعمل الصالح أجدر وأجدى وأقرب للتقوى .

وبناء الأمم وتحقيق العدل وإقامة الشرع أعظم عند الله .
ولنتذكر من ذهب من الملوك والعظماء ، كأنهم لم يكونوا ،
ولم يترك منهم غير ذكرى عطرة أو كريهة .

إن كنا سنموت فلماذا لانعيش فى أمن وسلام ؟
هذا كلام للجميع .

الحاكم .

المحكوم .

ومن هم ليسوا بحكام ولا محكومين .

بين يديكم صفحة نكدة من صفحات التاريخ ، فلنقرأها
بإمعان لعل ذكرها يجعلها لاتكون مرة أخرى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أحمد رائف

القاهرة فى الاثنين ١٠ رجب ١٤٠٥ هـ
الموافق ١ إبريل ١٩٨٥ م

مقدمة الطبعة الثالثة الشرعية

ليس هناك ما يقال كثيرا كمقدمة لهذه الطبعة غير الشكر العميق للجمهور العريض الذى تقبل الكتاب قبولا حسنا . ونرجو من الله أن تكون قراءته خطوة سليمة صحيحة فى فهم النظم الاستبدادية وما يمكن أن تجره من كوارث ومصائب على الوطن . وعندما نفهم هذا نستطيع أن نمنع تكرار ما حدث فى إصرار عاقل واع . فلا ينبغي للشعوب أن تترك نفسها لمن يعيث بها ويضيع كرامتها وأموالها وتراثها . وعليها أن تقف لتحول دون هذا فى شجاعة وهو أمر خير لها من الذل والهوان وفقدان الكرامة والدخول فى البوابة السوداء .

والحمد لله كثيرا .

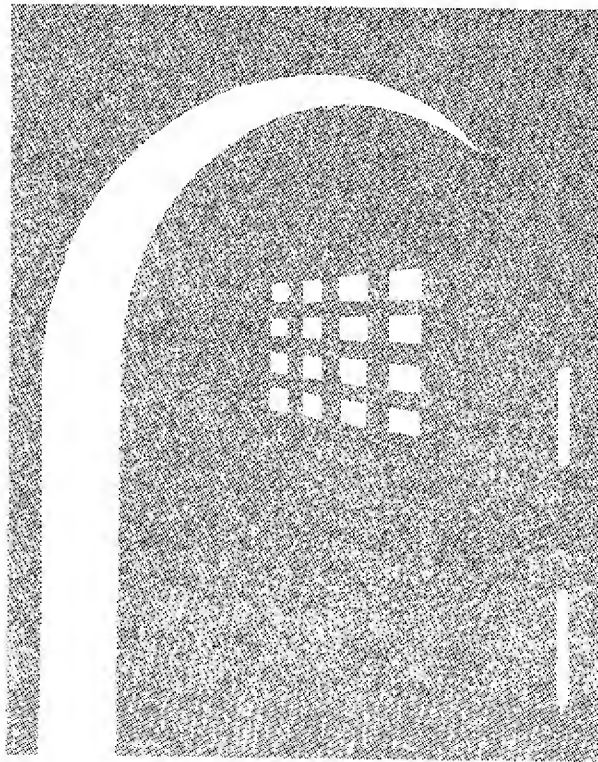
أحمد رائف

شعبان ١٤٠٦

ابريل ١٩٨٦

الفصل الأول

خمس دقائق ثم تعود



هذا مقالته لى الراءد محمد عبد الغفار ترك عندما قبض على من منزلى فى الساعات الأولى من نهار (٢٥) أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وأشهد أن الرجل كان مهذباً فى سلوكه معى حتى أودعنى معتقل القلعة السياسى مع إشراقة شمس ذلك اليوم العصيب .

كنت قد فرغت من قراءة مسرحية رجال وفيران للمؤلف الأمريكى (جون شتاينيك) ، وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحاً عندما دق جرس الباب ، وكان الطارق سمير الهضيبى ووجدته منتقع الوجه شارد النظر بادى القلق . وجلسنا ، وبدأ يذكر ما عنده من أخبار ، أخبرنى أن يحيى حسين صديقنا الذى يعمل طياراً فى شركة الطيران العربية قد اختفى - أثناء هبوط طائرته التى يقودها - بالخرطوم فى طريقها إلى أديس أبابا ، وانتابتنى دهشة شديدة لهذا الخبر ،

وتذكرت يحيى ، ذلك الصديق الذى تخرج من كلية الزراعة ثم التحق بمعهد الطيران المدنى وصار طياراً وزاد دخله وتزوج زميلة له من الكلية وأنجب بنتين ظريفتين إحداهما سمية على ما أذكر الآن بعد مرور كل تلك السنوات ، وكان يعيش حياة هادئة خالية من المنغصات ولم يكن يعانى من مشكلة ما فى حدود علمى .

وسألت سمير : وكيف علمت بهذا الخبر ؟
فقال : إنه كان يجلس مع محمد الغنام ، زوج شقيقته وضيء الطوبجى الذى أخبرهم بذلك .

وسألته :
ترى ماذا حدث ليحيى حسين ؟
وأجابنى والحيرة تملؤه :
لست أدرى .

وتعددت الأقوال

والاستنتاجات فى تلك الجلسة كما أخبرنى سمير ، وكان أغرب استنتاج أن المخابرات الأمريكية قامت بخطفه ، ولكن لماذا ؟ لأحد يدرى ، وقال البعض إنه نزل إلى كافيتريا المطار فى الخرطوم ليشرّب قدحا من القهوة فأصابته نوبة إغماء أو فقدان وقتى للذاكرة ، وأخذ الحديث جانبا آخر .

قال سمير : هناك أنباء مؤكدة تقول إن الحكومة تقبض على الإخوان المسلمين ، وصرت أفكر هل لهذا علاقة بخبر اختفاء يحيى حسين ؟

وجعلنا نضرب أحماسا فى أسداس ، نحلل ونفسر ونستنتج بلا طائل .

وأشرفت الساعة على الثالثة صباحا واستأذن صديقى فى الانصراف وانصرف بعد أن شغلنى بهذا الخبر المثير ، واستسلمت للنوم .

استيقظت بعد قليل على ضجة قريبة فى صالة المنزل التى وجدتھا مضاءة ، ووجدت ابن خالتي رمزى الذى أسكن معه يقف وعليه علامات الدهشة والاستغراب والقلق ، وتبينت طرقا شديدا على باب الشقة ، وهمس رمزى فى أذنى: المباحث العامة ، ايه رأيك ؟ ولم يكن هناك رأى غير فتح الباب ، وطار النوم من عيني وأنا أرى الضابط يندفع داخلا معه مجموعة من المخبرين قد شهروا مسدساتهم . واستفقت تماما ، المباحث العامة !! ماذا تريد ؟ هل لذلك علاقة بيحيى حسين المختفى ؟ وشعرت كأننى فى حلم مزعج ، ودخل خلف هؤلاء عم هاشم البواب ، الرجل الصعيدي الذى كان مثلنا لا يفهم ما يدور حوله .

وسأل رمزي الضابط مين حضرتك ؟

- الرائد محمد عبد الغفار ترك ، المباحث العامة .

- ممكن أن أرى بطاقتك ؟

ومن بين نظرات الغيظ والحنق التي كان يرمقنا بها المخبرون أخرج الرائد بطاقة مر بها أمام أعيننا ، ولكننا لم نقرأ فيها شيئاً ، فقد اختلط سوادها ببياضها في نظرنا ، وأمر الضابط أحد المخبرين بغلق الباب بعد صرف عم هاشم البواب الذي غادرنا ذاهلاً ، ونحيم السكون على النظرات القلقة من ناحية ، والمتحفزة من ناحية أخرى ، وكانت الأنفاس اللاهثة تسمع بوضوح .

وقطع السكون صوت الضابط يسأل :

أيكم فلان (وذكر اسمي) ؟

- أنا .

- وأين حجرتك ؟

وأشرت إليها صامتاً ، فقال وهو متجه إليها : ممكن

نفتش ؟ .

وحاول رمزي أن يمنعه ويطلب منه أمراً من النيابة بالتفتيش ، وابتسم الضابط ابتسامة مريرة ساخرة ولم يرد ، وأوقفت هذه المحاولة العقيمة .

دخلنا حجرتي لتفتيشها وانبث المخبرون في أرجاء المنزل ، وجعلت أسأل الضابط :

هل يمكن أن أعرف السبب لهذا كله ؟ عن أى شيء تبحثون ؟ وتردد في ذهني خاطر مجنون ، لعلهم يبحثون عن يحيى حسين ، ولكن لماذا يبحثون عنه ؟ وما علاقته بالمباحث العامة ؟ وهل لذلك كله علاقة بالقبض على الإخوان المسلمين ؟

وأفقت على إجابة الضابط ، وكان حقا مهذبا .
- نحن نريد أن نلقى نظرة على الكتب والأوراق التي في
حيازتك .

وشعرت بالغضب يملأ جوانحي ، الكتب هي أكثر الأشياء
قداسة في هذه الحياة وهي عندي في حرم آمن ، ولا يجب
أن تعبث بها الأيدي ، وابتلعت غضبي فلم أكن أملك لحظتها
سوى ذلك ، واستمر تقليب الكتب والعث بها أكثر من
ساعة ، وأخذوا وقتها مجموعة ثمينة من الكتب في مختلف
المعارف والآداب وحملها بعضهم إلى سيارتهم التي كانت
تنتظر أسفل البناية - وقد علمت بعد ذلك أنهم عندما ذهبوا
يقبضون على شقيقي الأصغر في بلدتنا أخذوا ثمانية صناديق
من كتيبي التي كنت أحتفظ بها هناك - وانتهى التفتيش وأنا
أحاول تخمين ما يكون بعد ذلك ، وتكلم الضابط .

- ممكن ترتدى ملابسك ؟

- ممكن ، ولكن ، لماذا ؟

وأجاب الضابط بلهجة ودية :

- أبدا ، سؤال بسيط في المباحث العامة ، خمس دقائق

ثم تعود .

فقلت في تردد :

- في مثل هذا الوقت المتأخر ؟

فأجاب الضابط ، ولكن في حزم هذه المرة :

- نعم ، في مثل هذا الوقت المتأخر .

وأدركت عقم المناقشة ، وارتديت ملابسى بهدوء
وخرجت معه في استسلام تام ، ولأأدرى لماذا - رغم أن
الوقت كان حارا جدا - حرصت على اختيار ملابس صوفية
ثقيلة .

ومع تباشير الفجر الرمادية ، كانت السيارة تقطع شوارع القاهرة النائمة بسرعة فائقة ، وجلس الضابط بجوار السائق ، أما أنا فجلست في المقعد الخلفى أفكر فى مصرى بين مجموعة المخبرين ، وقد أمسك اثنان منهما بذراعى كأنهما رقيب وعتيد ، وكان عقلى يمور بأسئلة كثيرة سرعان ما عرفت إجابتها قبل أن تطلع شمس ذلك النهار ، النهار الذى استقبلت فيه يوما من أكثر أيام حياتى عجباً وغرابة .

وصلنا إلى مبنى المباحث العامة وقد بدأ الصبح يتنفس تنفساً بطيئاً ضجراً ، وكان المبنى غارقاً فى الصمت ، موحشاً كأنه الموت ، هكذا بدا لى من الوهلة الأولى .

ونزلت من السيارة فى صحبة المخبرين ، وسرنا خلف الضابط ، كان يرتدى قميصاً وينظفوناه كغيره من الناس فى القاهرة ، ولعلنى قابلته يوماً فى طريقى بين مئات من الناس فى الشارع عند غدوى ورواحى ، ولكن ، هل لو تحققته يوماً كنت أتصور أن هذا الإنسان الوديع بيده كل هذه المقدرات ، نعم إنه يستطيع أن يأخذ أى إنسان من بيته فى أى ساعة يشاء إلى حيث لا يعلم أحد ، ويكفى أن يبرز بطاقة صغيرة فى يده ، بطاقة لا يتمكن أحد من قراءتها ، وسرعان ما تفتح أمامه كل الأبواب المغلقة كأنها خاتم سليمان ، أو هى مصباح علاء الدين ، وطبيعى أنه يستطيع أن يفعل أى شىء دون أن يبرز هذه البطاقة .

والحقيقة المرة أن الحال فى مصر ، آنذاك ، كان يكفل لأى ممثل للسلطة أن يفعل ما يشاء دون حساب أو عقاب أو حتى مساءلة .

ضابط بينه وبين أحد الناس خصومة يستطيع هذا الضابط بسهولة وبساطة كاملة أن يذهب فى صحبة بعض المخبرين إلى منزل المسكين ويقتادونه إلى حيث لا يعلم أحد ، وبعد هذا الاعتقال بشهور طويلة يمكن أن يكتب أمر الاعتقال ، وقد يسأل هذا المواطن ، وقد لا يسأل .

ومن أغرب ما كان يجرى فى تلك الأيام الثقيلة أن المواطن عندما يمثل أمام مكتب التحقيق ، كانوا يسألونه عن سبب اعتقاله ، وكان عليه أن يقدم سببا وجيها معقولا يبرر هذا الاعتقال وإلا فالويل له !
هكذا كان الأمر .

وإني أذكر فيما مر بى بعد ذلك ، عندما كنت فى ضيافة المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربى ، وكنت أجلس فى انتظار التحقيق معى خارج أحد المكاتب ، واستدعى أحد المواطنين وسئل عن سبب اعتقاله من الضابط المكلف ، وأجاب بأنه لا يعرف ، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان لا يعرف فعلا ، ولكن الضابط أمر فرقة العذاب بصب جام غضبها عليه ، واستمر الضرب بالسياط والكي بالنار لمدة تزيد على ثمان ساعات ويحاول ذلك الرجل أن يتبين الأمر عله يلهم بإجابة تنقذه من هذه النار التى فتحت عليه فجأة ، ثم استدعيت للتحقيق فى مكتب آخر ولم أدر ماذا كان من شأنه بعد ذلك .

ثم أذكر قصة منكود آخر ، كان يقطن بجوار أحد رجال السلطة فى بناية واحدة ، وحدث خلاف بين زوجة هذا وزوجة ذاك ، وانتظر الضابط الفرصة حتى واتته فى حملة اعتقالات عام (١٩٥٤) ، واعتقل الرجل ، والتقى به غريمه صدفة فى فناء السجن الحربى وكتب اسمه فى المكان الخالى

من ادعاء النيابة العسكرية وماهى إلا لحظات حتى وجد
صاحبنا نفسه فى شاحنة مع آخرين ، حيث ذهبوا بهم إلى
مبنى محكمة الشعب .

وزاد حظه سوءاً أن المحكمة قررت فى هذا اليوم أن
توزع الأحكام على المتهمين دون محاكمة ، واصطف
المتهمون صفين تحت وطأة الخوف والقهر ومر رقيب من
الجيش وكتب أسماء كل صف فى قائمة بيده ، وخرج أحد
المساعدين وأعلن فى صوت جهورى ، بطريقة عشوائية :

- كل من سجل اسمه فى هذا الصف قررت المحكمة
سجنه عشر سنوات مع الأشغال الشاقة ، أما هذا الصف فكل
واحد فيه قد عاقبته المحكمة بأكثر من هذا بخمس سنوات .
وماهى إلا ليلة أو تكاد حتى وجد صاحبنا نفسه فى الليمان
يكسر الحجارة تحت حرارة شمس (المقطم) الحامية .

ماعلينا ، نعود إلى مبنى المباحث العامة فى صباح (٢٥)
أغسطس ١٩٦٥ صعد الضابط ومن معه من المخبرين وأنا
بينهم الدرج خفافاً ، وبدأت خطواتى تثقل وبدأت أشعر
بالقلق ، فقد شعرت أنني أتحرك نحو مصير لأعلمه ، ولم
يكن هناك إنسان واحد فى ردهة المبنى الواسعة ، أهذه هى
المباحث العامة التى يبعث اسمها الخوف فى أكثر القلوب
شجاعة ؟ وصرت أصيح فى الضابط :

- إلى أين تأخذنى ؟ ما سبب كل هذا ؟
لم يرد على ، وتحول إلى إنسان آخر غير ذلك الذى
عرفته ، كان يكلمنى بلطف وعذوبة منذ قليل من الوقت ،
وتركنى بين حارسين ودلف إلى حجرة من الحجرات ،

وبقيت مدة واقفا يلفنى الصمت والقلق ، فقد تصورت أن هذا المبنى لا بد وأن يكون قد ملئ بحرس شديد وشهب خاطفة ، ولكن لم يكن هناك شيء من هذا أبدا ، إلا أن هذا الصمت لا بد أن يخفى شيئا ، شيئا لأدرى ما كنهه ، وكيف يكون أثره على عندما يهب من كل ناحية .

ونظرت إلى أحد الحارسين ، وكان ينظر إلى متفرسا وسألته .

- ولأدرى لماذا سأله هذا السؤال :
- أهنأك تعذيب ؟
 - أين ؟
 - فى المكان الذى تذهبون بى إليه .
 - ونظر إلى الحارس نظرة وانية ثم قال :
 - أهذه أول مرة تعتقل فيها ؟

استبان الأمر ، هو اعتقال اذن ؟ ولكن لماذا؟ وكان وقع كلمة اعتقال غريبا جدا على أذنى ، ووجدت نفسى أفكر بعمق فى الأمر ، هى ليست خمس دقائق كما قال الضابط اذن ، واستفقت على صوت الحارس :

- على كل حال لاتقلق .
- كيف ؟
- الضرب بسيط . ياإلهى !! كيف أخرج من هذه الورطة ؟ الضرب بسيط ؟ ، وماالفرق بين الضرب البسيط والضرب المركب ؟ كنت ساعتها لأرى فرقا بين الاثنين ، ولكنى علمت بعد ذلك أن الفرق بين الضرب البسيط وغير البسيط مثل الفرق بين السماء والأرض تماما دون أدنى مبالغة ، وسأبين لكم كيف كان ذلك .

أدخلوني الحجرة التي دلف إليها الضابط ، ودعاني إلى
الجلوس، فجلست برهة يسيرة ثم طلبت أن يسمح لي بأداء
فريضة الصبح فوافق ، وعندما سألته عن جهة القبلة اعتذر بأنه
لا يعرف مكانها ، وتذكرت أنني أستطيع الصلاة إلى أية
ناحية .

لأريد أن أطيل عليكم :

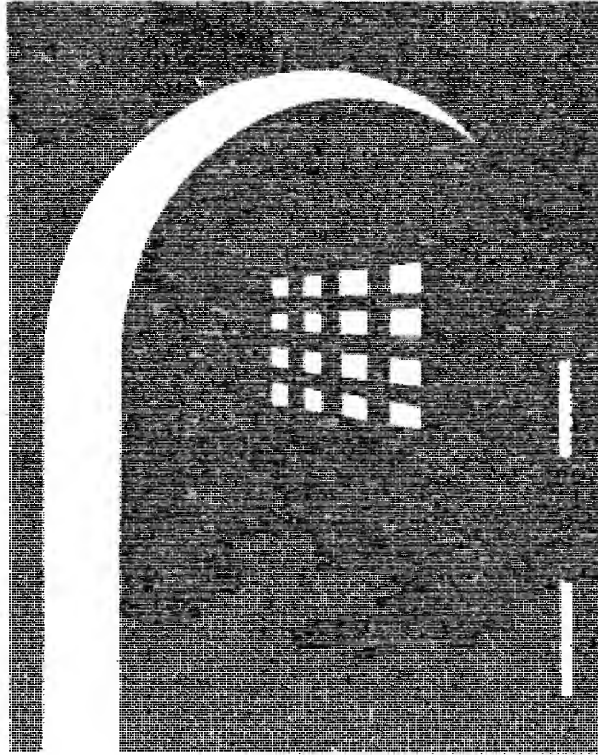
كتب محضرا بالمضبوطات التي ضبطت عندي من كتب
وخطابات وبعض الدراسات التي كنت قد كتبتها عن التاريخ
الإسلامي ، ثم ناولني القلم وطلب مني أن أوقع على
المحضر ، وفوجئت أنه لم يتضمن الكثير من الكتب التي
أخذت من عندي ، ولكنني لم أهتم ووقعت باسمي في هدوء
وبلا ضجيج ، وفي دقائق قليلة كانت السيارة تضرب بنا مرة
أخرى في شوارع القاهرة ، بعد أن أمر الضابط السائق أن
يصعد بنا إلى فوق ، هكذا قال له .

وظهرت مآذن القلعة وصارت تقترب عبر الطرق
المتعرجة ، وتقترب أكثر حتى بدت في ناظري كمارد شامخ
الرأس في السماء ، ولأأدرى لماذا أحسست ساعتها بروح
عمرو بن العاص ترف قريبا مني ، ذلك الرجل العظيم الذي
خلص مصر من ظلم الدولة الرومانية الشرقية ، وكان له
الفضل في اعتناقي الإسلام ، وشعرت ساعتها أيضا أن روح
الإسلام هي المهيمنة على القاهرة مهما مر بها من أحداث
وخطوب .

وسارت السيارة فى سراديب ملتوية متعرجة حتى وصلت إلى مكان لم أعد أرى فيه المارة الذين كانوا يروحون ويجيئون منذ قليل ، أصبحت السراديب تعج بالجنود الذين يحملون بنادقهم وقد غرسوا فيها السلاح الأبيض وارتدوا جميعا الخوذات كأنهم مقدمون على حرب ، وانتهينا إلى باب ، ونزلنا جميعا ، ولاحظت أن معاملة من معى قد صارت أكثر خشونة ، ودخلنا مكانا أشبه بمدخل قبو عتيق فى قصر قديم ، لقد كنا على باب معتقل القلعة السياسى ، ذلك المكان الذى شهدت فيه مذبحه أكثر وحشية من تلك التى فعلها محمد على فى زمن أغبر ، وأذكر أننى حملت على كتفى أحد قتلى تلك المذبحة فى يوم لاحق لوصولى كما سيأتى فيما بعد .

الفصل الثاني

حقوق أيها المواطن إذا اعتقلت



طرق الرائد محمد عبد الغفار ترك الباب الذى يقع في
مدخل القبو ، وفتح لنا شخص يرتدى ملابس مدنية متجههم
النظرة تبدو عليه أمارات الغباء والغلظة وأدى التحية للضابط
وسمح لنا بالدخول .

كان هذا المدخل عبارة عن حجرة ضيقة أشبه ماتكون
بالزنزانة وفي مواجهة الباب الذى دخلنا منه باب آخر ضيق
مغلق ، وتذكرت ساعتها حكمة تقول : (لاتدخلوا من الباب
الضيق) ولكن أنى لى بطاعة هذه الحكم والأمثال فى هذا
الوقت الضيق ؟ كان هناك مكتب صغير دهن بطلاء بنى اللون
وفى خشبة بدت أسماء كثيرة لم أتبينها قد حفرت فيه بسن
بارز ، وعليه دفتران أو ثلاثة شبيهة بدفاتر الأحوال الموجودة
عادة فى أقسام الشرطة ، وبجوار المكتب توجد خزانة
حديدية خضراء الطلاء ولها مقبض نحاسى لامع ، تصورت
ساعتها أنهم قد يفتحونها ويودعوننى فيها إلى يوم الدين ،
وياليتهم فعلوا ذلك ، وخلف المكتب كان سرير صغير ، قد
تمدد عليه عملاق يغط غطيظا عاليا قد برزت ساقاه من نهاية
السرير فى الفضاء ولم توقظه الضجة التى أحدثها دخولنا ،
وكان يبدو وكأنه قطعة من الحجرة الصماء باردة الملامح ،
وكان يجلس خلف المكتب ضابط آخر علق سترته على مقعد
قريب وتشير النجوم الثلاث الملتصقة فوق كتف سترته بأنه
نقيب وصار يرحب بالضابط الذى اصطحبنى إلى هناك وأخذا
يتحدثان وكأنه لوجود لى على الإطلاق .

وسرعان ما انصرف الرائد محمد عبد الغفار ومن معه
وصرت وجهها لوجه مع ذلك الضابط الجديد ، وماهى إلا
لحظة حتى دارت الأسئلة ، سريعة متلاحقة ، اسمك ؟ ،
سنك ؟ ، صناعتك ؟ ، عنوانك ؟ ، هل معك أمانات ؟ ،
اخلع الحزام كذلك النظارة الطبية . واعترضت . النظارة
بالنسبة لى ضرورية ، أو هكذا خيل إلى لحظتها .

وارتفع صوت كالصفير من فم العملاق الذى كان نائما
منذ قليل :

- من مصلحتك أن تسلم هذه النظارة .
- ماذا تعنى بهذا ؟
- أنت لاتدرى ماذا ينتظرك خلف هذا الباب .

ولفنى وجوم ثقيل ، وسلمته النظارة ويдай ترتعشان ، ماذا
ينتظرني ؟ ولماذا ؟

وتذكرت محمد على والمماليك ، محمد على بلحيته
الفضية ونظرته القاسية الساخرة ، وأمين بك شاهين وهو يقفز
بجواده من فوق أسوار القلعة ودوى الرصاص يصم أذنيه ،
وسرعان ما وجدت نفسى أدلف من الباب الضيق بعد أن
جردونى من كل مامعى وفى لحظة دخولى رأيت مشهدا
لاأستطيع أن أنساه ، وظنى أنه لن يخرج من مخيلتى حتى
آخر يوم من حياتى .

عندما دخلت من الباب وأغلقوه خلفى تحسست قدماى
درجتين حجريتين نزلتھما مترددا ثم أرسلت بصرى إلى المكان
المكشوف الذى بدأت الشمس فى غزوه كان ثمة على
الجانبين حجرات صغيرة مفتحة الأبواب فى أعلى كل واحدة
رقم ، وكان هناك طابور عجيب من البشر عرفت فيما بعد
أنھم كانوا فى طريقھم إلى دورة المياه بعد ليلة حافلة من ليالى
العذاب بمعقل القلعة .

كانوا بين الثلاثين والأربعين ، وكانوا جميعهم يثنون من
الألم ويدوا جميعهم مشوهين من التعذيب القاسى الذى أنزل
بھم فتجد اثنين يحملان واحدا منتفخ القدمين بالصديد
الاصفر اللامع الذى يبدو تحت الجلد الذى تمزق فى مواضع

كثيرة ، ولانستطيع أن تبين معالم وجهه من الإنتفاخات التي تحيط به ومن الألوان المختلفة التي أحدثتها الكدمات وكأنه قد ارتدى قناعا بشعا قميئا ليخيف به الناس . وترى آخر قد شج رأسه شجا منكرا فبدا لون الدم الأحمر بين سواد الشعر القاتم وكأن رأسه قد فلفت بسيف . ثم ترى آخر يزحف على بطنه لأنه لا يستطيع المشي من شدة ملاقى على قدميه ، وعلى غير قدميه ، وليس هناك من يحمله فالكمل مشغول بحمل من لا يستطيع الزحف - هذا هو الضرب البسيط الذي قال عنه الحارس إنه كل ما ينتظرنى فى رحلتى المجهولة إلى ذلك العالم العجيب .

ووقفت صامتا أزدرد ما أرى وقد جف ريقى من الدهشة وليس من الخوف فإننى أتذكر جيدا أن الخوف قد زایلنى تماما فى تلك اللحظة ، وحتى الآن لأستطيع أن أعلل كيف كان ذلك .

وفجأة رأيت أمامى شابا أسمر اللون فى الخامسة والثلاثين من عمره تقريبا له شارب دقيق رفيع كأنه سوط سودانى جديد لم يضرب به أحد بعد ، ولأأدرى من أين جاء فقد كنت مشغولا بمراقبة الطابور الذاهب إلى دورة المياه .

وتقدم منى هذا الرجل حتى وقف قبالتى وصار يحدق فى وجهى للحظات كأنما يريد أن يستشف ماوراء وجهى ، وصرت أحدق فيه أنا الآخر ثم سألتى :
- هل أنت فلان ؟
- نعم .

وفى حركة سريعة خاطفة صفعنى صفعه هائلة على وجهى طار على أثرها شرر من عيني وانهاالت الشتائم من فمه كأنها سيل منهمر، وكان يردد أبداً ماكان فى قاموس الشتائم ! إن جاز التعبير .

ووجدت نفسى بطريقة لا شعورية وقد أمسكت بتلابيه
ودفعته إلى الجدار فى حركة عصبية دون تفكير أو تقدير
وصرت أصرخ فى وجهه :

- كيف تضربنى بهذه الطريقة ؟ أنت مجنون بالتأكيد ،
هناك دستور وقانون ومجلس أمة ، والويل لك إن نسيت شيئا
من هذا .

لم أكن أتصور يومها أن شيئا من هذا يمكن أن يحدث
لى فى بلدى ، والشئ الغريب أن أحدا من المعتقلين لم
يلتفت إلى ، كأن الأمر لا يعينهم ، كل مشغول بما هو فيه .

وأسرع نحوى عدد من المخبرين ، واستفقت وتبينت لى
حقيقة هائلة ، لقد صرت فى مكان لا أستطيع فيه شيئا
ولأملك لنفسى ضرا ولا نفعا على الإطلاق ولم يكن هناك غير
التسليم لإرادة الله تفعل بى ما تشاء .

وهموا أن يبطشوا بى فمنعهم الضابط الذى صفعنى وكان
اسمه أحمد راسخ - كما علمت فيما بعد - وبعد أن تأكد
من هدوئى أخذنى من يدى عبر طريق طويلة بين الزنازين
القائمة كالأشباح الميتة فى مطلع ذلك الصباح الكئيب .

وفى نهاية الممر وجدت سلما خشبيا يفضى إلى الطابق
الثانى ، وصعدت السلم حلف الضابط صامتا متجسدا المشاعر
ميت الانفعال والحس من هول ذلك الحدث الهائل الذى
صدمت به فى ذلك اليوم .

وفى نهاية السلم وجدت صالة صغيرة تفصل بين عنبرين
كبيرين ، كان الواحد منهما حوالى خمسة وعشرين مترا طولا
وعشرة فى العرض ، وألقيت نظرة إلى اليسار ، فوجدت العنبر
خاليا من الأثاث عدا دكة خشبية وكرسيين أو ثلاثة ، ومكتب
صغير شبيه بذلك الموجود فى فصول المدرسة ، ولم يكن

هناك أحد ولكن كان جداره مخضباً بدماء قديمة ، ومن
النافذة التي غطاها الحديد عرفت أن سمك الحائط أكثر من
متر على وجه التأكيد .

وفي هذه اللحظة شممت رائحة الموت ، ثم التفت ناحية
اليمين ، كان هذا وأحمد راسخ يراقبني صامتاً ، على شفثيه
ابتسامة صفراء ، وعندما رآني أحول بصرى ناحية العنبر الواقع
في هذه الناحية أشار بيده إشارة ما إلى من في العنبر ، وإذا
بى أسمع ضجة كبيرة وأصواتاً مليئة بالفزع والألم ، نعم
صيححات بشر يجرون من وحش مفترس يطاردهم وبدأت
أشعر بالخوف .

ما هذا كله ؟ أناس يجرون في حركة دائرية على طول
العنبر وقد تجردوا من ملابسهم وظهروا كيوم ولدتهم
أمهاتهم ، وقد وضعت القيود الحديدية في أيديهم ووقف في
كل ركن من أركان العنبر ثلاثة مخبرين أمسك كل واحد
بهرافة تزيد عن طول الرجل ، وكانوا يهوون بهذه الهرافات
على أولئك المنكودين .

والتفت إلى أحمد راسخ مشدوها مذهولاً من هول
ما رأيت ، ولكنه قال لى من خلال ابتسامة صفراء :
- هل تعرف أحداً من هؤلاء ؟
- كلا
- دقق النظر جيداً .

وأرسلت نظري من جديد، وكدت أسقط على الأرض من
المفاجأة ، لقد كان هؤلاء المنكودون ثلاثة من أصدقائي، ولم
أتنبههم للوهلة الأولى فقد كانوا عراة تماماً .

وفي هذه اللحظة جاءنى صوت أحمد راسخ كالفحيح :
- هل رأيت الدستور ومجلس الأمة ، وكيف أن هذه
الأشياء لا معنى لها أبداً ؟ وابتلعت ريقى ولم أجد جواباً فقد

كان الأمر أعظم من أن يقال فيه شيء ، وعاد إلى الكلام ثانية
وكان صوته هذه المرة مجسما يأتي من كل ناحية .

- هيه ناوى تتكلم ؟

ووجدتني أرد عليه بلا وعى :

- أتكلم عن أى شيء ؟

- يبدو أنك متعب .

- مطلقا ، واسألنى وأنا أجيبك ، لأظن أن هناك

مأخفيه .

- سوف نرى أيها التعس .

ولم أكن أدري ساعتها حقيقة هذا الأمر ، ما القصة ؟ عن
أى شيء سأتكلم ؟ ولكنى شعرت أنني إن لم أتكلم فسوف
يقتلوننى من الضرب ولم أكن قد ذقت الضرب بعد ، حتى
هذه اللحظة اللهم إلا تلك الصفعة المجنونة التى أخذتها عند
دخولى ، وقد علمت فيما بعد أن هذه الصفعة كانت أهون
مايمكن أن يناله الإنسان فى تلك الأيام .

وقادنى أحمد راسخ إلى العنبر ناحية الشمال وجلس على
الدكة الخشبية وقال :

- هيا تكلم .

ومرة ثانية ازدردت ريقى وأنا فى حالة بالغة من السوء ،
وصرت أحرق فى وجهه دون أن أتكلم أو أنطق بكلمة
واحدة ، فلم أكن أعرف فى أى موضوع أتكلم .

وسألته فى صوت خافت :

- هل يمكن أن تسألنى وسوف أقوم بإجابتك على كل

سؤال ؟

وضحك ضحكة وحشية خشنة ثم صرخ بعدها يستدعى
الزبانية ، وسرعان ماكان بيننا أربعة منهم يتطاير الشرر من
أعينهم وفى أيديهم الهراوات التى وصفتها ، وكانوا كأنهم
يفهمون مايراد منهم .

وفى أقل من نصف دقيقة كنت مجردا من ملابسى وأدور
فى ساقية العذاب ، والهراوات تأتينى من كل مكان ، وكأن
سقف الحجرة صار يمطر عصيا وأسواطا من نار ، والضرب
يوجعنى ويسبب لى ألما لا أستطيع وصفه وأشعر كأن أشياء
من جسدى ونفسى تتمزق وتحول إلى هباء يضيع بين دخان
العذاب الثقيل الذى يشمل العنبر .

ويبدو أن الضرب قد استمر ساعة كاملة أو يزيد ولو أننى
ظننت أنه استمر دهرًا طويلًا ، وسقطت على الأرض إعياء
وتعبًا ، وتمددت دون حراك ، ولم يتركنى المخبرون ولكنهم
التفوا حولى يضربون بعصيتهم وهراواتهم ، تماما مثل الذبيحة
التي ينفخونها ثم يضربونها بالعصى ليتسنى لهم سلخها بعد
ذلك دون مشقة .

وكان السلخ فى حالتنا تلك هو التحقيق ، وماهى إلا
لحظات أو تكاد حتى ظهر أحمد بك ، ومن بين قدميه
المفتوحين كنت أرى أدوات العذاب وهى تجر على الأرض
فترسل صوتا يبعث القشعريرة فى أكثر القلوب شجاعة ، وفى
تشف ووحشية سألنى :

- هيه ناوى تتكلم ؟
ولم ينتظر أن أرد عليه بل أردف قائلا :
- لقد أذن لنا سيادة المشير بقتل خمسين كلبا منكم .

وتخلل الضباب عقلى ، ولكنى شعرت بخدر لذيذ يسرى
فى جسدى ، لقد اقترب الفرج وماهى إلا هنيهة حتى يأمر
هذا المخلوق بقتلى وأطأ بعدها بقدمى فى ملكوت الله
الفسيح .

وانتابتني لمحات من التفكير، أتراني لو مت هل أذهب شهيدا ؟ وانتهيت من أفكارى الملائكية على عذاب الأرض يصب صبا ، وعاد الضرب من جديد ، ولكنه أكثر وحشية وضراوة هذه المرة ، ومن بين الضرب المبرح صرت أقول له :

- ألا تبين لى عن أى شىء تريدنى أن أتكلم ؟

وقال الكلمة التى أنارت لى الطريق ، وسرعان ما لفتنى الظلام من جديد ، لقد نطق بكلمة واحدة ، كلمة حادة كأنها السيف :

- الإخوان ؟؟؟

وفى دهشة قلت له :

- ماذا عن الإخوان ؟

- التنظيمات ، المؤامرة ، الأسلحة ، المدربون ، تكلم عن

كل شىء ؟

وعاد الضرب من جديد قويا أخاذا عبقريا .

لم أدر كم مر بى من الوقت ، فقد أخذتني غاشية أفقت منها وكأئننى فى حلم ، كان النهار قد انتصف ، وغادر أحمد بك العنبر وجاء ضباط آخرون ، وأحضر الجند مكاتب شبيهة بتلك التى كانت فى فصول المدارس ، وانتحى كل ضابط ركنا من أركان العنبر وسبق أمثالى إلى كل واحد من الضباط الجالسين ، أما أنا فقد أهملونى إلى حين .

ومن خلال التحقيق فهمت القصة فى ذلك النهار

العصيب .

الضباط يؤكدون للمتهمين أن هناك مؤامرة دبرتها جماعة من الإخوان المسلمين ، والمتهمون فى حالة ذهول حقيقى . فرغم أن جميعهم تقريرا من أعضاء الجماعة إلا أنهم لم يكونوا

على علم بما يؤكد الضباط من أن هذه المؤامرة قد دبرت ضد الحكومة التي يرأسها جمال عبد الناصر ، وأنه قد ضبطتها المباحث الجنائية العسكرية تحت إشراف شمس بدران ، والمباحث العامة لاتدرى شيئا عنها ، والقضية الأساسية تحت تصرف المباحث الجنائية العسكرية بالسجن الحربى ، كانوا يجرون التحقيق الرئيسى ، وهناك لايسمحون بتسرب شىء من المعلومات إلى المباحث العامة التى كانت تقبض على كل من هب ودب حتى تستطيع أن تكون فكرة واضحة عن الموضوع على الأقل .

وكانت المباحث الجنائية العسكرية هى أعلى سلطة فى مصر آنذاك فقرارها قضاء وقانون بل كان هناك استئناف لحكم القضاء ونقض فى أحكامه أما هذه فلا ، وكان يرأسها العميد سعد زغلول عبد الكريم الذى يتبع مباشرة لرئاسة شمس بدران الرهيب .

وشمس بدران هذا هو مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر الذى كان مثقلا بأعباء كثيرة جعلته يوكل عنه مدير مكتبه فى عمل كل مايراه فى صالح مصر ولم يكن يراجعه أو يسأله بل أطلق يده يفعل بالعباد مايشاء .

ويدخل الإنسان إلى مكان التحقيق ويضرب حتى يفقد الوعي ، ولايتكلم لأنه لا يعرف شيئا ، ثم يؤتى بأخر ، وهكذا..

وكانوا يضربون الناس ضربا شديدا حتى يعترفوا أنهم جناة ، لايتكفى المحقق منه بالاعتراف بل عليه أن يقنع المحقق بجرمه ، وعليه أيضا أن يسد الثغرات التى قد تتخلل كذبه على نفسه .

ومن الحكايات التي سمعتها ورأيتهما تروى أمامي في ذلك
اليوم الدامي ، قصة (جوال الأرز) :

مصلح زريق عامل يعمل في شركة تقوم على رصف
الطرق في أنحاء البلاد ، وفي غضون عام (١٩٦٠) كانت
شركته تعمل على رصف طريق بجوار مدينة دمياط حيث
تشتهر هذه المنطقة بالأرز الجيد ، وبعد أن انتهى من العمل
وأن أوان عودته إلى القاهرة اقترح على زميله أحمد السيد
إسماعيل أن يمرؤا على بلدة قرية اسمها (كفر البطيخ)
حيث يوجد بها تاجر أرز وليس بأية صفة أخرى ، فقد كان
عبد الفتاح اسماعيل من زعماء الجيل الثالث لجماعة الإخوان
المسلمين ، وهي حقيقة غابت عن مصلح المسكين .

قصد مصلح وأحمد السيد اسماعيل قرية كفر البطيخ
ليحصلوا على جوال من أرز دمياط الفاخر ، ولو كانا يعلمان
ماسيكون من جراء هذا لحرما أكل الأرز عليهما وعلى
ذريتهما من بعدهما إلى الأبد .

نزلا القرية وسألا عن عبد الفتاح إسماعيل ، ويشاء حظهما
أو قدرهما أن يلتقيا بمخير المباحث العامة الموجود في
الناحية ، وماكادا يسألانه حتى استنطقهما وسجل أسماءهما
في دفتره من واقع بطاقة كل منهما ، ثم نصحهما بالذهاب
بعد أن عرف طلبهما وأوصاهما ألا يعودا إلى القرية أبدا ،

وحرر المخبر تقريراً بالحادث رفعه إلى المباحث العامة ، ولم
يلتفت إلى التقرير نظرا لتفاهة الوقائع ، ولكنه حفظ في النهاية
في ملف عبد الفتاح اسماعيل ، ورجع مصلح وأحمد السيد
إسماعيل ونسيا الموضوع تماما .

ومرت السنون وجاء عام (١٩٦٥) وقبض على عبد
الفتاح إسماعيل وأودع السجن الحربى رهن التحقيق ، هناك

عند المباحث الجنائية العسكرية وعكفت المباحث العامة -
التي لم تكن تدرى شيئاً عن الأمر - على دراسة المسألة
واستخرجت كل الأسماء التي ورد ذكرها ضمن التقارير
بملف عبد الفتاح إسماعيل ، وألقت القبض على أصحابها .
وجرى معهم التحقيق .

وجاء اليوم الذي لم يخطر ببال مصلح وصاحبه أبدا .
وحاولوا أن يعرفوا من مصلح سر السؤال عن عبد الفتاح
اسماعيل منذ سنوات ، وكانت الإجابة سهلة وبسيطة ، لقد
ذهبا من أجل أرز (دمياط) الذي اشتهر بالبقاع ، ولم تزد
هذه الإجابة إلا عذابا .

وصار العذاب يصب فوق رأسه حمما حمما ، تارة
بالهراوات وأخرى بالكراييج النوبي منها والسوداني ، والرجل
يصرخ بكلمات مفهومة وأخرى غريبة لم ترد في لغة مما
يعرفها البشر ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

وعندما يكل الزبانية من التعذيب يرفع مصلح صوته بصراخ
مفهوم .
- والله العظيم كنا بنسأل عن عبد الفتاح من أجل الأرز ،
جوال الأرز ياسعادة البك .
ويرد عليه الضابط :

- جوال الأرز ولا جوال سلاح يا ابن الكلب ؟
ووجد مصلح فرصته لينجو من العذاب ، فصرخ بكل قوته
وكأنما قد أصابه مس من الجنون :
- ماذا قلت ؟ جوال سلاح ؟ نعم . نعم . هذا ما كنا نرمى
إليه برحلتنا إلى كفر البطيخ ، كان لابد للحقيقة أن تظهر ،
لقد ذهبنا من أجل جوال سلاح ، نعم . نعم لقد ذهبنا من
أجل السلاح .

وصار يضحك في جنون ، وتوقف العذاب وتحول مجرى التحقيق وأخذ منحى آخر ، مضحكا ومبكيا في نفس الوقت .

كانت المأساة ملتصقة بالملهاة حتى لا تكاد تبين هذه من تلك ، وفك قيد مصلح الحديدى ورفع عنه العذاب ، واعترف بأنه نقل جوالا من السلاح خرج به صاحبه من قرية كفر البطيخ .

وانبرى أحمد السيد اسماعيل يؤكد رواية مصلح في حماسة وجنون ، كان هذا أو الموت لكليهما . وانقلبت وزارة الداخلية وتحركت المباحث العامة ، حضر إلى معتقل القلعة سيادة العميد أحمد صالح داود وكان ركنا من أركان جهاز المباحث العامة ، لقد جاء بنفسه ليشرف على التحقيق ، وكان لابد لمصلح أن يظهر السلاح الذى اعترف بنقله من كفر البطيخ كذبا ، وفكر الرجل بسرعة ، القضية خاصة بالإخوان المسلمين ، وهذه الأسلحة ينبغى أن تكون فى حوزتهم ، ولم يجد فى ذهنه سوى اثنين من الإخوان يقيمون فى ناحيته ، وكانا قد خرجا من السجن مؤخرا فى عام (١٩٦٤) وهما أحمد شعلان وزكريا المشتولى ثم عززهما بثالث بدر القصبي ، عليهم رحمة الله جميعا .

وادعى مصلح أن الأسلحة قد أعطيت للثلاثة أو لبعضهم - لأذكر بالضبط - وجيء بالثلاثة من معتقل الفيوم حيث كانوا يقيمون ، ودارت ساقية العذاب عنيفة وأخاذا وعبقرية كما وصفت مرة ، وقتل الثلاثة .

وقد مات أحدهم وأنا أحمله وهو زكريا المشتولى رحمه الله ، فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن هذه القصة وضربوا جميعا حتى الموت .

وفى العادة يكتبون أمام اسم الذى يموت من التعذيب كلمة ، هارب ، ثم يهاجمون منزله ويمزقون الأمتعة ويخربون الدار ويضربون كل من فيها وقد يأخذون بعض الذكور والإناث إلى المعتقل بحجة أنهم ساعدوا على هرب ذلك الذى ذهب إلى ربه مستريحاً من وعناء الحياة .

أما مصلح زريق فقد أرسل وصاحبه إلى السجن الحربى وافرجت عنهما المباحث الجنائية العسكرية صاحبة الحول والطول بعد وصولهما بأيام قليلة .

ولأنسى تلك اللحظة التى اقتربت فيها من مصلح عندما ذهب الضابط لتناول الغداء وقلت له :
- الكلام الذى تفوهت به منذ قليل (وكان ذلك عقب اعترافه) واضح أنه غير صحيح ولكنه ممكن أن يؤدي بك إلى الليمان .

فنظر إلى بشرود وقال :

- ماذا تعنى ؟

فقلت له متعجبا :

- كلامك هذا يعنى خمسة وعشرين عاما فى الأشغال الشاقة .

فنظر إلى نظرة جادة مليئة بالخوف وقال :

- يعنى .. ماذا تريد منى بالضبط ؟

فقلت له :

- مادام هذا الكلام لم يحدث فلا بد أن ترجع عنه .

وتحولت نظرة الخوف فى وجهه إلى نظرة احتقار وازدراء

ثم قال لى :

- يبدو أنك أبله .

- أنا ؟

- نعم ، والله لو كان نتيجة اعترافى أن أسجن مائتين

وخمسين سنة ماغيرت حرفا واحدا منه .
فقلت له :

- طيب هل تسمح لى فأفهم الضابط حقيقة القصة ؟

فبكى بكاء مرا وتوسل إلى ألا أفعل ، وماكنت لأفعل
فقد شغلتنى أحداث وأحداث .

وقطع الحديث فقد عاد الضباط بعد أن امتلأت بطونهم
بالطعام والشراب وردت إليهم الحيوية التى أضاعها التعذيب .
ومن الأشياء التى تستحق الذكر فى تلك الأيام أن أحمد
صالح داود قد جاء للاجتماع بالضباط للكلام معهم فى
الشؤون الخاصة بالتحقيق ومجراه ، وبعد أن تم الاجتماع ،
وكان يقف مع بعضهم فى فناء المعتقل على بعد أمتار قليلة
من المكان الذى كنت أعذب فيه وسمعتة يقول :

- يا جماعة ، ضعوا نصب أعينكم أن هناك تنظيما يضم
كل أفراد جماعة الإخوان .

- ولكن ياسعادة البك كل النتائج التى حصلنا عليها لاتفيد
ذلك .

وفى حدة قال سعادة البك أحمد صالح :

- الرئيس قال إن فيه تنظيم ، يبقى فيه تنظيم ، فاهمون ؟

يجب أن يسير التحقيق على هذا النحو ، أين الهمه ؟ أنا
أرى بعض المعتقلين يمشون على أرجلهم .

وعادت طاحونة العذاب المميتة والتى كانت قد توقفت
للاجتماع ودارت دورة أكثر شراسة وقسوة حتى لايقدر أحد
على المشى ، كانوا يريدون قتل الجميع ، كأن الزمن قد
توقف فى تلك الأيام البغيضة .

وتركت في عنبر التحقيق ثلاثة أيام ، أعذب حيناً ،
وينسوننى حيناً آخر ، وأنا أجلس أثناء نسيانهم لى على البلاط
عاريا من الملابس .

وكان يؤتى بالرجل السمين العظيم فلا يزن عندهم جناح
بعوضة ، فيجردونه من الملابس وينزلون عليه ضربا بالشوم
(الهراوات) ضربا موجعا قاتلا ، ينزل فى جسده حيث شاء
له أن ينزل ، ومايزالون به حتى يغمى عليه ، ويفقد قواه وكل
مافى نفسه من طاقة ، ثم يقف بعد ذلك عاريا مشوها من
الضرب أمام الضباط لينلقى سيلا من الأسئلة والاستفسارات
بين ركل وصفع المخبرين وسبهم وشتهم ، ولم يكن
المحققون يهمهم فى قليل أو كثير ما فى كلام المتهم ، الذى
لايعرف أنه كان مشتركا فى مؤامرة لقلب نظام الحكم وحال
ضبطه دون التنفيذ .

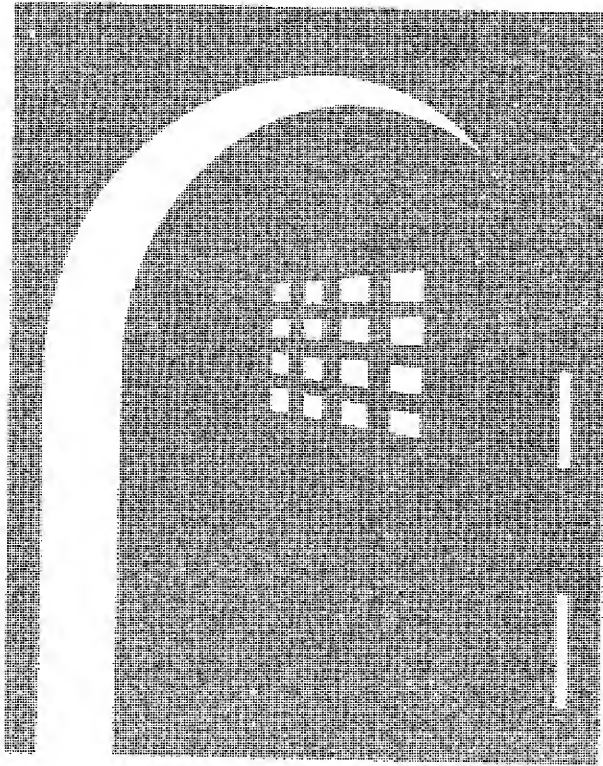
وكان وجه المحقق يتهلل بالبشر والحبور حينما يبدأ
المتهم بالهلوسة ، وتبدو علامات الانتصار على وجه الضابط
حينما يبدأ المتهم فى قص الأكاذيب حول نفسه ونشاطه
المزعوم حتى ينجو من العذاب .

قال لى أحد الضباط آنذاك :
- الشعب كله متهم ومتآمر حتى تثبت براءته .

وكانت هذه الحيلة تفلح إلى حين ، فما إن يبدأ الإنسان
فى الكذب واختراع المؤامرات الوهمية ، حتى يرفع عنه
سوط العذاب ، ليعود أكثر ضراوة ووحشية .
هكذا كانت الأمور تسير فى معتقل القلعة الرهيب فى
الأيام الأخيرة من شهر أغسطس من عام (١٩٦٥) .

الفصل الثالث

أيام الاعتقال الأولى



استطعت أن أفهم أخيرا سبب اعتقالى .

كانوا يريدون القبض على (يحيى حسين) ذاك الذى ورد ذكره فى الفصل الأول ، وهرب يحيى عندما أحس بذلك وكان لابد من القبض على أصدقائه وزملائه فى الدراسة والعمل ، وماهى إلا ساعات قلائل حتى تم ذلك ، قبض على كل من كانت لهم علاقة مع يحيى ، دفعته فى الكلية ، دفعته فى معهد الطيران ، أصدقاءه الذين لم يكونوا فى كلية الزراعة ولم يكونوا فى معهد الطيران .

و كنت من الصنف الأخير .

ومن بين هذا العدد الذى يقارب المائة شخص كان يجرى التحقيق لمعرفة الذين كانوا على علاقة تنظيمية معه . وكان الأمر لا يخلو من صور طريفة .

عبد الرؤوف عبد الناصر ، من أولاد الذوات كان أبوه عضو مجلس شيوخ سابق ، قضى الفترة بين (١٩٥٢ - ١٩٥٩) فى سويسرا يدرس الصيدلة . وبعد أن حصل على شهادة البكالوريوس فى الكيمياء والصيدلة حضر إلى مصر ، والتحق بمعهد الطيران ، وصار طيارا وافتتح (صيدلية) فى شارع القصر العينى ، وصار وقته موزعا بين الصيدلية وبين السفر إلى الخارج قائدا لإحدى الطائرات ، وأسرع إليه المال يغترف منه اغترافا . تارة من الصيدلة ، وتارة من التجارة الخفية ، التى يقوم بها عبر رحلاته إلى خارج البلاد .

ولم تكن له علاقة بالدين ، وكذلك كان حاله مع السياسة ، فلم يكن يفهم فيها حرفا واحدا ، ولم يكن يهمه أن يسيطر هذا أو ذاك ، ولا يهمه من يحكم . وكان يعيش حياة هائلة مليئة بالمتع واللذات واللطائف .

ولم يكن يعييه شيء في نظر الواقع الماثل سوى أنه كان ضمن أفراد دفعة يحيى حسين من معهد الطيران .

وجاء إلى التحقيق وقبض عليه عقب قدومه من لندن ، وفي المطار أخبروه أنهم يريدونه لمدة خمس دقائق وقد كان .

وأخذ بحقيقته إلى المعتقل ، وضرب حتى أوشك على الموت .

ومن طريف ما يرويه لى بعد ذلك أنه أثناء الضرب ورأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى شاهد عددا من زملائه الطيران ، محمد الغنام ، خالد سيف ، ضياء الطوبجى فظن أن الحكومة تريد تأديب العاملين بشركة مصر للطيران لفسادهم وسوء أخلاقهم .

ومن الطريف أيضا أنهم حينما قاموا بتفتيش حقيقته وجدوا فيها زجاجتين من الويسكى الفاخر وكان فى ذلك الدليل الناصع على براءته من تهمة الإسلام ، ولكن لا فائدة .

خالد سيف زميل يحيى حسين بكلية الزراعة ثم فى شركة الطيران ، لم يحتمل وطأة التحقيق فاعترف أنه عضو فى جماعة الإخوان التى لم يسمع عنها إلا لماما ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اعترف عندما سألوه عن الأسرة (١) التى فيها أجاب بأن هناك أسرا خارجية وأخرى داخلية وأنه كان فى الأسر الخارجية ، لأنه يسافر إلى الخارج كثيرا .

وعندما سئل عن الاشتراكات المالية أسقط فى يده وظن أنه سيكشف ، وسيعلمون أنه يكذب ، ولكن سرعان ماتصرف ، وقال إنه كان أمام مسجد عمر مكرم بميدان التحرير يوما ما فأتاه شخص لا يعرف اسمه وسأله :

(١) الأسرة : مجموعة تنظيمية .

- هل أنت أخ ؟

فأجاب خالد :

- نعم !

وعند ذلك طلب منه الرجل المزعوم ثلاثين قرشا ، وفى مرة أخرى طلب منه خمسين قرشا .

هكذا كانت قصة خالد سيف فى التحقيق ، ساذجة ومضحكة .

وخرج من أصدقاء يحيى حسين وأفرج عنهم بعض من اتسم لهم الحظ بعد حوالى سنة شهور ، وخرج البعض الآخر بعد عام ، وعامين ، ومنهم من ظل فى المعتقل حتى لحظة كتابة هذا الكلام .^(٢)

أما بالنسبة ليحيى حسين فقد ورد فى أمر الإحالة إلى محكمة أمن الدولة العليا ، الجنائية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا ما يلى :

بالنسبة للمتهم العاشر يحيى حسين :

١ - قرر المتهم السابع محمد ضياء الدين عباس الطوبجى بالتحقيقات أن المتهم كان عضوا معه فى التنظيم السرى الجديد لجماعة الإخوان المسلمين فى أسرة كانت تجتمع دوريا فى منزله ، كما يدفع (٥ ٪) من دخله اشتراكا شهريا ، وقد تلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى الأسلحة النارية بمنزله كما تسلم خنجرا وأضاف أنه تسلم من على ع شماوى وزينب الغزالى بعض الخطابات التنظيمية لإرسالها أثناء وجوده بالخارج إلى أشخاص معينين من جماعة الإخوان المسلمين المقيمين بجدة والخرطوم .

(٢) مساء الأربعاء ٥ نوفمبر سنة ١٩٦٩ معتقل طره السياسى .

كما كلفه على عشاوى عام (١٩٦٥) بشراء كاتم صوت من الخارج إذا تيسر له ذلك ، واستطرد إلى أن المتهم اشترك معه فى خلال شهر يونيو سنة (١٩٦٥) فى معاينة محطة توليد الكهرباء بمطار القاهرة الدولى تمهيدا لنسفها وتدميرها وكان هو الذى سيقوم بوضع قنابل زمنية بتلك المحطات ، وقد رافق أحد المهندسين من أعضاء التنظيم وأجريا معاينة ثانية ، وعائنا مولدات الكهرباء والاتصالات التليفونية وبرج المراقبة وجهاز توجيه الطائرات ، وأضاف أيضا أن على عشاوى كلف المتهم المذكور خلال شهر يوليو عام (١٩٦٥) بالذهاب إلى محطة سكة الحديد بالقاهرة لمراقبة ركب السيد رئيس الجمهورية عند سفره وتقديم تقرير بنتيجة مراقبته وقد طلب منه فى شهر أغسطس عام (١٩٦٥) الاتصال بفاروق المنشاوى لتلقى التعليمات منه حال القبض عليه وقد حاول الاتصال بالأخير بعد القبض على الأول ولما لم يتسن له ذلك أخبره أنه سيهرب إلى الخرطوم ولم يلتق به بعد ذلك .

٢ - قرر المتهم الثانى عشر فاروق عباس سيد أحمد أن المتهم أخبره عام (١٩٦٥) أنه عضو فى تنظيم سرى لجماعة الإخوان المسلمين يهدف إلى تغيير الحكم القائم بالقوة ويتلقى تدريبات على المصارعة اليابانية وعلى السير على الأقدام لمسافات طويلة تنفيذا لأوامر التنظيم ، وعرض عليه الانضمام إليه ، وطلب منه فى ٢٢/٨/١٩٦٥ الاتصال تليفونيا بفاروق المنشاوى لإبلاغه أن بعض أعضاء التنظيم قبض عليهم وتلقى تعليماته ، غير أنه لم يتيسر له الاتصال به ، انتهى .

وقدم يحيى حسين غيايا إلى محكمة أمن الدولة العليا برئاسة على جمال الدين محمود وتوفى الفريق على جمال الدين محمود أثناء نظر القضية فأعيدت محاكمته غيايا أمام اللواء حسن التميمي .

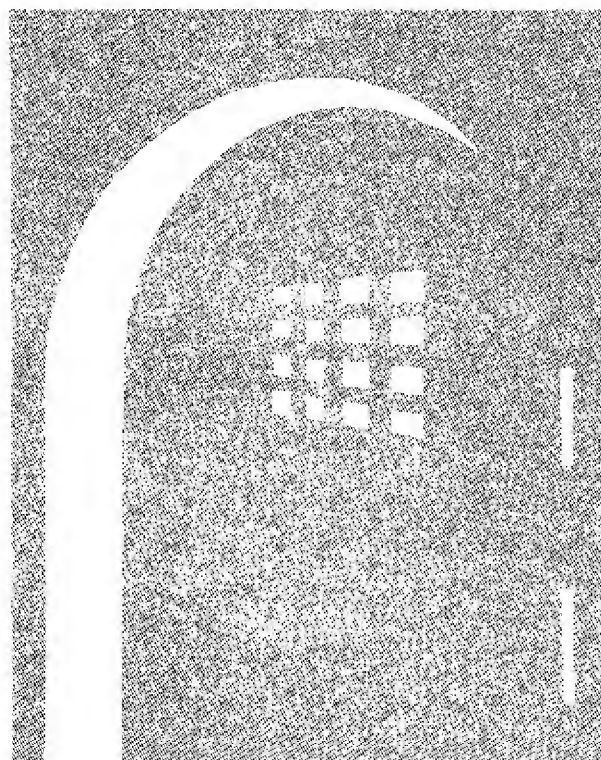
وصدر الحكم الغيابي ضد يحيى حسين بالسجن لمدة
خمسة وعشرين عاما .
وكان هو في ذلك الوقت يتمتع بالحرية في أرباض
السودان .
جريمته الشنعاء أنه عاين ، واتصل ، وأوصل ، وقابل ،
وقال ، فكان لابد من صدور الحكم ضده بالأشغال الشاقة
المؤبدة .

وكان يكتب بجوار اسمه بالادعاء كلمة (هارب) وكان
هو الشخص الوحيد الذي انطبقت عليه هذه الصفة ^(١) .

(١) كان يكتب بجوار اسم من يقتل من التعذيب كلمة « هارب » .

الفصل الرابع

معتقل القلعة



معتقل القلعة هو جزء من قلعة صلاح الدين ، القلعة التي قتل فيها محمد على المماليك ، وقد أعد الجزء الذي كنا نسكنه الإنجليز ، وهو لا يتسع لأكثر من ثلاثمائة معتقل ، ويستعمل كمكتب للتحقيقات تابع للمباحث العامة .

وكان التحقيق يجرى هناك ، وفي داخل زنازينه الضيقة السيئة التهوية وضعنا أربعاء أو خمسات رغم أنها - أى الزنازة - لا تتسع لأكثر من اثنين على الأكثر ، ولكن ، للضرورة أحكام كما يقولون .

وكان فى القلعة فى ذلك الوقت حوالى أربعمئة معتقل ، باكورة التحقيق التابع للمباحث العامة فى أيامه الأولى ، ناهيك عن التحقيق الآخر الذى يجرى فى السجن الحربى ، بالإضافة إلى وجود حوالى مائتين فى معتقل الفيوم ، وهم الذين أمضوا مدة عشر سنوات كاملة صادرة ضدهم من محكمة الشعب فى عام (١٩٥٤) .

مكثت عدة أيام فى معتقل القلعة ورغم هذا فذكرياتى عن الطعام ضئيلة جدا ، ويبدو أنهم لم يكونوا يقدمون طعاما لأحد فيه ، والذى كنا فيه أعظم من الإحساس بالجوع أو البحث عن الطعام ، ولعللى لم أتذوق طعاما طيلة المدة التى قضيتها فى القلعة .

وأذكر أن أحد المخبرين قد أعطانى نصف كوب صغير من الشاي السيء الصنع فى مساء سيء العذاب .

وأذكر أيضا أننى حاولت أن أضع شيئا من الجبن فى فم زكريا المشتولى قبل أن يذهب إلى ربه ، ولست أدري من أين أحضرت هذا الجبن .

وقد عرفت فيما بعد أن الطعام فى معتقل القلعة يقوم به متعهد أطعمة يأخذ على إطعام كل معتقل قدرا من المال ،

ولست هناك فرصة للربح خيرا من تلك الظروف التي كنا فيها ، والمتعهد يعرف أنه ليس هناك من يهتم بذلك الأمر البسيط ، الطعام .

كانت الزنازين في سرداب مكشوف على الجانبين ، ينزل إليه بسلاسل حجرية ، وكان ينادى على أى شخص للتحقيق ، فيفتح له رقيب عجوز باب الزنزانة ، وكان على هذا الشخص أن يذهب عدوا إلى مكان التحقيق ، ولا بد له إذا أراد أن يرحم نفسه من بعض العذاب أن يقف عاريا أمام المحقق ، فعليه حيال هذا أن يخلع ملابسه أثناء عدوه سريعا والسياط تلاحقه ليوفر على نفسه (علقة الافتتاح) .

وكان يسكت أكثر من يومين في التحقيق عاريا ، وعند عودته لزنزانيته لا يمكنه أحد من البحث عن ملابسه في طريقه ، فإما أن يجدها مجاذفة وقد تلوث وتمزقت أو لا يجدها ، ويذهب عاريا إلى الزنزانة .

وكان كل الموجودين في القلعة مصابين بجروح قاتلة ، ولم يكن هناك أى إشراف طبي أو حتى أية إسعافات أولية ! كل هذا رغم وجود شخص سمين جدا يدعى (موريس) كانوا يدعونه بالطبيب ولكنه لم يقدم شيئا للإسعاف المصابين . والأنكى من هذا أننا سمعنا عن اشتراكه في قتل عدد من المصابين بعد ذلك .

ومما أذكره في هذه الأيام التي قضيتها في معتقل القلعة ذلك الشاب الوسيم الظريف الذى كان يقف خجلا في عنبر التحقيق ، ولم أكن أعرف هويته ، بل ظننته للحظة أحد المعتقلين ، كنت أراه ينظر في إشفاف بالغ إلى الذين يحقق معهم ، ثم فهمت بعد ذلك أنه ضابط صغير تحت التمرين ، وسرعان ما سلموني إليه ليتمرن على التحقيق معي .

وعلى طاولة صغيرة كانت بعض الأوراق الخاصة بى ،
خطابات شخصية نسيت مضمونها ومرسلها ، بعض
الدراسات عن المسيحية والتاريخ الإسلامى ، مفكرة صغيرة
لعام (١٩٦٥) وقلب الشاب الوسيم الظريف هذه الأوراق ،
ثم اقترب منى وسألنى :
- هل لديك هاتف فى منزلك ؟
وكانت إجابتى :
- لا ..

وإذا بهذا الشاب الوسيم الظريف يصفعنى صفعة هائلة
كادت أن تقلع عيني ، واقترب أكثر ، ثم كلمنى فى صوت
كالفحيح :

- سنبداً بالكذب يا ابن الكلب ؟
وانتابنى الدهول فعلاً لم يكن فى منزلى هاتف ، وقلت له
وأنا أتهاوى من فرط الدهشة والألم .
- أقسم لك أنه لا يوجد فى منزلى هاتف .

وانهالت الصفعات والركلات من الشاب الوسيم
الظريف ، الذى كان ينظر إلينا منذ لحظات بإشفاق ،
وجعلت أؤكد له أنه لا يوجد هاتف فى بيتى ، وأخبرته أنه
يمكنه التأكد من هذا بسؤال مصلحة التليفونات عن طريق
الهاتف الموجود فى المعتقل ، ثم مأهمية أن أنكر وجود
هاتف فى بيتى وخاصة أن الحكومة لم تحرم التليفونات بعد ،
كل هذا بلا فائدة .

كان الضابط شديد الغباء ، وأحسست أنه سوف يقضى
على ، وفى النهاية لم أجد فائدة من المقاومة ، واعترفت
بحيازتى لتليفون فى المنزل بين ابتسامات الظفر التى علت
وجهه الوسيم الظريف .

وتصورت أن الأزمة قد مرت بسلام ولكنني فوجئت به
يسألني عن رقمه وارتبكت ، وهممت أن أذكر له أى رقم ،
لولا أنني لاحظته ينظر في المفكرة الصغيرة الموضوعة على
الطاولة والتي كانت تخصني .

وتذكرت يوم اشتريت هذه المفكرة في أول العام ،
وكيف كنت أملأ البيانات المكتوبة في الصفحة الأولى ،
الاسم .. العنوان .. رقم التليفون .. وكان ذلك في منزل أحد
الأصدقاء الذي اقترح على أن اضع رقم تليفونه في الخانة
الخاصة برقم التليفون ، وأسرعت بترديد الرقم ، وانهاled على
الضرب من الشاب الوسيم ومساعديه ، وصارت الشتمات
واللعنات تنصب فوق رأسي كأنها الحمم وصاحبنا يتمتم :

- ما فائدة الإنكار ؟ نحن نعرف عنك كل شيء يا ابن الكلب .

وأنقذني منه ضابط يدعى عبد المنعم الصيرفي ، ولكنه
ضربني بعد ذلك في هذا اليوم حتى أوشكت على الموت ،
فقد كان يفترض أنني في قيادة تنظيم الإخوان ، وعلى هذا
فكان لزاما على أن أخبره ببيانات مفصلة عن قيادة التنظيم ،
ورغم أن هذا هو المحال بعينه فإنني لم أجد هناك جدوى
من الإنكار ، فقد كان يجب على العاقل أن يبدأ بالإجابة ،
أية إجابة ، فور سماعه السؤال ، وكان عليه ألا يتوانى وألا
يتردد ، بل يتكلم ويتكلم ، وبطلاقة ، معترفا بأشياء لم
يرتكبها ، وأن يكون واسع الخيال ، فلا بد لقصته من حبكة
وعقدة ، ولا يجب أن يشم منها المحقق رائحة الكذب ، هذا
أو العذاب المهين .

أخذنى عبد المتعم الصيرفى إلى فناء المعتقل ، وانتحى بى
ناحية وصار يتودد إلى توددا ظاهرا ، فبدأت الطمأنينة تغزو
قلبى ، ثم سألتى ببساطة ، للمرة العشرين ، عن تنظيم
الإخوان واللجنة الخماسية القائدة . وتصورت أن الحديث قد
أخذ جانبا بشوشا ، وأن الرجل سوف يصدقنى وقلت له
ببساطة أنا الآخر :

- لا أعلم لى باللجنة الخماسية ، ولأظن أن هناك مايسمى
بهذا الاسم .

- ولماذا تظن هذا ؟

- هذا هو انطباعى ، ومدى علمى أيضا .

- إذن فلا علاقة لك بالإخوان وبالتنظيم ؟

- كلا

- يبدو أن الذوق لن ينفع معك .

وانقلب الرجل إلى وحش كاسر ، وصاح صيحة عظيمة ،
أتاه الزبانية بعدها من كل مكان ، وخلعوا عنى ملابسى التى
كان قد سمح لى بارتدائها وأصعدونى إلى عنابر التعذيب
بالصفع والركل والشتم .

ولم يكن هناك ليل أو نهار ، فقد كان المشهد مستمرا
بلا انتهاء ، وبلا أمل فى الانتهاء ، فمرة نجد أنفسنا فى عنابر
التعذيب ، ومرة أخرى فى الزنازين ، أو فى دورات المياه ،
والحوادث تجثم على صدورنا بثقلها فنشعر بالاختناق .

مواطنون أبرياء جاءوا بهم من كل مكان بلا ذنب ولا
جناية ، ومحققون يضربون الناس بحثا عن سر لايعرفونه ،
والكل تطحنه رضى ثقيلة من العذاب .

وانتهت مجزرة القلعة ذات صباح وكان نتيجتها ثلاثة من
القتلى وربما أكثر من ذلك وحوالى أربعمئة جريح بجروح
بالغة .

وأخرجونا من الزنازين أربعاء أربعاء ، وملأنا فناء
المعتقل ، واختفت المهرات والسيارات والآلات التعذيب ، حتى
وجوه المعتدين لم نعد نراها ، ولم يكن بين الجالسين من يدرك
معنى لهذا الإجراء .

ومن تلك الكوة التي دخلنا منها يوم ودعنا العالم دخل
كهل في الخمسين ، نحيل القد ، دقيق القسما ، وفي جانب
من فمه تقبع سيجارة مشتعلة لم يمسه بأصابعه ، وفي صحبته
شاب في الثلاثين ، أسمر اللون ، بليد القسما .
وتكلم هذا الشاب :

- حضرة الطبيب يريد أن يكشف عليكم لانتخافوا لن
يكون هناك تعذيب بعد اليوم .
- كل من في جسمه إصابة بالغة يرفع يده .
ورفع أغلب الناس أيديهم ، فقد كانت إصابتهم أكثر من
بالغة .

وصار الطبيب يمر بين الصفوف وعلى وجهه علامات
الألم والإشفاق والحزن ، وكان يلحن الجلادين جهرا كلما
رأى إصابة بالغة ، ويأمر مرافقه الشاب بكتابة اسم صاحبها
في كشف معه ، وتشجع الجميع ، وصاروا يسبون الحكومة
ويلعنون الظلم والظالمين ، والطبيب يهز رأسه موافقا ومشجعا
ومواسيا ثم ينصرف إلى آخرين حتى مر بنا جميعا .

كان هذا الطبيب هو العميد أحمد رشدي قائد معتقل
التعذيب بأبي زعبل بعد ذلك بساعات قلائل وقد

أحضر كل من قيد اسمه في الورقة وضربه ضربا قاتلا ، ورغم
أننى لم أسجل نفسي في كشفه إلا أننى لم أنج من هذا

الضرب القاتل عندما ذهبنا إلى أبي زعبل ، فقد اكتنفتني لحظة
مروره شعور غامض معنى من أن أريه الإصابات التي أصبت
بها .

وركبنا (شاحنات) معطاة في الطريق إلى أبي زعبل ،
وفي بابها الخلفى يقبع مجموعة من جند الشرطة بملابسهم
الرسمية فيظن من يراها في الشارع العام أن الشاحنة مليئة
بالجنود ، وفي حقيقة الأمر أنها زاحرة بالمعتقلين من
الداخل ، وكم كنت أرى قبل هذه التجربة كثيرا من
الشاحنات على النحو الذي وصفت به ولم أعرف إلا في هذه
اللحظة أنها كانت تقل إخوة سبقونا في هذا الطريق ، كنا
حوالي ثلاثين في الشاحنة التي ركبناها ، وكان معنا بدر
القصى الذي حملناه في بطانية نظرا لإصابته الخطرة^(١) .

وفي الطريق كنت أرى الناس يعيشون كما كانوا والحياة
لم يتغير فيها شيء ، ولأحد يهتم بما يدور ، وربما كانوا
لا يعلمون شيئا عما جرى في المقشرة^(٢) السيارات ترمجر
والمارة بصخبون وشاب يغازل فتاة على محطة الأتوبيس ،
والحياة في تدفق سيال .

وأذكر أن جميع من كان معي في الشاحنة ، كانوا
يتسمون ابتسامات سعيدة تعكس ما في قلوبهم من ارتياح
لخروجهم من ذلك العذاب المقيم ، وكان معنا شاب رقيق
الحال من الناحية النفسية ، اعترف بما فعله وبما لم يفعله ،
وكنا نزرجه وننصحه بالتريث بلا فائدة ، وكان هذا الشاب

(١) توفي عليه رحمه الله بعد وصولنا إلى أبي زعبل بنصف ساعة .

(٢) المقشرة هو اسم سجن التعذيب أيام سلاطين المماليك .

يظن أن التحقيق قد انتهى إلى عقوبتنا بأحكام تتفاوت على حسب جرم كل واحد فينا ، وأن هذه الأحكام قد صدرت ، وأنا بصدد تنفيذها ، وسوف نعلم عنها عندما نصل إلى المكان الذي نقصده ، وصرت أفهمه أن الأحكام التي تصدر لأبد لها من قضاء ، محكمة ، إجراءات .
ولكنه قال لي :

- في مصر لا يهم هذا كله يا صديقي .
وصار يتمم في سخرية بالغة :
- قضاء ، محكمة ، إجراءات ، هل نسيت أنك في مصر
بلد العجائب .
وكان منطقته أقرب إلى الصواب من منطقتي .

وانبرى ثانية :

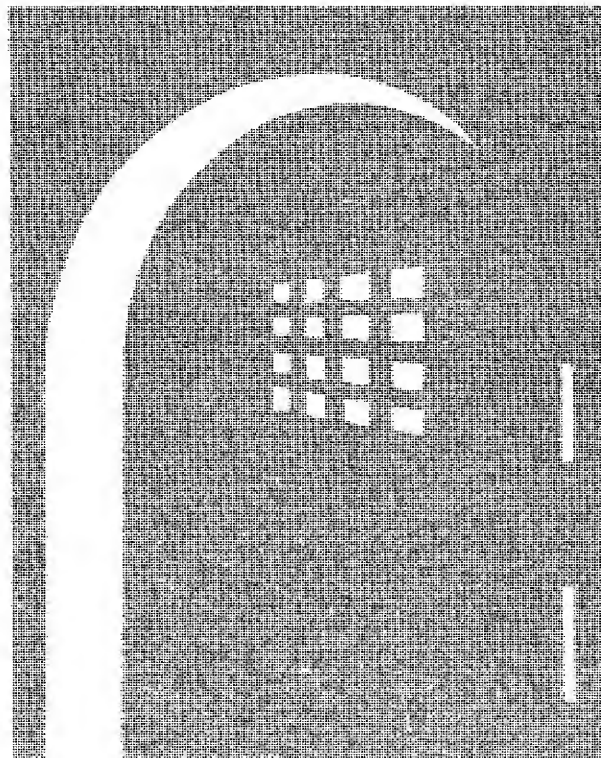
- عندما نذهب إلى الليمان علينا بتأييد الحكومة .
وساعتها سوف يفرجون عنا ولو كنا فعلنا بهم الأفاعيل .

كان الأمر بالغ الزرارية ، كثيبا ، موحشا عميق الوحشة ،
فيم كل هذا ؟ ولماذا ولحساب من ؟

أسئلة تدور في ذهني ، ثم تطن طنينا مخيفا ، وتطغى
بضجتها على العذاب الذي أحس به من جراحاتي .

الفصل الخامس

معتقل أبي زعبل



كان وصولنا إلى معتقل أبي زعل عصر يوم من أيام السبت ، وكنا فرحين سعداء فقد انتهى التعذيب ، هكذا كان الظن ، وتبينت المباحث العامة عدم جدوى هذا ، وسوف نقضى بأبي زعل فترة من الوقت حتى تندمل الجراح ، ثم يذهب كل منا إلى حال سبيله ، وسرت بيننا روح نشطة طروب لتفشي هذه الطنون فينا ، حتى ضحكنا كثيرا عندما كانوا يسلموننا إلى القائمين على الأمر في أبي زعل .

كان واحد منهم يتسلم المعتقلين وهو يعدهم ويحصيهم واحدا واحدا ، وإذا بذلك الذي جاء بنا يقول له :

– تسلم يا إسماعيل ولا تخش شيئا ، من ناحية العدد ، أى عجز أستطيع أن أردده لك .

وتسلم إسماعيل دون ماخوف من عجز يكون فى عدد هؤلاء الآدميين ، وكم شغلتنى ذكرى هذه العبارة الصغيرة كثيرا ، ترى كيف كان يسدد هذا الرجل عجزا فى الآدميين ؟ من أين يأتى بهم ؟ لا شك أنه كان يستطيع أن يأتى بالعدد الناقص من أى مكان ، ولن يهتم أحد بما يحدث لأحد .

كنا نحمل معنا بدر القصبي كما قلت ، وكانت حالته سيئة للغاية ، وعند بوابة المعتقل قابلنا الرائد فوزى ، الذى صار فيما بعد قائدا للمعتقل لفترة من الوقت ، وعلى وجهه أمارات التأثير لرؤية بدر القصبي وهو (معجن) من الضرب ، وطلب منا أن نضعه فى زنزانة من الزنازين ، ولم نر بدرا بعد ذلك أبدا ، وخرج من التاريخ ، أو ربما دخل فيه ، ولم يعلم أحد بمكان قبره .

كان المعتقل عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق ، فى كل طابق اثنتا عشرة حجرة . يطلق على كل واحدة اسم عنبر ، وباب فناء هذا المبنى المحكم له قضبان من الحديد ولسوره أيضا ، مما يجعل هذا الفناء كالتقفص المحكم المغلق ، وكان المبنى موجودا فى منطقة ليمان أبى زعبل ، وهو مبنى جديد من حيث البناء ، فقد أقيم على أنقاض مبنى آخر قصفته الطوربيدات أثناء ضرب الإذاعة فى عام (١٩٥٦) فهو لا يبعد عنها أكثر من مائتى متر ، وكان موعد تسليمه لمصلحة السجون من المقاول بعد أيام من وصولنا ، ولكن المباحث العامة قد تعجلت المقاول كما سمعنا وكان المفروض أن يستقبل الشيوعيين ، وشاءت إرادة الله أمرا آخر .

دخلنا المعتقل قبل مغيب الشمس وكان العمال ينتهون من بعض الأعمال على عجل ، وعند وصولنا لم نلتق بوجه واحد من رجال التعذيب ، ووجدنا بدلا منهم وجوها سمحة رقيقة سمراء ، وعاملونا فى لطف شديد ، وتسلم كل واحد منا ثلاث بطانيات من الصوف ، جديدة لم تستخدم قبل ذلك ، ووعاء (قروانه) وملعقة وطبقا صغيرا جديدا من الألومنيوم اللامع .

كان الأمر بهيجا يعث على الإثارة والسعادة ، وصار كل واحد منا يمنى نفسه بحياة رغدة مريحة فى هذا المكان الجديد الأنيق الذى كان قد صنع توا .

وكان العنبر يتسع لثلاثين شخصا على الأكثر - وضعوا فيه فيما بعد مائة وثلاثين معتقلا - وأودعت مع آخرين فى العنبر رقم واحد . وكانت سعادتى كبيرة لأننى وجدت كل أصدقائى معى فى نفس العنبر ، وفرش كل واحد منا نمرته^(١)

(١) النمرة :هى كل حاجيات المعتقل بلغة السجون والمعتقلات .

وتمددنا فى فرح وهناء ، وجاء الطعام وكان عبارة عن عدس مطبوخ بالزلط والحصى فى أوان حديدية قذرة يطلق عليها اسم (كاتنين) ، ورغم قذارة صنعه وقذارة الإناء الموجود فيه والكمية الكبيرة من الرمل والزلط الموجود بكل (كاتنين) إلا أننا أكلنا بشهية بالغة فمعظمنا لم يكن قد أكل شيئا فى معتقل القلعة على الإطلاق .

ووزع علينا صابون قذر جدا من صناعة المساجين المقيمين فى الليمان ، ولكننا لم نكن رأينا الصابون منذ أيام ، وأسرعنا إلى دورات المياه لغسل ماتبقى من ملابسنا التى تجمدت عليها أشياء كثيرة أوضحتها الدماء التى أريقت فى معتقل القلعة ، وكانت دورة المياه مكونة من مكانين وموضعين للتبول وحوض به ثلاثة صناير للمياه يتسع لاستعمال ثلاثة أشخاص فى وقت واحد ، وفى المكانين دشان سرعان ماتزاحمنا عليها جميعا ، وأخذ كل واحد (دشا) باردا لطيفا أزال مالحقه من وعشاء السفر وسوء المنقلب فى الدنيا .

وكان هنالك من لا يستطيع ذلك لكثرة جراحاته ، فبقى على قذارته فى سعادة ورضا لابتعاده عن الأرض المخوفة فى القلعة ، وألقيت نظرة على المكان الذى ننام فيه ، المكان ذى الباب القفصى^(١) فوجدت أن معظم قاطنيه من الشيوخ المتقدمين فى السن ، إلا حفنة صغيرة من الشباب أصدقاء يحيى حسين وكنت أنا منهم .

ومن طريف ماعرفت عن هؤلاء القاطنين أنهم يتتمون إلى جميع الجمعيات الإسلامية الموجودة فى مصر مثل جمعية الصراط المستقيم وجمعية التبليغ الإسلامية ، وجمعيات أخرى كثيرة وبعض أفراد من حزب التحرير الإسلامى ، كل (١) كان الباب على هيئة قضبان حديدية تسمح بإدخال الطعام من فرجاتها .

هذا بالإضافة إلى أفراد جماعة من الإخوان المسلمين ، وكان هناك من لا ينتمون إلى أى جمعية ، دينية كانت أو غير دينية . ولكنهم كانوا جميعا على علاقة ما بمن تهمهم هذه الأمور .

وفوق هذا كله كان هناك من لا ينتمى إلى شىء ، ولم تكن له أدنى علاقة بأى شخص له صلة بهذه الشؤون ، وكم كان عجبنا كثيرا من وجود مثل هؤلاء ، ولكن هذا العجب لم يدم بعد ذلك كثيرا .

وقضينا تلك الليلة فى التعارف وتبادل النكات والقفشات والحديث عما جرى فى القلعة من ويلات ، كنت أظن أننا سوف نعيش فى أحزان الذكريات القرية وألمها الشديد ، وكم كان صداها يلف رؤوسنا وعقولنا . وكم كانت آثارها على ملابسنا الممزقة والجراح الغائرة وبقع الدم الحمراء ، كانت الأيام القليلة التى أمضيها فى القلعة تظن فى مخيلتنا كأنها قرن متكامل من الزمن ، وكان المكان جديدا غاية الجدة بهيا كل البهاء .

جاء الصبح سريعا ومع خيوطه الأولى استيقظنا فى نشاط وتوضأنا للصلاة ووقفنا جميعا بين يدي الله عز وجل يلفنا شعور عظيم بالطاقة والقوة اللامحدودة ، كان الأمل يملأ نفوسنا بانتهاء العذاب ، وانتهينا من الصلاة وكانت تختلف كثيرا عن تلك التى كنا نصليها خارج أسوار المعتقل ، ولا يفوتنى هنا أن أذكر ملحوظة لامندوحة عن ذكرها .

لم تسمح لى الظروف الخاصة بى فى القلعة وظروف بعض من رأيت وصاحبت بتأدية فريضة واحدة فالعذاب لم ينقطع لحظة واحدة ، فقد كان الأمر فى معتقل القلعة أشبه مايكون بيوم الحشر .

بدأت شقشقة العصافير تخالط أصواتنا ونحن نقرأ القرآن رخيما عذبا فى اليوم الأول من أيام أبى زعبل ، ولم نكن

ساعتها نعرف أن أيامه أكثر هولا وعذابا من أيام القلعة . ولم
نكن نعرف أيضا أننا سوف نترحم على أيام القلعة ونتمنى لو
كانت قد دامت .

أشرقت الشمس وقدم إلينا الطعام ، غسل أسود ملأ كل
واحد منا طبقه الصغير منه ، ومعه قطعة من الجبن الردىء
الصنع ، ورغيف من الخبز البارد الذى اختلط دقيقه بمواد
غريبة وحشرات مختلفة عرفت منها الصرصور .

وتناولنا الطعام وانصرفنا إلى الحديث ، وكم ظننا ساعتها
أن الأمر سيطول بهذا الهدوء إلى حد بعيد ، وفوجئنا بأحد
الضباط يمر بنا من خلال الباب القفصى ، ووجدناه يقف
ويتحدث معنا ، وكان هذا الضابط معقولا لايحب العنف ،
وكان دوره فى التعذيب لا يكاد يذكر ، ومثل هذا كانت له
فى نفوسنا أعظم المكانة . وكان أحد الذين حققوا معى فى
القلعة ، وهو الوحيد الذى أنهى معى التحقيق دون ضرب أو
تعذيب ، ومضت نوبته معى كأنها النسيمة فى ليلة صيف
شديد الحر . كان يناقشنى ويسألنى ويستفسر ويلف ويلدور ،
كان يستعمل عقله وذكاءه ولم يستعمل يده وعصاه حتى ذلك
الوقت ، وتحدث الرجل من خلال الباب وفهمنا من حديثه
أن الأمر قد انتهى وليس هناك بعد ما حدث فى القلعة غير
اعتقال لفترة لن تطول وأصيب البعض بلوثة من الفرع
والإحساس بالفرج ، ولكن كان هناك من يجلس وكأن الأمر
لا يعنيه فى قليل أو كثير ، على وجوههم الصارمة يأخذ
الإيمان بالله خطوطه العميقة فيحيل نظراتهم إلى صفاء وأمن
وراحة ، كان هذا هو الجيل الذى صنع جماعة الإخوان أيام
الشيخ حسن البنا ، ويحضرنى من أسماء هؤلاء ثلاثة لأدري
أين هم الآن ، الشيخ حامد الطحان ، والأستاذ محمود
عبده ، أحد قادة الإخوان فى حرب فلسطين عام (١٩٤٨)

والحاج عبد الرحمن حسب الله أحد ستة أشخاص تكونت منهم جماعة الإخوان في أيام بعيدة من عام (١٩٢٨) في مدينة الإسماعيلية ، كان يكفي أن ينظر المرء إلى واحد من هؤلاء ليشعر باليقين والثقة بالله فيزداد قوة على تحمل القلق والعذاب .

وكانت هناك في ذلك اليوم الأول من أيام أبي زعبل نماذج أقل درجة وأكثر خوفا وقلقا ، كان معنا مفتش في وزارة التربية والتعليم كثير الخوف شديد البخل ، ترك في الأمانات خمسة جنيهاً ، ويردد في كل لحظة أنه على استعداد لأن يترك لهم (المباحث العامة) جنيهاً الخمسة على أن يخلوا سبيله ، لم يكن يدري أن الأمر أعظم من جنيهاً تلك .

جلسنا نستمع إلى نوادر ذلك الطيار الذي لم يفتن إلى ذلك الجانب المظلم من العالم ، وكان الكل يضحك للصورة المضحكة التي رسمها جهله بالقضية والأمر برمته ، وتصورنا أننا سنقضي إجازة جميلة في معسكر جميل ، وماهى إلا لحظات حتى انقبضت قلوبنا وشمطنا هم عميق ، حركة غير عادية في المعتقل ، هرج ومرج ، أناس يدخلون ويخرجون ، ثم جاءنا أحد المخبرين وكان فظا غليظ القلب ثقيل الكف اسمه (الملا) وأخذ أسماء الموجودين وكتبها في أوراق كانت في يده (الطرشاء) ، ومر بجميع العنابر وفعل معها نفس الشيء .

ثم جاءونا بالملابس الخاصة بالمعتقلين ، ملابس مليئة بالقمل رغم أنها لم تلبس قبل ذلك ، صنعت من قماش هو إلى (الخيش) أقرب ، خالية من التناسق والاستواء . وطلبوا إلينا تسليم كل الملابس المدنية التي كنا نرتديها ، وتسلم كل

واحد فينا سرورالا لا ينطبق بحال على جسم صاحبه ، ومثزرا
مبهذلا وقميصا داخليا شديد العفونة كأنه قد نفع زمتا طويلا
في مرحاض ، وطاقيه سخيفه المنظر .

وكان الحر شديدا يوما ، وفعلت هذه الملابس فعلها
القاتل مع الحر الذي يكتم الأنفاس ، وإني أذكر كيف بكى
ذلك الطيار الذي كان يقص علينا حكاياته بكاء مرا حينما
طلبوا إليه ارتداء تلك الملابس ، وكم توسل إليهم أن يتركوه
بتلك الأخرى التي جاء بها من لندن ، وقد طلب منه (الملا)
أن يحمد الله أنهم تركوه مع حياته .

ومن بين القضايا التي كانت بالباب رأينا الجند يحملون
إلى الداخل بالمعتقل كميات كبيرة من الهراوات والخيزران
والسياط تكفي لجلد قارة بأكملها ، وكانوا يلقون بحمولتهم
المخيفة على بلاط المعتقل فتحدث صوتا يبعث الخوف في
أكثر القلوب شجاعة ، وارتفع صوت من بين زملائنا : « يا أيها
الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم
تفلحون » ، وكان لهذه الآية مفعول السحر في نفوس
الناس ، فقد دوى العنبر بذكر الله وبقراءة القرآن . وعادت
الطمأنينة إلى القلوب .

وبينما نحن على هذه الحال إذا بصوت جهوري يهز
جدران المعتقل وشعرت بطنين في أذني ولم أتبين
الصوت الذي صار يتكرر في رتابة ، ثم رأيت كل من في
العنبر ينظر إلى ، كانوا ينادونني ، وعادوني الخوف ، فقد
كان لهذا النداء معنى لا يفهمه إلا الذي ذهب إلى هذا
المكان ، كانت مظاهر الراحة حلما ووهما ، لقد جاءت
الصاخة ، وبدأ الجد ، وعادونا شجن لاندرى متى ينتهي ،
واقترب الشيوخ مني وملئوا أذني بآيات القرآن وتقدمت من

الباب ليرانى ذلك الذى ينادى من مكان بعيد ، ورائى وفى لحظات كان أمامى ويده مفتاح ، وفتح باب العنبر وأخرجنى وطلب إلى أن ألق عصا على عيني ، وفتح باب العنبر وأخرجنى كالأعمى فقد كانت العصا محكمة ولم أكن أرى منها شيئا على الإطلاق ، وصار الرجل ينزل ويصعد ، ثم يسير بى على أرض مليئة بالعشب الجاف والشوك ، وأحسست أنه غادر المعتقل وذهب بى إلى مكان آخر .

واستيقظت حواسى على صوت مخيف أعرفه جيدا كان صوت الرائد فؤاد علام الذى فعل بى الأفاعيل بالقلعة أثناء التحقيق العجيب الذى كان هناك .

وبلهجة ممطوطة مزعجة سألتنى :

- هل أتيت ؟

لم أرد عليه .

- حظك سيء للغاية .

وتمتعت فى صوت خفيض :

- ولماذا ؟

- أحقا لاتعرف لماذا ؟

ثم أتبع تساؤله ببعض الشتائم البذيئة ، وقبل أن أجيبه كانت الركلات تنهمر على كالمطر ، وفى ثوان كنت معلقا فى الهواء وسط الظلام الذى صنعه العصا حول عيني ، وصارت دقات الهراوة تنزل رتيبة على قدمي فأشعر بألم عميق مخيف يتضاءل بجانبه الموت .

واشتد بى الهول فصرت أرجو أن يتركنى مذكرا إياه أننى مسلم ومصرى مثله ، ولكنه أصر على أن أتكلم ، ولم يكن كالانا يعرف شيئا عن الأمر الذى ينبغى على الكلام فيه ، وكنت فى كل مرة أذهب فيها إلى التعذيب أنوى بينى وبين نفسى ألا أصرخ ، وكنت أفشل فى كل مرة ، نعم كنت

أفضل في كل مرة ، فقد كان العذاب فوق احتمال أى مخلوق ، أو على أقل تقدير فوق احتمالي أنا شخصيا .

وبعد أن أخذت علة ساخنة تفككت عظامي من جرائها ، فكوا قيدي وأنزلوني من هذه (التعليقة) وأمروني تحت الضرب أن أقفز على قدمي حتى لايتورما . ومن ثم لايمتلئان بالصديد ، وهذا بطبيعة الحال ليس من باب الرحمة ، ولكن حتى أستطيع تحمل قدر آخر من العذاب حينما يريدون .

ولم أستطع الوقوف فقد أصيبت أعصاب الساق بخدر منعني من القيام واقفا ، واشتد الضرب وحمى وطيس الصفع والركل حتى أصدع للأمر وأنفذ (خطوة التنظيم) التي يطلبونها ، ووقفت بعد لأى ، وصرخ الرائد يطلب مني الإسراع فى الحركة ، وأثناء تنفيذى شعرت بقدمي ينغرزان فى لوحة خشبية قد رشق بها عدد كبير من المسامير الحادة المسنونة ، وصرخت من الألم ، وسقطت على الأرض .

وكان هذا المشهد نهاية العلة الأليمة التى أخذتها فى هذا اليوم .

وعلى مستوى معتقل أبى زعل بدأ التعذيب أو بدأ التحقيق أو بدأ كلاهما معا ، فهما اسمان لحقيقة واحدة ، وكان يبدأ فى الساعة العاشرة صباحا ، ويستمر حتى منتصف الليل ، ويمضى المحققون ، حضرات الضباط وحضرات الد... يذهبون إلى منازلهم ، ويوكل بالمعتقلين إلى من يجهزهم ليوم جديد فى التحقيق ، حتى يأتى حضرات الجميع فى العاشرة من الصباح الجديد .

واستقر هذا النظام بعد يومين ، وعدت إلى العنبر فوجدته قد امتلأ بآخرين ، لقد وفد معتقلون جدد إلى المكان ، العنبر الذى لا يتسع لأكثر من ثلاثين صار به أكثر من ضعف هذا العدد ، ارتميت منهوكا على النمرة التى تضاعل الحيز الذى كانت تشغله قبل ذهابي إلى التحقيق ، جاء أناس من سائر البلدان ، وكلهم تحت وطأة دهشة مما جرى ويجرى .

أخذوني فى اليوم التالى بنفس الطريقة إلى نفس المكان الغريب ، وفى هذه المرة لم يبدأوني بالجلد والضرب كعادتهم ، كنت مغمض العينين ، والتقطت أذناى حركات كثيرة ، كان من الواضح أن هناك شيئا بالغ الأهمية فى ذلك المكان الذى يقع خارج المعتقل ، وبينما أسحب إلى حيث يريدون صفعنى واحد منهم على قفاى ، وامتألت دهشة ، ليس من الصفعة ولكننى سمعت أحد الضباط ينهى ذلك الذى ضربنى ، وتعجبت ولم أستطع لحظتها أن أخمن سبب ذلك التصرف من الضابط ، أول مرة أسمع فيها من ينهى عن الضرب .

وجاءنى الرائد فؤاد علام - وكنت أعرفه من صوته - وقال لى :

-- أنا آسف يا فلان ، لم أكن أود أن يحدث ذلك لك ، ولكن هذه تعليمات القيادة العليا للقوات المسلحة .
فقلت له :

- ماذا تعنى ؟

فقال لى فى لهجة منذرة :

- جاءتنا قائمة بها بعض الأسماء .

وسكت برهة فقلت له :

- لست أفهم .

هذه الأسماء يجب تنفيذ حكم الإعدام فى أصحابها ، هذه القائمة موقع عليها من سيادة المشير عبد الحكيم عامر .

- ماذا تقصد ؟

- اسمك فى أول قائمة المطلوب إعدامهم .

- هكذا دون محاكمة .

- وماذا تعنى المحاكمة ؟ صدقنى ، لامعنى لها على

الإطلاق ، وقلت له :

- ومتى يتم هذا ؟

- الآن .

وسمعت وقع أقدام تأتى مهرولة عن بعد ، واقتربت ، ثم وقفت ، وسمعت صاحبها يسأل من بين لهائه :

- أين المحكوم عليهم ؟

وأمسكنى الرائد من ذراعى وقال :

- هذا أول الخمسين الذين سيعدمون اليوم .

وسلمنى لصاحب الصوت الغريب الذى مشى بى خطوات ، وغرقت فى أفكارى ، أهكذا تنتهى حياتى ؟ بهذه البساطة ، وهذه الطريقة ، لأظن أن المشير عبد الحكيم عامر يعرفنى ، لماذا يكرهنى هؤلاء الناس هذه الكراهية العميقة ؟ ماذا فعلت بهم ؟

وتذكرت آمالى وقراءاتى والبهجة التى كنت أشعر بها عندما أقرأ كتابا جديدا ، كل هذا سوف ينتهى من الدنيا بعد لحظات ، أين القانون ؟ أين الحضارة ؟ أين التقدم ؟ وضاعت صورة العدل فى مخيلتى وانتابنى غثيان ، وشعرت برغبة جارفة للتقيؤ . كل هذا وأنا سائر خلف ذلك الذى يسحبنى ، إلى مكان تنفيذ الإعدام ، هكذا ظننت .

شعرت أن الذى يسحبنى قد توقف ، فوقفت وأرهفت حواسى كلها ، واقتربت أقدام آخر ، وسمعت صوت الرائد :

- ماذا تتمنى قبل أن تموت ؟
- أن أصلى ركعتين استعدادا للقاء الله . كانت النهاية سريعة ولم أستعد لهذا اللقاء .
- وماذا تعنى صلاتك ؟
- كأنى أستأذنه سبحانه وتعالى فى المشول بين يديه .
- كلا ، لن نأذن لك بالصلاة ، هذه خارج صلاحياتنا .

وتقدم طابور الإعدام مرة أخرى ، وأثناء السير انقض على رجل لأعرفه ، وطبعاً لأأراه لأن العصابة على عيني ، وبسرعة ألقاني على الأرض ، وفى لمح البصر كانت يداى فى القيد الحديدى خلف ظهري وهنا زایلنى الخوف على عكس ماتوقعت ، لقد دنت الساعة ، سوف أذبح بعد لحظة أو تكاد ، إنها أعظم النهايات فى الدنيا ، سيقتلوننى وأمضى بعدها إلى الله هائماً فى الرضوان الأعظم .

أنهضنى الرجل ، أصدونى درجا مرتفعاً استطعت أن أراه من خلال ضوء بسيط يتسلل من أسفل العصابة ، ثم أوقفونى لحظة فى مقدمة ممر حجرى يبدأ من نهاية السلم ، وأمرت بالتقدم بعد ذلك ، فى خطوة بطيئة ، المفروض أنها تبعث الخوف والرغبة فى القلب ، ثم أوقفونى بعد أن مشيت كثيراً فوق هذا الممر .

وانحدر بصرى إلى قدمى من خلال الفرجة الضيقة فى العصابة ورأيت أننى أقف على شفا جرف هار ، ويكفى دفعة صغيرة لأسقط فى هذه الهوة التى ليس لها قرار يبدو أمام ناظرى ، ولفوا أنشودة حول عنقى ، هو الإعدام شنقا .

وتقدم منى الضابط عصام الشوكى^(١) وطلب أن أتلو صلواتى الأخيرة فقد أزفت ساعة الانتقال إلى العالم الآخر .

(١) احترقت به طائرة عام (١٩٦٨) كما سمعت فى معتقل طره .

وصرت أدعو الله دعاء حاراً أن يغفر لى ذنوبى ، ولم أعد
أشك فى قرب قدمى عليه ، وتذكرت فى هذه اللحظة
الذنوب التى ارتكبتها ، وكم تألمت لحظتها ، وتمنيت لو عاد
بى الزمن كى أكفر عنها ولأعود إليها أبداً .

وشدوني إلى الأنشطة وتحت قدمى الهاوية العميقة
البعيدة القرار ، وكانت أصوات السياط الملتهبة تأتي من بعيد
تحمل صرخات حارقة تملأ الجو حولي ، ولكن كل هذا لم
يخفني بقدر ماكنت أتمنى أن يغفر الله لى بذهابى إليه على
هذه الصورة ، وتذكرت أمى وإخوانى وأصدقائى وكل من
كانت له علاقة بى ، ولفتنى نسمات عذبة رقيقة من السماء ،
واستغرقت فى دعائى واستغفارى من جديد .

وكانت الوجوه تداعب خيالى ، وجوه من كل مكان ،
مكثت على هذه الحال عدة ساعات ، شعرت بعدها أن قدمى
قد فقدتا القدرة على حملى ، الأنشطة حول عنقى قوية
وضاغطة ، وأصوات الصراخ والسياط تأتي مولولة من بعيد
وأنا أبصر عند قدمى هوة سحيقة بعيدة القرار ، واقترب أحد
الضباط ، وبصوت كالفحيح أمرنى أن أقفز إلى الهاوية ،
وقلت له :

.. تستطيع أن تدفعنى إليها ، أما أنا فلن أقفز أبداً .

وصرخ الرجل :

— قلت لك اقفز ، هذه أوامر المشير .

وشعرت بالإغماء وبدأت أتهاوى ، وسقطت من شاهق .

كان بينى وبين قاع الهوة حوالى متر ونصف ، وصورة
الوهم على أنه قاع عميق ، سحيق .

قادوني بعد ذلك منهك القوى إلى حجرة تصل إليها

الصرخات من قريب ، ورفعوا العصاة من فوق عيني فوجدت
أمامي الرائد فؤاد علام والملازم عصام الشوكي . وقال الرائد
فؤاد علام :

- لقد كان حظك حسنا ، لقد أتت الأوامر من المخابرات
بتأجيل إعدامك ، وبعد قليل سوف يخبروننا بسبب ذلك .
وسكتنا برهة ضئيلة ثم انبرى يسألني :
- عندك معلومات تحب أن تخبرنا بها ؟
وهزرت رأسي نفيا .

- هل لك رغبة في أي شيء ؟

وهزرت رأسي نفيا للمرة الثانية .

وقدم لي مقعدا من الخشب شبيها بالكرسی - وما هو
بكرسي - وطلب مني الجلوس وأعطاني سيجارة ، ثم أشعلها
لي والعجب يملأني ، وسرعان ما زال العجب حينما وجدته
يقدم لي ورقة وقلم وقال :

- الآن ستكتب اعترافاتك .

وغشيتني سحابة .

- عن أي اعترافات أتكلم ؟
فقال :

- أنا سأملئ عليك وأنت تكتب ، من واقع كلامك الذي
سبق . فشكرت له في نفسي هذا الموقف ، فقد أعفاني من
الضرب والتعذيب والإهانة وكم كنت أتمنى أن يفعل ذلك
من اللحظة الأولى لاعتقالني .
واستدرك الرائد :

- لا تظن أنني سوف أملئ عليك أكاذيب لم تفعلها ،
ورددت عليه بسرعة :

- العفو يا سعادة البك ، وهل هذا معقول ؟

- كل المسألة أنني سأنظم أقوالك وأضعها في ثوب
واضح .

- وأنا على استعداد لأي شيء .

وكتبت من إملائه تسع صفحات فولسكاب ، مضمونها خطة أعددها لقلب نظام الحكم ، وكان هذا مع بعض الأصدقاء ، وكنت متأكدا أنهم لن يحكموا على بأقل من عشرين عاما أو أكثر ، لأن اعتقالي - كما يقولون - حال دون تنفيذ هذه الخطة .

وعندما دخل الليل انصرفت راضيا سعيدا مع المخبر إلى المعتقل ، فقد ظننت أن التحقيق قد انتهى ، ولم يعد أمامي سوى انتظار المحاكمة والذهاب إلى اليمين لتكسير الحجارة تحت وهج الشمس الحارق ، وكم كنت سعيدا لهذه الأفكار التي ستجعلني أغادر هذا المكان اللعين .

وعند دخولي العنبر كان به ضعف العدد الذي كان به في الصباح ، ووجدت أن فناء المعتقل الشبيه بالقفص قد امتلأ بعشرات الأشخاص العراة من ملابسهم ، ومنهم من يمشي عاريا على أربع وهناك من يسوقه بالعصا ، ومنهم من يجري عاريا مغمض العينين حتى يضطدم بالجدار المقابل فتشج رأسه ، ويقوم ليجري من جديد ومنهم المعلق على السور ذى القضبان الحديدية مصلوبا عاريا مغمض العينين أيضا ، وارتيمت في ركن أفسحوه لي واستغرقت في نوم عميق .

استيقظت منهكا من جراء ماحدث معي في التحقيق ، والتف الإخوة حولي يسألونني الأخبار ، ماذا حدث وماذا قالوا لي ؟ وماذا فعلت لهم ؟ وكان بعض السذج يسألون متى ينصرف الجميع إلى منازلهم ؟ .

كان العنبر قد اكتظ بساكنيه ، وأصبح الأمر بالغ السوء من كثرة المعتقلين وعادوا لايهتمون بطعامنا ، فيأتون بالوجبة بعد موعدها بساعات طويلة ، وكان يأتينا أيامها لحم لاتستطيع الأنوف أن تشم رائحته الكريهة ولا تقدر الأسنان

تمزيقه ، أقوى الأسنان ، فكنا نكتفى أن نلوكه بعد أن نغسله
بالصابون ، لتخلص من بعض رائحته .

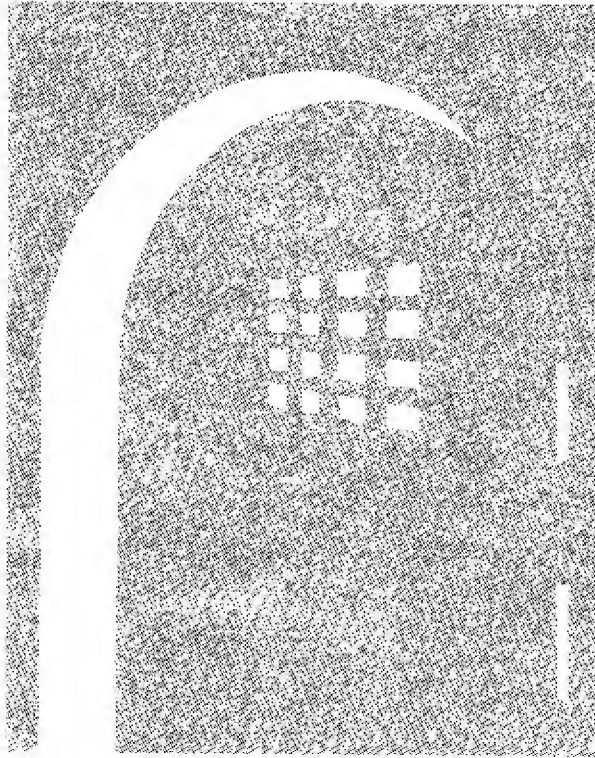
كان معنا فى تلك الأيام من شهر سبتمبر أطفال لم يصلوا
سن البلوغ وكانوا يرتعدون من الخوف الشديد ، من أفراد
جماعة التبليغ ، أطفال صغار على كل هذه الآلام .

وكان معنا شيوخ جاوزوا سن النشاط والحركة لا يكفون
عن قراءة القرآن والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى أن يقيهم
فى شيخوختهم تلك غوائل العذاب والخوف ، وكانوا يبدءون
فى قراءة « قل هو الله أحد » بلا انقطاع إذا مدعى أحد إلى
التحقيق وكان الخوف يبدو نبىلاً حزيناً فى عيونهم المذعورة
وقسماتهم المتوجسة ، وأغلبهم لم يمثل أمام المحقق أبداً ،
كانوا من جمعيات شتى وكلهم لايقله السياسة ولادخل له
بها ، وكانوا فى دهشة من وجودهم فى ذلك المكان .

كان الأمر آنذاك أكبر من الدهشة وأبعد عمقا من
الخوف ، لقد ربط الخوف والجوع والألم بين هذه النفوس
جميعا فالتحمت فى رباط قدسى بليغ .

الفصل السادس

عودة إلى التحقيق



ثلاثة أيام مكثتها بالعنبر وأنا أظن أن التحقيق قد انتهى ،
رأيت خلالها من الباب صورة شتى للتعذيب ، وكان مرأى
هذه الأشياء أشد ألما على نفسى من وقعه على أصحابه ، كان
الباب يطل على فناء السجن الذى أطلق عليه اسم
(المحمصة) ، وكان يترك فى هذا الفناء من ينتظرون
التحقيق ، أو من يعدون له ، الكل عارٍ تماما ، كما ولدتهم
أمهاتهم ، وكان الضباط ينصرفون فى المساء إلى بيوتهم
ويتركون هؤلاء دون نوم حتى يحضروا فى الصباح ليستكملوا
مابدعوه بالأمس ، ولم يكونوا يتركونهم دون نوم فقط ، وهو
بحد ذاته عذاب بالغ الألم عميق التأثير لا يشعر بفظاعته إلا
من اكتوى به ، أن يترك الإنسان بلا نوم أياما وأياما ، بل كانوا
مع هذا يستخدمون معهم أعتى أنواع القسر والقهر بنوعيه ،
البدنى والروحى ، وقدر لى أن أكون واحدا منهم بعد زمن
يسير .

كانوا يقفون ووجوههم إلى الحائط وعيونهم تلقها عصابة
سميكة ، وهم على هذه الحال فلا يدرى واحد متى انتهى
الليل ؟ ومتى جاء النهار ؟ والويل كل الويل لمن تحدثه
نفسه بنزع هذه العصابة ، التى تنشر الظلام فى رأسه ، وعلى
كل واحد أن يكرر عبارة بعينها بصوت مسموع ، وإذا بدأ
فى أول الليل فلن ينتهى من هذا إلا عندما يأتيه الأمر فى
مطلع الصباح ، عبارة بلهاء ، لا يتوانى عن تكرارها ، وإلا
هبت عليه ريح العذاب الساخن ، « البحر فيه ملوخية »
هكذا .. يرددّها ساعات طوالا ، وبصوت عال ، أو يختار
رقما ما ، سبعة أو ثمانية ، أو تسعة ، أى رقم ويردده بصوت
عال طوال الليل ، فيصير المكان أشبه بمستشفى المجانين .

ومن يدخل هذا المكان عليه أن يودع النوم والطعام أياما
لا يدري عددها ، وله كوب من الماء كلما تدور الشمس ،
وإذا أراد أن يقضى حاجته فليقضها حيث كان .
وكان هناك من يعلق داخل (المحمصة) على السور
الحديدي ساعات طوالا ، حتى يسقط إعياء من ارتفاع شاهق
فتشج رأسه أو تكسر ساقه أو أى شيء ، ولم يكن هذا محل
اهتمام من أحد .

وكان يعن أحيانا لبعض الضباط أن يتسلى على ساكني
(المحمصة) ، فيأتي ليقضى معهم وقتا طيبا ، يتسلى فيه بكل
الألعاب المعذبة التي يعرفها أو التي يتفتق عنها ذهنه في ذلك
المكان الغريب .

كان يصف الجميع صفا طويلا ، كل خلف الآخر ،
ويقف هو في نهاية الصف ، ويصفع ذلك الذي يقف في
نهايته صفعة قوية مدوية تعوى في سكون الليل ، ويطلب منه
أن يوصلها إلى الذي أمامه ، وهكذا حتى تصل إلى ذلك
الواقف في آخر الصف ، والأدهى من هذا - أن سيادة الضابط
ينظر إلى ساعته ويحسب الوقت الذي تصل فيه رسالته
المؤلمة إلى غايتها ، ويتأفف ويستاء من التهاون والتكاسل من
جانب البؤساء الذين اشتركوا في اللعبة ، فيزمجر ويتوعد
ويهدد ، ويطلب زمنا أقل وسرعة وحماسة وقوة .

ويكون الجميع قد فقدوا قدرتهم على التفكير ، وأصيبوا
بالإعياء البالغ ، فيخفت حسهم الإنساني في هذه اللعبة
القدرة ، ويحاول كل واحد أن يرضى هذا الضابط على أمل
في تخفيف العذاب ، فلا يجد أمامه حينذاك إلا أن يصفع الذي
أمامه بسرعة ونشاط ويصير الأمر بعد مضي ساعة من الوقت
شيئا مهينا مزريا مؤلما بيعث على الرثاء والحزن ، بينما
يضحك الضابط ملء شذقيه ، ولا يكون هناك غير ضحكته
هو وحده .

ومن الضباط الذين أجروا اللعبة فى صف كنت فيه الرائد
(زكريا عمار) .

ومما فعله هذا الضابط أيضا أن جعل صفين يقفان
متقابلين ، كل فى مواجهة الآخر ويطلب من كل واحد أن
يصفع الذى أمامه ، وكانت تتم هذه اللعبة على التناوب ، كل
صف يضرب الآخر مرة ، وينتظر الضابط (الرائد) ليرى من
الذين سيسقطون إعياء ، وكلما سقط فرد من الإعياء يضحك
الرائد ملء شذقيه .

وكان كل واحد من المعلقين فوق السور بيده ورقة ، أو
بجسده ورقة ، كانوا يسمونها (الروشته) بها طريقة
معاملته ، يعنى الاسم ، ومتى يذهب إلى دورة المياه ، ومتى
يتناول كوبا من الماء ، ومتى يتناول رغيفا ، ومتى يضرب
وكانت المدد تقاس بالأيام ، إلا فى حالة الضرب ، ساعتان
بين (العلقه) و (العلقه) .

وفى صبيحة يوم وجدت نفسى فى (المحمصة) مع
زقزقة العصافير ، وأخذت مايسمونه (بالطريجة) وهى
(علقه) بالهراوات ، تناولت فيها مالا يقل عن مائتى هراوة
ثم علقت على الحديد ، وكان على أن آخذ هذه (الطريجة)
كل ساعة ونصف .

وظللت معلقا ثلاثة أيام دون نوم ، وماأفطع هذه الذكرى ،
فهى جملة تأخذ من وقت القارئ أقل من ثانية من الزمن ،
ولكنها كانت بالنسبة لى آنذاك شيئا يجلب عن الوصف ولا
تحيط به الكلمات ، كانت شيئا يذكرنى بالله ، ويخوفنى من
الآخرة وكان معلقا بجوارى أحد الأطباء (ع) - سمعت أنه
ترك مصر إلى غير رجعة - وأشفق على رغم أن حاله ليست
أحسن من حالى ونصحنى أن أظاهر بأنى مصاب بمغص

كلوى حاد ، وشرح لى الأعراض ، ولكنى أثرت أن أحتفظ
بهذه الأعراض فقد يأتى يوم أو تأتى لحظة أجد فيها ما هو
أعتى مما رأيت .

وقد يسألنى سائل ، أهم يهتمون بالمغص الكلوى ؟ نعم
بالقدر الذى يحفظ عليه حياته حتى ينتهى التحقيق ، فحرصهم على
المعلومات يجعلهم حريصين على بقائنا أحياء لفترة أطول .

وجاءت اللحظة ، فتحت على أفواه الهراوات المتوحشة
تحت إشراف الرائد (**فؤاد علام**) وأوشكت على الجنون من
شدة الألم فصرت أصرخ صراخا جنونيا ، مدعيا أننى أصبت
بمغص كلوى حاد ، فكفوا عن ضربى ، فقد كانوا لا يريدون
موتى كما بينت قبل معرفة ما عندى مما يظنون .

وجاء الطبيب الوغد وحقننى بالأتروبين ، وأوصى بأن
أستريح وكانت استراحتى أن أجلس مستيقظا بجانب السور
طول الليل ولم يسمح لى بالنوم بطبيعة الحال .

وكانت ليلة ليلاء ، وكان عذابى فى مقاومة النوم الذى
يهب على من كل جانب يفوق ضرب السياط والكى بالنار ،
والعبرة لمن جرب .

وجاء الصباح وكان علينا أن ننام على ظهورنا ونرفع أرجلنا
فى الهواء ، ومنتظم فى صف طويل ليستعرضنا العميد (أحمد
رشدى) وفى صحبته ثلاثة من رجاله الغلاظ ، وكانت
الأوامر الجديدة أن نرتدى الجاكتات فوق العصابة التى حول
أعيننا ، فلا يبدو من وجه أحدنا شىء بالمرّة ، ويقترّب سيادة
العميد من أول الصف ويسأل :

— من أنت ؟

فيجيبه :

— أنا فلان .

ويذكر اسمه ، وكان العميد يحفظ كل اسم وما يتعلق به من موضوعات التحقيق فيسأله عن بعض الموضوعات ، وعادة لاتعجبه الإجابة ، فيأمر أحد مرافقيه في صوت خفيض :

- خمسين .

أو يقول ثلاثين ، وكان يقول مائة أحيانا . ومعنى هذا الرقم أن يضرب المسئول بالهراوة عددا لا يقل عن الرقم الذى ذكره سيادة العميد ، وكانت الثلاثون تعنى خمسين ، والخمسون تعنى ثمانين ، وهكذا ، وكان الشخص النائم فى آخر الصف عليه أن يظل رافعا رجليه حتى يصل إليه سيادة العميد والويل كل الويل لمن يخفض رجليه من التعب ففى هذه الحالة يبطشون به بطشا مخيفا .

وكان طابور الصباح هذا يستمر من ساعتين إلى ساعتين ونصف ، بعد ليلة منهكة من التمرينات الرياضية والإجبارية والضرب بالهراوات والتعليق على القضبان الحديدية حتى تنسلخ الأقدام ، وبعد أن ينتهى هذا الطابور يصعد كل واحد إلى مكانه من السور ذى القضبان ، وكل ينتظر الذى يحقق

معه .

وأثنى الرائد (فؤاد علام) فقد كان من قرعتى ، أو كنت من قرعته ، ووقف تجاهى خارج السور ، فغضب عندما رآنى معلقا بملابسى ، واستدعى المخبر الموكل بالمحمصة فى تلك الليلة وسبه سبا قبيحا لسماحه لى بارتداء الملابس ، وأفهمه المخبر أننى مصاب بالمغص الكلوى ، وأن هذه أوامر الطبيب (..) وسب الرائد الطبيب سبا مقدعا ، وانتهت المناقشة بأن نزلت من فوق السور وخلعت ملابسى كلها وضربت علقه ساخنة ، صعدت على أثرها إلى مكاني الأول ، واقترب الرائد ولمعت عيناه ببريق مخيف وفى يده ولاعة (رونسون) مشتعلة وصعقت عندما رأيته يقربها من جسدى

العارى ، وتصورت لحظتها أن هذه الشعلة إذا اقتربت من
جسدى فإننى سأموت ولا ريب ، ولكنه حرق بها أجزاء
متفرقة اختارها بلا اهتمام ، ولم أمت رغم أن أنفى قد امتلأ
برائحة الجلد المحترق .

ويبدأ الحوار اللزج السخيف :-

- ألا تنوى الكلام ؟
- عن أى شىء .
- فى هذه المرة نريد شيئاً محدداً .
- وما هو ؟
- ماذا تعرف عن يحيى حسين ؟
- لقد قلت كل ما عندى ، ولم يبق هناك جديد أقوله .
- هل كنت تعرف أنه عضو فى تنظيم الإخوان ؟
- كلا .
- متى قابلته آخر مرة .
- منذ عدة شهور .
- كأنه لم يمر عليك قبل هربه إلى السودان ؟
- لم يحدث .
- إذن فأنت عضو فى تنظيم الإخوان ؟
- كلا .
- لماذا لست عضواً فيه ؟
- من الصعب الإجابة على هذا السؤال .
- وضح كلامك ؟
- أترى أنه ينبغى أن أكون عضواً فى تنظيم الإخوان ؟
- هذا ما ينبغى عليك أن تشرحه لنا .
- لم يعرض على أحد الإخوان أن أشارك فى تنظيمهم
الذى تقصد .
- رغم أنك تعرف ذلك العدد الكبير منهم ؟
- رغم أنى أعرف العدد الكبير منهم .

- أنت تكذب .
- وأين الحقيقة ؟
- الحقيقة أنك عضو فى تنظيم الإخوان ويجب أن تعترف بهذا . أتفهم ؟
- أفهم .
- هيه ، ماذا قلت ؟
- وماذا يمكننى أن أقول بعد قرارك ، أنا عضو فى تنظيم الإخوان .

- وعلى علاقة بقيادة التنظيم !
- وعلى علاقة بقيادة التنظيم .
- بل أنت أحد قادة التنظيم .

-
- لماذا تسكت ؟
- لأدري ما أقول .
- وبصوت كالفحيح يقول الضابط :
- بل عليك أن تقول وإلا ساءت عاقبتك .
- اتفقنا .
- على أى شىء ؟
- أنا أحد قادة التنظيم .
- ستكتب اعترافا بهذا أليس كذلك ؟
- شريطة أن أنجو من الضرب .
- اتفقنا سوف تنجو من الضرب ، هيه ، ماذا ستكتب ؟
- سأكتب أنى عضو فى جماعة الإخوان .
- ثم تعطينا التفاصيل عن تنظيم الإخوان وعن قيادة التنظيم .

- هذا المحال بعينه يأسياً الرائد ، لن أكتب حرفاً أكثر
من الجملة التي ذكرت لك ، وافعل ما بدا لك فليس في
استطاعتي أكثر من هذا ، صدقني .

وتدور رحى العذاب ضروساً بشعة تحمل معها التعاسة
والألم والشقاء . كان ذلك قبل قرار الاعتقال العام الذي صدر
بتاريخ ٦ - ٩ - ١٩٦٥ فقد تغير كل شيء بعد صدور هذا
القرار الذي ينص على اعتقال كل من سبق اعتقاله ، ويفوض
وزير الداخلية باعتقال من يشتبه فيه ، ولهذا قصة أخرى .

جاء أكبر وارد إلى المعتقل قبل قرار الاعتقال العام يوم
٣ - ٩ - ١٩٦٥ وكان في ذلك الوارد شقيقى الذى لم
تكن له في ذلك الحين علاقة بشيء سوى معرفته بأحد
أصدقائى ، وفي مناسبة ما أرسل له خطاب مجاملة عاديا ،
وضبط هذا الخطاب عند صديقى هذا الذى اعتقل بسبب
علاقته بىحيى حسين هو الآخر ، وكانوا يقبضون على أية
أسماء يجدونها مكتوبة في أوراق ما في حيازة أحد
المعتقلين ، ولو كانت هذه الأوراق صكوك دين .

وكان هناك مأخفيه عن المباحث العامة ، ولم يكن
مأخفيه ذا علاقة بأمن الدولة ونظام الحكم في نظرى ،
وكشف واحد من أصدقائى عن بعض مأخفيه بعدما جهدت
نفسى في إخفائه طيلة أيام التحقيق الأولى ، وكان هذا
الصديق قد اعتقل بسبب وجود بطاقة تهنئة تحمل اسمه في
منزل أحد الذين سبقوه وتمكنت من مقابله لحظة حضوره
وأفهمته سبب اعتقاله وأن عليه أن ينسى ذلك الأمر الآخر
الذى حرصت على إخفائه ، ولكن الرجل سامحه الله صار
يهذى من شدة العذاب وقال مايعرف وما لايعرف ، وأتوا بى
ووقعت الواقعة ، وأظلمت السماء ، وقامت الدنيا وقعدت .

ثم جاء يوم ٦ - ٩ - ١٩٦٥ الذى كان شبيها بيوم الحشر ، فقد وصلت دفعة ضخمة من المعتقلين من أهل الصعيد تزيد عن سبعمائة شخص يمثلون نصيب معتقل التحقيق من هذا القربان البشرى الذى يقدم على مذبح القوة .

أمروا جميعا أن يضعوا أمتعتهم فى مكان واحد فصار كل واحد يقذف أمتعته فى دعر حقيقى ، وماهى إلا لحظة أو تكاد حتى تجرد الجميع من ملابسهم ، وكانوا يجرون ويتخبطون وهم عراة من شدة الضرب كالقثران المذعورة فى مصيدة كبيرة ، وكان المكان لايسمح لمناورات واسعة ، ولايستطيع واحد فينا أن ينسى منظر الهلع البالغ الذى ارتسم فى أعين هؤلاء البائسين وهم يرون جثثنا معلقة على الحديد وقد سالت منها الدماء ، وفاحت رائحة الصديد ، فكانوا يسقطون من الخوف والذعر والإنهاك .

وكانت الصرخات تدوى فى كل مكان. أما نحن الذين علقنا على الحديد قبل وصولهم فقد تحررنا من الخوف إلى حد ما وهذا بعد أن ألفنا الجلادين ، ولكن الشيء الذى لم أستطع أن أتحرر منه رغم محاولاتي المتكررة كان الألم .

وكم حدثت نفسى أن الألم عبارة عن فكرة موجودة فى مركز ما من مراكز المخ ، وبفكرة أخرى أقوى منها أستطيع أن أتغلب على الفكرة الأولى ، وهكذا يختفى الألم ليفسح مكانا للفكرة الثانية ، كنت أحدث نفسى هذه الأحاديث فى كل مرة أعلق فيها وأركز تفكيرى وسرعان ما يتبدد كل شيء عند أول لفحة من لفحات العذاب وربما كان تصورى هذا صحيحا ، ولكن لا بد للفكرة البديلة أن تفوق الألم عنفا وسيطرة وقوة .

كان التعذيب في أبي زعبل يعتمد أول مايعتمد على القهر
الروحي ، التجريد من الملابس فتضيع قيمة الإنسان أمام نفسه
ويشعر أنه شيء مباح لاقيمة له ولا وزن ثم الإهانة الفائقة
التي تهز كيانه هذا عنيما مزلزلا ، وبعد ذلك الضرب المبرح
والكي بالنيران والتجويع والعطش الشديد .

وكانت آلة الضرب الأساسية في أبي زعبل هي (الهراوة)
ولذلك حكمة ، فالهراوة لاترك أثرا كبيرا في الجسد ، أو
من الممكن أن يداوى هذا الأثر بعد حين قريب أو بعيد ،
ولو أنها قتلت أشخاصا في أحيان كثيرة .

وكانت المباحث العامة لا تلجأ للسيط إلا فيما ندر ،
وربما لمزيد من الإرهاب والتخويف فلصوتها فحيح يبعث
الخوف في أشد القلوب جسارة .

ويكمن الفرق بين المباحث العامة في أبي زعبل والمباحث
الجنائية العسكرية في السجن الحربي أن الأولين أكثر مهارة
وفنا في التعذيب ، وكان الآخرون أشد قسوة واستهانة ، فلا
عجب أن يكون عدد القتلى في السجن الحربي ضعفه مرتين
في معتقلات المباحث العامة .

كان صديقي الذي كشف ماكنت أخفيه يقضي معي
أمسيات شهر أبريل ومايو من عام النكبة عام (١٩٦٥) في
استذكار الدروس ، ولعل من المناسب أن أعرج على ما كنت
أود أن أخفيه عن المباحث العامة ، مجرد نشاط ديني
وثقافي .

دراسة لأحوال العالم الإسلامي ، إلقاء محاضرات يعدها
بعض منا ، تلقى كل حين من الوقت عندما يتسنى ذلك ،
وكنا قد بدأنا بداية طيبة حتى فتح باب الاعتقال والتشريد ،
وكان لقاؤنا للاستذكار ، ثم لاستكمال هذا النشاط ، ولو

كنت حكيت لهم هذا لما صدقوني ، وفكرت وقدرت
ورأيت أن أخفي هذا عليهم ، ثم جاء المسكين وقص عليهم
القصة ببساطة في أول الأمر ، ولم يكن هذا التبرير كافيا
عندهم فلا شك أننا كنا نجتمع في مؤامرة لقلب نظام الحكم .

كان الشعب بأكمله يتآمر لقلب حكم عبد الناصر ، هكذا
كانت تظن أجهزة الأمن العديدة في مصر ، وكان لا بد
لصديقي أن يعترف أن الأمر مؤامرة بعد أن أخذ نصيبا من
الضرب يفوق العقل ، وحتى يكون التآمر واضحا لأبد من
(سيناريو) جيد ، وكان من الصعب إعداد مثل هذا
(السيناريو) الجيد ، بعكس الاعترافات ، فمن السهل التوقيع
على الاعترافات ، وقد رأيت أنني في جولة التحقيق الأولى
كتبت مأملا على الرائد (فؤاد علام) ووقعت عليه
بإمضائي ، ولعلني لا أذكر الآن ماذا كتبت بالضبط ، ولكنه
كان (سيناريو) هزيلا لتآمر مزعوم ضد حكومة كرهها
الشعب من أعماقه وصار ينتظر ساعة الخلاص منها .

قلت للرائد لآمانع من توقيع اعترافات جديدة ، ولكن ،
أليست الاعترافات الأولية كافية ؟
وامتلا صوتاه بالغضب وهو يزمرجر :
- احنا بنزور يا ابن الكلب ؟ نريد حقائق .

ولم يكن أمامي عند ذاك غير الاستسلام للتعذيب وإطفاء
السجائر في أنحاء جسدي حتى ان وجهي صار (منقرشا)
من كمي السجائر لمدة طويلة ، وزاد الطين بلة اعتقال آخر
من أصدقائنا ، وكان شديد الخوف يصيبه الفرق من أقل
شيء ، وساعد هذا في إعداد (السيناريو) الخاص بالتآمر
المزعوم ، ولم تعد هناك فائدة من الدفاع بل علينا أن نتقن
الكذب حتى ننجو من العذاب . فالاعتراف بالتآمر لا يكفي ،

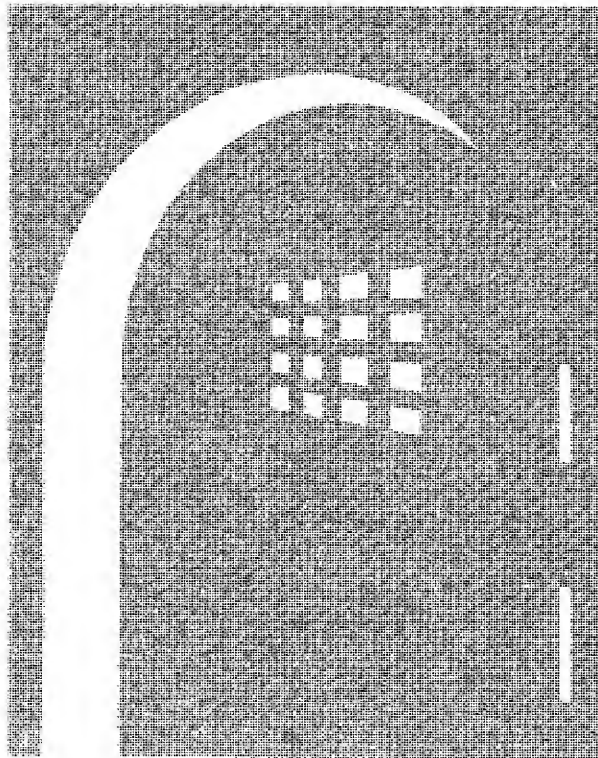
بل يجب أن تكون الأحداث متناسقة ومنسجمة مع بعضها البعض ، وكم مات كثير من الشهداء من أجل هذه الغاية بلا فائدة .

وكانت العبارة المشهورة على ألسنة المحققين :
- سوف تموت ليس في هذا شك ، ولكن لا بد أن تتكلم أولاً .

كان الأمر كما قلت ، أجهزة الأمن تنظر إلى الشعب كله على أنه متهم بالتآمر ضد نظام عبد الناصر ! وكل ما ينقص هذه الأجهزة هو جمع أدلة الاتهام لتقديم المواطنين للمحاكمة ، وكان لا بد لهم من هذا ليثبتوا أنهم جديرون بالوظائف والمناصب التي يتسمنونها ، فلو كانت الأمور هادئة مستقرة والشعب منصرف إلى حاله يصنع الحضارة كما يقول بعض المؤرخين فما فائدة وجود هذه الأجهزة التي لا أول لها ولا آخر ؟ ومن أين تدفع المخصصات الضخمة الكثيرة للحفاظ على أركان الدولة ؟ كانت المسألة مسألة حياة في المقام الأول بالنسبة للمباحث العامة والمباحث العسكرية والمخابرات العامة ، والمخابرات العسكرية ، ومخابرات رئاسة الجمهورية ومكتب المعلومات التابع للمأسوف على شيا به سامى شرف سكرتير عبد الناصر ، وكان لكل من هؤلاء أكثر من مخبر في كل شارع وكل قرية وكل مدينة وكل مصلحة حكومية أو غير حكومية ، كان عدد المخبرين التابعين لأجهزة الأمن أكثر من عدد المواطنين في ذلك الزمن الغابر الذى ذهب ولن يعود . بإذن الله .

الفصل السابع

ذكریات من معتقل أبی زعبل



مكثت في أبي زعل سبعه عشر يوما ، فقد دخلته يوم ٢٨
أغسطس وغادرته في ١٣ من سبتمبر من نفس العام
(١٩٦٥) ولم أذق في هذه الأيام طعما للراحة في أية لحظة
من اللحظات ، وقد يسر لى وجودى في (المحمصه) أن
أرى أشياء عجيبة غريبة فمثلا :

اعتقلوا أحد المواطنين وعند تفتيشه وجدوا في جيبه قائمة
فيها أحد عشر اسما وكان من الطبيعى أن يعتقلوا أصحابها ، لم
يكن صاحبنا يعلم ، وكان معلقا بجانبى على الحديد وزاد
اشتباه رجال المباحث في أصحاب هذه الأسماء عندما
وجدوهم من الطلاب ولايزيد أكبرهم عن عشرين عاما ، فلا
شك أن هؤلاء هم (الخامة) الجيدة للتآمر ضد نظام الحكم
واستمر ضرب أصحاب الأسماء أكثر من ثلاثة أيام حتى
يعترفوا بما كانوا يتوونه من انقلاب ضد نظام الحكم بلا
فائدة ، فلم يكن هناك تنظيم ولا يحزنون ، وأشرفوا جميعا
على الموت وفي النهاية اضطروا لسؤال ذلك الرجل الذى
وجدوا في جيبه القائمة وكان من السخرية البالغة أن يعلم
الجميع بعد ذلك أن صاحبنا قد اختار هذه الأسماء ودونها
دون علم أصحابها ليشكل منهم فريقا من كرة القدم فى نادى
القرية .

ومن الأشياء الطريفة أيضا أنهم يكتشفون حديثا معينا دار
بين زيد وعمر من الناس فى مقهى من المقاهى فى يوم من
الأيام ، فيتم اعتقال رواد المقهى لاستكمال التحقيق بالطريقة
التي نعرفها والتي حكيت عنها آنفا .

كان الأمر بالغ الإثارة وبالغ الغرابة أيضا ففى أبى زعل
رأيت الابن وهو يجلد أباه بالسوط والأب يصرخ والابن
يصرخ أيضا وقد انتابت الجميع حالة شبيهة بالصرع الذى
كان يحكى عنه (دستويوفسكى) فى كتاباته .

ولم أنس تلك الليلة من ليالى أبى زعبل بعد أن امتلأ المعتقل عن آخره بالمعتقلين إذا بهم يصدرون أمرا بأن يضع كل واحد العصاية على عينيه ولعلكم تذكرون أن بناية المعتقل مكونة من ثلاثة طوابق وصدر الأمر الثانى وكان ينفذ تحت الضرب بالهراوات .

كان على جميع العنابر أن تتجمع فى فناء (المحمصة)، وكان على جميع المعتقلين أن ينزلوا على أيديهم وأرجلهم ويصدرون صوتا شبيها بصوت الأغنام عندما تصدر عن المرعى الخصب ولم يكن النزول بنظام بطبيعة الحال ، فالكل عرايا والكل معصوب العينين فكانت موجة عارية من البشر تنساب بائسة على درج المعتقل تحت وطأة الهراوات وصيحات التخويف والقهر .

واكتظ فناء (المحمصة) بذلك العدد الكبير ، وكان لابد من جلد هذا العدد جميعا واحدا واحدا ولم يكن الحرس يكفون لهذه المهمة الشاقة فاستعانوا بكل من وجدوه فى ذلك اليوم من موظفين مدنيين وممرضين والذين يعملون فى مخبز قريب تابع لليمان أبى زعبل ، وجلد الجميع جلدا وحشيا رهيبا لم ينح شيخ أو مريض أو جريح أو طفل ، وسمعنا أنها أوامر رئاسة الجمهورية بجلد ذلك الجمهور الغفير .

جلد فى هذا اليوم أكثر من ألفى شخص يسبحون الله تعالى ، ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، كل من كان فى المعتقل فى ذلك اليوم ، كان الجميع يعصبون أعينهم ويتخبطون وهم مذعورون وتعالى صراخ الجميع فى الفضاء مع عتمة الليل القاتمة ولا مغيث .

الشهود على هذا الحادث كل من كان فى معتقل أبى زعبل السياسى فى النصف الأول من سبتمبر (أيلول) عام (١٩٦٥) وأغلبهم لا يزال على قيد الحياة .

ولن أنسى فى ذلك اليوم ضابط الشرطة حديث التخرج
الذى كان يركب بحرقه فى زاوية من مناظر التعذيب المفزعة .

وفى أبى زعبل كان بجوارى على بعد أمتار شخص ظل
يطلب الماء ليشرب طول الليل ولم يسقه أحد وفاضت روحه
عند الفجر وسكن إلى الأبد .

ولعل أحدا من الذين استضافتهم المباحث فى أبى
زعبل لا ينسى ليلة ٣١ أغسطس الرهيبة يوم أعلن عبد الناصر
بنادى الشباب السوفياتى بموسكو إكتشاف مؤامرة للإخوان
المسلمين وأنه عفا عنهم عام ١٩٥٤ ولكن هذه المرة لن
تكون هناك رحمة ، وقد صدق . فقد تحول المعتقل بعد هذا
التصريح إلى سلخانة بشرية (مسلخ) .

وفى أبى زعبل رأيت شقيقى الأصغر مع عدد كبير من
أصدقائى وهم يجلدون عراة من ملائمتهم .

وفى أبى زعبل ودعت كل أمل فى المستقبل فى حين
سلمنا ضابط الترحيلات وكان الضابط الذى استلمنا قد دقق
فى الاستلام ، وصار يحصى المعتقلين بحرص ، فقال له :
-- لا تهتم أى عجز فى العدد ممكن أن أسدده ، كأنما
يسلمه قطيعا من الخراف .

وفى أبى زعبل رأيت الدكتور أحمد الملط أستاذ جراحة
القلب وهو يركب ويضرب بكل أدوات الضرب المعروفة وغير
المعروفة حتى فقد النطق .

وهناك أيضا رأيت مئات الأبرياء لا يعلمون سبب القبض
عليهم وحتى الذين اعتقلوهم لم يكونوا يعلمون أيضا .

وفي أبي زعبل عرفت أن وسائل التعذيب والإرهاب التي استخدمتها المباحث العامة ضد المواطنين فاقت كل ماتم في عصور الإرهاب والاضطهاد عند الرومان أو الفرس ، أو في عهود الاضطهاد الديني المختلفة أو محاكم التفتيش فقد قرأت عن هذا في كتب التاريخ ولكن ما جربته بنفسى كان شيئا مختلفا تماما عن كل ماسبق أن قرأته وكان يفوقه همجية وفحشا وإمعانا في التشكيل .

ولأنسى ذلك اليوم الأول لاعتقالى يوم تكلم معى أحد الضباط بالمنطق وقال لى :

- لقد سمعت أنك مثقف ودائم الاطلاع والقراءة .
- لعل هذا يشفع لى عندك .
- بالنسبة لى لن أفعل معك شيئا ، لايمكننى أن أضرب إنسانا مهما كان المبرر قويا وملحا . ولكن هل قرأت شيئا عن محاكم التفتيش ؟
- نعم .

وفي صوت فاحش منه رائحة الحزن قال هذا الضابط :
ما ستره فى هذا المكان يفوق كل ماقرأته بشاعة ، وقلت له
فى فزع :

- ولكن ، أيفعل هذا معى ؟
- نعم ، ولماذا يستثنونك ؟
- ألا يشفع لى شىء ؟
- سؤالا الله نفسه يستطيع لك شيئا .
- ثم أكمل بصوت كفحيح الأفاعى :
- هذا المكان لا يدخله الله ولايعلم عنه شيئا ، وسترى بنفسك مدى صدقى .
- وماذا أفعل ؟
- تكلم ، قل ماتعرفه ، احك عن كل شىء ، المؤامرة واتصالك بالمتآمرين .

- ليس هناك شيء من هذا .
- لافائدة ، المفروض أنك تعرف .
وهكذا كان كل إنسان يدخل هذا المكان الذى لا يدخله
الله - فى زعمهم - عليه أن يكون متآمرا ضد الحكومة ، وإلا
فهو يغامر بروحه تحت وطأة تحقيق لا يعلم كيف تكون
نتيجته .

ولقد صدق الضابط معنى فى واحدة وكذب فى الأخرى .
صدق حين قال إن التعذيب الذى سأراه يفوق ما كان
يحدث فى محاكم التفتيش فى ظلمات القرون الوسطى ، فقد
كان هذا مارأيته فيما تلا ذلك من أيام ثقال طوال ، تنكيل
جعل الكثير يتمنى الموت فى كل دقيقة وكل لحظة ، وآلام
نفسية مزقت نفسى وروحي من جراء مارأيت من أناس
يلفظون أنفاسهم تحت وطأة السياط ، وأنا أعلم أنهم أبرياء
وكان منهم من يتمتع بروح بطولية عالية ، فقد كان بعضهم
يسخر من الجلادين ويهزأ بهم وبينه وبين الموت لحظات .
وكذب الضابط حين قال : إن هذا المكان لا يدخله الله
ولا يعلم عنه شيئا ، فقد كان الله هناك ، ورأيته مرارا وأنا تحت
وطأة الهول القاسية ، ومأظن أننى كنت أعرفه سبحانه وتعالى
معرفة حققة قبل أن أذهب إلى ذلك المكان الذى يقوم على
الشاطئ الآخر من الحياة .

فى أبى زعبل رأيت المهندس الزراعى (محمد نجيب
زكى) ذلك الذى كنت أعرفه منذ مدة وكانت علاقتى به
سطحية ، كان يسكن مع الصديق (محمد الغنام) الذى
كنت أتردد عليه وخرج الجميع من كلية الزراعة ، الدفعة
المنكودة ، دفعة يحيى حسين ، وفرقت الأيام بينهم وذهب
كل فى حال سبيله ، وقابلته أنا و (محمد الغنام) فى الطريق
صدفة ، عندما كنا نسير فى حى الزيتون ذات مساء ، وكان

لقاء وأشواق وسلام ، وعرفنا أنه يعمل فى محافظة
(سوهاج) فى مديرية الزراعة ، ولحظه العس أنه كتب
عنوانه على قصاصة صغيرة من الورق ، وسلمه للصديق
الآخر .

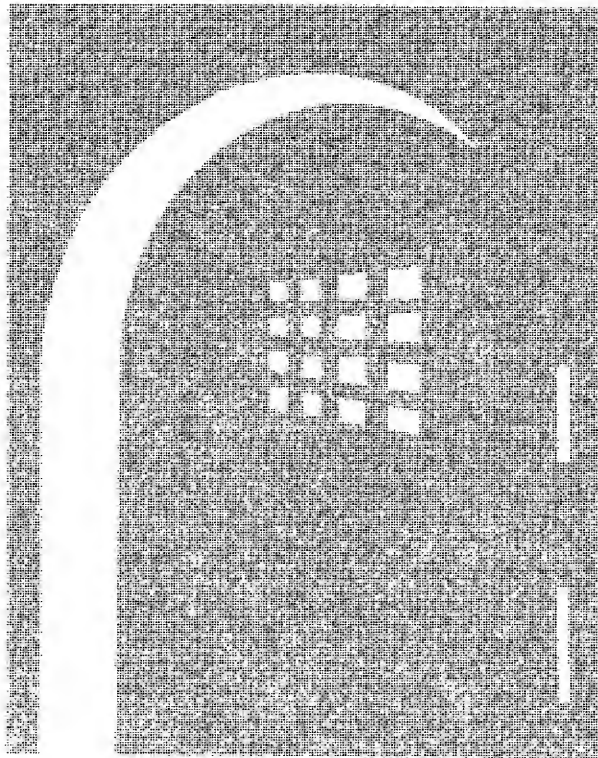
ومرت الأيام ولم يلتقيا بعد ذلك ، وجيء بصاحبنا
(محمد نجيب زكى) مكبلا بالحديد من سوهاج وهو
يضرِب أخماسا بأسداس ، وفى أبى زعل سئل عن التنظيم
سؤال الملكين ، وكان عذابه قاسيا شديدا مريعا ، وهو
لايدرى شيئا ، ولازلت أذكر عندما رأيته وهو يرحف عاريا
والحديد فى يده وهو يكاد يجن من شدة الألم .

واضطر فى النهاية أن يعترف بعضويته للتنظيم السرى ،
وحاول أن يجعل لاعترافاته وزنا أو قيمة فلم يفلح ، فهو لم
يكن يعرف شيئا عن التنظيم ولم تكن ثقافته لتسمح له بالتصور
المعقول فى مثل هذه الأمور .

أصيب هذا الشخص بانهيار عصبى ، لازمه سنوات
الاعتقال ثم أفرج عنه محطما كتيبا بعد ثلاث سنوات .

الفصل الثامن

الذهاب إلى السجن الحربى



قضيت ليلة ١٣ سبتمبر (أيلول) (١٩٦٥) ساهرا معلقا
على الحديد فى (المحمصة) وعندما أشرق الصبح سحبت
معصوب العينين إلى (الفيلا) المجاورة للمعتقل والتي يجرى
فيها التحقيق ، وكان يوما مرهقا حارا ضربت فيه ضربا فاق
مامر بى من أيام الجلد والتعذيب .

ووجدت الرائد (فؤاد علام) يعتصرنى عصرا ليحصل
على معلومات وهمة جديدة ، وكنت أؤكد فى كل دقيقة
أنه لا يوجد عندى غير ماسبق أن قلته له من قبل ، لست عضوا
فى التنظيم واسألوا أصحاب التنظيم وعلاقته ببعض أفراد
كانت علاقة سطحية ولم يفكروا فى ضمى إليهم فى يوم من
الأيام اسألوهم .

- طيب ، وعلاقتك بحزب التحرير الإسلامى ؟
- دى مصيبة ايه دى !! لاعلاقة لى به .
- والكتب التى ضبطت فى منزلك من منشورات
الحزب ؟
- كانت تباع فى مكتبات القاهرة ، وأرسلوا واحدا من
حضرات المخبرين يأتىكم منها بالمثلث .
- وماسر اهتمامك بهذه الكتب ؟
- الثقافة ، المعرفة ، لا بد للإنسان أن يكون داريا بما يدور
حوله من أحداث .
- وصلنا إلى بيت القصيد ، لا بد أنك تعرف شيئا عن
تنظيم الإخوان .
- لاحول ولا قوة إلا بالله !! لماذا ؟
- أنت تقول إنه لا بد للإنسان أن يكون واعيا بما حوله ،
واهتماماتك إسلامية وتنظيم الإخوان يقع تحت هذا النطاق .
- يا أفندم ، هذا التنظيم الذى تتكلم عنه سرى أم علنى ؟
- سرى . يا ابن الكلب .

- فكيف يتسنى لى معرفته اذن ؟
- وفى ثورة جامحة يقول الرائد :
- يا ابن الكلب . ماكلهم قالوا: إنك فى اللجنة الخماسية .
- يانهار أسود ، اللجنة الخماسية مرة واحدة ؟ هذا كلام غير صحيح وغير منطقي ، اسألوا اللجنة الخماسية .
- وإذا سألناها وظهر أن هذه هى الحقيقة ؟
- فى هذه الحالة يحل لكم الضرب بالرصاص .
- فى هذه الحالة سوف تضرب بالأحذية حتى تموت .
- هكذا فى حوار متكرر ، المضمون نفسه ، وربما الألفاظ نفسها .

وعند العصر أدخلت ثانية على الرائد (فؤاد علام) وبلا مقدمات سألتنى :

- هل تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟
- وماحكاية شعبان هذا ؟
- يا ابن الكلب لما اسألك تجاوب .
- « كام صفعه وكام كرباج على اكتافى »
- حاضر يافندم .
- هيه . تعرف شعبان بتاع الخانكة ؟
- كلا . لأعرف واحدا بهذه الصفة . وليس من معارفى من يدعى شعبان ، ولم يكن لى فى أى يوم من الأيام معرفة بشخص اسمه شعبان ، وعلى استعداد لكتابة إقرار بهذا .
- فكر جيدا ..
- يافندم أنا فاكر ، وعلى ثقة من أننى كذلك ، لأعرف شخصا اسمه شعبان سواء كان من الخانكة أو من أى بلد آخر .
- أنت مصيبتك ثقيلة .
- وهل هناك مصائب أثقل من هذا ؟
- ستعرف الآن إذا كان هناك ما هو أثقل من هذا أم لا .
- سوف ترى .

-- والله العظيم ما أعرف أحدا اسمه شعبان .
-- دعك من هذا . جهز نفسك ، سوف تذهب الليلة إلى
الحربي .

ولو أن شخصا أطلق على الرصاص في هذه اللحظة لما
شعرت ، تجمع الخوف والهلوع في قلبي مرة واحدة ، فقد
كنا في تلك الأيام نسمع أساطير عن السجن الحربي ،
وبالرغم من كل مامر بنا من عذاب ، فقد كنا نعلم أن عذاب
السجن الحربي لا يفوقه عذاب غير عذاب الآخرة ، ولم
أفكر لحظة أنه يمكنني الذهاب إلى هناك .
واستعدت رباطة جأشي عندما ظننت أن هذا الكلام لن
يعدو إرهابا وتخويفا من الرائد ، أما الذهاب إلى هناك فذاك
شيء بعيد جدا ، أين نحن من السجن الحربي ؟

واطمأنت نفسي قليلا .
واقترب الملازم عصام الشوكي ، ورفع العصا عن
عينى ، وطلب منى أن أتبعه إلى المعتقل ، حتى أتى
(بحاجاتى) وأسلم ملابس السجن ، فقلت لنفسي : هذا إمعان
فى الإرهاب والتخويف ، فلا تظاهر بالخوف لأرضى غروره .
وسلكنا الطريق إلى المعتقل ، وكانت أول مرة أسير فيها
مفتوح العينين ، ورأيت أكوام الزلط التى كنت أتعثر بها ،
والأشواك التى طالما أدمت قدمى فى ذهابى ورواحى ،
ورأيت الحرس فوق الأسوار شاكى السلاح ، وينظرون شذرا
فى اتجاههم كأنهم الشياطين .

وعند باب المعتقل رأيت عربة كبيرة من النوع الذى
يستخدم فى نقل المعتقلين ، مثل الأخرى التى جئنا فيها من
معتقل القلعة ، ولعب الفأر فى عبي ، ربما يكون الأمر جدا .
وتكلم الملازم عصام الشوكي وكأن صوته يأتى من مكان
سحيق :

- أنت ستذهب إلى السجن الحربى الآن .

-- لماذا ؟

- لأدري لماذا يطلبونك ، ولكن لو ظهرت لديك أقوال أخرى غير التى قلتها فمعناها أننا لانعرف عملنا ، وهذا وحده سيكون كافيا لقتلك عندما تعود إلينا مرة أخرى .

وهبطت على شياطين الخوف من كل مكان ، المسألة جد إذن ، ساعدنى يارب ، ودخلت مخطوف اللون شارد الذهب ، وبحوار السلم كان يجلس اثنان وعشرون ممن سيذهبون معى إلى الحربى ، ونظرة واحدة ناحيتهم تبين الحالة السيئة من الخوف الذى يركبهم ، كانوا يجلسون القرفصاء صفر الوجوه ، ناكسى رؤوسهم ، وأغلبهم كان يرتعد رغم شدة الحرارة .

وسلمنى الملازم عصام إلى الرائد قائد الرحلة إلى الجحيم . وسألتى :

- أين ملابسك التى اعتقلت بها ؟

- فوق ، فى العنبر .

- أسرع يا ابن الكلب وأت بها على الفور .

ودخلت العنبر فوجدته قد اكتظ على آخره بالمعتقلين ، وأصبح شبيها بالأتوبيس المزدحم ، ووجدت المعتقلين القدامى الذين كانوا معى حين دخلنا فيه لأول مرة ينتظروننى ، وتقدم أحدهم وواسانى .

- شد حيلك ، احنا عرفنا أنك ذاهب إلى السجن الحربى .

- الموت حق ، والساعة حق ، والله يبعث من فى القبور .

وصرت أتمتم بدعائى وأحاول أن أستجمع نفسى فلا أستطيع ،

وارتديت بذلتى التى اعتقلت بها ولففت ملابس المعتقل

ووضعت فى اللفة القروانة والطبق الصغير والملقعة الألونيوم

الجديدة ، وكنت أول من استعملها بعد أن صنعت .

وودعنى كل من فى العنبر بالدعاء وداعهم لشخص يساق
إلى الموت .

هبطت إلى الدور الأول حتى أسلم هذه العهدة الحقيبة
وأستلم أماناتى ، وكانت عبارة عن ثلاثين قرشا ، كانت كل
مامعى لحظة اعتقلت ، وصرت بعد ذلك أتنقل بها من معتقل
إلى معتقل ، وقد أحسست ساعتها أن المعتقل عزيز على
نفسى لأن المكان الذى أتنزع إليه شبيه بالجحيم ، لحظتها
أدركت نسبية الأشياء ، والأمر الذى ملأنى فزعا أننى رأيت
الجلادين وهم ينظرون ناحيتنا - نحن الزاهبين إلى الحربى -
نظرة مليئة بالشفقة والرثاء العميق ، معنى هذا أنهم يعلمون
أن الذهاب إلى هناك يعنى عذابا أكثر مما يدور فى هذه
الطاحونة ، ومعناه أيضا أن مايجرى فى السجن الحربى قد
أثار الشفقة فى هذه القلوب المتحجرة شديدة القسوة !!

- أين النجاة يارب ؟ لابد أن يبلغ الكتاب أجله .

وفى قيد من حديد وضعوا كل اثنين منا ، ثم ربطوا هذه
القيود فى جنزير طويل وهكذا أصبحنا جميعا كتلة واحدة ،
ربط الألم بينها ، ولم ينسوا أن يعصبوا أعيننا ، وتم هذا كله
فى جو من الإرهاب الشديد الذى تمثل فى الركل والصفع
والسب القبيح ، ثم ألقوا علينا تحذيرا أخيرا ، من يفتح فاه
بكلمة فى الطريق سيكون مصيره الضرب بالرصاص ، دون
رحمة أو شفقة .

ولم يكن لهذا التحذير قيمة فلم تكن عند واحد منا رغبة
أو قدرة على النطق بكلمة ونحن فى طريقنا إلى السجن
الحربى حيث الموت الذى لالون له وماكان الموت بالشئ
الذى يخشاه واحد فىنا بل العذاب .

وكان معنا فى هذه الشاحنة اثنان من المخبرين . كنا نحن
نرتعد من الخوف ، وكانا هما يسخران منا ويسباننا .
قال أحدهما :

— يكون حظكم من السماء لو نزلت هذه الشاحنة فى
الترعة وتمم عن آخركم .

وكانت السيارة تسير فى طريق ترعة الإسماعيلية وأمامها
عربات شرطة ، وخلفها كذلك ، هكذا فهمنا من كلام
المخبرين ، ثم قال الثانى :

— أنتم لاتدرون ماينتظركم فى الجحيم الذى تذهبون
إليه .

ووجدت شفتى تهمسان بدعاء حار لله سبحانه وتعالى ،
أن يستجيب لهذا المخبر وتسقط الشاحنة بنا فى الترعة ونغرق
عن بكرة أبينا ، وتمنيت لو كانوا أتموا شئقى فى يوم مضى ،
وقدر الله أن نعيش التجربة ، ولم تسقط العربة فى الترعة .
وعلمت فيما بعد أن كل واحد من الذين معى قد داعبته
الأمنية نفسها وتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء .

وبعد حوالى ساعتين من السير بالشاحنة على ضفاف ترعة
الإسماعيلية التى لم نرها فى رحلتنا ، وملامسة البضحيج فى
شوارع القاهرة ، الهادرة بالأصوات المتباينة ، وهى لاتعلم
عن منكوبى الرحلة البائسة ، ثم التسكع قليلا فى بعض أقسام
الشرطة ، وفى مبنى المباحث العامة .

وفجأة وجدنا الضجة تخفت والضوضاء تتضاءل ، ثم
لايقطع علينا خوفا غير صوت محرك الشاحنة ، عند ذلك علمت
أننا قد دخلنا فى منطقة (مدينة نصر) حيث يقبع السجن
الحربى الرهيب بجدرانته الحجرية الباهتة وبوابته السوداء ،
حيث يتحدى الحرية والشعب فى سلاطة ووقاحة .

وكان عقلى يمور ويثور ، وروحي تتخللها الأفكار على مدى
قسوة الإنسان بأخيه الإنسان فى هذا المكان الرهيب الذى
يسمونه بالسجن الحربى ، ولماذا يطلبوننى فيه ؟ وماذا يمكن
أن أجد هناك ؟

ووقفت الشاحنة ، وفى لحظة تجمد الزمن فى ذهنى من
الخوف ، ثم استيقظت بعد فترة غير محدودة فى شعورى
على صوت الجنزير الحديدى والقيد فى يدى يشدنى إلى
خارج الشاحنة ، كنا جميعا مقيدى فى سلسلة واحدة ،
سلسلة باردة صلبة قاسية تبعث البرودة فى الأعماق رغم
سخونة الهواء الجاف فى سماء مدينة نصر .

ونزلنا من السيارة على عجل ، وعيناي معصوبتان ووصل
إلى أذنى صوت ضئيل سرعان ما علا وارتفع حتى صار
مجسما مخيفا يملأ أذنى وكيانى كله .

كان هذا الصوت هو صوت السياط وهى تمزق الهواء
والأجساد ، وتعوى بين هذا كله عواء مخيفا ، كأن ذئاب
الأرض قد اجتمعت جميعا فى صعيد واحد ، ثم صراخ
الإنسان المتعالى فى الفضاء العريض ، صراخ لا تستطيع تمييزه
أهو لرجل أم لامرأة أم لطفل ؟ وكان الثلاثة يجلدون فى
السجن الحربى .

وخيل إلى وقتها أن الدنيا قد أصابها صمم ، وأن الحضارة
قد لحقتها عقوبة قضت على روحها وقتلتها وأدرجتها مدارج
القناء .

لقد وصلنا إلى السجن الحربى .

كنا وقوفا أمام البوابة ونحن نرسف فى القيود والسلاسل
وعيوننا مغمضة والصراخ يتعالى ، ثم الجنند يسوقونا بعد ذلك
بالسياط سوقا ، منظر غريب فريد ، لم أكن أتصور وجوده

إلا فى كتب التاريخ ، حينما تصف عصرا موعلا فى القدم ،
ربما يكون حينما كان (كراسوس) فى فجر الحضارات
يقضى على ثورة العبيد ويقتل زعيمهم . (سبارتاكوس) الذى
يهدد نظام روما العتيد .

ربما يكون فى المناجم الليبية عندما كان الرومان يقتلون
العبيد بعد يوم من العمل الشاق المرهق الذى يستمر طوال
النهار وشطرا من الليل .

ربما حين كان رمسيس الظافر يسوق الأسرى من بلاد
الحثيين وبلاد بونت .

ربما فى مزارع القطن والسكر وفى العالم الجديد فى
القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ربما ، وربما ، فى أى زمن من أزمان التاريخ ، إلا أن
يكون هذا فى القرن العشرين ، وفى مصر !

كان ذلك بعيدا عن ذهنى ، أهذا يحدث فى قلب الحضارة
من ناحية الزمن حيث تصطرع الثقافات وكلها يمجّد الإنسان
وحريته تجاه الحياة ؟

كانت الصورة فى خاطرى وقتها ، عصابة من قطاع الطرق
تخطف الناس من منازلهم وتذهب بهم إلى مكان مظلم
مجهول . ولأظن أن رجال الجستابو فى عهد (اللعين
الراحل) آدولف هتلر كانوا على قدرة من الإذلال والتخطيط
مثل مأوتى هؤلاء الناس .

أى ريح عفنة هبت على مصر فى صيف ذلك العام ؟
كان الدخول إلى السجن الحربى بمثابة الدخول إلى غابة
مظلمة ممتلئة بالحيوانات الضارية المفترسة ، حتى
الحيوانات ، لأظن أن قلبها الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ،
قد خلا من اختلاجة رحمة أو لمسة شفقة ، أما هؤلاء الناس

الذين عذبونى فى هذا السجن لمدة عام كامل فلم ينبعث من
جوفهم غير ريح نتنه ساخنة تفسد كل شىء وتقضى على كل
ماهو طيب وجميل فى نفس الإنسان ، ومن بين الصراخ
انطلق صوت رفيع حاد :

- ما هذا ؟

- هؤلاء معتقلون جدد ، من معتقل أبى زعبل يا سعادة
البك .

- ولماذا تضعون هذه العصابات على أعينهم ؟

- هذا نظام المباحث العامة يساعد البك .

وضحك سعادة البك ضحكة ماحجة سعيدة وقال :

- المباحث العامة تغمض عيون الناس خوفا من انتقام
أصحابها فى مستقبل الأيام أما نحن فنقتل ونعذب ، ثم نقتل
ونعذب ، ولانخشى أحدا ، ومن يأتى لهذا المكان فعليه أن
يكون عبدا لعبد الناصر إلى الأبد ، (وهنا تذكرت السحرة
وفرعون وملئ مصر) أو يموت ، وإذا نجا من الموت لسبب
يخرج عن إرادتنا فسيظل طول عمره يتجنب هذه القلعة
السماء والطرق المؤدية إليها ، ارفعوا هذه العصابات القادرة
من فوق عيون هذه الجردان .

وصفونا صفا واحدا ووجهنا إلى حائط السور من
الداخل ، ورفعوا القيود الحديدية وأمرونا فرفعنا العصابات من
فوق أعيننا وكان الصراخ يرتفع ويصبح اللحن الجنائزى
المميز للدخول فى هذه البئر الذى انفتح من جحيم الأرض
دون حساب أو تقدير من كل هؤلاء المساكين الذين
يواجهون مصيرا مجهولا بين هذه الجدران الصماء القاسية .

كان عندي بقية من تفكير ساعة دخلنا السجن الحربى ،
وقادتني هذه البقية إلى أن أودع كل أمل وكل أمنية وكل رغبة
جميلة أو مريرة ، وأن أقدر أنني على باب من أبواب الآخرة ،
وأن أترك نفسى بين يدى الله الحانية تفعل بها ما تشاء فقد
يكون الخير ، خير الآخرة ، فيما هو كائن ، ولم يكن أمامى
أن أفعل شيئا سوى هذا ، وتمت بيتين من الشعر لأدري
من قالهما :

لاتدبر لك أمرا فأولو التدبير هلكى
سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منكنا
واعتبرت نفسى ضيفا على الله فى هذا المكان الذى
يتحدى كل من فيه الله سبحانه وتعالى بعظمته وجبروته .

ماذا يمكن أن أكتب لكم فى هذا المقام ؟ إن نفسى ترتعد
كلما أتذكر هذه الأيام المريرة ، وأجدها كلما عاودت النظر
تنضح رعبا وألما وسخطا ، لقد قدر لمن يذهب إلى السجن
الحربى أن يرى أسوأ ما يمكن فى الحياة ، وليس فى ظنى أن
مصائب الدنيا كلها تساوى قضاء ليلة واحدة فى زنازين
السجن الحربى الباردة الشمطاء ، ومهما كتبت ومهما
صورت فلن أفى هذا المكان حقه من الوصف والتحليل .

كان من تقاليد السجن الحربى العتيقة شيء يسمونه
« الاستقبال » وكان هذا التقليد يسلمه الزبانية إلى أخلافهم ،
وصار مع الأيام شيئا مميزا ، وهو عبارة عن تسلّم الشخص
المنكوب وضربه ضربا شديدا قد يودى بحياته لكنى يتعود
الذل والطاعة ، ولا يستطيع أن يفتح عينيه فى وجه جلاديه
أبدا ، وكان علينا أن نمر بهذا الاستقبال ، وكنا نسمع عن
هول الأساطير أيام أن كنا فى معتقل أبى زعبل ، هل أستطيع
أن أصفه لكم ؟ لست أدري ولكننى سأحاول !

من بين الجو الذى وصفته قبل ذلك ، الصراخ والعيول
والأنات المتحشجة والسياط العاوية اللاعقة من دم البشر
جىء بالكلاب المفترسة يقودها الجند فى سلاسل مربوطة
بأعناقها ، وصارت تعوى وتداعب أقدامنا مداعبة خفيفة
ونحن نلتصق بالجدار نكاد نتجمد من الرعب والخوف ، ثم
أتوا بعدد من الجند أكثر من خمسين ، وكان على كل واحد
منهم أن يفعل شيئا ، وكان هؤلاء الجند مدربين مثل الكلاب
تماما ، وقاموا بأعمال شبيهة بأعمالها فى مرات سابقة كما
تبين لنا بعد ، وكان على كل جندى أن يمر على هذا الصف
المنكود ويصنع كل واحد صفعة على قفاه ، صفعة شبيهة
بالقبلة لبشاعتها وقوتها ، وكان يقف بجانبى شيخ عجوز
محطم لم يحتمل الصفعة فسرعان ماسقط على الأرض ،
ولأدري هل سقط من هول الصفعة أم من شدة الخوف ،
المهم أنه تهاوى إلى الأرض ، ووجدت نفسى أنحنى إليه
وقلبى يتمزق من الصفعة والرحمة ، والرجل يرسل أنينا
مخيفا ، ويتوسل ويستعطف ثم سكت إلى الأبد ، لا شك
أنه قد مات من الخوف .

أما أنا فقد أخرجونى من الصف وضربونى جميعا حتى
فقدت الرشد ، ولما أفقت وجدت نفسى ضمن كومة من
لحم زملائى ، فقد ضربنا جميعا حتى تكومنا من شدة
الضرب ، وكانت الكلاب تلغ فى الدماء بشراهة ووحشية
وكم نالت الكلاب من اللحم البشرى فى هذه الليلة .

ثم صرخوا فينا صرخة مدوية ، أن ننتبه وقفوا ، ورغم الآلام
العظيمة لم يكن أمامنا غير أن نمثل ، ووقفنا وكل ذرة فى
أجسادنا تنضح بالشكوى والألم والضعف ، وكان أمامنا أن
ننطلق إلى حيث نبيت ونقضى أول ليلة فى جحيم الأرض ،
وصدر الأمر لنا بأن ننطلق إلى السجن الكبير .

السجن الحربى عبارة عن سور بداخله بنايات ضخمة يطلق عليها ، رقم واحد ، وهو السجن الكبير ، ويتسع لألف شخص حشرا ، وبه ثلثمائة زنزانة تقريبا ، مكونة من أدوار

ثلاثة ، وهو المكان الذى قضيت فيه مدة الاعتقال ، ثم رقم اثنين ، وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، والمستشفى الذى لا يذهب إليه إلا الذين أوشكوا على الموت ، أو الذين ماتوا فعلا ، ثم أماكن الإدارة ، وأماكن التعذيب ، ويوجد فى داخل أسوار السجن الحربى (فيلا) أنيقة حيث يقيم جلاد السجن الشهير حمزة البسيونى ، الذى سيظل اسمه لصيقا بتاريخ الإرهاب والقتل والتعذيب والتشريد .

وبجانب هذه البنايات يتوارى مسجد صغير خجلا حزينا مما يحرى تحت نظره وبصره ، وبين البوابة الرئيسية التى يتم عندها الاستقبال الذى استمر معنا أكثر من ثلاث ساعات وبين السجن الكبير حيث سنقيم حوالى مائتين وخمسين مترا .

وصدر الأمر أن تقطع هذه الطريق الملتوية المجهولة لنا إلى هناك دون دليل ، تسوقنا سباط الجند ، وعلى كل واحد أن يصفع أخاه على قفاه إذا لحق به والويل لمن لا يفعل ، وصلنا إلى ساحة السجن الكبير منهوكين محطمين خائفين ، وكانت دهشتنا شديدة وخوفنا أشد حين علمنا أن علينا استقبالا آخر يجب أن نمر به ، استقبالا محليا فى ساحة السجن الكبير .

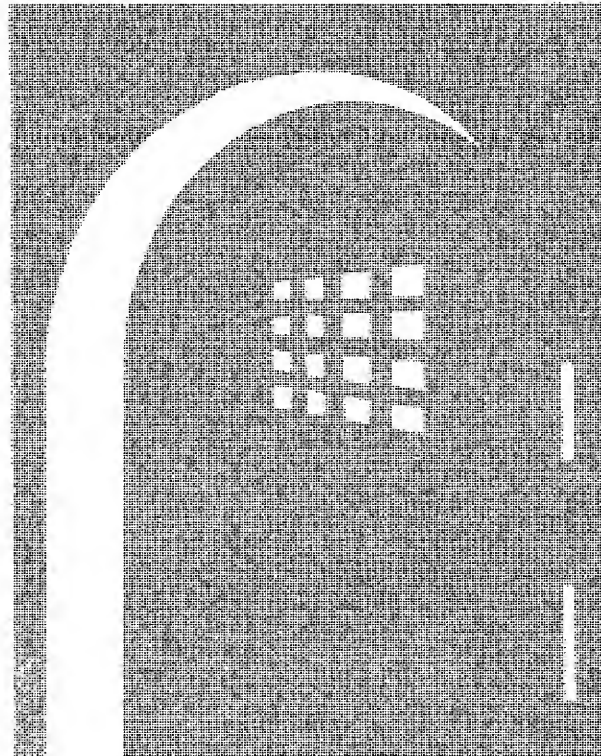
كانت الساحة مربعة واسعة ويبلغ عرضها مائة وخمسين مترا ، وفي ركن من أركان هذه الساحة - التي قتل فيها الكثير من أبناء مصر المسلمين - يفر عن يمين الداخل من باب السجن الكبير ، ويجوار هذه البئر الممتلئة بالماء منضدة خشبية مستطيلة يأكل عليها حرس السجن عادة .

وعندما دخلنا الساحة وجعلنا وجوهنا إلى الحائط امتثالا للأوامر هب الحراس سراعا وكانوا يأكلون ، وقد علمنا بعد ذلك أن هؤلاء الجند لا يفضلون شيئا آخر على الطعام الكثير المنهوب سوى التعذيب ولهذا تركوا الطعام ليحصلوا على متعة أكبر ، متعة ركلنا وضربنا وجلدنا .

انتهى استقبال السجن الكبير بعد ساعتين ، وكان شبيها بالآخر عند البوابة الرئيسية من حيث الطريقة ، ولكنه يفوقه في الكم ضراوة ووحشية ، وبعد أن جردونا من نقودنا والساعات التي كانت في أيدينا وأقلام الحبر وبعض الملابس التي كانت تروق لهم ، أودعونا مخزن رقم (٦) جياعا مذعورين نخاف أن نتخطف من الأرض .

الفصل التاسع

المخزن رقم (٦) الرهيب



هو حجرة فى الدور الأرضى على يمين الداخل من بوابة السجن الحديدية الكبيرة ، تقع أمام بئر الماء ، لها نافذة تطل على خارج السجن الكبير حيث فناء السجن الحربى ، ويقع المستشفى أمامها مباشرة ، وتبدو مكاتب التحقيق بعيدة فى نهاية الطريق المؤدى إليها .

والحجرة لا تتسع لأكثر من عشرة ، فهى ضيقة بالنسبة للعدد الكبير الذى وضع فيها ، فقد أشرقت علينا شمس النهار وعددنا خمسة وأربعون ، بينما مساحة الحجرة التى يطلقون عليها مخزن رقم (٦) ، لا تزيد عن عدة أمتار ، وكانت تفوح منها رائحة البول والبراز والصدید ، وتنطلق منها الأنات الخافتة المكتومة ، فالتعليمات تقضى بعدم صدور أى صوت ، وإلا فسوف تدخل الكلاب الجائعة التى تثيرها رائحة الجروح ، وهنا ينبغى التنويه ، لقد أدخلنا المخزن وليس فىنا واحد إلا وبه بعض الجراح ، والدم يسيل دون توقف ، أدخلونا المخزن فى فزع وخوف فتساقطنا فى ظلامه كل منا فوق الآخر ، وجمد كل منا بالوضع الذى قذف عليه حتى مطلع النهار ، فقد قال الحراس إنهم لا يريدون أصواتا أو حركة فالموت جزاء من يفعل ، وكنا نعرف أنهم لا يكذبون فى مثل هذه التهديدات .

شد عن هذا واحد منا كان يحبس بوله ، وكان أقلنا فى الذهاب إلى دورة المياه قد انتهى عهده بها منذ ست وثلاثين ساعة ، فبعد فترة قصيرة فتح الباب وظهر من فرجته شبح لجندى عملاق كره المنظر قد أمسك سوطا فى يده وصرخ فىنا :

- هل هناك من يريد الذهاب إلى دورة المياه ؟
وسكتنا جميعا !

وفتح الجندي فمه بسباب قدر بذيء ، ثم صرخ ثانية
مكررا نفس السؤال ، وكان الظلام شديدا ، فكان من الصعب
أن نرى الانفعالات المختلفة على الوجوه ، ولكن الخوف هو
القاسم المشترك بينها بطبيعة الحال .

وتشجع صاحبنا ، وطلب الذهاب إلى دورة المياه ، وكان
لواء في الجيش ، فأخرجته الجندي الكريه المنظر من المخزن
بعد أن مر هذا الزميل فوق جثث زملائه المكومة دون
ترتيب .

وأمام باب المخزن ، حيث الأنوار الخافتة المنبعثة من
المصابيح الموجودة في المكان ، ضرب هذا الضابط الكبير
ضربا شديدا موجعا ، ثم جاءت الكلاب ونهشت من لحمه
أمامنا وبعد هذا كله ألقوه في البئر ، وعندما أوشك على
الموت أخرجوه وأدخلوه إلينا يقطر دماء وماء ، وتركوه
يرتجف حتى جفت ملابسه وحدها .

وكانت هذه (العلقة) مدعاة لاستغنائنا عن الذهاب إلى
دورة المياه ، فقد تبرز الرجل وبال على نفسه ، وصارت
رائحته تتركب الأنوف القريبة منه ، وكان منها أنفى ، وبقي
كل في مكانه يجتر أفكاره وآلامه في صمت رهيب ولم تكن
تسمع همسة أو تحس بنأمة ، وكل ربع ساعة تقريبا يفتح
الباب ويقذف إلينا بمعتقل جديد ، يقذف كما يقذف جوال
ملئ بالبطاطس مثلا ، دون ما اهتمام ، وفي العادة يكون هذا
الشخص عائدا من التحقيق أو من منزله .

وكان الظلام شديدا فلم نستطع تمييز وجه أحد ، ولكن
كانت هناك أيد تمتد في الظلام لتكتسب الأنات الخافتة الصادرة
من أفواه الجرحى خوفا من بطش الجنود ، وكان جوعنا
شديدا وعطشنا أشد ، ولكن ، ماالجوع والعطش بجانب هذا

الخوف العارم الذى يقتلع القلوب من الصدور ؟ وبعد مدة
سمعت أحدهم يهس :

- يا جماعة .

وانبرى إليه صوت الضابط الكبير ، الكريه الرائحة من
ملابسه المتسخة بالبول والبرار :

- ماذا تريد ؟ ألا يكفيك مانحن فيه ؟

ولكن الصوت الهامس قال بللحاح :

- لقد اكتشفت شيئا هاما .

- وماهو ؟

- بجانب الباب وعاءان من المطاط .

- ماذا تعنى ؟

- أظن أن أحدهما للبول والآخر للشراب ، ولكن لا أدرى
على وجه التحديد أيهما للبول وأيهما للشرب .

وقام بعضنا بخفة وتلطف شديدين ، يتبول الواحد فى أناء
ويشرب من الآخر .

وفى هذه الليلة المباركة شربت البول لأول مرة فى
حياتى ، ولم يكن طعمه مريحا على أية حال ، وليس هناك
داع لأن أقول: إن أحدا منا لم يذق طعم النوم فى هذه الليلة ،
وربما للىال أخرى أتت فى أعقابها ، وكانت الآلام التى
واجهناها وعاشناها تشغلنا قليلا عن التفكير فى التحقيق الذى
قد يدعى إليه أحدنا فى أية لحظة من اللحظات .

وقد قدر لى أن أعيش فى هذا الانتظار أكثر من أربعين
يوما حتى أرسلت بعدها إلى التحقيق ، وقد رأيت كم هو
مختلف عن مثيله فى أبى زعبل ، إنه القتل تحت السياط
والأسياخ الحمراء ، وخلع الأظافرونهش الكلاب وأسلاك
الكهرباء ، أو تحت وطأة ركل الأحذية الثقيلة .

وفى رحلتنا عبر هذه الليلة الرهيبة فتح الباب وقذف إلينا
بائنين ثم نودى على أحد الأسماء ، وقام صاحب الاسم يرتعد
خوفا وفرقا ، ونحن نستمع إلى صرير أسنانه وصرت أركز
بصرى فى الظلام واستطعت أن أتبينه وهو يمر من فرجة الباب
خلال الضوء الشاحب الآتى من المصابيح المنتشرة عبر
الساحة ، كان الضابط المسكين الذى لم يسترح من علقه
المساء ، لقد طلبوه للتحقيق ، وإنى أعتقد بعد مرور ذلك
الوقت الطويل أن كل من بالمخزن قد شاركنى دعائى الحار
حتى يخفف الله من آلامه وهو ذاهب إلى مصيره المجهول .

ومع الخيوط الأولى للنهار حيث استطاع كل واحد منا
أن يتبين وجه زميله فتح الباب وظهر أربعة من الجند الأشداء
يحملون الضابط الكبير وقد تمزق جسده من السياط ،
وأكلت الكلاب من جسمه حتى شبت ، وفى لمح البصر
سمعنا صوت ارتطامه فوقنا ولم يجرؤ واحد منا على لمسه
أو تخفيف آلامه التى كانت ممثلة فى أناته الخافتة المعذبة

وكانت ملابسه غارقة بالدماء ، وكان من الصعب أن نعرف
مصدر النزيف ، كان جسده جرحا كبيرا غائرا ينزف دما من
كل مكان ، ومع إشراقة الشمس فتح الضابط عينيه عن
آخرهما ثم أرسل صرخة عظيمة خيل إلى معها أن جنات
السجن قد ارتجت ، ثم سكن إلى الأبد .

وكانت خسائر هذه الليلة اثنين من القتلى وأكثر من
أربعين جريحا كما علمنا فيما بعد .
جاء الجند وحملوا جثة الضابط المسكين فى بطانية من
الصوف إلى حيث لا يعلم أحد .
وطلع النهار واستوت الشمس ودبت الحركة فى الآلة
الرهيبة .

لأأكتمكم أن أحدا لم يحزن على واحد من الذين ماتوا
فى الليل ، لم يكن فى قلب أحدا مكان للحزن فقد غطى
الألم والخوف كل جوانحنا ، وكنا نغبط الذين ينجون من
العذاب بالشهادة والذهاب إلى الله .

فتح باب المخزن قليلا ، واستطعت أن أتبين فناء السجن
من خلال عيني اللتين أضناهما السهر والألم وأبخرة البول فى
تلك الليلة الحارة .

ورأيت منظرا لأنساه .

مجموعة من الجند ينهالون على شيخ بالسياط ضربا ،
وهو يصرخ ويستغيث ولا تجيبه سوى فرقة السياط الملتهبة
على جسده الواهى الضعيف ، وسكت الشيخ أخيرا بعد أن
بح صوته من الاستعطاف وطلب النجدة ، وظلت يده
مرفوعتين إلى السماء الصافية ، ولأأدرى أكانتا تحتجان أم
تنوسلان ، وعلى الجدار المواجه كانت صورتان لجمال عبد
الناصر وعبد الحكيم عامر مرسومتين بالزيت ، ولم تكونا من
رسم فنان ، بل كانا رسما شبيها برسم الأطفال فى السنة
الأولى من مدرسة ابتدائية ، وفوقهما حكمة مكتوبة بخط
واضح .

« كنت أخادع الحياة كى أعيش كما أريد »

ولأأدرى من كتبها ، أكان منكوبا مثلى ، أم أحد
الجلادين .

كنت أشعر أننى فى كابوس مزعج ولأأحتمل التفكير فيما
يدور حولى ، لم يكن هناك ثمة سبب يبرر كل تلك الآلام ،
ولم أتصور الشكل الذى ينتهى عليه هذا الحلم المزعج ،
وكنت أحسب ألف حساب لكل لحظة قادمة ، كانت
الطاحونة التى تهرسنى كل لحظة أقوى من طاقتى كإنسان

محدود الطاقات ، كان شيئاً مرا كالعلم أو أشد مرارة ، ولم يكن أمامي في مواجهة هذه الأحداث غير الاستسلام الكامل .

ورويدا رويدا أصبحت أبعد التذمر عن قلبي وأتذكر المؤمنين الصادقين الذين بنوا الإسلام على أكتافهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأدعو من قلبي أن أكون منهم وأن أتحمّل هذه الوطأة القاسية دون اعتراض أو احتجاج .

دخل جندي كرية الوجه واليد واللسان عرفت أن اسمه (الروبي) وانهال علينا هذا (الروبي) بسيل من الشتائم البذيئة وكنا نفهم بعضها ونعجز عن فهم بعضها الآخر ، ولكننا على ثقة من أنه يسبنا سبا قبيحا .

كان يحمل في يده وعاء قدرا ، وبأصابعه المتسخة صار يعطى كل واحد منا قرصا صغيرا من الطعمية ، وتمخط أثناء ذلك مرتين ، ومسح يديه في بدلته الرسمية ، وعاود التوزيع ، وأذكر أنني لم أتقرز ، كان الأمر كما قلت لكم أكبر من التقزز ومن كل شيء ، ثم ألقى فوق رؤوسنا حفنة من الأرغفة ، وانصرف .

وأحصينا الخبز فوجدناه كسرات مجموعها ما يوازي خمسة أرغفة وكان عددنا قد قارب الخمسين ، فكان لكل عشرة رغيف واحد من الخبز ، بعد جوع طويل ، ورغم هذا فقد رفض الكثير منا تناول هذا الطعام ، ولم يكن الرفض احتجاجا أو تكبرا ، بل الخوف يجعلنا لا نحس بضراوة الجوع .

وبعد قليل دخل الجندي (الروبي) نفسه وأعاد على مسامعنا ما سبق أن قاله ، وكان ممسكا بيده اليمنى سيخا طويلا من الحديد ، وفي يده اليسرى ، كوبا من الألمنيوم القديم قد امتلأ حتى حافته بالشاي .

وبسيخه الطويل شج رؤوس بعض المساكين وانسكب
قدر كبير من الشاي الموجود في الكوب أثناء ضربه لنا ، ثم
أعلن لنا مفاجأته : كانت بقية الشاي الموجود في الكوب
هو ماتقرر صرفه للخمسين المجتمعين في مخزن (٦)
الرهيب .

وفي هذه المرة رفضنا أن نشرب الشاي احتقارا منا لكل
شيء ، وبقي في مكانه حتى الظهر .
واكتشف الروبي أننا لم نشربه فضربنا جميعا علقه
ساخنة .

بعد ذلك أتانا جندي آخر أشد بشاعة من صاحبه ، لقد
تقرر أن نذهب إلى دورة المياه لنقضي حاجتنا ونغتسل
ونشرب بدل البول ماء زلالا من الصناير ، ولم تتم الفرحة ،
ذهبنا إلى دورة المياه المقامة بالدور الأول عدوا والسياط
والكلاب تنوشنا من كل ناحية ، ظهورنا ووجوهنا ورؤوسنا ،
وأدخلوا كل واحد منا مكانا ، وكان المكان قذرا جدا والبراز
يملا كل شبر فيه ، ولا توجد به نقطة واحدة من الماء ، ليس
هذا فحسب ، بل فوجئت - عندما أغلقت الباب وهممت
أن أفعل شيئا - بالجندي وقد فتح الباب في قسوة وانهاه على
ضربا بالسوط ، وارتبكت ، ولم أفهم ماذا يريد هذا المخلوق
بالضبط ، كان في نظري مجرد مخلوق من مخلوقات الله
ليس إنسانا وما ينبغي أن يكون ، أسود الوجه ، غائر العينين
تنبعث من فمه رائحة كريهة تنهت بفعل التعفن الذي أصاب
اللثة والأسنان من زمن بعيد ، وكانت البقع الجلدية الباهتة
البياض تتخلل وجهه الدميم ، وتذكرت دارون وحلقته
المفقودة ، وكذلك مر بمخيلتي الكاتب النرويجي أبسن .

وانطلق من فمه الأهم صوت كالزئير :
- اطلع بره يا ابن الكلب .

- يافندم . لسه .

- انت بترد على ياجربوع يا حثالة . يا .. يا ..

والسوط يفرقع فى حمية وشدة وحماس .

وعدت إلى المخزن ، وماستفدت شيئاً من هذه الرحلة المشثومة إلى دورة المياه غير العلقة الساخنة ، تلك التى تركت آثارها جروحا فى وجهى وعلى كتفى وظهرى ، ورأيت الباقين وهم يهرولون كالفئران المدعورة ، والجند وراءهم كالوحوش والسياط والكلاب تعوى فى الفضاء الخائق عبر ساحة السجن الكبير .

وجلست مكموما ساخطا بين عشرات الأجساد التى ألهبته حرارة السياط ، وعرفت أن أحدا لم يقض حاجته ، وظلت الوجوه صامتة قاتمة عليها غبرة غريبة ثم حرك أحدهم يده فى عصبية وانخرط فى بكاء مرير ، ونسى نفسه وتمتم بكلمات :

- هذا ظلم ، هذا ظلم .

وقال له ناظر المدرسة الثانوية الأشيب الذى حنكته الأيام :

- كلنا نعرف أن هذا ظلم ، فاضبط نفسك ولا تنطق بكلمة واحدة ، فنحن لاندري من سيموت منا هذا النهار . وخيم صمت مطبق على المخزن لم يقطعه إلا صوت السياط العاوية والصرخات المكتومة تأتينا من بعيد .

وعاد كل واحد فينا يجتر أفكاره فى شروود .

وكان كل مايشغل تفكيرى تلك الكلمة التى قالها لى الضابط فى معتقل القلعة ، شعبان بتاع الخانكة ، أين أنت ؟ سيكون هلاكى على يديك يا شعبان ، يسألوننى عنك وأنا لأعرفك ، وسأموت من أجل جهلى بك ، ولكن الموت تحت السياط شيء رهيب يا شعبان ، ربما يجلدونك فى هذه اللحظة .

ووجدت نفسى أسأل الموجودين فى صوت ضعيف :
- يا جماعة ، هل فيكم من يعرف شخصا من الخانكة
اسمه شعبان ؟

وبصوت هامس استجاب لى صوت متأفف النبرة :
- أنا من الخانكة ولأعرف فيها من يدعى شعبان غير
رجل فى الستين من عمره يعمل فراشا فى الوحدة الصحية .
واقتربت منه بالحاج :
- هل له علاقة بك ؟
- لأظن ، إنه رجل أُمى ولايفهم شيئا من شؤون
السياسة .
- هل له علاقة بالإخوان ؟
- كلا .
- ومن أدراك ؟
فأجابنى فى تأفف خوفا من حضور الجند :
- أنا من الإخوان ، صدقنى ، ليس فى المنطقة كلها
شخص واحد فى جماعة الإخوان يحمل هذا الاسم .
وعدت إليه فى إصرار وتوسل .
- أرجوك .
- ماذا تريد بالضبط ؟
- أعطينى أية معلومات عن شعبان .
- فراش الوحدة الصحية ؟
- نعم .
- لماذا ؟
- سوف يسألوننى عنه ولأعرف عنه شيئا على الإطلاق .
وأجابنى بتذمر وكأنما أراد أن ينهى الحديث ، فكل منا
له مشكلته المعقدة :

- لقد قلت لك ، هذا رجل مسكين ولا يعلم شيئا عن العالم ، وربما لم يغادر الخانكة أبدا ولم يكن له أى نشاط سياسى ، وربما لا يعرف من يحكم مصر فى هذه الأيام ، هذا الشعبان الذى يسألونك عنه لا يمكن أن يكون من مدينة الخانكة ، فلا تشغل بالك وتشغلنى معك .
- ولكن .

فقاطعنى :

- أرجوك أن تسكت ، فى رأسى مايشغلنى ، وليس عندى كلام عن شعبان أكثر مما قلته لك .

وعاد إلى نظرتة الشاردة وإلى مافى جوفه من خوف وهلع وانشغال ، وفشلت كل محاولاتي معه لأجعله يتحدث عن شعبان ، ومن بين النظرات النائية الشاردة صرت أتفحص الوجوه وأتأملها بطريقة غير واعية ، كان الألم يفترسها اختراسا ، وكانت وجوها مصفرة كثية عليها آثار التراب المختلط بالدم المتجلط ، وكان فى بعضها دم مازال رطبا طازجا ينز من جرح فى أعلى حاجب ذلك الوجه ، ويبدو

أن صاحبه لم يلتفت إليه فقد كان فى حالة شروود كاملة . كان الدم يتساقط على وجهه وملابسه ولا يفعل هذا الإنسان شيئا سوى أن يزيحه بأصبعه إذا اقترب من عينيه . وصرت أتقل ببصرى من وجه إلى آخر ، وأجدها جميعا متغضنة ولاشئ يميزها عن بعضها بعضا ، ثم وقف نظرى على وجه ، كان صاحبه قد أتى قبل أن يطلع النهار ، ولأأدرى لماذا ركزت عيني على مكانه فى الظلام حتى أستطيع أن أراه بوضوح عندما يطلع النهار ، وقد شغلنى قتل الضابط للحظات عن أى شئ آخر ، والآن وائتنى الفرصة لأتأمل هذا الإنسان .

كان وسيم الوجه ، فى الخامسة والعشرين - هكذا خيل
إلى - على شفتيه ابتسامة ميتة ، أو ابتسامة فى طريقها إلى
الموت ، يرتدى ملابس فاخرة ، حليق الذقن والشارب ،
وكان يداعب أصبعه الوسطى فى يده اليمنى فى شرود ثم
يرسل نظرات إلى المكان ، ويحاول أن يبعث ابتسامة ولكنها
ماتت أو ظلت فى طريقها إلى أن تموت .

وصرت أمر بين الوجوه ثم أعود إلى هذا الوجه ، ولاحظ
صاحبنا أننى أعاود النظر إليه بين الحين والحين ، وكنت أسأل
نفسى ، ترى هل رأيت هذا الإنسان قبل ذلك ؟ أين ومتى ؟ ترى
ماذا يكون مصيره بعد حين ؟ وماذا يكون مصيرى أنا ؟ لقد كنا
جميعا نقف على حافة الأبدية ، وكانت رائحة الموت تملأ
أنوفنا ، فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التى نمارسها
فى هذا المكان .

واقترب هذا الشاب بوجهه منى ، فقد كان لا يبعد عنى
بأكثر من شبرين ، وباهتمام بالغ همس فى أذنى :
- أريد أن أفضى لك بشيء بالغ الأهمية .

وارتعدت فرائصى ، ماذا يمكن أن يقول هذا الشاب لى ؟
وقلت له وكأننى أدفع خطرا عنى :
- أنا لأعرفك ، ولم أرك قبل الآن .

وكأنه لم يسمع كلماتى .
وخيل إلى لحظتها أن ابتسامته قد بعثت ، ولكنى عرفت
بعد ذلك أنه كان وهما صوره لى اقتراب وجهه منى .
وقال لى :

- اسمى عاطف ، أعمل فى بنك مصر .
- ياسيدى لأعرفك ، واسمك لا يذكرنى بشيء .
- لاترفع صوتك واستمع لما أقول .

وقلت لنفسى ربما يكون هذا الشاب فى ورطة ، وتخيل
أننى أستطيع أن أمد له يد المساعدة ، وفى نوبة من نوبات
الشهامة قررت أن أستمع إليه ، والتفت إلى فى حماسة ،
والمتنى نظرتة الحزينة ، وقلت له :

- ماذا تريد ؟ أنا تحت أمرك ، ليتنى أستطيع أن أقدم لك شيئا .
- ألا تعرفنى حقا ؟
- كلا .
- حاول أن تتذكر ، وجهك ليس غريبا عنى ، يخل إلى أننى رأيتك فى مكان ما .
- صدقتى ، لم أرك قبل الآن .
- لماذا يبدو وجهك مألوفاً لدى اذن ؟
- لست أدرى .
- هل تستطيع أن تكتم سرا ؟
- فى هذا المكان ؟
- نعم .
- أليس من الخير أن تحتفظ بأسرارك هنا ؟ ربما .
- ربما ! ولماذا ربما ؟ يستطيع أى إنسان أن يكتم سرا .
- إذا كان ذلك الإنسان أقوى من السوط .
- وهل السوط أقوى من الإنسان ؟
- لست أدرى ربما .
- هذا لا يهم ، سأقول لك سرى .
- أنصحك بالتريث .
- دعك من هذا سأقول لك .
- ولماذا تقول لى أنا بالذات ؟
- وجهك يبدو مألوفاً لدى .
- ألا تخشى أن يخونك التقدير ؟

- وماذا يهم ؟
- فى الحقيقة أنك تثير اهتمامى .
- كأننا أصدقاء .
- فى الماضى كلا .
- أقصد أن نتصادق الآن .
- أنت تمزح ولارىب .
- كلا ، أنا أعنى ماأقول .

ووجدت نفسى أبتسم بسمة ساخرة من ذلك الإنسان العجيب ، أفى مثل هذا الوقت يحاول أن ينشئ صداقة ؟ ربما إحساسه بالخطر هو الذى يدفعه إلى الارتباط ، ربما يريد أن يحتفى خلف شىء ما ، ربما . وربما .

ووجدت وجهه صبوفا نبیلا ملیئا بالأسى ، ونظرة صافية حزينة تشع من عینیهِ وابتسمت من جدید ، وكانت ابتسامة عذبة مخلصه ، وكانت لحظة سعيدة ، وكدت أضحك وأنا أقول له :

- أنا موافق ، لا بأس أن نكون أصدقاء ، اسمى ..
- وقاطعنى :
- نسيت أن أقول لك السر .
- أى سر ؟
- السر الذى حدثتك عنه قبل قليل .
- آه لا بأس ، إننى مصغى إليك .
- وتلفت حذرا هنا وهناك ، وبدت عليه علامات الجذ والاهتمام .
- الموضوع له علاقة بنیلة .
- نیلة ؟
- نعم .

- ومن نبيلة ؟

- اصبر ، سأذكر لك كل شيء في حينه .

وبدأ الخوف يغزو قلبي من جديد ، وغاصت سعادتي ،
كنت أريد أن أبتعد بأى اسم لأى فتاة عن هذا المكان ، فأى
اسم يتردد وعلى أية شفة ممكن أن يأتى خلال ساعة من
الزمن ، ولو كان هذا الاسم لعفريت من الجن على حد تعبير
أحد الضباط ، ولكن عاطف هذا لم يكن ملتفتا إلى أفكارى
التي تنساب عبر عقلى ، ويبدو أنه كان يريد التحدث فقط ،
وأثنى صوته ضعيفا :

- كنت أحبها ، حبا عميقا ، وكانت هى كذلك ..

وشملنى إحساس عارم بالسخرية وقلت له :

- لعلك سوف تحكى لى قصة غرامك .

ونظر إلى بجدية وهو يجيب ؟

- نعم ، وماذا فى هذا ؟

- لاشيء ، ولكن ألا ترى أن المكان لا تناسبه هذه

القصة ؟

- ولكنى أراه مناسبا تماما .

وتفرست فى وجهه ، كان المسكين فى حالة ذهول
كاملة ، وأدركت ذلك عندما دقت النظر فى وجهه ،
وأحسست بمدية حادة تمزق قلبي ، كان المسكين فى حالة
غير عادية ، لقد أذهله الموقف ، وشعرت بالحيرة ، ماذا
يمكن أن أفعله له ؟ لاشيء وفجأة رأيناه ينخرط فى بكاء حاد
ومن بين البكاء صار يقول :

- لقد أخذوها عنوة ، توصلت إليهم أن يتركوها فرفضوا ،
كانت فتاة رائعة .

وقاطعته فقد وقف شعرى من هول المعنى الذى تحمله
هذه الكلمات :

- عمن تتكلم
- نبيلة ، كنا سنتزوج بالأمس ، جاء المأذون لعقد القران ، ولكن .
- ولكن ماذا ؟
- قبض على أنا وهى ، أخذوها .
- من الذى أخذها ؟
- المباحث الجنائية العسكرية .
- أثناء عقد القران ؟
- قبل أن يعقد .
- لماذا ؟
- لست أدرى .
- أنتما من الإخوان ولا ريب .
- أنا وهى من المسلمين .
- إنهم يقبضون على المسلمين فى هذه الأيام الحمراء .
- لحساب من ؟
- لحساب الروس ، لحساب الأمريكان ، وربما لحساب اليهود .
- اليهود ؟
- نعم .
- ألسنا أعداء لهم وفى حرب معهم ؟
- واقرب شيخ عجوز يسيل الدم بجوار علامة الصلاة فى جبينه وهمس :
- نحن نعاديهم فى الظاهر ، أما حقيقة الأمر فنحن خدّم اليهود المخلصون .

- نحن من ؟
- المباحث الجنائية وسائر أجهزة الأمن ومن يوجههم .
- أنت تقول كلاما خطيرا .

- أنا أقول الحقيقة ، كل هذا يضعف الأمة فلا تقوى على الحرب .

- أية حرب ؟

- بعد أن ينتهى هذا المعترك سوف ندخل فى حرب مع إسرائيل ، ونهزم أمامهم هزيمة منكرة تقتل روح الأمة .^(١)

- لعمري هذا أمر غريب .

- ستأتىكم الأيام بما لاتعرفون .

وكان عاطف شارد الذهن ولعله لم يدرك شيئا من هذا الحوار ولكنه كان يتمتم :

- عندما أتينا ذهبوا بها إلى مكان ، يقولون سجن اثنين ، وهنا أخذ منى الأمباشى دبلة الزواج .

وقال له الشيخ :

- أكانت دبلة من الذهب ؟

وأجابه عاطف :

- نعم . كانت كذلك .

- ألا تعرف أن الذهب حرام على الرجال ؟

واستغرق كل فى أفكاره ، أنا أفكر فى شعبان بتاع الخانكة ، وعاطف يفكر فى زوجته والشيخ يفكر فى اليهود القادمين .

قطع علينا الصمت الذى يخيم على المخزن صوت فتح الباب فى جلبة وضوضاء ، ودخل جندي كريبه كأصحابه ، يحمل فى يده ماكينة حلاقة مما يستعمله الحلاقون لحلق الشعر ، وكان يمسكها بطريقة مخيفة ، كأنه يمسك بآلة حادة يهيم أن يبطش بها بإنسان ، وتكلم كأنه ذكر الخنزير .

(١) كان هذا الحديث فى الأيام الأولى من سبتمبر عام ١٩٦٥ أى قبل الهزيمة العسكرية فى يونيو عام ١٩٦٧ .

ياأوغاد ، ياأولاد الكلاب ، ياحشرات ، ستحلّقون
رعوسكم القذرة بعد قليل ياأبناء العاهرات ، وهذا شرف
لايليق بكم يالمامة ، عبد النبي ، نعم أنا الأسطى عبد النبي .
(وقالها بطريقة كأنه يقول أنا نابليون) الحلاق السابق
والمجند حاليا ، سأخلق لكم ، هل تفهمون هذا الكلام ؟
شرف كبير يصرف لكم دون جهد ، هيا تعال أنت .

واختار واحدا منا وكان الذهول يلفنا كالدوامه ، وتقدم
الشخص الذى اختاره ، وجلس صاغرا بين يديه كالمغشى
عليه من الموت ، وكان هذا الشخص ملتجيا ، ورأينا الأسطى
عبد النبي الأسطورى صاحب الصيت الذائع فى عالم الحلاقة
كما يدعى ، وقد هم به كأنه سيفترسه وليس ليخلق له .
ومن بين الكلمات والصفحات المتوالية خلق له ، وكانت
حلاقة عجيبة ، فقد خلق له نصف لحيته ونصف الشارب
المخلوق ، ثم خلق له شعر رأسه ، وختم الأسطى له حلقته
بضربة قوية من ماكينة الحلاقة على رأس الزميل المسكين
فتناثر الدم وسقط مغشيا عليه .
واستمرت الحلاقة أكثر من ساعتين بين الصرخات
والأنات المكتومة ، والكلاب تعوى فى فناء السجن ،
وماكينة الحلاقة فى يد عبد النبي التى تقطر دما ، وضحكات
الجنون ترتفع فوق الصرخات والأنات وعواء الكلاب الضارية
فى فناء السجن .

وجاء دورى فى الحلاقة وكان نصيبى جرحا عميقا فى
أعلى جبهتى .

وانتهت هذه المجزرة وانصرف الاسطى عبد النبي ضاحكا
مسرورا ، ولم ينس قبل أن ينصرف أن يوزع علينا بركاته من
الشتائم المنتقاة التى - والحق أقول لكم - منها ما لم أسمع

به قبل أن ينطق بها الأسطى عبد النبى ، وانشغلنا بعد ذهابه
بتضميد جراحنا ، ولم تكن هناك أدوات الإسعاف اللازمة
فكنا نمزق ملابسنا الداخلية ونحاول أن نكتم الدم المتدفق .

وأذكر أنهم أثناء ذلك قذفوا لنا بأحد المصابين العائدين
من التحقيق ، وكان ذلك المسكين قد أخذ علقته منذ يومين
وترك فى العراء حتى جفت جروحه وتقيحت ، وفاحت
رائحتها الكريهة ، فلحظة دخوله المخزن هبت رائحة كريهة
كأنها صادرة من قبر دفن صاحبه حديثا ، وتكوم الرجل بيننا
ولم ينقطع صراخه لحظة واحدة .

« رجلى ياناس ، الحقونى ياناس ، النار ، النار ، ياناس ،
حاموت ، ألا يوجد فيكم مسلمون ، والله ما أعرف حاجة عن
الإخوان ، الله يلعن السياسة ، ياناس أنا عربجى ، إيش عرفنى
بالإخوان ، ياناس واحد يطفى النار اللي فى رجلى » .

كانت قدمه اليسرى ملتهبة وممتلئة بالصدید ، ولم نكن
نملك غير الدعاء بأن يخفف الله آلامه .

وعندما اشتدت آلام الرجل وعلا صراخه حتى جاوز
المكان ، اندفع الدم فى عروق أحد الذين معنا وقام وطرق
الباب طرقا عصبيا حتى يأتينا أحد الحراس ، وتجمد الدم فى
عروقى ، وفى عروق الموجودين على مأظن ، ولم تتمكن
من منعه فقد قام وفعل ذلك فى حركة خاطفة ، وصح
ماتوقنا ، فقد فتح الباب وظهر من فرجته ثلاثة من الجنود
كأنهم الشياطين ، وفى يد كل واحد هراوة ضخمة ، وكأنهم
كانوا على استعداد وفى انتظار إشارة البدء وصاح رئيسهم
وهو أقبحهم وجها :

- وقعتم فى المحذور يا أولاد الكلب ، كنا ننتظر هذه
الغلطة ، هيا إلى الخارج جميعا .

وأوثقونا صفا متجاورين ولم يأت معنا الرجل الجريح فما
كان بقادر على الوقوف ، وقد تأكد رئيس الحرس من ذلك

بعد أن طحنه بهراوته طحنا ، ولم يقم الرجل بل كسرت
ذراعه في هذ العلقه ، أما ما فعلوه بنا فقد كان شيئا جديدا ،
لقد أرغمونا على كنس فناء السجن بأيدينا التي مزقتها الزجاج
الدقيق المتناثر في الفناء وأوسعونا ضربا ولكما ورفسا ثم
جعلونا نلحس سلالم السجن بألسنتنا تحت ضغط السياط
والهراوات ونهش الكلاب .

وعدنا إلى المخزن والدماء تسيل من أفواهنا ، ومنا من
صاحبه ورم في لسانه حتى وقتنا هذا .

أما الرجل الذي تركناه جريحا يعانى من الصيديد الذى ملأ
قدمه فقد رأيناه يفعل شيئا عجيبا .

كان يتبرز ثم يدهن قدمه المتورمة ببرازه عله يطفىء نارها
المستعرة ، ثم انتابته حالة عصبية فصار يأكل البراز ويصرخ
صراخا عالياً وحاولنا رغم كل ماحدث أن نهدئه وأن نمنعه
مما كان يفعل .

ووجدت دموعى تنساب على خدى دون صوت ، كان
قلبي يتمزق ، وينضغط تحت ثقل يد قوية عاصرة ، ولم يفكر
أحد منا في استدعاء الحرس لإسعاف هذا الرجل المسكين ولم
ينقطع صراخه طوال النهار .

وفى الليل وأثناء تغيير نوبة الحرس المسائية صار الرجل
ينادى زوجته وأبناءه بأعلى صوته ، ويطلب منهم أن يسامحوه
ويغفروا له ذنوبا لانعرفها ، ثم اختلج جسده وأسلم الروح .
وفى الصباح وجدنا فى وجهه تعبيرا هادئا مطمئنا ، كأن
الله قد غفر له .

بعد أن مات الرجل وعرف كل من فى المخزن أنه مات
انفعل أحد الموجودين وبكى بصوت مكتوم ، ثم ارتج
المخزن بالبكاء ، وصلىنا عليه ونحن فى أماكننا وهو غارق
فى برازه وصديده ، وابتسامته الهادئة التى لم نرها إلا فى
الصباح .

وكانت هذه الليلة هى الليلة الثانية فى السحن الحربى ،
الليلة الثانية التى لم أذق فيها طعم النوم ، وإذا أضفنا الأربعة
أيام التى قضيتها فى المحمصة بأبى زعبل فيكون مجموع أيام
السهر ستة أيام كاملة ، ويبدو أن معظمنا قد نسى أن هناك
ضرورة حياتية اسمها النوم .

وفى هذه الليلة كان جوفى يحترق من العطش مما جعلنى
أشرب قدرا أكبر من البول الذى جمعناه فى أوعية المطاط
طوال النهار ، وجاء النهار ومعه الجند ليفعلوا معنا ما فعلوه
بالأمس ، فتكلم أحدنا فى صوت ضعيف :
ياأفندم ، فيه واحد ميت .

وأشار بيده إلى الجثة الهامدة وارتسمت على وجه الجندى
ابتسامة وقحة :

— واحد فقط يا أولاد الكلب ؟ أين نذهب بوجهنا من
سيادة العميد .

أى إنسان هذا الذى يتحدث عنه الجندى ؟

لاشك أنه ليس من البشر ، ألا يؤثر فيه منظر الموت الجليل ؟
لقد رأيت جنديين يحملان الجثة وهما يتضاحكان
ويتغامزان كأنهما يحملان . ماذا أقول ؟ كأنهما يحملان
أبخس الأشياء وأرخصها قيمة .

وذهب الرجل المسكين الذى لم نعرف عنه شيئا سوى
أسماء أبنائه الذين ظل يناديهم فى لحظاته الأخيرة قبل أن
يموت ، لقد ذهب الرجل إلى مكان آخر خلف الحياة إلى

الله الذى يجد عنده العدل والرحمة والسلوان .

وكانت الأفكار فى هذا اليوم تمر فى نفسى .

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ما الظلم ؟ وما العدل ؟ ما العزة
وما الذل ؟ ما الحب ؟ ما البغض ؟ ما الجوع ؟ ما الخوف ؟
كل هذا ليس سوى كلمات ، وما أنا ؟ لست سوى كلمة ،
وما الألم ؟ . أيضا كلمة ، وما الفكرة ؟ وما الصنم ؟
كلمات ، الحق والباطل ، ولكن ، تختلف الكلمات وتباين ،
هناك كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها
من قرار ، وهناك الكلمة الخالدة ، طيبة كشجرة طيبة ، أصلها
ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ،
ويضرب الله الأمثال للناس ، والحياة التى نعيش فيها ويصنعنا
بعضها ونصنع نحن البعض الآخر ، ليس هذا كله إلا صراعا
بين الكلمات ، الكلمات الخبيثة ، والكلمات الطيبة ، ونحن
بين هذه وتلك فى علو وانخفاض ، ولا يتربع فوق عرش
الحياة فى النهاية - التى لا يمكن قياسها بمقاييس البشر - إلا
أصحاب الكلمة العليا ، الكلمة الطيبة ذات الأكل المتجدد
الدفاق اللامتناهى مادام للوجود حس أو شعور .

الحقيقة أننا واجهنا الموت فى هذا المخزن وبعضنا ناله ،
قضيت فى هذا المخزن ثلاثة أيام ونقلت فى اليوم الرابع إلى
الزنازين ، ولم يتركنى الموت لحظة طيلة العام الذى قضيته
فى السجن الحربى ، فقد كنت ألقاه فى كل دقيقة وفى كل
وقت ، وقد ترك هذا العام فى نفسى أثرا لا يمكن أن يمحو
أو يوصف أو يتخيله إنسان غير ذلك الذى عاشه وعاناه .

وقد تكونت ثقافة مشتركة بين هؤلاء الذين عاشوا تلك
الأيام المفزعة ، فكم من الكلمات لا تعنى شيئا بالنسبة لكثير
من الناس ، ولكن هناك كلمات تتردد بين هؤلاء الذين كانوا

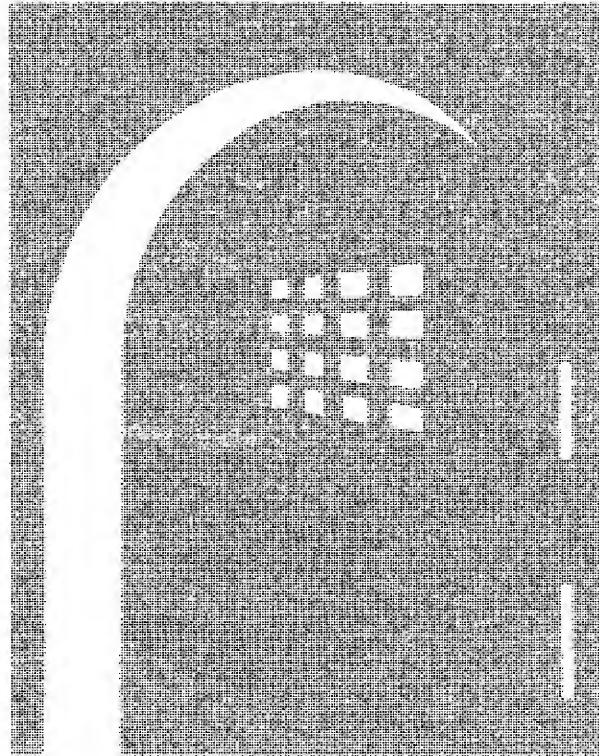
هناك ، فتسرى بينهم كما تسرى الكهرباء فى سلك النحاس
ويكون فى نفوسهم معنى لا يختلفون عليه .

كانت أكثر اللحظات أمنا تلك التى يحكم فيها الحراس
علينا غلق باب المخزن ، رغم الرائحة القذرة التى تملأ
المكان من البراز والبول والصدید ، الموجودة فى كل مكان
ورائحة كريهة أخرى تهب من الأجواف التى أنشأها الجوع
والسغب وقذارة الأسنان ، وكان صوت المزلاج عندما
يتحرك إيدانا بفتح الباب يجعل كل من يسمعه ينتبه ويصل
إلى قوة انفعاله وتمتلىء عروقه بالأدرينالين تحفزا واستعدادا
لمواجهة الخطر ، ويتمثل لنا أسوأ الأوقات فى لحظة تسليم
الطعام الضئيل الكمية ، القدر الصناعة ، لأنهم يتهزون هذه
الفرص فيوسعونها ضربا ولكما وأذى .

وكان كل واحد ينتظر لحظته الرهيبة ، لحظة استدعائه إلى
التحقيق وكان عذاب الانتظار رهيبا ، هناك من مات فى انتظار
هذه اللحظة ، لم يستطع قلبه احتمال ذلك القدر العارم من
الخوف ، فلم يكن أمامه غير الموت .

الفصل العاشر

الزنزانة ٢١٠ فى انتظار التحقيق



كنت أعيش هذه الأيام فى انشغال شديد ، دائب التفكير فى السبب الذى من أجله جاءوا بى إلى السجن الحربى ، وكان ظنى أنه لا يذهب إلى هناك إلا من كان ضالعا فى المؤامرة التى تكلموا عنها ، وكنت أيضا دائب التفكير فى الكلمات التى تفوه بها ضابط المباحث أمامى فى أبى زعبل والتى لم أفهم عنها شيئا لمدة طويلة بعد ذلك ، وكنت أفكر فى العذاب الأسطورى الذى ينتظرنى فى التحقيق الذى لم يتم بعد ، وكنت أحاول أن أتخيل كيف سيسير التحقيق ، وكيف يمكننى أن أبتدع طريقة فى حديثى مع الضابط المحقق أستطيع أن أخلص بها من عذابه ، وكنت أفكر فى الظلم الذى يفرد جناحيه على سماء مصر ، وكنت أفكر فى هذه الأجهزة القادرة المتسلطة التى تفعل ما بدا لها دون وازع من دين أو ضمير ، وكم سألت نفسى ، هل يعرف عبد الناصر ما يدور فى أروقة السجون وظلام الزنازين ؟ وكانت الإجابة نعم يعرف والأدلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة لانستطيع تجاهلها .

وسوف أذكر شاهدا واحدا .

الصحفى الكبير محمد حسنين هيكل ، صديق عبد الناصر ، الرجل الوحيد الذى احتفظ بمكانته عالية مع الزعيم حتى مات ، فيلسوف الاتحاد الاشتراكى ، الذى شارك بفكره بكثير مما مر بمصر من أحداث .

لأريد أن أطيل عليكم .

لقد رأيت بنفسى محمد حسنين هيكل وهو يدخل بنفسه إلى فناء السجن بسيارته السوداء الفارحة ، ثم ينزل منها ويأتيه سعد زغلول عبد الكريم مهرولا وهو كبير المباحث الجنائية العسكرية التى تضرب وتقتل وتشرذ وتفعل بالعباد ما تشاء بإذن من ؟ ما علينا .

دخل الصحفي الكبير وجوقات التعذيب تعزف لحنها
الصاحب اللاإنساني ، السياط تعوى والبشر يصرخون ،
ووقف الصحفي الكبير فى ساحة السجن ورأى بعينه وسمع
بأذنه أكثر من نصف ساعة حتى جاءوه بواحد من أصحابه
الذى أراد له الله أن ينجو من العذاب ، وأخذته بسيارته

وانصرف ، فإن كان الزعيم لايعرف شيئا فلا ريب أن
الصحفى قد أخبره ، وإن كان الصحفي لم يخبره بشيء ،
والزعيم لايدرى بما هو كائن فى سجون مصر ومعتقلاتها
فالأمر أعظم وأدهى ، ونعود من هذا الاستطراد إلى سياق
القصة حيث كنا فى المخزن رقم (٦) الرهيب .

فى صباح يوم (١٦) سبتمبر (١٩٦٥) وكانت الطاحونة
الرهية تدور دورانا مخيفا مفرعا كشأنها كل يوم فتح الباب
علينا كالعادة ، وأثناء الركل والشتم والإيذاء ، أخرجونا
وصفونا صفوفنا أمام المخزن ، وجاء عريف وفى يده دفتر
كبير ، وكان غلاما فى الثامنة عشرة من عمره على أكثر
تقدير ، وجلس على كرسي يحمله له أحد الجنود ووضع
له باحترام شديد ، وجلس العريف فى استعلاء وتكبر وزهو ،
وهو ليس أكثر من عريف ، ورغم هذا ففى نفسه كل هذه
الطاقة على التكبر والتجبر ! كان هذا العريف يتصرف
ككبار جنرالات الحرب الألمان النازيين الذين كنا نقرأ عنهم
ونسلم بهم ، على أية حال لم يكن هذا غريبا فى شيء ،
فقد كان فى سلطة هذا العريف أن يفعل مايشاء دون مساعدة
من أحد فى الجمع الذى يقف أمامه وفيهم ضباط فى
الجيش ، فكان من المنطق أن تتوهج فى ذاته تلك الجذوة
الشیطانية المدمرة .

وبعد أن جلد بعض الأشخاص الواقفين بالسياط لغير ما سبب سوى أن يؤكد في ذواتنا أنه على كل شيء قدير ، وأن سلطانه لا حدود له ولا غاية لمتناهيه ، صار ينادى الأسماء ويرسلها كيفما اتفق إلى الزنازين المختصة في هذا البناء الشيطاني ، وكان يدعو المعتقل باسمه ثم يذكر له رقم الزنزانة فينتقل إليها الشخص المراد كالريح في هبوبها والويل له إذا تقاعس أو تردد أو كانت رجله مصابة لا يقوى على الجرى بها ، في هذه الحالة ينال عذابا رهيبا موجعا بالغ الألم ، وكان عليه أن يستدل على مكان الزنزانة من الأرقام المبينة أعلى الزنازين باللون الأسود ، ثم ناداني العريف ومعى اثنان من الإخوة ، وكان صوته يزمر بين صفعات الجند والسياط الهاوية على أى مكان في جسدى غير آبهة لشيء ، الزنزانة (٢١٠) وانطلقت كغيرى في سرعة البرق ولم أتبين من كان يجرى معى ، ولكن السياط واللكمات تقابلنى في كل شبر من فناء السجن المريع ، وعلى الدرج الطويل المؤدى إلى الدور الثالث حيث كانت الزنزانة المقصودة كان يقبع العذاب على كل درجة من درجاته ممثلا في جندى قمىء الشكل عفن الرائحة يطل الشر من بين عينيه وتتجمع الإهانة في قبضته سواء كانت خاوية أو ممسكة بسوط طويل أسود ممتلىء باللعنة .

وعلى باب الزنزانة كان يقف (سامبو) كأنه الشيطان ، ومن دخل السجن الحربى ولا يعرف (سامبو) ؟ لقد كان أشهر من الكلب (عنتر) وكان من معالم السجن فى تلك الأيام ، لا يصفع على الوجه إلا بكلتا يديه ، فيصيبك بدوار طوال اليوم . وبعد أن قال لنا أشياء كثيرة لأذكرها أدخلنا الزنزانة وأحكم إغلاقها علينا ووقفنا ثلاثتنا لاهئين من فرط الضرب والعدو والانفعال والسعادة أيضا ، فقد كنا نحلم أثناء

وجودنا بالمخزن باللحظة الجميلة التي سيصرفوننا فيها إلى
الزنازين حيث نتخفف من كمية العذاب ونكون بمنأى عن
الجند ، هكذا كان الظن .

وحقق الله لنا الحلم ، وها نحن أولاء فى زنزانة مقفلة فى
الدور الثالث حيث لا يسمع صوتنا أحد ولا يشعر بنا مخلوق ،
ونظر كل واحد منا إلى زميله ، وانفجرنا فى ضحك جنونى ،
وبعد لحظات اكتشفنا أن هناك شخصا رابعا فى الزنزانة
وماكدت أتفرس فى وجهه البرىء حتى تبينت أنه الطبيب
الذى التقيت به قبل مدة فى المحمصة بمعتقل أبى زعبل ،
ووجدتنى أقبل عليه بلهفة .

— أنت فلان ؟

— نعم . وأنت فلان ؟

— نعم .

وعدنا إلى الضحك من جديد ، وكانت سعادة هذا
الصديق فاروق عباس كبيرة فقد علمنا منه أنه ظل فى الزنزانة
وحيدا لمدة طويلة حتى كاد يجن من الوحدة ، وكانت
الزنزانة عارية من أى شىء عدا وعاء مطاطى للتبول ، وكان
الطبيب يرتدى بتلوننا وقميصا صيفيا خفيفا ، وكذلك كان
كل منا ، وبهذه الملابس عشنا الصيف والشتاء ، بلا غطاء
فى زنزانة كانت تعوى بها الريح فى الليالى الباردة كأنها
الذئاب الجائعة .

وفى لحظات نسينا التحقيق والاعتقال والتعذيب وكل
شىء ، وانطلقنا فى حديث طويل تناولنا فيه كل شىء ، كان
حديثنا مضحكا مليئا بالفكاهة والطرافة ، وصرنا نضحك على
كثير مما مر بنا من أحداث ، وأصبح كل واحد كأنه يعرف
الآخر لسنوات طويلة مضت ، رغم أن معرفتنا وشيكة
الحدوث ، كنا كراكبى سفينة تحطمت على صخرة ونجا

منها أربعة سباحة إلى شاطئ قريب ، وفى السفينة ترك كل واحد منا هويته وشخصه ، وذهب إلى الشاطئ المهجور إلا بقلبه وعقله ولاشئ آخر ، فقد الماضى ولأمل له فى المستقبل ، هكذا كان حالنا ، وظل كذلك لفترة طويلة نعيش مجردين من أية أشياء أو متعلقات ، كل واحد يواجه الآخرين بذاته فقط مجردا من أى شئ آخر ، كان الأمر على هذه الصورة ببساطة تامة .

وقد يكون مفيدا أن أقول شيئا عن سكان الزنزانة (٢١).

الطبيب (فاروق عباس) شاب فى الخامسة والعشرين ، نشأ فى بيئة متوسطة الحال أبوه أحد رجال التعليم الابتدائى يعتنق كل أفكار البيئة العصرية المتوسطة من حرص على الحياة ، واحترام الحكومة أيا كان لونها واتجاهها وعدم مناوأة السلطة على أى حال من الأحوال ومحاولة ادخار قدر من المال يكفى لليالى السوداء التى لا بد وأن تأتى فى المستقبل البعيد الملىء بالمخاوف والتكهنات .

وباختصار وصل (فاروق) إلى كلية الطب وكان ذلك مطمحا اجتماعيا ذا أهمية خاصة لأسرته ، وتضافرت جهود الأب حتى أتم الابن دراسته فى الكلية بنجاح ، ثم عمل فاروق طبيبا بالامتياز فى مستشفى الدمرداش ، وفى آخر يوم له بالمستشفى وعندما كان يستعد لأن يكون نائبا تم القبض عليه ، وتعرف وهو طالب يحيى حسين فى أحد معسكرات الجامعة التى كانت تقام بالمصايف فى رأس البر أيام كان يحيى حسين طالبا بكلية الزراعة ، وتصادقا وفرقت بينهما الأيام ، ثم التقيا على قدر بعد ذلك ، وكان يحيى قد صار طيارا بشركة مصر للطيران و فاروق فى السنوات الأخيرة من دراسته فى الطب ، وبطريقة غامضة عرض يحيى حسين عليه

الاشتراك فى نشاط دينى وسياسى ورفض صاحبنا لأن معنى ذلك مناوأة السلطة ومناصبته العداء وهو الأمر الذى جهد أبوه فى تخويله منه وإبعاده عنه .

وفى يوم قائظ من أيام أغسطس سنة (١٩٦٥) ذهب إليه يحيى حسين فى ساعة متأخرة وطلب منه خدمة خاصة جدا ، وبطريقة غامضة أفهمه المهمة التى عليه أن يؤديها ، فقد أعطاه رقما تلفونيا وأوصاه أن يتصل بصاحبه وأن يخبره عبارة واحدة (الجماعة اتمسكت) .

وعندما حاول أن يفهم منه طبيعة هذه المهمة ومعنى هذه العبارة وعده يحيى أن يخبره فى مرة أخرى بالتفاصيل لأنه منشغل تماما ، وذهب يحيى ولم يعد ، ففى هذه الليلة كان على موعد مع الهرب من البلاد ، وفى الطائرة المتجهة إلى (أديس أبابا) نزل يحيى بمطار الخرطوم ولم يعد ثانية .

وكان هناك زميل ليحيى يعمل طيارا معه فى نفس الشركة وكان شريكه فى أفكاره ونشاطه السياسى ، وكان هذا الزميل واسمه (ضياء) صديقا أيضا لصاحبنا (فاروق) ويعرف الكثير عنه ، ويعرف أن يحيى حسين كان يحاول ضمه إلى جماعتهم ولكنه أيضا كان يعرف أن هذه المجهودات باءت بالفشل ، وتحت الضغوط النفسية العنيفة التى تعرض لها ضياء صار يتكلم .

وفجأة وجد فاروق عباس نفسه فى بدروم المباحث العامة بميدان لاطوغلى بالقاهرة حيث الزنازة المخيفة المبطنة بالمطاط وهو يسأل عن علاقته بالإخوان ، وعلى المسكين أن يتحمل العذاب وما كان له أن يقول شيئا ، فهو لا يعرف شيئا بطبيعة الحال .

وانتقل من المباحث العامة إلى أبى زعبل ، وهناك تلقى

صنوا عذبة من العذاب والجلد بالسياط ، ولعلكم أصبحتم تعلمون أن العذاب شىء والجلد والسياط شىء آخر ، وعليه أن يتقد نفسه من جهنم كما فعل الآخرون ، والطريق الوحيد المنبسط لهذه النجاة أن يكذب وأن يخرع أقصوصة تجعلهم ينفضون عنه حتى يلتقط أنفاسه ، وادعى أنه عضو بالإخوان ، وأنه يصنع القنابل لهم ، وعندما سئل عن طريقة صناعتها أجاب بأنه يخلط مقداراً من الأثير ومقداراً من الكيوسين مثله ثم جزءاً ثالثاً من الكلور .

وطيرت أسلاك التلغونات خبر القبض على الإرهابى فاروق ، ونشرت اعترافاته بالعناوين الكبيرة فى الصفحات الأولى من الصحف اليومية ، وضحك خبراء المفرقات كثيراً عندما بلغهم هذا الكلام .

وفى جريدة الجمهورية العدد (٤٢٨٢) بتاريخ ١١ سبتمبر سنة (١٩٦٥) كان العنوان فى الصفحة الأولى :

أسرار الجهاز السرى للإخوان

كشف أحد الإرهابيين أسرار الجهاز السرى للإخوان ، أعلن أن سيد قطب كان يرأس الجهاز ومعه لجنة خماسية تضم إسماعيل الهضيبي وإحدى السيدات تدعى (الحاجة) قال إن أحداً من الإخوان لا يعرف شيئاً عن (الحاجة) .

اعترف الإرهابى بجرائم الإخوان ومؤامراتهم لقلب نظام الحكم وأساليبهم لتضليل الشباب ومحاولتهم ضم عناصر جديدة لتنظيماتهم الإرهابية ، أدلى بهذه الاعترافات طيب شاب ضللت به جماعة الإرهاب ، قال إن خطة الإرهابيين كانت تتضمن نسف محطات الكهرباء حتى يعيش الناس فى

ظلام ، اعترف بأن الإخوان كانوا يستغلون الدين لتجنيد الشباب وتضليلهم ، قال إن العملية التي وضع نفسه فيها لم يفهمها إلا بعد فوات الأوان ولكنه لم يستطع الخروج منها ، كشف الطبيب في اعترافاته المثيرة خطط الإخوان لحظة بلحظة عام (١٩٥٩) .

هذا مقالته الصحيفة في صدر صفحتها الأولى ، والرأي أن كاتب هذه السطور التي قدمت اعترافات الطبيب كان يضلل الناس ويخدعهم ويجب أن يحاسب الآن في عهد الحرية الذي تعيشه مصر .

ماعلينا نعود إلى نص الإعترافات الذي نشرته الصحيفة :

(في صيف عام ١٩٥٩) كنت في رحلة في مصيف البر وتقابلت مع يحيى أحمد حسين وكان وقتها طالبا في كلية الزراعة في جامعة عين شمس وكنت طالبا في جامعة عين شمس أيضا ، واتفقنا على الصلاة وعلى جمع الكلمة على الصلاة جماعة ، ثم انتهى المعسكر وتفرقنا وكان معنا طالب اسمه مصطفى الرشيدى زميل يحيى بالكلية وقتها ، وبعد عام ونصف تقريبا قابلت مصطفى صدفة في العتبة فسألته عن يحيى فذكر أنه انتهى من دراسته في كلية الزراعة والتحق بمعهد للطيران وسيصبح طيارا قريبا فطلبت منه أن يعطيني رقم تليفون يحيى حسين لأتني في حاجة إلى سماعة طبية غير موجودة بمصر وهو يستطيع أن يحصل عليها من الخارج فأعطاني الرقم (٦٥٠٥٠) فاتصلت بيحيى وكانت أول مرة بعد افتراقنا في المعسكر ، وتقابلنا أمام سينما روكسى بمصر الجديدة وكانت أول مرة أتقابل معه فيها بعد المعسكر ليلة العيد الصغير عام ٦١ وسرنا من روكسى حتى العباسية وشرح لى أثناء ذلك كيف يكون الإنسان مسلما حقيقة يجب أن يقرأ

تفصيلات القرآن ولم يذكر لى أسماء كتب فى وقتها ولكنه قال لى ذلك : سأذكر لك كتباً تنمى ثقافتك الدينية فى الكتب وغير ذلك ثم ذكرت له أننى بحاجة إلى سماعة فأمهلنى بعض الوقت لعدم وجود النقود الأجنبية لى يشتري بها ، وطلب منى أن أكون على علاقة دائمة معه بالتلفون وتكررت الاتصالات التليفونية بينى وبينه .

وفى يوم جمعة ذهبت إليه ، وبعد الصلاة ذهبنا إلى شقة قال لى : إنها شقة أحد الأصدقاء اسمه محمد الغنام وكان يصلى معنا وكان هناك محمد الغنام وشخص اسمه أحمد رائف والدكتور محمد أمين (صيدلى) مندوب دعاية شركة سيد للأدوية وكنت قد رأيته قبل ذلك فى الشركة عند ترددى عليها من أجل الدعاية ورأيته مرة أخرى عند يحيى فى المنزل وقال لى عنوانه وأذكر أنه فى حارة لأذكر اسمها عند مدرسة السبتية منزل رقم (٥) الدور الثانى .

ثم ذهبت إلى يحيى مرة فأخذ يناقشنى فى الدين وذكر لى اسم الدكتور (علاء) فقلت له لأتذكره فقال يحيى بأنه شقيق زميل له اسمه ضياء ، فقلت له : لأذكر هذا الطبيب قال لى : إن أخاه رجل طيب جداً ويعرف ربنا ويقرأ فى التفسيرات القرآنية على مستوى كبير ، وقال لى إن شاء الله ستقابله يوماً ما ، وذات يوم قال لى يحيى : ما رأيك فى القراءة لتفسير القرآن فى كتاب (فى ظلال القرآن) فقلت له : ليس لدى مانع ، قال لى اشتر الكتاب من مكتبة وهبة واقراء منه وسأخبرك الخطوة الثانية للقراءة والتثقيف الدينى .

وبعد ذلك طلب منى يحيى أن نقرأ سوياً وأن أبحث عن أفراد معى فى المستشفى متدينين يمكن الاعتماد عليهم فى القراءة بجد فى هذه الكتب فذكرت له بعد بحث اسم الدكتور مجدى ، قال لى : هل يمكن أن يصمد فى القراءة

كثيراً؟ قلت له : نعم فهو كثير المعلومات فى ناحية الدين ، فقال : إذن على بركة الله ، وفى يوم جاءنى يحيى فى المنزل وقال لى : إن هناك شخصاً يدعى على يسكن فى شارع طوسون بشبرا وهو متدين هو الآخر ، ويعرف ربه جيداً ويريد أن يعرفك ، فهل عندك مانع قلت له : لا ، قال : إنه مريض الآن فى المنزل فهل عندك مانع من زيارته ، قلت : لا ، قال إذن هيا بنا .

وذهبت إلى منزله ، وقالوا لنا : انتظروه فقد ذهب إلى الطبيب برهة وسيعود حالاً وانتظرناه ساعة تقريباً ولم يحضر . ثم ترك له يحيى كيساً به (أبو فروة) وانصرفنا .

وفى مرة أخرى قابلت يحيى وقال لى : مارأيك فى أن تنضم إلينا أنا وضياء وعلى الذى حدثتكَ عنه واسماعيل الهضيبي فى أشياء أكثر من القراءة التى كنت مكلفاً بها . قلت له : وماهى الخطوة التالية ، قال : أن نثبت الإسلام على الأرض ، فقلت كيف ؟ قال : لايمكن إلا بالقوة لتغير النظام الحالى ، وجاء ضياء وتكلمنا عن بعض المعلومات فى الكتب التى قرأها وفى نفس الموضوع الذى ينتهى إلى الانقلاب .

وقلت له : ولكن هذا قد يعرضنا للاعتقال والتعذيب . قال : هل إيمانك ليس بالقوة الكافية بأن تبيع نفسك فى سبيل الله ؟ قلت له : لا . قال : لابد أن تقوى إيمانك وحتى نفهم الآية (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) . وعندها ستصبح قادراً على تحمل أعباء الجهاد فى سبيل الله . قلت له : وإذا لم أستطع ، قال : أنت تعمل كطبيب تداوى بعض الجرحى إذا حصل اشتباك ، قلت له : قد يؤدى هذا إلى اشتباك وتعذيب وأنا لأتحمّل ذلك ، قال : إذن أطلب من الجماعة أن تبحث عن طبيب من الأرياف ، قلت له : نعم .

وبعدها بأسبوع حضر إلى يحيى وأخذنى إلى على لكى
أُتُعرف عليه فإذا به يقول لى إن يحيى قد أبلغك بالترتيب قلت
له : نعم . قال : إذن اذا كنت تريد أن تعمل على رفعة
الإسلام وثباته فى الأرض فعليك بالجهاد فى سبيل الله
ولاسبيل إلا سبيل الجهاد ، قلت له : ولكن الجهاد قد يعرض
الإنسان للتعذيب والسجن فى حين أننا نسير على مبادئ
الإسلام ، قال لى : لا فالبنوك ربا ، والسيدات العاريات فى
الطرق زنا ، قلت له : أبدا أنا وأنت نكون رأسمال البنك
فلا يوجد ربا فى الموضوع والسيدات العاريات هى أختى
وأختك فىمكن أن نصلح من شأن أسرتنا ، قال : لا .

لا يمكن إلا من الرأس فلا بد أن نكون الرأس ، وقال لى :
هذا لن يكون بانقلاب عسكري كما نتوقع ولكن سيكون عن
طريق أن نشل حركة المطارات والسكك الحديدية لا غير
وبهذا نكون لم نقتل أحدا ، وأن لنا سواعد قوية فى كل
مكان ، فلا نخف من شيء وستكون مهمتك أن تحضر لنا
بعض الزجاجات الناسفة المكونة من مادة الأثير والكلور
والكيروسين الموجودة بالمستشفى ولن نحتاج إلى أكثر منها
والنسب تستطيع أن تأخذها من الدكتور عزمى زميلك
بالمستشفى أو منى .

ملحوظة : كان يحيى قد أخبرنى قبل ذلك أن هناك
دكتورا اسمه عزمى بالمستشفى وهو على علم بكل شيء
وقال لى اتصل به وكلمه ، فاتصلت به وقلت له : يحيى يسلم
عليك فقال لى : أولا أنا لأعلم شخصا اسمه يحيى حسين ،
وعندما قلت له الذى سيحضر لك سماعة من الخارج عن
طريق خالتك قال لى : سلم عليه وأنا أعرفه ، ثم قال لى
على : إن أسرتك ستضم أنت ومجدى الذى تقرأ معه وأنا
ذكرت له أن مجدى حديث بالمستشفى وهذا يأخذ كل وقته

وأن له أما مريضة وهو يعودها ، قال إذن فليجعل اللقاء بيني وبينك أنت ولاداعي لمعرفة مجدى بى وكفى أن نبلغه ببعض المعلومات البسيطة أولاً ثم ندرج معه فى المعلومات إلى أن يعلم ، قلت له : إذن أسرتنا ستكون مكونة منى ومنك ومجدى عن بعد ، قال : نعم ، قلت له : وكيف سيعلم مجدى بالتكوين ؟ قال عن طريق يحيى وطلبت من يحيى بطارية تشحن بالكهرباء ولما علم مجدى بأنه سيحضرها لى طلب منى أن أطلب له واحدة وبعد إحضارها قال مجدى : يجب أن نذهب لشكره على البطارية ، وأن نقرأ فى الكتب سوياً ، فذهبنا إليه فى المنزل وشرح له يحيى طريقة الدراسة وهدفها ، ثم طلب منى أن يتصل بى لكى نقرأ أكثر وأخبره بأشياء أخرى .

ثم قال لى مجدى : أنا عندي إجازة وفاروق عنده إجازة وسنذهب إلى بلطيم لكى نقضى بعض الأيام هناك فقال : أنا أستطيع أن آخذ إجازة وأحضر معكم ثم اتفقنا وسافرنا فى اليوم التالى وبعد ثلاثة أيام عدنا وفى الطريق نزل مجدى إلى بلدتهم وواصلنا أنا ويحيى إلى القاهرة وفى السيارة طلب منى يحيى أن نحدد مواعيد اللقاء بيننا لكى نواصل التعليمات فقلت له : فى أى مكان مثلاً عندي لأننى متزوج وأنتم لستم متزوجين وإذا لم تتوافر اللقاءات عندي فلتكن فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة ، ولكن هذه المواعيد لم تتوافق ومواعيد سفر يحيى ومواعيد المستشفى فلم نتقابل .

وفى يوم جاءنى يحيى الساعة (٩) مساءً ومعه ضياء وقال لى إنهماء اتفاقاً على رحلة من حلوان إلى القاهرة مشياً على الأقدام فقلت له : هل هذه رياضة ؟ فقال : إنها تعليمات من الرياضة فسألته ومن هذه الرياضة ؟ قال سيد قطب رئيس ومعه

لجنة خماسية من أفراد لانعلمهم قد تسمع عنهم فى يوم من الأيام ، وستتبع هذه الرحلة رحلة أخرى من القاهرة إلى بنها على الأقدام أيضا . وقال يحيى إنه سيسكن فى منزل الحاجة هو وضياء وهى عاملة جمعية الشابات المسلمات ، وزوجته عضو بها وزوجة على وبنت أخت سيد قطب وهؤلاء الزوجات سيكن حلقة اتصال مع الأسر حتى إذا أمسكت إحدى الأسر تكون الزوجات هن المسئولات عن الاتصال بالأسر الباقية .

وذات يوم ذهبت مع يحيى إلى منزل قال لى إنه منزل محمود الغنام ورأيت فيه يحيى وضياء ومحمد الغنام وأحد الأشخاص قالوا إنه مدرب المصارعة اليابانية وكان يعلمهم وهم ممسكون بخناجر وكيفية تفاديها والوقوع من الوضع واقفا بدون أن تحدث إصابات ، ولكنه قال لى إنك لاتصلح لمثل هذه الرياضة .

ثم جاء إلى يحيى منذ خمسة عشر يوما الساعة الحادية عشرة مساء وقال لى : زوجتى فى (تاكس) تحت تنتظرنى . ونفذ ماأقوله لك بدقة ، اطلب الرقم (٨٩٦٤٦٠) واطلب شخصا اسمه فاروق وإذا رد عليك فقل له : أنا عبيد الجماعة اتمسكت ، نفذ وإذا لم يرد عليك فلا تقل شيئا ، ففعلت ذلك ، وفى صباح اليوم التالى لم أجد فاروقا هذا ، وقيل لى إنه ذهب إلى بور سعيد فسألت عن موعد عودته فقالوا لا نعلم ، وقال لى شخص أخبرنى أنه زوج أخته إذا كنت تعلم مكانه أخبره أن والدته فى حالة خطرة فأخبرته أنى لأعلم مكانه .

ويوم الأربعاء الماضى جاءنى ضياء فى المستشفى وقال لى إن يحيى اتصل بالرقم (٨٩٦٤٦٠) وقال لهم : إذا حضر

فاروق يتصل بي فى الرقم (٦٥٠٥٠) فإذا بضابط مباحث يطلبه بالمنزل ولم يجد غير حماه ولم يجد يحيى وفى هذه الأثناء كان يحيى قد مر على ضياء وأخذ دولارات كانت لديه ، وقال إنه سيذهب إلى الخرطوم ثم السعودية ، ثم قابلت مجدى يوم الاثنين الماضى وذكرت له أن جماعة كانت ستعمل انقلابا اتمسكت عن آخرها وأنه أحد أفراد هذه الجماعة التى طلبت منى فى يوم أن أكون مشتركاً فرفضت ، ثم طلبوا منى أن أكون طبيباً أعالج الجرحى إذا حدث اشتباك ولكنى خشيت ولم أوافق .

وقد أخذت (تركيبة) من الزجاجات من عزمى ، قال لى ثلث كلور وثلث إثير وثلث جاز ، وتوضع فى زجاجات حمراء اللون صغيرة (١) وقد أخذها من (على) ولا أعلم إلى أين ذهب بها كما أننى سمعت بعض الأسماء من يحيى مثل الحاجة وابن أخيها وكابتن سعد رئيسه بالعمل وكيف أنه أفنعه بفكرة البيع لله ، وأحمد رائف الذى رأيته مرة ، وقد أخبرنى يحيى أنه ضمن أعضاء اللجنة الخماسية وإسماعيل الهضيبى والحاجة التى لا أعرف بيانات عنها ، وأعرف أن يحيى كان سيسكن عندها .

فاروق عباس

١٩٦٥/٩/٢

(١) ولماذا لا توضع فى زجاجات حمراء أو صفراء أو زجاجات برتقالية
النون ؟ « المؤلف »

انتهت اعترافات صاحبنا الطبيب فاروق عباس .
سوف أدع هذه الاعترافات بين يدي القارىء الكريم ليقرأها
مرة بعد مرة ولن أعلق عليها بشيء ، سأدع القارىء يستنبط
منها كل ماأريد أن أقول ، ولكنى أريد أن أقول له شيئا بالغ
الأهمية ، هذا الكلام المكتوب والذي قرأته منذ لحظات قدم
بموجبه أناس إلى محكمة أمن الدولة العليا وصدرت ضدهم
أحكام بالغة القسوة ، فمثلا هذه القصة الركيكة التى قرأناها
فى الاعترافات ، هل تدرى ماذا حدث لأبطالها ؟ أتدرى ماهو
مصير الأسماء التى ذكرت فيها ؟ أنا أخبرك :

- ١ - نفذ حكم الإعدام فى واحد .
 - ٢ - خفف حكم الإعدام عن واحد إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .
 - ٣ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة .
 - ٤ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .
 - ٥ - حكم على سيدة بالأشغال الشاقة المؤبدة .
 - ٦ - حكم على آنسة أخرى بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات .
 - ٧ - حكم على واحد بالأشغال الشاقة المؤبدة ثم اغتيل وهو ينفذ الحكم .
 - ٨ - ثم حكم على واحد بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .
- وقضى الباقون سنوات بلغت السبع فى المعتقل .
أرجو أن تعيد قراءة الاعترافات ثم تأمل فى الأحكام ،
وبعد أن تنتهى من تأملك أرجو منك أن تعيد التأمل من
جديد .

استطراد لامندوحة عنه .

بينما أقلب صفحات الصحيفة لأنقل منها هذه الاعترافات
طالعنى عنوان جانبى بها يقول :

(رأى الإسلام فى مؤامرة الإجرام)

أذاع شيخ الأزهر أمس بياناً أوضح فيه رأى الإسلام فى
مؤامرات الإجرام أعلن أن أعداء الإسلام حاولوا - حين عز
عليهم الوقوف أمامه - حرب الإسلام باسم الإسلام فاصطنعوا
الأغرار وأمدوهم بإمكانيات الفتك وأدوات التدسير ، ولكن
الله كشف أمرهم ليظل الإسلام أكرم من أن يتجر به .

وقال شيخ الأزهر فى بيانه :

أيها المسلمون ، إن الأزهر الذى عاش عمره الطويل لفقه
الإسلام والتعريف به ودراسة القرآن والاستمداد منه ، وورود
الحديث الشريف والصدور عنه قد شرفه الله بثقة المسلمين
جميعاً فيه فائتمنوه على عقائدهم وحكموه فى كل مايعن لهم
من أقضية الحياة ومحدثات العصور ، ولقد كرم المسلمون
شرف مهمته وإخلاص نيته فضموه إلى مقدسات الإسلام .

وإن الله الذى يعلم ماتضطلع به مصر من مسئوليات
ومايتحملة قاداتها من تبعات قد شاء أن يدلها على أوكار
الخيانة وكهوف الغدر ومنظمات الدمار حيث تواجه مرحلة
انطلاقها بعروبة موحدة الهدف إسلامية شريفة السلوك
وإنسانية نبيلة المثل .

وإذا كان القائمون على أمر هذه المنظمات قد استطاعوا
أن يشوهوا تعاليم الإسلام فى أفهام الناشئة واستطاعوا أن
يحملوهم بالمغريات على تغيير حقائق الإسلام تغييراً ينقلها

إلى الضد منه ، وإلى النقيض من تعاليمه ، فإن الأزهر لا يسهه
إلا أن يصوب ضلالهم ويردهم إلى الحق من مبادئ القرآن
الكريم والسنة المشرفة ، فالإسلام كما قال عنه الرسول -
ﷺ - حين سأله جبريل عليه السلام - فقال يا محمد :
أخبرني عن الإسلام ، قال ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة
وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال
جبريل : صدقت . ثم قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن
تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر
خيريه وشره ، قال جبريل : صدقت ، ثم قال : فأخبرني عن
الإحسان ، فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه
فإنه يراك .

هذا هو الإسلام كما بينه رسول الله فحين يشترط
المتآمرون على الإسلام أن يكون المسلم منتظما لجماعة
خاصة تستهدف البغي وتدعو إلى التمرد فإنهم بذلك يدخلون
على الإسلام ما ليس منه ويحاولون أن يجعلوا لمنظمتهم
قداسة حتى يستولوا على صغار العقول وهواة التحكم
والسلطة .

وإن الإسلام الذي يتجرون باسمه يصون حرمة المسلم في
دمه وماله وعرضه فقد قال رسول الله ﷺ : لا يجل دم مسلم
يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث :
الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ،
وصح عنه أيضا أنه قال في حجة الوداع: أي يوم هذا ؟ قلنا:
الله ورسوله أعلم فسكت ثم قال: أليس يوم النحر ؟ قلنا: بلى
يا رسول الله ، قال: فإن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام
عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ،
سنلقون ربكم فيسألكم أعمالكم فلا ترجعن بعدي كفارا

يضرب بعضكم رقاب البعض ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب ،
فلعل بعض ما يبلغه يكون أوعى له من بعض من يسمعه ،
ثم قال ألا هل بلغت ؟

وصح عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال من
حمل علينا السلاح فليس منا ، وإذا ثبت في اغتيال النفس
الواحدة فما بالك باغتيال الجماعات البريئة وترويع الآمين ؟
وإذا كان مال المسلم على المسلم حراما فما بالك بالاعتداء
على المال العام والمصالح المشتركة والمرافق الحيوية التي
يحيا بها المواطن وتعيش عليها الأمة ؟

وإنى لأعجب أشد العجب ممن يدعى الإسلام والغيرة
عليه ، كيف يسوغ له أن يوالى أعداء الإسلام وأن يأخذ منهم
مقومات الفتك بالمسلمين ويستعين بمالهم على إخوة له في
الدين ألا ساء ما يدعون وبئس ما يفترون ، ألم يقرءوا قول الله
تعالى : - « ومن يتولهم منكم فإنه منهم - » . ألم يقرء
سمعهم قول الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم
الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو
أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم - » ؟

أيها المسلمون - إن الاستعمار قد يئس أن يعيش بينكم
وأن يتحكم في أموركم وأن يمتص خيراتكم ولكنه دفع منكم
نفرا ليهدموا مكاسبكم ويضعوا العراقيل في سبيل نهضتكم
فتنبهوا جيدا إلى كيد هؤلاء وتآمر هؤلاء حتى لا تنتكس
ثورتكم وتعودوا إلى عهود التبعية والإقطاع والرأسمالية .

وإن الأزهر الشريف كلياته ومعاهده ووسائل إعلامه
يلقنكم عقائد الدين كما أرادها الله صافية من تعكير الضالين

مستقيمة من التواء المبطلين تأخذ بيدكم إلى خير مجمع عليه
وتنجيكم من شر غير مختلف فيه ، فسيروا على بركة الله
راشدين مهدين وماتوفيقنا إلا بالله وهو يتولى الصالحين »

تعقيب على بيان كبير المشايخ :

في الحقيقة ليس من السهل أن أناقش بيان ذلك المخلوق
في سطور قليلة فالأمر قد يحتاج إلى كتاب كبير لنعطى الأزهر
ما يستحقه من شرح وإطنااب للحالة المزرية التي وصل إليها
في السنين الأخيرة .

ولكننا نترحم على شوقي وعلى محمد عبده ثم نقول :
كان حريا بحسن مأمون أن يحترم سنه وأن يحفظ مقامه
ولا يتردى فيصير بوقا في يد عصاة مثل مافعل الجاهل من
الناس ، وكان عليه أن ينتظر دورة الزمن أو يراها بعين
بصيرته - إن كانت له بصيرة - فيرى كيف يقضى في مصر
على النفاق والمنافقين ويحاسب قطاع الطرق عما اقترفوه
ويودعون السجون على مافعلوه في حق الودعين الأبرياء من
قتل وتشريد .

وهو قد اتهم الإخوان في بيانه بعمالتهم للاستعمار ، أي
استعمار هذا الذي تعنيه يا شيخ حسن مأمون ؟ الاستعمار
الأمريكي أم الاستعمار السوفيتي ؟ أم تراك تقصد الاستعمار
اليهودي ؟

ولن أقول أكثر من هذا في هذه النقطة .
يا لضيعة شيخ الأزهر وشيوخه !

أين كانت نخوتك يا شيخ الأزهر عندما كانت طائراتنا
المغيرة تدك قرى اليمن وتقتل الشيوخ والأطفال والنساء ؟
لأظنك لم تسمع بهذا وإذا ادعيت فلن أصدقك ، فالشعب
كله كان يعرف هذه الفضائع ولا يملك غير السكوت وإلا
ضرب بالنعال وألقى في غياهب السجن ومنع عنه القوت
وشردت أسره .. و .. و ..

ولأظنك لم تسمع بما فعلته مراكز القوى بالإخوان في
السجون والمعتقلات ، أما كان أجدر بك أن تقول كلمة
الله ، وأنت تعلم أكثر من غيرك أن الساكت عن الحق شيطان
أخرس ، أم تراك نسيت هذا الحديث الشريف ؟

كان يجب على شيخ الأزهر أن يتحرى الدقة في ذلك
البيان الذي أذاعه وألقاه على الصحف وطيرته وكالات
الأنباء .

كان عليه أن يخشى الله أولا وقبل كل شيء وأن يعرف
أن الرازق هو الله وهو المحيي والمميت وليس آخر .

كان عليه أن يعمل حسابا للأزهر الذي بسببه يقبض راتبه
الكبير ويركب سيارته الفارهة ويقبل الناس يده ، فلو ضاع
الأزهر لضاعت من شيخه هذه المخصصات ، وكفى سببا
لضياع الأزهر أن يبقى شيخه في مكتبه ينتظر أوامر الضابط
من المباحث العسكرية أو العامة بأن يلقي بيانا ما .

كان عليك أن تدافع عن المسلمين وتحرك الرأي العالمي
وتطلب لهؤلاء المظلومين الفرصة في محاكمة عادلة ، وترفع
صوتك ولا تخشى في الله لومة لائم ، وإن لم تستطع الوقوف
في هذا المقام الرفيع فلا أقل من السكوت عن الحق يا شيخ
الأزهر ، أما أن تحرض وتعضد الطغيان وتنفع في صورة
المفسدين وتشجعهم على قتل الناس وتشريدهم وتخمد

صبيحة الحق إذا انطلقت فلعمري ذلك هو الضلال البعيد .

طبعاً أنت تعرف حقيقة مؤداها أن الشيوعيين قد تربعوا على عرش الفكر والصحافة وكل شيء في مصر فترة من الزمن ، على أقل تقدير في الفترة التي ألقى فيها الإخوان في غياهب السجون .

ويوم صدور بيانك في نفس الصحيفة جاء في الصفحة الرابعة تحت عنوان : « إعتقال بدون مبرر في جنوب أفريقيا » بلغ استهتار حكومة جنوب أفريقيا بالحريات العامة إلى درجة أنها اعتقلت أمس أيزال هانيمان أول شخص يطبق عليه القانون الجديد «(تصور شيخ الأزهر ، شخص واحد فقط) الخاص بجواز اعتقال أى شخص لمدة ١٨ يوماً لأي سبب تدعيه الحكومة (تأمل يا شيخ الأزهر ١٨ يوماً وليس ١٨ سنة) تقول : إنه ماس بالأمن الداخلي ، وقد اعتقل فور الإفراج بعد وفاء مدة السجن وكانت التهمة الموجهة إليه هي أنه شيوعي (انظر يا شيخ الأزهر كيف يتضافر الشيوعيون في أنحاء العالم) .

ولايهمنا بقية الخبر ، كل مايعيننا أنه نشر في الصحيفة نفسها ، وفي اليوم نفسه الذي صدر فيه بيانك ، وما كان يليق بك أن تفعل ، فالخاسر والأحمق هو الذي يبيع آخرته بديناره ، وأكثر منه خساراً وحمقاً الذي يبيع آخرته بدينار غيره ، كانت الدنيا تعج بالنفاق والمنافقين عام (١٩٦٥) وكان على الأزهر وشيخه أن يتعدا عن هذه الحلبة ، ولو دفع الشيخ حياته في سبيل ذلك فهو أكرم وأتقى وأقرب للتعوى .

كانت تلك قصة صديقنا الطبيب واستطردنا منها إلى حديث طويل أرجو المعذرة من القارىء، ولكنى لم أبعد كثيرا عن القصة .

بجانب قصة صديقنا هذا هناك قصة صديقنا الآخر (ع) صاحبنا فى الزنزانة وهى تبين لنا الوجه الآخر من الفساد .

لقد كنت فى التحقيق مع فاروق عباس عندما مزقت السياط جسده ، وعندما أكلت الكلاب قطعة من لحمه ، وظلت آثارها باقية حتى الآن ، وكان صوته يتعالى مع نباح الكلاب وعويل السياط وضحكات الضباط ، وفى النهاية اعترف بما لم يفعل .

أما (ع) فقد قص علينا قصته وعرفنا أنه قد أتى نتيجة لاعتراف على عشناوى عليه أنه كان عضوا فى تنظيم الإخوان ، وكان على عشناوى يكاد يكون (شاهد الملك) فى القضية فقد روى كل ما يعرف حول التنظيم والاتصالات التى قام بها فقد كان أحد أعضاء اللجنة الخماسية لقيادة التنظيم .

وذهب (ع) إلى التحقيق واعترف اعترافا مفصلا بكل ما يعرفه عن هذه الاتصالات ، وكان من المنتظر أن يحكم عليه بخمسة عشر عاما على الأقل فهذا كان يساوى اعترافه . ولكننا فوجئنا بالإفراج عنه بعد حوالى شهر من اعتقاله ، وعرفنا السر ، فقد كان له شقيق يعمل بالمخابرات وعلى علاقة وطيدة بشمس بدران .

وكان الشخص الرابع شابا فقيرا فى العقد الرابع من العمر وكان عضوا بجماعة الإخوان قبل حلها الأول ، عام (١٩٥٤)

وقدم للمحاكمة فى ذلك الوقت وصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ ، ثم انقطعت صلته بعد أن أخرج من المعتقل (١٩٥٦) بكل أنواع النشاطات الدينية والسياسية ، وكان يعمل جاهدا أن يحسن أمور معيشته بأى وسيلة معقولة ، أو غير معقولة ، فرغم أنه لاعلاقة له بالفن إلا أنه حاول أن يكون ممثلا ، وجاهد كثيرا من أجل ذلك إلا أنه فشل فشلا ذريعا بدا لى من كلامه ، فقد كانت تنقصه الموهبة . ولم يستطع سوى الحصول على أدوار ثانوية لاتستغرق دقيقة أو أكثر قليلا على المسرح ، وكان فى معظم المسرحيات لايفتح فمه ، بينت شقة .

وعاش بعد خروجه من المعتقل مايقرب من عشر سنوات من الكد الدائب والكفاح المستمر بلا نتيجة ، فكأنما كان يحرق فى بحر ، ونسى كل ماله صلة بالدين أو السياسة ، اللهم إلا صلاة الجمعة بين حين وآخر .

ورغم هذا فقد أفاق ذات يوم فوجد نفسه فى فم (التنين) محشورا فى زنزانة معنا ، وكان عليه أن يثبت انقطاع صلته بكل هذا ، كانت هذه هى مشكلته كما كانت مشكلة الكثيرين الذين ألفت بهم الحظوظ ليروا الحياة من وجهها الآخر ، وجهها الكئيب الكريه فى ضيافة سيادة اللواء حمزة البسيونى وغيره من أقرانه .

كان جمعا عجيبا متناثرا متباين الطباع والمزاج وكان عليه أن يتعايش فى سلام داخل عالمه الصغير الذى تمثله الزنزانة التى تهب عليها الريح ، ريح العذاب العبرى فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

كنا على اختلاف فى الثقافة والميول ونوع التربية
والاهتمامات .

فالأول كانت لذته الكبرى فى الصلاة واستعادة ما يحفظه
من آيات القرآن الكريم وكنا نشاركه هذا فى كثير من
الوقت .

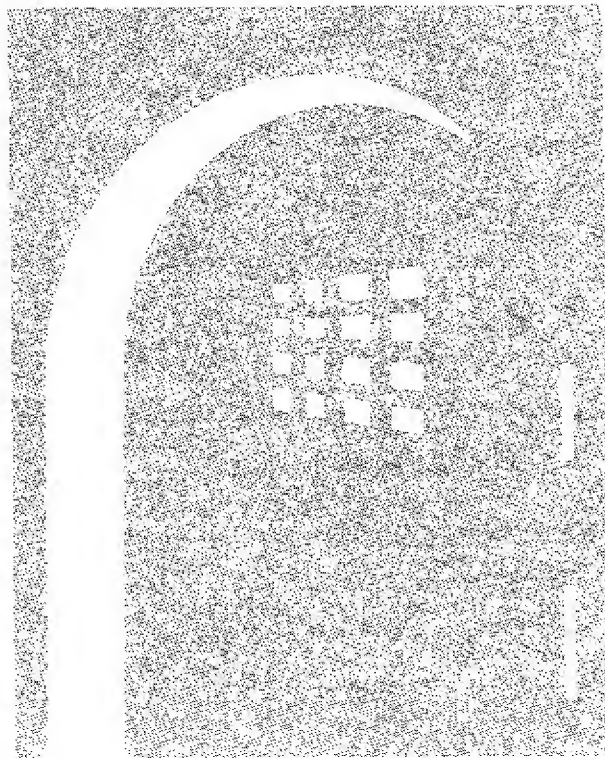
والثانى كان يعيش على ذكرياته الغرامية يقصها علينا ليلاً
ونهاراً ولا يمل تكرار هذه الأقاصيص .

والثالث كان يلذ له أن يقص علينا أقاصيص كاذبة عن
صداقته بعلى القوم والنابيين من الناس .

أما أنا فقد كانت تؤلمنى المأساة التى نعيشها ويعيشها
الإسلام فى واقع المسلمين وكنت مشغولاً طوال الوقت فى
محاولة فهم الموقف ، وكنت أتذكر شخصية رجل قرأت
عنها كان عنده من الأفكار ما يكفيه أن يظل صامناً عشرة آلاف
سنة يجتر فيها ذكرياته الفكرية إن جاز التعبير .

الفصل الحادى عشر

الاستجاب على الطريقة الروسية



مكثت في انتظار التحقيق حوالى أربعين يوما ، ننام على أسفلت الزنزانة وتدخل إلينا فئران كبيرة فى حجم القطط لتداعب أرجلنا ووجوهنا ، ولم نكن نعبأ بها عدا شخصا جديدا قدم إلينا وكان يخاف الفئران خوفا من الشياطين ، وكان يستيقظ فى الليل ويوقظنا ويتوسل إلينا أن نبقى معه ساهرين لنذهب الفئران عنه ، فكنا نخلع ملابسنا نحاول أن نسد فتحة من الأرض والباب تنفذ منها الفئران ، فكانت تقرض الملابس وتدخل إلينا رغم هذا كله .

كان فى الزنزانة قروانة واحدة يوضع فيها الطعام القليل الذى تسمح نفوسهم به ، وكان الإفطار عبارة عن شاي وطعمية وأحيانا جبن مستورد وحلاوة وعسل أسود وطحينة . طبعاً لاناخذ هذه الأشياء كلها فى الإفطار ، ولكن كل يوم شئ ، عدا الشاي الذى كنا نأخذ نصيبا منه فى كل إفطار .

ثم نأتى للكميات التى توزع ، ففى يوم الطعمية يأخذ أربعتنا قرصا واحدا من الطعمية ، وإذا كانت جبنا فلنا جميعا منها ربع قرص ، لايكفى لإفطار طفل صغير ، وإذا كان عسلا فهو ملعقة واحدة منه يصب عليها ملعقة أخرى من الشاي . أما الخبز فهو يقذف لنا عند الظهر من تحت عقب الباب ، وهو رقيق ونصف للأربعة طوال اليوم ، ويأتى وقت الغداء فيوزع علينا قدر ضئيل من طعام مطبوخ يتغير كل يوم ، ولم نكن نعرف منه غير الفاصوليا البيضاء التى كنا نغرم بها لقلتها وندرتها وجوعنا الشديد .

أما ماء الشرب فكان يمر بنا جندى بعد الغداء بفترة طويلة ويفتح باب الزنزانة فننتفض وقوفا فيناولنا ربع كوب صغير من الماء للأربعة وكانت هذه المسألة قاسية جدا أيام الحر ، ولكننا اعتدناها مع مرور الأيام .

وكانوا يأتون لنا ببعض الفاكهة بين حين وآخر ، وكانت
الكمية ضئيلة جدا ، وكنا ننزل إلى دورة المياه مرة كل
صباح ، وكنا نعاني من هذا النزول أمر العناء ونبت نفكر
فى هو له طوال الليل ، وعندما يقترب الجندى المكلف بإنزالنا
يرتفع وجيب القلوب وتلهج الألسنة بالدعاء إلى الله أن تمر
هذه اللحظات على خير ، ففيها خلاصة الضرب فى اليوم
والليلة .

وكنا نعاني معاناة شديدة من الجوع والعطش ، وعند
نزولنا إلى دورة المياه ، كان غاية ما يمتنى الواحد فىنا أن
يقضى حاجته بأسرع ما يمكن ، شىء كلمع البرق إن جاز
التعبير ، وإلا فلا يلوم إلا نفسه ، ثم مسألة محاولة الشرب ،
وياسعادة من يستطيع أن يعب ولو أقل قدر من الماء ليحتمى
به من ظمأ النهار ، وكان البعض يصوم والبعض الآخر يغافل
الحرس ثم ينطلق كالقذيفة ناحية الصناير الموجودة على
مقربة ويضع فمه على الصنبور ويفتحه فى فمه ويمسك به
بكلتا يديه فى تشنج ولا يأبه لما يحدث له وهو يمالأ بطنه
بالماء مثل الجمل ، وكانوا فى بعض الأحيان يكتفون بضرب
من يفعل هذا ضربا بوشك أن يقضى به إلى الموت ، وفى أحيان
أخرى يصبر الحرس على أن يتقيأ صاحبنا الماء الذى شربه ،
ولا يزالون به حتى يفعل ، ثم يعود خائبا إلى الزنزانة قد شج
وجهه وكسرت رباعيته ولم يظفر من الماء بأقل نصيب .

ويأتى يوم الاستحمام وهو يوم كالح شديد الكآبة تكثر
فيه الإصابات ويسقط عدد غير قليل من الجرحى ، فعلى
الواحد منا أن يستحم فى أقل من أربعين ثانية ، أو خمسين
على الأكثر .

وكنّا فى أول عهدنا بالسجن الحربى ، ننزل يوم
(الاستحمام) بملايسنا ، ونبدأ داخل الحمامات بخلعها
وماأن نفعل حتى يدخلوا علينا بالسياط ونعود وقد غطتنا
الدماء ، وكنّا نزهذ فى هذا الحمام فيوسعونا ضربا ولكما
أيضا وبعد هذا كنا نخاطر وننزل وقد تخلصنا من معظم
مانرتدى من ملابس ، ويكون الضرب فى هذا اليوم
كالمهرجان .

وكانت الحمامات فى معظم الأحيان لاتوجد بها مياه ،
وكان علينا أن ننقل المياه من البئر القائمة فى فناء السجن
الكبير فى أوعية المطاط المستعملة للبول ، وكان الأمر شاقا
وبه خطر عظيم ، ونظل طوال ليلة الاستحمام نخطط لوقائع
الصباح القريب لينتهى اليوم بأقل الخسائر ، ففلان عليه أن
يعود بأقصى سرعته إلى البئر فيملأ وعاء المطاط ويأتى به
ليقابله فلان فيأخذ منه الوعاء فيقدمه لفلان آخر ، الواقف
عاريا داخل الحمام ، وهذا يستحم بأقصى سرعته ويرتدى
ملابسه ويخرج بسرعة ليأتى للآخرين بالماء ، ونظل نحفظ
أدوارنا قسطنطينا طويلا من الليل .

وكان كثير منا لا يستطيعون قضاء حاجتهم عند الذهاب
إلى الدورة ، فالأمر يحتاج إلى تدريب من نوع خاص ، وقد
أتقنا هذا بعد انقضاء وقت يسير .

وكان السؤال الذى يسأله كل واحد لصاحبه عند العودة
للزنازة ، هل قضيت حاجتك ؟ وكم تكون سعادتنا كبيرة
عندما نتمكن جميعا من قضاء هذه الحاجة ، أما إذا حالت
ظروف واحد دون ذلك - وكثيرا مايحدث وكما قلت - فهو
يدخل الزنازة كئيبا مكفهر الوجه ونقوم على مواساته حتى
تشرق شمس يوم آخر ، وقد يصبر حتى اليوم التالى وقد
لايصبر .

وكان الكلام ممنوعا خارج الزنزانة والويل لمن يضبط يتحدث مع زميله، كانت العقوبة مائة سوط ، وهم لا يعدون فتصل في أحيان كثيرة إلى خمسمائة ، فكانت التحية لمن يعرفون بعضهم بتحريك الحواجب إلى أعلى وإلى أسفل ، الأمر الذى يشير ضحكنا عند عودتنا إلى الزنزانة آمن مكان بمصر فى تلك الأيام .

وكان الخروج من الزنزانة معناه الضرب ، وقد يفقد الإنسان عضوا فيه من هذا الضرب ، وقد حدث هذا للكثيرين ، فهناك من فقد عينا وهناك من فقد إصبعاً من قدمه بضربة فأس من حارس لا يفترق عن الحيوان الأعجم .

والشئ الغريب أننا لم نكن نضرب وحدنا ، كان الذين يضربوننا فى النهار يقضون ليلهم فى عذاب وضرب هم الآخرون ، وكنا نرى ذلك خلال فتحة فى باب الزنزانة فيبدأ عذابهم فى أول الليل ولا يزالون يضربون حتى يقترب الفجر ، وعندها يرسلون جنديا واحدا ليذهب بأهل ثلاثمائة زنزانة إلى دورة المياه ، وعليه أن ينتهى من هذا كله خلال ساعة واحدة ، فينطلق هذا الحارس كالوحش المسعور ويعمل فينا ضربا وفتكا لينتهى من مهمته فى الوقت الذى حدد له وغالبا مايفشل وهو لا يستطيع أن يدعى كذبا بذهاب الجميع إلى دورة المياه فهناك من يراقبه ويفشله يقيد اسمه فى (طابور الذنب) الذى يقع فى المساء .

وكذلك الذى يوزع طعام الإفطار ، عليه أن ينتهى من هذا فى ساعة ويفشل ويقيد اسمه فى طابور الذنب فى المساء . وكانوا ينتقمون منا أبشع الانتقام لظنهم أننا سبب شقائهم .

وكم لمعت أسماء الجلادين ، زغلول ، سامبو ، الروبي ،
النوبي ، وكان هناك من أطلقنا عليه اسم محمدى (المطرقة)
تشبيها (بشارل المطرقة) فقد كانت يده صماء خرساء
والويل كل الويل لمن سقطت هذه اليد على وجهه ، وهناك
الكثير ممن فقدوا حاسة السمع فى ذلك المعترك الرهيب .

وكانوا يأتون للسجن الحربى بالجند المتخلفين عقليا ،
الذين رسبوا فى الاختبارات النفسية التى أجريت لهم فى الجيش
كالعادة ، فهؤلاء يصعب التفاهم معهم بل يستحيل .
وكان البعض منهم يأتى طيب القلب به فطرة الريف ونقاء
خضرة مصر ، وسرعان ما يحوله العذاب إلى وحش .

(أحمد أبو ودان) ذلك الجندى الطيب الذى كان يؤدى
صلاة الفجر ويدعو لنا أن يخلصنا الله من هذا العذاب ،
سرعان ما صار شرسا كالذئب ، وأذكر أنه حطم علينا بابا من
الخشب ، كسره إلى ألواح وضربنا به حتى تفتت الألواح
كلها .

وقد استطعنا مع مرور الأيام ترويض البعض منهم ، فاشتهر
فلان بأنه يستطيع أن يسوس زغلول ، وهذا النوبي ، وهذا ،
إلا (سامبو) فما استطعنا له ترويضاً رغم براعة البعض
وذكائهم وزاد الأمر سوءا عندما منح شريطا على كتفه ، فقد
صار يتصرف وكأنه مونتجمرى على مقربة من
(سيدى برانى) أيام العلمين .

والحقيقة أن أيام الحربى على قسوتها ومرارتها كانت
أجمل الأيام وأعذبها ، كنا نقضى وقتنا فى العبادة والاستغفار
وقراءة القرآن .

وكان كل منا يقدم خلاصة خبرته وثقافته إلى الآخرين .

فمثلا زنراتنا (٢١٠) كان الطبيب الذى معنا يقدم لنا درسا يوميا فى علوم الطب ويدرسه لنا كما درسه بالكلية ، وكنت أقول لهم محاضرة فى التاريخ يوميا ، وكان ذاك يحدثنا عن القانون وتاريخ القانون وهكذا .

وأذكر أن زنزانة من الزنازين كان بها صانع أحذية فكان يقدم خبرته لمن معه فى أنواع الجلود والحذاء الجيد وكيف تعرفه وتميزه عن قرينه الأقل جودة .

وكنا نتذكر وقائع النهار ونضحك عليها شطرا كبيرا من الليل ، وأذكر أننا كنا نضحك فى بعض الأحيان حتى تكاد جنوبنا أن تنفجر من الضحك ، ونهزأ من كل شىء من أقوال المحققين وطرائفهم فى التحقيق والمحاكم التى يزعمون إنشاءها ، ونحسب نصيب كل منا فى الحبس ، ونحمل بعضنا لينظر من نافذة الزنزانة ، فىرى الشارع والمترو وضاحية مصر الجديدة . وينزل وقد امتلأ حسرة على ماجرى فى هذا البلد العجيب .

وكنا لانعلم شيئا عما يدور فى العالم ، لاصحف ولا إذاعة ولازيارات ، ولاشئ على الإطلاق ، وتسقط الأخبار من أوراق الصحف القديمة ، التى قد نجد منها قصاصات بجوار دورة المياه ، وتروج الإشاعات وكان معظمها غريبا عجيبا لايمثل إلا أمانى ذلك الجمع الذى فصل عن الحياة أو فصلت الحياة عنه .

كنت أناقش جميع الاحتمالات عن التحقيق مع زملاء الزنزانة وأعصر ذهنى لأتصور مايمكن أن أسأل فيه .

وكان دخول جندى بيده ورقة يصيب السجن كله بالذعر فهذه الورقة فيها أسماء أشخاص مطلوبين للتحقيق ونظّل

مشدودين على تلك الكوة التى فى الباب خلف الذى ينظر
منها وهو يذيع علينا ما رآه ، وكلنا آذان مصغية وحواسنا فى
كامل انتباهها ، لقد دخل وهو ينظر ناحية اليمين فنفهم أننا
لسنا المقصودين .

وفى يوم من الأيام كان فاروق عباس هو الذى ينظر من
الكوة وصار يذيع علينا ما يراه ، لقد نظر ناحيتنا ، إنه ينظر
إلى الزنزانة إنه يصعد السلم ، يبدو أن أحدا منا سوف يذهب
إلى التحقيق .

وأدركت أن ساعتى قد دنت ، ووقفت منتبها حتى اقترب
الجندي وفتح باب الزنزانة ونادى على ، وفى لحظات كنت
أهرول على السلم كما تقضى التعليمات ووقفت بجانب
المخزن رقم (٦) ووجهى إلى الحائط حتى يستكملوا نداء
من يريدونهم للتحقيق .

وأثناء هذا الانتظار كان بعض الجند يمر ويصفعنى كيفما
اتفق ، واكتمل العدد ، وساقونا بعدها بالسياط إلى مكان
التحقيق ، وكان منظرا طبيعيا ليس فيه غرابة .

وفى المكاتب حيث يدور التحقيق تسمع الصراخ والصياح
وصوت السياط يصم الآذان ، وأجلسونا على الأرض فى
مواجهة السور بحيث نسمع ولا نرى حتى يأتى موعد
التحقيق .

وكنا نجلس هكذا حتى يمر علينا نهار وليل ، وبعدها
تكون أعصابنا قد وصلت إلى متنهاها من التلف والتوتر
وعندها ندخل إلى المحقق .

وضباط المباحث الجنائية العسكرية أكثر استهانة وعبثا
بأرواح الناس ، وقد قتلوا فى تحقيقهم أكثر من ضعف من

قتلتهم المباحث العامة ، وفي تحقيقهم يعتمدون على التخويف أولاً ثم الضرب بالسياط حتى يفضى إلى الموت فى أحيان كثيرة ، وهم فى تحقيقهم يستخدمون الكى بالنار بواسطة أسياخ مثل التى تشوى عليها اللحوم ويحمونها إلى درجة الاحمرار ثم يطفئونها فى أجساد الشهداء .

وكانوا يستخدمون التعذيب بالكهرباء بواسطة سلك عارٍ موضوع أمام مكتب كل ضابط وهو يأمر من يقف أمامه أن يتقدم ويمسك السلك بيده ويرغمه بواسطة كلاب البشر، وكلاب أخرى مدربة ، وكانوا يستخدمون الكلاب وندر الذى لم تنهش جسده ، ويضعون الذى يحققون معه عاريا فى المجارى ويرغمونه على الشرب من مائها ثم يخرجونه عاريا إلى الكلاب ، وكانوا يعلقون الذى يضربونه بحيث يكون رأسه إلى الأرض وقدماه إلى السماء ثم تنزل فرقة الضرب بالسياط وهم أربعة من شياطين الإنس ، وسرعان مايتلف جلد القدم ويتم هذا تحت إشراف ثلاثة من الأبالسة اللواء سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث الجنائية العسكرية واللواء حمزة البسيونى، مدير السجون الحربية . جلاد مصر الأول ، ورئيسهم العقيد شمس بدران مدير مكتب المشير رجل الحرب المغوار عبد الحكيم عامر .

ومن مكائى فى انتظار التحقيق رأيت الكثير وسمعت الكثير ، رأيت زميلا لى لأعرفه يدخل إلى مكتب التحقيق ويسأله الضابط :

- لماذا اعتقلت ؟

ويجيبه الزميل :

- لست أدرى .

فيعلق ويضرب بالسياط ثم يعيدونه ويسألونه ، وهو

لايدرى ومازالوا به حتى المساء وكادت روحه تزهق . وفى
النهاية قال الضابط له :

- لقد اعتقلت لأنك عضو فى الإخوان .
كان على من يذهب إلى هناك (تحقيق المباحث الجنائية
العسكرية) أن يعترف بادیء الأمر أنه عضو فى تنظيم الإخوان
السرى فيوفر على نفسه علاقة الافتتاح .

ومن مكاني رأيت عربة جيش فارهة تدخل الفناء ويضرب
البروجي (نوبة سلام) وينزل منها ضابط عظيم لأدرى أهو
عميد أم لواء ، وإذا برقيب السجن صفوت يقابل هذا الضابط
العظيم بالصفع على وجهه والرجل ينتحب كالطفل فقد فوجئ ،
بما حدث ، ثم ينزعون الرتب من فوق كتفيه ويعلقونه
ويجلدونه على قدميه ، ويبدو أنه عاد إلى الجيش مرة أخرى
فلم أره بعد هذه العلة .

ومن مكاني رأيت وسمعت الحاجة زينب الغزالي وهم
يجلدونها بالسياط على قدميها وهى ترسل صراخا حادا فى
القضاء .

ومن مكاني رأيت أعجب منظر مر بى فى تلك الرحلة .
الضجة تملأ فناء السجن وتدخل شاحنات قد حملت
بالبشر وينزل راكبوها فإذا بهم نساء ورجال ، أناس من
فلاحى مصر ، وإذا بالرجال يأخذون على الأرض وضعا على
أربع مثلما تفعل البهائم ثم تتركب النساء على الرجال ويهرول

الرجال بهن بين فرقة السياط والعويل والصراخ . كانوا أكثر
من خمسمائة رجل على ظهورهم خمسمائة امرأة .
كان مشهدا بالغ الإثارة لا يتصوره أحد وقد لا يصدقه أحد
ولكنى رأيته بنفسى .
لقد كانوا أهل كرداسة ولهذا قصة .

فى الساعات الأولى للتحقيق استدعى الأمر القبض على
واحد من الإخوان من بلدة كرداسة من أعمال الجيزة ،
وشاءت الأقدار أن يكون هذا المطلوب اعتقاله متزوجا من
سيدة أراد أحد ضباط المباحث الجنائية العسكرية أن يتزوجها
ولكنها فضلت صاحبنا من أهل كرداسة ، وأضمر الضابط
الحقد فى نفسه ، وسنحت الفرصة عندما أرادوا القبض على
صاحبنا ، وسعى الضابط لدى رؤسائه ليذهب هو فى هذه
المهمة .

وذهب الضابط ومعه من المخبرين اثنان وطرقا باب من
يريدون اعتقاله ، فلم يجدوه ، وهنا أمر الضابط بأن يقبض
على زوجته رهينة حتى يسلم زوجها نفسه ، وثار الأهالى
ورفضوا هذا المنطق ، وتجمع الناس وحدثت فتنه ، كل هذا
والضابط على نفس الدرجة من الإصرار فى أخذ تلك
السيدة ، ولم يكتف بهذا بل أطلق عيارا ناريا أصاب أحد
الفلاحين ، وثار الناس وفتكوا بالضابط وهرب المخبران
(١)

(١) هذه الحادثة شبيهة بحادثة دنشواى التى حدثت عام (١٩٠٦) أيام
الاستعمار الإنجليزى ولكن الإنجليز كانوا أكثر رحمة من سيادة الفريق أول محمد
فوزى أحد أبطال النكسة .

وبلغ الأمر إلى المسؤولين وتحركت فرقة من الجيش المصرى بقيادة الفريق أول محمد فوزى وحاصرت الدبابات كرداسة وأحالتوا نهارها الى ليل ، ستة عشر ألف جندي من الجيش يحاصرون القرية ، وأبيحت القرية للجند ثلاثة أيام ، هتكت فيها الأعراض وقتلت الماشية وبعض الناس ، وفى المدرسة الإعدادية جلد كل أفراد القرية تحت إشراف الفريق أول محمد فوزى وكان عمدة القرية آخر من جلد ، ثم جرى بالمشتبه فيهم وكانوا خمسمائة بزوجاتهم وأطفالهم .

هذه القصة سمعتها من أهالى كرداسة الذين قابلتهم فى السجن الحربى وأبى زعبل وطره .

قال لى أحد الضباط مرة وهو يحقق معى ، وكان قد كف عن ضربى لمدة ساعة من الزمن :

— هأنت ترى أن التحقيق أمريكانى ، بينما كل المكاتب تعمل بالطريقة الروسية !

كانوا يدعون أن التحقيق أمريكانى عندما يكفون عن ضربنا فترة يسيرة من الزمن وقد وصفوا طريقتهم بأنها روسية ، والحقيقة أن طريقتهم فريدة فى نوعها وتعتبر لا شرقية ولا غربية فى فظاعتها وعنفها وقسوتها .

جرى معى التحقيق مثل ماجرى مع سائر الناس على النحو الذى وصفت آنفا ، ولافائدة من تكراره ، واعترفت بما لم أفعل مثل غيرى ، ولكن صدقونى فى أن الكثير قد خفى عليهم وماكان لهم أن يعرفوه لامننى ولا من غيرى ، وعدنا إلى الزنازين أنا ومن كان يحقق معهم مثلى . ومكثنا ننتظر العرض على النيابة ، وقد أخبرنا أهل العلم أن النيابة تحمى المتهم من بطش رجال المباحث والشرطة ، وكنا نظن أنهم

سوف ينقلوننا إلى مكان النياية العامة . وهناك سوف نخبرهم
بالهول الذى تعرضنا له فى التحقيق . وكنا نظن أنهم سوف
ينصفوننا من كل أنواع البطش الذى تعرضنا له .

وكان يسكن فى الزنزانة التى بجوارى رجل من الشرقية
كنا نطلق عليه عم (أحمد بتاع الكلاب) وذلك لأن الكلاب
قد شبت من لحمه الطيب الطرى .

وفى يوم من الأيام رأيت عم أحمد وقد اصطبغ لونا
أرجوانيا جديدا من الدم وهمست له متسائلا فى غفلة عن
الحرس :

- ماذا جرى يا عم أحمد ؟ ظننت أنك قد انتهيت من
التحقيق منذ مدة .

- نعم ولكنى عرضت على النياية بالأمس .
- لأفهم .

- لقد أنكرنا كل الأقوال التى قلناها تحت الضغط
والتعذيب ، وكان الأمل أن يحمينا وكيل النياية مما نزل بنا .
- وماذا حدث ؟

- لقد أرسل وكيل النياية إلى المباحث العسكرية فجاءوه
بفرقة من الجلادين ، واستمر جلد أهل الشرقية يوما كاملا .
- وكيل النياية يفعل هذا ؟!

- نعم ، وهل هذا غريب ؟

- ولكن أين مقر وكيل النياية هذا ؟

- أحقا لاتعرفه ؟

- كلا لأعرفه .

- عندما ترجع من المكاتب ألا ترى خياما بيضاء بين
المطبخ والمستشفى ؟

- نعم .

- فى كل خيمة وكيل نياية .

- من قال هذا ؟
- أنا الذى أقوله لك وسوف تذهب بنفسك إلى هناك .
- لأصدق !!! النيابة فى السجن الحربى ؟
- مالك تستنكرها هكذا ؟ كأنك لاتعيش فى مصر ،
- لايوجد قانون فى مصر .
- لايوجد شيء ، لايوجد عدا الظلم والطغيان .
- وماذا تنصح يا عم أحمد ؟
- فى أى شيء ؟
- عندما أذهب إلى النيابة .
- وافق على كل الاعترافات المزورة ، وإلا...
- وإلا ماذا ؟
- ضحك عم أحمد بتاع الكلاب وهو يقول :
- ماتعرف وأعرف ياأخا الكفاح .
- وكانت هذه هى المفاجأة التى هبطت على مرة واحدة .
- وكان ينبغى أن تكون مفاجأة .

اتخذت معنا بعض الإجراءات ، فمثلا كانوا يأخذوننا على دفعات لكي يأخذوا لنا صورا مختلفة ومعقدة ، يملئوا صحيفة سوابق خاصة بالبيانات المختلفة وكذلك الأقارب من الدرجة الأولى إلى الدرجة العاشرة ، وكان الذى ينتظر دوره يرى الآخرين يغادرون بوابة السجن الكبير فى أول النهار ثم يعودون فى آخره ، وكل واحد حريص أن يعرف شيئا محددا تمثل فى التساؤلات التى تلقىها على بعضنا البعض عندما نلتقى فى دورة المياه .

- أهنأك ضرب فى التصوير ؟
- وتكون الإجابة بنعم فى العادة .
- ثم صاروا ينتخبون بعض الأفراد ممن لاتظهر على

أجسادهم آثار البطش من التحقيق فيمثلون أمام التلفزيون .
ولكن من يتوقع ذهابه إلى حيث يقدم برنامج التلفزيون ليعترف
أمام الملايين بأنه مجرم ومخرب ويستحق الموت يهتم بشيء
واحد :

- أهنأك ضرب فى التلفزيون ؟
وتكون الإجابة بنعم فى العادة .
وعاد القوم يتساءلون ويستفسرون :
- أهنأك ضرب فى النيابة ؟
وأجاب بعض الظرفاء فى تبرم من كثرة الأسئلة عن
الضرب :

- هنأك ضرب فى كل شىء ، الضرب هو القاعدة ، ألا
تضربون وأنتم تساقون إلى دورات المياه ؟ ألا تضربون وأنتم
تستحمون ؟ ألا تضربون وأنتم تأكلون ؟ ، وأراد أن يقول
وأنتم تشربون فقال وأنتم لاتشربون ، فقد كنا فى عطش طوال
الوقت .

المهم فتحت الزنزانة فى يوم من الأيام ، وتوقعنا الشر
كالعادة ، فالزنزانة لاتفتح إلا لشر ، وطالعنا طلعة جندى
جديد ، غريب عن السجن ، وانتفضنا قياما كما تعودنا ،
وتقدم الجندى وسأل عنى ، وأخذنى من يدى ومازلت سائرا
معه حتى غادرنا السجن ومثلت أمامنا المستشفى وكانوا
يطلقون عليه (الشفخانة) ولاحت الخيام حيث يقبع داخلها
وكلاء النيابة ، وهم لا يقلون ضراوة عن زملائهم ضباط
المباحث بنوعيتها .

وتوقف الجندى أمام إحدى الخيام ، وفهمت أنه دور
النيابة ، وصرت أتلو فى سرى ماأحفظ من آيات القرآن .
وأزاح الجندى ستارا يغطى باب الخيمة وألقى التحية
وأعلم الجالس فيها بقدمى .

رجل يجلس على مكتب صغير وبجواره شاب آخر ،
وهناك كرسي خشبي في مواجهة المكتب (مكتب وكيل
النيابة) - كما عرفت بعد ذلك - الذي أشار لى بأن أجلس
فجلست على الأرض ، هكذا كانت التعليمات ، ولكنه أشار
إلى الكرسي فقممت وجلست عليه فى صمت .

ونظرت إلى المكتب فرأيت عليه الاعترافات التى كتبتها
قسرا وقهرا وعرفتتها فهذا خطي وأنا أعرفه كما أعرف نفسى
وعلى الاعترافات التى كانت هناك علبة سجائر (بلمونت)
وكنت أدخن قبل اعتقالى ، أما الآن فأنا لأحصل على الطعام
فكيف أحصل على السجائر لقد نسيتهما كما نسيت أى شىء
آخر ، ولكنى تذكرتها الآن .

- تحب تدخن سيجارة ؟

هكذا قال لى .

- أنا ؟

- نعم أنت .

- لا بأس إن سمحت .

وناولنى الرجل سيجارة وأشعلها فضحكت .

- مم تضحك ؟

- مم أرى .

- وماذا ترى ؟

- أرى التحقيق قد صار أمريكانيا .

- ماذا تقصد ؟

فحكيت له القصة ، فارتفعت حواجه من الدهشة ثم

قال :

- أتقصد أن هناك تعذبا ؟

وفى هذه اللحظة وصل إلى سمعنا أصوات صراخ

وصياح ، فانفجرت ضاحكا فى سخرية بالغة ، وابتسم الرجل
وقال لى :

- تحب تشرب شاى ؟
- مالمسألة ؟ سيجارة ، ثم شاى ، ماذا جرى ؟
- ماقلت ، صار التحقيق أمريكانيا .
- ثم أمر الجندى أن يأتى لى بكوب من الشاى ، وأدى
التحية وانصرف ، ثم قال لى :
- إنت عارف أنا مين ؟
- لم يحدث لى الشرف من قبل .
- أنا محمد حسين لبيب وكيل نيابة أمن الدولة العليا .

وفى هذه اللحظة ارتفعت فرقة السياط وأصوات الصراخ
وكأنها تجرى خارج الخيمة ، كان أحد وكلاء النيابة
الأفاضل يشرف على جلد أحد المتهمين ، فوقفت من الدهشة
والخوف معا ، ولكنه نظر إلى باسم وأشار لى بالجلوس :

- لماذا وقفت ؟ اتفضل . اجلس .
- وجلس ، والتفت هو إلى زميله وقال :
- نفتح المحضر ، باسم الشعب ، إنه فى يوم ... وصار
يملى على سكرتيه الديباجة التى تكتب فى هذه الأحوال ،
ثم سألتى عن الاسم والسن والصنعة والعنوان . وأمسك
اعترافتى وقربها من عينى ثم قال :

- تذكر هذه الأوراق ؟
- نعم .
- خذها وقلها جيدا ، أهذا توقيعك ؟
- نعم .
- أتذكر ماكتبته بها ؟
- أذكر بعضه ، ولأذكر البعض الآخر .
- تقصد أنك الذى كتبت هذا الاعتراف ؟

- نعم ، ولكن .
- وقاطعنى وقد ظهر الشر فى عينيه :
- ماذا تقصد بلكن ؟
- أقصد ، أريد أن أقول ، لقد كتبت هذا الاعتراف تحت ضغط ماتسمع وتعرف .
- وكان صوت الشياطين يقرقع ، ونظر إلى سائرا ومنذرا :
- إذن فأنت لاتخافها ؟
- ياسيادة وكيل النيابة دعنا نتحدث بصراحة .
- هذا ماأريده منك .
- لايوجد فى هذا الكون من لا يخشى الضرب بالشياطين ، حتى أنت .
- حتى أنا ؟!!
- نعم فلو لم تكن تخشى هذه الشياطين لما رضيت أن تقف منى هذا الموقف .
- ماذا تعنى ؟
- أنت أداة فى يد المباحث العسكرية ، أنت تغطى إجرامهم بثوب قانونى مهلهل .
- وكان الجندي قد دخل بالشاى وقدمه لى وأدى التحية وخرج ، وانبريت أقول له :
- لعلك لن تسمح لى بشرب الشاى بعد ماسمعت منى ؟
- أبدا على الإطلاق تستطيع أن تشربه .
- وكأنما الرجل أحس بوخز يسير فى ضميره ، وشجعنى صمته فصرت أقول له :
- ماضرورة ماتفعلون ، وكلاء نيابة يحققون وأجور إضافية وورق وحبر ، لم يكن داع لكل هذا ، كان يكفى أن يكتب كل ضابط مباحث عسكرية أو عامة العقوبة التى

يقترحها على اعترافات كل معتقل وترسل إلى رئيس الجمهورية أو لا ترسل، لا أهمية لهذه الشكليات ، وفروا المال للدولة ولا تعطونا أملا كاذبا بلا معنى له .

- أترك تهزأ بنا ؟
- أبدا والله لا أهزأ ، ماضورة هذا المال الضائع والجهد الذى يجب أن يوفر لشيء آخر ؟
- هذا حتى تعلم اهتمام الدولة بأن يكون الأمر للقانون أولا وأخيرا ، وكان من السهل أن أسمع ، قل لى :
- نعم .
- ماعددكم ؟

- لأعرف .
- ستة آلاف ، سبعة آلاف ، عشرة آلاف . ماذا يحدث لو قتلتم جميعا عن آخركم ؟
- سوف يذكر التاريخ ذلك .
- فقال هازئا :

- وما أهمية التاريخ ؟
- ولن يغفر الله لكم أبدا .
- يجب أن تعرف أنه رغم استطاعتنا إبادتكم فنحن لانقبل ذلك ، عندنا قانون ، ونيابة ، ومحاكمة عادلة .
- وصرت أضحك وأشهد أن الرجل كان حليما معى .
- ماالذى يضحكك ؟
- ذكرتني بالمحاكمات العادلة ، وبالمنااسبة متى سنمثل أمام المحاكم العادلة ؟ قل لى ، أهنالك ضرب فى المحاكم ؟
- ألا ترى حلمى معك ؟
- أرى ياسيدى ، وهل أنكرت شيئا من ذلك ، ولكن إلى متى يدوم هذا الحلم ؟

- سوف نرى .

واستمر التحقيق قرابة العشرين ساعة ، والحقيقة أن الرجل لم يمد يده على أثناءه ولكنه تجاهل اعتراضى على قيمة الاعتراف ولما أردت أن أثبت بعض الإصابات التى فى جسدى بمحضر التحقيق قال لى :

- صدقنى ، لأهمية لشيء من هذا بالمره .

ثم همس فى أذنى على مرأى ومسمع من سكرتير التحقيق :

- سوف يجر عليك هذا الكثير من المتاعب ، ولن يفيدك أدنى فائدة ، ولحظتها أحسست أن وكيل النيابة مثلى تماما ولا فرق بين مركزه القانونى ومركزى من حيث أنه مواطن مصرى ، من المسئول عن هذا الفساد ؟ من الذى يدير عجلة الإجرام فى مصر ؟ آلة ضخمة تصنع الفساد والإجرام والطغيان ولها مفتاح واحد ، وهذا المفتاح تحت سيطرة واحد الكل يعرفه وييجله ولا يستطيع أن يمسه بكلمة سوء .

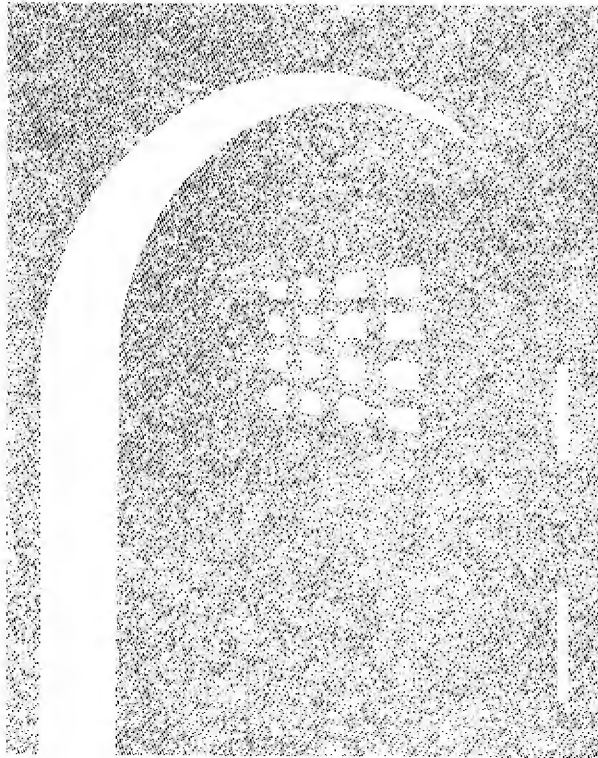
كان وكيل النيابة يؤدى عملا يتنافى مع ضميره كإنسان ومع وظيفته كمحام عن المجتمع ، وماأظنه راضيا عما فعل الآن ، بعد أن مرت السنون وتضاءل الذين كانوا يصنعون الشر ، وأودعوا مكانا مظلما بعيدا عن الحياة والمجتمع .

كان وكيل النيابة يضيفى ثوبا قانونيا مهلهلا على الجريمة التى ارتكبت ضد الشعب فى شخص الإخوان المسلمين بالسجن الحربى ، وقد أدى عمله ببراعة ونجاح .

وعدت آخر النهار إلى الزنزانة ألعن النيابة وألعن القانون
وألعن كل شيء في هذا البلد ، وكان ما يحدث في السجن
الحربي عام (١٩٦٥) هو مقدمة طبيعية لهزيمة يونيو حزيران
(١٩٦٧) الأمر الذي ذكرنا بقول الشاعر :
أسد على وفي الحروب نعامة ...

الفصل الثاني عشر

ما بعد التحقيق



انتهى التحقيق وكان كالقدر علينا أن نؤمن به ونرضى بما
قسمه الله لنا فيه واستقر كل واحد فينا في زنزانه ينتظر ادعاء
النيابة ليمثل بعدها إلى المحكمة ولم نكن نعلم كيف تكون
هذه المحكمة ، أو أين تعقد .

ولكن ذكريات محكمة الشعب التي عقدت عام
(١٩٥٤) برئاسة قائد الجناح جمال سالم كانت تطاردنا
وتؤرق مضجعنا ، وكان عزاؤنا أنهم لن يستطيعوا الحصول
على رجل مثل جمال سالم الذى كان يطلب من المتهمين
أن يقرعوا الفاتحة بالمقلوب ، وكنا نتمرن على مثل تلك
القراءة فى الزنزانة .

ومن أهم الأشياء التي كانت تشغلنا هو محاولة تفهم
وضعنا من ناحية القانون ، هل سنحاكم بتهمة العيب فى ذات
رئيس الجمهورية ؟ أم سنحاكم بتهمة إحداث انقلاب فى
شكل الحكومة بالبلاد ؟ وكنا نفكر فلا نجد أن واحدا فينا
قد تعرض لشخص رئيس الجمهورية ومن يشاركه الحكم فى
مصر .

وبينما نحن على هذا الحال نضرب أحماسا فى أسداس
كعادتنا إذ فتح باب الزنزانة وكان الوقت ليلا ونحن فى نوم
عميق ، وانتفضنا مذعورين كعادتنا عندما يفتح هذا الباب ،
وزاد الأمر عندما علمنا أن الوقت متأجر .

ومن خلال النور الضئيل الذى ملأ الزنزانة لمحنا شبح
جندى يملأ الباب بجسده وسأل عنى ، وهنا شمل الزنزانة
اضطراب رهيب ، فكونى أطلب للتحقيق فى هذا الوقت
المتأخر من الليل معناه عدم العودة فى أغلب الظن ، وصار
كل واحد يخلع ماعليه من ملابس ويلبسنى إياها بسرعة ،
الوقت شتاء والبرد شديد فى الخارج ، وأنا أعترض وأحاول
أن أرد لكل واحد ما أعطاني ، فكل واحد محتاج لما عليه

ليواجه برد الشتاء القارس ، أما أنا ، فما نفع الجثة بالدفء
وماضرها بالبرد ؟

ونزلت مع الحارس إلى ساحة السجن الكبير ، الكلاب
تعوى ، والحرس يضحكون ، وطبعا لم أعدم نصيبا من الإهانة
والضرب والتحقير ، كان التحقيق قد انتهى ، والكل فى
انتظار الادعاء الذى تعده نيابة أمن الدولة ، ترى هل فتح باب
التحقيق من جديد ؟ أم ماذا جرى ؟

أخذونى إلى مكاتب التحقيق وأفرغنى ماسمعت ، كانت
السياط تفرقع ، والصرخات تملأ المكان ، والكلاب تنهش
الأجساد ، لقد استبانت الحقيقة المخيفة التى تأكدت لى مع
مرور الأيام ، التحقيق فى السجن الحربى لا ينقطع يوما
واحدا ، كل يوم هناك متآمرون ضد نظام الحكم ، وكل يوم
هناك من يعذبون ويضربون وتنهش أجسادهم ، وكان هناك
شئ آخر ، لقد كانوا يأتون ببعض كبار الضباط ويؤدبونهم
بالضرب ثم يرجعونهم إلى وحداتهم ، وكذلك كانوا يفعلون
ببعض كبار الموظفين ، لقد اتخذ شمس بدران مدير مكتب
المشير عبد الحكيم عامر من السجن الحربى مكانا ليؤدب
فيه الشعب ممثلا فى طوائفه المختلفة .

فى هذا اليوم أجلسونى فى مكان مظلم بجوار حجرة من
حجرات التحقيق وعلى مقربة منى كان يقف شمس بدران
يحدث الرائد محمد عبد الفتاح السيسى الذى كان متهما
بالسرقة والتهرب باسم المشير ، فقد كان يعمل فى مكتبه ،
وكم كان فى مكتبه من اللصوص والجلادين الذين أساءوا إلى
مصر .

- اسمع يا محمد .
- أفندم .
- بكره عندك مجلس عسكرى ، سوف تحاكم .

- حاضر يا أفندم .
- لاتضايق المحكمة كثيرا ، أتفهم ؟
- حاضر يا أفندم .
- سوف يحكم عليك بخمسة وعشرين عاما .
- ولكن .
- لاتخف ، سوف تبقى بالسجن مدة يسيرة ثم أفرج عنك .
- أمرك ، يا أفندم .
- أتحب أن تشعل سيجارة ؟
- ياريت يا أفندم .
- وقدم له سيجارة وأنا منصت لهذا الحوار العجيب في دهشة بالغة ، ماهذا الذى يحدث ؟
- واقترب منى شمس بدران وسأل أحد الضباط ، فقد كان الظلام شديدا فى ذلك الركن الذى أجلس فيه :
- من هذا ؟
- وأجاب الضابط فى احترام شديد وسرعة بالغة :
- هذا فلان يا أفندم .
- وذكر اسمى ، واقترب شمس بدران ، وكادت أرى بسمته الساخرة على جانب فمه رغم تعذر الرؤية .
- كيف حالك ؟
- الحمد لله .
- مبسوط .
- الحمد لله .
- هل لك رغبة فى شىء ؟
- الحمد لله .

والتفت شمس بدران إلى الضابط الواقف وقال له ، أدخله على مكتبى بعد ربع ساعة .

-- حاضر يا أفندم .

وابتعدت الأشباح ، وصبرت أرنو إلى السماء ، وقلبي يهفو
إلى جلال الله سبحانه وتعالى ، فالأمر أكبر من الدعاء
والابتهاال ، الله يرى مايفعل بنا فى هذا المكان الغريب ، مامن
تهمة يمكن أن توجه أكثر من أنى أحاول أن أعبد الله وحده
على الوجه الذى يرتضيه ، نحن نحاول أن نضع مستقبلنا
لبلادنا خيرا من واقعها النكد الذى نعيشه ، ونحاول أيضا أن
نمد لها الدواء الذى أصلح أول هذه الأمة ، أمن الصواب أن
نكفر بالله لترضى الحكومة عنا ؟ فليفعلوا بنا مايسطيعون ،
ولكنى لن أترك عبادة الله ، وأفقت من أفكارى الصاخبة فى
صدرى على يد تمس كفى .

- هيا قم ، لقد أتاك الموت .

وعلمت أن شمس بدران قد أذن لى بالدخول عليه ، ترى
ماذا حدث ؟ هل جاءتهم معلومات جديدة ؟ سوف نرى بعد
قليل ، ودخلت حجرة شمس بدران لاهثا ، وإذا به يطالعنى
بابتسامة مرحبة :

- أهلا ، أهلا ، أهلا تفضل بالجلوس .

وجلست على الأرض .

- كلا . لاتجلس هكذا ، تفضل على الكرسي .

وأشار إلى مقعد خشبى فى مواجهة مكتبه الفاخر القابع
فى تلك الحجرة المتوسطة الواسعة وظننت أن هناك خطأ ما ،
ولكنه أكد لى بيده المشيرة إلى المقعد أنه ليس هناك خطأ ما ،
أأجلس على كرسي فى مواجهة شمس بدران ؟ ماذا حدث
للدنيا ؟ وجلست وقد خلا ذهنى من أى تصور ، وجاءنى
صوته من جديد :

- ماذا تريد أن تشرب ؟

ترى ماالذى يرمى إليه هذا الرجل ؟ أيقدم إلى شئنا أشربه ؟
ولم أستطع الرد عليه .

- أتيت بكوب من الشاي الدافئ ؟
- ياإله السماوات !!! شاي دافئ!!! وتشجعت .
- لا بأس .
- وأمر شمس أحد الضباط أن يأتي بكوب من الشاي على وجه السرعة ، وهرول الضابط ليصدع بالأمر ، وعادتنى نظرة شمس من جديد .
- هل تعرفنى ؟
- وهل هناك من لايعرفك ياسيادة العقيد ؟
- وجلجلت ضحكته وغطت على صوت التعذيب القادم من بعيد .
- اسمع ، أحب أن أتحدث معك حديثا جادا بعيدا عن التحقيق فأنت تعلم أن التحقيق قد انتهى .
- تفضل .
- هل تستطيع الكلام معى بصراحة متناسيا وظيفتى والمكان الذى نجلس فيه الآن ؟
- هذا أمر بالغ الصعوبة ، ولكنى سوف أحاول .
- وهنا قدم الضابط كوب الشاي ، وقال له شمس :
- قدمه للأستاذ فلان .

وقدم الضابط الشاي لى فى تودد وبشاشة وهو يكاد ينسكب على ملابسى من فرط عجبى ودهشتى ، وصرت أرشف منه فى لذة وسعادة فقد كان الوقت شتاء وماكنا نحصل على شىء ساخن مثل هذا ، وانبرى شمس :

- قل لى ماالسبب فى لجوئكم إلى العمل السرى ؟
- من تقصد ؟
- أقصد الإخوان المسلمين .
- ولكنى لست عضوا فى جماعة الإخوان .
- والتحقيقات ؟
- ألم تقل لى نتكلم بصراحة ؟

- نعم .
- هذه هي الصراحة إذن ، لست عضواً في جماعة الإخوان .
- هذا الحديث ليس له صلة بالتحقيق ، ونحن نريد أن نعالج هذه الظاهرة .
- أى ظاهرة ؟
- ظاهرة العمل السرى .
- أنا أقول لك .
- وأنا أستمع .
- أليس من الغرابة بمكان أن أتحدث معك بصراحة ، أو أن تطلب منى ذلك فى مثل هذا المكان ؟ ألا تسمع أصوات الصرخات ؟ أليس هذا بأمرك ؟
- ليسوا من الإخوان ، إنهم من الجيش .
- أنا أتكلم من ناحية المبدأ .

- لقد كنت مضطراً إلى كل هذا ، تصور نفسك مسئولاً عن الأمن والنظام فى بلد مثل مصر ، ثم جاءت الأخبار بأن الإخوان قد أعدوا خطة لقلب نظام الحكم ، حتى أعرف الحقيقة ماذا أفعل ؟ لا بد لى من الضغط حتى يعترف الجميع ونفهم أبعاد المؤامرة .

- هذا يجرنا إلى الحديث عن التنظيم السرى .
- وهذا ماأريدك أن تحدثنى عنه .
- أتدرى لماذا يلجأ بعض الناس إلى أسلوب العمل السرى ؟
- فى انتظار إجابتك .
- أنتم تكلمون الأفواه وتفرضون على الناس نظاماً واحداً أنتم سدنتمه وأصحابه ، وقد تخططون ، والنفوس قد جهلت على الحرية ومن الصعب قهرها إلى أمد بعيد .

- وضع كلامك .
- لو كنت تريد اختفاء لظاهرة التنظيم السرى فعليك أن تقنع الناس بأن يقولوا فى العلانية ما يريدون عمله فى الخفاء .
- ماذا تقصد ؟
- ألا تتصور أن هناك من لا يرضى حكمكم ولا يقبل سيادتكم ؟
- هذه هى طبيعة الأشياء ، الناس لا يتفقون على شىء واحد .
- إن كانت هذه هى طبيعة الأشياء فلماذا تقفون ضدها ؟ وهل تنجحون ؟
- أريد أن أفهم ماتعنيه بالضبط .
- أعنى أنكم لو سمحتم للناس أن تقول ماتريد وحميتهم حريتهم فى ذلك فلن يكون هناك داع للتنظيم السرى .
- نسمح بقيام الأحزاب ؟
- هذه هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على التنظيم السرى .
- أتظن أن من اعتادوا على التنظيم السرى يرضون بالإعلان عن أغراضهم للناس ؟
- ولماذا لا يرضون إن كان القانون سوف يحميهم ، والشىء الصالح هو الذى يبقى ويسود .
- لقد ذهبت بعيدا ، تريدنا أن نعيد الأحزاب ؟
- وجلجلت ضحكته الساخرة فى فضاء الحجرة التى شهدت موت عدد غير قليل من الناس .
- هذا هو رأى .
- والتمعت عيناه وهو يقول :
- كيف نرضى عاطفة الناس الدينية ثم نحافظ فى الوقت نفسه على شكل النظام ؟
- لو كنتم شعبة للنشاط الدينى تابعة للاتحاد الاشتراكى لكنت هناك فرص لتحقيق هذا الإشباع للجماهير .

- ولكن ألا تنفصل هذه الشعبة عن الاتحاد الاشتراكي ؟
- هذا هو بعض الحل ، أما انفصال الشعبة فقد يكون نواة لحزب جديد .
- هل ينسى الإخوان ؟
- ولم يكمل عبارته بل تشاغل في بعض الأوراق ، ثم عاد يرنو إلى من جديد وهو يقول :
- إذن فلا فائدة ؟ لن نسمح بعودة الأحزاب ولن ننشئ مثل هذه الشعبة التي تقول عنها .
- ولن تقدروا على منع الأحزاب والمنظمات السرية من الظهور ، سوف تظهر التنظيمات ، تنظيم يتبعه آخر ولن يفلح وسائل القمع والإرهاب ، صدقني ، لن يفلح شيء .
- مع من ؟
- مع الناس .
- وعدت هذه الليلة إلى الزنزانة أقص على إخواني ما جرى وأنا دهش مما سمعت ، وكانوا أكثر دهشة مني .

مرت بنا فترة عصيبة أثناء التحقيق في الأيام التي تلتها فقد كنا لانخرج من الزنزانة إلا لحظات في الصباح لنذهب إلى دورة المياه ثم نبقى بقية اليوم ، وكان أقصى ما يتمناه الواحد فينا أن ينزل إلى فناء السجن في الصباح ويسترخي في أشعة الشمس الدافئة بعيدا عن برد الزنزانة الذي ينفذ إلى العظام .

وفي يوم من الأيام شاهدنا حركة غير عادية في فناء السجن ، دخل حرس كثير وصاروا يفتحون أبواب الزنازين ويخرجون الناس منها ويصفونهم صفوفًا ، وكان عجيبا شديدا ، وسرعان ما جاء إلى زنزانتنا واحد من الحرس وفتح علينا وأمرنا بالنزول ، ونزلنا ونحن في فرحة بالغة ، فلأول مرة يجتمع المعتقلون في صعيد واحد ، وصرنا نتبادل

التحيات بوجوه باشة سعيدة ، دون أن ينطق أحدا بكلمة واحدة .

وصار كل واحد يحاول أن يلقي زملاءه في القضية ليعرف منهم ماذا قالوا عنه ويخبرهم بالذى قال عنهم ، وصار كل يوصى صاحبه بتغيير الكلام فى المحكمة عندما تنعقد ، وعرفنا كثيرا من أخبار البلد ، فقد أقال عبد الناصر على صبرى وعين بدلا منه زكريا محيى الدين ، رئيسا للحكومة ، وسمعنا شائعات عن اعتقال الجماعة الإسلامية فى باكستان ، وسمعنا عن مجموعة الانقلابات العسكرية التى فجرتها المخابرات الأمريكية فى آسيا وأفريقيا .

وكان يوما رائعا تمتعنا فيه بحرارة الشمس الدافئة واستطعنا أن ندخل دورات المياه مددا كاملة ، وشرينا حاجتنا من الماء ، وأعلنوا لنا فى آخر اليوم عندما اقتربت الشمس من المغيب أننا سنخرج كل يوم فى النهار ولانعود إلى الزنزانة إلا فى آخره ، وكانت فرصة ليست بعدها فرصة ، فقد كان هذا غاية ما نتمناه ، وما كنا ندرى ما يراد بنا ، دخلنا الزنزانة وكل واحد فينا يحكى لأصحابه عن الذكريات ذكريات اليوم البهيج .

وأذكر أننا قضينا وقتا طويلا من الليل فى سمر وضحك فى انتظار مطلع الشمس لنخرج من الزنزانة إلى الفناء الفسيح ، حيث الأصدقاء والشمس ودورة المياه . وفى الصباح ، وقبل أن تطلع الشمس بكثير فتحوا علينا باب الزنازين وأنزلونا إلى دورات المياه ، فقد كان علينا أن نقضى هذه المهمة قبل بدء الطابور ، وانتهينا منها قبل أن تشرق الشمس وعدنا إلى الزنازين ووزع علينا الإفطار الهزيل وبهجتنا أكبر فى نفوسنا من الجوع .

وفي تمام الساعة السادسة والنصف توسط العريف (على أبو زومه) فناء السجن ونفخ في صفارته ومعناها أن نقف متبهين داخل الزنازين - هكذا علمونا - ثم نفخ فيها أخرى أن تغادر الزنازين في لمح البصر، ونقف ووجهنا إلى الحائط في كل أدوار السجن ، ثم ينفخ أخرى فننطلق مسرعين إلى فناء السجن لنقف بالعلامات التي حددوها لنا بالأمس ، كنا نظن أن هذا الأمر سوف يخفف عنا العذاب ، أو أن النزهة وتغير المنظر سوف يجعلنا أكثر احتمالا ، ولكن خاب ظننا كما ستعرفون بعد قليل .

وقفنا في فناء السجن وقد قسم المعتقلون إلى سرايا بكل سرية حوالى مائة أو أكثر ، وكان أول ما علينا أن نفعله أن نعدو فيما يسمونه (بالعدو الصباحي) . وبدأ العدو وخرجنا من ساحة السجن الكبير إلى الفناء الخارجى حيث المستشفى والمطبخ وسائر البنايات الملحقة بالسجن ، ومسار العدو فى مستطيل كبير أمام هذه الأبنية .

وفي هذا اليوم رأيت سيد قطب وهو يتمشى على مقربة من المستشفى رابط الجأش حديد النظرة يسير فى خطوات متثدة ويرقبنا بين حين وآخر ، عندما بدأنا العدو ظننا أنه لن يأخذ سوى دقائق ، ولكننا فوجئنا بأننا لا نستطيع العدو لطول الفترة التى قضيناها فى الزنازين .

وظننا أنه فى وسع أى واحد منا أن يستأذن ويخرج من الصف ، ولكن كان هذا الطابور طريقة جديدة للعذاب .

فعندما سقط البعض هرع إليهم الجرس بالسياط وأوجعوهم بها ليقوموا فقام البعض ولم يستطع البعض الآخر ، ثم انتقلت فرقة الحرس إلى الصفوف تسوق الناس بسياطها ، والويل لمن يتوقف واستمر الحال على هذا المنوال ساعتين من الزمن عدنا

بعدها إلى السجن الكبير وصرفونا إلى الزنازين ، فقد قدر لنا بعد هذا اليوم أن نتناول طعام الإفطار عقب طابور العدو .

وكنا نسقط على أرض الزناينة ولايستطيع واحد منا أن يمد يده إلى الطعام من شدة التعب وكان العرق ينضح على أجسادنا رغم برودة الشتاء وفي الساعة العاشرة يتكرر ما حدث في الصباح ونزل إلى الفناء وكان من المقرر أن تسير هذه السرايا الطويلة طوال النهار في فناء السجن الكبير ، وما كان يحدث هذا في أغلب الأحيان .

كان حمزة البسيوني يدخل السجن الكبير على جواد أبيض وبروح جماعية يحاول الجميع منافقته فنضج بتصفيق حاد ، ويمتلىء ذلك المخلوق غرورا ويأمر الجند بأن تعدو هذه السرايا ، ويستمر العدو ويسقط الناس ، ويحاول الجند تملق ضابطهم الكبير على طريقتهم فيوسعونا ضربا بالسياط والبسيوني على حصانه وقد ركب الغرور ونفخ الشيطان في روجه .

وكانت هناك سرايا خصصت للمرضى وكبار السن وكانت معفاة من العدو والرياضة العنيفة التي كان على غيرهم أن يؤدوها ، وكان يطلق عليها سرية (العواجيز) ، وكانوا يرسلون إليها من يصاب أثناء الطوابير ، ويختارون الذين منوا بإصابات جسيمة .

ويشاء حظ هذه السرية العاثر أن يوكل بها رجل أبله كان شهيرا في تلك الأيام اسمه (رشاد مفراج) وكنت قد التحقت بهذه السرية عقب إصابتي في قدمي إصابة بالغة تمنعني حتى من السير ، ولكن ليتني ماأصبت وليتني لم ألتحق بها .

كان (مفراج) يجعل هذه السرية تعدو وقتا أطول من بقية السرايا التي بها أصحاباء وكان يضرب من يرفض العدو ضربا مبرحا قاتلا وكان يصرخ فينا - ياعواجيز يا أبناء العاهرات - سوف أقتلكم جميعا ، وكاد يفعل والله .

وكنا نعود إلى الزنزانة في المساء وقد أضنانا التعب وهدتنا آلام مبرحة ، ويصير اليوم التالي كابوسا لا نحب أن يأتي ، ويدخل الواحد منا ولا يكلم أحدا من زملائه من هول ما به ، وإن ضبط واحد يتحدث مع آخر فيمسكون بهما ويجعلونهما أمثولة ، ورغم هذا كنا نتكلم ومامننا الضرب من فعل أى شىء .

كانت الإبرة محرمة وكذلك الخيط ، فكنا نحتال لنخيط ملابسنا الممزقة ، فنسحب خيطا من نسيج الثوب وشوكة من أشواك السمك الذى كانوا يأتوننا به أحيانا ونخيط ما نريد .

ويمر العريف فى طابور الصباح فيكتشف ثوبا مخيطا فيخرج صاحبه ويسأله كيف فعل ذلك فيحكى له القصة فلا يصدق فينهال عليه ضربا موجعا قاتلا ، كانت الطواير وبالا ونقمة علينا ولولا أننا استطعنا فيها أن نسترد طعامنا الذى يسرقه الجند لما قدر لنا أن نظل أحياء على النظام الذى أجروه معنا فى صور التعذيب الجديدة من خلال الطواير . كانوا يسرقون الجبن فنسترده منهم كذلك اللحم والخبز والحلاوة الطحينية والعسل الأسود ويتخصص أفراد معينون فى أصناف الطعام المختلفة فهذا اختصاصى فى استرداد الجبن ، وذلك الخبز ، وآخر اللحم وهكذا ، ويحاول كل واحد أن يوزع أكبر قدر من المواد التى استردها على إخوانه ويختص المرضى والشيوخ بأكبر نصيب ، وكانت روح الجماعة ظاهرة فى نفوس الإخوان فى السجن الحربي .

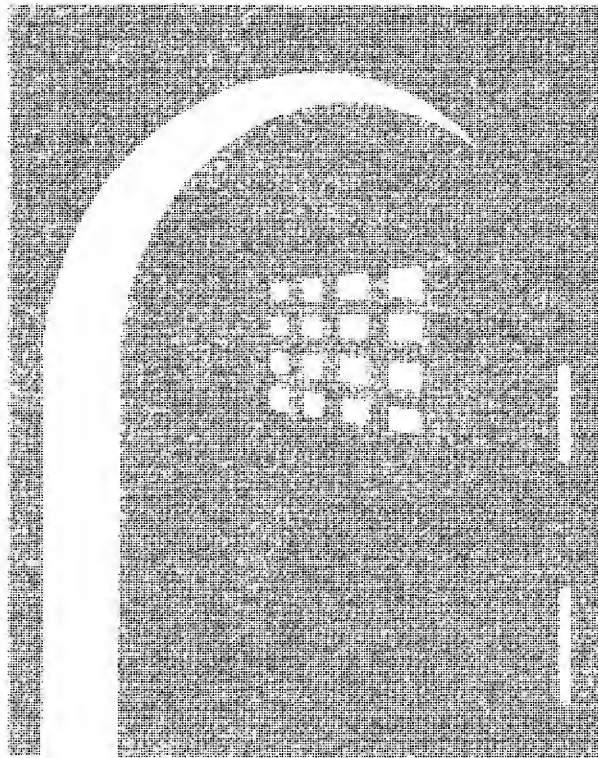
كل واحد يحب من معه ويحرص عليهم ويفديهم بنفسه
إذا اقتضى الأمر ، مر أحد الجند على السرايا فسمع هممة
فيها فأمر من تكلم بالخروج فلم يخرج أحد ، وكان الذي
تكلم شيخا كبيرا طرد قريبا من سرية العواجيز وخاف أن
يخرج فيبطش به الجندى وهو رجل ضعيف فسكت ولم يخبر
عن نفسه .

وهدد الجندى بأنه سوف يمثل بالسرية إذا لم ندله على
الذى تكلم وكان معظم من بالسرية يعرف ذلك الذى تكلم
ولم يش به أحد ، واستمر الجندى يمثل بنا فى هذا اليوم ،
من الظهر حتى غربت الشمس ، ولم ينطق أحد باسم الذى
يبحث عنه الجندى .

فى أثناء الطوابير التقينا بكل من كانت له صلة بالتنظيم
وعرفنا الكثير من الأشياء التى خفيت علينا ، التقينا بعبد الفتاح
إسماعيل عليه رحمة الله وأحمد عبد المجيد عبد السميع
وغيرهم وغيرهم .

الفصل الثالث عشر

القانون والقضاء في إجازة



من الأشياء الطريفة التي تتعلق بقضية الإخوان أن قرار الحاكم العسكري الذي صدر عام (١٩٥٤) بحل جماعة الإخوان المسلمين لم ينص على عقوبة معينة لمن يخالف هذا القرار ، وعلى هذا لا يعد مخالفا للقانون من عمل على إحياء جماعة الإخوان بعد عام (١٩٥٤) فلا جريمة إلا بنص كما يقول جملة الفقهاء والمشرعين ، ولم يكن هذا بالأمر المعجز ، فكل الإجراءات بربرية منذ لحظة اختطاف المواطن من بيته حتى تقديمه لمحاكمة هازلة مرورا بسلخه قبل ذبحه ، إن جاز التعبير .

وقد شكلت المحكمة (محكمة أمن الدولة العليا) برئاسة الفريق محمد فؤاد الدجوى ، وهو رجل سكير كما قال من عرفوه ، جاهل مغرور وقح كما بدا فى جلسته على منصة القضاء الزائفة ، والقاضى كما عرفه الناس رجل عادل متجرد هادى النفس يزن الوقائع بصدق ويحرص كل الحرص على عدم الخطأ فى العقوبة ، وهو ملاذ الناس عند الشدة وهو الحائل بينهم وبين العنت والقهر ، أما هذا فكان قميا يحاول تقليد سلفه جمال سالم والمهداوى فى العراق ، ولما كانت تنقصه القدرة والاستطاعة فقد بدا مقززا يثير الغثيان ، حتى النكات السمجة التى كان يطلقها أثناء نظر القضية لم تكن تلقى اهتماما ومجاملة من الحاضرين وجملتهم من جماعة (المصفيين) .

ولست أدري لماذا تحضرنى ذكرى اغتيال عمر بن الخطاب العظيم فى الزمن القديم ، فرغم ثبوت التدخل من بعض الأشخاص والتواطؤ مع أبى لؤلؤة فيروز المجوسى قاتل أعظم الناس بعد وفاة صاحبيه إلا أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله معهم ، فقد كان يمكن للخليفة الجديد أن يصدر قراره باعتقال المجوس الموجودين بالمدينة وقد أسلم بعضهم نفاقا

إلا أن هذا لم يكن فى ميزان الدين والشرع وفى ضمير الحضارة والقانون .

وفى الزمن الحديث كانت هناك قصة اغتيال جون كندى أكبر رؤساء الجمهوريات فى العالم فما كان هناك غير اعتقال أزوالد الذى أطلق الرصاص على الرئيس ، وقالوا ليس هناك نص يخص رئيس الجمهورية ، فهو رجل عادى من الناس بالنسبة لهذه النقطة من القانون .

بدأ الدجوى إجراءات المحاكمة بتأنيب المتهمين على مااقترفوه فى حق سيده من آثام ، الأمر الذى أثار دهشة المحامين ، فكأنه بهذا قد وافق النيابة المتهرئة على دعواها .
حيال هؤلاء الناس ، وكان كل مايدور لاقيمة له ، فالقاضى يؤنب المتهمين ، والمفروض أنهم أبرياء حتى تثبت التهمة من إجراءات المحاكمة ، أو لاتثبت .

وقد يكون من التكرار أن نعيد ماجاء فى المحاكمات فقد حفلت بها أوراق الصحف فى ذلك الحين ولكن هناك أموراً لم يقدر لها النشر فلعله يكون مفيداً أن نعرض لبعضها فهى خواطر وظلال ، حول المحاكمات التى جرت والقوانين التى سادت ، قضية خطاب من أشهر القضايا التى قدمت آنذاك ، فقد اتفق خطاب - وهو من إخوان الإسكندرية - على اغتيال عبد الناصر ، انتقاماً لما حدث سنة (١٩٥٤) وأعد العدة لاغتيال عبد الناصر هو وبعض زملائه ، وبعد مناقشات عديدة استقر الأمر بينهم على استبعاد فكرة الاغتيال هذه ، والانصراف إلى العمل الجاد ، من أجل خير الوطن ورفعة شأنه فى تكريس الأخلاق والقيم الإسلامية فى صفوف الشعب ، كل مع من يعرفهم من زملائه فى العمل وجيرانه فى السكن وأقاربه وكل من يمت له بمعرفة ما ، دونما احتياج إلى تنظيم .

وعلى هذا الأساس فقد خرجت زوجة خطاب ومعها شقيقتها فى ليلة من ليالى الشتاء عام (١٩٥٦) ومعها المعدات الخاصة بنسف قطار عبد الناصر ، وألقت هذه المعدات فى البحر الأبيض المتوسط ، وأسدلوا على القصة ستائر النسيان . ففى منطق القانون العادى يسمى هذا عدولا اختياريا عن الجريمة ، فقد اتفقت مجموعة من الناس على قتل واحد بعينه ، وتم هذا الاتفاق ، ثم عدلوا عن هذا ، وانتهوا إلى إلغاء هذا الاتفاق ولكن خطاب وزملاءه قدموا إلى المحاكمة بتهمة الشروع فى قتل عبد الناصر ، وحكم عليه وعلى مجموعته بالأشغال الشاقة المؤبدة ، رغم أنهم عدلوا عدولا اختياريا كما قلت ، وكانت شقيقة زوجة خطاب فتاة لم تتزوج بعد فى ذلك اليوم الذى صحبت فيه أختها لإلقاء المعدات فى المتوسط . ومرت الأيام بعد ذلك ، وعندما أتى أوان القضية عام (١٩٦٥) جاءوا بها ، وجاءوا بزوجه المذهول ، الذى فهم القصة بالتفاصيل فى عنابر التحقيق المخيفة ، ثم فهم الأمور كلها على مدى السنين التى قضاها فى المعتقل دون محاكمة ، بطبيعة الحال .

أما قضية محاولة اغتيال عبد الناصر فى حد ذاتها فمن سير التحقيق بصحيحه وكذبه لم يثبت أن هناك من ذهب ليقته ، فغاية مايفهم أن هناك شخصا فكر فى قتل زيد من الناس ، فصدر الحكم ضده بالإعدام ونفذ ، فهو قانون غريب وقضاء أغرب ، يحكم على الناس حكما قاسيا مدمرا بخلجات نفوسهم وبما يدور فى عقولهم من أفكار ، وقد عبر عن هذا حسين توفيق أثناء محاكمته بقوله لرئيس المحكمة :

- لو كنا فكرنا فى انقلاب ضد السماء لما فعلوا بنا ما فعلتموه ، وقد ذهب ضحية التحقيق الوحشى الذى أجرته أجهزة الأمن تمهيدا للمحاكمة أكثر من خمسين رجلا من

خيرة الناس أعرف منهم شخصيا : المرحوم زكريا
المشتولى ، المرحوم بدر القصبى ، المرحوم أحمد شعلان ،
المرحوم محمد عواد ، المرحوم إسماعيل الفيومى ، من
هؤلاء من قدر لى أن أشهد استشهادهم كما حدث مع
المشتولى والقصبى وشعلان أو أحضر جانبا من هذا
الاستشهاد كما حدث مع عواد والفيومى عليهم رحمة الله
جميعا . أما ضحايا المحكمة الذين استشهدوا على مرأى
ومسمع من الناس فقد كانوا ثلاثة فقط ، سيد قطب ، العالم
الشهيد ، والشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، والأستاذ محمد
يوسف هواش .

كانت المحاكمات أشبه ماتكون بتمثيلية صاخبة هزيلة فى
نصها ، سخيفة فى إخراجها يشاهدها جمهور فقد كرامته
وعزته ، سلبها منه نظام خائق مقتدر على الإفساد داخل
الأرض ، ضعيف أمام العدو (أسد على وفى الحروب نعمة)
كما يقول الشاعر ، وقد مثل الشبان الشجعان المؤمنون وفى
قلوبهم صلابة ورباطة جأش ، وكانوا يعرفون ماخاله بهم
ومايراد منهم . وقد ضربوا أمثلة صادقة وفيه ، ورضوا بالقضاء
وصبروا عليه وواجهوا المهزلة .

تكلم سيد قطب أمام الدجوى الممثل الهزلى الضعيف
الأداء ، وقد أرادوا له القيام بدور القاضى العادل الحكيم وهذا
يستدعى قدرا من الحكمة يساعده على أداء الدور ، ولكنه
كان خلوا من هذا القدر الضئيل ، تكلم أمامه سيد قطب ،
رغم مرضه وسنه إلا أنه قال للدجوى مايعتقد - أمام صحافة
أقل مايقال عنها إنها صحافة حقيرة مرتزقة - تكلم عن
التعذيب الوحشى الذى تعرض له المتهمون ، فكان رد الفعل
فى القاعة نظرات التشفى وقهقهات السخرية من القاضى
والجلادين والتهافتين ، وكان يعرف مصيره .

وفى مرة من المرات أخذونى مع بعض من الزملاء لنحضر
الطعام من المطبخ . وفى الطريق سنحت فرصة للتحدث مع
سيد قطب قلت له فيما قلت :

- ماذا تنتظر ؟

فقال الرجل لى بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ
مطمئن .

- أنتظر الوفود على ربى .

هذا كل ماكان ينتظره ، أما مقالته فى المحكمة فكان يريد
به ذكر شىء للتاريخ الذى مسخه الأقوام ، والذى يأبى إلا أن
يشرب بعنقه مهما تباعدت الأزمان .

* * *

كان للدجوى رئيس المحكمة تاريخ لايشرفه ، وليس فى
تاريخه مايشرفه ، كان حاكما لقطاع غزة المحتل أيام
الاحتلال اليهودى لها عام (١٩٥٦) وكان غرض اليهود آنذاك
هو تهجير المصريين والفلسطينيين من القطاع ليسهل لهم
تهويده ، وساعدهم الفريق الهمام فى ذلك ، وصار يحث
المصريين والفلسطينيين على مغادرة القطاع ، ثم صار يخطب
فى الإذاعة الإسرائيلية ويبين عورات الحكم فى مصر . وقد
وصف نفسه بأوصاف قبيحة يندى لها الجبين ، وقد وقف
أمامه وتصدى له محمد المأمون الهضيبي قاضى محكمة غزة
فى ذلك الوقت واستطاع مع بعض المخلصين أن يفسد خطته
وأن يحول بين اليهود وبين تحقيق مايريدون .

وتمضى الأيام ويمثل القاضى الحقيقى متهما أمام قاض
مزيف وقح العبارة أسمى التفكير ، وأثناء الحوار الهازل الذى
أرغم عليه المتهمون ، ضرب القاضى المزيف بيده على
المنصة وهو يواجه القاضى الحقيقى الشجاع متهما فى قفص
الانتهاك :

- هكذا يقول القانون .

وفى هدوء رد عليه المأمون الهضيبي المستشار :

- من قال لك هذا الكلام ؟

- أنا قاضى وعارف كويس مايقوله القانون .

وابتسم المأمون ابتسامة مريرة ساخرة وهو يقول :

- ياسيادة القاضى . ليس فى كلامك هذا شىء من

القانون .

وأخفى المخامون ابتساماتهم فى أكمامهم وهم يرون النقط

تحت الحروف .

كانوا يهتمون بمظهر الذين يحاكمون ، فيأتون لهم

بالملايس النظيفة من بيوتهم ، فيأمرونهم فيلمعون أحذيتهم .

وكنا نتفرج على منظرهم خلال الزنازين ونعجب من أناقتهم

ومن نظافة ملابسهم ، وكنا نغبطهم أيضا على نزهتهم فى

الرواح والغدو مرورا بشوارع القاهرة التى لاتدرى شيئا عما

يدور .

ومن طريف مايرى أن أحد المتهمين وهو منصور عبد

الظاهر ، وقف أمام القاضى المزيف وخلع ملابسه وأراهم -

هيئة المحكمة الموقرة - مانزل به فى ساحة العذاب ،

وبطبيعة الحال لم يلتفت القاضى المزيف لما يقوله منصور

ومضت الإجراءات إلى نهايتها وعادوا إلى السجن الحربى

حيث يقيم الجميع ، وعلى بوابة السجن أمروا بخلع ملابسهم

وحملوها على أيديهم ، وفرقت السياط وعوت الكلاب

وساقتهم إلى السجن الكبير ، على النحو الذى شرحت فى

مبدأ الكلام ، وانتبهنا فى الزنازين على تلك الضجة العظمى

فنظرنا ورأينا ، وبالهول مارأينا ، كان يمثل بهم أشنع تمثيل ،

أما ذلك الذى تجرأ فى المحكمة فقد ناله من العذاب الكثير

أعظم نصيب ، فقد ازرقعت عيناه وانتفختا من هول اللكمات

وشج رأسه وناله جزاء الصابرين المعاندين .

وفى اليوم التالى ذهبوا إلى المحكمة كالعادة ، ورآهم كل الناس على الحال التى وصفت وشرحت ، وإمعانا فى الاستهزاء والسخرية قال القاضى المزيف :

- فىن منصور عبد الظاهر ؟
ووقف منصور فى القفص بين إخوانه ، ووقف وفى وجهه ماقلت لكم وما يبدو لكل من يراه بوضوح :
- أفندم .

- ماذا بعينك ؟

فتحير منصور . القاضى الجلاد يسأله عما فى عينه !
وحملق منصور فرأى عينيه تلمعان بالسخرية والتحدى ،
والصحافة جالسة والله العظيم ، فقال له بهدوء :

- لا شىء .

وازدادت الروح الشيطانية فى نفس القاضى وكان يمكن أن ينتهى الحوار عند هذا ، إلا أنه أضاف :
- ماذا تعنى بلا شىء ؟ وجهك مصاب ، وعينك منتفخة ، هل ضربوك ؟

وارتعد منصور فقد تذكر ماحل به البارحة فى ساحة السجن الكبير . فأسرع قائلا :

- لا لم يضربنى أحد .
- فكيف تفسر ماوجهك من سجحات وكدمات ؟
- فى الحقيقة لست أدرى ؟
- ألا تعرف ماحل بوجهك ؟
وازدرد منصور ريقه وهو يقول :
- نعم .
- استيقظت من النوم فوجدته هكذا ؟
- نعم .

- أم لعلك سقطت على السلم وأنت تصعد أو تهبط ؟
- ربما ، لأذكر .
كل هذا والحاضرون الجبناء من صحفيين ومحامين
يضحكون ويهمهمون فى سعادة كمجتمع روماني يشاهد
الأسود وهى تلتهم النصارى فى الزمن القديم .

كان رئيس الدائرة الثانية الفريق على جمال الدين
محمود ، وكان رجلا صالحا طيب النفس ولاأدرى كيف
اختاروه لهذه المهمة القذرة ، أما الرجل فقد كان صادقا مع
نفسه ، وآلى على نفسه أن يحق الحق ويفعل مايراد منسجما
مع ضميره وخلقه ، فكان يفسح صدره للمتهمين ويسمع
منهم ويسألهم :

- هل عذبتك ؟ قل الحقيقة لانخف .

لكن بعد حادثة منصور ماكان لأحد أن يقول الحقيقة ،
وكان إذا مارأى علامة فى وجه واحد من الإخوان يسأله عنها
وكيف أصيب بها ، ويصر على أن هذه من التعذيب ، ويصر
المتهم أنه عومل أحسن معاملة ، واستقر رأى الرجل على تبرئة
كل المتهمين ، وكانوا يأتون من المحكمة ويقصون علينا
الأنباء فلا نصدق ونقول لهم أنتم مبالغون .

وقبل الجلسة التى عزم الرجل فيها أن يعلن براءة الناس ،
جاء نعى الفريق على جمال الدين محمود فى الصحف
الثلاث ، وقيل إن صلاح نصر مذير المخابرات قد دس له
السم فى الطعام ، وأعيد تشكيل المحاكمة وجاءوا برجل
اسمه اللواء حسن التميمي أستاذة الدجوى ، وانسجمت
القضية الثانية مع باقى قضايا الإخوان .

كان معي في الرزانة طبيب شاب ، جلس يناقش مع إخواننا ليلة ذهابه إلى المحكمة ما ينبغي عليه أن يقوله في الصباح ، وصاروا يناقشون معه وقائع الأحداث وتفاصيل الأقوال وهذا يقول له قل كذا وكذا ، وذاك يقول : عليك بإنكار هذه النقطة ، وأنا صامت لأتكلم .
واقترب أخونا الطبيب الشاب وقال لي :

- لم تقل لي ماينبغي علي أن أفعل في الغد .
- لاتفعل شيئاً .
- ماذا تعني ؟
- رفعت الأقلام وجففت الصحف . أرح نفسك في الغد واجلس صامتا في القفص ومتع نفسك برؤية هذه المسرحية الهازلة .
- والله هذا هو القول
- وأخلد صاحبنا ليلتها إلى سبات عميق .

دخل الأخ حافظ أيوب إلى قاعة المحكمة واقترب من عباةته على الأرض وصلى ركعتين ولم يأبه بصوت الحاجب وهو يعلن بأعلى صوته منبها الموجودين :

- محكمة .
- وعندما سئل السؤال التقليدي :
- هل لك اعتراض على شكل المحكمة ؟
- أجاب الرجل بصوت جهوري سمعه كل من كان في القاعة .

- إنني أعارض على شكل المحكمة وموضوعها ، فليس لي أن أحاكم بقانون وضعه البشر ، فالحكم لله تعالى ، والفيصل بين الناس هو شرع الله ، وعندما سئل عن رأيه في الحكومة أجاب ببساطة :

- هي حكومة كافرة .

وكذلك كان حال معظم أفراد القضية الثالثة ، أعلن كل واحد اعتراضه على شكل المحكمة وموضوع القانون الذي يحاكم به ، واعترف أنه ضد النظام ، ويقاومه بكل ما يستطيع ، وكانوا يعودون من المحكمة إلى السجن حيث العذاب والضرب والإرهاب البالغ وكانوا على أشجع ما يكون الناس فقد رأوا ما كان من أمر إخوانهم الذين لم يحسنوا القول في ساحة القضاء وتبين لهم كيف فعل بهم وضربت لهم الأمثال .

وقف المحامي الشاب يدافع عن صديقنا الصيدلي الشاب :

يا حضرات القضاة . هذا الوجه الذي ترونه الآن - ويشير إلى صاحبنا الذي يدافع عنه - وجه قد تمرس بالإجرام . صحيح أنه لم يولد كذلك ، ويعارضه القاضي ليبدى شيئاً من النزاهة :

- يا أستاذ دع هذا الكلام للنيابة .

ويمضي المحامي في مرافعته ناعثاً صاحبنا بالإجرام والتآمر ، ولست أدري كيف ظن المحامي أن هذا دفاع ؟ ويصفر وجه الصيدلي الشاب ثم يهدأ ، ويتسم وتوسع ابتسامته حتى تملأ وجهه ثم ينفجر في ضحكة ساخرة مجلجلة مريرة ، بينما يد القاضي غير النزيه تدق بعنف على المنصة ، وعندما انتهت الجلسة همس الصيدلي لوالده من القفص :

- كم أعطيت هذا الرجل ؟

فقال له الأب المكلوم :

- ثلاثمائة من الجنيهاً .

وابتسم الصيدلى وهو يقول لأبيه :

- كان يمكن لو كـيل النـيابة أن يقول هذا دون نقود .

كان الشيخ عبد الحليم سـعفان أعمى العينين بصير القلب ، وكانت تهمته أنه يساعد أسر الإخوان الفقراء بقليل مما تسمح له ظروفه ، وكانت المحكمة فى حالة تسامح شديد ، وقد عبرت عن ذلك بأنها عرضت العفو عن المتهم إذا ما أعلن عن ندمه وخطئه وطلب العفو من المحكمة ، ولكن الرجل قال لهم فى عزة الـوائـق وصدق المؤمن :

كيف تطلب منى أن أعتذر عن عمل قمت به من صميم الدين ، الزكاة من أركان الإسلام ولا يعتذر عنها ، وإذا فعلت فكأننى أخرج من الإسلام ، وحاشا لى أن أفعل ، وصدر الحكم عليه بثلاث سنوات جاء بعدها إلى المعتقل ومكث به ما شاء الله أن يمكث .

كانت المحاكمات صورية بالشكل والمضمون كما بينا ، وكانت غطاء للجرائم التى ترتكب وصورة للعالم الخارجى ليظن العدل بطرائق الحكم فى مصر ، أما الحقيقة فقد كانت الأحكام تصدر عن مكاتب المباحث الجنائية العسكرية تحت

إشراف العقيد شمس بدران واللواء سعد زغلول عبد الكريم ، ولم يتوفر لأحد أمان فى أى شىء ، حتى لم يستطع أن يقابل أهله ويجلس معهم ويتناول شيئاً من طعامهم الذى يحملونه كل يوم ويأخذه الحرس بحجة أنهم سوف يوصلونه لأبنائهم .

ولم يكن هناك قانون اللهم الا نصوص عرجاء عليها مسحة
من صياغة القانون ومن الطريف أن هناك واحدا من المتهمين
قد حكم عليه بثلاث عشرة سنة ، كأنه قد أخذ عقوبته بدقة
وعدل ووضوح ، وكان أجدر بالقاضى ألا يحضر مثل هذا
الهرء ، وعلى النيابة ألا تكتب مثل هذا الإدعاء . وكان خليقا
بالصحفى الصادق أن يحطم قلمه ويرفض الجلوس فى مقاعد
السفهاء .

وكان على عصام الدين حسونه وزير العدل آنذاك أن ينأى
بنفسه عن مثل هذا بدلا مما قاله فى زمن أتى ^(١) بعد ذلك .
فقد كانت كل القرارات تصدر موقعا عليها باسمه ولو وضعنا
النقط فوق الحروف لسمى الرجل وزير الظلم بدلا من صفة
العدل التى أطلقت عليه بغير حق .

انتهت المحاكمات وبقي الجميع فى انتظار الحكم ،
وكان الكل يعيش فى طاحونة الطواير القاتلة تحت حرارة
الشمس المحرقة لصيف أتى غاضبا مزمجا لا يفرق بين الظالم
والمظلوم .

وفى يوم من الأيام دخل المساعد صفوت وأطلق صفارته
فتوقفت الآلة عن الدوران . وتليت قوائم . لقد تكرر نقل
المعتقلين الذين لم يقدموا للمحاكمة إلى معتقل آخر وأخذونا
صفوفا إلى (الشفخانة) لتوقيع الكشف علينا .

(١) تقدمت مجموعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة القديم وبعض الوزراء
منهم عصام الدين حسونه هذا بمذكرة إلى الرئيس السادات بتاريخ ٤ أبريل سنة
١٩٧٢ ، يعرضون فيها بالظلم الذى وقع على الشعب وكبت الحريات وضياغ
القانون أيام عبد الناصر ويقولون له فيها : إن هذه هى أسباب نكسة يونيو (١٩٦٧)
ويطالبون بتحقيق العدل والديمقراطية وأشياء أخرى منها الاشتراك معه فى الحكم
 وإعادة مجلس الثورة من جديد .

وأشاعوا أن من يجدونه مريضاً أو به أذى من التعذيب
فسيبقى بالسجن حتى يشفى ، فكان كل واحد بيدي قوة من
نفسه أمام الطبيب الجبان الذي رأى كل شيء دون أن يتذكر
قسم (أبو قراط) أو تتحرك في نفسه خلجة من الشعور
يعترض فيها على ما يرى من عذاب .

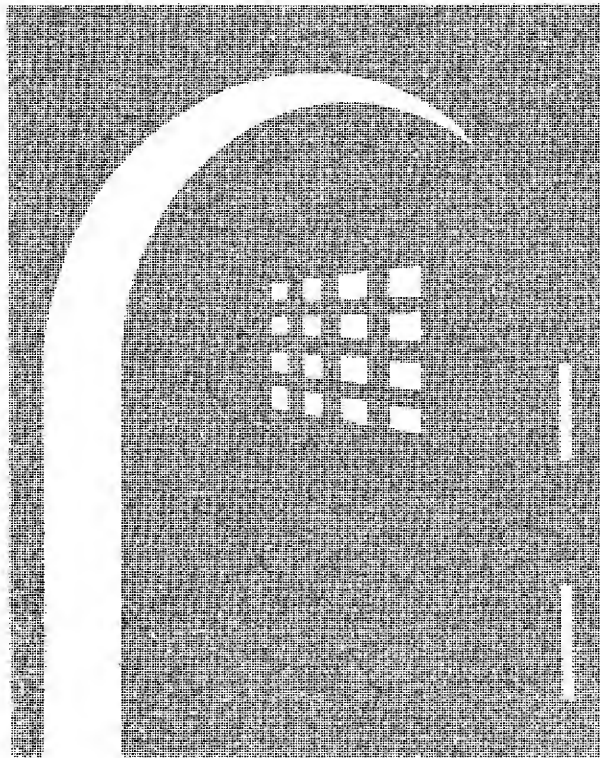
إنى أذكر أيام التحقيق يوم أتوا بذلك الطبيب ليفحص
شاباً فقد رشده من شدة الجلد بالسوط . لقد وضع الطبيب
السماعة على قلبه ثم التفت إلى المحقق وقال له :

- قلبه سليم . يحتمل (علة) أخرى .

خرجنا من السجن الحربى لنواجه الحياة فى معتقلات
المباحث العامة ، القلعة فأبى زعبل ، حيث حدث هناك
ماحدث ، ثم المستقر والمستودع بمعتقل طره السياسى .

الفصل الرابع عشر

قصة تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥



لعل من المناسب قبل أن نترك السجن الحربى إلى معتقل أبى زعبل أن نحكى حقيقة ما حدث من جانب الإخوان ، وهو ما عرفته من أحداث كنت طرفا فيها ، وأحداث أخرى سمعتها من أصحابها خلسة ، أو نمت إلى علمى أثناء التحقيق المميت الذى تم فى القلعة وأبى زعبل والسجن الحربى فى خريف الموت عام ١٩٦٥ ، وإنى أروى حسب ما استقر فى وجدانى وعقلى من أحداث صحيحة .

عرفت المرحوم عبد الفتاح إسماعيل منذ عام ١٩٥٨ حيث كنت أسكن مع إبراهيم يوسف فى رقم ٩ شارع دكرنس مصر الجديدة ، ولأذكر كيف جاءنا ، المهم أننا وجدناه فجأة معنا ، ويجمع معنا كل يوم لبحث أحوال المسلمين وسبل النهوض بهم ، وفى هذا المنزل اجتمع كثير ممن قدر لهم أن يشتركوا فى رسم تاريخ الحركة الإسلامية فى العصر الحديث ، ومنه خرج قادة لها فى العالم أجمع ، مصر والشام والهند والجزائر وغيرها .

وكانت وجهة نظرنا ولا تزال هى تنوير القلوب والعقول بنور الإيمان وفهم الإسلام ، وكنا نرى أن يتم هذا من خلال جمعية أو حزب أو رابطة ، وحتى يأذن القانون بهذا فعلينا أن نتجمع على شكل ما ، لاهو بالسرى ولا هو بالعلنى ، ولا ينبغى أن نتناقض مع القانون والنظام ، وإن كان التفكير نفسه يتناقض معهما . وكانت أفكارنا فى ذلك الوقت هى مزيج من حسن البنا وسيد قطب والمودودى ومالك بن نبي ، فالمسألة فى حقيقتها ذات بعد عقائدى وثقافى وحضارى .

وكانت وجهة نظر المرحوم عبد الفتاح إسماعيل تزيد على ذلك بإنشاء تنظيم حركى سرى ، وكانت فى الرجل طاقة كبيرة وروح عظيمة ويحمل فى جنبه رسالة يرى أن لا مندوحة عن أدائها فهى تؤرقه بالليل وتشغل وقته بالنهار .

ثم اختلفت السبل وصار كل يعمل بطريقته ، ولم تبق إلا روح الأخوة والتراور .

استقر رأى الشيخ عبد الفتاح إسماعيل - رحمه الله - على إنشاء تنظيم حركى سرى من خلال تجميع الإخوان من جديد ، وكانت دوافعه واضحة وعلتها للجميع ، وهى تغلغل الشيوعيين فى المجتمع المصرى ، وأصبحوا هم أصحاب الخطوة لدى السلطان ، وصاروا هم عمدة الصحافة وسائر أجهزة الإعلام ، والمهيمنون والمسيطرون على الجامعات والمعاهد ، ومن أراد الوصول اتبع طريقهم ونهج نهجهم ، وانزوى المسلمون بعيدا ، وصارت كلمة الإسلام لا تذكر فى سائر هذه الوسائل ، وأصبح كل مسلم غيور ويشعر أن الإسلام والمسلمين فى خطر ، وأن السلطان يلعب لعبة خطيرة ، يعتقل البعض منهم ويدين الآخرين ، ويرفع لواء أحمر يلتف حوله فلول التنظيمات التى كان يظن أنها تتلاشى رغم أنها تتكاثر وتزداد فى الظلام وتحت الأرض ، والمهم هو سيادة المفاهيم (الماركسية) ، وغلبتها على المثقفين الجدد ، ومن يريد أن يأخذ مكانه فى المركبة الجديدة التى تجرها خيول السلطة ، وكان الشيوعيون الذين أودعوا سجن المحاريق مع الإخوان فى تلك الفترة هم غطاء الخداع الذى موهوا به على الشعب المصرى .

واستطاع الشيخ عبد الفتاح أن يجمع إليه بعض المجموعات الإخوانية التى كانت منتشرة فى كل أرجاء مصر ، وتعمل بطريقة فردية متفرقة ، واعترض على أسلوبه الكثير ووافقه القليل .

وفى منتصف عام ١٩٥٩م بدأ التنظيم نشاطه بلجنة خماسية تقود العمل ، وكانت اللجنة مكونة من الشيخ عبد الفتاح إسماعيل ، وصبرى عرفة الكومى ، وأحمد عبد المجيد عبد السميع ، ومجدى عبد العزيز ، وعلى عشناوى ، وصار كل واحد من هؤلاء مسؤولا عن قطاع موضوعى أو مكانى ، واستقرت أوضاع التنظيم وكان عدده صغيرا جدا .

أراد الشيخ عبد الفتاح إسماعيل أن يضيف على نشاطه ثوب الشرعية فذهب إلى لقاء الأستاذ محمد فريد عبد الخالق ، وعرض عليه فكرة تجميع الإخوان من جديد .

اعترض الأستاذ محمد فريد عبد الخالق على هذه الفكرة فقد كان أحد من يعلمون جمال عبد الناصر جيدا من أيام ما قبل الثورة ، وذهب إلى (المرحوم) منير دلة وقص عليه القصة وانزعج الرجل خوفا وحرصا على جماعة الإخوان من بطش عبد الناصر ، وكان الاثنان يعرفان طبيعة عبد الناصر منذ زمن بعيد .

وذهب كل من الأستاذ محمد فريد عبد الخالق والمرحوم منير دلة إلى مقابلة المرشد العام ، وعرضا عليه رأيهما وخوفهما من الضرر الذى سيلحق بأفراد الجماعة وبتش الحكومة القوي ، وأنها لن تتسامح فى معاملة أعدائها ، وتجميع الإخوان لن يفيدهم بأى حال . وفى مجتمع تحكمه الشرطة - مثل مصر - لابد أن تتسرب أنباء هذا التنظيم ، ولن يبطشوا بأفراده فقط ، بل سيشمل البطش كل من له صلة بجماعة الإخوان ، حتى الذين فى السجون سوف يلحقهم ضرر بالغ من نشأة هذا التنظيم .

وترافع كل من فريد عبد الخالق ومنير دلة بحرارة أمام المرشد العام المحددة إقامته وهما يقابلانه بصعوبة شديدة خوفا من رقابة الحكومة وطلبها منه فى إلحاح أن يستدعى عبد الفتاح إسماعيل وينهاه عن هذا .

وطمأنهما الأستاذ الهضيبي ووعدهما خيرا فانصرفا شاكرين واثقين من سلطان المرشد العام على كافة أفراد جماعة الإخوان . وفى هذه الأثناء كان الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يرتب لقاء مع المرشد العام عبر الحاجة زينب الغزالى التى دفعت ثمن هذا غاليا من التعذيب فى السجن الحربى فيما بعد .

وتم اللقاء وعرض فيه الشيخ عبد الفتاح وجهة نظره بحرارة بين يدى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبي ، وتكلم وشرح : كيف تسير البلاد خطوات مسرعة نحو الإباحية

والتحلل وفساد الأخلاق وانتشار الرشوة ، ولم يعد أحد يهتم بشأن الدين أو الدنيا والحكومة تشجع على هذا ، وفقد الشباب صلتهم بدينهم ، وصاروا يتخذون المفسدين قدوة لهم ، وانعدم المثل الأعلى ، الأمر الذى يهدد دعوة الإسلام بالضياع من مصر بشكل نهائى ، وهذا أمر يدفع كل مسلم غيور على دينه على تحقيق بعض التماسك وصيغ الشباب بصيغة دينية ، وربطهم بالإسلام على نحو ما ، من خلال برامج الثقافة والتربية الإسلامية ، ولن نتعرض لنقد الحكومة ولن نعاديها ، ولن تكون هى مشكلتنا .

وكان المرشد العام صامتا طول الوقت يستمع فى هدوء إلى كلام الشيخ عبد الفتاح .

ولما رأى المرشد ينصت إليه بإمعان ألقى له بقنبلته الأخيرة :

- يافضيلة المرشد إن الشيوعيين لن يسكتوا حتى يستقيم لهم حكم مصر ، وهم يهادنون عبد الناصر تمهيدا لخلعه ، ويتولى سكرتير الحزب الشيوعى مكانه فى حكم مصر بعد تكوين جبهة من كافة الأحزاب والتجمعات الشيوعية ، وهم يسرعون الخطا فى تحقيق ذلك والطريق أمامهم ممهد ومفتوح .

وسكت قليلا ليرى تأثير كلامه على المرشد العام ، وكان الرجل صامتا جامدا التعبير فقد جلس على كرسى القضاء مايقارب أربعين عاما ، فهو معتاد على سماع المرافعات ووزن الأمور بدقة ، ولما رآه الشيخ عبد الفتاح صامتا استمر فى حديثه :

- فى هذه الحالة ، لو أمسك الشيوعيون بالحكم فسوف يقومون بتصفية دموية ، ولن يكون أمام الإخوان وغيرهم من المسلمين غير الاستسلام لسكين الشيوعيين الحمراء ، وعندها لن نستطيع شيئا ، رأى يافضيلة المرشد أن نتحد ونتجمع ونكون على استعداد لمواجهة كافة الظروف التى يمكن أن تكون ، ولا يجب أن نفاجأ بهذا الخطر ونحن نعرفه ونتوقعه .

ماقولك يا فضيلة المرشد ؟

وسكت الرجل طويلا هذه المرة ، وكان قليل الكلام فإن نطق
فكلماته توزن بميزان الذهب ، وكأنه يقارن بين ما قاله له فريد عبد
الخالق ومنير دله وبين كلام الشيخ عبد الفتاح الثائر المتوهج الممتلئ
حماسة وإيمانا ، وأخيرا رفع الأستاذ الهضيبي رأسه إليه ووجه له عبارة
واحدة انصرف على أثرها بعد أن قبل يده :

- اسمع يا شيخ عبد الفتاح : تصرف على ضوء قرار حل جماعة
الإخوان الذى أصدرته الحكومة فى يوم ما .

اعتبر الشيخ عبد الفتاح هذه العبارة التى نطق بها المرشد العام
إذنا له بالعمل على المضى قدما فى التنظيم الذى يريد ، ولم يرد أن
يناقشه أو أن يسأله التفسير ، أو أن يدخل معه فى تفاصيل ، فهو
لا يريد أن يخرج أولاه ، ويخشى أن يفسر الرجل العبارة على غير
ما فهمها عبد الفتاح اسماعيل .

وكان سعيدا فرحا بهذا الإذن الذى يمكن أن يستخدمه فى تجميع
الإخوان .

وهو يستطيع أن يقول فى ثقة لمن يعترض :

- عندى تفويض من المرشد العام لتجميع الإخوان .

وبالتأكيد لن يلقى معارضة كبيرة فالجماعة تثق بمرشدها ، وتراه
مثلا فى الصمود ، وهو حكيم صابر بعيد النظر لا يرضى لجماعته أن
تتقاذفها الأهواء والحن والأنواء ، كان الشيخ عبد الفتاح عضوا فى
اللجنة الخماسية ، وهو الأمير الفعلى وإن لم ينص على ذلك صراحة ،
وهو الطاقة المحركة التى تجوب البلاد شرقا وغربا فى غير كلل أو
ملل وهو الفقير الغنى ، التاجر الذى يهمل تجارة الدنيا من أجل تجارة
تنجيه من عذاب أليم يرتدى ثوب المبشرين ، ويحمل روح الثوار
ويضع على كتفيه عباءة الأنبياء . وكان لا ييخل بوقته فهو كله

للتنظيم ، ولإيمانه، فماله كله من أجل تحقيق الغاية ، وهو يسافر خارج مصر يبحث عن فلول الإخوان الهاربة يطلب منهم النصرة والمؤازرة . وكانت روحه هي التي تبعث الدماء حارة في شرايين التنظيم ، وكان الرجل على إصرار كامل أن يصل الأمر مداه وغايته ، ويستوى في نظره الموت والحياة ، والشهادة أحب إليه من النصر وكان يردد هذا دائما .

كان غاية ما يمكن أن يقدمه المرشد العام هي تلك العبارة التي قالها له ، والرجل شيخ فإن مريض محاط بالأرصاد والعيون والاتصال به يكاد يكون ضربا من الخيال في دولة قد جعلت التجسس هو شعارها ودينها ، وكان الشيخ عبد الفتاح حريصا على عدم إشراك المرشد في أكثر مما قاله له ، وهناك الحرس القديم من أعضاء مكتب الإرشاد الذين أفرج عنهم وخرجوا من السجون وهم لا يعتمدون هذه الخطة ، ولا يمكنهم مراجعة المرشد في كافة التفاصيل ، وكانت قضية التنظيم تشغل بال الشيخ في ليله ونهاره .

- وفكر في أن يضع اسما لامعا وشخصية كبيرة على رأس التنظيم ، شخصية جديدة لم تجرب السوط أو نهش الكلاب في ساحة السجن الحرى ، شخصية تبعث الدماء حارة مرة أخرى حتى يأذن الله بفرج ، ويتسلم الأمر أصحابه .

وطرحت عليه الحاجة زينب الغزالي : اسم عبد العزيز على . وعبد العزيز على أحد أبطال ثورة ١٩١٩ ، وكان عضوا في الحزب الوطنى القديم واختير وزيرا في أول وزارة في عهد الثورة ، ثم أرسلوه إلى البيت مع من أرسلوهم .

وفي منزل الحاجة زينب : التقى عبد الفتاح إسماعيل الشاب المتدفق قوة وحماسة بعبد العزيز على في سنه الكبيرة وتؤدته البالغة ، وتكلما وتفاهما ، وانتقلت حماسة الشاب إلى الشيخ ، وأعلن موافقته الكاملة

على كافة أفكار عبد الفتاح إسماعيل المدرب الحذر الذى وهب من الله حاسة تنظيم الجماعات وتدريبها وقيادتها .

وطلب عبد العزيز على كشفا بأفراد التنظيم ، واستيقظت حاسة الحذر فى نفس عبد الفتاح إسماعيل وقال :

- هم مجرد مجموعة لاتخطى أصابع اليدين ، نحن فى دور التكوين ، ولكنى أعرض طائفة منهم إن شاء الله .

وجاءه ببعض أفراد اللجنة الخماسية فى بيت زينب الغزالى . وهو أمر جعلها محور كل سؤال فى التحقيقات بعد ذلك .

وتكلموا بعد أن تعارفوا ، وقدمه الشيخ عبد الفتاح على أنه رئيس التنظيم الجديد ، وسوف تناقش طريقة الاتصال به ، وعلينا عرض كل شئ عليه وأن ننفذ أوامره دون إبطاء ، وأمن الجالسون على كلامه .

كانت فكرة عبد الفتاح إسماعيل أن يكون عبد العزيز على فى مقام من يملك ولا يحكم ، يصير رئيسا شرفيا للتنظيم ، واجهة عاقلة ، وربما يوحى للناس أن هذا قد تم برأى المرشد ومشورته .

وفى اجتماع بعد ذلك ألقى عليهم عبد العزيز على محاضرة طويلة عن فساد الحكومة وبين أن سر فسادها يكمن فى رئيسها عبد الناصر ، وأن الرأى هو التخلص منه بالقتل ، وثافت أعضاء اللجنة إلى بعضهم ، وأيد وجهة نظره واحد فى حماسة شديدة هو على عشناوى .

وسأله عبد الفتاح إسماعيل :

- وكيف يتم قتل عبد الناصر ؟

وأجاب عبد العزيز على :

- بالسم !

وتعجب الحاضرون وواصل عبد الفتاح إسماعيل حديثه :

- وكيف يتم قتله بالسم ؟

- لابد من تدبير لهذا .
- وكيف يكون هذا التدبير ؟ وكيف نوصل السم إلى طعامه ؟
- هذا أمر يحتاج إلى تدبير وتفكير .
- وبعد قتله ؟
- قتله هو غاية في حد ذاتها .

وانصرفوا إلى اجتماع آخر في نفس المكان ، منزل الحاجة زينب الغزالي .

وفي هذا الاجتماع أشار عبد العزيز على أن عنده من المعلومات مايدل على أن هناك تنظيما كبيرا وهو يصر على معرفة كافة أفرادها ، وأكد عبد الفتاح اسماعيل أن هذا غير صحيح ، واستسخفوا فكرة قتله والطريقة التي اقترحها ، وكان قد اقترح سبعة من معاوني عبد الناصر . وسأله عبد الفتاح اسماعيل عن هؤلاء السبعة من يكونون ، فقال عبد العزيز على :

سوف نحدد لهم بعناية فائقة .
وكان هذا الاجتماع هو آخر اجتماع بينه وبينهم .

واستقر رأى اللجنة الخماسية على تفويض عبد الفتاح اسماعيل على اختيار رجل له مايؤهله أن يكون على رأس التنظيم .

وصارت هذه الحكاية هي قضية الرجل .
وكان رحمه الله متوقد الذهن عظيم الحماس ، وهذاه تفكيره إلى صاحب (في ضلال القرآن) الشهيد سيد قطب ، ولكنه في السجن يقضى فترة العقوبة ، واستطاع ببراعته الفائقة أن يصل إليه ، وكان هذا وقتها يعد ضربا من المحال .

وكان العلامة سيد قطب قد وهب نفسه لتفسير القرآن والحياة في جوه وصوره وأخيلته وإبجاءاته وقد زادت مرارة السجن حرارة ،

واللهيت روحه أشواق الآخرة فهو رجل مريض زكى القلب ثاقب
النظرة إلى مافى القرآن من معان خفية وإشارات لطيفة ، وليس أمامه
غير ماوضعوه فيه يتعلم ويعلم فى صبر وأناة وثقة من صحة الطريق
الذى يسير فيه ، ليس عنده ما يخفيه فهو بين أنياب الأسد حقيقة
لامجازا . وهو فى قبضة حاكم شرس لا يقبل غيره على الساحة .

وطلب منه الشيخ عبد الفتاح أن يكون أبا روحيا لجماعة من
الإخوان فى خارج السجن تريد ما يصحح مفاهيمها ، ويهديها إلى
الصراط المستقيم ، وأنهم يتوسمون فيه هذه القدرة . ورحب
الرجل بما قاله عبد الفتاح إسماعيل ، وصارت كتاباته تأخذ
طريقها إلى التنظيم تهريبا من السجن قبل أن تذهب إلى المطبعة ،
وأخذت أفكار (الشهيد) سيد قطب طريقها إلى تنظيم الإخوان
الرسمى لأول مرة ، حتى صارت بعد ذلك الطابع الأساسى لفكر
الإخوان المسلمين .

وأفرج عن (الشهيد) سيد قطب هو وزميل الزنزانة الشهيد
محمد يوسف هواش بتدخل من الرئيس عبد السلام عارف لدى
عبد الناصر ، وكانت نواة التنظيم قد تكونت وهى لاتعدو
مجموعات صغيرة تعكف على قراءة كتب سيد قطب ، وأبى الأعلى
المودودى ، ومنهجها بسيطا فى الفقه الإسلامى .

وكانت مهمة عبد الفتاح إسماعيل كبيرة وشاقة ، فهو أمام تيار
يحاول تجنبه وحماية التنظيم منه وهو يتمثل فى حرس الإخوان
القديم فريد عبد الخالق ، ومنير دلة ، وصالح أبو رقيق ، وعبد
القادر حلمى المستشار ، وهم الذين يعملون كل حساب للعواقب ،
ويريدون تجنب المشكلات ، ولهم فى نفس الوقت النفوذ العظيم
على نفوس الإخوان ليس فى مصر وحدها ، بل فى كل مكان ترتفع
فيه عبارة « الله أكبر والله الحمد » . وعليه فى نفس الوقت أن

يجذب أكبر عدد من شباب الإخوان إلى التنظيم ، ذلك دون أن يعرفوا شيئا عن طبيعة القيادة ومدى الاختلاف حول جدواه من عدمه ، وهى مهمة ليست باليسيرة ، وعليه أيضا أن يضم أفرادا جددا إلى التنظيم لم تكن لهم علاقة بجماعة الإخوان من قبل ، وجماعة الإخوان جماعة غربية عجيبة فى تقاليدها غير المعلنة والتي أملت عليها الظروف والحوادث ، فلا ينضم إليها جدد إلا فى الحوادث والملمات ، ثم تبقى بعد ذلك مغلقة على نفسها لاتقبل جديدا فى صفوفها ولا يتم هذا إلا مع تغير الأزمنة وعلاماتها .

ويجب على عبد الفتاح إسماعيل أن يصنع نظام أمن محكم لحماية الأفراد من أعين الشرطة الساهرة على أمن الدولة وشخص الزعيم ، وتحمل الرجل كل هذه المهام صابرا دعوبا . وفى سفرات عبد الفتاح إسماعيل إلى خارج مصر التقى بكثير من الإخوان الهاربين من مصر ، وهؤلاء كانت لهم آراؤهم المختلفة وكانت آفاقهم أوسع وأكثر رحابة ، وأكدوا عليه ضرورة المال والسلاح ليتمكنوا يوما من الدفاع عن أنفسهم ، فالروس قادمون لامحالة ، وسوف يأتى اليوم الذى ينبغى عليهم الحرب والقتال من أجل الحفاظ على استقلال مصر وعروبيتها وإسلامها ، ولكنها خطوة سابقة لأوانها ، وربما يأتى وقتها يوما .

ولم تكن فكرة الانقلاب وتغيير نظام الحكم بالقوة تداعب خيال أحد ، وكانت غاية مايرجونه هو إعداد المسلم الإعداد الصحيح ليتحمل أعباء سوف يتعين عليه حملها يوما .

وبحكم طبيعة المجتمع المصرى فالمراقب يجد أن حيازة السلاح أمر طبيعى وعادى وعلى الأخص فى القرى والكفور والنجوع ، وكان من الطبيعى أن تتواجد بعض قطع السلاح فى حيازة بعض الأفراد ، وعلى وجه التحديد من أولئك الذين يسكنون الأماكن البعيدة عن القاهرة ، والذين يعملون فى بعض المهن

الخاصة مثل التجارة والزراعة ، أما طبقة المثقفين وكبار المتعلمين الحاصلين على الشهادات العلمية العالية ، فلم يثبت أن أحداً قد فكر في هذا ، ولا يمكن اعتبار أفكار بعض المغامرين الحالين في الإعداد العسكرى لعدد أقل من الخمسين معياراً أو أساساً للحكم على السياسة العامة للتنظيم .

وليس دفاعاً عن تنظيم عبد الفتاح إسماعيل ، ولكنه تحليل للوقائع من منظور رؤيا واضحة ، بعد أن شاهدنا وعانينا كل شيء وكل ماضٍ من سلاح في حوزة أعضاء التنظيم أقل مما هو موجود في حيازة إقطاعى صغير لا تتجاوز أرضه الخمسين فدانا من الأرض المزروعة .

وكانت هناك عروض جدية من بعض المغامرين المقيمين في السعودية في توريد سلاح لم تعرف طبيعته أو كميته عن طريق بلدة « دراو » في الصعيد ، وطلب تأجيل هذا لأن الاستفادة منه غير واردة في تلك الأيام على الأقل ، وربما يكون ذا فائدة عندما يحدث غزو سوفيتى أو يتقلد الشيوعيون مقاليد الحكم ففي هذه الحالة فقط يكون للإخوان وسائر أفراد الشعب الحق الشرعى للدفاع عن النفس .

وسارت الأمور في منوال واحد ، أسر إخوانية ، يجتمعون ، يقرعون القرآن والمأثورات ، يحفظون بعض الأحاديث النبوية ، وكتب سيد قطب التى تأتى من المطبعة أو قبل أن تذهب إليها .

أتى عام ١٩٦٥ بعد نكسات عسكرية وسياسية مريعة منيت بها حكومة عبد الناصر وتردد أن هؤلاء الناس لا يصلحون للحكم ، وزادت سخرية الشعب منهم ، وأطلقوا النكات عليهم فى كل مكان ، فحرب اليمن قد ألبت العالم جميعه ضد مصر ، هذا عوض عن الهزيمة العسكرية النكراء هناك ، ولم ينجحوا إلا فى حرق

القرى وحصد الأهالي بالرشاشات من الطائرات ، ولاتقدم يذكر على الجبهة هناك ، وهناك من المصريين من رفض القتال ، وسمعت الشيخ عبد الفتاح إسماعيل يفتي مرة بأن الذى لا يمتنع عند تنفيذ الأوامر الصادرة إليه فى قتل المسلمين ، وينفذها فإنه يموت على الكفر ، ومن يمتنع عن تنفيذها ويحاكم ويعدم فإنه يموت على الإيمان وإعدامه شهادة ، وكان هناك من يمتنع ، وكان هناك من يقدم إلى المحاكمة ، وكان هناك من أعدم .

وخسرت مصر فى هذه الحرب الكثير من الأموال ، ولعلها قد خسرت جميع الاحتياطي الذى صنعه أسرة محمد على ، وكانت تكاليف الحرب فى اليوم الواحد تزيد عن مليون جنيه استرلينى ، وباعوا رصيد الذهب ، وبدأ طبع النقود ربما للمرة الأولى فى تاريخ مصر دون غطاء ذهبى ، هذا عدا الخسائر الكبيرة فى الأرواح وقد حاولوا كتمانها فى أول الأمر ، ثم طفح الكيل وزاد عدد القتلى ، وعرفت مصر كلها بحجم الهزيمة التكرار فى تلك الحرب التى ليس لأحد فيها « ناقة ولا جمل » .

وزاد الطين بلة أن الحكومة كانت تدفع مبالغ مالية كبيرة للضباط كمكافآت ومرتبات للضباط والجنود ، وكانت طائرات التموين تصنع جسرا جويا بين مطار القاهرة ومدن اليمن تحمل الخضروات والفواكه والبقول وحتى الخبز ، وزاد الطلب على السلع بعد ازدياد النقود فى أيدي الناس ، وارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا ، وجاءت أزمة الأرز وهو غذاء يعتمد عليه المصريون اعتمادا أساسيا ، واستغل عبد الناصر الأزمة فى الإطاحة بحكومة زكريا محيى الدين .

وكانت حكومة مصر آنذاك تعتمد اعتمادا كبيرا على سمعتها بين شعب يخشاها ويهابها ويعمل لها ألف حساب ، فهى حكومة تكره مواطنيها ، ومواطنوها يلعنونها فى صباحهم ومساءهم . وكانت النكت تسير بين الإسكندرية وأسوان ربما فى أقل من نهار واحد .

وكان لابد من عمل مايرد الناس إلى صوابهم ، بعد أن صاروا يرددون (التكت) على رئيس الدولة والنظام بشكل عام ، وعن قائد الجيش الذى يجتمع بقواده لاليتدارسوا الخطط العسكرية ولكن ليدخنوا الحشيش فى جو من (السلطنة) والانسجام ، وربما يأتون بأحد النجامين والعرافين ليقرأ لهم الطالع ويخبرهم عن الحرب الدائرة فى جبال اليمن وأى القوات يحركون .

وتأديب الشعب يأتى من خلال تأديب الإخوان .

ووزعت المنشورات فى البلاد ، كتبها وطبعها الشيوعيون ومهروها بتوقيع الإخوان المسلمين ، وظهرت فى الأفق نذر الشر والخطر .

هل تم اتفاق بين الحكومة وبين الشيوعيين على هذا ، أم أن الشيوعيين أرادوا أن ينهوا إلى الثارات القديمة ، وكأنهم يقولون هؤلاء هم كبش الفداء الذى أعدته الطبيعة الرحيمة لكم .

فى تلك الأثناء كان الإخوان المسلمون يأخذون مأخذ شتى فى النشاط ، وخرج جماعة من الإخوان القدامى ، لم يعجبهم موقف الحرس القديم ، ولم يوافقوا أيضا على خطة الحرس الجديد ، وقالوا نخرج فى سبيل الله مثلما تفعل جماعة التبليغ فى الهند .

وظهر زعيم جديد هو الحاج فريد العراقى زعيم جماعة التبليغ المصرية ، والإخوانى السابق ، وسار على طريقة حسن البنا من خلال جماعة التبليغ ، فهو يجوب البلاد شرقا وغربا ومعه التلاميذ وكانت أكثرية من انضموا إليه من أفراد الجماعة الذين يريدون النجاة بأنفسهم من تلك المذلحة .

واكتظت جماعة التبليغ بأفراد الإخوان القدامى ، وذهب الحرس القديم إلى الحاج فريد عراقى يشنونه عن هذا النشاط فقال لهم :

- أنا لا أفعل شيئاً على الإطلاق في الخفاء ، ولا أستطيع النكوص ، فأنا رجل صاحب تاريخ قديم ولا أستطيع التنصل منه .

وردد الناس في كل مكان أن جماعة الإخوان قد عادت إلى الظهور من جديد ، وبذل تنظيم الشيخ عبد الفتاح جهده لجذب شباب التبليغ إلى صفوفه . وكان العكس يحدث ، وصار شد وجذب بين الفريقين ، مع تصاعد الشائعات .

وكان هناك رجل اسمه زغلول عبد الرحمن يعمل ملحقاً عسكرياً بسفارة مصر في لبنان ، وعندما عرضت سوريا شكواها على مجلس الجامعة العربية في شترة عام (١٩٦٢) ، عن جرائم الحكم المصري التي وقعت في حق الشعب السوري أيام الوحدة ، تقدم زغلول عبد الرحمن إلى المؤتمر ، وقدم للمؤتمر كل الوثائق التي تؤيد كلام السوريين ، وتدين النظام المصري في جرائم تجسس وتخريب واغتيال ضد جميع دول المنطقة ، ومن المناسب أن نذكر أن زغلول عبد الرحمن هذا من رجال الصف الأول للثورة ، ولأطيل فقصه الرجل معروفة ، فقد طلب حق اللجوء السياسي إلى سوريا (وتلطم) في بلاد الدنيا ، ثم جاءوا به في صندوق كما سمعنا ، وكان ذلك في عام (١٩٦٥) ، وقدم إلى المحاكمة ، بعد تحقيق تخلله تعذيب نعرفه ، وتكلم عن نشاط الإخوان المسلمين في أوروبا ، وأنها جماعة كبيرة ينبغي أن يعمل لها ألف حساب .

ولفتت المخابرات المصرية قضية تخابر لمصطفى أمين ، واعتمدت في هذا التلفيق على أحاديث دارت بين الملحق الدبلوماسي الأمريكي ، والكاتب الكبير ، وسجلت هذه الأحاديث ، ومما دار في هذه الأحاديث سؤال من الدبلوماسي الأمريكي حول وضع جماعة الإخوان المسلمين في مصر ، الأمر الذي يبرر أهمية هذه الجماعة واهتمام الساسة بأخبارها ونشاطها .

وسمعنا أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قال مامعناه إن: الإخوان المسلمين يتطلعون للتعاون مع كمال الدين حسين الذى كان من رجالهم يوما ، وهو أحد أعضاء حكومة الثورة ، والذى أخرجه عبد الناصر من الحكم ، لاعتراضه على اشتراك مصر بقواتها فى قتل الشعب اليمنى ، على نحو ما قيل فى تلك الأيام .

وسمعنا أن المخابرات السوفيتية التى تقدم النصح دائما للحكومة المصرية والأجهزة التابعة لها قد تقدمت بنصيحة ، تقترح فيها النظر بعين الاعتبار إلى نشاط الإخوان المتزايد فى سائر أنحاء البلاد .

كان قد زارنى أحد الأصدقاء فى شهر ابريل أو مايو من عام ١٩٦٥ وله قريب يعمل فى المخابرات المصرية ، وقال لى :

- إن الحكومة قد قررت أن تؤدب الشعب .

وقلت له :

- أكثر من هذا الأدب ؟

فقال :

- لقد كثر اللغط وضاعت هيئة الحكومة ، فهى تريد أن تؤدبه أدبا لا ينسأه ، وسيتم هذا فى شخص جماعة الإخوان المسلمين ، وسوف يتم هذا فى خلال شهرين أو ثلاثة .

وهناك قصة طريفة مسرحها قرية (سنفا) مركز ميت غمر دقهلية .

كان يعيش فيها شاب طيب متوسط الحال يعمل مدرسا فى إحدى المدارس الابتدائية هناك اسمه (سالم شاهين) ، ولهذا الشاب شقيق يعمل صولا بالقوات المسلحة ، وخدم فى الحملة التى جردتها الحكومة لتأديب شعب اليمن الشقيق ، ومن هناك كان يأتى بالهدايا والطرائف والعجائب ، فيتحف أخاه سالما بها ، وكان سالم يفرح كثيرا بهذه الهدايا ، ويرىها لأصدقائه وكل من يلقاه ممن

يعرفهم ، ويراهم أشياء عجيبة جدا مهما كانت ، لأنه لم يغادر القرية على الإطلاق بعد أن تخرج من مدرسة المعلمين ونال كفاءة التعليم من المركز ، وعاد إلى القرية ليخلد فيها حتى يأتيه الموت .

وكان مما جاء به شقيقه من العجائب واللطائف « قبيلتان » للصوت ، أوصى شقيقه أن يحتفظ بهما حتى يأتي يوم زفاف فيطلقهما ، ومن ثم يدخل البهجة على النفوس من أهله وأصحابه . واحتفظ سالم بالقبيلتين في زاوية من زوايا المنزل ، وعاد أخوه عبد اللطيف إلى اليمن ليأتي منها بالمزيد .

وكان سالم شغوفا بالتدخين ، ولايساعده راتبه الصغير في تحقيق هذه المتعة بشكل يرضيه ، فكان يستدين حتى يحققها ، وهكذا ظل عليه دين مكسور دائما ، فهو يؤجله كل شهر .

وكان يشتري الدخان من محل بقالة صاحبه رجل طيب مسلم اسمه : (يوسف القرش) وتراكت الديون على سالم ، وصار يحاول سداده في أقساط حتى تبقى عليه سبعة وتسعون قرشا ونصف (حسب ماجاء في المحاضر الرسمية) .

وصار سالم يماطل يوسف ، وكل يوم يقول له في الغد أعطيك ، ويأتي الغد ولايعطيه شيئا ، وامتنع يوسف عن بيع الدخان له بالأجل ، وسالم لا يستطيع الاستغناء عن التدخين ، وراودته فكرة رأى أنها ربما تخلصه من الدين ، وربما يحصل من خلالها على مزيد من الدخان .

واسرع سالم شاهين إلى محل يوسف القرش ودار بينهما الحديث التالي :

— اسمع يا يوسف ، هل تريد أن أبيعك شيئا بدلا من الدين الذي عليّ ؟

— وماهو ؟

— قبيلتان .

وتوتر يوسف القرش وانتبه :

- ماذا تقول : قبلتين ؟ !

- نعم . قد أتى بهما أخى عبد اللطيف من اليمن ، ويقول إنهما تحدثان صوتا عظيما ولا تقتلان أحدا ولا تجرحانه ، هه ، ماذا قلت ؟ .

- أراهما أولا .

- أعطنى إذن سيجارة حتى أعود .

- لو أعجبتنى القنابل أعطيتك السجائر .

وأسرع سالم شاهين إلى منزله وجاء بالقنبلتين ، وفى طريق العودة إلى محل يوسف القرش صار يشرح لكل من يقابله مزايا القنبلتين ، وماذا تصنعان عندما يفجرهما ، وأنه ذاهب ليوسف القرش ليعطيها له بدلا من الدين ويعلق ساخرا لمن يتفرج على القنابل :

- أهبل وعييط ، ماذا سيفعل بهما ؟

وقبل أن يصل إلى محل يوسف القرش كانت القرية كلها قد علمت بالقصة . وكان نجل العمدة فى القرية على خلاف مع يوسف القرش ، ورغم هذا فهو لا يقدر على مقاطعته لأنه البقال الوحيد فى القرية ، وأرسل خادمه ليشتري له أربع ورقات « معسل » وتأخر الخادم ولما عاد عنفه سيده ، فاعتذر له بأن سبب التأخير أنه وقف يتفرج على القنابل عند الدكان ، وحكى له كيف ساهم يوسف فى ثمنها وأخذها بدلا من السبعة والتسعين قرشا ونصف وزاد عليها سيجارة واحدة .

ووجد نجل العمدة الفرصة قد سنحت للانتقام من يوسف القرش فأسرع إلى كاتب عمومى متخصص ليكتب بلاغا باسم رئيس المدينة نكايه فى يوسف .

ومن عجيب الصدف أن هذا البلاغ وصل إلى رئيس المدينة فى اللحظة التى كان يزوره فيها واحد من أساطين المباحث الجنائية

العسكرية وكانا صديقين فكل رؤساء المدن فى تلك الأيام ، ولعل هذا حتى الآن ، من حرس الثورة إما اشتركوا فيها ، أو يقومون على أمنها .

وقرأ رئيس المدينة البلاغ وضحك عاليا ، وقال له صديقه من المباحث الجنائية العسكرية :

— ماذا يضحكك ؟

ورد عليه رئيس المدينة وهو مايزال يضحك :

— واحد كاتب بلاغ يقول فيه : إن فيه بقال بقرية سنفا بيتاجر فى قنابل ، تصور ، زى ماتكون قوطة .

وضحك الاثنان ، بينما أخذ القصة ضابط المباحث الجنائية العسكرية مأخذاً جاداً .

وفى هذه الليلة السوداء كان يوسف القرش معلقا والسياط تنوشه من كل جانب يسألونه عن الإخوان والسلاح والتمويل والتنظيم ، وجاءوا بسالم شاهين ، ومن اليمن طيروا عبد اللطيف شاهين ، ودارت رحا العذاب هائلة قاسية مروعة وكان ذلك فى قصر عابدين ، حيث مبنى المباحث الجنائية العسكرية .

وأشرف يوسف القرش على الموت من الضرب بالسياط . وقد قدر لى أن أراه بعد ذلك بشهور فكأنه قد ضرب منذ ساعة فقط ، كانت جروح رطبة طازجة مازالت على حالها الأول .

فى الحقيقة بدأت مأساة الإخوان بضرب يوسف القرش فى قصر عابدين حيث كان يقيم الخديو إسماعيل رحمه الله وطيب ثراه هو وآباؤه وأبناؤه الكرام البررة ، إذا قارنا بطغيان وطغيان من جاءوا بعدهم .

وعندما يجتاز المَضرُوب حاجز الألم فهو يقول مايفهم ومالا يفهم ، كانوا يسألونه عن الإخوان وصلته بهم ، ومن يعرفه منهم ، والرجل لايعرف كيف يجيب ولايدرك الطريقة التى يخرج بها سالما من هذا الجحيم ، وأثناء الضرب ذكر اسما كان الخيط لكل شىء .

حبيب عثمان صاحب ورشة ميكانيكية بالقاهرة .

وماكان يوسف القرش يعلم شيئا عن حبيب عثمان ووضعه فى التنظيم الجديد ، وماكان يعرف أن هناك تنظيما جديدا ، ولكنها الأقدار تجرى على الناس بما تشاء .

كان حبيب عثمان عضوا فى أسرة يرأسها مصطفى الخضيرى الذى يتبع مباشرة لعلى عشناوى عضو اللجنة الخماسية ، ومسئوليته الموضوعية والمكانية كانت السلاح والقاهرة ، وكان قد تم تقليده المنصب منذ أيام بناء على اقتراحه .

فى صيف عام ١٩٦٥ كان الشهيد سيد قطب يجتاز خطواته الأولى نحو الحرية ، بعد أن أفرجوا عنه بوساطة عبد السلام عارف رئيس العراق ، فهو حديث عهد بكل شىء فى مصر ، بدءاً من الحكومة وانتهاء إلى التنظيم الذى أعده عبد الفتاح إسماعيل الشهيد ، وكان قد بدأ يعرفه على التنظيم وأعضائه ، والرجل محاط بالعيون والجواسيس واللقاء معه صعب جدا ، فهو يحتاج إلى تدبير دقيق .

وابتداء من يوم ٢١ / ٧ / ١٩٦٥ بدأت الاعتقالات الفردية تنفيذا للخطة التى تقضى بتأديب الشعب فى شخص الإخوان ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تفعل فيها الحكومة ذلك ، فقد قبضت على عينات من الإخوان عدة مرات للتأديب والزجر فى مناسبات الهزائم والتكسات مثل ماحدث عقب انفصال سوريا .

ولم يكن تنظيم الشهيد عبد الفتاح إسماعيل معداً لشيء من القتال والحرب ، ولم يفكروا تفكيراً جدياً في الإعداد لذلك ، كل ما كان يشغلهم هو التربية والتعليم وتصحيح العقيدة في رءوس المندرجين فيه .

وتزايدت أرقام المعتقلين ، وشعرت اللجنة الخماسية بالذعر ، كان أمرهم قد كشف .

وأسرع على عشناوى وهو شخصية عجيبة غريبة عليها مائة علامة استفهام إلى مقابلة سيد قطب وكان فى رأس البر ، وحكى له فى دعر كيف أن الحكومة تقبض على الإخوان المسلمين وقد قبضوا على بعض أفراد التنظيم فما العمل ؟

- سوف يأتى دور كل واحد من أعضاء التنظيم ويجب أن تعطينا الإذن فى المقاومة والتصدى فأنت تعرف ماذا ينتظرنا فى المعتقل .

وقال له الشهيد سيد قطب :

- وهل لديكم القوة اللازمة لهذا ؟

وفى تأكيد وفخر وتيه قال على عشناوى :

- عندنا قوات وأسلحة تصمد أمام الجيش .

ولعل الرجل قد امتلأ دهشة مما سمع ، فهو حديث عهد ولا يعرف التفاصيل .

وانبرى على عشناوى فى حماسة :

- لا يجب أن نستسلم كالدجاج لهؤلاء الكفرة المفسدين فى الوقت الذى نستطيع فيه التغلب عليهم ، ولعلها فرصة ساقها الله إلينا للانتقام لمصر والمسلمين ولكل الشهداء ، استطيع تأمين عملية اغتيال جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وعلى صبرى ، وزكريا محيى الدين ، وستهدأ الأمور بعد قتل هؤلاء الكلاب هذه

هى الطريقة الوحيدة للخلاص من وحشيتهم ، فأنت لاتدرى ماذا يفعلون بالمعتقلين الآن .

ولعل الشهيد سيد قطب قد تذكر فى هذه اللحظة التعذيب الوحشى الذى وقع على الإخوان عام ١٩٥٤ ، وكيف حدث له شخصيا عندما مثل أمام محكمة جمال سالم وقميصه قد التصق بجسده من كثرة الدماء التى نزفت منه وهو المريض ، وكانت تهمته أنه رفض أن يكون وزيرا فى وزارة عبد الناصر ، وأذن الرجل مستسلما لعلى عشاوى بالتصرف لحقن دماء كثيرة .

كانت هذه المقابلة فى ١٩ / ٨ / ١٩٦٥ .

وكان التعذيب قد أتى على أسماء الهيكل الرئيسى للتنظيم على وجه التقريب .

وخرج على عشاوى من عند الشهيد سيد قطب ، وصار يمر على عجلة من أمره بمجموعة من شباب التنظيم كلهم من المهندسين والأطباء ، وكانت هذه هى النسبة الغالبة ، وكان فى يده مسدس صغير ليس به طلاقات ، وكل من مر عليه وأراه هذا المسدس النادر فى نوعه اعتبر كأنه قد درب على السلاح ، وكان التدريب كما سمعت ممن دربوا لا يعدو أن يمسكوا بالمسدس بأيديهم ويقلبوه أمام أعينهم .

واعتبرت النيابة كل من فعل هذا أنه قد تدرب على سلاح تمهيدا لقلب نظام الحكم ، وأيدت ذلك المحكمة ومنحت كل حالة من هذه عددا من السنين يتراوح بين الخمس عشرة والخمس والعشرين مع الشغل الشاق ، وكان ذلك بعد انتهاء العذاب .

ومن طرائف مايروى أن على عشاوى قد زار ثلاثة من أفراد التنظيم وذهب واحد لصنع الشاى ، ولم يصبر المسدس ، وقد شهد بهذا على عشاوى وكان كلامه مصدقا لايشك فيه ، وحكم على

الاثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ومن ذهب ليصنع الشاي كان نصيبه سبع سنوات فقط لأنه لم ير المسدس ولم يقلبه بين يديه !

فى ذلك الوقت سألوا الشهيد سيد قطب عمن يحب أن يخلفه فى رئاسة التنظيم إذا ما أصابه مكروه فاقترح عليهم الشهيد محمد يوسف هواش ، وذهب الشهيد رفعت بكر شافع^(١) مع خالته المجاهدة حميدة قطب إلى لقاء هواش أمام كازينو الحمام فى الجيزة ، وطلبوا منه أن يأتى للقاء سيد قطب ، واعتذر الرجل لأنه مراقب من رجال المباحث ، ودفع يوسف هواش حياته على جبل المشنقة ، وقيل إن طبيب السجن قد ذبحه بعد الشنق لأنه ظل حيا وكان يمكن أن يعيش ، فعلوا به هذا ثمنا لاختياره خليفة للشهيد سيد قطب فى رئاسة تنظيم لا يعرف عنه شيئا ، ولم يلتق بأحد من أفرادہ إلا فى التحقيق أثناء التعذيب !

لم يأت يوم ٢٣ / ٨ / ١٩٦٥ حتى تم القبض على معظم أعضاء التنظيم على وجه الحصر باستثناء يحيى حسين الذى تمكن من الهرب فى اليوم نفسه ، واعتقلوا زوجته بدلا منه ، وقد تمت هذه الاعتقالات نتيجة لاعترافات على ع شماوى صاحب الذاكرة القوية الخارقة والخيال البديع ، وهو يعلم كل شىء ، واعترف والويل لمن ذكر اسمه على لسان صاحبنا هذا ، فهو فى هذه الحالة لا يفيدہ إنكار ، وعليه أن يعترف اعترافات تتطابق مع مقاله على ع شماوى .

وإن أمسكت بأوراق الادعاء التى تقدمت بها النيابة ضد المتهمين ورفعت منها ما ذكره على ع شماوى عن المتهم ، أى واحد منهم ، فلن تجد اعتراف المتهم نفسه يرقى إلى مستوى الجريمة ، حتى بمقاييس المباحث العامة والمباحث الجنائية العسكرية .

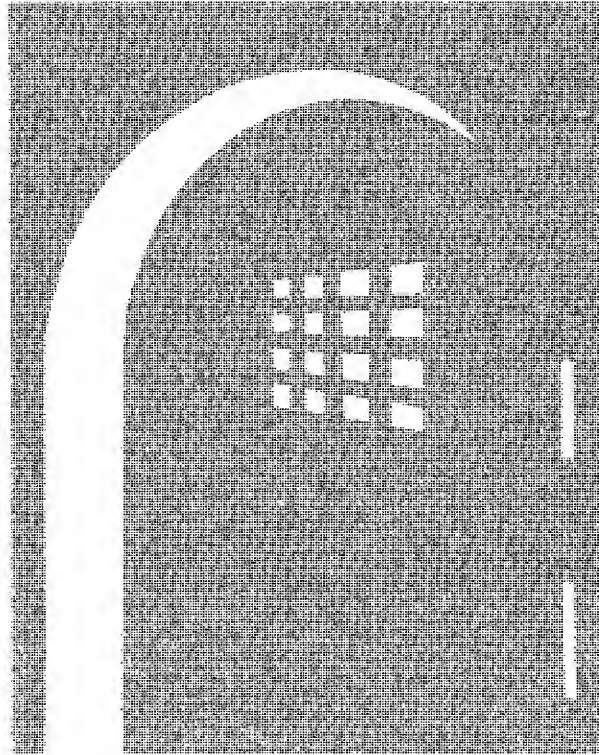
(١) مات من التعذيب فى السجن الحربى فى الأيام الأولى من سبتمبر سنة ١٩٦٥ (ربما يوم سبعة) .

تكفل على عشناوى - على حسب زعمه وشطحات خياله - بقتل جمال عبد الناصر والقائمة التى ذكرها للشهيد سيد قطب ولكنه أضاف إليها أسماء بعد ذلك منها العقيد شمس بدران ، وكان ينوى أن يقوم بهذه الاغتيالات بذلك المسدس الذى درب عليه أعضاء التنظيم وطاقته ست رصاصات ، يعنى لكل واحد رصاصة بشريطة أن يصوب على بعد عشرة أمتار على الأكثر ويقف عبد الناصر ، وزكريا ، وعلى صبرى والمشير ، وشمس بدران ، وظهورهم مسندة إلى الحائط وهناك علامة كبيرة تبين موضع القلب وأن يجيد على عشناوى التصويب ، وقال إنه اختار الشهيد فاروق المنشاوى ليساعده فى هذه المهمة ، وقد ذبحوا فاروق بعدها فى السجن بمعرفة مسجون محترف القتل والإجرام .

وكانت هذه هى قصة تنظيم الإخوان عام ١٩٦٥ باختصار شديد .

الفصل الخامس عشر

صحافة تلك الأيام



كنا هذه الأيام الثقيلة نعيش خلف العالم ، وكانت
ثقة المعتقلين في الله سبحانه وتعالى كبيرة ، وأملهم في
رحمته غير محدود ، وكانت هناك تساؤلات بين الحين
والآخر تدور همسا أو علنا .

ترى ماذا يقول الناس عنا خارج الأسوار ؟
ماهو موقف الصحافة ورجال القانون والنقابات المختلفة ؟
ترى ماهو موقف مجلس الأمة ؟

وماذا يقول الوزراء والكبراء لرئيس الدولة حول هؤلاء
الذين يقتلون في السجون بلا رحمة ، ولا يوجد لهم شفيع
يطاع ، أو يخفف عنهم شيئا ؟ .

وكانت التساؤلات بيننا عن « الصحافة والصحفيين »
أكبر ، فقد كان الظن أنهم يستطيعون شيئا ، يؤلبون الرأي
العام ، يطرحون تساؤلات عن حقيقة التهم المنسوبة لهؤلاء ،
يكتبون ، يتكلمون ، يفعلون شيئا .

وقلت لمن دار بيني وبينه حديث حول (الصحافة
والصحفيين) وعن واجبهم حيالنا :
- لعلك لم تنس ما حدث لكبير الصحفيين في أمس
القريب .

- تفصد مصطفى أمين ؟
- بالضبط . هو من أقصد .
وكأنما تذكر صديقي شيئا غاب عنه ، وغرق في أفكاره
يائسا حزينا وقال :

- إن كان الصحفيون لم يتحركوا لاعتقال كبيرهم وإهانتهم
وسجنه وفضحه على رؤوس الأشهاد ، فهم بلا ريب لن
يفكروا فى أمثالنا أبدا .

وتذكرت كيف غضب عظيم الدولة على الصحفى
الكبير ، وكيف أودعوه السجن ، وقالوا هو جاسوس ، ثم
جمعوا الصحفيين فى قاعة محكمة الغلق ، وجاءهم أحد
(الصولات) من المخابرات ومعه جهاز تسجيل ، وأداره ،
فسمع كل من بالقاعة أحاديث غير واضحة المدلول ، غريبة
الصوت والنبرة ، وأرغموهم على الجلوس لساعات طويلة ،
يسمعون ولا يفهمون ، وفى آخر الجلسة بدت على وجوههم
الحيرة الممتزجة بالرعب والخوف .

وقال حضرة الصول :

- واضح من التسجيلات التى سمعتموها الآن أنه جاسوس
كبير .

ولم ينطق واحد بينت شفة ، فقد صدرت التعليمات أن
الصحفى الكبير جاسوس وانبرى حضرة الصول مكملا :

- ها قد رأيتم بأعينكم ، وسمعتم بأذانكم ، والويل كل
الويل لمن يتحدث مع نفسه حول هذا الموضوع . انصرف .

وخرج الصحفيون كبارهم وصغارهم من القاعة سراعا ،
كأنهم إلى نصب يوفضون .

خرج الصحفيون وكل واحد يفكر فى نفسه .

ماذا يفعل حتى يتجنب هذا المصير السيئ .

وعلى حد تعبير واحد منهم كبير :

- يجب على العاقل أن يمشى بجوار الحائط كالكلب .
والسجن فى الجريدة أو البيت خير ألف مرة من السجن
الحربى أو سجن القلعة .

نفس هذا الصحفى الكبير وأمثاله فى عهد ما قبل سنة
١٩٥٢ ، كانوا يعتبرونهم حجة ومرجعا فى الأمور التى تهم
الشارع المصرى . فأتت تلك المظاهرة التى قام بها الطلبة
عام ١٩٤٦ بزعامة مصطفى مؤمن ، والتى خرجت من الجامعة
فى طريقها إلى سراى عابدين تهاجم الملك ، وجد الطلبة
كوبرى عباس مفتوحا ، ونزل طلبة من كلية الهندسة وأغلقوا
الكوبرى حتى يمر الطلبة . وما أن توسط المتظاهرون فى
الكوبرى حتى وجدوا حصارا فى نهايته ، قوات الهجانة على
الجمال ، ومن خلفهم قوات (بلوكات النظام) ، وأخذ
الطلبة فى ذلك اليوم (علقه) وصفت بأنها حامية ، ولعلها
مفاهيم ذلك الزمن ، فلم تكن أجهزة الأمن العظيمة قد ظهرت
بعد ، والتى كان لها شرف حماية النظام العسكرى الأسود
الذى عشناه .

وهاجت الدنيا وماجت ، وفسد الحفل الذى أقيم فى اليوم
التالى للملك ، وكان بمناسبة عيد ميلاده ، وكان المكان
الذى ينبغى عليه زيارته بحرم الجامعة قد غرق بالماء ، قد
أغرقته خراطيم المطافئ التى كانوا يفرقون بها الطلبة فى اليوم
السابق .

وهنا تبرز أهمية الصحافة ويظهر دورها في بلد هو أقرب للحرية والديمقراطية رغم كافة الظروف الصعبة التي يعيش فيها ، من ملكية فاسدة كما كانوا يقولون ، ونحن معهم في فسادها ، ولكن لعلها لم تكن أكثر فسادا مما حدث بعد ذلك ، ومن قوات إحتلال إنجليزية ، قد جثمت على صدر الوطن ، حيث للسفير الانجليزي الرأي الأهم ، وحيث وحيث من الكثير الذي حفلت به الكتب ، وتناقله الناس في مجالسهم ، وقال عنه المحاضرون في محاضراتهم .

تحركت الدولة ممثلة في الملك وجاشيته ، فهم السلطة الأعلى في مصر واتصلوا بالصحافة والصحفيين للنجاة من هذه الثورة التي أحدثها الطلبة والتي جعلت كل شعب مصر متحفزا للمزيد .

وكان الرأي عند ذلك الصحفي الكبير الذي اتهم بعد ذلك بالعمالة والتجسس .

وفي فيلا أحمد حسنين باشا ، وهو بمكانته المعروفة من الملك ، كان الاجتماع بزعامة الطلبة منهم أحمد عادل كمال ، حسان حتوت ، مسعد سلام ، محمود الشربيني ، آخرون ، وحضر الاجتماع الصحفي الكبير ، وهو الذي رتب له ودعا إليه ، ونصح الرأي بالموافقة على كل طلبات زعماء الطلبة ، وكانت طلباتهم تتركز في استقالة الوزارة . واستقال النقراشي ، وجاء إسماعيل صدقي خضوعا لمطالب الطلبة .

كانت المظاهرات تدعو الأمة للوقوف صفا واحدا لمواجهة المشاكل التي كانت تبدو مستعصية في ذلك الوقت ، وهي التفاوض مع الإنجليز للجلء عن مصر والسودان ووحددة وادى النيل . وكان الخلاف عظيما وكبيرا

بين الوفد والسعديين ، وكان الطلبة يطالبون الزعماء بتناسي الخلافات والتآزر والوحدة فيقوى أمرهم في المفاوضات .

مانريد قوله أن الصحافة الحرة كان لها دور عظيم في توجيه سياسة الدولة وكانت لاتسكت على فساد ، ويمكن لها أن تتدخل لعمل مصالحه وطنية بين طائفة ما وبين الدولة ، وكان يؤخذ رأيها ويعمل لها كل حساب .

ولا شك أن الصحافة هي مرآة الأمة بما فيها من خير وشر ، وهي الميزان ، ومن خلالها يمكن أن تستقيم أمور مجتمع أو تسوء ، وهي انعكاس للأحوال العامة الاقتصادية ، ومدى حضور الحرية أو غيبتها ، وجدية الحكام وعيبتهم بمقدرات البلاد .

وكانت الصحافة قبل يوليو سنة ١٩٥٢ تستطيع بالنقد المكتوب على صفحاتها أن تسقط حكومة ، أيا ما كانت تلك الحكومة . ولم يكن هناك شيء يخفى على الناس ، فكل ما يجرى في الدهاليز الخلفية يكون في متناول المندوبين المهرة المدربين على التقاط الأخبار ، وعلى بثها في الصفحات ، فيعلمه الناس ، ويتكون رأى عام قوى يؤثر ويفعل ويحرك الجميع .

وكانت الحكومات التي وصفوها بأنها فاسدة تضج بقدرة هذه الصحافة على الإزعاج وعلى صنع الرأى العام ، وعلى كشف الأسرار ، وكانت الحكومات لاتستطيع إلا القليل في مواجهة هذه الصحافة في حدود الدستور والقانون . وغاية قدرتها أن تدفع بعض المصروفات السرية لبعض الصحف والصحفيين تنقي بذلك شر ألسنتهم ، وهو أمر لم يحدث إلا مع القلة ، والأغلبية يرفضون ، ويعتبرونه شيئا مخلا بالكرامة والشرف ، ويضعف المروءة ، ويظهر من يفعل ذلك صغيرا

فى أعين الناس ، وقد قاطع الشعب تلك الصحف التى
اشتهرت بأنها تقبض من الحكومة ، ومن ثم لم تعد تؤثر
أو يكون لها دور فى مجريات الأحداث .

وكان للصحفيين قيمة كبيرة فى ذلك الوقت كما رأينا ،
فكل رجال الحكومة يتودد إليهم ، ويطلب صداقتهم ،
ويأخذون رأيهم فى بعض المشاكل الكبرى السياسية ،
ويطلبون وساطتهم فى بعض الأمور . وكان فى استطاعة بعض
الصحفيين أن يغير رأى الحكومة فى قرار ما قبل أن يصدر ،
أو يضغط عليها فى إصدار قرار آخر ، فقد كان لهم وزنهم
وقيمتهم ودورهم فى المجتمع .

واستمدت الصحافة قوتها فى ذلك العهد من قدرتها على
كشف ما يدور وإعلام الناس به ، وأخذ الصحفيون مكانهم
من صدقهم فيما يكتبون ، وتحملهم لأية ضغوط قد تقع
عليهم فى سبيل كشف الحقائق للناس .

كان الدستور عظيماً فى نفوس الناس ، والقانون سيداً
لا يجرؤ أحد مهما علت مكانته أن يعيث به أو يمنحه إجازة
كما فعل البعض فى زمن لاحق ، فلم يكن من السهل التجاوز
فى أمور الحكم والسياسة ، وكانت حرية الفرد غاية كبرى
يسعى إليها الجميع ويحرصون عليها ولا يسمحون بالنيل
منها ، وإن حدث تأمر على ذلك فمن خلف جدر وأسوار
وأستار ، وإن تم فنى أضيق النطاق ، وإن كشف أمره ، وهو
عادة ما ينكشف ، تسقط الحكومة ، ويحاسب المتآمرون .

كانت الصحافة فى ذلك الزمن تمثل رقابة قوية ذات فعالية
عالية على أعمال الحكومة وعلى السلطة التنفيذية بشكل عام ،
وكان المناخ يسمح بكشف كل جريمة حدثت فى الخفاء ،
فيتدخل البرلمان ، وتسقط نجوم فى سمائه ، ويستجوب
المسئول ، ويذهب ، وربما يذهب الجميع ويأتى غيرهم .

ولعلهم خير من مهدوا وهبوا الناس لمستقبل أفضل ،
وجعلوا البلاغ رقم واحد الذى أذيع صباح ٢٣ يوليو سنة
١٩٥٢ يلقي أذنا صاغية من جميع الناس ، فقد تحقق الحلم ،
ولم يكن أحد فى ذلك الوقت يعلم الغيب أو يظنه على حقيقته
كابوسا رهيبا ثقيلًا لما تفق الأمة منه بعد .

ولعلنا لانسى مقالات المرحوم المجاهد أحمد حسين
ومجلة مصر الفتاة ، ومقاله الشهير « رعاياك يا مولاي »
حيث وبخ الملك والنظام بالكلمة وبالصورة وفى شجاعة
نادرة .

كان بعض الصحفيين يماثلون الحكومة ، أية حكومة ،
يتحدثون عن محاسنها المفقودة ويررون تصرفاتها نظير
مايقضون . ولكن بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، حيث انفرد
عبد الناصر بالسلطة ، وضرب الكل بالحذاء ماذا حدث ؟
حدثنى عن صحفى واحد ، واحد فقط ، لم يطبل ويزمر
فى السيرك الذى أقامه عبد الناصر . ولعلنا لانسى ذلك
الصحفى الذى ليس من طبعه النقد ، وظن خطأ أن الكلام
عن مذيعة تليفزيون ، فى طريقة تقديمها للبرامج أمر مباح ،
فجاءه خطاب الفصل من عمله فى الصباح .

ورضى الصحفى وسكت ، وقبل أن يعيش كما أرادوا له ،
ورضى جميع الصحفيين وسكتوا ، وكان أجدر بهم ألا
يفعلوا .

ولعل العجيب الغريب المثير للدهشة والتأمل أن يتحول
جميع الكتاب والمفكرين والصحفيين إلى جوفة من المهرجين

والأراجوزات ، ألا يشذ واحد فيهم ، ويشعر بأمانة القلم ،
لم يحدث .

أين العيب ؟ ومن الذى فعل هذا ؟ الخوف والاعتقال
والسجن ؟ .

هذه أمور ليست كافية لتحويل الجميع ، لابد أن يشذ
شخص ما .

ولعلنا فى حاجة إلى علماء الاجتماع لتفسير هذه الظاهرة
وظواهر أخرى كثيرة حدثت فى ذلك الزمن النكد .

كان الصحفيون فى الماضى يتجاوزون عن أخطاء
الموتى ، وربما يكرمونهم ويذكرون محاسنهم ، فجاءت
حكومات يوليو وعلمت الصحفيين أن المسموح بسبهم
ولعنهم هم الموتى فقط ، أما الأحياء فلا يخطفون ، ولا ينبغى
أن تمسهم كلمة بسوء .

وبعد أن انفرد عبد الناصر بالسلطة عقب أزمة مارس
ومحاولة اغتياله فى المنشية ، والتي لم يكشف عن أسرارها
النقاب بعد وبعد القضاء على تشكيل الإخوان المسلمين ،
عاش الصحفيون فى الظل ، وصاروا يكتبون مايمليه عليهم
الصولات وصف الضباط من أخبار وبيانات ، وعاشت
الحكومة والصحافة فى التبات والنبات .

وسارت مسيرة الثورة المباركة بقيادة الزعيم الملهم ،
وطحنت فى طريقها كل القوى التى يتشكل منها المجتمع ،
وتحول الجميع إلى قابضى مرتبات من الصغير إلى الكبير ،
إن قطع عن أحدهم المرتب شهرا مات هو وأولاده من
الجوع .

وكما يفعل أى زعيم محترف ألقت المقادير بين قدميه
دولة وشعبا ، كون مجموعة من « الفتوات » الذين يحترفون

الضرب بالنبايت لحمايته ونظامه من التهاوى والسقوط .
وأعطى هذه المجموعة من «الفتوات» الحق فى كل شىء ،
ومن ثم صاروا يمنحون حق الحياة والموت لمن يشاءون .
وأعطاهم حق السلب والنهب ، وأباح لهم البلاد والعباد على
طريقة الغزاة فى سالف الأزمان .

كانوا مجموعة من «العصبية» و «البلطجية»
استطاعوا بالأموال المنهوبة أن يسكنوا القصور العالية ، وأن
يرتدوا الملابس الغالية الثمن ، والروائح الطيبة يضمخون بها
وجوههم وأيديهم ، وظل البون شاسعا بين حقيقتهم وبين
ما يظهرون به أمام الناس ، فيتكلمون من أنوفهم وهم فى
حقيقتهم أذلاء ، يصطنعون التلطف ، وهم أوغاد ، ولعل
المعتقلين الذين كانوا فى معتقل القلعة فى عام ١٩٦٨
يذكرون المواقف الطريفة التى تؤكد هذا المعنى ، ولعلمهم

لايسون كيف خلع «على شقيق» حذاءه وضرب «حمزة
البيونى» على أم رأسه ، وكيف تبادلوا الشتائم اللاذعة التى
يترفع عنها أقل الناس شأنا وثقافة ، ولا يفعلها أصحاب
«اللامسات» الذين ظلموهم وهم أصحاب مروءة وشرف
ودين ، والحديث عن هذه العصابة يطول ، وهو ليس
موضوعنا فى هذا المقام ، ولو أن الاستطراد يدفعنا إلى ذكر
حكايتين .

الأولى عن «محمود نصر» وهو شقيق «صلاح نصر»
أحد الذين كانوا يجيدون الضرب بالهراوات لحماية مايسمى
بالنظام ، أتوا به إلى معتقل طره السياسى عندما دالت دولة
شقيقه وعاش معنا فترة ليست بالقصيرة ، يعمل مديرا عاما
بجهاز المخابرات ، هكذا كان يقول ، ويأتى أول الشهر
فيأخذنى جلسة إلى زنارته لأكتب له شيكا من دفتره يرسله

إلى أهله ، وبعد أن أكتبه له يوقع عليه بعلامة لا يفهمها إلا هو والبنك ، فقد كان لا يعرف الكتابة ، ويقرأ بعض الحروف الكبيرة بصعوبة .

حكى لنا « محمود نصر » عن فساد النظام حكايات كنا نستمع إليها مشدوهين ، ولولا مانحن فيه ما صدقنا منها حرفا . وحكاياته كثيرة متعددة طريفة اذكر منها أنه قال لنا :

- « كنا إذا أردنا شراء أشياء من أوروبا ، جمعنا أسماء من يريدون الشراء وكلهم من علية القوم ، وكتبنا ما يريدونه ، وأعدنا ميزانية بالمبالغ المطلوبة وكانت لاتقل المرة عن مليونين من الجنيهات الإسترلينية أو الدولارات ، ثم نعد مذكرة عن مهمة وهمية ، نطلق عليها اسما رمزيا ، ونؤكد أهمية القيام بها لحماية الدولة والنظام ، ومن ثم لاتظهر لها طبيعة واضحة في دفاتر أو وثائق فالحقيقة هي رحلة للشراء ، ومن يوافق على هذه المذكرة له من المشتريات النصيب الكبير ، واعتدنا هذه العملية ، ونسافر إلى أوروبا ونشترى ما يشاؤه الكبار حسب الكشف التي معنا ، ونعود وتحمل البضائع من الطائرة إلى البيوت ، فهي صناديق سرية لا ينبغي لرجال الجمارك مشاهدتها ، ثم نكتب تقريرا عن المهمة أكثر غموضا من المذكرة التي كتبت عن سببها ، ويحفظ التقرير في أضيابير الطلاس والأسرار حتى يتجدد سبب الشراء من جديد » .

انتهى كلامه .

ليس هناك من يحاسب ، وليس هناك من يتقدم بكلمة نقد لهذا الفساد ، وليس هناك من الأصل من يعرف شيئا عنه ، فقدس الأقداس في عهد عبد الناصر هو أمن الدولة وعظمة الزعيم ، ولا يدخله إلا كهنة مدربون على أحط الأعمال

وأصغرها شأنًا ، قد تجردوا من المبادئ والقيم ، ونسوا الله
فأنسأهم أنفسهم .

والقصة الثانية عن قوم من العظماء ، جاءوا إلينا ونحن في
معتقل طره السياسى بعد الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ ، وهزيمة
يونيو غنية عن التعريف ، فقد بطل السحر فى ساعة من نهار
يوم قائط ، وتحطمت الأوثان الكاذبة ، ولما يعل بعد صوت
بلال بالأذان من فوق الكعبة . جاء هؤلاء العظماء بالملابس
الغالية والوجوه الحليقة ، ونظرة التأفف مما يرون ،
وعطورهم الغالية تملأ بأريجها سماء المعتقل . وعرفنا سبب
اعتقالهم ، وكان أجدر بهم أن يخرجوا ، بدلا من العظمة
الكاذبة والكبرياء الزائف .

لقد اتفقوا وزوروا مستندات تفيد بأنهم قد قاموا بإنشاءات
فى سيناء المحتلة ، وأنهم قد صرفوا عشرات الملايين من
الجنيهات المصرية ، على أعمال لم تنفذ إلا على الورق ،
وأخذوا ما أرادوا ، لولا حكمة الله البالغة ، فقد كانت هزيمة
يونيو سببا لإخلاف جميع النصوص ، وتغلب فريق على
آخر .

وأودع المغلوب معنا إلى حين .

والأمثلة قطرة من بحار السلب والنهب والقهر
والجبروت ، فى عهد كان فيه الفساد والإفساد هو الشعار
والأساس والمبدأ .

ونعود إلى موضوع الصحافة والصحفيين .

قضى عبد الناصر على كل القوى التى يتكون منها
المجتمع قضاء مبرما ، وكان للصحافة دور كبير فى نجاح
حركته ، فمقالاتهم وكتاباتهم مهدت للتغيير وهيات الناس
له ، وكانت بعض الدور الصحفية تحتضن بعض الضباط ممن

يعرفون الكتابة مثل أنور السادات الذى عمل بعض الوقت فى روز اليوسف ، وكانوا يتشاورون معهم فيما يعملون ، ويشيرون عليهم أحيانا بما يكتبون ، وكان بعضهم على صلة وثيقة بالضباط ، ومن العناصر الوطنية الصحفية التى كانت على صلة طيبة بهم أحمد أبو الفتح وآل أبى الفتح جميعا ، وكانت « المصرى » ناديا للضباط قبل الحركة وبعدها ، وكان آل أبى الفتح على علم بالتفاصيل . وجاء دور الصحفيين والصحافة بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ وانتصرت الديكتاتورية وهتف من جمعهم الضباط بسقوط الحرية والديمقراطية والعلم والمتعلمين ، وضرب رئيس مجلس الدولة الدكتور السنهورى عليه رحمة الله (بالحداء) ، من جمهور قد استؤجر خيمت عليه الجهالة والغفلة ، ولم يدر ماذا فعل بمصر والمصريين . وسجن من الصحفيين من سجن ، وهرب من هرب ، وأغلقت بعض الدور الصحفية ، واستحدثت أخرى ، وكسر الجميع أقلامهم وانضموا إلى جوقة المطبلين والمزمرين والمهرجين ، وضاعت الفكرة ، وارتفعت الشعارات الكاذبة الجوفاء ، وعاش الناس على الكلام ، يقتاتونه ويمضغونه كالتعاج ، فى عالم توارت فيه الأسود .

ومضى عبد الناصر بمصر من نكبة إلى نكبة ، فى حلقات متوالية ، كمسلسل تليفزيونى ردىء ، حتى أوحى إليه بعضهم بتأميم الصحافة . وقيل: إن الذى تولى كبير هذا التأميم هو

محمد حسنين هيكل ، وقيل إن السبب فى ذلك أن لحساب دار المعارف فى بنوك لبنان مبلغا يزيد عن مليون دولار ، فى دولة تسير بالكاد ، وأنه أراد الاستيلاء على هذا المال ليضمه إلى الأهرام ، وهى الجريدة التى أقطعها له عبد الناصر وهو يستفيد منها فائدة عظيمة عن طريق الضيافة لكبار الصحفيين

فى العالم والمنح السخية ، الأمر الذى ردوه إليه بعد أن طرد
من الأهرام ، واستضافوه فى بلادهم ، واستكتبوه ووجد
حصاد مازرعه من المال الحرام فى زمن فات . هكذا
أخبرت .

واستعذب عبد الناصر الفكرة ، فلم يكن يدرى عندما أخذ
الدور الصحفية أن هناك قوماً لا يزالون يعيشون فى إستقلال ،
على الأقل فى لقمة العيش ، أما الكتابة فلم تكن هى النقطة
التي يتخوف منها الزعيم ، فقد كان الحذاء مرفوعاً ليهوى
بقسوة وصرامة على رأس من يكتب كلاماً يحتمل أكثر من
معنى ، وكم هوى هذا الحذاء بدون سبب على رعوس قد
أفرغت من محتواها ، ربما لعداوة محتملة مع أحد الصولات
أو رجال « الإنكشارية » .

كان أصحاب الدور الصحفية فى مصر هم من بقوا ولهم
شئ يملكونه ، ويعيشون منه ، وتحولوا بعد تأميم الصحافة
إلى موظفين ، وطرد بعضهم من داره التى أنشأها وأهله فى
قصة كفاح فريدة وعجيبة ، جميعهم بلا استثناء كافحوا
وجاهدوا حتى صاروا شيئاً ، وأقاموا أشياء ، ثم سلبت منهم
فى لحظة وبقرار من الزعيم . لم يتغير شئ بعد تأميم
الصحافة غير أن الذين يملكون صاروا لا يملكون ، وأصبحت
الدور الصحفية الكبرى التى تحقق أرباحاً سنوية مثل أية
مؤسسات فاشلة من مؤسسات القطاع العام . وفى هذا الدرك
الأسفل من الضياع حدثت نكبة عام ١٩٦٥ .

بدأت الصحافة عهدها مع حكومة الضباط أثناء إضراب
العمال فى كفر الدوار بعد أسابيع من قيام حركة الضباط
واختاروا ضحيتين ليمثلوا بهما ، ويكونا عظة وعبرة لمن
تسول له نفسه الوقوف أمام قطار الضباط غير المتضبط ،

وكان الناس حديثى عهد بالفوضى وضياح القانون والإستهانة بقيمة الفرد والمقدسات ، وأراد القاضى أن يستكمل الشكل ، فقال لا يمكن لنا أن نشنق البقرى وخميس دون محاكمة ، وهانحن نحاكمهم ، ولابد للمتهم من محام يقوم بالدفاع عنه ، وسألوا الموجودين من النظارة هل فيكم من درس القانون ، وكان بين الصحفيين موسى صبرى الشهير ، فقال إنه خريج كلية الحقوق ، وطلبوا منه الدفاع عن المحكوم عليهم بالإعدام ، وهو الذى جاء ليغضى الأخبار ويعرف القصة ومن ثم ينشرها للناس ، وشارك الصحفى فى مهزلة إعدام البقرى وخميس .

ثم تعود الصحفيون ألا يقولوا الحقائق للناس ، فما يدور شىء ، وما يكذبون به على الناس شىء آخر ، العالم كله يعرف أن اسرائيل انسحبت من سيناء بعد حرب ١٩٥٦ بعد أن أخذت الحق فى المرور من مضائق تيران إلى خليج العقبة ، وهلل الصحفيون بالنصر العظيم . العالم كله يعرف أن أيزنهاور هو الذى أجبر حلفاءه من الإنجليز والفرنسيين على ضرورة الانسحاب ، ويكفى أن تعطى إسرائيل ميزة أو ميزتين ، وكان ماكان ، وهلل الصحفيون بأن « بولجانين » رئيس روسيا هو الذى أجبر الإنجليز والفرنسيين واليهود على الانسحاب ، وأنه هدد بضرب لندن وباريس بالصواريخ عابرة القارات وعاش الناس على الأكاذيب ، واعتادوها مع الأيام .

صحافة هذه حالها ماذا ينتظر منها أن تقول فى نكبة الأمة الممثلة فى اعتقال أكبر عدد من المثقفين والعلماء والطلبة والعمال من المسلمين ، ثم يلقي بهم فى وعى الظلم ويُنكل بهم أحسن تنكيل ؟

لعل من المناسب لهم وأكرم أن يقفوا موقفا مختلفا ، إذا
عرفنا أن هناك عدداً منهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم ، وهم
أصحاب الأعلام وهم الذين يدركون قبل غيرهم أن هذا
انحدار وانهايار ، وكانوا يستطيعون شيئا لو أرادوا .
فقدت الصحافة هيبتها ، وفقد الصحفيون كرامتهم .
ونقلب في صحافة تلك الأيام السوداء الكالحة .

جريدة اسمها « الجمهورية » ، يومية ، مازالت تصدر
حتى الآن ، رئيس تحريرها اسمه مصطفى بهجت بدوى ،
فى العدد ٤٢٧٩ بتاريخ الأربعاء ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ،
وهو الذى أنقل منه بعض المقطعات .

العناوين الرئيسية كالتالى فى الصفحة الأولى :

حقائق خطيرة عن مؤامرة الإخوان .

قوائم الاغتيالات :

أعددها الإخوان للتنفيذ فى أعياد الثورة
بالقاهرة .

والإسكندرية .

مؤامرة لنسف موكب الرئيس جمال
عبد الناصر .

سيد قطب يرأس التنظيم بالداخل وسعيد رمضان يتولى
عمليات التمويل من الخارج .

أوامر إلى الإرهابيين بالانتحار فوراً بعد
ارتكاب جرائمهم .

ثم على اليمين صور لأربعة من الشباب المعذبين .

صورة لممدوح الديري وتحت الصورة كتب: صاحب
مخزن أسلحة غمرة .

صورة لحمدى حسن صالح وتحت الصورة كتب: رسم
مراكز الشرطة .

صورة لمحمود فخرى وتحتها عضو فى التنظيم
السرى .

صورة لمحمد عبد المعطى إبراهيم وتحتها صاحب
مخزن أسلحة المطرية .

وعلى اليسار صور غامضة ، ومن يشاء يستطيع الرجوع
إلى الجريدة .

صورة ليد ممسكة بمسدس ، شبيه بمسدسات الأطفال
التي يلعبون بها ، ونظارة مكبرة ، وعلبة مفكات وأدوات
ميكانيكية مثل تلك التي تستخدم فى فك الصواميل .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

كميات من المسدسات ونظارات مكبرة ضبطت لدى
المتهمين .

الصورة التى تحتها أكثر غموضا كأنها لموتور سيارة ،
قد ظهر منه البوجهات وبعض الأسلاك .

كتب تحت هذه الصورة الآتى :

أجهزة لتفجير الديناميت كانت معدة لتدمير الأحياء
الشعبية .

هكذا ! لتدمير الأحياء الشعبية ! ولماذا الأحياء
الشعبية ؟

الصورة الثالثة لحزام مما يلبسه الأطفال يوم العيد
ويلعبون به .

كتب تحتها الآتى :

أحزمة لطلقات الرصاص والمدافع الرشاشة .
الصورة الرابعة ليد ممسكة بزجاجتين « جولو كوز » مما
يقدم فى المستشفيات .
كتب تحتها الآتى :

مواد شديدة الانفجار أعدها المتآمرون لنسف
المنشآت .
إى والله ! زجاجتا جولو كوز ، وما ذكرت قد كتب
تحت الصورة .
الصورة الخامسة غامضة غير ظاهرة لبعض اللعب ، ويد
ممسكة بمطواة .
كتب تحتها الآتى :

مئات من الخناجر ضبطت لدى المتآمرين قبل أن يقتلوا
بها المواطنين .
فى أسفل الصفحة على اليمين إعلان عن أحذية باتا شعار
العصر .
وفى أسفل الصورة على اليسار إعلان عن المكتبة
الاشتراكية .
الثقافة والإرشاد القومى تقدم مائة كتاب عن
الاشتراكية .
هكذا وارجعوا إلى عدد « الجمهورية » .
فلسفة الثورة .. التحول العظيم .. الميثاق .. الخ هكذا
مكتوب .
وبالخط الأحمر الكبير كتب فى سطر مستقل :

لرئيس جمال عبد الناصر .
وبعد ذلك فى الإعلان نفسه :
التطبيق الاشتراكى فى مصر .. للسيد على صبرى
مشاكل التطبيق الاشتراكى فى الخطة الخمسية الأولى
ثم بعد ذلك أسماء هزيمة لكتب لامعنى لها ، لاتسمن
ولاتغنى من جوع .

بطبيعة الحال جميع الناس تعلم أن جمال عبدالناصر لم يكتب
حرفا مما نسب إليه ، أو لعلهم عرفوا وتأكدوا بعد ذلك ،
ثم التقرير الرئيسى عن مؤامرة الإخوان المزعومة ، بالصور
الخادعة لأسلحة هزيمة ، لم يخجلوا من نشرها وتزويدها .
وتحت عنوان قتل المواطنين كتب المحرر قليل الحياء
ما يأتى :

« وكان هؤلاء المتآمرون مكلفين بالحصول على السلاح
بأية وسيلة ، وهى قتل أى مواطن للحصول منه على سلاح
إن كان معه سلاح ، بالإضافة إلى الإستيلاء على مراكز
الشرطة والهجوم عليها أثناء عمليات التخريب والإستيلاء
على ما بها من أسلحة » .

قوم متآمرون ، ليس معهم سلاح ، يبحثون عنه بأية
طريقة ، ومنها قتل من يحمل سلاحاً لأخذ سلاحه .

أليس هذا استخفافا بعقول الناس ؟

أما كان أجدر بالمحرر أن يناقش « الصول » الذى أملاه
التقرير ليكتبه ؟

ماعلينا .

بعد ذلك بعدة سطور يكتب التالي :

« وعلم المحرر القضائي للجمهورية » ،
وكلمة المحرر القضائي للجمهورية توحى بالاحترام ،
ولكن نكمل الكلام المنشور !

« أنه كان هناك تنظيمان أحدهما هو تنظيم حسين توفيق
الذى نوى ارتكاب عمليات الاغتيال بأى وسيلة دون أن
يحدد الوقت والطريقة التى ينفذ بها خطته الإجرامية بسبب
عدم وجود السلاح فى يده » ،

ثم بعد ذلك كلام فارغ أكثر غثاء مما قرأنا .

مؤامرة لقلب نظام الحكم وقتل السيد الرئيس جمال
عبد الناصر وتابعه المشير عبد الحكيم عامر ، وغيرهما
وغيرهما فقد حفلت القوائم بالكثير .

كل هذا يتم بغير سلاح
لا بد من الحصول على السلاح .
كيف ؟

نقتل كل من يحمل سلاحاً .
وهل يحمل الناس فى مصر سلاحاً ؟
وإن كانوا يحملون . كيف نقتلهم بدون سلاح ؟
وننتقل إلى الصفحة رقم ٢ من جريدة الجمهورية
المذكورة العدد نفسه ، فنجد إعلاناً عن برامج الإذاعة
والتلفزيون .

وعنواناً نظرات فى صحف العالم .
جولدموتر هل يساوى ٧٠ ألف جنيه ؟
الدماء لاتزال تسيل بغزارة فى وديان كشمير .
مسرح الريحاني كيف ندعمه ؟

أين تسهر هذا المساء .

سينمات .

شقيقة القبطية في سينما ريتس ، حكاية العمر كله فريد
الأطرش .

ثم عمود نقد فنى بتوقيع أحمد عبد الحميد .

وننتقل إلى الصفحة الثالثة من نفس العدد من جريدة
الجمهورية .

ونجد فيها تفاصيل مضحكة وصوراً هازلة لمؤامرة الإخوان
المزعومة .

وأكتفى من الكلام الذى ملأ الصفحة الثالثة بالعناوين :

« تشكيل جهاز سرى للاغتيالات والنسف والتدمير
والتهريب » .

« وضع مواد متفجرة فى الأماكن العامة والاستيلاء على

مراكز السلطة والإذاعة ونسف مطار القاهرة ومحطات
الكهرباء » .

« تدريب عناصر جديدة على استخدام السلاح والقتل
والنسف واستخدام الديناميت والمتفجرات والقنابل » .

سبحان الله !

كيف يتم كل هذا ؟

هذه أمور تحتاج إلى جيش نظامى مدرب ومنظم فى عملية
غزو محكمة للبلاد ، ولايستطيع القيام بها هؤلاء الأطباء
والمهندسون وعلماء الطاقة الذرية والمدرسون والعمال والطلبة
الذين قبض عليهم .

ولم تجد الجريدة غضاضة فى الخروج على الناس بهذه
الأكاذيب .

الصفحة الرابعة بها أخبار دولية لا تستحق الذكر .

الصفحة الخامسة تحت عنوان :

« مشروعات جديدة للإنتاج والخدمات

٦١٦٩ فداناً يتم استصلاحها فى وادى النطرون » .

ثم تصريح لواحد اسمه اللواء حسن صبيح عن ذلك .

وهاهى عشرون عاما تمضى وأخبرونى كم فداناً تزرع

الآن فى وادى النطرون وفى أعلى الصفحة على اليمين :

« مكاسب ضخمة يحققها التعاون الزراعى للفلاح » .

وعلى اليمين صورة لواحد اسمه عبد المحسن أبو النور

وواحد آخر اسمه د. حامد النشترتى ورييورتاج عن الإصلاح

الزراعى ومكاسب الفلاحين . يبدو أنها الصفحة الزراعية !

نحن نكتب هذا بعد عشرين عاما ، بعد أن انقرض

مايسمى بالفلاح فى مصر أو يكاد .

الصفحة السادسة كلها عبارة عن إعلان كبير والعناوين :

القاعدة الشعبية بمحافظة الاسكندرية تستنكر مؤامرة الغدر

والخيانة .

السيد الرئيس جمال عبد الناصر - القاهرة

« الأمناء والأمناء المساعدون للجان الاتحاد الاشتراكى العربى

بجميع مستوياته المجتمعون اليوم فى هيئة مؤتمر يستنكرون

المؤامرة الغادرة لعصابة الإخوان والرجعية ويطالبون بالضرب

بشدة على أيدي من تسول له نفسه الغدر بهذا الوطن والحق

الضرر بأبنائه والنيل من مكاسبه التى حققتها ثورة يوليو

المجيدة ويقررون أنهم فى حالة تعبئة كاملة ضد أى مؤامرة

يدبرها الإستعمار وأعوانه وأى انحراف يحاول أن يعرقل سير

الوطن نحو أهدافه الكبرى - وأنهم يعاهدون الله باسم القواعد

الشعبية التي يمثلونها أن يقفوا صفا واحدا وراء سيادتكم وأن يتصدوا بكل قواهم وإمكاناتهم لضرب أعداء الوطن وسحق كافة المحاولات التخريبية - حفظكم الله حاميا للوطن وذخرا للعروبة . »
ثم توقيع ملاء الصفحة بأسماء كل المصالح والهيئات الحكومية بالاسكندرية . . وقد استجاب الله دعاءهم ، وحمى الوطن وكان ذخراً للعروبة حتى صباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ .

هذا الإعلان ثمنه حوالى ثلاثة وعشرون ألفا من الجنيهات المصرية ، وكان ينشر فى جميع الصحف وكل يوم .
وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء .
الصفحة السابعة من الجريدة الغراء .
عناوين كبيرة .

« روسيا تقبل اقتراح الجمهورية العربية المتحدة بوقف التجارب الذرية تحت الأرض فوراً » .
وتحت ذلك كلام كثير كله كذب .

« وقف المساعدات الأمريكية للهند والباكستان »
« باكستان تستنجد بدول الحلف المركزى »
« يومدين يجتمع بأمين الحافظ »
« السلال يجتمع بكبار الضباط بالقيادة العربية »

ثم إعلان على نصف صفحة .
إدكو تهنىء بعودة رائد السلام .
صورة الرئيس جمال عبد الناصر .
صيغة برفية موقع عليها من أحمد عطية العدل مراسل جريدة الجمهورية فى إدكو تقطر نفاقا وكذبا وجهلا .
ثم التوقيعات .

الصفحة الثامنة من الجريدة المنكودة .

عناوين :

« المشير عامر يستقبل سفير باكستان » .

« الرئيس عارف يزور الجزائر »

« عبد الناصر سعى للسلام فى جدة وموسكو »

« عالم صواريخ أمريكى يزور إسرائيل »

صورة لأحمد الشقيرى وتحتها :

« وفد منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر الدار البيضاء »

« آثار النوبة يتم إنقاذها فى العام القادم » .

« على عامر وصل الجزائر » .

« عبد الخالق حسونة وصل المغرب » .

وعמוד على شمال الصفحة تحت عنوان « رأى

الجمهورية » .

ولاحضوا لنقل الهراء المكتوب ، ولكن صاحب العمود

الذى لم يوقع باسمه يتهم الاستعمار بتمويل الإخوان للقضاء

على زعماء الشعوب الحقيقية من هذا الاستعمار ؟ لم يذكر

الكاتب عنه شيئا .

الصفحة التاسعة .

نصف الصفحة على الشمال استنكار من الشعب لمؤامرة

الإخوان .

النصف على اليمين أخبار متفرقة .

« الكوبرى المعلق ينتهى إعداده بعد ثلاثة أشهر » .

الاسكندرية - مكتب الجمهورية .

« يتم فى الأشهر الثلاثة القادمة إعداد الكوبرى المعلق الذى

يربط بين محطة الركاب وباب الجمارك بحيث ينزل السائح

من المركب ويخرج من طريق الكوبرى بعد تفتيش ما يحمله

من أمتعة » .

ملحوظة : بعد عشرين عاما لم يتم هذا .

أخبار عن محمد عبد القادر حاتم .

أخبار عن د . نزيه ضيف .

أخبار عن محمد كمال عبد الحميد .

« وزير العدل يجتمع برئيس النقض والنائب العام »

« وافقت دكتورة حكمت أبو زيد وزيرة الشؤون الاجتماعية

على إنشاء معهد لربات البيوت لتخريج فائزات مدربات يقمن

بتوجيه الأسر في الريف وتعليمها مختلف الصناعات

اليدوية . »

ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .

« تقام بمنطقة حلوان محطة كبرى لمياه الشرب ضمن

المشروعات التى ينتظر تنفيذها للنهوض بهذه المنطقة ،

بحيث تتوافر فيها مشروعات كاملة للخدمات كالكهرباء

والمجارى والمساكن . »

ملحوظة : لم يتم هذا حتى الآن .

ونكتفى بهذا القدر من الصفحة التاسعة ، ومن أراد أن يطلع

على أخبار كاذبة أخرى لم أوردتها فليرجع إليها ، إلى جريدة

الجمهورية العدد المشار إليه .

الصفحة العاشرة رياضة .

الصفحة الحادية عشر رياضة .

وبها عنوان :

الرئيس جمال والملك فيصل يشاهدان ختام الدورة .

الصفحة ١٢ هى صفحة الحوادث .

« ضبط حادثتى تهريب بمطار القاهرة » .

واحد يحاول تهريب ٢٥٠ جنيه (مائتين وخمسين جنيها)

والآخر (٤٠٠ جنيه أربعمائة)

وفى النصف الشمال من نفس الصفحة :

عيد الفلاحين وعودة الروح ، وتحتها كلام كثير .
قصيدة في مدح جمال عبد الناصر عنوانها عودة المنتصر بقلم
نجاتي عبد الرحمن .

الصفحة ١٤ أموات وأختام مفقودة وإعلانات وظائف .
آخر صفحة .

الصفحة ١٥

اليوميات بقلم إبراهيم نوار تحت عنوان « الجريمة
والعقاب »

يشتم الإخوان ويطالب بقتلهم جميعا في نصف صفحة .
ثلاث صور خليعة منقولة من مجلة أجنبية .
حديث المدينة به أخبار تستخف بعقول الناس .
« مجلس الجمارك الأعلى بلبنان قرر شراء ١٢ غواصة
لاكتشاف التهريب »

ترى كم يشتري جيش لبنان للدفاع عن أرضه ؟
« أسد يكي تأثرا من المعاملة الحسنة التي لقيها من
سلطات الجمهورية العربية المتحدة أمام جمع غفير من
الناس » .

أسد يكي يأوغاد ؟

« أم كلثوم تودع محمد فوزي في المطار »
عمود لعبد العظيم أنيس ، عمود صغير متواضع .
إعلان عن فيلم « وكر الشيطان » في آخر الصفحة إلى

اليسار .

انتهى عرض هذا العدد من جريدة الجمهورية .

جريدة الأهرام في ٢٢ أغسطس ١٩٦٦ . العدد ٢٩١٠٩

رئيس التحرير محمد حسنين هيكل .

العناوين الرئيسية :

٧ أحكام بالإعدام

الحكم بالإعدام على ٧ : هم الذين ألفوا التنظيم السرى
« للإخوان » وقادوا تدريبه وتسليحه ورسوموا الخطط الإرهابية
للإغتيال والتخريب .

الحكم على ٢٥ : هم الذين قادوا تشكيلات التنظيم
وتحركوا لتنفيذ الخطط المدبرة .
أحكام أخرى لمحكمة أمن الدولة أمس فى قضية التنظيم
السرى : أشغال شاقة ١٥ سنة (٧ متهمين) - أشغال شاقة
١٠ سنوات (٤ متهمين)

وتحت هذه العناوين مايلى :
قضت محكمة أمن الدولة العليا أمس بإعدام السبعة الأول
فى قضية التنظيم السرى للإخوان .. هم رئيس وأعضاء
مجلس القيادة .

* سيد قطب إبراهيم : رئيس التنظيم
* محمد يوسف هواش : نائب رئيس التنظيم

* على ع شماوى : مسئول التدريب والتسليح وقائد
القاهرة .

* عبد الفتاح إسماعيل : مسئول التمويل والاتصال
الخارجى وقائد المنطقة الشرقية .

* أحمد عبد المجيد عبد السميع : مسئول الأمن
والمعلومات وقائد الصعيد .

* مجدى عبد العزيز متولى : مسئول التنظيم العسكرى
وقائد الإسكندرية والبحيرة .

* صبرى عرفة الكومى : قائد الدقهلية والغربية ودمياط .

أعلنت المحكمة قرارها بعد التصديق عليه استنادا إلى
ماثبت خلال المحاكمة من أن :

١ - كل المتهمين فى القضية « حاولوا تغيير دستور الدولة وشكل الحكومة فيها بالقوة بأن ألفوا من بينهم - وآخرون معهم - تجمعا حركيا وتنظيما سرىا مسلحا لحزب الإخوان المسلمين المنحل يهدف إلى تغيير نظام الحكم القائم بالقوة بإغتيال رئيس الجمهورية والقائمين على الحكم ، وتخريب المنشآت العامة ، وإثارة الفتنة .. وتزودوا فى سبيل ذلك بالمال اللازم ، وأحرزوا مفرقات وأسلحة وذخائر ، وقاموا بتدريب أعضاء التنظيم على استعمال تلك الأسلحة والمفرقات ، وحددوا أشخاص المسئولين الذين كان سيجرى إغتيالهم وعينوا محطات توليد الكهرباء والمنشآت العامة التى كان سيتم تخريبها ورسموا طريقة التنفيذ وتهيئوا للتنفيذ فعلا وعينوا الأفراد الذين كانوا سيقومون به .. وإن عملية الضبط هى فقط التى حالت دون إتمام المؤامرة .

٢ - السبعة المتهمون الأول هم الذين كانوا يتزعمون التنظيم كله ويقودون حركته .

□ ولهذا فقد حكمت المحكمة عليهم - طبقا لنص المادة ٨٧ عقوبات التى تقضى بالإعدام على من ألف عصابة مسلحة لقلب نظام الحكم بالقوة أو تزعمها أو تولى فيها القيادة .

□ وحكمت على ٢٥ - منهم ثلاثة هاربون فى السعودية صدرت الأحكام عليهم غاييا - بالأشغال الشاقة المؤبدة طبقا لأدوارهم الفرعية فى قيادة التنظيم التى تلى دور مجلس القيادة مجتمعا .. وهم : عبد المجيد الشاذلى ، مبارك عبد العظيم ، فاروق المنشاوى ، فايز اسماعيل ، ممدوح الديرى ، محمد أحمد عبد الرحمن ، محمد عبد المعطى إبراهيم ، محمد المأمون زكريا ، أحمد عبد العزيز سلام ، السيد سعد الدين الشريف ، إمام عبد اللطيف غيث ، كمال عبد العزيز سلام ،

فؤاد حسن على ، محمد أحمد البحيرى ، حمدى حسن صالح ، مصطفى الخضيرى ، السيد نزلى عوضين ، مرسى مصطفى مرسى ، حلمى صادق حتوت ، عبد المنعم عرفات ، محمد عبد الفتاح الشريف . السيدة : زينب الغزالى الجبلى التى دعت إلى التنظيم وعملت على تجميعه وأمنت له اجتماعاته حتى تم تشكيله .

الهاربون : محبى الدين هلال ، عشاوى سليمان ، مصطفى العالم .

□ وحكمت على الباقين كل طبقا لدوره فى قيادة التنظيم الذى يجىء فى الترتيب بعد دور مجلس القيادة ودور القواد الفرعيين :

محمد عبد المنعم شاهين : أشغال شاقة ١٥ سنة .
عباس السيسى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد بديع سامى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
جلال بكر الديساوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
صلاح محمد خليفة : أشغال شاقة ١٥ سنة .
إلهام عبد المجيد بدوى : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمد عبد المعطى عبد الرحيم : أشغال شاقة ١٥ سنة .
محمود أحمد فخرى : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
محمود عزت ابراهيم : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
صلاح محمد عبد الحق : أشغال شاقة ١٠ سنوات .
والأشغال الشاقة لمدة ١٠ سنوات على حميدة قطب شقيقة

سيد قطب ورسوله إلى التنظيم ورسول التنظيم إليه طوال فترة الاتصال التى تمت به وهو فى السجن ، وحاملة الأوامر بتعيين نائيه وبدء الضربة الشاملة عند ما أعطى إشارة تنفيذ المؤامرة ثم سافر إلى رأس البر .

كذلك قضت المحكمة بمصادرة كل المضبوطات المتعلقة بالجريمة .

كل متهم يسمع الحكم على انفراد (عنوان جانبي)

وكانت المحكمة - المشكله من اللواء أحمد وحيد الدين حلمي عضو اليسار في الدائرة الأولى نائباً عن رئيسها د . الرائد عز الدين رياض نائب الأحكام والأستاذ حسن جمعة رئيس النيابة المنتدب - قد دخلت غرفة الاجتماعات بجناح نيابة أمن الدولة العليا في مبنى مجلس قيادة الثورة القديم في الساعة العاشرة والرابع صباحاً حيث أعلن اللواء أحمد وحيد « فتح الجلسة لإعلان الأحكام » وبعد ذلك نودي على المتهمين الذين كانوا في القفص داخل قاعة الجلسات - ماعدا زينب وحميدة فكانتا في غرفة المتهمين - فجاء المتهم الأول وتلا عليه الرائد عز الدين رياض الحكم وانصرف .. وهكذا تم إعلان جميع المتهمين كل على حدة . وكان نائب الأحكام يقرأ من دوسيه في يده يضم الأحكام والتوقيع عليها بالتصديق وفي الساعة العاشرة و ٤٥ دقيقة انتهى إعلان الأحكام فأعلن اللواء حلمي « قفل الجلسة » وفي نفس الوقت الذي كانت تعلن فيه الأحكام .. كان أمناء سر النيابة يحررون الخطابات الخاصة لكل متهم والتي تتضمن الحكم عليه .. ثم يسلمونها لرجال الأمن المرافقين له فيصحبونه إلى السيارة الخاصة به .

ولقد كانت هناك سيارة خاصة بالسبعة المحكوم عليهم بالإعدام .. توجهت بهم إلى سجن الاستئناف في باب الخلق ووضعوا كل منهم في زنزانة خاصة - وفقاً لنظام السجون . كذلك كانت هناك سيارة تقل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة اتجهت بهم إلى أبو زعبل وطرة .

وكانت هناك سيارة تقل زينب الغزالي وحميدة قطب .
وتوجهت بهما إلى سجن النساء فى القناطر .

وفى أعلى منتصف الصفحة الأولى من جريدة الأهرام
العدد المشار إليه كانت صورة لسيد قطب ومن معه وهم فى
لحظة الاستماع إلى الأحكام كما كتب تحت الصورة ، ومن
شاء فليرجع إلى الصورة ، هدوء وثقة وبشاشة . وسلطان
الظلمة يخيم على سماء مصر ، حتى يأخذ الشهداء طريقهم
إلى الجنة .

تم هذا تحت عين وبصر رجال الفكر والقانون والكتاب
والصحفيين والمدرسين والأطباء وكل أفراد الشعب ، ولم
يفتح واحد فمه احتجاجا . وتنصف الجريدة فنجدها مليئة
بالتفاهة والركاكة والسخافات وفى الصفحة رقم ٩ نجدهم
يذكرون الناس بالكاذيب التى رَدُّوها عن الإخوان من قبل ،
المتفجرات المزعومة ، ونسف الكبارى ، وهدم مطار
القاهرة ، وأشياء كثيرة مضحكة ، وزجاجات الكولونيا ٥٥٥
التي قالوا عنها متفجرات وصوروها .

ولا يوجد اسم كاتب واحد فى هذا العدد إذا استثنينا محمد
حسنين هيكى فى أول صفحة ، واسم كمال الملاخ فى آخر
صفحة .

مولد وصاحبه قد مات .

وما فات فأت وكل ما هو آت آت

عملية اغتيال غير إنسانية ، وتعذيب بشع ، وإجرام تعدى
كل الحدود تمارسه الدولة على مجموعة من الناس العزل من
السلاح ، تحت نظر الدنيا جميعها وبصرها ، وبإشراف
صحافتها ، ولا يرتفع صوت ، ولا يتحرك قلم .

أما أخبار اليوم ففى عددها الخاص بتاريخ ١٩٦٥/٩/٢٥
فكانت عناوينها كالتالى :

قنابل تحت الأرض

تعليمات سرية للإرهابيين : انسفوا شوارع القاهرة .
وحكمة اليوم على يمين الصفحة :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » صدق الله
العظيم

وتحت خبر اليوم على يسار الصفحة :
« قال الخبراء إن المفرقات التى ضبطت مع الجماعة
الإرهابية تعتبر الأولى من نوعها فى علم الجريمة ، يقوم
الخبراء فى الوقت الحاضر بدراسة تركيب هذه
المفرقات » .

وتحت هذا كله :

تفاصيل الخطة الرهيبة لتفجير مفرقات داخل مواسير
المجارى - (عنوان على سطرين) -
« أعدت جماعة الإرهابيين خطة كاملة لنسف شوارع
القاهرة . تم ضبط كميات ضخمة من القنابل شديدة الانفجار
والمفرقات كان الإرهابيون ينوون وضعها فى مواسير
المجارى التى تمتد تحت شوارع القاهرة . وضعوا خططاً
لتفجير مقاطع الطرق الرئيسية والبيادر الكبرى .

صدرت التعليمات السرية للإرهابيين بنسف الشوارع عند
بداية المؤامرة . قالوا لهم : إن عملية نسف الشوارع بالقنابل
والمفرقات ستؤدى إلى قطع المواصلات . وبذلك يصبح فى
وسعهم السيطرة على الموقف والتسلل إلى الحكم » .
ثم مزيد من هذا الهراء .
وعמוד على يمين الصفحة الأولى تحت عنوان « هذا العدد »
غير موقع ، ولا يوجد توقيع واحد فى هذا العدد :

« لأول مرة فى تاريخ الصحافة العربية يشترك أكثر من ١٠٠ محرر فى تغطية قصة صحفية واحدة كبيرة ، إنها قصة الظلام والإرهاب والرجعية والخيانة والاستعمار ، قصة جماعة الإخوان كانت البداية بسيطة .. إجماع رائع من محررى صحف ومجلات أخبار اليوم على ضرورة مساهمتهم فى كشف الخيانة كاملة للرأى العام .. وتبلور هذا الإجماع الحماسى الرائع فى ضرورة إعداد ملحق خاص كبير يكون سجلا يقدمونه للشعب .. ويرسمون به الصورة الحقيقية لهذه الجماعة الخائنة بلا انفعال .

ومضت أيام طويلة من العمل المرهق قبل أن يعودوا ومعهم الفصول الأخيرة من القصة الطويلة الدموية .

إن الصحفيين فى أخبار اليوم وهم يقدمون للشعب هذا الجهد المتواضع يؤكدون فى نفس الوقت الدور الحقيقى الذى تقوم به الصحافة الاشتراكية نحو الشعب .. مالكةا وصاحبها ومعلمها الكبير . »

هكذا .. ولأحد يعرف من الخادع ومن المخدوع . دار صحفية كاملة بجرائدها ومجلاتها ومائة من المحررين النابهين يعدون عددا خاصا ليس فيه كذب فحسب ولكن احتقار واستهانة بعقل كل من يقرؤه .
وعنوان كبير فى الصفحة الأولى :
« قررتوا اغتيال أم كلثوم لأن لها معجبين من الرجال .
كانت جماعة الإرهابيين والسفاكين تزعم اغتيال محمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ والسيدة ام كلثوم . ولما سئل سيد قطب عن السبب قال :
- حكم القرآن .
ولما قيل له :

- وهل يوجد فى القرآن ما يوحى باغتيال واحدة مثلاً كالسيدة أم كلثوم ؟

قال :

- طبعاً لأن لها معجبيين من الرجال .

هكذا كان الحوار - كما زعمت الجريدة ومحررها الذى لم يوقع اسمه ولعله موسى صبرى - مع العلامة الشهيد سيد قطب صاحب ظلال القرآن والعدالة الاجتماعية فى الإسلام ، وخصائص التصور الإسلامى ومقوماته وحياته التى أفناها فى العلم والتعليم والجهاد فى سبيل الله ، ولكنهم يكتبون ولا يوجد من يرد عليهم ، فى زمن غاب فيه الرجال .
وصورة فى منتصف الصفحة للعالم الشهيد سيد قطب وتحتها :

« كان سيد قطب قد سافر إلى أمريكا بدعوة شخصية . وعاد الإرهابى إلى القاهرة بعد أن أمضى سنة كاملة هناك .. وفى القاهرة نشر الإرهابى الإخوانى بعد عودته كتاباً يهاجم فيه الاشتراكية العربية بدعوى أنها تتعارض مع الإسلام » .
هكذا .

والمعروف أن الشهيد سيد قطب اعتقل وسجن فى مطلع عام ١٩٥٤ وظل مسجوناً حتى غادر السجن قبل اعتقاله مرة ثانية وإعدامه فى عام ١٩٦٦ .

والمعروف أن الاشتراكية العربية ولدت أثناء سجنه .
والذى أعرفه أن له كتاباً يهاجم فيه الرأسمالية نشر قبل حركة الضباط عام ١٩٥٢ .

ولكن لا يوجد من يرد .

ونصف العدد صور للإخوان وسب فيهم .
والنصف الآخر صور للزعيم الملهم وشكر الله على نجاته .
هكذا كانت الصحافة فى تلك الأيام الصعبة .

ونعاقب من أو نلقى باللوم على من ؟

أمر بالغ الصعوبة شديد التعقيد .
وقبل أن أترك هذا الفصل أود أن أنقل جزءاً من مقال الأستاذ
محمود عبد المنعم مراد فى مجلة أكتوبر العدد ٤٤٩ الصادر
فى ٢ يونيو ١٩٨٥ تحت عنوان « للتاريخ فقط » :

« هذه قصة جريدة ، أروى بعض فصولها للتاريخ فقط
دون مجاملة لأحد ، ولاتجن على آخر . فى يوم السبت
الماضى ، أصدرت المحكمة الإدارية العليا حكمها النهائى فى
القضية التى رفعها ورثة المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتح ،
صاحب جريدة المصرى ، والتى طالبوا فيها برد ممتلكات
مورثهم ، من أراض وعقارات ومجوهرات وأموال ، كما
طالبوا فيها بإلغاء القرار الذى صدر بسحب ترخيص جريدة
المصرى . والشق الأول من المطالب ، لايعنينا هنا كثيراً ،
إلا أن نقول إن المحكمة قضت برد بعض الأموال
والممتلكات ، والتحف التى لم يعرف حتى الآن مصيرها ،
ومنها لوحات فنية أصلية موقعة من كبار الفنانين العالميين
الذين رسموها ، وسجاجيد غالية الثمن ، وأطقم للمائدة
مصنوعة من الذهب الخالص تقدر قيمتها الآن بملايين
الجنيهات ، ولكن الذى نريد الحديث عنه هو الصحيفة . وقد
بنى الورثة مطالبتهم بإلغاء قرار سحب الترخيص بناء على
مانشرته الصحافة المصرية عقب إغلاق الجريدة بأنه صدر
قرار بسحبها ، ولكن المحكمة التى أصدرت الحكم بعد
منازعات قضائية استمرت أكثر من ثلاثة عشر عاماً ، انتهت
إلى أنه لم يثبت صدور قرار بسحب ترخيص المصرى ، ومن
ثم فهى لا تستطيع أن تحكم بإلغاء قرار لم يثبت صدوره .
وقد كنت شاهداً على الأحداث التى أدت وانتهت إلى

إغلاق الجريدة . التي كانت فى ذلك الوقت أوسع الصحف العربية انتشارا فى العالم كله . فى مساء الثالث من مايو سنة ١٩٥٤ ، فوجئنا بعدد كبير من ضباط وجنود الجيش والشرطة يقتحمون مبنى الجريدة وأمرونا جميعا بمغادرته ، وكان مقرها مكونا من مبنيين أحدهما للإدارة والآخر للتحرير ، وبينهما حديقة صغيرة كنا نوقف فيها سيارتنا الخاصة . وعندما أردت الخروج بسيارتي استوقفنى أحد الضباط ، وأراد أن يحجز السيارة ليتم التحفظ عليها ، مع كل ما فى الجريدة من أدوات وآلات ومكاتب ... الخ ، وبعد مناقشات طويلة ، وبمقتضى ترخيص السيارة الدال على أنها ملك خاص لى ، وليست ملكا للجريدة ، خرجت بها ، وأوقفتها على بعد أمتار من المبنى ، ولم أعرف إلى أين أذهب ، كنت قد قضيت فى هذه الصحيفة ثماني سنوات كاملة ، لم آخذ فيها إجازة ، ولم أعد إلى بيتى خلالها قبل الفجر ، أو قبل الصباح بعد شروق الشمس .

وفى تلك الليلة لم أستطع أن أعود إلى البيت بحكم العادة ، فجلست على الرصيف ساعات ، لأدرى ماذا أفعل ، وكان لابد من الجلوس على الرصيف ، حتى يكون التعبير حقيقة لامجازا .

ولم يكن لأحد فى ذلك الوقت أن يتساءل عن السند القانونى لإغلاق الجريدة ، ولأعن الأسباب التى أدت إلى إغلاقها . فقد كان إغلاقها أمرا متوقعا . وكانت الأحوال فى ذلك الوقت لا تقتضى مبررا قانونيا ، ولاحتى مجرد صدور قرار بالإغلاق . يكفى أن يصدر الأمر الشفوى فتتحرك القوات ، وتطرد المحررين والعمال ، وتضع الأختام بالشمع الأحمر على الباب . وينتهى الأمر عند ذلك .

وكانت جريدة المصرى هي أول جريدة أيدت الثورة ، من أول لحظة ، ومازلت أذكر أنني كنت فى الإسكندرية ليلة ٢٣ يوليو ، أجلس مع الأستاذ أحمد أبو الفتوح رئيس التحرير فى مكتب الصحيفة مع بعض الزملاء الآخرين ، وعند ما هممت بالإنصراف طلب منى أن أبقى لأنه ينتظر أحداثا هامة ، وبالفعل بقيت معه جزءا من الليل بمكتب الجريدة ، والباقي بمسكنه بسيدي جابر ، حتى سمعنا أول بيان للثورة يلقيه أنور السادات ، وبمجرد انتهاء البيان ركبنا السيارة ، وبعد ساعتين وصلنا إلى مقر الجريدة فى القاهرة ، وحاولنا إصدار ملحق نعلن فيه النبأ .

وفى الفترة من ٢٣ يوليو إلى أول مارس ١٩٥٤ ، كان الخط الأساسى للجريدة ، هو تأييد الثورة تأييدا مطلقا ،

ولكن هذا لم يمنعنا من التعبير عن بعض آراء تخالف ما رأته القيادة فى ذلك الوقت . وفى مارس حدثت الأزمة المعروفة بين الرئيس السابق اللواء محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وأدى الخلاف إلى التظاهر بالرضوخ لما طلبه محمد نجيب من إلغاء الرقابة على الصحف ، والعودة إلى الديمقراطية والحياة الحزبية ، فأيدت الجريدة موقف محمد نجيب ، وفتحت صدرها لكل من يريد أن يكتب كما يشاء أن يكتب ، ويدعو إلى عودة الجيش إلى ثكناته ، وتولى المدنيين السلطة ، والسماح بتكوين أحزاب ، ووضع دستور جديد ، وانتخاب مجلس برلمانى ، إلى آخر ماطلبتة الجماهير الشعبية .

وبالرغم من أن القرار المعلن كان فى جانب تلبية مطالب الشعب فإن جريدة الجمهورية التى كان قد أنشأها جمال عبد الناصر منذ فترة ، وكان يشرف عليها أنور السادات فى ذلك الوقت ، كانت تعبر عن وجهة نظر أخرى مخالفة

للقرارات المعلنة في مجلس قيادة الثورة . وفي ٩ مارس ١٩٥٤ نشرت جريدة الجمهورية مقالا طويلا ، قرأته فكتبت ردا عليه ، نشر بالمصرى في ١٠ مارس ١٩٥٤ بعنوان (دفاع من الشعب) قلت فيه : وهل الشعب فى حاجة إلى دفاع ؟ أجل إن الشعب المصرى المفترى عليه ، فى حاجة إلى دفاع طويل ، وبخاصة فى هذه الأيام ، ففى المقال الافتتاحى لصحيفة الجمهورية الصادرة أمس ، عبارات تستوقف النظر وتستحق التعليق جاء فى هذا المقال : (كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، وقد طردت الثورة الملك وحررت الشعب .. وكان الشعب أكثر عبودية لسادة الإقطاع وضياح المظالم ، وقد حددت الثورة الملكية وسوت بين الإقطاعيين وغيرهم وقضت على أسباب الظلم . وكان الشعب مسخرا لخدمة حفنة من عبيد الإقطاع ومستغلى الجاه باسم الأحزاب ، وقد ألغت الثورة الأحزاب وقضت على المهرجين السياسيين والوصوليين والانتهازيين والمحاسب والأصهار .. كان الشعب تحت حكومة فاسدة ، وقد ظهرت الثورة الأداة الحكومية ، وطردت المرتشين والمستغلين ، وتركت الثورة الشعب حرا طليقا ، من كل قيد ، إلا ضميره ومصلحته وحقوق بلاده .)

ذلك بعض ماكتبته الجمهورية فى مقالها الافتتاحى أمس ، وقد يكون بعض هذا الكلام صحيحا لاختلاف عليه ، فالثورة طردت الملك ، وحددت الملكية ، وألغت الأحزاب ، ولكن هل كان الشعب كله عبيدا لملك طائش ماجن ، أو كان هذا الشعب يكافح طغيان الملك ومجونه ، فيصوب الرصاص إلى صدره ويلقى بأفراده فى غياهب السجون ؟ هل كان الشعب عبيدا وهو الذى هتف بسقوط الملك وهو جالس على عرشه يحميه الحرس والبنادق والمدافع السريعة الطلقات ..

لم يكن الشعب كله عبيدا ، فالعبيد هم الذين يرون الظلم ويرضون به ، ويتعرضون للطغيان ويحمونه ، ويشاهدون الفساد ويتسترون عليه ، ولم يكن الشعب راضيا بالظلم ولاصامتا للطغيان ، أو مستترا على الفساد . بل كان الشعب فى كل آونة أيبا يكافح وهو أعزل ، حرا يكافح الطغيان بالروح ، كريما يهاجم الفساد بالقول والعمل .. إلى آخر ماجاء بهذا المقال الطويل الذى لايتسع المجال هنا لنشره ، والذى كان بداية لمعركة حامية ، حتى انتهت الأزمة بما يعرفه الكثيرون ، من اعتقال محمد نجيب ، وإعادة فرض الأحكام العرفية ، والرقابة المشددة على الصحف وتلا ذلك تقديم صاحب جريدة المصرى إلى محكمة الثورة ، وصدور حكم المحكمة عليه وفقا لما أملاه عبد الناصر نفسه ، كما شهد بذلك عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته .

وتم إغلاق الجريدة ، ثم اعتقلت مع الآلاف ، وبقيت فى المعتقل من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٦ ولأريد أن استطرد فيما نالنى أثناء ذلك وبعد ذلك من ضروب القهر المادى والنفسى والحرمان من العمل والمنع من السفر فليس هذا وقته ولامكانه ، ولكنها مجرد ذكريات خاطفة أثارها حكم المحكمة الإدارية العليا ، بعد ٣١ عاما من إغلاق الجريدة التى كانت تهاجم حكومات الوفد قبل الثورة فى كثير من المناسبات ، رغم أنها كانت تحمل شعاره . انتهى .

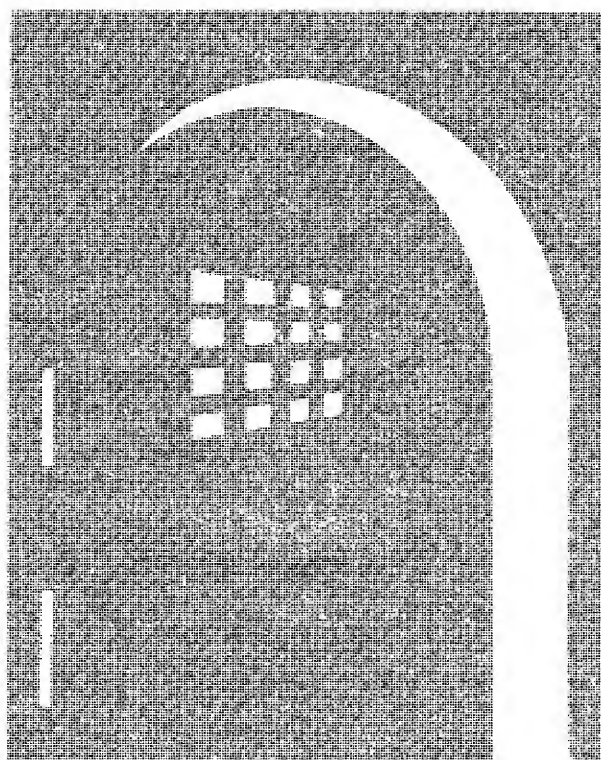
صحافة تركها الأحرار وبقي فيها العبيد ماذا ننتظر منها ؟
ليس غير ماحدث بالضبط .

الطبل والزمر وإقامة السيرك وملاهيهِ ليلحقوا الهوان بالفكرة
وأصحابها والكذب والغش والنفاق والدجل ، وكل يحاول
أن يخدم السلطان وأن يلحق حذاء أقل خادم عنده .

والسلطان عظيم مهاب يدوس الجميع بالأقدام ، ويمشي
على تاريخهم مستهزئاً ، ولو استطاع مشى على الأهرام .

الفصل السادس عشر

الخروج من الحربى إلى أبى زعبل



نادوا علينا فى صباح يوم حار من أيام شهر مايو عام
١٩٦٦ ، وعرضونا على الطبيب للكشف الطبى ، وكان
يسألنا :

— هل هناك إصابات بالغة من التعذيب ؟

وكان الجميع يجيب بـ « لا » ، رغم شدة الإصابات وكثرة
الجروح ، فقد سرت شائعة مؤداها أن المصاب لن يفرج عنه
قبل أن تلثم جراحاته ، وأغلب المعتقلين مصاب بجروح
تحتاج إلى سنوات للالتئام . وقال واحد ساخرا :

— إن أخذوا بهذه الحكمة فلن يفرجوا عنا فى هذا
القرن .

وانتهى الكشف الطبى وعدنا إلى الرنازين نتقلب مع
الظنون . فقد انتهت المحاكمات ، وصدرت الأحكام ،
وبقى من لم يحاكم ، فتساءلنا ترى ماذا سيفعلون ؟ هل
ينفذون الأحكام فيمن صدرت ضدهم ويفرجون عن الباقين
أم يفرجون عن الجميع ؟ وكان الناس يميلون إلى الفرض
الآخر ، فهى قضية سياسية ملفقة ، وقد أدت الغرض منها ،
والشعور العام داخل مصر ملئ بالغضب والسخط ، فقد
كانت النذر والسحب السوداء تتجمع ، فماذا لو أحدثوا شيئا
من المصالحة الوطنية ، وضمّدوا الجراح وواسوا الناس ،
وجميعهم مصاب ، فهناك من قتل فى اليمن ، وهناك من قتل
فى السجن ، وهناك من بقى رهن الاعتقال ؟

وكان حكماء الإخوان يقولون بغير هذا ، ويؤكدون أن
إرادة الحكومة المصرية غير مستقلة ، وأنها تنفذ دورها فى
مخطط مرسوم متفق عليه بين قوى متضادة متصارعة ، قد

اتفقت جميعها على إنهاك الشرق الإسلامى والقضاء على أى بذرة للإصلاح ، وأدواتهم فى هذا حكومات عميلة ، لايمكنها البقاء فى مناخ حُر ، فالقمع والضرب والقهر والاعتقال هى الأدوات الوحيدة للحياة ، وهم يقومون بدورهم فى المخطط ليس تنفيذا لما يراد منهم فحسب ، ولكن لأن فى هذا بقاءهم ووجودهم .

وكان حكماء الإخوان يشرون بمحنة قاسية واعتقال طويل ، ويتوجسون من تحرك لإسرائيل ويقول لهم قائل :
— وهل تتحرك إسرائيل ؟
ويجيب الحكماء :

— كل ما يحدث فى الشرق الإسلامى وفى مصر بصفة خاصة ترتيبات محددة مدروسة حتى تصبح إسرائيل أعظم دولة فى المنطقة .

— وهل يدرك حكام مصر هذا ؟
— ولماذا لا يدركون ؟ هم يعلمون جيدا ماذا يفعلون .

ونعود إلى أفكارنا نجترها فى صمت هو أبلغ من الكلام .
وفى صباح يوم آخر كان وداعٌ قصيرٌ حارٌ مؤثرٌ بين من نادوا عليهم للخروج وبين من بقى لتنفيذ الأحكام .
وغادرنا السجن الحربى وكنا خمسة أشخاص أذكر منهم أحمد جبريل ، وأحمد جاد وأحمد توفيق وكاتب هذه السطور وأحمد (خامس) لا أذكره ، فقد كانوا يقومون بترحيلنا حسب الحروف الأبجدية .

وأخذتنا سيارة الترحيلات إلى معتقل القلعة السياسى ،
وكنا نظن أننا ذاهبون إلى البيوت . وقالوا لنا: أيام تتهيئون فيها
ثم تذهبون إلى بيوتكم .

وكان خمستنا فى سعادة وسرور لم تنغصه غير ذكريات
حزينة عن الذين تركناهم فى معترك العذاب بالسجن الحربى .
وكان عزاؤنا أنهم سيذهبون بهم إلى الليمانات لتكسير
الأحجار فى وهج الشمس بعيدا عن الحربى .

وجلس خمستنا فى تلك الزنزانة الواقعة فى مدخل البوابة
نترقب ونتحدث . ويدور الحديث عن المحكوم عليهم
بالموت ، أولئك المجتمعون فى الحربى . ويدور الحديث
عن الذين ماتوا أمام أعيننا ضربا بالسياط . ويقول واحد :

— لقد رأيت بعينى الشهيد محمد عواد وهم يقتلونه عند
الفسقية .

وتذكرت المرحوم عبد الفتاح اسماعيل وكنت قد التقيت
به جلسة فى دورة المياه بالحربى . وقال لى :
— لقد أستشهد أمامى أحمد اسماعيل الفيومى دون أن
ينطق بكلمة واحدة السجن هو مدرسة المسلمين ، واختبار
المؤمنين ، وشهادة الصادقين .

ويقول قائل :

— ولكن الأمور استبانت وعرفوا أن ليس هناك مؤامرة ،
وأن الجميع أبرياء وكوننا نجتمع فى عرس أو عزاء ليس معنا
مناهضة الدولة .

ويرد عليه الآخر ساخرا :

— وهل نحن حقا لا نناهض الدولة .

ويرد عليه معتذرا :

— ليس هناك من الأعمال ما يمكن أن نحاسب عليه .

ويقول أكبرنا سنا مستسلما :

— هي حسابات دولية يقوم على تخطيطها اليهود
والشيوعيون ، ويأمرون هؤلاء الأقزام بتنفيذها .

ويطرق باب الزنزانة ويدخل عسكري شرطة بشوشا
لايسب ولا يلعن ويقدم لنا شيئا من الجبن والعسل الأسود
والخبز المعجون بالتراب .

مكثنا ثلاثة أيام فى معتقل القلعة ، استبطأنا فيها الإفراج ،
وكنا نسأل المخبرين ، فيوصوننا بالصبر ، ويؤكدون أن
كشف الإفراج قد ذهب للسيد وزير الداخلية لاعتماده وهو
معروض عليه فى البريد ، وقد ذهب الكثير ولم يبق إلا
القليل ، فنجد الكلام مقنعا ومعقولا فنعود إلى الصلاة
والأحاديث المختلفة ، ويكفى أن ليس هناك ضرب أو
عذاب .

وفى نهاية الأيام الثلاثة دخل علينا مخبر سمين كرية الوجه
ونادى على أسمائنا وطلب منا تسليم العهدة التى أخذناها يوم
جننا ، البطانية والملعقة والقروانة وطبق العسل الصغير وبدلة
الخبش التى لازمنا ، حيث نتركها فى مكان ونسلمها فى
آخر .

وسأل واحد منا عظيم المخبرين :

— ما القصة ؟ هل هو الإفراج حقا ؟

وأجاب الرجل بوجهه الثعبانى وسحته الكريهة التى بدت
جميلة فى أعيننا :

— وهل تشكون فى هذا ؟ إلى لاطوغلى فتكتبون إقرارا بعدم العمل فى السياسة ، ثم تأخذون درسا من سيادة المدير ، وتذهبون إلى بيوتكم معززين مكرمين بسيارات المباحث كما جاءت بكم .

* * *

وعلى باب معتقل أبى زعبل السياسى أنزلونا ، وخيبة الأمل تملأ وجوهنا المتعبة .

وقال مخبر فى عدم اهتمام :

— لم يوقع سيادة الوزير بالاعتماد على كشف الإفراج .

وتسلمونا فى المعتقل بنفس الاجراءات التى نسلم بها فى كل معتقل نذهب إليه ، وسعدنا بوجوه حبيبة قد تركناها منذ زمن ، عندما كان الجميع يعذبون فى (المحمصة) فى صيف عام ١٩٦٥ تحت إشراف العميد أحمد رشدى أثناء المباراة الساخنة التى كانت بينه وبين العقيد شمس بدران .
قد ذهب العذاب والتأمت الجراح ، وارتدى الجميع ثيابا بيضاء من خيش المعتقل ، وعلت رعوسهم « طاقة » كريهة المنظر قد وصفتها من قبل .

سلمونا العهدة كالعادة ووزعونا على العنابر .

وقبل أن أذهب إلى العنبر أريد أن أذكركم بالمكان .

سور له باب ، يقضى إلى فناء يقبع فيه مبنى المعتقل ، حيث باب آخر من الحديد لا يفتح إلا بإذن وحساب وتحت إشراف مسئول . وتدخل فتجد غرفة على اليمين ، وأخرى على اليسار قد أعدت لقائد المعتقل وسلم إلى اليمين وآخر

إلى اليسار ، يفضيان إلى أدوار المعتقل الثلاثة وفي الدور الأول تقوم زنازين يمين وزنازين شمال ، وموقعهما مشتق من اسمهما ، وتتأثر غرف الإدارة والمستشفى والمخازن على الجانبين . والقفص الحديدى يشمل القاعة الداخلية ، حيث تبدو كقفص القروود .

وفي الدور الثانى ستة عنابر على اليمين ، من عنبر واحد إلى عنبر ستة . وعلى اليسار من عنبر سبعة إلى عنبر رقم ١٢ . والدور الثالث كذلك .

والعنبر يتسع لعشرة ، وكان فيه عندما دخلته ستون . وصنفوا المعتقلين فى أبى زعبل إلى قسمين ، الذين تناولتهم التحقيقات وهؤلاء يقيمون فى الدور الثانى ، والدور الثالث يقيم فيه الإخوان الذين لم تشملهم التحقيقات ، وتم جمعهم حسب قرار رئيس الجمهورية فى ١٩٦٥/٩/٦ باعتقال كل من سبق اعتقاله من الإخوان المسلمين .

وأودعوني عنبر خمسة فى الدور الثانى .

ودخلت العنبر مذعورا فما زالت أصداء التعذيب تظن فى أذنى ، وتضغط على مخيلتى . ولكنى وجدت المكان مختلفا .

والتف أهل العنبر حولى ، وقدموا لى كوبا من الشاى فى علبة (سالمون) وقد نظفت وأعدت لهذا الغرض ، وكانت دهشتى بالشاى عظيمة ، وفرحتى به أكبر ، وبعد أن شربته سألت :

— هل يمكن كوبا آخر ؟

وأثوا إلى بكوب آخر ، ورأيت الحلاوة الطحينية كثيرة في الأفواه ، وفي أيديهم ، ولاتكاد تساوى شيئاً ، وجاءوني بها وأكلت منها حتى شبع . حياة تختلف تماماً عن تلك التي كنا نعيشها في الحربى .

وانهالت الأسئلة من كل جانب . وصرت أقص عليهم ما جرى ويجرى فى السجن الحربى ، والكل صامت كأن على رأسه الطير ، فقد كنا أول من يدخل إلى أبى زعبل من السجن الحربى .

وجاء دورى فى السؤال :

— ما الأحوال هنا ؟

ودارت عيناي فى الوجوه التى فاجأها سؤالى وأجاب واحد :

— سوف ترى بنفسك كل شىء على مر الشهور والأعوام .

وذهلت أيمكن أن تكون هناك شهور وأعوام ؟ ليس من إفراج إذن . وهؤلاء المخضرمون يعلمون كل شىء فقد مروا بمحن عديدة من قبل .

وكانت المعاملة دون سب أو ضرب تحتاج إلى تدريب ، فقد صار المعتقل للغرض الذى أعد له ، اعتقال صارم قاس محكوم بلوائح شديدة ، دون تعذيب بالضرب أو الكى أو التعليق .

وعندما أقول تدريب فهى كلمة دقيقة ، فالمعاملة الخالية من التعذيب والسب تحتاج إلى مران وممارسة ، فردود أفعالنا تنتمى إلى عالم السجن الحربى ، حيث كان العذاب سلوكاً

يوميا لحظيا نشعره ونعيشه فى كل لحظة من لحظات
صحنونا ، أول شىء نفتح عليه أعيننا فى الصباح ، وآخر شىء
نهرب منه عندما ننام .

وكانت تجربة الحربى فريدة من نوعها ، فقد اجتمع هناك
طوائف من جهات شتى ، قد جمع بينهم خطر الموت
المتربص فى كل زاوية ، والجوع والخوف ، فهم يتماسكون
ويتآزرون رغم اختلاف أفكارهم ورؤاهم ، لأنهم فى نسيج
واحد وفى عروة لا تنفصم .

كانت المجموعات التى يتشكل منها سكان الدور الثانى
فى المعتقل خليطاً من الإخوان المسلمين الذين أمضوا عشر
سنوات فى السجون دون أن يؤيدوا عبد الناصر ، ومن بعض
الذين أيدوه ، والجميع كما قلت قد ذكرت أسماؤهم فى
التحقيقات ، ومع هؤلاء عدد من الذين اعتقلوا عام ١٩٥٤
ولم يقدموا إلى المحاكمة آنذاك ، ثم الجيل الجديد فى قضايا
الإخوان وعلى رأسهم الذين يفدون من السجن الحربى تباعا .

وكان قدامى المعتقلين والمسجونون المقيمون فى أبى
زعل أصحاب التجارب السابقة المريرة ينظرون فى توجس
وقلق إلى المعتقلين القادمين تباعا من الحربى ، فهم بناورون
الحكومة مناورة محكمة ، مدارها أن جماعة الإخوان
المسلمين قد انتهت ، والموجودون أفراد عاديون لا يتميزون
إلا بتاريخ قديم يريدون من الحكومة أن تنساه ، وفى سبيل
هذا يتظاهرون بأشياء كثيرة لا يعتقدونها ، ويخبرتهم الطويلة
استطاعوا أن يقدموا أداء رائعا فى هذا المضمار بتفاهم لم
تكتب شروطه ولم يحدث بشأنه اتفاق .

وكانوا يسلكون وفق هذا وبالنفوس ما بها من فكر راسخ
مستقر لا يتغير ولا يتبدل ، ومع توالى الأيام والأحداث أكدت
لهم الظروف مدى صحة نظريتهم ، وحكمتهم فى هذه
التصرفات ، وكان تخوفهم شديدا من المعتقلين الجدد ، فهم
لن يمكنوهم من خداع الحكومة بالقدر المناسب الذى يسمح
بالإفراج عنهم .

خبرة طويلة فى عالم السجون والمعتقلات ، وعلم
بأساليب الحكومة ، ووعى بالإعصار العاتى المدمر ، وانحناء
الرءوس قليلا سوف يجعل كل شئ يمر بسلام ، ولاشك
أن خوفهم كان شديدا من هؤلاء الجدد فقد يفسدون
المخطط الإخوانى الذى بدأ بغير إعلان ، ولم يكن من السهل
أن تنقل خبرة سياسية لها عراققة وتجربة إلى شباب حديثى
عهد يمثل هذه المناورات فى وقت يسير . ويبدو أن الإخوان
قد أملت عليهم الظروف استخدام « التقية » فى التعامل مع
القوى العاتية المناوئة لهم ، ولعلمهم كانوا مجبورين على هذا ،
فهناك عدو شرس لا يقبل منهم بغير التنازل عن أفكارهم
وأهدافهم ، ولم يكن هذا فى وسعهم ، فليس أمامهم غير
التظاهر بالاستجابة ، وبنفوسهم ما بها من اعتقاد .

هذه هى ملاحظاتى فى تلك الأيام بمعقل أبى زعبل
السياسى .

وقد أكدت الأحداث التى توالى صحة هذه الملاحظات .

وبعثرت المباحث الوافدين الجدد فى العنابر المكتظة
بالإخوان ، وبدأت فى تنفيذ برامجها الخاصة بغسيل المخ
والتخلى عن الأفكار ، ومن الخطوات المطلوبة أن يعيش
الستون أو السبعون المجتمعون فى العنبر حياة انفرادية ، تحت
ضغط التخويف بعدم الإفراج ، أو الإرسال إلى معتقل القلعة

للتعذيب من جديد . فعلى كل واحد فى العنبر أن يعيش وحده ، يأكل وحده ، ويصلى وحده ، ويفكر وحده ، ولا يتعامل مع أحد ، وإن أراد أن ينسجم مع إرادة الحكومة فعليه أن يثير المشاحنات والمشاكل والمشاجرات مع من فى العنبر من معتقلين ، وكان هذا أمراً بالغ الصعوبة ، بل هو فى حكم المستحيل .

كان العنبر مغلقاً على من فيه طول اليوم والليلة ، ومن فيه يجلسون متلاصقين بالنهار، وينامون كذلك ، فكيف يتأتى أن يعيش كل فرد وحده ؟

الصلاة فى جماعة أمر لا مفر منه .

الأكل فى مجموعات شكل تملية الظروف .

وبعد ذلك ، ليس غير المصحف الذى دخل للناس خلسة من رواء القضبان . لاكتب لا صحف لا أى شىء .

ليس هناك غير حفظ القرآن ، واحد يقرأ ، والآخر يراجع عليه ، وينبهه إلى الخطأ إن وجد .

حياة جماعية يصعب حلها ، فالآخرون يحيطون بالآخرين ، ولا يتركون لفرد فرصة للوحدة أو الانفراد ، فالكمل يعيشون معا ولا يفترقون إلا ساعة النوم ، ولا تتحقق عزلة إلا فى دورة السياه أو بالغيوبة ، ويبدأ الاندماج مع الصحو واليقظة ، ومع أذان الفجر يبدأ المعتقلون يومهم الجماعى الطويل .

* * *

وعنبر خمسة شأنه كسائر عنابر الدور الثانى من الإخوان بتصنيفاتهم المختلفة ، والجميع يتظاهرون بالانسجام مع مخططات الحكومة المعلنة والتى تهدف إلى القضاء على

روح الجماعة بين هذا الجمع من الناس . وجميع الأحاديث السرية الخفية التي تدور همسا بين الأفراد وفي غفلة عن الرقباء، تؤكد أن هذه الجماعة لن تموت ، وكان من العبث محاولة نزع أفكار قد استقرت في دعوس أصحابها عشرات السنين ، وصارت تمثل جهادهم وكيانهم ، مهما كانت بشاعة الاعتقال والتعذيب الوحشي ، ربما يتظاهرون بالموافقة والاستجابة ، ولكن ليس أكثر من التظاهر فقط .

كانت الحكومة تعمل غسילה لمخ المعتقلين في مخطط لم ينجح ، فهم لم يكونوا يستخدمون ذلك المنهج بالدقة والعلمية المطلوبة لتحقيق الأهداف ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة منها جهل القائمين عليه ، الجهل بصفة عامة ، وعدم الإخلاص ، وعدم الأمانة للنظام ، وهي صفات غرسها فيهم النظام الموجود ، وكان إخلاصهم مرتبطاً بالرواتب التي يقبضونها ، وبالمزايا التي يسرقونها ، وهي قليل في نظرهم إلى جانب ما يتصورون أنه مطلوب منهم ، فهم « الفتوات » الذين يحملون الهراوات لحماية « المعلم » ، وهم الذين يلفقون القضايا لأعدائه ، وبغيرهم لا يستطيع الحياة ، وفي سبيل الوجود فقدوا المروءة والشرف والمثل الأعلى ، ويفرح « الزعيم » عندما تصله الأخبار عن سفالاتهم وسرقاتهم فهي السبيل الوحيد للارتباط به والمحافظة عليه .

حتى الأفراد الأكثر تقدما في المنهج ، والذين يعاونون الحكومة في تحقيق أهدافها ، كانوا يفيضون غلا وغیظا ، ويصرخون في كثير من الأحيان أن الله سوف ينتقم منها إنتقاما مروعا في يوم ما .

وإذا كانت الجريمة محرمة على الأفراد لحماية المجتمع فهي محرمة من باب أولى على الحكومة ، ولكن المتأمل يراها قد إرتكبت كافة الجرائم التي يعاقب عليها قانون العقوبات ، الاغتصاب ، القتل ، السرقة ، التعذيب ، التجويع ، السجن والاعتقال بدون ذنب .

سرق الحكام وضباطهم الأحرار الأموال المصادرة والجواهر الكريمة والتحف النادرة ، وملئوا بها بيوتهم ، وتزينت بالمال الحرام نساؤهم ، وسكنوا مساكن السابقين وقصورهم من الذين ظلموا في زعمهم . وكان السيد على صبرى يسكن قصرا مصادرا قيمته الإيجارية — هو الذى حددها — ستة جنيهاً ، ويقدم فواتيرا شهرية للإصلاحات قيمتها مائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ، ثم يركب سيارته التى لم يخلق مثلها فى البلاد إلى معهد « إعداد القياديين فى حلوان » حتى يحاضر عن الاشتراكية ، ويتكلم عن الكفاية والعدل .

و« الزعيم الملهم » يسر من الرخاء الذى تعيشه البلاد عندما تقوم شركة مقاولات ببناء « فيلات » لكريماته ، وتخبره أن تكلفة الفيلا لا تزيد عن ثلاثة آلاف جنيه ، رغم أنها مقامة فى مساحة فدان من أرض مصر الجديدة ، ويدفع الزعيم ثمنها بالتقسيط المريح من مرتبه .

ولصوص صغار يخفون الجواهر فى ثيابهم أثناء الجرد . كانت هذه هى المثل العليا السائدة فى المجتمع ، مجموعة ساعدتها القوة والقدرة على سرقة بلد بأكمله ، ألا يدفع هذا حراسهم وفتواتهم أن يمارسوا جميع الجرائم ، وأن يملئوا بيوتهم وجيوبهم من المال الحرام ؟

وكل يسرق على قدر قيمته ، ولم يكن المعتقلون يجهلون
حقيقة جلادهم ، وكانوا يضمرون لهم احتقارا وازدراء وفهما
لطبيعتهم الإجرامية ، فيسايرونهم فيما يريدون ويدركون أن
فرج الله قريب .

ورغم كل ما جرى فى المعتقل من أمور غريبة ومثيرة إلا
أنه ظل مدرسة للترباط والوحدة والتفكير فى الأخطاء ،
وتعديل الخطط وكيفية تحقيق الأهداف .

واستمرت اللعبة قدما ، ببراعة من جانب المعتقلين ،
وبجهل وغشم من ناحية المستبدين .

والقرآن الكريم يتلى فى كل ركن وزاوية من زوايا المعتقل
العالى الجدران .

* * *

كان الأستاذ محمد ماضى إماما للعنبر ، يستيقظ للتهجد
فى جوف الليل حتى يحين موعد الفجر فيؤذن للصلاة ،
وتقف الصفوف خلفه ويصلى بالناس .

وكان يصبر على القنوت والدعاء على الظالمين دعاء حارا
من قلب مرهف ووجدان ملتهب ، يستشعر الظلم ويفهم
معناه ، ويرد عليه المعتقلون فى حرارة عقب كل دعاء ،
أمين .

وجلس أحد العقلاء إلى الأستاذ ماضى يوما وقال له :
— ياأستاذ ماضى ، مالك والظالمين ، ألا ندعهم فى
حالهم ماداموا قد تركونا فى حالنا .

ويرد عليه الأستاذ ماضى محتدا :

— وهل تركونا فى حالنا ؟

ويتطور الحوار حتى يكاد أن يفصح عن هوية الظالمين
ومن يكونون .

وهنا يتوقف الحوار ليعود بعد شهر أو شهر ونصف على
الأكثر .

وتقضى الصلاة وينصرف الناس للنوم إلا عددا قليلا
يقرءون القرآن فى دوى خافت الصوت يطوف بأركان العنبر
فى غاشية من ترديد كأنه الحلم أو أمل بعيد .

ثم يمتلىء العنبر بالضياء مع إشراقة الشمس وينهض
الجميع ، ويبدءون فى خلع ملابسهم الخارجية للتخلص مما
بها من « قمل » .

وكنت تسمع الأرقام تتردد من هنا وهناك ، خمسة ،
سبعة ، عشرة ومن آخر العنبر ينطلق صوت :

— رقم قياسى .. خمسة عشر .

ثم تبدأ المجموعات فى الاستعداد لطعام الإفطار .

والإفطار مكون من الجبن القريش ومن العسل الأسود
يوزع مرة كل عشرة أيام أو أكثر ، ويودع فى دورة المياه
حيث يكون فى متناول المعتقلين عبر « مسئول » قد تم
اختياره بشكل لا يتذكره أحد ، فهو لم ينتخب ، ولم يعين ،
بل وجده الجميع هكذا .

وكان « المسئول » عن العنبر إداريا هو الأستاذ محمد
أحمد ، فهو المتصرف فى شئون المعيشة بوجه عام ، يحدد
علب الحلوة الطحينية المطلوب شراؤها عندما يعلنون عن

ذلك ، وهو الذى يحاسب على عدد أكواب الشاى التى
تصرف مرة كل صباح وأخرى بعد العصر ، وتلك الثانية قد
سمحوا بها بعد جهاد مرير استمر شهورا . وهو الذى يفض
منازعات الحدود ، فيقوم بقياس العنبر لتحديد الستيمترات
المتنازع عليها ، فقد كان من حق كل معتقل سبعة وثلاثون
ستيمترا عرضا فى طول لايزيد عن مائة وخمسين ستيمترا ،
فالطويل يضع رجله بين رعوس جيرانه عندما ينام .

وكان محمد أحمد حكيما عاقلا فى تصريفه للأمور
بالعنبر .

وينقسم الناس فى الطعام إلى مجموعات حسب المشارب
والمعرفة وطبيعة العلاقات بينهم ، فمجموعة مكونة من خمسة
وأخرى من ثلاثة أو أربعة ، ونادرا ما تجد واحدا يأكل
وحده .

ويتولى واحد من المجموعة إعداد وجبة الإفطار من
مدخرات الأفراد من الجبن القريش والعسل الأسود وأحيانا
بعض الفول الأسود ، وهو ليس بالمدمس ، وأحيانا عسل
أبيض أو جبن « نستو » أو أى شىء يأتينا عن طريق
« الكانتين » وندفع ثمنه .

وتتحلق الحلقات للإفطار ، ويفرغون منه وينتظرون
الشاى .

ووقت توزيع الشاى من الأوقات المبهجة فى ذلك الزمن ،
وكان عبد العظيم دوح هو الذى يقوم على توزيعه عبر
العناير ، وبعد أن أفرج عنه خلفه محمد عليوه ، وكانت رؤيته
وهو قادم وفى يده إبريق الشاى الكبير تجعل المزاج يعتدل
وينسط ، والكل واقف فى طابور طويل وفى يده الكوب
الصفىحى الفارغ المصنوع من علب (السلمون) المحفوظ
ليملأه له محمد عليوه بالشاى ، ثم الذى يليه وهكذا .

وكان بعض الأثرياء يشتركون في أكثر من كوب فيملئون
(الترموس) بالشاي ويتناولونه جلسة أثناء النهار .

وقد يتأخر الشاي بعض الوقت لأسباب فنية ، فتجد جمعاً
من المعتقلين وقد وقفوا على الأبواب الحديدية ينقرون عليها
بالأكواب الصفحية ، وتنبعث الضجة من أركان المعتقل
معلنة عن « القريفة » وقلة المزاج .

وينتهى شرب الشاي ، ويعكف الناس على ما ينهضون إليه
من نشاط وأهم هذا النشاط هو غسيل الملابس في الساعات
القليلة التي يسمحون فيها بالمياه ، وذلك بعد أن يأخذ
المستول الحكومي الرشوة اللازمة وهي غالباً ما تتغير زيادة
بين اليوم والآخر .

ويقف أهل العنبر في صف وكل ممسك بدلو من
البلاستيك مختلف ألوانه ، وقد نقع ملابسه الخيشية في
المنظف ، وينتظر دوره في الدخول إلى دورة المياه الصغيرة ،
وتنقطع المياه بعد ساعة ، وينقطع الصف ليتصل بعد ساعة
أخرى ، وربما في اليوم التالي .

وكنت أغسل ملابسى في الليل ، ففيه أملك المكان
لساعات طويلة ، وبعد فترة من الوقت صار طابور الليل أطول
من طابور النهار ، واحتج زعماء العنبر وشيوخه الذين يتأمون
عقب صلاة العشاء ، فهم يريدون الراحة تمهيداً لعبادة الليل .

وعند الظهر يأتون بوعائين اسم الواحد منهما (كانتين) ،
قد امتلأ أحدهما بالفول والسوس والحصى والتراب وبعض
الحشرات ، والآخر أرزا مطبوخاً بدود رفيع ، فكنا نملأ

« القروانة » به ثم نغمرها بالماء إن وجد فيسبح الدود ، ومن ثم يمكن التخلص من معظمه ، أو تتعذر المياه فيأتى حكم الاضطرار .

ويأتون (بالحملوط) مرتين فى الأسبوع وهو نوع من الخضروات لم يعرفه أحد منا فأطلقوا عليه هذا الاسم ، ويأتون به مرة أسود وأخرى أحمر . ومن كان معه مال ، وهو يأتى من الأهل عن طريق المباحث ، فيمكنه شراء حصة مما يباع فى « كانتين » المعتقل .

وكان ما يباع فيه يتوقف على الصفقات التى يمكن أن تعقدتها الإدارة مع التجار والموردين ، فقد جاءوا مرة بكمية من البسكوت تكفى لإطعام جيش وظل الناس يشترون بسكوتا حتى ينتهى ، ومن ثم يعقدون صفقة أخرى لصنف آخر ، فهكذا كانت السياسة .

ولايجوز أن يقدم شخص طعاما هدية لآخر ، فالتكافل ممنوع والويل لمن يضبط ، ولكنه كان يتم فى الخفاء وفى تكتم شديد .

وكانت المباحث تحظر أن يشارك أحد آخرين فى طعامه الخاص ، ولم ينجحوا فى هذا لطبيعة المكان والزمان . وكان نادرا ما يأكل إنسان وحده ، وإن حدث فيأتى ذلك من الفقر الشديد أو الثراء الشديد أيضا . والله فى خلقه شئون .

وكان كل شخص يعيش داخل العنبر على بظانية من الصوف قد طويت بعرض سبعة وثلاثين سنتيمترا ، وهو كما وضعنا العرض الذى يسمح للمكان باستيعاب ذلك العدد الكبير الذى حشر فيه ، وينام الناس فى ثلاثة صفوف تعترض

طول العنبر ، وعلى الحوائط قد علقت أقفاص الجريد التي تستعمل في نقل الفاكهة ، ولكل مجموعة قفصان أو ثلاثة حسب عددها ، وفي هذه الأقفاص تحتفظ المجموعة بكافة مقتنياتها الحياتية ، فالحلاوة الطحينية ، والعجوة والبسكوت وربما علب من عسل النحل ، وبعض الجبن حسب ما يأتي ويسمح بالشراء .

وكان البعض يمزق جزءا من الملابس ليستر ما بالأقفاص فلا يرى ما بها من مظاهر الغنى والشراء الممثلة في عدد علب الحلوى وعدد باكوات العجوة ، وتقاس مكانة المجموعة وعظمة أفرادها بعدد الأقفاص التي تقتنيها .

ولست هناك ملاحظة ذات بال على العشاء فهو شبيه بالغداء ، المجموعات تأكل مع بعضها حسب النظام الذي يضعه رئيس المجموعة . وكان مسئولوا عن دوام هذه المواد الطعامية حتى تأتي الكانتين بضاعة جديدة .

وكانت فترات الشراء تتباعد ، ولا يعلم موعد الإعلان عن أطعمة جديدة ، ويبدأ تقتير رئيس المجموعة على زملائه في العجوة والحلاوة الطحينية وغيرهما ، ويزداد التقتير مع طول المدة ، وقد تنفذ هذه المواد قبل أن يأتي غيرها ، ويكون الطعام هو الرسمى الردىء الضار بالصحة الملىء بالحشرات والقذارة والميكروبات .

وأحيانا تأتي البضائع في منتصف فترة التقتير ، ويعلن أن البيع سيكون من الغد ، وفي هذه الليلة يتحول الطعام إلى مهرجان ، فيسرف في توزيع الحلوى والعجوة والعسل الأبيض ، ويكون الطعام في هذه الليلة بلا حساب .

وكانت بضائع « الكانتين » تقتصر على المعلبات أو ما

يعباً ، وقد جاهد الناس جهادا كبيرا وتكلموا مع المسئولين كثيرا من أجل السماح لهم بالخضروات الطازجة مثل الطماطم والجرجير والجزر والفلفل الأخضر ، واستعانوا بالأطباء ، واستشهدوا بحالات المرض التي انتشرت نتيجة لنقص الفيتامينات ، ولعلمهم لم يسمحوا لنا بشرائها على حسابنا إلا في الأسابيع الأخيرة قبل مغادرتنا لمعتقل أبي زعل السياسي .

* * *

كان في عنبر خمسة في ذلك الوقت حوالي سبعين أذكر منهم :

الأستاذ محمد ماضي ، الأستاذ أحمد عادل كمال ، الشيخ محمد المطراوى ، المرحوم ابراهيم عزت ، المرحوم عبد القادر هلال ، الأستاذ سمير الهضيبي ، الدكتور فتحي عجيوة ، المرحوم أحمد قنة ، الأستاذ عبد الفتاح ضرغام ، الأستاذ عثمان محمد ابراهيم ، الأستاذ حسن مراد ، الأستاذ محمد أحمد ، وكان يلقب بالمدير فهو همزة الوصل بين العنبر والإدارة الذاتية من المعتقلين ، وكانت تقوم على تنظيم شؤون الحياة في هذا المكان العجيب . فلم نكن نرى أحدا من إدارة المعتقل الرسمية ، والقائمين على الإدارة والخدمة من قدامى المعتقلين .

وكان معنا في عنبر خمسة الأستاذ عبد الرحمن حسب الله ، وهو أحد ستة أشخاص تكونت منهم جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ .

ونحاول أن نتذكر الآخرين :
محمد السوداني ، عبد الرحمن عبد التواب ، حسين

الحنفى ، عبد الحثان الفلاح الذى كان يطربنا بغنائه أحيانا
بصوته الجميل القادم من الجنة ، عندما كان يغنى أشعار
المرحوم ابراهيم عزت .

وكان معنا أيضا الأستاذ جمال فوزى شاعر الإخوان بأدبه
الجم وخلقه الرفيع وحديثه العذب الدمث ، وصبره على الأذى
والسجن فى وداعة وهدوء . والحاج حسن حافظ الفقى الذى
كان يملأ العنبر بخير من البهجة والمرح ، فقد كان عصيبا شديدا
التوتر طول الوقت ، على طيبة قلبه وسلامة صدره ، وكان
كثيرا ما يتشاجر مع المرحوم ابراهيم عزت حول الماء .

فقد كان احتياطي الماء صفيحتين مكشوفتين فى دورة
المياه ، وكان هذا الرصيد صيفا وشتاء للسبعين فى قضاء
حوائجهم من طهارة وطعام وغسل للثياب والوضوء
والاستحمام وكل شئ عندما تنقطع المياه .

وكان المرحوم ابراهيم عزت يحب أن يسبغ الوضوء على
المكاه ، وكان يبالغ فى التطهر ، فينتظره الحاج حسن حافظ
على باب الدورة ويشاجره عندما يخرج :

— ليس من المعقول أن تتطهر وحدك بنصف صفيحة ،
وبالباقي لهذا الجمع الفقير ، هذا ليس من الإسلام فى شئ وأسأل
الحاج فريد عراقى .

والحاج فريد عراقى هو زعيم جماعة التبليغ فى مصر ، والذى
انبثقت عن جماعة الإخوان المسلمين فى أيام القهر قبل
الاعتقال ، وكان المرحوم ابراهيم عزت من أقطابها البارزين ،
ويضح العنبر بالضحك ، ويتدخلون لفض المشاجرة ،
وكانت دائما من طرف واحد ، فقد كان المرحوم ابراهيم عزت
شديدا الحياء لا يسمع له صوت ، ويكتفى بابتسامته العذبة

المساحة ، ويستنجد بالشيخ المطراوى ليخلصه من حسن
حافظ . وكان معنا حامد ابراهيم شكل ، وهو اختصاصى فى
الأخبار السيئة ، ويسرف فى التشاؤم ، وكان يضيف على المكان
جوا كئيبا من التوتر والضيق ، فأطلق عليه حسن مراد اسم
(البلاكوسى) ، وهو اسم لخانوقى شهير فى العباسية فى ذلك
الوقت .

وكان معنا الأستاذ حسن اسماعيل وسليم عفيفى والمرحوم
جمعة وعم سيد وفا الذى كان يقطر سخرية ومرارة مما كان
يجرى حوله ، ويتندر عن حياته والسجون الكثيرة التى يخرج
منها ليدخل فيها مرة ثانية فى دوامة لا تنتهى .

وكان معنا الحاج محمد المخ من عرب جهينة ، وكان رجلا
طيب القلب ، نقى الوجدان ، لم يفقد لهجته التى قدم بها قبل
أكثر من خمسة عشر عاما متنقلا بين السجون وبين المعتقلات .

ومن طرائفه أن المباحث عبر الإدارة أخبرتنا على ضرورة
أن يقف كل واحد منا ويقارن بين الحياة قبل الثورة وبعد الثورة
من خلال عمله الذى كان يقوم به ، وقد حدث هذا فى مرحلة
ما من مراحل إقامتنا فى أبنى زعبل ، فيقف المعتقل الذى كان
يعمل مثلا فى مصلحة الطب البيطرى ، ويقارن بين « البيطرة »
فى العهدين ، وكانت تخصص ساعة يوميا لهذا الهراء بعد صلاة
العشاء .

وعندما جاء دور الحاج محمد المخ وقف الرجل فى حيرة
بعد الصلاة وقال :

- يا جماعة اعذرونى لا أستطيع أن أفضى لكم بشىء .

- لماذا ؟

- لأننى سجنتم عندما قامت الثورة ، ولم أخرج من
سجونها ومعتقلاتها حتى اللحظة التى أقف فيها أمامكم .

ويقول له أحد الخبثاء بصوت عال :

- احك لنا إذن عن الفرق بين السجون والمعتقلات أيام
الملك وفي عهد الثورة المباركة .

ويجيب الرجل في عفوية وبساطة وظرف بالغ :

- ولكنى لم أسجن ولم أعتقل إلا في عهد الثورة المباركة .

وكان معنا عبقري الكيمياء الدكتور عصمت بدوى ،
والأستاذ يوسف كمال محمد صاحب نظريات الاقتصاد
الإسلامى . والدكتور أمجد صديق والأستاذ محمد أبو العلا ،
النادى الطبع صاحب الحديث الرقيق .

كان معنا سيد القشاط خبير الشطرنج الدولى ، يستطيع أن
يلعب وعلى عينيه عصابة ، فهو لا يرى الرقعة ، ورغم هذا
لا يهزمه أحد في هذه اللعبة .

وكان الشطرنج يصنع من لباب الخبز الردى الذى يقدم
لنا ، وتكون للشطرنج نادى فى العنبر ، من أبرز لاعبيه أو أعضائه
الأستاذ حسين عبد العال المحامى والأستاذ حمدى اسماعيل
والأستاذ سمير الهضيبى وكاتب هذه السطور وأحمد عادل كمال
الذى لم يهزمه أحد فى هذه اللعبة حسبا أذكر .

والتحق الحاج محمد المخ بالنادى وكان يرى الشطرنج لعبة
صعبة لا يمكن تعلمها ، ثم رأته فى معتقل طره بعد سنوات
وقد أجادها .

كان معنا أيضا: سعد السيد وحامد موسى والدكتور أحمد
دَعَاذِرُ الأستاذ بكلية الزراعة جامعة الزقازيق ، ومحمود شكرى
ويحيى عبد الحليم أحد المجاهدين فى حرب فلسطين عام
١٩٤٨ .

وكان معنا صلاح ممتاز وعبد الغنى عوض مدرس اللغة العربية وخبير السلاح في زعم المباحث العسكرية ، فهو الذى يفرق بين أنواع القنابل ، جيدها من خبيثها بمجرد النظر ، شأنها عنده شأن الجوافة والمائجو .

وكان معنا المرحوم الكاتب أمين شداد ، وقد احترقت طائرته في « بانجكوك » بعد خروجه من المعتقل ، في حادث مروع هز العالم ، وكانت تصحبه زوجته في تلك الرحلة .

مختلف التخصصات ، والمهن ودرجات التعليم المختلفة ، والكل شاء أم أبى قد انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين بإرادته أو بإرادة المباحث العامة ، وهو في الكشف إلى أن تقوم الساعة .

وكان هناك معنا الكثير ممن لم أستطع تذكرهم ، وكانوا جميعا من خيرة الناس ، وأحمل لهم أطيب الذكرى بعد مرور هذا الوقت الطويل .

* * *

شغل البعض نفسه بالصلاة معظم اليوم وجزءا كبيرا من الليل ، وشغل البعض نفسه بالأحاديث مع الآخرين ، أحاديث تبدأ من أية نقطة وتنتهى حتما إلى السياسة في أغلب الأحوال .

وكان باب العنبر ذو القضبان الحديدية هو نافذتنا على العالم ، وأمامه من الداخل أقل من نصف متر مربع ليس به فراش لأحد ، فيسرع البعض بالاستيقاظ نسيطا مبكرا يمسك بقضبان ساعات ليصير لا شيء في فناء المعتقل ، ويتكاثر هؤلاء المشاهدون المسكون بالقضبان ، بينما تقف مجموعة خلفهم لا ترى شيئا على أمل أن يمل واحد من هؤلاء ، فيندفع أقربهم مكانا ليقف بدلا منه ، وكان بعض المرضى يميزون فيقدمون ليحصلوا على هذه المتعة دون دور .

ويفضل البعض الآخر أن يترك صلاة الجماعة على ما فيها من حسنات حتى يتمتع بالمشاهدة وحده في الدقائق التي تتم فيها الصلاة .

والمكان نظيف جدا ، رغم ندرة المياه ، وذلك العدد الضخم الذى يعيش فيه . وكانت النظافة من العمليات الدقيقة التى يقوم بها كل فرد أكثر من مرة فى اليوم ، ويتم بصعوبة شديدة لكثرة الساكنين فى العنبر ، فيجلس كل فرد على بطانيته مربعا ساقه ويكنس البطانية بيده بصبر وأناة ، ثم يطويها ويكنس ما تحتها ، ثم يمسح البلاط بخزقة مبللة بالماء ، ويتكرر هذا مرات فى اليوم .

ويقوم « الدورى » بالنظافة العامة لدورة المياه ، والأماكن المشتركة مثل الباب والجزء الذى يقع أمامه ، وهما شخصان يتغيران كل يوم فى ترتيب ، ويعفى من ذلك المرضى وكبار السن .

وكان الورق والأفلام جريمة كبرى لا يقوى أحد عليها ولا يستطيعها ، والقراءة ممنوعة شكلا وموضوعا ، ومن ثم استطاع عدد كبير أن يتم حفظ القرآن الكريم فى تلك الأيام التى قضيناها فى أبى زعبل بعد انتهاء التحقيقات .

ومع مرور الأيام استطعنا أن نتحايل على النظام والقانون الذى يقضى بالتآكل ذهنى ، وتم الاتفاق على أن يقدم كل واحد محاضرة من واقع تخصصه .

وأذكر فى هذا المجال محاضرات الأستاذ أحمد عادل كمال عن استراتيجية الفتوح الإسلامية ، التى كنا نستمع فيها وكأن على رؤوسنا الطير من روعة العرض وعظيم المنطق ، رغم عدم وجود المراجع ، فقد كان الرجل حاضر الذهن منظم التفكير

في عرض موضوعاته في محاضرات عديدة حتى جاء أمر الإدارة بالتوقف عن هذا .

ثم اقترحوا علينا أشياء أخرى ، وكانت اقتراحاتهم أوامر لا تقبل العصيان ، وعلى الجميع تنفيذها دون تردد ، بل علينا أن نشيد بهذه الاقتراحات وروعيتها وعظيم فائدتها .

* * *

اقترحوا علينا ما يسمى بالنقد الذاتي ، وعلينا جميعاً أن ننقد أنفسنا نقدا ذاتياً ، واصطلاح « النقد الذاتي » اصطلاح وارد من البلاد الشيوعية ، وكان رئيس الوزراء آنذاك ما يطلقون عليه بالسيد على صبرى ، وكان هو صاحب الفكرة التي انتشرت في المجتمع المصرى آنذاك . وكان على كل واحد أن يقف على رءوس الأشهاد لا ليلقى محاضرة في التاريخ أو الكيمياء أو اللغة العربية كما كنا نفعل ، بل عليه أن يقف وينقد نفسه نقدا ذاتياً ، يعنى يسب نفسه ويذكر عوراته ومثالبه ودوره السلبي في الحياه وأثناء نشاطه في جماعة الإخوان المسلمين .

ولم تنجح دورة « النقد الذاتي » فقد كانت فكاھية تثير الضحك والسخرية من الجميع ، واعتبرناها حفلات ترفيھية في ذلك الجو الكئيب .

* * *

وكانت الأيام تسير بطيئة ثقيلة أثناء إقامتنا في عنبر خمسة ، وكانت النفوس ممتلئة بالتوجس والرهبة والخوف من مجهول غامض لا نعرف كنهه ، ولا ندري متى يهجم علينا ، ولا ندرك ماذا يريد منا .

وكانوا لا يسمحون لنا بمغادرة العنبر على الإطلاق إلا مرة واحدة كل شهرين حيث نتجمع في ساحة « المحمصة » - تلك التى شهدت عذابنا قبل ذلك - من أجل الخلاقة حيث يقوم بعض المعتقلين بالخلقة لزملائهم ، بأدوات تم شراؤها من نقود جمعناها لهذا الغرض . ويتم الخلاقة لهذا العدد فى أكثر من ثلاثة ساعات حيث نعم بمكان أكثر اتساعا من العنبر الضيق الذى نعيش فيه .

وكان إخواننا من الأسطوات لا يخلون بخبرتهم على من يريد تعلمها ، ومن أتقن فن الخلاقة فى تلك الأيام الدكتور حامد صفراطه الأستاذ بكلية الهندسة ، وقد أتقنها لدرجة عجيبة تدعو إلى الدهشة ، حتى جاء اليوم الذى كان يظل طوال الليل يخلق للإخوان فى ليلة من ليالى أحد الأعياد ، فالكمل حريص أن يخلق له الدكتور حامد صفراطه ، وصارت له شهرة فى هذا الباب ، حتى الضباط أنفسهم كانوا يتوددون إليه ليقوم بخلاقة شعرهم بذلك الفن الذى تفرد فيه .

وكان يقوم بعمله تطوعا وحسبة لله سبحانه وتعالى بصبر يحسد عليه وبأناة شديدة رغم الجهد والإرهاق .

وأصيب عبد الفتاح ضرغام بحساسية فى وجهه ، فأوصى الطبيب أن يخلق ذقنه كل يوم ، فيفتح عليه الشاويش بعد توزيع الشاى ، وينزل إلى المحمصة ويخلق ذقنه ويعود لنتلف حوله نسأله عن أخبار لا وجود لها إلا فى مخيلتنا المترتبة المتحفزة لأى جديد قد يكون .

ويمر طبيب من المعتقلين على العنابر حيث يفحص المرضى فى العنابر ، ومن بينهما حجاب هو باب العنبر ذو القضبان الحديدية ، ويمد السماعاة من خلال القضبان ليسمع القلب

ويكشف العلة ، ثم يصف له الدواء ، ويأتى به أحدهم بعد ساعة أو ساعتين .

وكان أغلب ما يوصف من دواء علاجا لكل داء ما يسمى « بيزموت طباشير » وهو سائل أبيض طباشيرى القوام يوصف للكحة والروماتيزم والمغص بكافة أنواعه ، والسبب أنه الدواء الوحيد الذى جاءوا به من مستشفى الليمان القريب فهو علاج مقرر لكل مريض ، مع عدم الأخذ فى الاعتبار نوع المرض ودرجة خطورته .

وكانوا ينقلون إلى مستشفى المعتقل ذلك الذى يبقى فى مكانه طريحا لأيام لاتقل عن خمسة أو ستة ، وذلك الذى تشتعل جبهته من شدة الحرارة ، ويوشك على الموت ، وهناك فى تلك المستشفى وهى عنبر من عنابر المعتقل قد شحن بالأسرة ، ربما يقدمون له دواء أفضل مستوردا من الخارج ، من خارج المعتقل .

ومن تستدعى حالته الجراحة قد يموت قبل أن ينقل إلى عنبر المعتقلين الموجود بمستشفى القصر العينى ، ولا بد لنقله من التأكد من قرب وفاته ، فالوفاة فى القصر العينى أيسر وأسهل فى تسليم الجثة إلى الأهل .

* * *

وانقطعت صلتنا بالعالم الخارجى تماما ، فنحن لا نرى أحدا من أهل الإدارة والضباط ، والمكان يديره بعض المعتقلين ، فكأنه معتقل قطاع خاص ، فنحن لا نرى إلا أصحاب الملابس البيضاء الخيشية مثلنا ، نراهم وهم يروحون ويبيعون قياما على خدمة الناس وتصريف سائر الشؤون .

ومع الأيام افترضنا في هؤلاء الزملاء القدرة والعلم والمعرفة
بالأسرار التي تلف المكان ، فهم يعرفون سبب اعتقالنا ، وهم
يعرفون متى يفرج عنا ونخرج إلى بيوتنا ، وهم ربما يتوسطون
وتنجح وساطتهم في خروجنا من هذا السجن ، ونسينا أنهم
مثلنا ويجرى عليهم ما يجري علينا من شئون .

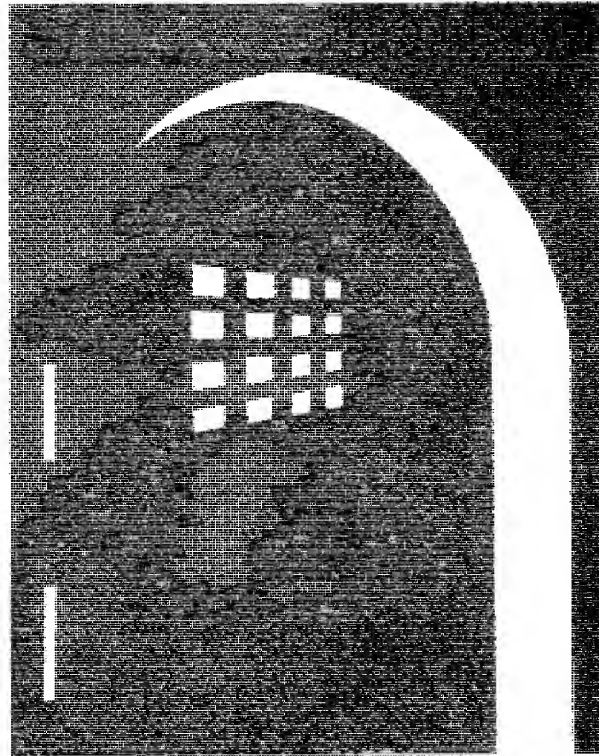
وتخيل بعضهم في نفسه هذه القدرة ، فهو يتحدث بلغة
الخبير الواصل العارف ويؤكد أن الإفراج سيكون في الأسبوع
الأول من شهر سبتمبر أو أكتوبر أو أى شهر قادم في الطريق ،
يتصادف قدومه عند الحديث .

وتمضى الأيام ولا يُفرج عن أحد .
ومازلنا نجتز آلامنا وأحزاننا وحيرتنا حتى جاءت توعية أبى
زعل الشهيرة .

الفصل السابع عشر

التوعية

فى أبى زعل



مازلنا فى نوفمبر (١٩٦٦) م :

ضجر المعتقلون وملوا ، ولا يزال الجو كئيبا مكفهرًا ،
وهم تحت رحمة التجارب وعمليات التخويف والرعب ،
باعتقال طويل لا ينتهى أمدّه . والتبشير بالراحة والهناء لكل من
يوافق على أعمال الحكومة وأهدافها البعيدة والقريبة ، وينادون
أن الحكومة كانت تريد الإصلاح ، وإعادة تشكيل المجتمع
على أسس سليمة جديدة ، وأن الإخوان المسلمين هم حجر
العثرة فى طريق هذا الإصلاح ، وأنه لن يكتب لهذه البلاد
الخير ، إلا بنزع هذه المفاهيم الدينية البالية من الرعوس ،
ورغم فساد الإخوان وإجرامهم — هذا الذى فى زعمهم —
إلا أن الحكومة طيبة القلب وزعيمها على الهمة ، بالناس
رعوف رحيم ، فهو لا يأمر بقتلهم جميعا ضربا بالسياط ،
بل يكفى البعض ، وعلى البعض الآخر أن يفيق قبل أن تدهمه
الكارثة ، أو يأتبه الطوفان . وكان الناس يعيشون فى جو من
البلبل والترقب الحذر ، ولا يدري أحد ماذا يراد منه فكل
شئ بادى الغموض ، والزعيم فى أوجه وفى غاية اكتماله
وتمامه ، وهو ينوى أن يبطش بهم بطشة هائلة ، لعلها أعظم
وأعتى مما حدث لهم منذ عهد قريب فى السجن الحرنى .

وبدأ أصحاب الدور الثالث يرسلون الشكاوى والعرائض
إلى الإدارة ، حتى تقوم بتوصيلها إلى الحكومة ، يعلنون فيها
عن ولأئهم ، وتخليهم عن سائر ما كانوا يؤمنون به من قبل ،
ويطلبون فى إلحاح الإفراج عنهم ، فيكون الجميع صفا واحدا
خلف الزعيم لتحقيق أهدافه العظيمة ، ويخرج الناس من
الظلمات إلى النور . وكان هؤلاء الناس على صلة قديمة
بقيادات المباحث أيام المحن الأولى فى أول الخمسينيات ،
وكم من مباحثات دارت أيام سجن أسبوط ، وسجن جناح
فى الواحات وليمان طره .

ووصل صوتهم إلى المباحث .

وكانت المباحث لا ترى خطراً في هؤلاء ، فهم أوراق
قد احترقت ولم يعد لها أى دور سياسى فى رأيهم ، ولكن
الخطر كل الخطر فى أولئك الجدد ، الذين لم تكن لهم سابقة
جهاد ، ولم يكونوا من أصحاب « الملفات » ، وفجأة وعلى
غير انتظار ، كانت آرايتهم تخفق ، وأصواتهم تنادى
بالمبادئ والشعارات نفسها من جديد . لهذا كان غاية همهم
أن يقضوا على هذه العناصر ، ويقوموا على تحطيمها نفسياً ،
بعد أن تم تحطيمها بدنياً فى التحقيقات ، تحت إشراف
المباحث فى أبى زعبل والحربى ، العامة منها والجناية
العسكرية .

واستيقظ الناس يوماً على شائعة ملأت القلوب خوفاً ، ولو
أننا معشر الجدد لم ندرك يومها مغزاها ومعناها ، بل كنا نرى
الخوف فقط فى وجوه الحرس القديم .
قالوا : إن هناك قائداً جديداً للمعتقل .

وهزَّ الناس رءوسهم استخفافاً ، وماذا يعنى أن يكون قائد
جديد للمعتقل ؟ .

فقالوا : إنه عبد العال سلومة البرى .

قلنا : وماذا يعنى هذا الاسم ؟

قالوا : سوف ترون بأنفسكم ، إنه الذى فعل الأفاعيل
بالإخوان فى السجون ، وكان سبباً فى قتل بضعة وعشرين
شهيدا فى مذبحة طره عام (١٩٥٧) .

إذن فقد كثرت الحكومة عن أنيابها ! .

وأنياب الحكومة فاتكة قاتلة ، ووقعها أليم شديد .

ومضت أيام قبل أن يأتي عبد العال سلومة ، كان المعتقلون يستعدون فيها لاستقباله ، هناك من يعرفه ، وهناك من لا يعرفه ، وكان الجدد جميعا ممن لا يعرفونه ، فهم لا يكثرثون كثيرا بمقدم عبد العال سلومه أو عدمه . وجاء يوم مكفهر أقفلت فيه العنابر والزنازين ، وأعلن التشدد فى النظام ومنع خروج أحد من المكان الذى يأويه .

وقالوا : هذا يوم يتسلم فيه القائد الجديد قيادة المعتقل ، بكل ما فى ضميره من خبرة فى معاملة الأسرى والسجناء ، وهو بهم عليم خبير .

ووقفت على الباب أنتظر الساعات لأبصر شيئا .

ورأيت شابا أميل إلى الامتلاء ، أحمر الوجه ، قد أمسك بغطاء رأسه العسكرى فى يده ، وملابسه الكاكية ، وقد علا كتفيه نسر كالح أغبر مفترس ، وحول شفثيه بسمة ساخرة مريضة ، وتومض عيناه الخضراوان بالوعيد والنوايا السيئة ، ومن حوله بعض الضباط الصغار ، وبعض « كبار » المعتقلين ، والمقام هنا بالقدرة على الخروج من العنبر ، وكان يسير فى عظمة واقتدار كأنه أدولف هتلر ، ولمحني عبد العال بك فى لحظاته الأولى من وصوله إلى المعتقل ، وماتت البسمة على شفثيه ، وزمجر وزوى حاجبيه وصاح :

— أنت يامعتقل . ادخل .

وعدت إلى مكاني داخل العنبر ، وقد سرقت ابتسامته الساخرة ، وجلست بها بين رعدة الموجودين من هذه

الزنجرة ، التي تنبىء بشر عظيم وعهد جديد ، لاندري
ما يكون فيه .

وبدأ عصر عبد العال سلومة .

واجتمع الناس فى المساء ، يقلبون الأمر فيما بينهم ،
وانتهى الاجتماع على سائر أمور حياتنا ، ولكن الجميع
تواصوا بالحق والصبر ، وبالصمت أيضا ، والحذر البالغ من
شرور ، لاندري من أين تأتى .

وكان النداء : عليكم أن تستسلموا أو تموتوا .

على كل المعتقلين أن يخرجوا من العناير رافعى الأيدي
فكريا مستسلمين للجنرال المظفر عبد العال بك .

وازدرد الناس ابتساماتهم الساخرة ، وقد انطوت الصدور
على تحدٍ عميق .

ونادى مناد فى الليل .

« اسْمَعِ كل المعتقلين » .

واستيقظ النائم ، وانتبه الجالس ، وصار الجميع آذانا
صاغية .

وكان ذلك بعد وصول عبد العال سلومة بأيام .

« كل من يسمع اسمه يجهز عهده ويقف على باب
العنبر » .

وامتأل المعتقل بالضجيج .

هذا كشف إفراج !

يا أفراح السماء !! .

ونادى المنادى من مكان قريب ، صار يقرأ الأسماء ،
ويكرر الاسم مرتين ، والكل قد ذاب مع الصوت ، واشترأبت
الأعناق ، واحمرت الحَدَق ، وكل واحد يدعو الله دعاء حارا
أن ينطق المنادى باسمه ، فيخرج مع الخارجين .

وانتهى المنادى من النداء .

وقد قرأ بضعة وثلاثين اسما وسكت .

ولم ينم أفراد المعتقل طول الليل ، البعض يعد (حاجاته)
وعهدته استعدادا للخروج ، والبعض الآخر ينتظر أن يُنادى
على كشف جديد .

وهكذا بدأ عصر عبد العال سلومة بالإفراج عن بضعة
وثلاثين معتقلا .

نادوا في العنابر : من يرد أن يحجز سجائر فليقدم
اسمه . .

وبيع الدخان في كائنين المعتقل .

وسُمح بصنع الفول المدمس .

وجيء بالفواكه والخضروات .

وفتحت جنة « سلومة » لتذكر المعتقلين بحياة البيوت
والمشي في الأسواق .

واستعد الناس لبرنامج حافل وعرض بهيج .

سرت الشائعات أنه سوف يفرج عن المعتقلين ، ليس كل
المعتقلين ، ولكن أولئك الذين يستجيبون لأوامر الحكومة
ونواهيها ، ولاشك أن الكل يظهر هذه الاستجابة ، فالجميع
يريدون رؤية أولادهم وأهلهم .

وظهرت أمارات « التوعية » وهلت أيامها . .

يخرجون عددا منا كل يوم ، ينظف السلاالم ، ويمسح
البلاط ، ويلمع القضبان الحديدية ، ليبدو كل شيء براقا ،
وهم ينشطون خلف الكواليس لتقديم مسرحية جديدة بممثلين
نراهم للمرة الأولى ، وربما رأينا بعضهم قبل ذلك ونصبوا
نصبة كبيرة ، عبارة عن منصة تسمح بجلوس ثلاثة ، وعلى
مقربة مكتب يجلس عليه أحد ضباط المباحث وأمامه
مسجل ، ثم تنزل ثلاث درجات حيث ساحة « المحمصة »
فمكتب صغير يجلس عليه أحد المعتقلين ، هو أمين سر
« التوعية » ، يسجل ما يدور ولا تفوته شاردة ولا واردة ،
إلا أحصاها أمامه في كتاب قد أعد ، ثم ربما يعيدون صياغتها
بطريقتهم بعد ذلك .

وزينت العناير وملئت باللافتات عليها عبارات التأييد
للحكومة والتبرؤ من الإرهاب والضلال ، وسائر ما أوحى من
شعارات .

ورتبت الهتافات فلكل عنبر هتافه المتميز ، مقولات رائعة
لاتسمن ولا تغنى من جوع ، قد نمقت تنميكا ، وزوقت
تزويقا .

واستمر الناس يزعمون بهتافاتهم من خلف القضبان ، ويرن
صداها عبر البنيان والكل يظن أنهم سرعان ما يخرجونهم
إلى بيوتهم إذا ارتفع الزعيق وجاوز الصراخ عنان السماء .

ويأتى صوت محمد الخنكاوى مهيبا جليلا يشق الضجيج .

« عنبر عشرة » .

فترد الجوقة بصوت أضعف من صوته .

— « إجابيون » . يقصدون إجابيون ! .

ويتردد الهتاف ، ويأتى من هنا وهناك ، وتختلط المعانى والمفاهيم ، والكل يعزف لحنا واحدا ، قد جرى توزيعه بأكثر من طريقة ، والأمل يملأ النفوس ، وبرجاء القيامة من بين أموات السجن ! .

واقترب الموعد ، وموعدهم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى فى « المحمصة » ، وكل عنبر ييدى من نفسه قوة وحماسة وإخلاصا ، ولماذا لا يكون ؟ ، فالنتيجة هى الخروج من ذلك السجن الطويل الذى لا يدرى له آخر .

وفى اليوم الذى سبق موعد التوعية ، مكثنا طوال النهار نهتف من خلف القضبان ، وشطرا كبيرا من الليل ، حتى بح صوتنا ، والكل يخشى أن تلتقطه كاميرا تليفزيونية خفية ، وهو متكاسل أو غير متحمس ، وكأن هناك دائرة مغلقة ترسل الصورة إلى جهاز فى مكتب جمال عبد الناصر يرى فيه كل شىء .

وظلعت شمس يوم التوعية ، وكان الحماس قد بلغ مداه ، فما هى إلا أيام ويخرج من السجن ، وتكاليف هذا الخروج ما نقوم به من هرج ومرج ، وهتاف للاشتراكية والديموقراطية والوحدة ، وعظمة رئيس الجمهورية وتطاوله فوق الناس .

وخرج كل عنبر في جَمْعِهِ ، يحمل وارده الذي يهتف
هتافا عاليا ، والناس يردون عليه ، حتى يأخذ العنبر مكانه في
ساحة « المحمصه » ، ويأتى العنبر الذى يليه بهتافاته
وحماسته ، التى تنتقل إلى الصفوف الجالسة ، فيردون
عليهم ، وضابط المباحث السمين أحمر الوجه ، يعد جهاز
تسجيله ، وعبد العال سلومة فى نشوة من السعادة والحبور ،
فقد صنع مهرجانا عظيما ، وسوف ينقل مندوب المباحث ما
رآه إلى السادة والكبراء ، ولاشك أنه كان يطمع هو الآخر
فى منصب عظيم ، ربما يتذكرونه به .

وخرج عنبر خمسة فى جَمْعِهِ وكنت منهم ، وكنا
متحمسين ولكننا لا ندرى ماذا نقول ، ووقف واحد
ورفعناه ، وقال هتافات بلهاء وصرنا نردها خلفه ، ونحن
ندارى وجوهنا من الخجل ، وكان الواحد منا يشعر بالعار
الشديد ، إذا ما التفت عينه بعين واحد من إخوانه .

وكان عم « أحمد قته » سميئا بالغ السمنة ، صالحا تقيا ،
بالغ الظرف ، وارتفع صوته عاليا :

— ارفعونى .. ارفعونى .

ورفعناه بصعوبة شديدة ، وكان علينا أن نسير به فى ممر
طويل ، حتى نصل إلى السلالم وننزل عليها ، وهو يهتف
ونحن نرد عليه ، فلهذا رفعناه ، وكنت ممن اشترك فى حمله
عليه رحمة الله ، وكنا نحن من وزنه ، فقد كان يساوى أربعة
رجال وزنا .

وارتفع صوت عم أحمد قته بهتافه عاليا .

— « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

في تنعيم وترخيم كمقدمة لشيء .

وصرنا نرد عليه في حماسة وقوة ، فإن كان عم « أحمد قته » ، وهو الرجل الصالح القارئ للقرآن ، لا يستكف أن يفعل هذا لينجو وننجو مما نزل بنا ، فلا بأس إذن على الآخرين .

وارتفع صوت رجال العنبر يرددون .

— « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

وعاد الأستاذ « أحمد قته » يهتف بالعبارة نفسها . ونرد عليه بالجملة نفسها ، ونتنظر أن يقول شيئاً بلا فائدة ، ومازلنا نحن تحت وطأة وزنه نزولاً على السلالم وأخذاً لمكاننا بين العنابر في مهرجان الزيف والخداع والهرج ، وهو لا يقول غير :

— « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

ونحن وراءه :

— « عنبر خمسة ، عنبر خمسة » .

ثم يغيرها :

خمس خمسة ، عنبر خمسة .

واستقر المقام وجلست جميع العنابر ، وكان عدد المعتقلين الذين شهدوا هذه « التوعية » يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف .

ولا يزال على الأعراف رجال !!

وبين الناس قد وقف فتية معلمون ، ومن الشرفات العالية هناك من يرقب الموقف ويعرف متى يهتف ، وعلى الجميع أن يرددوا عليه .

والويل لمن يتكاسل .
وارتفع هتاف من مغمور ربما ضاع اسمه فى التاريخ :
— « لا رجعية ولا إخوان ،
ولا تجارة بالأديان . » .
— « حاسبوا القادة على التضليل ،
وانسوا ماضينا فى الإخوان . » .
— « حسن البنا وحسن الثانى ،
سلكوا طريق ضد الأديان . » .
ويرتفع الضجيج عاليا وتلهث الأنفاس ، ويتفصد الناس
بالعرق ، والويل كل الويل لمن يفشل فى هذه التجربة .

وانفض مهرجان الهتاف ، وتكلم عبد العال سلومة فى
اختصار موجز ، وبلهجة ركيكة ، وعبارة ضعيفة ، وقال :
إن المكان الذى تعيشون فيه هو أقرب للمستشفى منه إلى
المعتقل ، وإننا مرضى ، ومن واجب الحكومة أن تقوم
بعلاجنا ، وهى تفعل الآن ، وعلاج الأجسام أمر سهل أما
علاج العقول ، فهو أمر بالغ الصعوبة ، ونحن — أى
الحكومة — سنفعل ما علينا ، ونؤدى واجبنا فى علاجكم ،
وعليكم أن تشفوا من أمراضكم وتنصلح أحوالكم ، ومن
يفعل فسوف يخرج ، ومن يفشل فسوف يبقى ، سنة ،
اثنتين ، ثلاثة ، عشرة ، عشرين ، هكذا حتى يموت ، هذا
عصر الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، وهو فى أوج صحته
وقوته ، وسوف يحكم هذه البلاد أكثر من خمسين عاما باقية
من عمره المديد ، ولن يموت حتى يحكم بلاد العرب ،
ويحارب الاستعمار ، ويهزم أمريكا .

وارتفعت الهتافات :

— إسرائيل .. إسرائيل .

وجاء صوت عبد العال سلومة :

— إسرائيل أقل من أن نتكلم عنها ، هذه ستدوسها أقدام
الزعيم عندما يتحرك لحرب أمريكا ، ولا يليق بنا أن ننسب
إلى سيادته الانتصار على إسرائيل .

ويرتفع الهتاف حماسيا عاليا .

ويصمت الرجل في تواضع مصطنع أخاذ ، ثم يواصل
خطبته العصماء ، يأمرنا بالمنكر وينهانا عن المعروف .
ويقاطع بالهتاف والتصفيق في كل جملة يقولها .

عشنا هذا الهراء ما يقرب من الشهر ، وعانينا منه في
المسرح ، وعندما نخلو إلى أنفسنا في العنبر في نهاية النهار ،
محاضرات تلقى وأسئلة نقدمها ، يجيب عليها المحاضرون
في ترفع شديد ، وهي أسئلة أغلبها أبله سخيف لا معنى له ،
وأناس يناقشون الحساب .

سبعة موضوعات عامة إسلامية وسياسية ، ألقى علينا
محاضرة إثر أخرى ، ولم يكن يعنى أحد مايقوله المحاضر ،
بل كل ما يعنيه أن يبدو متيقظا متجاوبا مع الكلام ، وأن هناك
من يرصد حركته ، ولا بد أن يسارع بالهتاف مع الهاتفين ،
وبالتصفيق مع المصفيقين ، والويل لمن لم يفعل .

وقام بعض الأشخاص المدربين بإلقاء الأسئلة ، وكلها
تدور حول معنى واحد تمجيد الثورة ، ولوم الإخوان
المسلمين .

وشجع الآخرون على إلقاء الأسئلة ، ومن أراد أن يخرج من هذه المذلهمة ، فعليه أن يوضح نفسه ، وقام الناس على استحياء يلقون الأسئلة البلهاء فى خط التقليد نفسه ، والكل يريد أن يرى أولاده ، ومادام هؤلاء السخفاء يصدقون هذا النفاق ، فلنفعله وما فى القلب فى القلب ، ويبدو أن علماء الشيعة كانوا حكماء عندما أوصوا بالتقية .

وكان البعض يبالغ فى إرضاء الحكومة وتملقها من أولئك المدرسين تدريبا عاليا . وقام واحد وطلب أن يناقش الحاج صالح أبو رقيق .

واستدعى الرجل إلى المنصة وجلس وانهارت عليه الأسئلة لإحراجة والنيل منه ، وسُئل عن تفاوض الإخوان مع الإنجليز قبل اتفاقية الجلاء عام (١٩٥٤) ، وأدار الرجل بصره بين الموجودين فى شجاعة نادرة :

— فى الحقيقة قد تم اللقاء مع الإنجليز ، بناء على طلب جمال عبد الناصر لتقوية موقفه ، فى المفاوضات على الجلاء من مصر والسودان .

وسأله عبد العال سلومة فى تهكم :

— وكيف تقوون موقفه فى المفاوضات ؟

ولم يلتفت إليه (صالح أبو رقيق) بل وجه كلامه للمجتمعين :

— كان الإنجليز ينظرون إلى الإخوان كأكبر هيئة شعبية فى مصر ، فإذا تشددنا فى شروط الجلاء ، فيستطيع أن يحصل عبد الناصر على شروط حسنة جدا ، وكان هذا هو الاتفاق بيننا وبينه فى حضور شهود .

وتمطى عبد العال سلومة وهو يسأل :

— وماهو الدليل على صدق كلامك ؟

والتفت إليه صالح أبو رقيق :

— جمال عبد الناصر شخصيا .

وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، بينما واصل
صالح أبو رقيق حديثه :

— أنتم تفتحون موضوعا قد لايعجب الرئيس الخوض
فيه ، ومن الخير يا (عبد العال بك) أن نغلق هذا
الموضوع .

وانكمش عبد العال سلومة وقال :

— ننتقل إلى موضوع آخر .

ومن الدور الثالث نادى أحد المدرسين بصوت عال :

— أيها الثعبان الملتوى .

ورفع (صالح أبو رقيق) رأسه إليه :

— أنتم مساكين لا تدرون ما تفعلون ، ولا تدرون أيضا
ما يُفعل بكم .

وتكهرب الجو ، وهاج الناس ، واختلط الحديث ، حتى
دق عبد العال سلومة على المنضدة يطلب الصمت :

— فلننتقل إلى موضوع آخر .

كان البرنامج يعتمد على استدعاء بعض الشخصيات
وسؤالها وإحراجها ، وإظهارها بمظهر المرتد عن أفكاره
القديمة ، أو يحاولون أن يجعلوه في موقف متناقض مع
الحوادث ، التي شارك في صنعها ، ومع المبادئ العامة ،
التي يدين بها هو ومن تبعه ، وكانوا ذوى براعة فى اختيار
الناس ، فلا يقعون إلا على المشهورين ، وأصحاب السابقة
فى الجهاد والعمل السياسى .

وجلس (محمود زينهم) على المنصة للاستجواب .

وسأله عبد العال سلومة :

— لماذا قتلت الخازندار ؟

وانفعل محمود زينهم :

— لقد اتهمت بقتل الخازندار قبل الثورة وقدمت
للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن على هذه التهمة ،
وقد نفذت هذا الحكم ، ولا أظنكم تحاكموننى من جديد
فى قضية نظرت من ربيع قرن .

— نحن لا نحاكمك .

— وليس فى وسعكم هذا . بلاش لعب عيال .

وحاول عبد العال أن يسترضيه :

— لا تغضب يا محمود . نحن نحاول تبصير هؤلاء الشباب
الذين تراهم . هذه توعية بأمر الدين والسياسة .

ويرد عليه محمود زينهم فى قوة :

— هؤلاء الذين أمامك هم أعرف الناس بالدين والسياسة .

— هل كان الخازندار يستحق القتل ؟

— قاض يحكم بالظروف المخففة فى قضية سفاح
الإسكندرية ، ويخطب فى المحكمة مشيدا ببريطانيا
المستعمرة ، ويقول : إن قواتها قوات لدولة حليفة وليست
دولة مستعمرة . ويحكم فى القضايا الوطنية بأشد العقوبات .

— هو يستحق القتل . أليس كذلك ؟

— أنا لا أحاكمه الآن .

— لماذا قتلت أحمد الخازندار ؟

— هذا سؤال سخيف ولا معنى له .

— لماذا لا تجيب عليه ؟

— أنا حر .

— أنت قتلت الخازندار .

— افهم ما تشاء .

وقام محمود زينهم من المنصة غاضبا ثائرا ولم يستوقفه
أحد .

* * *

وجلس الصاغ محمود عبده أحد المجاهدين فى حرب
فلسطين عام (١٩٤٨) للمناقشة ، وتلقى الأسئلة السخيفة
من هنا وهناك ، وقلب الرجل عينيه فى الشهود ، وهو يحاول
أن يخفى إيماءة عاتية تبدو من تلون وجهه وطريقة نظرتة ،
وكان يخفى غضبه وتوتره فى ارتعاشة عينيه وهو يتكلم ،
ويجتهد أن يرسل حديثه هادئا صافيا خاليا ، فينجح فى أحيان
وفشل فى أحيان كثيرة ، ولكنه فى كافة أحواله كان يجيب
على أسئلة السائلين فى صراحة وبساطة ، كأنها حد السيف
القاطع .

وسأل السائل بصوت هو إلى فحيح الأفعى أقرب :
— بصفتك أحد قواد الإخوان المسلمين فى حرب
فلسطين . .

ويقاطعه محمود عبده فى تحد وشمم :
— نعم ، هذا صحيح .
ويستمر الصوت الأفعاوى :
— هل كان الإخوان على حق فى تغريهم بالشباب
الصغير فى حرب خاسرة ؟
واستدار محمود عبده إليه :
— هل تتكلم عن حرب فلسطين عام (١٩٤٨) ؟
— نعم .

وكنتم الرجل انفعالاته ما أمكنه ذلك ، ولكنها بدت جليلة
فى رعشة عينيه ، وفى صوته المتهدج وعروق يده النافرة ،
وأصابعه التى تربت على المنضدة فى غير تناسق أو صوت ،
وهو يستجمع هدوءا وسكينة من أى مقصد يستطيعه :

— أرجو فى هذا الاحتفال الذى أقيم لتحريم الإخوان
المسلمين ، ألا تفوتنا حقائق هامة ، إن فائتكم فسوف يضيع
الغرض الذى تقصدون إليه ، وهو الإساءة إلى جماعة الإخوان
المسلمين .

وقاطعه عبد العال سلومة :
— هل مازال اسمها جماعة الإخوان المسلمين فى
نظرك ؟

والتفت إليه محمود عبده فى مرارة وسخرية ؟
— سبحان الله ، هذا هو اسمها ، أو ماذا تسميها أنت ؟
وقال عبد العال سلومة :
— ماعليتنا ، ادخل فى الموضوع .
وتجاهل محمود عبده اللهجة الوقحة التى كلمه بها عبد
العال سلومة ، واستمر فى حديثه إلى المجتمعين الذين كانوا
يتجاوبون معه فى صمت بليغ :

— إن كنتم تريدون الإساءة إلى جماعة الإخوان
المسلمين ، فابحثوا عما يسىء إليهم ، وإن كان هناك ما
يسىء إليهم فليس منه دورهم العظيم فى حرب فلسطين
بالتأكيد .

فقد جندوا الكتائب لمقاومة اليهود فى فلسطين ، عندما
تخلت عن هذا الدور كل الحكومات العربية آنذاك ، وكان
لجهادهم الفضل فى دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، أو
ماذا تنتظرون من جماعة يهتف أفرادها أن الله غايتهم ،
والجهاد سبيلهم ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيتهم ، ثم
يجدون العدو يقطع أرضاً من بلاد المسلمين ويسكتون ؟ هذا
يتنافى مع مبادئهم ، وجهاد الإخوان فى فلسطين وشهادتهم
الذين سقطوا على أرضها أمر يحسب لهم لا عليهم ، فابحثوا
عن نقيصة لهم إن وجدتم ؛ لتدركوا غرضكم الذى ترمون
إليه . .

وضج الجمع بالتصفيق بين غضب قائد المعتقل ورجاله ،
وكادت المسرحية أن تسقط ، فالكل يرتجل وليس هناك نصّ
مكتوب يلتزمون به ، وصعب على رجل مثل محمود عبده
أن يقف ليدلى بشهادة أمام التاريخ ويزور فيها .

وأوقفت الضجة بصيحات غاضبة ، جاءت من هنا وهناك ، وهدأ الناس ، واختفى استحسانهم من وجوههم ، وعاد التجهم من جديد ، فقد كادت شجاعة محمود عبده أن تزيل من نفوسهم ما انتووا عليه من خداع الحكومة ، والتظاهر بالاستجابة إلى ما تريده منهم .

ويعاودون سؤال الأستاذ محمود عبده :

— لقد كتبت برقية من السجن تؤيد فيها الرئيس جمال عبد الناصر ، وتبارك خطواته بعد تأمين قناة السويس وهناك من خالفك ، لماذا أيدت ؟ ولماذا خالفوك ؟

وفي ثورة ورزانة ينساب الكلام من بين شفتي الرجل :

— أئمت قناة السويس ، وهوجمت مصر ، واحتلت بورسعيد ، ومن الطبيعي على رجل مثلي أن يفكر في الدفاع عن وطنه ، ورئيس الدولة هو الوحيد الذي يستطيع منح هذه الفرصة لمسجونين أمثالنا ، ونص البرقية كالتالي :

« إن الإخوان المسلمين الذين قاتلوا معكم على أرض فلسطين يطلبون أن تمكنوهم من قتل الإنجليز واليهود على أرض مصر » .

— وماذا كانت استجابة الرئيس جمال عبد الناصر ؟

وفي تهكم خفيف عبر كلمات رزينة قال الأستاذ محمود عبده :

— لم يرد علينا الرئيس حتى هذا اليوم !

وصاحت الأصوات من هنا وهناك :

— لقد رد على البرقية ببرقية شاكرة .

وفى ابتسامة يصعب على أى أحد أن يفهم معناها قال :
— لقد كنا فى السجن ولم نمكن من واجب الدفاع عن
أرضنا كمسلمين . .

— دعنا من هذه النقطة ولنتكلم فى نقطة أخرى .
— من الخير للجميع أن يتوقف هذا الاستجواب .

وترتفع الضجة ، شىء غير مفهوم . هل هو استحسان
لكلام الرجل ؟ أو هو خوف من سقوط المسرحية لكثرة
الارتجال ؟ أم ماذا ؟ ولكن توقفت هذه الضجة عندما قام
ضابط المباحث الجالس عند جهاز التسجيل بعد أن أوقفه عن
العمل واتجه ناحية عبد العال سلومة ، الذى انتفض واقفا فى
اهتمام واحترام وتبادلا الهمس والحديث ، ثم عاد كل واحد
إلى مقعده .

وقال عبد العال سلومة :

— فلننتقل إلى نقطة أخرى .

كانوا يبحثون عن شهود ليشوهوا صورة الإخوان
المسلمين ، وهو أمر صعب فهم يطلبون من الناس أن يتخلوا
عن تاريخهم ، وأن يقرروا بألستهم أن كل ما قاموا به من
جهاد فى سبيل الله كان محض هراء ، يريدون منهم أن يلعنوا
سادتهم وشيوخهم ومن علموهم ، ومن هدوهم إلى الصراط
المستقيم ، وقد يستقيم التمثيل فى الضجة ، حيث ترتفع
جميع الأصوات ، ولا يكون هناك غير جوق صاخب ،
لا يعرف من يسمعه مايقوله كل واحد ، ولكن الأمر يختلف

عندما يتحول هذا الصخب إلى شهادة أمام الناس والتاريخ ،
ويختلف أكثر عندما تطلب هذه الشهادة ، من صفوة الناس ،
وخيرتهم ، وقادتهم فى المدلهات العظام .

كان القائمون على هذه المسرحية الهزيلة غير موفقين على
الإطلاق ، فرغم شدة الخوف ، وعظم الموقف لم ينجحوا
فى إحداث هزيمة روحية حقيقية لهؤلاء الناس ، بل كانت
النتيجة على عكس ما أرادوا .

كانوا يريدون منا أن نكره من نحب ، وأن نحب من
نكره ، وأن نحترق فى ازدياء كل قيمة كوتتنا وأنشأتنا ، وأن
نلعن عظماء الناس ، ونهتف بحماسة للقردة والخنازير ، ولم
نستطع سوى الأخيرة ، لوضوح الكذبة ولأنها بلقاء مشهورة
يفهمها الجلادون والمجلودون .

وجاءوا بمحمد قطب .

وما أدراك من محمد قطب !

رجل عالم أديب ورع ، صاحب خلق ودين ، فى وداعة
وسماحة وطيبة ، يستمع النكتة ويتكرها ، يكثر من الصلاة
وقراءة القرآن ، قابلته مرة فى مكتبة وهبة عام ١٩٥٨ ، قرأت
له ولأخيه الشهيد كل ما كتب ، كنت أراه فى وعى الظلم
بالسجن الحربى بين الحين والآخر وهو ذاهب للضرب أو
قادم منه أو فى أثناءه ، لم أتحدث معه إلا فى أبى زعبل ،
واكتشفت فيه ما قلته عنه ، وأضيف إليه الشجاعة بعيدا عن
الحماقة ، والقوة فى بسمة عطف طيبة ، يقابل بها أصدقاءه
وأعداءه .

وجلس الرجل على المنصة بجسمه النحيل ولون وجهه
الباهت ، حتى يخيل لمن يراه لأول مرة أنه خائف من هذا
الموقف ويهرب هؤلاء الناس .

ونبح واحد من الرؤساء :

— انقد لنا نفسك نقدا ذاتيا .

وأجابه الرجل فى هدوء وبساطة :

— ماذا تعنى ؟

— أنت رجل تؤلف الكتب ، وتفهم معنى النقد الذاتى ،
اذكر لنا سلبياتك وإيجابياتك .

ويشرق وجه عبد العال سلومة من تلك اللهجة الوقحة ،
التي يخاطب بها الأستاذ محمد قطب ، ويظن أنه قد أحيط
به ، وأنه بعد قليل سوف يطلب النجدة ويلوذ بالهرب ، وصار
يتبادل النظر مع ضابط المباحث ، وقد بدا عليهما السرور .

ويعاود الرجل التحدى والاستفزاز :

— أم تظن نفسك بلا سلبيات ؟

ويرد محمد قطب فى هدوء ورزانة :

— كل إنسان يخطئ ويصيب فى قوله وعمله ، وهذا ما
قاله رسول الله ﷺ ، وهى طبيعة البشر ، فكل ابن آدم
خطاء . ولست على استعداد للحديث عن أخطائى ، إلا إذا
كانت تمس أحدا من الموجودين .

ورفع وجهه فى الناس ، وارتفع صوته قليلا يشق الصمت
البليغ ، الذى بدا وكأنه لا يوجد أحد فى المكان :

— هل فيكم من أخطأت في حقه ؟

وارتفع هرج الاستحسان والسرور ، ولولا الخوف لضج
الناس بالتصفيق .

وزمجر السائل ليمنع الضجة :

— لقد أخطأت في حق الحكومة ياأستاذ .

وعاد الصمت من جديد ، وأشرأبت الوجوه ، وانسابت
كلمات محمد قطب خفيفة هذه المرة :

— وهل تتكلم نيابة عن الحكومة ؟

وزمجر السائل ثانية :

— دعنا من هذه المراوغات والمناورات ، لقد بطل
سحركم ، وانكشفت ألأعييكم ، ولن تستطيعوا شيئا بعد
ذلك ، ألم تكفر الحكومة أنت وأخوك سيد قطب ؟
— معاذ الله ، هذا شيء لا أملكه ولا أستطيعه .

وظهرت أمارات النصر والفوز في وجه السائل ، وكل من
يجلس على المنصة ، وأحسست ساعتها بخيبة الأمل والحزن
لانهزام الرجل ، وربما شاركني الجميع الشعور نفسه .

وانبرى السائل في سرور وفي لهجة أخف حدة :

— هذا ما نود سماعه منك ، إذن فأنت تنكر أمام هذا
الجمع كل ماجاء في كتبك وكتب أخيك سيد قطب ؟

— بل مؤمن موقن بكل حرف كتبته أو كتبه أخى حسبة
لله تعالى .

وجاوزت الضجة الآفاق ، وتدخل عبد العال بك ليعيد
النظام :

— يعنى يامحمد الحكومة كافرة فى رأيك ؟

— الحكومة كافرة باعترافها هى نفسها ، وكافرة بنص القرآن الكريم ، وليست بكلام سيد قطب أو محمد قطب ، وكلكم تعلمون ذلك ، وهذه قضية بسيطة صارت فى حكم البدهيات يعرفها الصغير والكبير والعالم والجاهل ، حكومة قد ارتضت نظاما غير الإسلام ، وشرعية غير القرآن ، ثم زادت فى فسادها، وتاجرت فى الخمر ويسرت الزنا للناس ، وفتحت أندية الميسر ، وفعلت كل الموبقات وباركتها ماذا تقول فيها أنت ؟

وكانت الذروة ، وارتفع الصراخ ، واختلطت الأحاديث ، فلم يعد أحد يدري ماذا يقوله الآخر ، وتضاءلت المنصة وتبادلوا الهمس . وضرب عبد العال سلومة بشدة على المنضدة :

— فلننتقل إلى نقطة أخرى .

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى هطلت السماء مطرا شديدا ، وقامت المنصة لتحتوى من المطر فى المكاتب ، وتركونا فى الفضاء المكشوف بالملابس الخفيفة التى على أجسادنا ، ولم يسمحوا لنا بمغادرة المكان ، ورغم هذا لم يشعر أحد به ، فقد كانت الأنفاس تلهث ، والكل فى شغل شاغل بأفكاره عن المطر وعن أى شىء آخر ، وكنا نرقب محمد قطب وهو يعود إلى مكانه بينما فى هدوء وسكينة ، ونريد أن نحياه ولكن لا نستطيع .

وعادت الجلسة إلى الانعقاد ، بعد أن ذهب المطر ،
وعادت المنصة إلى مكانها ، وقبل أن ينتقلوا بنا إلى نقطة
أخرى كما عودونا شق الصمت صوت :
— أريد أن أسأل سؤالا .

والتفتت الرؤوس ليعرفوا صاحب هذا الصوت ، وكان
المرحوم أحمد نصير المحامي ، وكانت هذه هي المرة
الأولى التي أراه فيها ، ثم صحبتته بعدها سنتين ، كان فيها من
أشجع الناس وأجرئهم في قول الحق ، مهما ترتب على ذلك
من تبعات ومتاعب ، ومات رحمه الله في ظروف غامضة ،
في القصر العيني منقولا من معتقل طره السياسى .

وعرفه واحد من المنصة فقال :

— هذا أحمد نصير وخاله سيد قطب وكذلك محمد
قطب .

وناداه عبد العال سلومة :

— تعال هنا . .

وصعد الرجل إلى المنصة .

— نحن الذين نريد أن نسألك سؤالا .

— تفضل .

وأجلسوه في المكان المخصص لأولئك الذين يريدون
تجريحهم وتجريمهم :

— ماقولك في سيد قطب ؟

— هو خالى ، وهو أمر يجعلنى أختال بينها بين الناس ،
وهو أمر يملؤنى بالفخر والعزة ، ولا أظن أن هذا يخفى
عليكم .

— إذن فأنت على أفكاره ؟

وانفجر الرجل فيهم كالبركان :

— يامنافقون ياغشاشون . هذا هو عالم الإسلام العظيم ،
الذى تشرف مصر به على سائر البلاد ، تتكلمون عن كفر
الحكومة ، وهل فى هذا شك ياأوغاد ؟ أنتم أكثر الناس خيرة
بها ، وتعرفونها كما تعرفون أبناءكم ، أمن أجل بضع سياط
أخذناها على أجسادنا نكفر بالله العظيم وبدينه القويم ، بئس
القوم أنتم لنبيكم ولدينكم .

ولم تكن بضعة سياط كما قال ، بل كانت ساقاه
ممزقتين بالسياط وهو يتحدث . عليه رحمة الله .

وهاج الناس كالعادة ، وتدخل سلومة بفض الجلسة والأمر
بالعودة إلى العناير ، وعاد الناس ، وعلى السلم أوكلوا
بالمرحوم أحمد نصير من أوسعوه ضربا ولكما ، حتى سال
الدم من أنفه وفمه ، ولم يسمع أحد عن السؤال الذى كان
يريد أن يسأله .

عدنا إلى العنبر فى هذا اليوم البارد من أيام شهر نوفمبر
عام (١٩٦٦) وأقيمت الصلاة وصلى الناس ، وجلس
البعض يتناول طعام الغداء وامتنع البعض الآخر عن ذلك ،
وظل الجميع سكوتا ، قد شغلتهم أفكارهم ، وأذن للمغرب ،
وصلى الناس ، وعادوا إلى صمتهم ، ثم أذن للعشاء ، وصلوا
وانصرف كل واحد إلى مكانه ، لايتحدث إلى أحد ، ولم
يتناول أحد عشاءه ، ولا أذكر حديثا تبادلته واحد مع آخر فى
تلك الليلة .

وأذكر أيضا أنني لم أذق طعم النوم فيها ، وكانت أفكارى
تعذبني ، هل من العدل أن يتحمل بعض الناس هذه المواقف
الكبيرة ، بينما نكتفى نحن بالنظر والتأمل ؟ إلى أى مدى
يمكن أن يصل هذا الطغيان ؟ كنا أبصر الناس بمصر فى تلك
الأيام ، وكل واحد يدرك جيدا ، ماذا يمكن أن يحدث لبلد
قد تحكم فيه حاكم جاهل مستبد متغطرس يفعل بالناس
ما يشاء ؟ وهل حلال سكوتنا وتقيُّتنا أم حرام ؟ أسئلة ظلت
تمور فى رأسى ولا أجد لها إجابة ، حتى قام واحد من
الإخوان وأذن لصلاة الفجر .

أخرجونا كالعادة إلى الساحة .

ومن بين الهتاف والضجيج ، نصب المهرجان من جديد .
وكان نجم المنصة المرحوم منير دلة عضو مكتب
الإرشاد .

وكان رحمه الله هادئا جسيما وسيما ، فيه أناقة رغم لبس
السجن الذى يرتديه ، أبيض مشربا بحمرة ، كستنائى الشعر
خشنه ، على عينيه نظارة طبية ، لبقا ، دبلوماسيا ، حذرا فى
حديثه ، يتجنب الخوض فى المتشابه من الوقائع ، يريد أن
يؤدى دوره ، دون أن يفقد وقار القائد ، وبغير أن يفسد على
الناس حقيقة ما يفهمون ، فإن كانوا يريدون مهرجانا فلا بأس
منه ، فى حدود عدم الخروج عن المسلمات العامة الدينية
التي حكمت جماعة الإخوان .

— أنت الذى جئت بحسن الهضيبي مرشدا عاما
للإخوان ؟

— لقد اقترحت هذا فقط ، وليس فى وسعى تعيين مرشد للإخوان .

— كان هناك عبد الرحمن البنا ، والباقرى ، وصالح ع شماوى ، وعبد الحكيم عابدين وآخرون ، وكلهم من قدامى الإخوان ، وأعرف بالجماعة من حسن الهضيبي .

— قد جمعت كل هؤلاء ، وطلبت منهم أن يتفقوا على واحد منهم وتعذر هذا ، وبذلت غاية جهدى فى توحيد كلمتهم على واحد منهم ، أى واحد يختارونه بلا فائدة .
— فتأتيهم إذن بواحد من خارج صفوف الجماعة وتجعله مرشدا عاما ؟

— لم يكن حسن الهضيبي من خارج الجماعة ، وكان المرحوم حسن البنا يزوره دائما بقريته عرب الصوالحة ، مركز شبين القناطر ، ويقول عنه : هو شامة بين رجال القضاء ، وكان يثنى عليه فى مجالسه الخاصة والعامة .

— ما رآه أحد فى المركز العام .

— كان حسن الهضيبي حريصا على دروس الثلاثاء ، التى كانت تقام بالمركز العام ، وكان يجلس فى آخر الصفوف حيث ينتهى به المقام . وبحكم منصبه القضائى لم يكن من المناسب أن يظهر بشكل علنى فى تشكيلات الجماعة .

والتفت عبد العال سلومة بوجهه الأحمر وعينه الخضراوين وبلهجته المشيرة :

— ألم يكن هناك من يصلح لمنصب المرشد العام غير حسن الهضيبي ؟

— بلى ولكنهم لم يتفقوا كما قلت .

وبسخرية واضحة :

— ويتفقوا على حسن الهضيبي عندما ذكرته لهم ؟

وفى ثقة وتأكيد أجاب منير دلة رحمه الله :

— هذا ماحدث بالضبط . لقد فكرنا فى أسماء كثيرة .

فكرنا فى مصطفى مؤمن ، والدكتور عبد العزيز كامل ،
وآخرين أقل شهرة وأصغر مكانة من حسن الهضيبي ، وصوتنا
على الأسماء فى اجتماعات تمت بيتى ، ولم يحصل أحد
من المرشحين على أكثر من صوته هو ، وعرضت اسم حسن
الهضيبي على المرشحين الكبار ، وأجمعوا على الموافقة
عليه ، ورحبوا بهذا الاقتراح ترحيبا كبيرا .

وكان الناس يتابعون حديث منير دلة فى اهتمام كبير ،
والشغف باد فى العيون المتطلعة ، والآذان المرهفة ،
والصمت الذى يلف المكان ، وكانت المقاطعة الساخرة
المتهمكة هى غاية جهد المنصة فى إضعاف صوت منير دلة ،
وفى تهكمه الدائم قال عبد العال سلومة :

— وسارع حسن الهضيبي بقبول المنصب أليس كذلك ؟

وأجاب منير دلة فى ثقة وقوة :

— على العكس من هذا تماما .

— لم نخبرنا بهذا .

— أنت لم تعطنى فرصة للحديث .

— تكلم كما تشاء ، نحن لن نغادر المكان حتى يعرف
هؤلاء الشباب حقيقة الإخوان المسلمين .

وارتفعت الهاتفات من هنا وهناك ولم يسمع التردد عاليا
هذه المرة :

« لارجعية ولا إخوان ولا تجارة بالأديان » .

وواصل منير دلة حديثه ، بعد أن أدار وجهه هنا وهناك
منتظرا نهاية الهاتف :

— لم تكن فكرة ترشيح حسن الهضيبي تخطر على باله
بالمرة ، وفوجيء بها ، ورفضها بشكل قاطع حاسم ، ورفض
مجرد مناقشتها في أول الأمر . وتحدثت إليه وشرحت له
ظروف الجماعة ، وكيف أنها حلم المسلمين في التخلص من
الاستعمار والقضاء على الفساد في مصر ، ثم تحقيق الإسلام
في المجتمع ، وكيف أن هذا الحلم يوشك أن يضيع .

— وهل جماعة الإخوان تريد تحقيق الأهداف الوطنية
والقومية ؟

— أنا أحكي الآن عن ظروف اختيار الأستاذ الهضيبي
مرشدا عاما لجماعة الإخوان المسلمين .

وأكمل له عبد العال سلومة وهو يضغط على الحروف :
— المنحلة .

والتفت إليه منير دلة وردد خلفه موافقا في هدوء :
— المنحلة .

— تفضل . أكمل كلامك .

واستطرد منير دلة :

— وعندما علم الأستاذ الهضيبي أن موافقته على هذا الترشيح ، قد تحمى جماعة الإخوان من الانهيار وافق على مناقشة الفكرة ، وعرض المشاكل والصعوبات التي تكتنف فكرة كونه مرشدا عاما للإخوان . وكان منها أنه لا يعرف شيئا عن تنظيمات الجماعة وتشكيلاتها ، فأفهمناه أننا سنعرض عليه تفاصيل كل شيء ، وباختصار ذلنا له كل العقبات التي أشار إليها ، ووعدناه بالوقوف معه في كل صغيرة وكبيرة .

— أنت إذن الذى عينت المرشد العام للإخوان ؟

— عندما رحب المرشحون الكبار باسم حسن الهضيبي ، عرضنا الأمر على مكتب الإرشاد الذى وافق على هذا الترشيح . ومكتب الإرشاد هو الهيئة التنظيمية التي تدير شؤون الجماعة ، وترسم السياسات العامة لها . وهو صاحب القرار وأعضاؤه مشهود لهم بالفضل ، ومطاعون فيما يشيرون به ، ثم أخذت له بيعة عامة من كل أعضاء الجماعة في كافة البلاد .

وارتبك الجمع وبدت الحيرة في وجوه القائمين على التوعية ، فالرجل يتكلم في شجاعة ويقين ، ولا يبدو عليه الارتباك والتردد ، السلاسة واضحة في ألفاظه وكلماته ، وقلب الرجل وجهه في الموجودين في تواضع شديد وتأثر بالغ وقال :

— هل هناك أسئلة أخرى تطلبون مني الإجابة عليها ؟

وانبرى له واحد من ركن بعيد سأل فالتفتت الأعين إليه :

— نريد أن نعرف قصة عبد الحكيم عابدين .

ومرت لحظة تأمل وتردد ، ثم التفت منير دلة إلى السائل :

— وأية قصة لعبد الحكيم عابدين ؟

— قد نسبت إليه أفعال وأقوال أنت بها عليم خبير .
— ربما كان هذا صحيحا ، ولكنى لا أذكر تفصيل ذلك
على الإطلاق .
ونطق الرجل كلامه بحزم وقوة وسكت الجميع .
وارتفع صوت عبد العال سلومة :
— لننتقل إلى موضوع آخر .

كان أحمد عادل كمال أول من صعد إلى المنصة
للاستجواب ، ولعله كان الثانى ، لا أذكر على وجه
التحديد ، ولكن كانت المناقشة معه من أكثر المناقشات إثارة
وحيوية ، ويعتبر أحمد عادل كمال من أكثر الذين عُذبوا فى
السجن الحربى ، وكان يضرب به المثل ، ويعرضونه على
المعتقلين الجدد يخوفونهم به ، والتقى به واحد بعد سنوات
وقال له :

— لقد كنت السبب فى سجنى ثلاث سنوات .

وأجابه عادل كمال :

— لماذا ؟ أنا حتى لم أرك أثناء التحقيق ، ولم يذكر
اسمك فيه .

فقال الرجل :

— جاءواى من البيت وأدخلونى حجرة رأيك فيها مغشيا
عليك مسلوخا تنزف دما وقالوا لى اعترف أو تكون كهذا ،
فاعترفت بما لم أفعل ، وأجهدت عقلى فى إثباته ، وكان
الحكم ثلاث سنوات .

وكان أحمد عادل كمال — كما قلت — قد خرج لتوه من محنة العذاب الشديد فى السجن الحربى ، بدعوى أن هناك تنظيما هو على رأسه والكل حريص على إثبات هذا ، وكانت المرارة بالغة ، عندما حرص عدد من المتهمين معه على إثبات ذلك أيضا ، مدفوعين من الضابط عصمت الذى يريد الترقية والمكافأة ، وأصر عدد قليل على الرفض وكان إصرارهم مع عادل كمال ، وكان إصرارهم سببا فى انتهاء هذه القضية ، ومن ثم لم يقدم أحد إلى المحاكمة .

وعند خروج عادل كمال من السجن الحربى إلى أبى زعبل استوقفه شمس بدران ، وانتحى به ناحية :

— هل تعرف إلى أين تذهب ؟

— كلا .

— أنت ذاهب إلى المعتقل ، معتقل لاضرب فيه ، ولكن لاخروج منه .

— لماذا ياسيادة العقيد ؟ لقد ثبتت براءتى .

— عندما أتكلم أنا تسكت أنت هل تفهم ؟

وانكمش أحمد عادل كمال وهو يتمتم :

— أفهم ياسيادة العقيد .

وانبرى شمس بدران يحدثه فى عظمة وخيلاء :

— قد انعقدت لجنة ، وقررت اعتقال مجموعة من الناس أنت منهم ، ولا يفرج عن معتقل واحد إلا باجتماع هذه اللجنة ، وإجماعها على الإفراج عنه ، وهذه اللجنة لن تجتمع مرة أخرى ، فهى قد شكلت لتحديد من يجب اعتقاله إلى الأبد ، والأبد شيء بعيد .

وأنصت أحمد عادل كمال مستسلما هادئا ، ولم تفارقه
رزائته رغم بشاعة ماكان يقوله شمس بدران ، وكأنه ينتظر
منه إجابة أو كلاما .

— مالك لا ترد .

— لقد أمرت سيادتك بأن أصمت ، وليس هناك ما يمكن
قوله .

— ألا يجعلك هذا تشعر بالخوف ؟

— ليس أكثر مما رأيت ياسيادة العقيد .

ونظر إليه شمس بدران طويلا ، وارتسمت على وجهه
ابتسامة شيطانية :

— أستطيع أن أنقذك من هذا .

— يكون لك الشكر الكثير ياسيادة العقيد .

— لهذا ثمن يجب أن تدفعه ، نحن على اقتناع تام من
أنك كنت على رأس تنظيم سرى ، الغرض منه قلب نظام
الحكم ، ورغم عدم إثبات ذلك فى التحقيق الذى تم ، أنت
وغيرك لم يثبت ضدهم شيء ، ولكنهم سيظلون فى المعتقل
إلى الأبد ، وكما قلت لك أستطيع أن أستنيك من هذا .
— قلت إن هناك ثمنا لهذا .

— بالضبط . أى مسئول فى أى موقع من أرض مصر لابد
وأن يكون من رجالنا ، يكتب لنا التقارير ، وينقل لنا أخبار
كل شيء ، وينفذ ما نريد منه دون مناقشة ، هكذا الأمر دون
مواربة ، أفرج عنك وأمنحك وظيفة كبيرة عظيمة ، وتكون
كما قلت ، تكتب لنا التقارير ، وتنقل لنا الأخبار .

— —

- مالك سكت .
- ليس عندي ما أقوله ياسيادة العقيد .
- إذن فأنت تفضل المعتقل الأبدي .
- لا يوجد شيء لانهائي ياسيادة العقيد ، لكل شيء نهاية .
- هيا لتلحق بالصف فقد جاءت العربات ، اعتقال لانهاية له وسوف ترى بنفسك صدق ما أقول .

وفي صمت ركب « أحمد عادل كمال » العربة وأخذت طريقها إلى القلعة ، فأبى زعبل ، حتى مثل أمام لجنة التحقيق في جمع المعتقلين الغفير ليجيب عن الأسئلة التي كانت تأتيه من كل جانب .

- متى انضمت إلى النظام الخاص ؟
- متى أنشئ النظام الخاص ؟
- هل كنتم على حق ؟
- هل أنتم جماعة المسلمين أم جماعة من المسلمين ؟
- ما الذي فعله الرئيس جمال عبد الناصر حتى تحاربوه ؟
- ما ذنب الشباب الذين ضللتهموهم وخذعتموهم ؟

وكان وجه الرجل ساخرا نبيلاً ، تعلوه ابتسامة تشكل تعبيراً لا يمكن أن ينسى ، فهي مزيج من أشياء عديدة ، وكأنه تجرد من الخوف ، ولم يبق عنده غير الإشفاق الساخر ، مع روح التحدي المتوثبة ، التي كانت أيام كان يقاوم الإنجليز

فى القاهرة والقنال ، واليهود أيضا فى القاهرة وفلسطين . وفى
هدوء ارتفع صوته الهادى الذى لا يكاد يسمع :

لا أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة دفعة واحدة .

وارتفع صوت :

— متى انضممت إلى النظام الخاص .

وفى بساطة أجاب :

— لا أذكر على وجه التحديد ، ربما عام (١٩٤٦ أو
١٩٤٧) .

ومن زاوية حسب تدير المخرج الذى أشرف على العرض
انطلق صوت :

— متى أنشئ النظام الخاص ؟

— يقولون إنه أنشئ عام (١٩٤٢) ، وظنى أنه قد
انشئ قبل ذلك ربما عام (١٩٣٨) ، بعد ثورة فلسطين
ضد اليهود عام (١٩٣٦) ، وبعد توقيع المعاهدة المصرية
الإنجليزية فى العام نفسه ، وهناك سؤال فاتكم ، لماذا أنشئ
هذا النظام الخاص ؟ والإجابة لتحقيق الأمنى الوطنية
والقومية ، لحرب الإنجليز فى مصر ، واليهود فى فلسطين .

وجاء صوت حاد رفيع من أقصى المكان :

— كانت هناك أخطاء فى تصرفات النظام الخاص .

وفى هدوئه الذى لا يفارقه أجاب أحمد عادل كمال :

— لا يخلو أى عمل فى الدنيا من أخطاء .

وانطلق سؤال كأنه السيف القاطع الصارم :

— أنت قتلت السيد فايز عبد المطلب ، لماذا ؟

— هذا غير صحيح .

— ماهى معلوماتك عن قتل السيد فايز عبد المطلب ؟

— ذكرت الصحف فى تلك الأيام أن الأستاذ إبراهيم هاشم ، وكيل النائب العام فى نيابة شمال القاهرة ، قد واصل التحقيق فى حادث الانفجار ، الذى راح ضحيته المرحوم المهندس «السيد فايز عبد المطلب» وشقيقه وإحدى السيدات ، وكانت إحدى شقيقات المهندس القاتل قد ذكرت فى التحقيق ، أن شخصا حضر إلى المنزل وسلمها صندوقا من الورق المقوى ، هدية إلى شقيقها من صديق له ، كان متهما معه فى إحدى القضايا .

— أنت المعنى بهذا ؟

— هذا صحيح .

وتدخل عبد العال سلومة :

— أكمل حديثك لو سمحت .

واستمر عادل كمال كأنه لم يعارضه أحد :

— تعرفت شقيقة المرحوم سيد فايز على أثناء العرض الذى أجرته النيابة ، وقالت إننى الذى أحضرت هذه اللعبة التى أدت إلى الانفجار .

— هذا دليل دامغ .

وواصل الحديث دون أن يلتفت إليه :

— أثبت للنيابة أين كنت فى يوم الحادث طوال النهار .

— وكيف أثبت هذا ؟

— كان ذلك اليوم إن لم تخنى الذاكرة من أيام نوفمبر ،
وكان شديد الزوابع والعواصف ، وبقينا فى المنزل سويا من
أول النهار إلى آخره فى أثناء حدوث الحادث ، كنت أنا
وأحد الإخوان المسلمين ، وقد شهد بهذا فى التحقيق .
— كنتم تعملون عملا له صلة بالنظام الخاص ؟

— بالضبط . وعندما ووجهت شقيقة المرحوم بأقوال
الشاهد عدلت عن أقوالها ، وقالت إن شخصا أوهمها أنني
القاتل ، وطلب منها التعرف على أثناء عرض النيابة . وقد تبين
لنيابة أن هذه الواقعة لاسند لها من الحقيقة ، وهذا ما ذكرته
الصحف فى تلك الأيام ، وقد حققت معى أجهزة تعرفون
كيف كان تحقيقها يدور ، وثبتت براءتى من هذه التهمة
الشنيعية ، فكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله
وعرضه ، وكان المرحوم سيد فايز أخا عزيزا ، اشتركنا سويا
فى أعمال عظيمة لها قيمتها على المستوى الوطنى والقومى
والإسلامى .

— من قتل سيد فايز فى رأيك ؟
— الظن أنه كان يجرب بعض العبوات للتفجير ،
فانفجرت واحدة وحدث الحادث ، أما الحقيقة فيعلمها الله
سبحانه وتعالى .

وانطلق سؤال :

— من كان معك فى البيت طوال النهار الذى قتل فيه سيد
فايز ؟
— الأخ إبراهيم صلاح ، وهو حى يرزق ، ومعروف لدى
أغلبية الموجودين .

- إذن فأنت لم تقتل سيد فايز ؟
- لقد أنشئ النظام الخاص لقتال الإنجليز واليهود والسراى ، وليس لقتال الإخوان المسلمين ، ولو استطاعت أجهزة التحقيق أن تجد أدنى شبهة مارتكتنى .
- هل كانت جماعة الإخوان المنحلة هى جماعة المسلمين ؟ أم جماعة من المسلمين ؟
- فى رأى أنها كانت جماعة من المسلمين .
- ومازالت كذلك ؟
- هذا أمر تجيبون أنتم عليه .
- والانفجارات والقنابل التى ألقىت هنا وهناك ؟
- هذه أمور تم التحقيق فيها وقتلت بحثا ، والقضايا السياسية يجب أن ينظر إليها من منظور يختلف عن سائر القضايا الأخرى .

- لو عاد الزمن بك هل تغير أفكارك وآراءك ؟
- لقد كنت أشترك فى مقاومة الإنجليز المحتلين ، وأسهمت فى حرب اليهود الذين اغتصبوا فلسطين ، وكنت شوكة فى حلق السراى والحكومات التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو ، وكنت أحد قلائل من خارج الجيش ، يعرفون موعد قيامها الذى أجل يوما كاملا ، وكنت أشترك فى العمل الوطنى ، وقد عرضت حياتى للخطر الدائم من أجل تحقيق غايات نبيلة ، فهل هذه الأفكار التى تودون منى أن أتخلى عنها لو عادت بنا الحياة مرة أخرى ؟

- نحن نتكلم عن نقطة محددة .
- وأنا أتكلم عن نقطة محددة أيضا .

— أنت تراوغ وتلعب بالألفاظ ، ولا تريد أن تجاوب
بصراحة على الأسئلة .

— أنا على استعداد كامل للإجابة عن أى سؤال .

— بالطريقة التى تريدها ؟

— لا توجد طريقة أخرى أعرفها .

وتدخل عبد العال بك :

— فلنتقل إلى نقطة أخرى .

ونزل أحمد عادل كمال من فوق المنصة ومشى بين صفوف
الجالسين ، حتى وصل إلى مكانه بجانبى قبل أن يصعد
وسألنى :

— مارأيك فيما قلت ؟ يبدو أننى لم أحسن التعبير .

وهمسا وخوفا من أن يسمعنى أحد :

— لقد أجملت وأحسنت وكنت شجاعا .

وجلس الرجل بجانبى مهموما مثقلا بسنين طويلة من
الكفاح ، ترقد فوق كتفيه ، وتطل من بين عينيه المتوثبتين ،
وظل يشاهد العرض الردىء ، وتعلو وجهه غمامة حزن لضياح
تلك الحقبة من التاريخ فى نظر أصحابها .

وكان الذعر والصمت يخيم على الجميع ، ولا يقطعه غير
صبيحات الهرج والمرج فى الحلبة الرومانية ، حيث الأصوات
العالية ، من جمع غفير ، قد خلا من الأسود والشهداء .

كانت هناك بعض الجمعيات الإسلامية في معتقل أبي زعبل ، ولها بعض الممثلين عنها ، كالجمعية الشرعية والهداية الإسلامية ، ومعها الشيخ حافظ سلامة ، وبعض جمعيات أخرى صغيرة ، منها ما تكون لدفن الموتى من المسلمين الذين لا يجدون نفقة ينفقونها عليهم لدفنهم ، ولا أدري لماذا أتوا بهم إلى المعتقل ، ولماذا أشركوهم في هذا المهرجان الصاحب الكبير ، والكل يسب جماعة الإخوان والأوامر تقضى بهذا ، ففي لحظات الصمت ينطلق الهتاف منظما يقوده دعاة منظمو مدرّبون ، قد أعلنوا من قبل ما يصرخون به .

وكانوا كثيرا ما يتركون الناس يهتفون بأنفسهم ، ويرتجلون في صراخهم .

ورأيت « عبده معروف » وهو يقترب من أعضاء الجمعية الشرعية ، بلحاهم البيضاء الوقورة وعمائمهم الكبيرة ، وكانوا أربعة هالهم مارأوا ، وكان اضطرابهم عظيما ، فهم يهتفون مع الهاتفين ويصرخون مع الصارخين في نشار يؤثر على الإيقاع ، ونغمة شاردة تائهة خائفة ، ولكنهم يرددون . وقال لهم « عبده معروف » :

— لاتسبوا الإخوان ، بل اهتفوا بسقوط جمعيتكم ، تعليمات الحكومة تقضى بأن يسب كل واحد جماعته ، فالإخواني يشتم الإخوان ، وعضو الجمعية الشرعية يلعن جماعته ، وأصحاب الهداية الإسلامية يسبونهم ويتبرعون منها ، ولايجوز لأحد أن يسب غير جماعته .

واهتزت العمائم الكبيرة ، واضطربت اللحى البيضاء الخائفة المرتعشة ، وعزفت لحنا جديدا بنشيد مختلف .

ورأى الشيخ محفوظ كبيرهم ، وكان رجلا طيب القلب
صالحا ، تعرفت عليه بعد ذلك ، وجاورته سنين طويلة ،
وكنت أنظر إليه متأملا شاردا ، وسكت الرجل عن العزف
والإنشاد ، وبدت في عينيه علامات الاعتذار ، وهمس لى :
— فلتتحمل هذه الضجة ، قليل من « الهيصه » والهيجان
ثم نذهب إلى بيوتنا .

وابتسمت له مطيبا خاطره ، فالكل شركاء فى هذا
المهرجان .

وقد خاب أمل الشيخ محفوظ ، فقد مكثنا فى السجن
بضع سنين بعد هذا الحادث .

كانت آثار التوعية بالغة ، فقد كنا نعود إلى العنابر مساء
وقد أنهكت قوانا من الهتافات المتكررة التى أجبرنا عليها ،
ومن الجلوس على البلاط فى البرد الشديد ، وعدم تقديم
الطعام الرديء فى موعده ، بل كانوا يؤجلونه حتى نهاية
المهرجان ، والانفعالات التى تملأ القلب بالخوف والوجل
والترقب ، ويجلس كل واحد على نمرته خائفا يشغل نفسه
بشئ يفعل حتى يتجنب النظر إلى من بجواره خجلا أو
خوفا .

وكل يحاول تبرير تصرفه فى النهار ، فى تصرفات يائسة
ساذجة ، أو كلام لامعنى له إن أسعفته شفتاه بالكلام ، وكل
يحاول أن يتخيل لحظة انتهاء هذا المهرجان ، وكيف يمكن
أن يعود بشرا سويا أمام زملائه وقرنائهم ، ويفرق الجميع فى
شجى عميق وحزن بالغ يملأ النفس ، لا يستطيع أحد أن

يظهره ، وإلا فهو يصنف من أعداء الحكومة ، تلك الحكومة القوية القادرة ، المتمكنة من أفواه الناس وتريد التمكن حتى من خلجات نفوسهم ، ثم يأتي النوم ، فلا يستريح أحد ، فخواطر المساء أكثر ازدحاما في النفوس والرغوس ، أما النهار فكله انشغال بجودة الأداء ، والانتباه إلى أية معلومة ، أو أمر قد يأتي من مكان مجهول ، عبر فم لا يدري أحد في أى الوجوه كان ، ومن خلال صوت يأتي من قريب أو بعيد ، لا يمكن لنا استعادته من جديد ، فهو الغيب ، أو قدر كان ويكون ، يسعى إلينا ونسعى إليه ، ونحن معه صنوان في تنهيدة خافتة ، وآهة تخرج من جوف الليل ، ملتهبة بالكلمات والذكريات العبة العميقة . ونهار صعب يأتي بعده ليل أكثر صعوبة ، فعودة إلى أحاديث القردة والخنازير من جديد .

عندما يصبح القاضي سفاحا قاتلا ، وعندما ترى نفسك ، وقد اضطررت للوقوف أمام جلاد ترتضى حكمه فيك ، لك أو عليك حسب ما يرى ، أو حسب ما يكون عليه مزاجه ، فالحسرة عند ذاك عظيمة وألم النفس بالغ ، وهوانها عليك وعليهم أبعد أثرا وأكثر حدة . وهى لحظات تبحث الذات فيها عن الإيمان فى أعماقها ، وهو الملاذ والمعين فى عالم قد فقد شكله ومعناه ، وغاية ما يفعله الإيمان فى لحظة من تلك اللحظات أن يحمى النفس من الدمار والضياع والتمزق .

وكانت الأيام الأولى لتلك التوعية تجعلنا لانام الليل من كثرة التفكير ، وكانوا يحرسون على إيقاظنا فى الصباح المبكر ، وقد ساعدتهم على ذلك الذباب الكثير الذى يملأ العنبر مع خيوط الصباح ، وبعد أن توالى الأيام بعد ذلك ، صرنا نشعر بالجهد الحاد من قلة النوم ، والشك والخوف

والتمزق يملأ النفس بالحسرة فسرعان ما نشعر بالتعب الشديد ، ونستغرق فى نوم هو إلى الكوابيس الثقيلة أقرب ، فكأنه عذاب القبر فى عالم البرزخ قبل أن يطلع النهار .

قل المرح فى نفوس الناس ، وغشيت المعتقلين كآبة عميقة ، ومرت أيام على بداية التوعية ، فصار الناس يؤدون فى آلية ورتابة ، وكل شىء مفروض عليهم ، وليس أمامهم حق الاختيار ، وشعورهم أن العيون ترصدهم من كل جانب ، وكأن مسجلا كبيرا يلف المكان ، فهم إلى الحذر أقرب ، ورحمة الله وفرجه قريب من المحسنين .

واقتربت التوعية من أيامها الأخيرة ، وتسلسل الفرج إلى الصدور فهى علامة لساعة الرحيل عن المعتقل ، هكذا ألقى فى روع الجميع ، وقد آذنت الرحلة على النهاية ، ولم يبق على ذلك إلا ساعات قلائل .

ظهر سادة جدد لمجتمع الإخوان من الإخوان ، وترأست أسماء كثيرة وصارت لها المكانة والسلطات . وكنا نميز هؤلاء السادة بحلاقتهم المتأنقة وملابسهم النظيفة الغالية ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ، وكان واحد من هؤلاء السادة الجدد يضمخ وجهه وملابسه ببعض العطور ، فكنا نعرفهم بهذا ، ونعرفهم فى لحن القول .

الجوقة كما هى ، والعازفون فى مكانهم ، ولم يتغير غير النشيد .

وكانت هناك غرفة فى الطابق الأول ، بها مكاتب ومقاعد وأوراق كثيرة ، وآلة للكتابة ، عليها من يدق طول الوقت ، وأوراق تكتب ، وأوراق تخرج ، وأخرى تدخل ، وقوم معلمون يروحون ويجيئون فى جدية وكتمان ، وسرى بين

الناس خبر مؤداه أن المهرجان ماهو إلا امتحان ، وفيه نجاح وفوز ، وفيه أيضا رسوب وفشل ، والكل قائم على المرصد ، يرصد الدرجات ويحصى الخطوات ، ويصبر الأنفاس وهي تهمس لاهثة ، ويقيد النظرة وهي تخون الجميع ، ويكتبون ويكتبون حتى يأتى الموعد . وجاء الموعد وانفض الناس بعد حين قريب بعيد .

انتهت التوعية : ومكث المعتقلون فى العنابر أياما طويلا ثقالا ، لا يعرفون ما يراد بهم ، وكانوا يخرجون من كل عنبر واحد أو اثنين ، ولا يظهر واحد منهما إلا مع الليل ، ويدخل بعد أن يفتح له الشرطى الباب ، ثم يغلقه مرة أخرى ، ولا يكلم أحدا ويسكت جميع الناس ، ولا ينطقون إلا مع الصباح وظهرت نتيجة الامتحان .

لا إفراج هناك .

ولكنهم يؤكدون أنه قادم .

نادوا على كل من كان فى الطابق الثالث وأخرجوهم فى جماعات ، وظن الناس أنه قد أفرج عنهم ، ولكننا علمنا بعد ذلك ، أنهم ذهبوا بهم إلى معتقل مزرعة طرة . وأعادوا توزيع كل من بقى فى الدور الثانى من جديد ، بعد أن قل العدد إلى النصف .

وجمعوا ستة وثلاثين شخصا فى عنبر (١٢) ، وقالوا : إنه العنبر الذى لن يفرج منه عن شخص واحد ، حتى تقوم الساعة ، وهكذا كانوا يرددون وسموه عنبر الزعماء ، وكان بالعنبر أغلب من تم استجوابهم فى التوعية . فكان هناك منير دلة ، ومحمد قطب ، وأحمد عادل كمال ، وشكرى

مصطفى ، وحافظ سلامة ، وشمس الدين الشناوى ، وأحمد
نصير ، ومحمد المأمون الهضيبي ، ويوسف كمال ،
وصلاح الأنور ، وعبد الفتاح المحروقى ، وعزى بكر ،
ومصطفى كامل ، والسيد عيد ، وفريد العراقى .

ولست أدرى لماذا وضعونى فى زمرة هؤلاء الفضلاء الذين
وصفوهـم بالزعماء .

وماهى إلا أيام فى العنبر الجديد ، حتى شعرت بالنقلة
المختلفة التى انتقلناها ، فقد تبدد الخوف أو كاد ، بعد أن
تبين الناس وعلم أصحاب عنبر (١٢) ، أن لا خروج منه
على الأقل إلى أمد ليس بالقريب .

ارتفعت الأصوات قليلا ، وتنفس الجميع الصعداء ،
ورانت على القوم سكينه وهدوء ، فلم يعد هناك أمل فى
الخروج ، واليأس أحد الراحتين كما يقول العلماء
والحكام .

وكثر الهرج والمرج فى المعتقل من جديد ، وقالوا : إن
التوزيع الذى تم على العنابر قد تم بخطه مدروسة ، وأن كل
عنبر له درجة من الدرجات ، وليست هناك قاعدة لتكشف
القاعدة التى بنى عليها هذا التقييم ، واتفق الجميع على أن
أسوأ العنابر حالا هو عنبرنا عنبر (١٢) وأن هناك ترتيبا
آخر للعنابر لايعتمد على الأرقام .

وطالب البعض بإعادة التقييم من جديد .

وحدثت مظالم ومزالق وكان تهافت ، وشغل الناس ،
وكان عنبر (١٢) بعيدا إلى حد كبير عن هذا الشغب ، فهو
عنبر خارج عن اللعبة كما يقولون .

وسارت الأيام بطيئة ، وعبرنا قد تيباً لاعتقال طويس .
وكانت إدارة المعتقل من المعتقلين ، قد تغيرت وشكلت
إدارة أخرى ، تختلف عن سابقتها بعد رحيل سكان الدور
الثالث .

وكانت أصوات ترتفع بالتعاشي السلمي مع الحكومة
وقبولها ، وكان هذا أمراً واقعاً لا يقدر أحد على رفضه إلا عدد
قليل .

وارتفعت أصوات أخرى ، تطور الأمر ، وتطالب بالعمالة
للحكومة بكل معانيها الرخيصة ، ورفض هذا الصوت أغلب
الناس جهاراً ، وصمت البعض لا يؤيد ولا يعارض ، وقد
تملكته حيرة من أمره وأصبح لا يدري ماذا يفعل .

ثم جاء يوم صعب .

وأعلن عبد الناصر إغلاق مضيق تيران ، وصنافين في وجه
الملاحة الإسرائيلية ، وأخبرنا الضباط أن هذا معناه الحرب
مع إسرائيل .

وأحب أن أذكر هنا شيئاً لمست بهنفسى ولمسه آخرون .
كان محمد قطب يقول لى — وكنت أسكن على مقربة
منه في العنبر : إن رؤى صادقة يراها في منامه . وكنت أقول
له : إن الرؤى الصادقة تكون غير محددة المعالم في ظنى ،
ولكنها تتكلم عن أشياء عامة أو تنبئ عنها .

وكان يقول : إنه يرى رؤى محددة المعالم عن أشياء
واضحة لاليس فيها ، وطلبت منه أن يخبرنى ببعض هذه
الرؤى عندما يراها وقبل أن تتحقق ، ووافق الرجل على هذا
وقدم لى أمثلة كثيرة أدهشتنى ، ولكن الذاكرة لا تسعنى .

أذكر منها مرة عندما طلع الصبح اقترب منى باسمها باشاً :
— سيأتى عبد العال بعد ثلاث .

وكان الأخ عبد العال محمد الأستاذ بكلية الهندسة —
جامعة أسيوط — قد رُحِّل إلى سجن القلعة ، منذ أكثر من
شهرين ، وكانت الأخبار منقطعة ، ولانعرف ماتأتى به الأيام
فى الغد ، بل كنا نعرف الأحداث عندما تكون .

وقلت له :

— ماذا تعنى بثلاث ؟

فقال :

— ثلاثة أيام أو أسابيع أو شهور .

وأكملت له :

— أو سنين ؟

ولكنه قال فى بشاشة وثقة :

— بل ظنى أنه بعد ثلاثة أيام .

ومرت الأيام وجاءوا بعبد العال من القلعة فى منتصف اليوم
الثالث .

وكنّا فى منتصف شهر مايو من عام (١٩٦٧) .

وجاءنى « محمد قطب » كعادته فى صباح الرؤيا
الصالحة :

— ثلاثون يوماً تبدأ من الغد فى كل يوم حدث عظيم ،
ونسر يتناول فى الفضاء ، ثم يهوى صريعاً من شاهق .

وتعجبت لرؤياه وسأته عن معناها فقال :

— أخبار تأتينا من الغد ، كل يوم خبر يرفع اسم
عبد الناصر عائيا ، ثم يهوى من شاهق ، في آخر الأيام
الثلاثين ، وتنتهي أسطورته ، ويبطل السحر .

وامتلأت دهشة وأنا أسأله :

— هل تظن هذا ؟

وقال الرجل ببشاشته وابتسامته التي لا تفارقه :

— أنا واثق من هذا ، الرؤيا الصالحة من الله .

وكان ما قال بالضبط ، ويشهد على هذا من يذكر
الأحداث من أهل عنبر (١٢) ، الذين كانوا مقربين من « محمد
قطب » وما زالوا أحياء .

وبدأت الأحداث تترى يأخذ بعضها بخطام بعض كما
وصف الرجل على وجه التحديد ، والذي يراجع صحافة تلك
الأيام ، يلحظ العناوين التي كانت تنزل كل يوم عن حدث
جديد وخبر مثير ، وصحافة العالم كلها تهرع إلى مصر
لتشهد النزال ، والنسر يعلو إلى أجواز السماء ، ويتكلم في
مؤتمر صحفي عالمي ، أنه على استعداد لنزال الأحمر
والأسود ، وأن إسرائيل أقل من أن يلتفت إليها ، وأنا أعاود
السؤال على محمد قطب .

— هل تظن رؤياك تكون ؟

ويقول الرجل مطمئنا دائما :

— سوف ترى بنفسك .

وانشغلت بالأحداث عن رؤياه .

وظهرت بشائر تغير فى تاريخ المعتقل ، وفى تاريخ مصر
وتاريخ العرب .

فى هذه الأيام سمحوا لنا بالصحف ، وكانت محرمة
علينا ، وزعوا على كل عنبر من العنابر صحيفة من الصحف
المصرية وكانت كلها متشابهة لاختلاف إلا فى اسم
الجريدة ، (الأهرام ، الأخبار ، الجمهورية) أسماء مختلفة
والموضوعات واحدة متطابقة ، الاختلاف فى عنوان الجريدة
واسمها ، وفى أسماء الموتى المكتوبين فى الصفحة قبل
الأخيرة .

وكانت الصحيفة تدخل العنبر فيتزاحم الناس عليها
يتخاطفونها ، أو يمزقونها إلى صفحات ، كل مجموعة
تمسك بورقة ، ثم اتفقنا أن يقوم واحد فىنا بجهير الصوت بقراءة
الجريدة كلمة كلمة ، حتى الإعلانات الميوبة ، فقد كانت تلك
أول مرة نحصل فيها على شىء مثل هذا .

وكنا ننتظر الصباح لنطلع على ما فيها ، رغم ما فيها من
هراء .

ثم صاروا يفتحون المذياع على نشرة الأخبار ، من خلال
مكبر للصوت يسمعه كل من فى المعتقل ، وكانوا يفتحونه
أيضا على إذاعة صوت العرب ، حيث يدق أحمد سعيد طبول
الحرب .

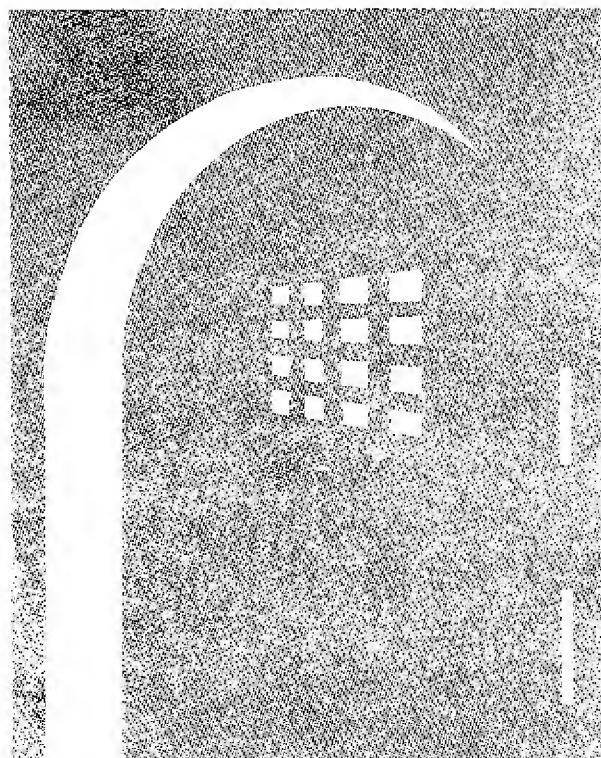
وخيم الذهول على الناس ، فأكثرهم عقلاء مجربون
يفهمون ، ولكنهم لا يكادون يدركون .

ولم يكن كل الناس قد سمع برؤيا محمد قطب .
وانتحي بي أحد الأصدقاء القدامى وقال لي :
— لقد خدعنا طويلا وعلينا أن نسلم لعبد الناصر وإلى
الأبد ، الرجل يجاوز عنان السماء .
وقلت له :

— أنت واهم الرجل يرتفع إلى عنان السماء ، ثم يهوى
من شاهق ، إنها الحرب ، وهو مهزوم فيها لامحالة ، لقد
صنع نظاما لا يقوى على حرب .
وهذا الصديق مازال حيا حتى الآن .

الفصل الثامن عشر

زنازين شمال



كانوا ينظرون إلى أصحاب عنبر ١٢ نظرة مليئة بالشك والريبة ، ويقولون إن هؤلاء المعتقلين المقيمين فى العنبر هم أهل الرأى ، وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إن خرجوا من المعتقل ، فهم أهل البقاء ، وإن طال الزمن وقد تقوم القيامة عليهم فى معتقل أبى زعبل ، وإن أصحاب العنابر الأخرى سوف يخرجون يوماً ، أما عنبر « الزعماء » فلن يخرجوا أبدا .

وكان الأمر على مرارته البالغة يثير السخرية الشديدة ، فالواقع يقول إن الستة والثلاثين معتقلاً المجتمعين فى العنبر لا يربطهم رباط تنظيمى واحد ، فهم متعددو المشارب والنزعات ، وكل منهم عالم وحده ونسيج متفرد ، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال مجموعة الأستاذ محمد قطب ، وهى تشكل فى العنبر منه وابن اخته الدكتور عزمى بكر شافع ومصطفى كامل والمرحوم أحمد نصير المحامى من أسويط ، وبقية الساكنين فى العنبر يكونون له الود والاحترام ، فقد كان الرجل ودوداً مهذباً جم الأدب ، حلو الحديث عذب النفس رغم مصيبته فى الشهيد سيد قطب ، ولم يكن الناس معه على أكثر من هذا ، وهو نفسه كان يتجنب الحديث فى السياسة ، ولا يذكر الرئيس عبد الناصر بخير أو شر ، ولكنه إذا سئل عنه وعن رأيه فيه فهو يجيب بصراحة شديدة ووضوح كامل ، ولا يتحرج ولا يعرف الخوف طريقه إليه ، وكان عقلاء الناس يتجنبون إحراجه والكلام فى هذه الأمور ، اللهم إلا إذا كان حديثاً خاصاً بينه وبين بعض من يثق بهم ، وكان هذا الحديث كثيراً ما يدور سرا وهمسا بعيدا عن الرقباء ، ليس خوفاً عليه ولكنه خوف هؤلاء الذين يثق بهم على أنفسهم ، وكان يقول بصراحة إن الحكومة كافرة ظالمة باغية وإن عبد الناصر هو

الطاغوت الأكبر. وهو من عوامل فساد أمة العرب والمسلمين . ولم يكن يرى التنظيم إلا وسيلة سهلة لاصطياد الناس وضرب الشباب ، ولكن على كل من يؤمن بلا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أن يكون صادقاً مع نفسه وعلى استعداد كامل للموت في سبيلها ، وأن الشهادة هي السبيل الوحيد . ليغير الناس مآباً أنفسهم فيغير الله سبحانه وتعالى مآبهم . وأن الأمة الإسلامية لن ينصلح حالها حتى يبرز فيها قوم يحبون الموت ويتشوقون إلى الجنة ، وأن يكون موتهم صريحاً واضحاً من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بلا تنظيم يمسك به وتنفرط حباته في ظل نظام بوليسي عتيق ، قد جعل التجسس شعاره ، نظام قد حول الناس جميعاً إلى كتبة تقارير ، كل الناس - هكذا كان يقول - حتى الوزراء والأعيان والكبراء ، وكان قوله ظاهره البساطة في معانيه ، ولكن مراميّه كانت بعيدة الهدف ، بليغة الأثر والمرام ، لم يكن الرجل ينهى عن التنظيم ، بل كان يدعو إلى ثورة إسلامية شاملة ، ممثلة في حرص الناس على الشهادة ، فهم ليسوا بقادرين على الشرطة والجيش ولكنهم يستطيعون الموت ، في بساطة وقوة وشرف حرصاً على الدين . وهو سبيل الأمم الوحيد للتغيير وللخروج من دائرة العبودية والهوان . وكنا نسمع ونهز رعوسنا ، فالموافقة والمعارضة لاتنفيد ، ولعلها تضرر بالتأكيد . ولكن الصدور تغلى مما تراه من الحق ، ومن تناقضه مع الواقع المهيّن الذي نعيشه كل يوم تحت رقابة صارمة وأوهام لاندري أولها من آخرها .

وكان المدربون يقترحون إرسال برقية تأييد للرئيس عبد الناصر في مناسبة ما ، وربما كان يوحى لهم بمثل هذه الاقتراحات ليروا أثر ذلك على الناس ، وكان الناس يسارعون في التوقيع بأسمائهم على مثل هذه البرقيات تجنباً للأذى

وتحسباً مما قد تأتى به الأيام . وكان محمد قطب يرفض التوقيع على مثل هذه البرقيات رفضاً تاماً ، هو ومن معه ، وآخرون ليسوا معه بالمعنى الذى تعرفه الأجهزة .

وكان بعض العقلاء يقولون إن توقيعاً مثل هذا لن يضر المرء فى دينه أو شرفه ، فالتوقيع لايعنى أن النفس مجبرة به ، ولكننا نبش فى وجود قوم وقلوبنا تلعنهم ، والتقية واجبة ، وإهدار النفس ليس من الدين فى شيء ، فالحكومة كافرة ظالمة باغية ليس فى هذا شك ، وهى حمقاء أيضاً عندما تطلب منا التوقيع على مثل هذه الأوراق وتصدقنا وتظن أننا لاندفعها .

وكان الذين يرفضون التأييد ولايقعون على مثل هذه البرقيات لا يطلبون من غيرهم أن يسلكوا سلوكهم على عكس الذين يؤيدون ويوقعون ، فهؤلاء كانوا حريصين على أن يفعل الجميع مثلهم وينجون بهذا من تأنيب داخلى يعذب النفس ، ويقولون لو أيدنا جميعاً فلن ندع للحكومة فرصة تدخل فيها بيننا ، ومن ثم فهم مجبورون على تركنا وشأننا ، ولايعودون إلى إيقاع العداوة والبغضاء بيننا ، وسيكون المعتقل حرماً آمناً يتخطف الناس من حوله ، ويوماً يأتى لعله ليس يبعد تنزاح فيه الغمة عن الأمة ونخرج إلى بيوتنا وأهلينا .

وكان كل فى واديه ، لا هذا يسمع لذلك ، ولاذاك يسمع لهذا ، والأمور تجري على الناس بقدر يعلمه الله ، ومقادير قد سطرت علماً فى الأزل الأبدى ، والناس فى شغل شاغل بأمور قد حسمت علماً وسطراً ، والغيب يدور فى نفس الدورة خارج كل تصور أو خيال بشرى ، وهى حلقات لانفصال لها ، وبها بيان كل شيء ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

كان محمد قطب يتكلم فى أوقات صفوة عن الأدب والشعر
ومدارس النقد ، ويعقد المقارنات بين شوق وحافظ ، أو بين
شوق والعقاد ، وكان غزير الثقافة ، ويتمتع بخفة دم نادرة ،
وهو حاضر النكتة والبديهة ، ولم يكن أيامها يغضب ممن
يعارضه رأى ، بل يكتفى بابتسامة سمحة متمتا :

- هذا هو رأى ، فإن جاء خير منه قبلناه .

تمثلاً فى ذلك قول الإمام أبى حنيفة النعمان .

وكانوا يسمحون لنا بالخروج نصف ساعة بين اليوم
والآخر إلى خارج مبنى المعتقل ، بينما الأسوار عليها الأبراج
وبها الحرس بالسلاح ، وبين مبنى المعتقل الرمادى اللون
الراقد فى مروج أبى زعبل ، وزيدت النصف ساعة إلى
ساعة ، و كانت تتم فى العادة بعد الظهر ، وتدخل أهل
الحنكة والسياسة والعمال زيدت إلى أكثر من ساعة ، وكان
التوقيت يتم فى العادة حسب الظروف . وعندما اعتاد الناس
هذه الطواير ، فقد كانوا يطلقون عليها طابور فسحة ،
أصبحت تجدد من يلعب كرة القدم ، أو كرة الشبكة ، أو
يحملون حديدا قد صبوه من أسمنت مسلح ، ويدربون بهذا
عضلاتهم ، وهم يحاولون تجنب الترهل ، بعد شهور
« التخزين » فى العنابر .

وكان كل المعتقل ينزل فى وقت وعنبر ١٢ ينزل فى وقت
آخر ، يخشون بهذا عدوى الأفكار ونقل المفاهيم .

وعندما يأتى دور عنبر ١٢ ينزلون ، ويتجه من يهتم بلعب
الكرة إلى ملعبه ، ومن يحمل الحديد الأسمتى إلى ذلك
« البار » العمومى الموجود فى فناء المكان ، والباقيون يكتفون

برياضة المشى فى دائرة طويلة ، وهم يتحدثون ويتحدثون ، وكان الأستاذ محمد قطب من أقطاب رياضة المشى ، فهو يسير مثيرا غبارا من قدميه وأقدام أصحابه ، ولاشك أنه كان يثير فى نفوسهم نوازع أخرى عجيبة ، فكنت ترى طابورهم - إن جاز التعبير - رجلاً واحداً يتكلم والكل حوله فى صمت ، وهو يحرك إصبعه ويده لتأكيد كلامه وتثبيت معانيه ، وعند العودة إلى العنبر يتذكرون وقائع ذلك الطابور البهيج .

وكان الأستاذ شمس الدين الشناوى من حملة الأثقال ، وهو يلعب الكرة أيضا ، ويقسم وقت الطابور بين هذا وذاك . وكان شاعرا يحفظ الشعر ويقرضه أيضا ، وكان هو الآخر جم الأدب شديد التواضع ، بشوشا رغم شوقه الذى لايفتا يعبر عنه إلى أطفاله ، وإن لم تخنى الذاكرة فقد كانت أسماءهم عمر ، وفائقة ، ونائلة ، فهو يذكرهم بالنهار ، وتداعبه طيوفهم بالليل ويستعين على هذا كله بالصبر والصلاة .

وكانت تحدث المساجلات الشعرية بينه وبين الأستاذ محمد قطب ، وكنت أشترك فيها ، وكان من عادة الأستاذ محمد قطب أن يقول شعراً ظريفاً مسجلاً فيه أحداث اليوم والليلة ، ويتم ذلك عقب العودة من طابور الفسحة . وقد غاب عني معظم هذا الشعر ، وكم وددت لو كان قد سجل أو كتبه واحد ممن اهتموا بمثل هذه الأمور ، ولكنى أذكر واحدة وربما أكثر قليلاً . نزلنا إلى طابور الفسحة ، ولم يلعب الأستاذ شمس الشناوى كعادته ، بل جلس فى ناحية مهموماً يفكر فى أولاده ، وكانت هذه مسألة طبيعية تحدث للكثيرين وله بصفة خاصة ، ومازلنا به حتى قام إلى اللعب قبل أن ينتهى وقت الطابور ، لعله ينسى مابه من شجوى وحزن .

وعندما عدنا إلى العنبر أراد محمد قطب أن يخفف عنه
بطريقته فقال :

أراك اليوم لا « شاييل » حديد
ولا بوكس ولا كرة شراب
فقل ياسمى الشمس قل لى
عزوف منك أم ولى الشباب

وانفرجت أسارير الأستاذ شمس الدين الشناوى وشحد
قريحته وانبرى يرد على الأستاذ محمد قطب من بديته :

لعبت رياضتى وخلصت منها
وأنت تلف عفرك التراب
ويمكن شفتى لكن بعير
بلا نضارة شيش كباب

وكانت هذه المساجلات كثيرة وطريفة ومتنوعة ، فمثلا
كان للأستاذ شمس الشناوى غرائب كثيرة ، ففى وسط هذا
الأتون الملتهب كان يمكن مثلا أن يأتى لى بسيجارة أمريكية
خلسة ، وكان لا يدخن ، فأسأله من أين يأتى بها ، فيقول
« دُخْن ولا تسَل » ، وكانت شركة بسكو مصر تنتج نوعا
فاخرا من البسكوت لم يكن يأكله إلا الملوك فى زعمنا
لفخامته ، وقد سمته « رمسيس » تيمنا بالرئيس عبد الناصر
فهو ورمسيس صنوان فى رأيهم فقلت فى « الشغنية الكبرى »
- وهى قصيدة كنت قد ألفتها ونسيتها إلا قليلاً أسجل فيها
الأحداث - :

على أعتاب نائلة سؤالى
وفائقة شددت لها رحالى

هما النجمان مالهما شبيه
عدا شمس أيهما ذى المعالى
« أبو الخطاب » يحرس فى حماهم
إلى أن تأذن الدنيا بحال
ويكتمل الجميع بشمل بيت
و « شمس » ربه والدهر خالى
وكان ذلك فى أبيات كثيرة من الشعر الذى قد يسمى
« بالحلمنتيشى » ومنها :

وعبرنا به عدد كبير
من « الزعماء » والأسر العوالى
ثلاثونا تجدهم بعد ست
لهم صبر على سود الليالى

ثم تناولت كل واحد منهم فى أبيات فى ترتيب وتسلسل
وكم يحزننى أننى قد نسيتها ، ليس حزنا على الشعر ، ولكن
على الأحداث التى سجلت فيه . وكان للشيخ عبد الفتاح
المحروقى طفلة صغيرة اسمها عزة ، قد حصل على صورتها
بطريقة لا أذكرها ، وعلقها بجانب « نمرته » ويحييها كل
صباح ومساء ، وكان يسكن بجواره الدكتور عبد العال
محمد عبد الواحد ، وكان يطلب زواجها كلما رأى الرجل
يحيى صورتها ويحدثها ، وكان الدكتور عبد العال حياه الله
يسأسىء ويفأفئ أحيانا فى الكلام وقلت فى تسجيل قصته ،
وهو ما أذكره :

وعزة زهرة الأزهار طراً
وفاتنة القلوب بلا جدال
وعبد العال يصرع فى هواها
ويبدو واجماً بادی الهزال
تسأسىء عزة لبكـورسن
وعبد العال « سفساء » الرجال

ولعل من يقرأ هذه السطور يظن أننا كنا نعيش حياة رغبة
هنية ، وليس أماننا غير قرض الشعر والمساجلات الأدبية ،
وأن البال خال والدنيا آمنة مطمئنة ، والأيام تسير بنا رخاء ،
ولم يكن الأمر على هذا النحو بطبيعة الحال ، ولكنها محاولة
للابتسام من خلال الضباب الكثيف الذى كان يسيطر على
المكان . كانت الحياة صعبة وكنا نحاول البسمة بين الحين
والآخر ، خوفاً من انهيارنا أو انهيار بعض من معنا . وربما
كانت رغبة خفية فى التماسك تجاه الآخرين ، من الجانب
الآخر . وهذه أمور تبين كم كانت الناس متحابة ومتآلفة ،
وكيف أن بين الجميع علاقات إنسانية طيبة قد غذاها الدين
وأكدها الإسلام ، كانت الحكومة تمنع التكافل بين المعتقلين
وهم يصرون عليه ولو سرا أو من وراء حجاب ، كانوا
يدعونهم إلى التفكك وهم يترابطون .

وكان فريق من المُدْرَبِينَ يرددون أن سبب إبقائنا فى
المعتقل هم أصحاب عنبر ١٢ وأن الطريقة المثلى فى الخلاص
من هذا العذاب هو مزيد من تأييد الحكومة ، على الأقل
تتحرك الأمور قليلاً ويفرج عن البعض .

وكان فريق من العقلاء يردون بأن الحكومة لانتهم بهذا
كله وأنها لاتفكر فى الإفراج عن أحد فالحالة فى خارج
المعتقل سيئة جدا ، والحكومة تنفق مليون جنيه يوميا فى
حرب اليمن ، وتردد أنها قد باعت أرصدة الذهب ، والأسعار
فى زيادة ، والغلاء يشمل الفقير والغنى ، والناس غير قادرين
على تحمل أعباء الحياة ، وليس من العقل أن تفرج الحكومة
وهى طاغية مستبدة عن فريق من الموتورين ، ليشيعوا البليلة

فى نفوس الناس ، فى وقت هى فىه أكثر ماتكون حاجة إلى
الراحة والاستقرار ، ولكن إن أيدتم وأرسلتم برقياتكم فلا
يمكننا أن نتخلف ، ولكننا ننصح بعدم إشاعة هذا بين الناس
ويكفى ما هم فىه .

وكان من عقلاء عنبر ١٢ المستشار محمد المأمون
الهضيبى ، وكان ينصح بعدم إثارة هذه المسائل فهى شائكة
جدا ، وتعرض الناس جميعا لضغط وخطر هم فى غنى عنه ،
فلا داعى مطلقا لإرسال برقيات التأييد لأنها تخرج قوما يكفى
ما بهم من سجن وأذى ، فيسأله واحد :

- وماذا تفعل إن بدأت موجة التأييدات وأرسلت
البرقيات ؟ .

ويرد المستشار فى بساطة وحسم :

- لن أفعل بالتأكيد .

ويعاوده السائل فى إلحاح :

- هو تأييد كاذب لا معنى له ، نحن جميعا نمقت جمال
عبد الناصر ، ولكن لابد من المراوغة مع هؤلاء الذئاب .

ويرد المأمون الهضيبى وقد ارتفع صوته قليلاً :

تريدون منى أن أرسل برقية أؤيد فيها جمال عبد الناصر ؟
أؤيده فى أى شىء على وجه التحديد ؟ فى ضربه للحركة
الإسلامية ؟ فى إعدامه لسيد قطب وعبد الفتاح إسماعيل
ويوسف هواش ومن قبلهم عبد القادر عوده وإبراهيم الطيب
ويوسف طلعت وغيرهم وغيرهم ؟ تريدون منى أن أؤيد من
وضع أسرتى كلها فى السجن رجالاً ونساءً ؟ تريدون منى

أن أحادعه ؟ لا والله لن يكون أبداً ، والسجن أحب إلّى مما
تدعوننى إليه . وينفض الجمع يائسا فقد بدأت موجة
التأييدات .

وكانت هذه التأييدات من الأمور العادية التى تحدث بين
الحين والآخر ، ولاتهتم بها الحكومة ممثلة فى إدارة المعتقل
كثيرا ، ولكنها لعبة تستهوى عبد العال سلومة قائد المعتقل
أكثر من أى شخص آخر . فتأتى المناسبة ، أية مناسبة ،
وتكتب البرقية ويمر المدربون على العنابر يجمعون
التوقيعات ، وهى تكتب بطريقة تلقائية آلية ، ويتوقف
المدربون عند بعض الأسماء التى اعتادت عدم التوقيع ، وذلك
ليتأكدوا من نيتهم فى عدم التوقيع ، وكانت هناك بعض
الشخصيات لاتسأل عن هذا أبدا ، فموقفهم معروف سلفا ،
مثل الأستاذ محمد قطب مثلاً . وتكثر الأسئلة وترتفع الضجة
عندما يدخل دائرة المعارضين شخص جديد ، بمعنى أن يعلن
واحد قد اعتاد التأيد أنه لن يؤيد الحكومة مرة أخرى .

وكانت المسألة كما قلت من الأمور العادية التى تحدث
كل حين قريب ، ولكن الأمر قد اختلف تماما عندما أعلن
عبد الناصر غلق خليج العقبة فى وجه الملاحاة الإسرائيلية
وتعاقبت الأحداث يوما بعد يوم ، وصار شبح الحرب واقعاً
مرأ يراه الجميع ، وكان فى المعتقل صفوة المجتمع ممن
يكتبون ويقرعون ويفهمون .

وبدأ المدربون يجمعون التأييدات للرئيس فى موقفه
البطولى العظيم فى زعمهم . وهذه المرة حرص الجميع على
التوقيع لأنها الحرب لا محالة ، وعدم التأيد يمكن أن يفسر
بأنه خيانة عظمى من حكومة لاتدرك واقعها ، ولا تفهم غير

عظمة رئيسها ، وامتنع عن التأيد والتوقيع واحد وثلاثون
شخصا وهم كالتالى :

- ١ - محمد قطب .
- ٢ - المأمون الهضيبي .
- ٣ - أحمد نصير .
- ٤ - عزمى بكر .
- ٥ - مصطفى كامل .
- ٦ - السيد عيد .
- ٧ - شكرى مصطفى .
- ٨ - عصمت بدوى .
- ٩ - محمود حلمى .
- ١٠ - فاروق عباس .
- ١١ - محمود الجوهري .
- ١٢ - على حمدى .
- ١٣ - جمال متولى .
- ١٤ - محمد حسن .
- ١٥ - عبد العال محمد عبد الواحد .
- ١٦ - د. يحيى .
- ١٧ - الشيخ على إسماعيل .
- ١٨ - حامد المصرى .
- ١٩ - عز الدين عبد المنعم .

- ٢٠ - محمود متولى .
- ٢١ - الشيخ محمد صقر .
- ٢٢ - د. مجد الدين صادق .
- ٢٣ - كمال الغايش .
- ٢٤ - حسن عطية .
- ٢٥ - محمد عمارة .
- ٢٦ - محمود شكرى .
- ٢٧ - محمد رشاد .
- ٢٨ - حسن شرابى .
- ٢٩ - محمد عبد العال أبو مدينة .
- ٣٠ - الدسوقى ضيف -
- ٣١ - محمد حمودة الصعيدى .

وذهبت البرقيات إلى قائد المعتقل وقد خلت من الأسماء السابقة ، وأراد الرجل أن يعطى فرصة للأخذ والرد وإحداث فتنة ، فطلب من مساعديه ، وكانوا من بعض المعتقلين الذين يقومون على إدارة المعتقل من الناحية المعيشية أن يحاولوا محاولة أخرى مع هؤلاء الذين رفضوا التأييد ، لأن هذه المرة تختلف عن سائر المرات . واستلمات الناس فى إقناع هؤلاء بالتأييد حرصاً عليهم وخوفاً من أن يصيبهم طائف من خطر . ورفض الجميع رفضاً باتاً . وكان شقيقى محمود حلمى من هؤلاء كما ذكرت ، وكلمته فى التأييد واستعنت عليه بآخرين أذكر منهم حسن حافظ الفقى وسمير الهضيبى ولكنه رفض رفضاً باتاً .

وأذكر أنني تكلمت في هذا اليوم مع الأستاذ محمد
قطب ، وأذكر أنه كان حليماً لم ينفد صبره أثناء الحديث
المستفز ، فقد كنت في الواقع أخشى عليه البطش هو ومن

معه :

- ليس هذا من البطولة في شيء .
- ومن قال لك إننا نبحث عن بطولات ؟ .
- ولكن .. هؤلاء الشباب الذين معك ؟ .
- ليس معي أحد ، كل نفس بما كسبت رهينة .
- صدقني كلنا جميعاً نمقت الحكومة ونعرف خطرها
على الإسلام والمسلمين ، ونعرف أنها لاتعمل لصالح مصر
ولا للعرب ، وأنها تسير بالبلاد والعباد إلى خراب لايعرف مداه
إلا الله سبحانه وتعالى ، وسوف يأتيك صدق ما أقول بعد
سنتين إن أحيانا الله .
- ونظر الرجل إليّ في دهشة شديدة وقال في هدوء :
- ورغم كل ما قلت تريدنا أن نؤيدها ؟ .
- وخجلت من الرجل ولم أكمل معه الحوار ، ولكنه
عاودني بنظرته الودود المتلطفة :
- صدقني أنا أفهم مبررات شاب مثلك - كنت أيامها
شاباً - وأعذر ، وأعذر أيضاً بعض الآخرين ، ولا أطلب
منكم أن تقفوا الموقف الذي أقفه الآن ، ولم أطلبه من واحد
من الذين امتنعوا ، بل إنني فوجئت ببعض الأسماء ، ربما
يكون صعباً علينا أن نأخذ حقنا في الحرية ، ولكن لعلنا
نحصل على حقنا في الشهادة . ونظرت للرجل وقد سحرني
هدوؤه ووقاره مع ابتسامته التي لاتغادر وجهه في الحديث ،

وكان نجيلا شاحبا نبيلًا ، تلمع عيناه من خلف نظارة طبية
قد طال العهد على إطارها المعدني فهو يمسكها بصعوبة
ولا يستطيع تجديدها .

وتمتعت في خوف :

- أنت تتكلم عن الشهادة . أتراهم .. .

ولم أكمل سؤالي فالطمأنينة تملأ وجه الرجل وهو
يقاطعني باسم :

- أتراهم يتورعون ؟

والتفت ناحية فوجدت شكري مصطفى يمزح ويمزح مع
محمود الجوهري وكلاهما قد أعلن عدم التأيد ، وهما قد
فعلا هذا للمرة الأولى ، ولم يكن في بال أحد أن يمتنع هذان
عن التأيد ، محمود الجوهري مهندس شاب عبقرى ، لايهتم
كثيراً بالسياسة ولا يتكلم في هذه الموضوعات للمرة ليس عن
خوف ولكن عن عدم اهتمام جدى بهذه الشئون ، وكان يوقع
عندما يطلبون منه ، ولكنه قد امتنع هذه المرة ، لماذا ؟ لست
أدرى على وجه التحديد . لم تكن علاقته وثيقة بالأستاذ
محمد قطب فنقول إن تأثيره قد انتقل إليه ، كانت علاقته
به عادية جدا مثل أى شخص فى العنبر ، وربما أقل من
الآخرين ، ورغم هذا فقد رفض رفضا قاطعا لا يقبل المناقشة
مسألة تأييد الحكومة وأن نجعل الأمور تجري على خير
وقال يومها ساخرا :

- هى تجري على خير . ماذا سيفعلون بنا أكثر مما

فعلوا ؟

وكان امتناع شكري مصطفى عن التأيد مثار دهشتى
البالغة ، فهذا الشاب الطالب فى كلية الزراعة جامعة أسيوط

قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وعذب مثل الآخرين ، وكنت أراه أيام الحربى لمأما ومن بعيد فلم نتجاوز فى زنازاة ، ولم يشملنا تحقيق واحد ، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحدا من أصغر المعتقلين سنا . لم أقرب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث ، وفوجئت أنه لا يعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة ، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر ١٢ ، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك . وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى ، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا ، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة ، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا ؟ ولماذا ؟ وماهو الجهاد فى سبيل الله ؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها ؟ وما معنى دين ودولة ؟ مصحف وسيف ؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين ، ضاحك مع الضاحكين فى مرح بالغ ، ولا يظهر اهتماما كثيرا بشئون السياسة . وكانت ظروفه الأسرية عسيرة فقد طلقت أمه ، وتزوج أبوه امرأة أخرى ، وتزوجت أمه رجلا آخر ، وهو لا يدري أين يذهب بعد الإفراج عنه ، وكان كثيرا ما يتندر بهذه الحالة ، ويقول ضاحكا :

- هذا الاعتقال قد حل لى الكثير من المشكلات .

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل حفل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام ١٩٥٦ ، وطلبنا أن نمثل مسرحية ، ووافقت الإدارة ، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ

محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط
المدلل من أبيه المعلم الجاهل صاحب المال ، وكان اسم
المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيرا
وبين لنا مافيه من إسقاط سياسى ، وكتبت بتشجيعه مسرحية
« البعد الخامس » ولكن هذه قصة أخرى .

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم
كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية ، ولم يكن أيضا من
المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى
سبيله ، وكان يسأل ليعرف ، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر
أحد فهى كثيرا ماتحدث ، ولا تفسرها إلا بسوء الحالة
النفسية ، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى إنه لا يتبادل
الحديث مع أحد بالمرة ، واقتربت منه أيامها وكنت الذى
أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا
يجيب ، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقا فى لاشيء ،
ويأكل فى موعد الطعام ، ويصلى مع المصلين ، وإذا خرجنا
إلى طاوور الفسحة لا يخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى
العنبر متأملا محدقا حتى يعود الناس ، وتطور الأمر معه فصار
يصلى فى الليل ، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا ، وانضم
إليهم وصار واحدا ممن يقيمون الليل .

وكففت عن سؤاله عن سبب صمته واكتفيت بملاحظته
عن كذب أحاول أن أدرك مايفكر فيه بلا فائدة حتى جاء اليوم
الذى رفض فيه التوقيع على التأييد ، وانحلت عقدة لسانه
وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل .

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملا متعجبا أحاول أن
أفهم فينغلق على الفهم ، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى
- وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه - وقال لى
بشوشا :

- لعلك تعجب من عدم توقيعي على التأيد ؟

- فى الحقيقة نعم .

- تريد أن تعرف السبب ؟

وقلت له ملحا :

- لو سمحت .

وتنهذ شكرى مصطفى تنهيدة طويلة ملأت عينيه بالحزن
وفارقه مرحة وبدا جاداً صارماً :

- قد رأيت ما حل بنا وما فعلته حكومتنا معنا ، استباحات
أبناءها وضربتهم بالسياط ، وقتلتهم واغتصبت الفتيات
والأطفال ، قد رأيت بنفسك هذا هنا فى هذا المكان ، وفى
السجن الحربى كنا سوا ، وصنفونى من الزعماء ولست
كذلك ، قد عرفت هذا بنفسك ، لقد سمعت منك قصة
الإسلام بالتفصيل ، لم أسمعها من قبل ، وكلما ازدادت معرفة
ازددت غيظا ، والظن أنه إن لم تأتنى هذه الفرصة للمعارضة
وإعلانها لمت كمدا ، أقل مانفعله لحكومة مثل هذه التى
تحكمنا أن نظهر احتقارنا لها ، هذا أقل ماينبغى علينا فعله ،
ولو استطعت أكثر من هذا ماترددت .

وتركنى وانصرف ، وظللت غارقا فى تأملاتى ، وشعرت
بحزن جارف وأسف عميق ، وأذن لصلاة المغرب فصليت ،
وجلست صامتا حتى صلينا العشاء ، ونام الناس وبقيت ساهرا
أفكر فى هؤلاء الذين يحدق بهم الخطر وهم مطمئنون
هادئون ، ونحن البعيدون عنه القلق يملأ صدورنا وعروقنا
متوترة وقلوبنا تكاد تكف عن العمل . وتذكرت أيام الإسلام
الأولى والشهداء وروح الفداء التى أقامت الدول وغيّرت
الأرض .

صرت أفكر فى مواقفهم ومواقفنا ، وروحهم العالية
وجذوة الإيمان التى تكاد تخدم فى صدورنا باسم الحكمة
والتعقل وعدم الوقوف أمام القطار المندفع ، وباسم التخطيط
والرؤية المستقبلية وسائر مانقوله من كلمات لهم تبريرا
لمهادنتنا للقوى الخائنة الشرسة ، وأنا أسرى وليس للأسير
إذن أو أمر .

وأذن لصلاة الفجر وقمت للصلاة مع المصلين .

وأشرق الشمس ومع شروقها كانت الطوارئ فى كل
ركن من أركان المعتقل ، النظام مشدود ، ممنوع الخروج
من العناير حتى للخدمات العادية التى كان يقوم بها
المتطوعون المختارون . ذهبت إلى باب العنبر أنظر من وراء
جدرانه إلى فنائه ورأيت ما أعده خبراء الجغرافيا والسياسة ،
كانوا قد شبكوا عدداً كبيراً من البطاطين بعرض الفناء وارتفاع
الأدوار الثلاثة ، قد رسم بها رسماً لشبه جزيرة سيناء وقناة
السويس ، وعليها مواقع الجيش المصرى ، وتمركز القوات
عند الممرات وفى كل مكان ، والخطة التى رسموها عبر
الأسهم لاختراق إسرائيل ولا أدرى من أين حصلوا عليها .

واستدارت الشمس ولا أحد يدرى ماذا يعد أو سبب هذا
الكدر العظيم ، حتى ظهر الشاويش النوبتجى ومعه المفاتيح
ومر على العناير وأخرج منها أولئك الذين يديرون المعتقل من
بين إخوتنا ، ومضت ساعة وجاء رئيسهم كسيفا حزينا ، وقال
هامسا للبعض : سوف يعرض الواحد والثلاثون على قائد
المعتقل للاستجواب ، يبدو أنهم سوف يوجهون إليهم تهمة
الخيانة العظمى ، لا بد أن يرجعوا عن موقفهم ، حاولوا أن
تقنعوهم ، هم فى خطر بالفعل .

أنزلوا الواحد والثلاثين الذين رفضوا التوقيع على التأييد إلى
الفناء ، وأبواب العنابر القضائية قد ملئت بالنظارة الذين ملأهم
الخوف من الغيب المجهول . وارتفع صوت منكر من مكان
لم أستطع تحديده يسب محمد قطب ، وتطور السباب حتى
شمل كل شيء ، صوت واحد لم يتابعه أحد ولم يشجعه
إنسان ، والرجل واقف في الفناء تعلق وجهه تلك الابتسامة
الخالدة التي تعبر عن التماسك الداخلي العظيم .

ودخلوا واحدا بعد الآخر إلى عبد العال سلومة قائد
المعتقل وكانت إجاباتهم تنفق أحيانا وتختلف أحيانا أخرى ،
وكاتب يسجل كل شاردة وواردة .

عبد العال سلومة يسأل :

- لماذا لا تؤيد الحكومة في موقفها العظيم ؟
- نحن كمسلمين لا نؤيد الكفرة .
- وهل تراها حكومة كافرة ؟
- وهل تشك في ذلك ؟
- هل ترضى أن يحكمك اليهود الذين يغتصبون الفتيات
ويقتلون الشباب ، ويفعلون الكثير ؟
- قد فعلت حكومتك التي تريدنا أن تؤيدها أكثر من
ذلك ، لم تحسن القتل حين قتلت واستباححت الأعراض ، ولم
ينج حتى الأطفال من هذا .
- أليس من العقل أن ترجع عن هذا الرأي ؟
- أرح نفسك من هذا .
- أنت لاتدرى العاقبة .

- وما العاقبة ؟
- المحاكمة والإعدام شتقا .
- ولماذا المحاكمة ؟ يكفي الإعدام شتقا أو رميا بالرصاص ، أو ضربا بالسياط .
- إلى هذا الحد لاتخاف ؟
- هل عندك كلام آخر ؟
- هل جئت لتستجوبني أم لتجيب عن أسئلتى ؟
- هل يمكن أن أنصرف ؟
- فكّر لآخر مرة ! .
- قد فكرت .

كانت هذه هي إجاباتهم كما نقلت إلينا منهم ومن الكتبة ، وعلمنا في آخر هذا النهار أن محاكمة ستجرى لهم ثم يتم إعدامهم رميا بالرصاص لعدم توفر أماكن للشنق في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد .

وفي هذه الليلة كان المؤتمر الصحفي الشهير الذي حضره صحفيون من كل أنحاء العالم لسؤال عبد الناصر عن خططه في مواجهة إسرائيل ، والذي أعلن فيه أن سنه مازالت صغيرة وأن صحته جيدة وأنه « ليس خروعا كايدين » وأنه على استعداد لحرب أمريكا نفسها ، وأن هناك خططا قد أعدت لذلك .

وكانوا قد أذاعوا علينا المؤتمر الصحفي من الإذاعة عبر مكبرات الصوت .

وخيم الوجوم على وجوه الناس فهي مقدمات ساخنة
لحقيقة مخيفة سوف تكون والساعات تسرع بها ونهيا كل
شيء من حولها .

ونظرت فوجدت محمد قطب ينظر إليّ باسماء واقتربت
منه وقال لي بصوته الهادئ :

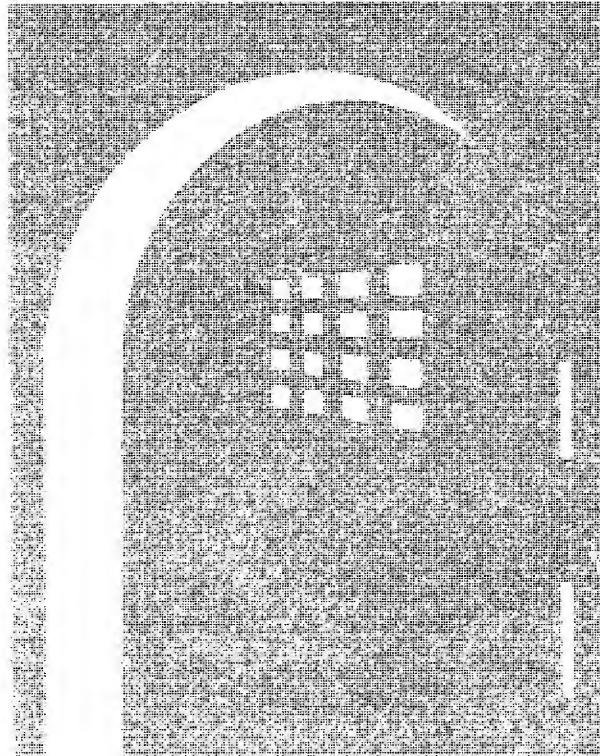
- هل تذكر النسر الذى جاوز الفضاء فى الرؤيا ؟ هاهو
يعلو ويرتفع ثم يسقط من شاهق كما قلت لك ، الحرب
واقعة ، والمزمنة حقيقة ، هاهم أولاء قد نسجوا خيوط هزيمتهم
بانفسهم منذ سنين .

وفى صباح نادوا على الواحد والثلاثين معارضا ، وطلبوا
منهم أن يأتوا بكامل عهدهم من حاجيت وبطلطين ، ونزلوا
إلى فناء المعتقل ، وجاء طبيب السجن وتم الكشف عليهم
أمام أعيننا ، وقيل إنهم سوف يعدمون دون محاكمة ،
وتعجبت من هذا ، فإن كانوا سيفعلون فما ضرورة الكشف
عليهم ، ثم تركوهم فى فناء المعتقل حيث الحر الشديد
والشمس الساطعة حتى اقتربت من الغروب .

وحدث هرج ومرج وجاء جند يحملون الرشاشات ،
وانهمرت دموع من أعين ووجم الناس وعم صمت جاثم
ثقيل ، وفتشت أمتعتهم بدقة ، وعاملوهم بفضاظة ثم أودعوا
زنازين شمال .

الفصل التاسع عشر

إذا جاءت الصاخة
(٥ يونيو) !!



أودع محمد قطب ومن معه زنازين شمال ، وسرت الشائعات القوية أنهم سيعدمون ، وشمل الناس ذهول لبعض الوقت ، وتطورت الحوادث ، وصاروا يذيعون علينا نشرة الأخبار وتعليقات أحمد سعيد النارية ، وانتاب الناس ذعر ، وضاعت المعاني من أنفسهم ، وفقدوا القدرة على التقدير السليم ووزن الأمور بميزان دقيق ، وصدق الناس أن عبد الناصر سوف يلقي بإسرائيل في البحر كما يقول أحمد سعيد ، وأن هناك قوة خارقة قد حازها الجيش المصري ، وربما كانت القنبلة الذرية ، وأن القاهر والظافر سوف يطيران في الفضاء ويحولان مدينة مثل تل أبيب إلى رماد . وكفت الألسنة التي كانت تنتقد الحكومة وتلعن عبد الناصر همسا ، وصار حديث الجميع عن الحرب المزمعة ، ولم يعد أحد ينطق بكلمة ضد الحكومة مع آخرين ، وأذكر أنني اجتمعت مع أحد الأصدقاء القدامى الذين يفهمون اللعبة وكيف تدور وقال :

— يبدو أننا كنا واهمين طول الوقت .

— لماذا ؟

— لقد أقام الرجل امبراطورية ضخمة فبعد أن يدمر إسرائيل سوف يأتيه العرب ركعا وسجودا من كل مكان ، يجب أن نجد لنا مكانا في العالم الجديد ، يبدو أن الرجل لم يكن هازلا في كتابه : « فلسفة الثورة » . دوائره الثلاث تتحقق . قوة جديدة تظهر في الأفق ، ونحن سوف يلقي بنا في متحف التاريخ .

واستمعت إليه في صمت ، وتأملت حال المصريين والعرب ، وكيف يصنع الإعلام فعله فيهم ، بلاد تردد فيها

الأكاذيب فتصير حقائق بعد حين قريب ، أمم تعيش على
الوهم ، وأوطان تقتات الكلام ولا ترضى بغيره بديلا ،
واستفقت على صوته :

— لماذا لا ترد ؟

— إن كنت أنت تقول ذلك فكل الناس معذورون .

— ماذا تعنى ؟

— لقد صنع عبد الناصر نظاما لايحقق له غير الهزيمة ،
والهزيمة غير المشروطة .

— هل أنت جاد ؟

— سيأتيك صدق ما أقول فى أيام .

وبدا الذعر على وجهه وهمس صاخبا :

— لاتخير أحدا بهذا رأى .

وولى من وجهى هاربا .

وارتفعت الشعارات ، وزينوا الوثن ، وامتأ الصخب
وسدت الآذان ، وقالوا سوف يجتمع بنا قائد المعتقل ،
واجتمع بنا ، وسبنا سباً قبيحا وقال :

— ها أنتم أولاً ترون بأنفسكم وتدركون بعقولكم إن
كانت لكم عقول ، ليس رئيسنا المحبوب عميلا لأمريكا كما
ادعيتكم ، وها هو ذا يحشد الجيش لحرب أمريكا ، الحرب
القادمة مع أمريكا وليست إسرائيل ، وسوف ترون علم
الجمهورية العربية المتحدة يرفرف فوق تل أبيب ، لن تروا
هذا بأنفسكم فأنتم لن تغادروا المعتقل أبدا ، ربما نعرض
عليكم هذا فى التلفزيون .

وانطلق صوت :

— ياسيادة القائد ، لقد أيدنا رئيسنا المحبوب وكتبنا له
برقية بدمائنا ، وظننا أنكم تفهمون موقفنا .

ونهره سيادة القائد وأسكته صارخا :

— ليس عندنا وقت لمناقشة هذه السفاسف ، أمور الأمة
هى التى تشغلنا ، أما أنتم فليس هناك من عنده وقت للتفكير
فى أمركم ، وأنصحكم بالتزام السكينة والهدوء حتى يدخل
الجيش إسرائيل ، ولعل رئيسنا يفكر يوما فى أحد أعياد النصر
أن يفرج عن المؤدبين المطيعين منكم .

ثم غادر المكان بين وجوم الجميع وعدم تصديقهم لما
سمعوه ، وندم كثير من الموجودين على انسياقهم فى لعبة
التأييد .

ومضت طبول الحرب تدق ، وساعة الصفر تقترب ،
ومن الناس من يؤكد أنها لعبة كبيرة تلعبها أمريكا ، وأنه
سوف ينتصر أمام إسرائيل ، فيكون بطلا أسطوريا يحقق لهم
كل ما يريدون فى أرض العروبة والإسلام ، أما أنا فكان يقينى
أن الحرب واقعة ، وأنه مهزوم لامحالة ، فنظامه لا يحقق
انتصارا ما ، وجيشه لا يصلح لغير ضرب المصريين فى مصر
والعرب فى اليمن ، أما القتال الجدى أمام عدو شرس مثل
إسرائيل فهو ضرب من المحال . فالذى يحكم أمة من الأمم
ويتصرف فيها برأيه دون الرجوع إلى أحد لا بد وأن يؤدي
به منطقته إلى الهاوية .

وتذكرت حينئذ ذلك اليوم المشهود من أيام يوليو ١٩٥٦
حين قرر الزعيم أن يؤمم قناة السويس ، ولم يخطر قائد جيشه
إلا فى نفس اليوم ، وجمع مجلس وزرائه قبل إعلان قراره

بساعتين ، وكيف أنهم قالوا له إنها الحرب ، وإن الجيش لا يقوى على هذا ، وإنه لم يستوعب بعد الأسلحة السوفيتية ، واعترض كل وزرائه حتى إنه نهر سيد مرعى كما جاء فى مذكراته ، وأعلن القرار ، وكانت الحرب ، وكانت الخسارة الكبيرة التى لم تعلن على الناس إلا هذه الأيام ، فإسرائيل لم يكن يسمح لها باستعمال خليج العقبة فى الملاحة ، وكانت قرية أم الرشراش التى استولت عليها وصنعت منها ميناء إيلات لاقيمة لها ، فهو ميناء لا يستعمل ولا تجرى له السفن ، ثم سارت القوافل بعد ذلك وصارت علاقة إسرائيل بدول أفريقيا وطيدة ، وجاءها البترول من إيران أنهارا . ودارت الأيام وصار هذا سببا لحرب جديدة ترمع أن تكون .

إن كان هذا الزعيم قد أثبت للدنيا قصر نظره فى حروبه الفاشلة المتعددة فكيف يمكن أن يقدم هذه المقدمات لحرب لا يدري مداها وأبعادها إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ، وكيف يعرض الجيش لمعركة ونصفه فى اليمن ، ونصفه الآخر يدير المباحث الجنائية العسكرية فى السجن الحربى ؟ ، أسئلة ليس لها أجوبة ، وألغاز لا يفهم سرها ، وغيب لا يدرك أحد مرماته وحكمته .

وقال قائل من أهل الحكمة والفهم :

— هو يريد التخلص من الجيش !! .

— وهل هذا يعقل ؟ لماذا ؟

— لقد تخلص من كل القوى الموجودة فى مصر على مدار السنين التى مضت ، ولم تبق قوة أمامه غير عبد الحكيم عامر ، فهو يلفق له تهمة الهزيمة ويتخلص منه ، ثم يحكم البلاد حكما شرعيا دستوريا ديمقراطيا اشتراكيا لا ينازعه فيه أحد .

- التخلص من الجيش إذلال لمصر وقضاء عليها .
- هذا لا يهم في الموضوع ، يمكن أن نأتى بشعب آخر وجيش آخر أكثر قوة وأشد فاعلية ، ويكون سلاحه إسرائيليا أو أمريكيا .
- أنت متشائم أكثر مما ينبغي .
- أنا أرى الأمور بوضوح .

* * *

عندما عزلوا محمد قطب ومن معه في « زنازين شمال » صار عنبرنا أكثر العناير راحة في الإقامة ، وأكثرها جزنا على من عزلوا ، فقد خرج من العنبر عشرة أشخاص وتبقى به ستة وعشرون ، وهو مكان يضعون فيه سبعين أو ثمانين ، وخلا العنبر من شخصيات كانت تشيع البهجة في النفوس ، وتعمق الإيمان في القلوب ، ونسى الناس حديث الإفراج ، ولم يبق لهم غير حديث الحرب القادمة ، وكانت الأخبار والشائعات تملأ المكان ، ووصل التوتر بالمعتقلين مداه ، فهم يستعجلون الحرب ليروا ماذا يحدث بعدها ، والأنشيد الحماسية تتعالى من مذياع المعتقل فتشيع جوا (هتلريا) مفعما بالخوف والترقب .

وسرت شائعة في المعتقل مؤداها أن أهل زنازين شمال سوف يعدمون في الغد ، بعد محاكمة صورية لامعنى لها ، وكان هذا نهار ٤ يونيو عام ١٩٦٧ .

وجاشت النفوس بالحزن والغضب والرغبة ، وعلت الكآبة كل الوجوه بلا استثناء ، وعربد الخوف في نفوس الكثيرين .

وصاحب هذا الأخبار التي تعلن عبر أجهزة الإعلام أن العالم كله يتوسل إلى عبد الناصر ليكون رحيما بإسرائيل وأن يمنع الحرب ، وأن الرئيس يفكر في الأمر ، كل هذا جعل قتل ثلاثين أو حتى مائة أمرا لا قيمة له ، ولا يلتفت له إنسان ، ولا يهتم به العالم المنشغل بالحدث العظيم ، وهو اعتزام الرئيس القضاء على إسرائيل وإلقائها في البحر .

وجاء صباح ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .

التوتر يملأ المكان ، لم يخرج أحد من العنابر حتى الخدمات العادية ، فهو يوم محاكمة أهل زنازين شمال كما تواترت الشائعات من قبل ، وكان الحر عارما ، والذباب يملأ المكان ، وكنت قد نمت ساعات مضطربة بعد صلاة الفجر ، واستيقظت مرغما من كثرة الذباب والعرق الذي يحرق الأعين ، وجلست مستويا في مكاني ، ورأيت على مقربة أحمد عادل كمال يقرأ القرآن دون أن يرفع صوته ، والمرحوم منير دله يحاول أن يزيل الذباب الكثيف من حوله ، وقد آذاه الحر وأرهقته السمنة وهو الأرستقراطي المرفه ، وكان يقضي مثل هذا الوقت من السنة في منطقة من جبال الألب في أوروبا تقع بين ألمانيا وفرنسا كما حكى لنا ، وكان شمس الدين الشناوى يتناول طعامه ويزدرده في آية ، وأمامي كان حافظ سلامة يحاول أن يرتق ثوبه ، والصمت يغشى المكان ولا يتكلم أحد ، وكأن الناس قد ملت الحديث والكلام . ودارت عيني في الوجوه حتى استقرت على الأستاذ شمس الدين الشناوى ، وقال ببشاشته التي لاتفارقه :

— ما رأيك في الطعام ؟

وقلت أداعبه وأنا أقوم متحركا ناحيته :

— «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل
على نفسه من قبل أن تنزل التوراة» .
وقال :

— والشأى ساخن طيب يذهب الحزن ويعين على مصائب
الدهر .

وهممت بالجلوس بجانبه لتناول الإفطار معه ، ولكنى
سمعت أصوات مدفعية تأتي من بعيد وانفجارات مكتومة
وانتبهت :

— هذه أصوات المدافع والقنابل تأتي من بعيد .

وقال الأستاذ شمس الدين الشناوى :

— هي التدريبات والمناورات تمهيدا للحرب .

وقال الأستاذ أحمد عادل كمال الذى انتهى من قراءته
وأغلق المصحف :

— عند ما تعلن التعبئة العامة لا يكون هناك تدريبات أو
مناورات .

واهتممت والتفت إليه :

— وماذا تظن عن هذه الأصوات ؟

وفكر أحمد عادل كمال قليلا ثم قال :

— نحن نبعد عن مطار أوماظة الحربى بحوالى ثلاثين كيلو
مترا .

— ماذا تعنى ؟

— الظن أن اليهود يدكون المطارات والمنشآت العسكرية
فى مصر الجديدة .

وانتبه أهل العنبر ، كف حافظ سلامة عن رتق ثوبه ، انتهى
شمس الشناوى من الطعام ، جلس منير دلة وفى وجهه قلق ،
قام عبد الفتاح المحروقى يصيح السمع وهو يقول :
— لقد كنت ضابطاً فى المدفعية . هذه مدفعية مضادة
للطائرات .

ثم يسمع أكثر ويقول :
— هذه انفجارات الطوربيدات .

وانطلقت إلى الباب القضبانى أنظر إلى الفناء ، ولكن لا
أجد أحداً غير الوجوه المظلة من أبواب العنابر الأخرى وهى
تشير لى بأيديها إشارات متسائلة عن الأصوات البعيدة ، فأشير
لهم بذراعى ما معناه أنها الحرب ، ثم رأيت قائد المعتقل
يدخل مهرولاً وهو يرتدى القميص والبنطلون ويصعد السلم
عدوا ومن خلفه الجند والشاوشية والضباط ، والكل فى انتباه
شديد واهتمام بالغ ، ورأيت فى الدور الثالث يشير بيديه هنا
وهناك ، والضباط والشاوشية والعسكريين يتشرون وفى أيديهم
المفاتيح يفتحون بها أبواب العنابر فى هرجلة وسرعة
واضطراب ، وعدت أنقل إلى أهل العنبر ما رأيت ، وتوتر
الناس فلا أحد يفهم مايجرى .

وعدت أراقب ما يحدث فى الدور الثالث .

قائد المعتقل يدور على العنابر بنفسه ويقول لأهل كل عنبر
كلاماً لا أسمعه ، ثم يلتفت إلى الضباط ويشير لهم إلى الدور
الثانى حيث نقيم ، ونزلوا مسرعين بعد أن فرغوا من فتح عنابر
الدور الثالث . واقترب الملازم حازم شفيق من عنبرنا ومعه
جندي بيده المفاتيح وقلت أسأله :

— ماذا هناك يا حازم بك ؟ هل هو الإفراج ؟

وقال الرجل فى اهتمام بالغ :

— هى الحرب . الجيش المصرى يجتاز الحدود
الإسرائيلية الآن .

— يا جماعة اعملوا حسابكم ، فى خلال نصف ساعة
سوف ينزل أهل الدور الثالث ليقيموا مع الدور الثانى ، العنبر
الذى فوقكم ، يعنى عنبر ٢٤ سوف يقيم معكم هنا ، أوسعوا
لهم مكانا .

ثم انصرف مسرعا ليفتح الباب الذى يليه .

وعدت إلى مكانى بجوار أحمد عادل كمال وأنا أقول له :

— ذهبت أيام الراحة ، سنعود كما كنا سبعين أو ثمانين .
ولكن لماذا يفرغون الدور الثالث من ساكنيه .

وقال أحمد عادل كمال فى هدوء :

— سيُملأ بمعتقلين جدد ، والظن أن هذا يتم اليوم للسرعة
التي بها يتصرفون .

— وصرت أتمتم مذهولا :

— معتقلين جدد ! لا إفراج إذن ؟

— ربما يأتون بمن خرج من قبل .

— لعلهم يريدونه فى شىء آخر .

وابتسم أحمد عادل كمال :

— هذا معتقل ، ويستعمل لهذا الغرض . هيا نضيق
الأماكن فسيكتظ العنبر بالسكان بعد قليل ، ويدو أن لا وقت
عندهم .

وَصَرْنَا نَلْمَلِمُ أَمْتَعْتَنَا لِنُعِيدَ تَرْتِيبَهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ
الْمَتَغِيرَاتِ ، وَكَانَ الْحَدِيثُ مُتَّصِلًا بَيْنَنَا ، وَالرَّجُلُ لَهُ عِلْمٌ
وَتَقَافَةٌ بِالْحُرُوبِ ، فَقَدْ خُلِقَ لِيَكُونَ عَسْكَرِيًّا نَاجِحًا وَلَكِنَّهُ
أَخْطَأَ الطَّرِيقَ إِلَى عَالَمِ الْمَالِ وَالْبَنُوكِ .

— مَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الْحَرْبِ ؟

— الْظَّنُّ أَنَّهَا تَنْتَهِي هَذَا النَّهَارَ .

— يَقُولُونَ إِنَّ الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ يَجْتَازُ الْحُدُودَ الْإِسْرَائِيلِيَّةَ .

— رُبَّمَا يَكُونُ هَذَا صَحِيحًا ، وَلَكِنْ مَا قِيَمَةُ هَذَا لَوْ
انْقَطَعَتْ خُطُوطُ الْإِمْدَادَاتِ وَالتَّمْوِينِ ؟

سَيُتَحَوَّلُونَ إِلَى أُسْرَى ، إِسْرَائِيلُ لَهَا خُطُوطٌ ثَابِتَةٌ فِي حُرُوبِهَا
مَعَ مِصْرَ . طَوَائِيرُ مِنَ الْمُدْرَعَاتِ تُصَلُّ إِلَى قَنَاةِ السُّيُوسِ لِعَزْلِ
الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ . هَذَا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ بَعْدَ تَحْطِيمِ الطَّيْرَانِ
الْمِصْرِيِّ وَأَجْهَازَةِ الدِّفَاعِ الْجَوِيِّ . وَهِيَ لَا يُمْكِنُهَا الْحَرْبُ عَلَى
أَرْضِهَا فَهِيَ دَائِمًا تَنْقُلُ الْعَمَلِيَّاتَ الْعَسْكَرِيَّةَ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ،
إِلَى الْأَرْضِ الْمِصْرِيَّةِ .

وَكَأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مَعَهُمْ فِي رَسْمِ خُطُوطِ الْقِتَالِ ! هَذَا
عِنْدَمَا عَرَفْنَا مَا جَرَى بَعْدَ ذَلِكَ . وَنَزَلَ أَهْلُ الْعُنَابِرِ الْعُلُويَّةِ ،
وَامْتَلَأَ الْمَكَانُ بِالنَّاسِ وَعَدْنَا كَأَيَّامِ الْإِعْتِقَالِ الْأُولَى ، كُلُّ
وَاحِدٍ مِنَ النَّازِلِينَ يَحْمِلُ أَمْتَعَتَهُ وَحَاجِيَّاتِهِ ، وَيَدْخُلُ لِيَجِدَ
مَكَانًا بَعْدَ مَذَاوِلَاتٍ مَعَ مَسْئُولٍ عَنَّا وَمَسْئُولٍ عَنَّا . ٢٤ .

وَكُنَّا فِي الْمَعْتَقَلِ نَادِرًا مَا نَعْرِفُ أَسْمَاءَ الْأَيَّامِ بِاسْتِثْنَاءِ يَوْمِ
الْجُمُعَةِ ، وَنَعْرِفُ اسْمَ الشَّهْرِ بَعْدَ انْقِضَاءِ أُسْبُوعٍ مِنْهُ عَلَى
الْأَقْلَ ، وَلَا نَعْرِفُ مِنْ عِلَامَاتِ الْأَزْمَنِ غَيْرَ الْفُصُولِ ، الشِّتَاءِ
وَالصَّيْفِ وَالرَّبِيعِ وَالْخَرِيفِ . وَلَكِنْ كَانَ الْبَعْضُ يَحْفَظُ الْأَيَّامَ

والتواريخ ويراقبها ويحصيها وينتبه لها ، وسألت واحدا من هؤلاء :

— ما اسم هذا اليوم ؟

— الإثنين .

— ما رقمه ؟

— خمسة يونيو عام ١٩٦٧ .

— تذكر هذا التاريخ جيدا فهو يوم له أثره فى تاريخ مصر والعرب .

* * *

صارت أصوات الانفجارات تسمع بوضوح بعد أن انتصف النهار ، وصار الوقوف على الباب القضبانى للعبير أمرا بالغ الصعوبة عندما امتلأ المكان . وصدقت فراسة أحمد عادل كمال فقد امتلأ فناء المعتقل بعد قليل بمعتقلين جدد ، ولم يكونوا من الإخوان المسلمين ، بل بدأت الوفود بجمع من الشباب والشيوخ لهم سحنة غريبة أجنبية وهم يرتدون ملابس فاخرة أو كنا نراها كذلك لرداءة ملابسنا وقدمها .

— لقد جاءوا بخواجات .

— هؤلاء يهود .

— ما أسوأ ما فعلوا بنا ، يسجنوننا مع اليهود ، نحن الذين حاربناهم عام ١٩٤٨ ؟

— أنت لاتعرف نعمة حبس اليهود معنا .

— أهى نعمة ؟

— سوف ترى بنفسك .

— كيف ؟

— هؤلاء قوم لهم من يبحثون عنهم ويهتمون بأمرهم .
ستحسن الأحوال هنا بوجودهم ، هناك الصليب الأحمر
سوف يأتي للتفتيش ، والدول الكبرى ستتدخل ، ومن ثم
سوف يصينا شيء من الخير الذي يأتيهم .

— أتظن هذا ؟

— سوف ترى بنفسك ، حكومتنا ضعيفة عميلة ،
والقائمون على أمرنا يخافون ولا يختشون .

— الجيش المصرى يجتاز الحدود الإسرائيلية .

— سلم لى على الحدود الإسرائيلية !

وأضاف بعد بسملة مستنكرة ساخرة :

— وعلى حضرتك !

وانطلق أحمد سعيد مدويا بصوته من مكبرات الصوت
يعلن عدد الطائرات التى أسقطتها مدفعيتنا المضادة ، وقرب
الغروب وصل عدد الطائرات التى سقطت إلى أكثر من ستمائة
طائرة ، الأمر الذى ملأ نفوس العسكريين وعلى رأسهم أحمد
عادل كمال بالدهشة الشديدة ، فإن كان الذى سقط أكثر
من ستمائة طائرة فما هى قوة إسرائيل الجوية على وجه
التحديد ؟ وقال واحد :

— هذه بيانات كاذبة .

واستكر آخر :

— لا يمكن أن تصل بهم الوقاحة إلى هذا الحد ، هذه

بيانات يسمعها العالم كله ، ولا يستطيعون الظهور على هذه الصورة . البيانات صحيحة .

— هم لا يستحون ، ولا يضحكون على أحد غير الشعب المصرى الغلبان .

وجاء الليل والإضاءة ممنوعة ، وخيم الظلام ، وانقطع صوت المذياع ، ولم يعد يصل إلى حواسنا غير أصوات الانفجارات التى لم تنقطع طول الليل ، واقترب صوت بعض هذه الانفجارات وقال قائل :

— ماذا لو أخطئوا وظنوا المعتقل منشأة عسكرية ودكوها

بالقنابل ؟

— فى هذه الحالة سوف ينجو أهل زنازين شمال فهم فى مخبأً طبيعى .

— لاتخف . اليهود يعرفون كل شبر من أرض مصر .
وارتفع صوت متشنج :

— سينتصر الجيش المصرى ويعلمو علم الجمهورية العربية المتحدة فوق الأرض التى سرقنها إسرائيل .
وجاء صوت متناقل :

— لماذا لانخلد إلى النوم خيراً من التعليقات العقيمة .
— النوم صعب فى هذا الحر الشديد .
— الغريب أن الذباب يملأ وجهى رغم شدة الظلام .
— الذباب يأتى على وجهك المضىء .

ولعل هذه الجمل المتناثرة لم تنقطع طوال الليل ، ولعل الجميع قد ظلوا مستيقظين فى هذه الليلة فى توتر وترقب ، والكل يفكر ويحسب العواقب والألم يعصر القلب .

انتفض الناس فى اليوم التالى للحرب على صوت أحمد سعيد وهو يرشد العدو الإسرائيلى محددا أماكن القوات العراقية المتجهة إلى إسرائيل عبر الأردن وسوريا ، وصار يذيع أماكن تواجدها على طول الطريق الكيلو سبعين ... الكيلو ستين .. وهكذا . وعرفت بعد ذلك أن أغلب هذه القوات قد ضاع فى الطريق ودمره الطيران الإسرائيلى تماما .

ظهر قائد المعتقل والضباط والعسكر ، ولفت نظر الواقف على الباب القضبانى أن الكل يمسك بالهراوات والعصى والكراييج ، وتوتر الناس جميعا ، وعقب توترهم بدا عليهم شيء من الراحة وقال قائل :

— مضى زمن ولم نضرب ، لعلنا نهذاً بعد أن نمد على أرجلنا .

وصارت السيارات تنقل معتقلين جددا من اليهود وغير اليهود .

وتحول هؤلاء الضباط الودعاء إلى وحوش كاسرة ، وصاروا يقذفون بالشخص المعتقل إلى داخل القناء ، حيث تتسلمه فرقة تطحنه طحنا بالهراوات ، ثم يذهب إلى أحد الشاويشية ليملأ أورنيك الاعتقال . كان هذا مع التعليمات الجديدة التى وصلت مع الصباح ، جميع من فى عنابر الدور الثالث وبها اليهود يهتفون بسقوط إسرائيل وأمريكا ، وظلوا جميعا يهتفون هذه الهتافات عدة أيام حتى وضعت الحرب أوزارها .

وارتفع صوت من أحد عنابر اليهود مرددا والآخرين يردون عليه :

— تسقط فرنسا .

وانتفض قائد المعتقل غاضبا :

— فرنسا معانا يا ابن الكلب .

كأن الهتاف يذاع على العالم تليفزيونيا !

وعظم عدد المعتقلين من اليهود عند انتصاف النهار ،
وأُنزلوا بعض المعتقلين القدامى من الإخوان ليشاركوا فى
عملية الإيواء فى العنابر ، وتسجيل الأسماء وملء أورنيكات
الاعتقال .

ومع غروب الشمس كان فى كل عنبر من عنابر الدور
الثالث مائة على الأقل وصار اليهود أقلية مع عدد المصريين
الغفير الذين تم اعتقالهم ، ولا أحد يعرف هويتهم ، فهم
ليسوا بالإخوان وفى بعض الأحيان ليسوا بالمسلمين ، فقد
كان هناك عدد غفير من المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك ،
وجماعة شهود يهوا .

وكان الإجراء أن يرفع المعتقل الجديد رجله فى
« الفلقة » ويمد عليها حيث الضرب الموجه بالهراوة ، وعليه
أن يهتف أثناء العلكة :

— يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .

إى والله هذه كانت التعليمات ، وهذا ما شاهدناه بأعيننا
وسمعهنا بأذاننا .

ورفض واحد من جماعة شهود يهوا أن يهتف هذا
الهتاف ، وصار يردد :

— المجد لله فى الأعالي ، وعلى الدنيا السلام ، وبالناس
المسرة .

وكنّا نضحك سخرية وغيظا وكمدا ، وهل هناك مسرة
أعظم من هذا ؟ وكنّا نسأل ضباط المعتقل عن أخبار القتال ،
فقد أغلقوا المذياع بعد العصر ، فكانوا يقولون لنا :

— معظم أرض فلسطين قد تحررت تقريبا ، هناك منطقة
صغيرة على مقربة من سوريا استعصت على التحرير .

— وهل سقطت تل أبيب ؟

ويبدو التفكير على الضابط الجاهل ويقول :

— لست أدري بالضبط ربما سقطت ، ولكنهم لم يعلنوا
عن هذا بعد .

وجاء الليل وتزايد عدد المعتقلين ، ونفس الإجراءات تتم
مع الظلام الدامس والخوف المتزايد ، والصراخ والعويل ،
وأصوات الانفجارات التي بدأت تتلاشى حتى انتهت تماما .
ونام الناس على أمل أن يعلن في الصباح تحرير كل أرض
فلسطين .

* * *

وجاء صباح اليوم الثالث من الحرب ٧ يونيو عام ١٩٦٧ .

انقطعت الأخبار تماما ، لا صحف لا مذياع ، وعندما
نسأل واحدا من الضباط أو الجند عن الأخبار نسمع إجابة
واحدة :

— ممنوع الأسئلة .

والمعتقلون الجدد يفدون تباعا ، أشكالا وألوانا ، وكلهم
في اليوم الثالث من أيام المعركة من المصريين الذين ليست
لهم هوية سياسية فيطلقون عليهم ما يسمى « بالنشاط
المعادي » لتمييزهم عن الإخوان وعن الشيوعيين .

من كل بلاد مصر وقراها جاء هؤلاء المعتقلون ، وهم
يجهلون السبب لاعتقالهم فى براءة واضحة وتأكيد صادق .
وكانوا يصنفونهم مجموعات ويحشون بهم العنابر وفقا لخطة
لا نعرفها ونظام نجهله ، والناس الجدد ليس بينهم رابط ما
يعرفونه ، ولكن هناك بالتأكيد ما يجمع بينهم فى رأس
المباحث .

وتسربت شائعات الهزيمة ، واستنكرناها جميعا ، وفهمنا
أن الحكومة تقوم بجس نبض المعتقلين .

وفتح المذيع على مكبرات الصوت فجأة ، وسمعنا
الأنشيد الحماسية ، ثم أحمد سعيد يعلن أن قواتنا وصلت
« نيوجرس » ثم أنشيد حماسية فنشرة الأخبار ، التى تؤكد
الانتصار وتضيف عددا من الطائرات التى سقطت إلى المئات
الأخرى التى تم الإعلان عنها من قبل ، ثم اجتماع للقيادة
العامة للقوات المسلحة ، وإعلان أن قواتنا تتمركز فى خط
الدفاع الثالث ، ثم أغلق المذيع فجأة كما فتح ، وعرفنا أنها
غلطة من أحد الشاويشية ، وقد عوقب من أجل ذلك .

وسألت أحمد عادل كمال فهو مرجعنا فى تفسير مالا
نفهمه من المصطلحات العسكرية :

— مامعنى خط الدفاع الثالث ؟

— هو خط وهمى يمكن أن يكون غرب قناة السويس أو
فى الشرقية أو القاهرة .

— وما معنى هذا الكلام ؟

— معناه أننا هزمنا هزيمة ساحقة منكرة .

— وهل هذا معقول ؟

— ليس هناك ماهو أكثر معقولة منه .

وكننت أتوقع الهزيمة ، وكننت واثقا منها ، فمقدماتها قد حدثت بالكامل فى السنين التى سبقتها ، ولكن توقع المصيبة شىء وحدوثها شىء آخر .

* * *

وجاء اليوم الرابع من ايام الحرب ٨ يونيو عام ١٩٦٧ .

تأكد للجميع رغم التعقيم على الأخبار أن الجيش المصرى قد هزم هزيمة ساحقة ، وضاع كله وتبدد ، ولم ينج منه غير أفراد قلائل بعد أن تركوا أسلحتهم وملابسهم وتخلصوا منها فى صحراء سيناء المحارقة .

والنهار يمضى بطيئا كئيبا ، واليهود فى الدور الثالث

يهتفون :

— تسقط أمريكا .. تسقط إسرائيل .. تسقط بريطانيا ..
يعيش الرئيس جمال عبد الناصر .. الموت لأعداء القومية العربية .

ولكن بطريقة أكثر تفاؤلا هذه المرة ، وذلك من شدة الإنهاك ، ومن معرفتهم بالحقيقة كاملة .

من أين عرفوا بهزيمة عبد الناصر وانتصارهم ؟

لا أحد يعلم .

ورغم تأكيدات الأخبار بالهزيمة إلا أنه لم يصدر إعلان

رسمى بذلك ، وعلى هذا كان الكثير يداعبه الأمل فى عدم
دقة الأخبار ، وأنها سوف تعلن، وهى عكس هذا تماما ، ولم
يتصور أحد حجم الهزيمة الهائلة فى ذلك الوقت ، ولم يخطر
تخيلها على الصورة التى حدثت فى بال أحد .

ونسى الناس أحاديث الإفراج ، ولم تعد تخطر الفكرة
ببالهم ، بل صاروا يفكرون فى المصيبة الجديدة العظيمة التى
« زادت وغطت » وفاق كل شيء .

رأينا ضباط الشرطة الودعاء الطيبين ، الذين لم تمتد يدهم
بأذى قط ، ولا لسانهم بقول بذيء ، وهم ينقلبون وحوشا
ضارية ، يسبون بأقذع الكلمات ، ويضربون الناس ضربا
موجعا قاتلا بلا رحمة ، وعندما تسألهم :

— لماذا هذا الذى تفعلونه ؟

فيجيبون فى بلاهة وبلاذة وبساطة :

— هى الأوامر .

وأتعجب من قول ذلك الضابط ، الأوامر أن تكون وحشا
من داخلك ، وهل يمكنه الاستجابة على هذا النحو الدقيق
العجيب ، يتلقى باطنه أمرا فيستجيب له بكل ما فى عمقه من
طاعة عمياء وعبودية كاملة . ولم أر ذلك الذى ترفع عن تنفيذ
هذه الأوامر المشينة المخجلة المخلة بالشرف ، لم ألقه فى
سجن أو معتقل من تلك التى جُلت فيها تحت سماء مصر .

وفى هذه الليلة تم الإعلان رسميا عن الهزيمة المنكرة ،
وحررت لها شهادة الميلاد ، وأطلقوا عليها اسم النكسة ،
وفى خانة الأب تقرأ اسم جمال عبد الناصر رغم أنهم لم
يكتبوه ، وفى خانة الأم تقرأ اسم الشعب المصرى للأسف
الشديد .

كان الناس فى عنبر ١٢ ييكون فى تلك الليلة عندما تأكد
خبر الهزيمة ، وكان ضباط المعتقل يسهرون فى الفناء
الخارجى بين مبنى المعتقل والسور المحيط به ، وظللنا نسمع
ضحكاتهم حتى انتصف الليل ، رغم أنهم كانوا أكثر دراية
بتفاصيل الهزيمة منا ، فهم يعيشون فى القاهرة حيث الصحف
والأخبار الآتية من إذاعة لندن ، وحيث الأهل والمعارف من
ضباط الجيش وجنوده ، كانوا يضحكون ولا ييكون وهم
سامدون ، فقدوا انتماءهم لوطنهم ، ولم يعد الأمر يعينهم فى
قليل أو كثير .

* * *

طلع نهار يوم الجمعة التاسع من يونيو عام ١٩٦٧ .
ومن الباب القضبانى رأينا العجب العجائب ، كأنه فيلم
سينمائى أو مسرحية ، والممثلون يرتدون ملابس ذلك
العصر .

كل رجال الحكم الديموقراطى قبل الثورة يدخلون إلى فناء
المعتقل مع الخيوط الأولى من ذلك النهار ، حامد زكى ،
محمد صلاح الدين ، سليمان حافظ ، وغيرهم وغيرهم ،
مكثوا ساعة ثم انصرفوا بهم إلى حيث لانعلم ، لم يضربوا
ولم يشتموا ، بل ظلوا واقفين فى رزانة مشوية بالانهار .
وجاء عبد العال سلومة قائد المعتقل وقال لمن هم وقوف
من المعتقلين على باب مكتبه وكان وجهه متهللا باشا كما
روى من رآه لحظتها :

— سوف تسمعون اليوم أعظم خبر فى حياتكم .

— سوف يفرج عنا ؟

— شىء أعظم وأكبر .

— استقالة الرئيس جمال عبد الناصر .

ونسى الرجل القصة بعد ذلك ، ولم يذكرها كأنها لم تكن ، وعأوده وحشه الذى يعيش فى أعماقه .

استقال وألحوا عليه أن يبقى فبقى ، ورقص التواب فى

القاعة .

وقالوا دون حياء : إننا لم نهزم فقد كان غرض العدو أن يسقط النظام وها هو ذا زعيمنا بيننا باق ، وهو غاية ما نطمع فيه ونريده ، أما الجيش فنستطيع أن ننشئ جيشاً آخر ، وسيناء التى احتلت لاقيمة لها ، فهى أرض من الرمال لا زرع فيها ولا ماء ، والكرامة العربية كلمة لاعمى لها ، وهى فوق ذلك محفوظة بإذن الله مادام رئيسنا المحبوب معنا لم يغادرنا .

ولتسقط إسرائيل . .

وليحيا الرئيس عبد الناصر .

وليشرب من لم يعجبه هذا من البحر ، وإن لم يكفه البحر الأبيض فليشرب من الأحمر .

* * *

انتهت الحرب وعرفنا الأخبار الصحيحة وفهمنا قدر الهزيمة ، وعلمنا أنها لم تستغرق غير يوم واحد كما قال أحمد عادل كمال بالضبط ، ومع نهاية أيام الحرب صار الإخوان المسلمون أقلية فى المعتقل ، بعد أن حشروا الناس فى الدور الثالث حشراً ، وصدرت الأوامر بعدم ضرب الناس ، وعدم لعن آبائهم وأمهاتهم ، وصاروا مثلنا لهم وعليهم نفس ما لنا وعلينا .

وكان فى الدور الثالث عنبر لعله رقم ٢١ اسمه عنبر
« النكت » كل من جاء فيه قد قال « نكتة » ضد الرئيس
عبد الناصر ، فكنا نختلس الوقت ونصعد ، وعلى بابهم ذى
القضبان الحديدية نسمع ونضحك ، وننزل ونحكى ليضحك
الآخرون والمرارة تملأ حلق الجميع .

وصدق حدس من قال إن اعتقال اليهود معنا سوف يصيبنا
بالخير ، فما هى إلا أيام بعد انتهاء الحرب حتى جاءتهم
الخطابات بعد أن سمحوا لهم بإرسالها ، وجاءتهم الهدايا
والطروود من كل مكان ، وزارهم أهلهم ، وصار يأتهم الطعام
من بيوتهم يوميا ، ومن ثم صاروا سادة المعتقل ، سادة
الإدارة بطبيعة الحال ، ثم رحلوا اليهود من معتقل أبى زعبل
إلى طرة ، لأنه من غير المناسب أن يتميز هؤلاء ويترك
أولئك ، وبعد ذلك بشهر أو أكثر سمحوا لنا بإرسال خطاب
فى الشهر لكل معتقل ومن ثم يستقبل خطابا واحدا إن جاء .

* * *

كان تأثير هزيمة يونيو عظيما على المعتقلين . فكل
التدريبات التى كانت تجرى وعمليات غسيل المخ التى كانوا
يقومون بها ليل نهار انتهت فجأة ، وذكرنى هذا بتجربة قرأتها
يوما وهى أن عالما أجرى تدريبات لبعض الفئران والقروود على
أداءات معينة ، وهى فى أقفاصها بمعمله ، ولما أتقنت هذه
التدريبات حدث سيل مفاجئ واجتاحت معمل هذا العالم ،
وغطى الأقفاص جميعها ، وانزاح الماء ولاحظ العالم أن هذه
الحيوانات قد نسيت التدريبات .

وكانت هزيمة يونيو هي السيل الذى اجتاح كل شىء
فأفاق الناس .

بطل السحر ، وهانت الحكومة فى عين الجميع ورأوها
على حقيقتها ، ووضعوا رئيسهم فى حجمه الحقيقى ،
وعرفوا أن كل ماسمعه دجل وتزييف .

اختلفت الأحوال فى أبى زعبل بعد الهزيمة ، صار الناس
يتكلمون فى السياسة بعد أن كفوا عن هذا ، صاروا يسبون
رئيسهم بعد أن كانوا لا يستطيعون مجرد ذكر اسمه ، بدأت
روح جماعة الإخوان المسلمين تظهر من جديد فى نفوس
الناس وكلامهم ، وصاروا لا يخرجون من هذا بعد « تقيّة »
استمرت حتى تلك اللحظة ، صاروا — وفى ليلة واحدة تم
كل هذا — يتجرعون على قائد المعتقل يوبخونه ويعنفونه
ويصفونه بعدم الوطنية عيانا جهارا ، وكان هذا من المستحيل
قبل ذلك .

ورغم عظم الهزيمة إلا أن إدارة المعتقل — بتوجيه من
المباحث — ظلت أحوالها على النمط الذى كانت تسير عليه
فى الماضى .

كان أصحاب زنازين شمال ممنوعين من أى طعام أو
شراب باستثناء طعام السجن الردىء الذى يضر الصحة
والبدن ، وكنا نقوم على تهريب الطعام لهم كل يوم ، تهريب
الطعام مثل الخضراوات والفواكه والألبان والعسل والأدوية
وكل شىء ، وكان لى شرف الاشتراك فى هذا ، وكان أشهر
من قام بتهريب الطعام إلى أصحاب زنازين شمال هو الأخ
السيد عجوة ، والأخ رشدى عفيفى ، وكان هناك ابتكار
واختراع فى تهريب الطعام إليهم رغم تضيق الخناق على هذه
العملية ، وكثرة التفتيش بين الحين والآخر ، ولكن الطعام

والشراب فاض وزاد فى زنازين شمال حتى إنهم طلبوا عدة مرات تخفيض الكميات لأنهم لا يستطيعون الاستفادة منها جميعا فهى تفسد ، وكانت كل العنابر تبارى فى تقديم الأطعمة للمسؤولين عن توصيلها .

وكانوا قد منعوا الاتصال بهم تماما ، فكنا نكلمهم من النوافذ أثناء طابور الفسحة اليومى ، ثم احتلنا على قائد المعتقل لندخل إليهم بدعوى استنابتهم وصدق المسكين فسمح لى ولآخرين بالدخول عليهم ، فجلسنا معهم نسمر وننظر فيما يحتاجونه لأناتهم به ، ويسألنا قائد المعتقل عن النتيجة فسأله الصبر لأنها أمور تحتاج إلى وقت ، ثم نفذ صبره ، ومنع هذه الزيارات بحجة أننا لا نستطيع تغيير عقولهم ، ونقد صبرنا نحن الآخرون وقلت له :

— إن كانوا لم يؤيدوا عبد الناصر وهو فى أوجه أظن أنهم يؤيدونه بعد أن هزم هذه الهزيمة الشنعاء ؟
وساءت الأحوال بينى وبينه وصرت من المتهمين لديه .

ومن الطريف أن فكرة تكفير المجتمع كانت قد ظهرت بين أصحاب زنازين شمال بعد ذلك الظلم الذى أصابهم ، والقتل الذى كان ينتظرهم يوم خمسة يونيو وسمعت بهذا وناديتهم من الفناء :

— أصحيح أنكم تكفروننا ؟

ورد على المرحوم أحمد نصير وكان جارى فى عنبر

: ١٢

— نعم .

وامتلاثُ دهشة :

- أترونا كذلك ؟ لسنا من أهل القبلة ؟
- وهل تظنون أنفسكم من المسلمين ؟ الإيمان والكفر كلمات تقال .
- والطعام الذى آتيكم به مع الآخرين ؟ وتعرض أنفسنا للخطر من أجلكم .
- كان المطعم بن عدى وحكيم بن حزام يذهبان بالطعام إلى المسلمين فى شعب أبى طالب وهما على شركهما .
- وإذا أردت أن أعود إلى الإسلام فماذا على أن أفعل ؟

وجاء ضابط وانتهت المناقشة .

- وعدت شاردا واجما أفكر فيما قاله المرحوم أحمد نصير ، وأنا أعجب كل العجب .
- كيف يفكرون على هذا النحو ؟ ولا شك أن الحكومة هى التى غرست فى رؤوسهم هذا التفكير بظلمها وانحرافها وجهلها .

فسدت العلاقة بينى وبين قائد المعتقل عندما علم أننى كنت أقوم بتهريب الطعام إلى زنازين شمال ، وضاقَت نفسى بالمعتقل ومن فيه ، وفى ليلة كنت أتحدث فيها مع الدكتور حامد صفراطة — وهو أستاذ فى كلية الهندسة جامعة الرياض الآن — قلت له :

لا بد أن أغادر المعتقل ، واللييلة .

وضحك الرجل كثيرا وقال :

— كأنك جالس على مقهى بلدى وآن وقت انصرافك إلى

بيتك .

— سوف ترى بنفسك . قف على الباب وارفع صوتك

كالعادة « واحد مريض فى ١٢ يافندم » .

وكان هذا النداء يتكرر فى بعض الليالى ومعناه أن هناك
شخصا مريضا جدا ، ولا يستطيع فعلها إلا الشخص المريض
جدا .

وبدت أمارات الاهتمام والجدية على وجه الدكتور حامد
صفراطة :

— وماذا بعدها ؟

— لاشيء ، سوف أذهب إلى القصر العينى لأجرى عملية
الزائدة الدودية .

— ولكنك لست مصابا بها .

— أستطيع أن أشرح أعراضها بدقة .

وارتفع صوت الدكتور حامد مجلجلا فى الليل :

— واحد تعبان فى ١٢ يافندم .

وجاء الشاويش النوبتجى وفتح الباب وأخرجونى مسندا ،
وأجرى الكشف على أحد أطباء الإخوان هو الدكتور أمجد
صديق ثم استدعى زميلا له من الإخوان أيضا ، وأكدوا أنها
زائدة دودية . وجاءوا بالطبيب الرسمى من بيته فلابد أن يوقع
على الأوراق التى تسمح بذهابى ، وأجرى الرجل كشفا
دقيقا ، وسرعان ما ملئت الأوراق ووقعت وجاءت عربة
الإسعاف وبعض الجند من قسم الترحيلات ، وقبل أن يزرع
الفجر كنت فى الطريق إلى القصر العينى .

كانت هذه أول مرة أغادر فيها المعتقل وما أن سارت
العربة رافعة عويلها حتى اعتدلت في جلستي بعد أن كنت
راقدا وصرت أنظر من النوافذ فلا أجد غير الظلام الدامس
يغطي أرض مصر .

ولا أريد أن أطيل في هذه القصة ، فقد أجرى الكشف
علئى ، وتبين للأطباء فى القصر العينى أننى ممرض ، ولما
سألونى عن سبب ذلك قلت لهم إننى قادم من المعتقل ، وهى
حياة لعينة وإجراء عملية الزائدة لن يضر ولن ينفع وهى فرصة
لقضاء بعض الوقت معكم ، وافقوا مشكورين ، وأجرى
العملية الدكتور هشام مورو إن لم تخنى الذاكرة ، وكان
فاضلا ذا خلق ، أولانى عنايته ورعايته مدة تقرب من ثلاثة
شهور ، وظل أياما طويلة يضع لى المطهرات على بطنى بعد
أن شفى الجرح تماما لأبقى أطول فترة ممكنة فى معتقل
القصر العينى ، وهو ليس تعبيراً مجازيا ، بل هناك معتقل
بالفعل بمستشفى القصر العينى ، باب عادى تماما كأى باب
تراه فى ممرات المستشفى ، ينتشر حوله الشرطة السريون ،
ومن خلف الباب حجرات وعناير وصلالات وجند كثيف
وضباط ، فمن تجرى له عملية جراحية ينزل إلى هذا المعتقل
بعد يومين أو ثلاثة حسب درجة الخطورة ، ثم يذهب تحت
الحراسة المشددة للغيار على الجرح ، أو للكشف أو لأى
سبب تراه الإدارة مناسبة .

كان حديث الأطباء والممرضين والمرضى وكل الناس عن
هزيمة خمسة يونيو ، وكيف خدعتهم الحكومة كل هذه
السنين الطويلة ، ثم يكتشف الشعب أن وراء الستار لا يوجد
غير الخواء والهراء ، وكان الأطباء ينظرون للمعتقلين نظرة
ملينة بالاحترام والتقدير وقال واحد فيهم يوما :

— أنتم الفئة الوحيدة من الشعب التي لم تستطع الحكومة خداعها ، ومكان أى وطنى صادق هو السجن أو المعتقل فى هذه الأيام السوداء ، نحن انخدعنا وانطلت علينا الحيلة اللثيمة التي استخدمت فى سرقة هذه البلاد ، أما أنتم فلا .

ومن مكاني فى معتقل القصر العينى رأيت بعض القادة العظام الذين قادوا الجيش إلى الهزيمة النكراء فى خمسة يونيو ، لقد جاءوا بهم كمعتقلين ، ليس بسبب الهزيمة ، ولكن بسبب ما سمى فى ذلك الوقت بمؤامرة المشير عبد الحكيم عامر ، وأودعوه فى معتقل القصر العينى ربما لأنهم مرضى ، وربما إرضاء لخواطهم وأذكر منهم اللواء عبد الحليم محمد عبد العال واللواء عصام خليل ، كانوا عددا يتجاوز العشرة بقليل ، ولا أدري ماذا كان مصيرهم بعد أن غادرت المعتقل ، معتقل القصر العينى بطبيعة الحال .

وأثناء وجودى هناك قرأت خبر انتحار المشير عبد الحكيم عامر ، وتعجبت لماذا انتظر كل هذه المدة ليقتل نفسه ، فما دام يرى الانتحار مشروعا فكان عليه أن يفعله يوم خمسة يونيو ظهرا أو مساء فى أقصى تقدير ، وليس بعد ذلك ، ثم زال عجبى بعد أن عرفت أنه انتحر لسبب آخر ، واعتدلت الأمور فى رأسى أكثر عندما علمت أنهم قتلوه بالنسم . والله فى خلقه شئون .

وتأملت كيف يتشاجر هؤلاء الناس على الحكم ودم البلد لم يبرد بعد ؟ وكيف يرى كل واحد فيهم أنه أحق بالحكم من الآخر وهم الذين وضعوا رأس مصر والعرب فى الطين ،

يتقاسمون الجيش وينهبون السلطة ويشترون الأعوان ، ولا
يأتى على بالهم ذكر ما فعلوه فى أمس القريب .

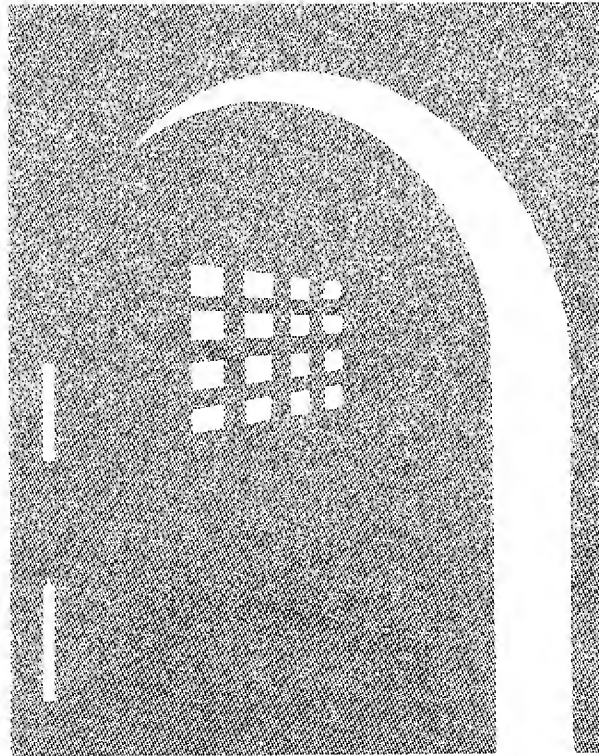
ويقف الرئيس عبد الناصر ويخطب فى الناس خطبة يقول
فيها معلقا على الهزيمة :

— أنا المسئول عن كل ما حدث .

ويضح الناس بالتصفيق الشديد ، وترتفع الحناجر بهتاف
يشق عنان السماء حتى اختلط الأمر على وظننت أن الهزيمة
فى يونيو كانت مطلبا قوميا استطاع الرئيس بحكمته وحنكته
أن يحققه ويريد عبد الحكيم عامر أن يسرق منه هذا
الشرف !

الفصل العشرون

مصر تحكمها عصاة



كانت مصر وأحوالها هي شغلنا الشاغل في هذه الأيام ،
وكنا نتعجب من عقوق من يفترض أنهم أبناؤها ، وكيف
هانت عليهم وأذلوها ، ووضعوا رأسها في الطين أمام العالم
عن عمد واضح وترصد لاينكر ، وكنت أثناء وجودي بالقصر
العيني ألتقي بالناس من مختلف الطبقات : الأطباء والمرضى
وزائريهم ، والحرس الذي يتناوب علئى فى غدوى ورواحى
من معتقل القصر العيني إلى العيادة الخارجية ، حيث الغيار
على الجرح أو علاج أى شىء آخر ، وكانوا قد نصحونى
أن أعرض كل ما فى جسدى من علل لتطول فترة بقائى
هناك ، وللأسف الشديد كان جسدى فى ذلك الوقت قويا
لا يشتكى من علة ، وقلت للطبيب الذى نصحنى :

— ماذا أفعل ؟ ليست بى علة .

— فلنبداً بالأسنان ، بلغ فى الصباح أنك تشكو من
أسنانك وسأدير أمرك هناك .

ونفذت أمره فى الصباح كما قال .

وفى عيادة الأسنان استقبلنى الأطباء كأنهم يرون زائرا من
المريخ :

— أنت من المعتقلين ؟

— نعم .

— إخوان أم شيوعيون ؟

— إخوان .

— الحمد لله نستطيع أن نقوم على خدمتك بضمير
مستريح ، ماذا يفعلون بكم هناك ؟ هل صحيح أنكم
تضربون ؟

— يضربوننا بالأحذية .

— هل هذا صحيح ؟ نحن لانصدق هذا .

ويرد زميله الذى يساعده :

— ولماذا لا نصدق ؟ قد رأيت بنفسك الهزيمة المنكرة ،

وكنّا من قبل نسمع كلاما آخر مختلفا . حكامنا يخدعوننا
ويكذبون علينا .

— أسنانك سليمة للأسف ، قوية ليس بها عيب .

ويتبادل النظرات مع زميله :

— ما رأيك ؟

— نطلب أشعة على الأسنان ونستخرجها بعد عشرة أيام ،

وعندها يفرجها المولى .

وتناول البطاقة التى أحملها معى ، وملأها كلاما وقال :

— الأشعة بعد غد ، والنتيجة بعد ذلك بعشرة أيام ،

مارأيك ؟

— كتر خيرك .

ويرد زميله متحمسا :

— وربما يفسد الفيلم فتعيدها من جديد .

— هذا عظيم والله .

ويقول الطبيب وهو يناولنى البطاقة :

— أخبرنى . ما رأيك فى النكسة ؟

وأقول له :

— ما رأيك أنت ؟

— شىء فظيع كأنه حلم ثقيل . الناس لاتصدق ماحدث ،
مازالوا لا يصدقون .
ويتدخل زميله :
— أخبرنى . هل صحيح أنكم أعددتُم مؤامرة لقلب نظام
الحكم ؟

— غير صحيح بالمرّة .
— ولماذا قبضوا عليكم ؟
— هذا موضوع طويل الشرح .
ويقول الطبيب الأول لزميله :

— إنت عارف يا حسن ، الحكاية إن فتوة فى حى بلدى
ومتضايق من أحد الناس فهو يلفق له قضية ، يدس له
مخدرات ، ويبلغ عنه فيقبضون عليه ويرتاح منه .
وقلت له مبتسما :

— هذا ما حدث بالضبط .
ويندفع متحدثا متحمسا :
— شغل عصابات ، مصر تحكمها عصابة .
وقلت له مهثا :
— قد عرفت السر . مصر تحكمها عصابة .

سمعت هذه العبارة من ذلك الطبيب الشاب الذى بذل
جهده فى استبقائي بعيدا عن المعتقل رحمة بى ، ومساهمة
منه فى تخفيف آلام المعتقلين ، وسمعتها من كثيرين فى
تجوالى بين العيادات المختلفة ، فقصت مع الأسنان استمرت
شهرًا كاملا ، فقد أعيدت الأشعة مرة ثانية ، ثم نصحونى
بإجراء جراحة لاستخراج ضرس العقل ، وقالوا إنها عملية مثل
الزائدة الدودية لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تبقيك معنا أياما

طويلة ، وبعدها يفرجها المولى . وبعد أن انتهت العملية وآثارها صرت أفكر ماذا يمكن أن أستأصله من جسدك بشكل قانوني ؟ وبينما أنا أفكر وأجهد ذهني ، جاءني أحد الإخوان بمرآة هربها ليخلق ذقنه ، وكانت هذه من مزايا معتقل القصر العيني ، فنحن مرضى ويدللوننا قليلا ، وأمسكت بالمرآة له حتى فرغ من الحلاقة وقال لي :

— ما رأيك ؟

— لا بأس .

وأمسك هو بالمرآة لي وصرت أحلق ذقني وشغلي الشاغل عملية جراحية جديدة تستبقيني أياما ، وسألته :

— يا أخ حسين . ماذا يمكن أن أستأصله دون أن يحدث ضرر .

وقال مازحا :

— هناك ما يمكن استئصاله وتستريح وتريح ، عقلك .

وكنت أحلق في المرآة وأنا أحلق ذقني ، وفجأة تركت ماكينة الحلاقة ، واختطففت المرآة منه ، وصرت أحلق في وجهي المائل على صفحتها وأنا أردد :

— وجدتها وجدتها .

— ماهي ؟

انظر في عيني .

ونظر حسين الحنفى دهشا في عيني :

— ماذا بهما ؟

— ألا ترى شيئا غريبا ؟

وصار يحدق فيهما ويفكر :

— أنا هنا لعلاج عيني من الماء الأزرق ، لهذا أنا خبير بالعيون ، ماهذا ؟ بالفعل هناك شيء غريب ، العين اليسرى بها بقعة بنية اللون فى حجم رأس الدبوس ليست موجودة فى العين اليمنى .

— لم تكن موجودة من قبل .

— ماهذا الكلام ؟

— أنا لم ألاحظها قبل ذلك ، فهى بالنسبة لى قد ظهرت اليوم .

— ومن ثم سنذهب سويا إلى عيادة العيون من الغد .

* * *

وهكذا ذهبت إلى عيادة العيون ، وتفهم الأطباء الموقف ، وقالوا : تحليل وأشعات وفحوص ، ومزيد من الأيام فى جنة القصر العينى الوارفة الظلال ، ولا شك فى أن هذا المعتقل الموجود بالمستشفى كان من حسنات الثورة كما يؤكد جميع الذين ذهبوا إليه .

وكنْتُ أسأل نفس الأسئلة فى كل مكان أذهب إليه ، وأسمع نفس الكلام ، والجملة بذاتها تكررت فى مواضع كثيرة ، مصر تحكمها عصابة ، وصرت أسمعها حتى نطق بها عبد الناصر نفسه فى خطاب عام كأنه كان يعبر عن ضمير الأمة ، ويشعر بنض الجماهير ، فهو يعرف ما يفكر الناس فيه .

عدت إلى المعتقل وتلقاني الإخوان بعد هذه الرحلة الطويلة ، وجلسوا إليّ يسألونني وكان انبهارهم شديدا بحكاياتي التي جئت بها ، مثل واحد قد عاد من أمريكا إلى قريته وهو يحدث أهله بما شاهده هناك ، وهم يستمعون إليه في إعجاب وجلال .

واستنفدت قصصى وشغلنا جميعا بقصة المشير عبد الحكيم عامر وكانت تأتينا عبر الصحف التي تسرب إلينا فقد ضعفت القبضة ، وملّ الضباط ما يفعلونه بنا ، فهم يتغاضون عن بعض الممنوعات ، وشجعهم على هذا ما تروييه الصحف كل يوم عن حكايات هي إلى الأساطير أقرب ، والناس يدركون بأنفسهم الجرح العظيم الذي انشق في جسد مصر ، ومن بين الجرح يفور الصديد والقيح والنتن ، من بين حكايات المشير وشمس بدران وعباس رضوان وجلال هريدى ، وما لا يقال من بين السطور ، وما يفهمه الأذكاء والعارفون ، قد صدق « الرئيس » فمصر تحكمها عصابة !

كنا نفكر فى المعانى التى تبرز من بين سطور قصة مؤامرة المشير ، وكنا نقارن بين حالهم وحالنا ، فقد شغلوا الدنيا بمؤامرة الإخوان عام ١٩٦٥ لقلب نظام الحكم ، وكنا نعرف الحقائق فنحن المتهمون وأدرى الناس بما جرى وكان . ولندع علمنا جانبا فنحن فى أى الأحوال متهمون كما قلت ، ولننظر فيما قالوه وأعلنوه للناس ، مجموعة من المهندسين والأطباء والمدرسين والمفكرين والفلاحين والعمال والطلبة ، لايتجاوز عددهم مائة كما أعلنوا ، اتفقوا على قلب نظام الحكم كما قالوا . ضبطوا عندهم بندقيتين ومسدسا ومدفعا رشاشا ومائة سكين ، وعشر زجاجات كولوניה ٥٥٥ زعموا أنها متفجرات ، واعتقلوا بسبب هذا ثلاثين ألفا ، قتلوا منهم

عدة مئات فى التحقيق الوحشى الذى أجروه ، وقدموا للمحاكمة عددا لا يصل إلى المائة ، حكموا على خمسة منهم بالإعدام ، ونفذوا الحكم فى ثلاثة منهم ، وعلى الباقى بالأشغال الشاقة تبدأ من المؤبد وتنتهى عند سبع سنوات ، ومن لم يقدم إلى المحاكمة ظل فى المعتقل حتى ظهرت مؤامرة المشير - واستمرت بعد ذلك بطبيعة الحال - ومن يتأمل يدرك ، حتى لو صدقوا فيما زعموا وهم ليسوا بصادقين ، أن الجريمة إن كانت ثابتة حقا فلا ينبغى أن تكون العقوبة على هذا النحو من الوحشية ، ولكنه حكم العصابات كما قال رئيسهم عبد الناصر .

ولنتأمل فى مؤامرة المشير كما بينتها التحقيقات لنذكر ماذا تعنى مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فالمؤامرة المزعومة للإخوان لا يمكنها الاستيلاء على قسم شرطة لو صحت ، أما مؤامرة عبد الحكيم عامر فنسبة النجاح فيها تتجاوز التسعين فى المائة ، ويتبين لنا هذا من أشخاص القائمين على الانقلاب والأدوات التى يملكونها والمال الموضوع تحت تصرفهم ، وإمكانيات التنفيذ المتاحة لهم بحكم موقعهم من الحكم ومعرفتهم بالخفايا والأسرار . فهم مثلا كانوا قد أعدوا خطة لخطف عبد الناصر ، وكان يمكن لها أن تنجح ، فقد قام بالتفكير فيها شمس بدران وزير الحربية ، وهو يعرف أين يبيت عبد الناصر ، ويعرف مكانه بدقة ، وعلى علم بكل التفاصيل ، وهو يتردد عليه فى بيته للصلح بينه وبين عبد الحكيم عامر ، فمن السهل عليه كما ثبت فى التحقيقات ، أن يخفى مجموعة معه بالرشاشات ، ويرغم عبد الناصر الذى كان يوصله حتى باب السيارة على الركوب معه والذهاب إلى أى مكان .

يوم تنفيذ المؤامرة كان الجيش على حالة التي تركه عليها
عبد الحكيم عامر ، نفس القيادات التي صنعها بنفسه ،
استجابت له المخابرات وعلى رأسها صلاح نصر فهي تعد
مجموعات الاعتقال ، وهي تعرف أين تجد من تريد اعتقاله .
الفرقة الرابعة المدرعة تنتظر المشير غرب القناة ، ليقودها
منصورا في استيلائه على الحكم في القاهرة .

كل قيادات الجيش وضعت نفسها تحت تصرف المشير ،
وعلى استعداد لتنفيذ أوامره
البوليس الحربي جاهز لتأمين القاهرة ، كانوا يملكون الجيش في
وحداته المنتشرة هنا وهناك .

وكانت هناك سبائك الذهب ، وعشرات الألوف من
الجنهات التي قدمها عباس رضوان ، ووضعها تحت تصرف
المشير ، ولا أدري من أين جاء بها ، ويدو أن نظام
الحسابات لم يكونوا يعرفونه ، فأموال البلد هي أموالهم ،
وهم يتصرفون فيها بالشكل الذي يريدون .

ضبطت في مقر قيادة المؤامرة — منزل المشير عبد
الحكيم عامر — مطبعة كبيرة بالإضافة إلى الأسلحة الآتي
بيانها :

- ٣٤ قاذفا صاروخيا مضادا للدبابات .
- ١٨٧ بندقية آلية .
- ٣٢٠ قنبلة يدوية .
- ٧١ رشاشا .
- ٤ مدافع هاون ٨٢ ملمترا .
- ٤٦١ مسدسا .
- ٢٩٤ صندوقا من الذخيرة .

هذه الأسلحة للقتال فى شوارع القاهرة إن لزم الأمر ،
ولست أدرى : أى منزل هذا الذى يحتمل هذا القدر من
الأسلحة ؟ ربما كانوا يضعون مدافع الهاون فى الصالون
والأنتريه بدلا من « الفازات » ، فهو منزل المشير . والأسلحة
التي حازوها استعملوها ، مرة عندما أرادت السلطات القبض
على جلال هريدى فأطلق عليهم الرصاص ، وأسرع عدوا
ناحية البيت المذكور ، وقامت القوات المتحصنة بتأمينه
وأمطروا المهاجمين بوابل من الرصاص . وهم جادون فيما
يريدون ، فالجيش والطيران والبحرية فى انتظار الأوامر .

وأفسد المشير عبد الحكيم عامر كل شىء بسوء تدبيره وعدم
حنكته ، فقد دعاه عبد الناصر ، وتُصبح بعدم الذهاب ولكنه
ذهب ، ووجد فى المنزل زملاءه القدامى من أعضاء مجلس
قيادة الثورة الذين كانوا على ولاء مع عبد الناصر واستُبعد
المناوئون ، وحاكموه ، لا أدرى كيف ، وحكموا عليه
بالاعتقال وتم ذلك ، وفى الوقت نفسه كانت قوات الفريق
محمد فوزى تحاصر منزل المشير الذى لو لم يذهب فى هذه
الزيارة لكننا الآن نشق الفضاء بهتافاتنا التي لا تنقطع :

يعيش الرئيس عبد الحكيم عامر منقذ مصر .

ولكانوا قد أقنعونا بأننا انتصرنا فى ٥ يونيو .

ولله فى خلقه شؤون .

قدم للمحاكمة فى هذه القضية مائة ضابط عظيم ، يكفى
خمسة منهم لعمل الانقلاب وإنجاحه ، وكانت كلها أسماء
كبيرة .

المتهمون الاثنا عشر الأول كالتالى :

سبعة تتهمة النيابة بتزعم التنظيم العسكرى المسلح الذى أعد لقلب نظام الحكم ، وهو تنظيم عسكرى مسلح بالفعل لأنه الجيش المصرى ، أو ما تبقى من الجيش المصرى فقد كانت هذه الأحداث بعد شهر من الهزيمة .

أما أسماء السبعة فهى :

شمس بـدران	وزير الحربية
عـاس رضوان	وزير الداخلية
صلاح نصر	مدير المخابرات
جـلال هـريدى	قائد قوات الصاعقة
عـثمان نصار	أحد اللـواءات
أحمد عبد الله	من قوات الصاعقة
تـحسين زكى	من قواد سلاح الطيران

وخمسة اعتبرتهم النيابة فاعلين أصليين فى محاولة قلب نظام الحكم وهم .

حسن مختار .

محمد حلمى عبد الخالق .

محمد عبد العزيز الحسامى .

سعيد عثمان مصطفى .

محمود فتحى الرئيس .

يعنى باختصار قادة الجيش وقواد الألوية والفرق ، وبعد ذلك ضباط أعظم أقل رتبة فيهم مقدم أو عقيد .

وقد بدعوا بمظاهرة عسكرية يوم ١١ يونيو بالمدركات التى أبـقوها فى القاهرة لحراستهم واعتقال الناس ، وطالبوا ببقاء القيادة العسكرية القديمة .

لم يفكر واحد منهم في ذهاب هذه المدرعات إلى الجبهة ،
لأنهم كما يبدو لا يتقنون غير المؤامرات أو الاعتقال والسلطة أو
الحكم هو مطلبهم الأسمى .

حملت الأسلحة التي وضعت في ست سيارات لورى
ضخمة ، وكانوا قد ضبطوا أثناء عملية اعتقال القوة المتحصنة
في منزل المشير سبع سيارات لورى أخرى قادمة محملة
بالأسلحة ، ومازلت أتعجب أين يمكن أن توضع هذه
الأسلحة في بيت من البيوت مهما كبر وعظم ؟ والظن أن
هذا البيت كان يمكن له أن يستوعب كل أسلحة الجيش ما عدا
الدبابات .

وقالوا إن الخلاف بينهم وبين عبد الناصر حول
الديموقراطية التي ضاعت ، والحرية التي أهدرها ، وكرامة
الفرد التي مُسحت بها الأرض .

إي والله هكذا قالت منشوراتهم !

ولا ندرى من نصدق ، ولعل كلا الجانبين صادق .
أنصدق شمس بدران الذي قال أمامي يوما أثناء
التحقيقات :

— أنا مفوض من الرئيس عبد الناصر في قتل من أشاء ،
ولو قتلناكم جميعا ما شعر بكم أحد ، وما اعترض على ذلك
إنسان .

ولاشك أن تلخيص المؤامرة واجب ، لأن هذا يساعد على
التخيل الصحيح .

كان من المقرر أن ينتقل عبد الحكيم عامر ومعه بعض كبار أعوانه ممن ذكرت إلى القيادة العامة بمنطقة القنال ، ويتم هذا بمعرفة فرقة من الصاعقة ، التي كان ينبغي عليها أن تكون في القتال مع العدو الإسرائيلي ، ويتولى قيادة هذه الفرقة أحمد عبد الله ، ويتم الاستيلاء على القيادة ، ويسهل بعد ذلك إلقاء الأوامر .

في نفس الوقت ينتقل شمس بدران وزير الحربية إلى مقر الفرقة الرابعة المدرعة للسيطرة على القاهرة واحتلالها .

في نفس الوقت ينتقل اللواء عثمان نصار إلى مقر قيادة القوات البرية المسلحة في دهبور حيث كان يعمل ، وحيث يوجد كل الضباط الذين تحت قيادته ، ويتم تحريك بعض هذه القوات لمساعدة شمس بدران في السيطرة على القاهرة . في نفس الوقت يقوم عباس رضوان بدور الحاكم العسكري العام للقاهرة ، ويقوم بتأمينها والسيطرة على وزارة الداخلية ، حيث كان يعمل ، وإدارة جهاز المخابرات بتفويض من صلاح نصر الذي أعد له المجموعات الخاصة التي كانت تجيد القبض والاعتقال .

وأثناء ذلك يتولى تحسين زكي قائد القاعدة الجوية بانشاط بتأمين كل هذه التحركات بما تبقى من أسراب الطائرات ، ويبدو أن سلاح الطيران لم يتحطم بالكامل كما أرجفت بذلك إسرائيل ، وكان من واجبات تحسين زكي تجهيز طائرة هليكوبتر تكون معدة في مطار أبو صوير لتحركات رئيس الجمهورية الجديد . ولذلك تفصيل طويل . .

* * *

كنا نقرأ هذا الكلام ونسمع به ونحن رغم كل مبررات
التصديق لانكاد نصدق ، هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟
وكان ذلك صحيحا .

وبعد ثبوت التهمة على المتهمين قدموا للمحاكمة .

وتذكرت عندما استدعيت ليلة من ليالى الشتاء القارس فى
السجن الحربى لمقابلة شمس بدران ، وكيف سمعت حوارا
بينه وبين أحد الضباط المعتقلين من رجاله فى قضية لا صلة
لها بالإخوان ، وكيف قال له إن عنده محكمة فى الغد ،
وعليه ألا يناقش رئيسها كثيرا ، فالحكم بالمؤبد ، ووعدته
بالذهاب إلى بيته فى وقت قريب ، وكل ما هو مطلوب منه
هو الأدب ، الأدب أثناء المحاكمة وبعدها ، وطمأنه على
مستقبله أثناء السجن وبعده .

وكان هذا ما حدث للمتهمين ، محاكمة فأحكام لا معنى
لها ، فلندن فالتجارة فى الملايين المنهوبة ، والأمن والأمان
بعيدا عن أى إنسان .

وتأملت عندما قرأت فى الصحف عن واحد من المقبوض
عليهم فى هذه القضية وكيف وجدوه مقتولا فى شقته بلندن ،
وفى الشقة مليون جنيه استرليني فى حقيبة من الحقائق ، والله
وحده يعلم ماذا فعل هؤلاء الناس بمصر ، وكم نهبوا من
أموالها .

لم يُعدم واحد ، هذا إذا استثنينا المشير ، فهو من
المنتحرين .

كانوا يرتدون الملابس الغالية الثمن وهم فى طريقهم إلى
المحاكمة .

وكان منهم من يتناول على رئيس المحكمة ، ويتهمه بالجهل ، وأنه كان (طرطورا) لا يعرف شيئا عما يدور ، وهو نائب لرئيس الجمهورية .

وكُشِفَت أسرار وانزاحت أستار ، وقالوا الكثير والكثير . وُظِنَ بعض الكتاب أن هذه المحكمة وإعلان هذه التفاصيل معناها إشارة البدء في سبهم ولعنهم ، وكان هذا الكاتب من المدرسين الذين يحسنون التقاط الإشارة ، وكتب في الصفحة الأولى عن الذهب المنهوب من الشعب المصرى الغلبان ، والأسلحة المسحوبة من ميدان القتال للاستيلاء على الحكم ، ولم يفهم المسكين أنه حكم العصابات .

وفى خطاب عام أنب عبد الناصر وعنف ذلك الصحفى لاجترائه فى الحديث عن هذه المثالب ، وقال لا تنسوا أنهم وضعوا رءوسهم على أكفهم ليلة الثورة للحصول على هذا الذهب وتلك الأموال .

وما هى إلا أيام حتى رفت الصحفى وطرد من وظيفته . لا ينبغي لأحد من خارج العصابة أن ينتقد الفتوات ، حتى لو اختلفوا فيما بينهم ، هذا حق شيخهم وحده ، وغيره ممنوع من هذا .

كنا فى معتقلنا نتأمل الحوادث ونمتلىء بالقهر والغضب ، ولا نملك غير الصمت والصبر وانتظار الأيام .

وكنا نقرأ عن الحرية والديموقراطية التى يزعم « الرئيس » أن يمكن الشعب منها ، وكيف أن يده كانت مغلولة ، فهو يريد الخير وتحول بينه وبين تحقيقه مراكز القوى ، وهو اسم عجيب أطلقوه على من يتمرد من العصابة على الزعيم .

ثم طبلوا وزمروا ببيان ٣٠ مارس ، فهم يعلمون أن حاجة الشعب عارمة للكلام ، وعليهم أن يبيعوه كالأما ، هكذا عودوه وهو لا يعيش بغيره .

وبدأ التمهيد فى الخطب والمقالات لتحويل الهزيمة فى يونيو إلى نصر .

سموها نكسة ، ثم قالوا هى المعركة الأولى من سلسلة معارك مع العدو الإسرائيلى ، وهذا هو حال الحروب فى التاريخ ، ونحن شعب جاهل لا يفهم معنى المعارك ، ولو كنا على ثقافة ووعى لعلمنا أن الحروب هكذا ، معركة نخسرها ، وأخرى نكسبها ، والترتيب غير مهم .

ثم بدعوا يعزفون على وتر النصر ، فقالوا إن إسرائيل لم تحقق غرضها فى تلك المعركة ، تلك المعركة الصغيرة التى نبالغ فى تقدير حجمها دون وعى ، فقد كان العدو يريد تغيير القيادة السياسية وفشل فى هذا ، ومن ثم لم يتحقق غرضه فى العدوان ، وإن الإرادة المصرية قد انتصرت على الجيش الإسرائيلى ، وأن جماهير ٩ ، ١٠ يونيو قد أثبتت أن مصر لايمكن أن تهزم وإنا شعب سخيى لا يفهم الفرق بين النكسة والهزيمة ، وليس المهم هو تحرير الأرض ولكن تحرير الإرادة ، وما الجيش ؟ ما هو إلا بعض الأدوات من الحديد ، وجمع من الناس قد ارتدوا الملابس « الكاكية » ، وبالإرادة وصدقة الاتحاد السوفيتى نستطيع أن نأتى بهذه الأدوات من الحديد ، أما الناس الذين ماتوا فخيروا فعلا ، فنحن مصابون بتضخم سكانى !

كانت هذه هي النعمة ، وكان ذلك هو العزف ، عزف
سقيم لا يطرِب ، ولا يثير غير المرارة والاحتقار ، في أمة
قد هانت على نفسها وعلى أسيادها وفقدت كرامتها ، ومرغ
شرفها بالوحل ، وغاب أبناؤها في غياهب السجون .
وهُمُّوا أن يعلنوا انتصارنا في يونيو لولا تواتر الأحداث .

» » »

ويقول لى واحد من المعتقلين من السياسيين القدامى وليس
من الإخوان :

— هل كنتم تتآمرون على قلب نظام الحكم عام ١٩٦٥ ؟
— كلا بالطبع .
ويتمتم الرجل في مرارة :
— ليتكم فعلتم .
وأنظر إليه في دهشة :
— ماذا تعنى ؟

— لو أن انقلابا حدث في عام ١٩٦٥ ، وتغير نظام
الحكم في مصر لتجنبنا الكارثة التى حلت بها . أنتم
لا تعلمون حجم ما جرى في ٥ يونيو .

— بل نعلم .
ولكنه استطرد شاردا حزينا :
— إن ما حدث في يونيو أمر عظيم ، سوف يفرض نفسه
على مصر والعرب ، وهو أمر له ما بعده ، فهو يغير السياسات

والآفاق التي ينظر إليها العرب بمن فيهم مصر ، وإن أثر ما حدث لن يتغير قبل جيلين كاملين . ولن يبدأ التغيير قبل أن نتخلص من هذه الحكومة ومن ذيولها ، وهو أمر لن يجدى فيه غير الزمن ، مائة سنة غير كافية لإصلاح ما حدث ، أنتم حقيقة لا تعلمون من يحكم مصر .

وتفرست فيه وأنا أسأل :

— ومن يحكم مصر ؟

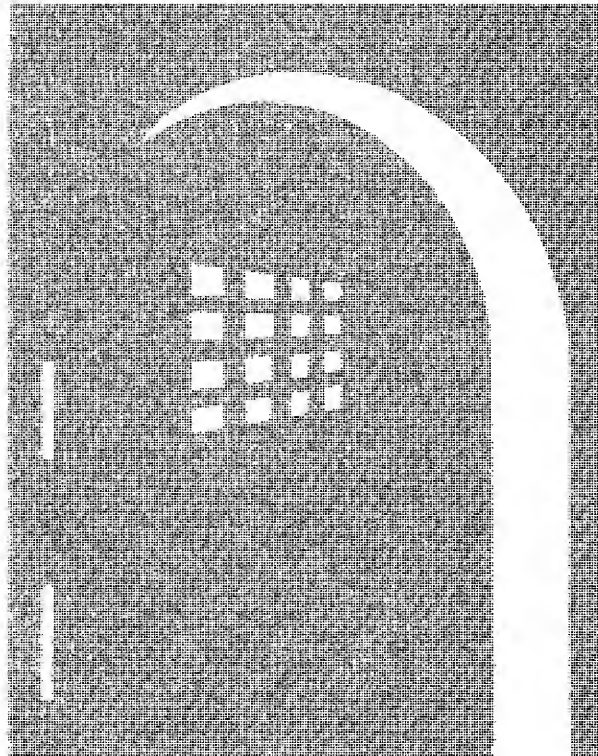
ورد على في برود وحزن :

— مصر تحكمها عصابة .

ويممنا صوب العنابر في صمت ، فقد كانت صفارة الشاويش تعلن انتهاء الطابور .

الفصل الواحد والعشرون

مهرجان الحرية والاعتقال معتقل طره السياسى



كانت الإدارة تشعر بسخف تصرفاتها مع المعتقلين - رغم الأوامر المشددة - التي تقضى بالمضايقة ومزيد من القرف والإيذاء ، فالضباط كثيرا ما يتهاونون في تنفيذ ما يطلب منهم احتقارا للحكومة ، وقد عبر بعضهم أحيانا عن هذا الاحتقار ، ولكنه لا يستطيع أن يفقد وظيفته ، وربما ضموه إلينا كمعتقل ، فهي أيام يجوز فيها أى شيء ، والضباط خير من يعلم هذا بحكم اطلاعهم على ما يدور وراء الكواليس من عجائب .

ويدو أن مشاكل الصراع حول السلطة فى القمة جعلت القائمين على أمر المباحث يشعرون بمتغيرات يمكن أن تكون ، وأن فى هذه المتغيرات مستقبل بعضهم وربما حياته ، فالجميع يعيشون أياما لا يؤمن جانبها ، والعاقل من لا يأمن جانب الأيام أبدا ، ومن ثم: فقد قرروا انتقال المعتقلين الموجودين فى أبى زعبل إلى طرة السياسى وتخليصهم من عبد العال سلومة الذى كان يجرى عليهم تمارينه لحساب المباحث بشكل عام ولحسابه بشكل خاص ، وكان يبالغ فى أداء هذه التمارين .

وفى ساعة من نهار صفى معتقل أبى زعبل السياسى ، وركب الناس الحافلات وهم مقيدون بالحديد إلى طره ، فقد كان هذا هو أسلوب الترحيل ، يضعون القيود الحديدية فى اليدين ، وربما الجنائز فى الصفوف الجالسة والواقفة ، هذا حسب المزاج العام .

وصار عبد العال سلومة يعتذر للمعتقلين الذين أساء إليهم واحدا بعد الآخر وهو يشعر بحسرة ضياع الفرصة منه ، وعودته ثانية إلى وظيفته الأصلية إلى سجن من السجون المنتشرة فى بلاد مصر حيث المجرمين والقتلة واللصوص ، ويلفه الضباب ويضيع فى عالم النسيان .

والغريب أن هذا الأمر قد حدث معه عدة مرات ، يتمكن
فيطغى ، ويسلب المكانه فيندم ثم يعتذر ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا
عنه وإنهم كاذبون ... ماعلينا من هذا .

وجدنا أنفسنا فجأة فى معتقل مزرعة طره السياسى ، وهو عالم
يختلف تماما عن أبى زعبل .

الأسوار والأبراج والحرس الشديد كأتى سجن أو معتقل فى
مصر المحروسة ، وفى داخل الأسوار توجد العنابر - عنبر واحد
واثنين فى مبنى واحد على اليسار ، وعنبر ثلاثة وأربعة على اليمين ،
فإذا أردنا الوصف بدقة فإن الداخل يدخل من كوة صغيرة فى بوابة
ضخمة ، وفور الدخول غرفة قائد المعتقل على اليمين ، وعلى
اليسار غرفة نائب القائد ، ثم على اليمين حجرتين تقابلهما مثيلتهما
على اليسار ، وهى غرف للضباط وللإداريين والخدمات المختلفة ،
ثم بوابة أخرى تخرج منها فتجد أمامك فى منتصف مربع المعتقل
مبنيين خلف بعضهما الأول يشمل المطبخ (والكاتين) والمسرح
والملاحظة: والملاحظة هذه : عبارة عن عنبر كبير يوضع فيه أنصاف
المرضى ، وخلف هذا المبنى يقع مبنى المستشفى ، وبين
المبنيين ساحة تتسع لاجتماع أكثر من أثنى شخص . وعلى يمين
الداخل ويساره تقع العنابر التى ذكرت ، واحد ، واثنان ، وثلاثة ،
وأربعة ودخلنا أول ماوصلنا إلى عنبر ٣ ، ٤ ، وكما قلت فهما مبنى
واحد له باب قضبانى ، يفتح فيدخل الداخل - وقانا الله السوء -

فيجد على اليمين عنبر ثلاثة وعلى اليسار عنبر أربعة ، وكان من
نصيبتنا هو عنبر ثلاثة ، حيث توجد ثلاث حجرات كبيرة على
اليمين ، وأخرى مثلها على اليسار ، وفى آخره بوابة حديدية أخرى
تفضى إلى ساحة صغيرة تنتهى بدورات المياه ، عشرة عيون لم تكن

بينها حواجز ، وجاهد الإخوان سنين حتى وافقت الحكومة على السماح لهم بعمل حواجز من الصاج على حسابهم . وفي داخل العنبر توجد بجانب الغرفات الكبيرة أربع (زنازين) انفرادية ، على يمين الداخل إلى عنبر ثلاثة ، وعلى يسار الداخل إلى عنبر أربعة .

وكل المباني من دور واحد ، يرتفع السقف في الحجرات إلى أكثر من أربعة أمتار ، وسماك الحائط حوالي متر ، يظهر من النافذة القضائية ذات القاعدة الحائطية المائلة فلا تسمح لشيء بالاستقرار عليها إنسانا كان أم جمادا . ولا تستخدم هذه النوافذ إلا للتبريد ، حيث يلف الوعاء (البلاستيكي) بقطعة من الخيش مبلولة وتربط بحبل في قضبان النافذة وتترك ، ثم تمد بالماء كلما جف الخيش ، ومن ثم يتم الحصول على ماء بارد يمكن أن يستخدم في صنع مشروب مشهور اسمه « ساكو » ، بالتشديد على الكاف ، وهو عبارة عن ماء مضاف إليه غسل أسود ، وترج الزجاجاة قبل الاستعمال لتوفير الرغبة التي تجعل شكله غريبا بعض الشيء ، وطعمه أغرب ، ولكن لا بد من شرب شيء مامن باب التغير وكسر المألوف ، أو كما قال الجميع .

وجدنا الحياة في معتقل طره السياسي مختلفة تماما عن مثلتها في أبي زعبل ، فكنا وكأننا هبطنا جزيرة في وسط المحيط بعد أن غرق المركب كما تروى أساطير ألف ليلة وليلة ، أول ما طالعنا في هذا المعتقل هو قائده العميد « ناصف مختار » ، وهو شخصية عجيبة بالفعل ، أولا هو رجل من أقباط مصر ، وأغلب المعتقلين من الإخوان المسلمين وعلى عكس ماتوقعنا ، كان ودودا كريما متبسما دائما ، يحاول جهده التخفيف عن المعتقلين في حدود صلاحياته ، ويتجاهل كثيرا من المخالفات والممنوعات رغم ذكائه الشديد ، وكان بوجه عام أفضل ألف مرة من عبد العال بك .

قابلنا الرجل باسمنا وقال لنا :

- تذكروا شيئا هاما ، أنا لم آمر باعتقالكم ، ولا مصلحة لى فى ذلك ، وأود لو تخرجون إلى بيوتكم ، ولكنى هنا حارس وبواب ، أنفذ أوامر الحكومة كما تعلمون ، وأريد أن تجنبونى المشاكل وتجنبوا أنفسكم كذلك ، خير لكم وخير لى . لأفهم فى السياسة ولا أحب الحديث فيها ، افعلوا ماتشاءون فى حدود النظام والقانون ، تكلموا بما تشتهون ، لادخل لى بكم ، ماأنا إلا حارس كما قلت ، وأدعو الله ألا تطول إقامتكم هنا ، فالسجن شئ مؤلم ، ولو أنى سجين معكم نصف الوقت بحكم عملى وأنا على استعداد تام للاستجابة إلى مطالبكم ، فى حدود النظام والقانون ، تفضلوا مشكورين ، أتمنى لكم إقامة سعيدة . هكذا كان استقبال الرجل لنا ، كأننا فى استقبال فندق أربعة نجوم وربما خمسة ، ثم قادنا (شاويش) أنيق يحمل المفاتيح ، وفوجئنا بمن يتقدم ليحمل أمتعتنا : أناس يرتدون الملابس الزرقاء ، عرفنا بعد أنهم من المساجين الذين جاءوا بهم لخدمة المعتقل ، فهم يقومون بعمليات النظافة الشكلية والخدمات بوجه عام ، ثم يعملون لحسابهم ، هذا بعلم الإدارة وسكوتها عن ذلك ، فهذه أمور لاتعنيها .

والنقود ممنوعة فى المعتقل ، وكان من الضرورى وجود بديل ، وكانت السجائر هى البديل ، فالمسجون يحمل الأمتعة حتى باب الغرفة داخل العنبر بسيجارة ، وربما حمل أمتعة شخصين بالأجر نفسه ، ويقومون بخدمات كثيرة أخرى .

وكان هذا من المفاجآت العديدة التى توالى علينا فى اليوم الأول من أيام إبريل عام ١٩٦٨ حيث حللنا هناك ، فكان من الممكن لذوى اليسار أن يتخذوا خدما من هؤلاء المسجونين ، وكان الأجر زهيدا جدا فهو فى اليوم الواحد خمسة (سجائر) بلمونت أو

كليوباترة صغيرة هذا في حالة الاستمرار ، فهو قاعد عند باب
الغرفة يلبي طلباتك وينفذ كل أوامرك ، وكان ذوو اليسار
قلة في المعتقل .

دخلنا العنابر واستقر كل واحد في غرفته ، وتقسيم الأماكن في
الغرفة شبيه بالنظام في معتقل أبي زعبل ، ولكن المعتقلين هنا
يختلفون ، فقد فوجئنا بقوم قد علتهم سمرة الشمس من استمتاعهم
بها طوال النهار ، وظهروا أمامنا كأنهم وقد صارت مهنتهم
الاعتقال ، يختلفون عنا كثيرا ، نحن قد جئنا والجدل السياسي
والديني لا ينقطع لحظة من نهار وجانب كبير من الليل ، فالقضايا
السياسية والدينية حية في نفوسنا ، وهي تظهر في كلامنا العادي ،
وفي نظرتنا إلى كل شيء ، كانت ضغوط الإدارة وعبد العال سلومة
تجعلنا في حالة استعداد دائم ، متأهبين للخطر ، الإسلام هو محور
حديثنا ونقاشنا ، أما أهل طرة فكانوا ينظرون إلينا أيضا - في أول
الأمر - كمخلوقات عجيبة قد أتت من عالم غريب ، فهم متمدنون
متحضرون ، ونحن مازلنا بعقب الريف فأقدامنا مشققة والطين ينفذ
من بين أصابعها ، وعلينا أن نفهم النقلة الحضارية الهائلة التي قفزناها
من أبي زعبل إلى طرة .

وماهي إلا أسابيع حتى انتشر عقب الريف في كل أرجاء المعتقل !
رغم اختلاف كل شيء عند حضورنا كما قلت !

وجدت أساتذتنا القدامى في مدرسة الإخوان ، ودعيت إلى طعام
الغداء فقد آن أوانه عند حضورنا ، وفوجئت بالطعام ، وبالفعل كان
صدمة ، لم أتخيل أن يوجد في معتقل طعام بمثل هذه الفخامة
وارتفاع المستوى وإليك القائمة :
ديك رومي .
أرز بالخلطة .

بوفتيك .
كباب حلة .
سمك مشوى .
مكرونة فرن .
سلطات فاخرة .
تفاح أمريكانى .
بسبوسة .

حلوى أخرى ما زلت لا أتذكر اسمها .

تناولت الغداء فى انبهار شديد وانفعال أشد ، وتأملت فقد كان كل من بالغرفة يأكل من نفس الطعام ، وهم يجلسون كما كنا نفعل أيام أبى زعبل ، وهناك مسئول يقوم بتوزيع نفس الأصناف - التى ذكرت - على جميع الناس ، وهذا ما وعته الذاكرة من الأسماء بعد مرور كل تلك السنين ، فقد كانت هناك أصناف أخرى بالإضافة إلى ما ذكرت بالتأكيد .

وانتهيت من الطعام ، وفوجئت أن هناك من يصنع الشاى ، نعم هناك من يصنع الشاى ، أكررها لأن المنظر كان غريبا ومبهجا ، موقد قد تم تصنيعه فى المعتقل من علب الصفيح المتخلفة عن المشتريات ، قد صممه واحد من المعتقلين وله شرائط قد صنعت من خيوط ملابس المعتقل ويوقد (بالشل توكس) الذى يأتون به للنقضاء على الحشرات ، والشاى يأتيهم رغدا من كل مكان .

واتحيت أهمس لمحدثى الذى استضافنى :
- لكم حق ألا تهتموا بالسياسة ، هذا طعام طيب !
- هذا لا يكون كل يوم يا صديقى .
- ومتى يكون ؟
- حسب التساهيل .
- لأنهم !

- اليوم زيارات ويأتينا الطعام فيها ، الأهل يعدون ماعندهم ،
ويأتى الأخ من الزيارة ، ويسلم ماجاءه من طعام للمسئول عن
العنبر ، ويتولى هو توزيعه ، واليوم كان عدد أصحاب الزيارة من
هذه الغرفة كثير .

وامتلأت دهشة :

- يأتىكم طعام فى الزيارة ؟
- أو لم يكن يأتىكم مثله فى أبى زعبل ؟
- كلا .

- هذه هى تصرفات عبد العال سلومة - عليه لعنة الله - هنا
ناصر بك لايهتم بهذه الأمور ، فهو يتركنا نفعل مانشاء ،
والحكومة نائمة لاتعرف مايدور ولايعنيها .

- هذا والله جميل جدا . ولكن ، الشاى ! من أين تحصلون
عليه ؟

- ستكتشف المكان بنفسك ، هنا يمكنك شراء أى شىء ،
وتستطيع الحصول على ماتشاء ، ماعدا الإفراج ، هذا بإذن
الحكومة .

- هو بإذن الله .

ومكثنا أياما ندور فى حجرات المعتقل ونتكلم مع الناس فقد
كان هذا مسموحا به ، ونمضى معظم وقتنا فى الشمس التى حرمتنا
منها سنين ، والناس يتحفظون فى الحديث معنا ، فنحن فى نظرهم
متشددون نرفض التفاهم والحوار مع الحكومة ، وقد كانت هذه
هى السمعة التى سبقتنا إلى طره ، والأمور نسبية بطبيعة الحال ،
وكان أهل معتقل طره الأصليون ، هم الذين نجوا طول الوقت من
التعذيب الوحشى الذى حدث فى المعتقلات الأخرى ، والأمور
تحكى لهم كأنها قصص أسطورية لم يعاينوها أو يشاهدوها .

وكانوا فى أول الأمر يتحفظون فى جدالنا والكلام معنا ،
وسرعان ما وجدوا أننا مثلهم لانتختلف كثيرا فى الرؤية والتصور ،
وكان الوقت هو العامل الحاسم فى الانسجام والتفاعل ، حتى صار
الجميع شيئا واحدا بعد أسابيع قليلة ، وتحول معتقل طرة إلى صورة
مكبرة من أبى زعبل .

اكتشفنا فى أول صباح مر بنا فى طره أن الفول المدمس هو
طعام الإفطار وكان هذا ممنوعا فى أبى زعبل ، أما فى طرة فالأمر
يختلف لاتوجد أية ممنوعات بالنسبة للطعام والشراب ، فالمعتقل
يدار إدارة كاملة من جانب المعتقلين ولا تتدخل الإدارة إطلاقا فى
هذه الشؤون إلا لتدبير ما يطلبه الناس من مواد أولية ، فتأتى للمعتقل
يومية أو أسبوعيا المواد التى تصرفها الحكومة لطعام المعتقلين الذين
يقومون على طهية وتقديمه فى نظام دقيق ، فالأرز يوزع على العنابر
كل يوم ليتم تنقيته قبل الطهى ، وكذلك الفول ، ثم يجمع ليقوم
فريق على إعداده ، وهناك مطبخ كبير يقوم بالخدمة فيه فريق من
المعتقلين الاختصاصيين فى الطهى يعاونهم عدد من المسجونين ،
والأول مرة فى تاريخ الاعتقال نتناول لحما مطهوا مما يصلح
للاستخدام آدمى ، فقد كان اللحم فى أبى زعبل تنثر الرائحة ،
وكانوا يتعمدون تركه حتى يفسد وتظهر رائحته ثم يقدمونه لنا هنيئا
مريئا ، وكانت هذه الطريقة مما يتفق عنه ذهن عبد العال سلومة

(الكائنين) فى طرة عبارة عن (سوبر ماركت) يبيع كل شىء
مما يمكن أن يكون موجودا فى أسواق القاهرة ، حتى معجون
الأسنان ومعجون الحلاقة ، وسائر المعلبات ، الممنوع الوحيد هو
الشاي ، فقد كانت أيامها أزمة فى كل بلاد مصر ، فالشاي لا يوجد
بسهولة فى الخارج ، ورغم منعه كنا نحصل عليه فى سهولة
ويسر ، ليس عن طريق « الكائنين » ولكن بطرق لا أعرفها ، وفى
النهاية نجد الشاي عندنا فى الوقت الذى نريد .

وكان الطعام متنوعا ومختلف الأصناف من الزيارات أو من البيع والشراء ، والتكافل موجود ، فالذى لآتأته زيارة لافرق بينه وبين الموسر الذى تأته الأطةمة كل أسبوع ، وهناك من كانت تأته كل يوم ، والمستول يوزع الطعام بالعدل والمساواة ، ولكل مجموعة من المعتقلين خمسة كانوا أو سبعة موقد ومطبخ صغير ، فهم يصنعون طعامهم كل يوم ، ويتفتنون فيه ، ويجرون تجارب حول ذلك ، ويتفتق ذهنهم عن أصناف وخططات لم تكن على البال ، ولكنها مقبولة المذاق والطعم .

وكنآ تذهب زائرا إلى أحد الإخوان فى (نمرته) فيقدم لك الشأى أو القهوة أو ما يقدم فى البيوت كألك تزوره هناك ، ثم يودعك إلى باب الغرفة وربما إلى باب العنبر .

والخضروات والفاكهة تأتى إلى (الكائين) وتذهب وتشتري كيلو طماطم أو كيلو بلح أو ماتشاء مما هو موجود ، تشتريه بالسجائر أو عن طريق رسمى خلال دفتر فى يدك وصورة منه طرف الكائين ، ثم يخصم من أماناتك ، وهى النقود التى لك عند الإدارة والمبينة فى دفتر آخر هناك .

وكانآ دعوات الطعام كثيرة فى تلك الأيام ، وكان الحاج حسنى عبدالباقى - وهو من أعيان مصر ومن كبار الإخوان أيضا - يقيم الولائم للجميع بلا تمييز بين الحين والآخر ، وكان من الذين يعرفون عبد الناصر معرفة وثيقة قبل الثورة ، وكان الأخير يقوم بتدريب الإخوان فى عزبته من أعمال مركز الصف ، وكان الحاج حسنى عبد الباقى كثيرا ما يحل أزمة عبد الناصر المالية ويمنحه قروضا غير قابلة للسداد ، ثم تغيرت الأيام وجازاه « جزاء

سمنار » ، ولم يكن الرجل يتكلم فى هذه الأمور أبداً ، بل كنا نسمعها من أطراف أخرى عاشت تلك الحوادث وشهدت ذلك التاريخ .

وكان الحاج حسنى عمدة معتقل طرة السياسى بحق ، فهو الذى يجلس للقضاء بين الإخوان إن تنازعوا ، وحكمه لا يرد ، وكان كثيراً ما يتدخل لفض المشكلات التى كانت تنشأ بين الإدارة وبين المعتقلين ، وهى مشكلات إدارية حياتية لها علاقة بشئون المعيشة ، وهو الذى يتفاوض مع قائد المعتقل فى الحصول على البطاطين الصوفية عندما يأتى الشتاء ، وكان للرجل حضور عظيم بوجه عام ، فهو بجلبابه البلدى وطاقيته الصوف ، ونظرتة المتأنية العميقة ، وصوته الهادى يستطيع أن يفض أى خلاف قد ينشأ ، ويحل أية مشكلة فى إطار النظام العام والقانون .

كان الحديث عن الطعام فى معتقل طره السياسى .

وكان هذا النظام يتناقض مع ما ألفناه فى معتقل أبى زعبل ، « فالتكافل » هناك ممنوع (رغم حدوثه) ، فهو يتم خفية ودون علم الإدارة ، أما هنا فى طرة فالأمر علنى وعلى رعوس الأشهاد ، وذهب بعض المديرين إلى الإدارة حسبما تعودوا فى أبى زعبل ، وقدموا تقريراً عما يجرى ويدور إبقاء على العلاقة الطيبة مع قائد المعتقل أو بدءاً لها ، وهذا ما تعودوه فى أبى زعبل مع عبد العال سلومة ، وفوجئنا بمكبرات الصوت ترأر وارتفع النداء :

- سمع كل المعتقلين !

وأرهمنا السمع ، وكان بياناً قصيراً من ناصف مختار : يعلن فيه عن سحق الذين جاءوا يعرضون عليه خدماتهم ، ويؤكد المعانى التى قالها عندما استقبلنا عند حضورنا أول مرة ونصح الجميع

بالاهتمام بأشياء تفيد ، وأكد أن لاوقت لديه لهذه السخافات
الممثلة فى تقارير بلهاء عن ماذا قال هذا أو ذاك ؟ وأعلن أنه سوف
يعاقب كل من يفكر فى التطوع بتقديم أية معلومات عن الآخرين ،
وأكد أنه ليس فى حاجة إلى هذه المعلومات .

وعم سلام وأمان فى كل مكان :
وبدا مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل مزرعة طرة السياسى !

كان آمن مكان فى مصر هو معتقل طره فى تلك الأيام ، فأنت
تناقش كافة القضايا الوطنية والقومية والإسلامية دون خوف أو
وجل ، الكل يتحدث بما يشاء فى الوقت الذى يريد ، وكان
المواطنون خارج المعتقل لا يتمتعون بهذه الميزة ، كما كنا نعلم
من أهلنا فى الزيارات ، فقد كان الإرهاب يسيطر على المواطنين ،
والشائعات تملأ البلاد ، ومنها ما يقول: إن عبد الناصر شبه معتقل
فى قصوره ، وأن هناك أربعة يحكمون مصر هم قادة الجيوش وعلى
ماأذكر كانوا : محمد فوزى ، ومذكور أبو العز ، ومحمد فؤاد
أبو ذكرى ، وربما عبد المنعم رياض ، وأن الإرهاب يسيطر على
مصر ، وكافة أجهزة الأمن لها حق فى قمع المواطنين ، وكان يأتينا
معتقلون ربما كل يوم تقريبا يؤكلون هذه الأفكار .

أما سكان معتقل طره فلم يكونوا يشعرون بهذا الإرهاب بل
كانوا يتمتعون بالحرية كل الحرية فى جب السجن .

وكانت المباحث تدرى بما يدور فى المعتقل وتعرف الذين
يناوئون ، وتعلم الذين يرفعون أصواتهم فى نقد الحكومة وسبها ،
وكان هناك طبيب سمين اسمه « خليل » لايعرف عن الطب شيئا ،
وكان هذا الرجل له حق تحويل المريض صاحب الحالة المتأخرة
إلى مستشفى ليمان طرة وهى تقع على بعد كيلو مترين حيث

تجرى له فحوص أكثر دقة أو إلى مستشفى القصر العيني حيث العمليات الجراحية ، ويمكنه أن يصرف غذاء طبيًا لمن يحتاج ، وكان هذا « الخليل » يمنع هذا الغذاء الطبي عن المشهورين بشتى الحكومة ونقدها .

هل كان خليل هو الذى يخبر المباحث ؟ أم كانت المباحث هى التى تأمر خليل ؟

الله وحده يعلم ، ولكننا كنا نلاحظ هذا ، والغذاء الطبي عبارة عن قطعة كبيرة نسبيا من اللحم وكوبين من الحليب وثمره من فاكهة الموسم كل يوم ، ويعرض عليه أصحاب الغذاء الطبي يوم العرض من صباح الجمعة ، فيوافق أو يلغى ، وكان الإلغاء هو غاية ماتمارسه المباحث من ضغط بمعرفة خليل ، ولم يكن الأمر بهم فى قليل أو كثير .

وملاحظة جديرة بالانتباه : أن هذا الضغط لم يكن يمارس إلا على المعتقلين من جماعة الإخوان ، أما غيرهم فلم يتعرضوا لأية ضغوط ، والكل عدو للحكومة كاره لها ، متحدث عن مثالبها ، ولم يكن أحد يعلم لها مزايا تذكر .

وكان أطباء الإخوان هم الذين يقومون على علاج المرضى من كافة الاتجاهات والنزعات ، وكان معنا اختصاصيون فى كافة الأمراض ، ثم وضعوا معهم طبيبا يهوديا هو الدكتور موسى جبلى الذى كان يثق فى أطباء الإخوان كثيرا وينصح اليهود بالكشف لديهم والتعامل معهم .

وكان أشهر أطباء الإخوان فى تلك الفترة الدكتور فاروق عباس زميل الزنزانة ٢١٠ فى السجن الحربى فى الأيام الأولى ، وكان رجلا مباركا ماعالج مريضا إلا وشفى بسرعة ، وكان الناس يقصدونه تيمنا وبركة وعلاجا ، وهناك أسماء أخرى الدكتور إبراهيم

عبيد ، وإبراهيم الكومى ، والدكتور محمد عامر اختصاصى الأنف والأذن والحنجرة ، وهناك صبيان كثيرون لاعلاقة لهم بالطب ولكنهم كانوا يقومون على مساعدة الأطباء فألموا بكثير من أعراض الأمراض وعلاجها وكيفية التعامل مع الجروح والحروق وحالات الإسعاف الأولية ، وكنت من هؤلاء .

ورأيت يوما الدكتور فاروق عباس يخفى مريضا فى غرفة من غرف المستشفى ، ويقوم على تطهير موسى حلاقة ، واستدعاني لمساعدته وأخبرنى مذاعبا :

- لو أخبرت أحدا بما رأيت قتلتك .
- ماذا ستفعل ؟
- عملية فى عين فلان !
- وما الخوف من إفشاء السر ؟
- هذه عملية كحت للحبوب فى داخل الجفن . ولا توجد أدوات أو استعدادات فنحن نجريها للحالات الصعبة فقط ، ولو فتحنا الباب على مصراعيه فسنجد كل هؤلاء فى حاجة إلى تلك الجراحة فيحسن عدم ذكر أى شىء عنها .

وأتم العملية فى هدوء وبرود أعصاب يحسد عليهما ، ونجحت العملية !

وكان خليل طبيب السجن الرسمى يقصد الدكتور فاروق إذا ألم به مريض أو أراد الفحص وكذلك الضباط وكافة رجال الإدارة وقائد المعتقل .

وكانت الأدوية الهامة غير موجودة والاستعدادات لعلاج الحالات الصعبة لم تكن متوفرة ، وكانت الأمور تسير بستر الله أولا وآخرها .

وكانت المستشفى مكانا للحالات المستعصية التي يصعب علاجها ، فهم يضعونهم هناك حيث ميزة النوم على الأسرة وقلة العدد نسبيا ، وكانت مكانا لبعض ذوى اليسار من غير الإخوان ممن يطلقون عليهم « النشاط المعادى » وهم مجهولو الهوية من المعتقلين والذين جاءوا بغير سبب واضح ، وكان هؤلاء يعيشون بالمستشفى لأنهم أصدقاء القائد ، وبعض الشخصيات الهامة من وزراء وقادة عسكريين وأعيان . و الحجز فى المستشفى يتم بقائمة انتظار طويلة ، ويتم شغل السرير عندما يموت صاحبه أو تتأخر حالته ، ويفضلون موته فى القصر العيني ، فيرحل بليل ويشغل السرير آخر فى الصباح من قائمة الانتظار الطويلة .

و « الملاحظة » : بها أنصاف المرضى من وجهة نظر العدد ، أما هم فمرضى جدا ، فليس هناك فى المرض تصنيف ، ويجرى على هؤلاء مايجرى على أهل المستشفى ، إلا أن الخدمة أقل على نحو ما ، وكان المعتقل بوجه عام مستشفى كبيرا فالكل يشكو من مرض ليس له شفاء ، ويبحث بلا أمل عن دواء .

وكان على مقربة منا على بعد كيلو مترين يوجد ليمان طرة حيث الإخوان الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، أو الذين حكم عليهم بالإعدام ثم خفف إلى المؤبد ، وقد كتبت فى بطاقة كل واحد منهم عبارة غريبة :

« يحول إلى المعتقل بعد قضاء فترة العقوبة » .

والعبارة مبهورة بتوقيع عظيم من أنصاف العظماء فى عالم لم يسد فيه غير الأقزام والسفهاء .

وكان هؤلاء المسجونون من الإخوان فى حالة متدنية من سوء الأحوال المعيشية ، ولايصرف لهم من العلاج غير « بزموت طباشير » وهو علاج لكل داء ، وقام المعتقلون بتهريب الدواء لأهل

الليمان كل أسبوع ، ويُذل في سبيل ذلك كل مرتخص وغال ، وكانت شبكة قوية قد بذلت الجهود الكبيرة من أجل تحقيق هذه الغاية وتوصيل الدواء حسبما تم طلبه بشكل دورى .

وكانت هذه من بعض مهام القسم الطبى فى المعتقل أن يوفر الدواء لأهل السجن ، وكم ضبطت البضاعة وهى فى طريقها ، ودفعت الإكراميات الضخمة من أجل وصولها فى سلام دون علم المباحث التى كانت تضيق الخناق على الجميع والمُسجونين بوجه خاص .

كان اليهود يعيشون سادة فى معتقل طره السياسى ، فهم ينتمون إلى دولة منتصرة ، أعلامها مرفوعة ، وجهات دولية كثيرة تسأل عنهم وترسل مندوبيها للاطمئنان كل حين وآخر ، فهم يعيشون أيام المعتقل فى بحبوحة من العيش يرتدون الملابس الغالية الثمن ويخرجون للرياضة كل صباح ، ويتخذون مايشاءون من خدم من المسجونين الذين تكلمت عنهم ، وتعمل الإدارة لهم كل حساب ، وهى تطيع رغبتهم فى كثير من الأمر ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين : الربانيين والقرائين ، وهم يعيشون معا فى عتبر واحد ورقمه واحد أيضا ، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ ، وكانوا على صلاتهم يحافظون ، وتراهم متمسكين بدينهم ، يعملون حسب أوامره ونواهيه ، وكان زعيمهم « إيلى صفدية » وهو رجل عجيب ، يستطيع أن يفعل مايشاء وأن يحصل على مايريد ، وكنا نعجب من أحوالهم وكيف يعيشون؟! وكيف يحصلون على تلك المكاسب فى بساطة ويسر؟ ونحن لم نأكل الفول المدمس حتى سقط منا شهداء وقد أخبرنا بعضهم بتفسير هذه الألغاز ، فالمال فى الخارج كثير ونسأؤهم لهن قدرة كبيرة على إقناع كبار المسؤولين ، هكذا حكوا لنا ، وكنا نجادلهم فى كثير من الأحيان ، ونقول لهم :

- فى القرآن الكرىم أنكم تفسدون فى الأرض مرتىن ، وفىه أيضا
أنا نقاتلكم ونهزمكم ونطردكم من أرض فلسطين ، ونحن على
يقىن من هذا .

وىقول قائلهم فى هدوء :
- ونحن على يقىن مثلكم ، فقد حكى التوراة عن هذا ، ولكن
لىس فى هذا الجيل ، أنتم أضعف من أن تفعلوا ، ونحن أقوى من
أن نهزم أمامكم .

وتستفزنى هذه الصفاقة الهادئة فأقول :

- عجب أمرك ، هل ترى هذا حقا ؟

وىرد فى هدوء :

- اسأل نفسك . ألا تقرأ صحف الصباى ؟ انظر فىها لتعرف
الفرق بىن العرب وإسرائىل ، ثم أنت تقول إن المسلمىن هم الذىن
يهزمون اليهود ، أين هم هؤلاء المسلمون ؟ هم جمىعا فى السجون ،
والقائم على أمركم يتبرأ من الإسلام كل صباى ومساء ، لىس هو
فقط ، بل كل الحكام العرب ، عداؤهم للإسلام والمسلمىن أعظم
من عداؤهم لإسرائىل واليهود ، حتى يتوحد العرب يحتاجون إلى
جىلین ، أما أن تخرجوا أنتم من السجون وتحكموا البلاد فهذا بعید ،
وسوف یحول بىنكم وبىن هذا إخوانكم من حکامكم ، أما إن
حدث ذلك فذلك قصة أجال تذهب وتجىء ونحن لن نشهد منها
شیئا ، هذا أمر یكون بىن أحفادنا وأحفادكم ، هى حرب لن
یشهدا واحد فىنا ، أما هذه الأيام فهى عصر اليهود ، لقد بذل
الحکماء والكبراء فىنا أعمارهم وأموالهم من أجل الوصول إلى هذه
الأيام ، وقد شهدا جیلنا ، وأنتم تعیشون عهدنا الذهبى .

وكنا نتأمل صراحتهم فى دهشة ، ونرقب إیمانهم فى فضول
وتعجب ، ونرى كثيرا مما یقولون ینطبق على واقعنا المر .

- وكننت أسأل بعضهم :
- لو أفرجوا عنك إلى أى البلاد تذهب ؟
- فيقول متعجبا من سؤالي :
- إلى إسرائيل بطبيعة الحال ، هذه هى أيام الرب ، وهو يتجلى من جبل صهيون .
- ولكنك تعودت الحياة فى مصر .
- سوف يمكننا الرب من مصر ، وطنى إسرائيل من القرات إلى النيل .

وأفقت مذعورا على كلامه :

- أعوذ بالله - لن يكون هذا فى حياتنا أبدا .

وبهدوء الواثق :

- لو امتد بك العمر فسوف ترى هذه الحقيقة ، وبعدها الأيام دول وليفعل بنا الرب مايشاء ، قد نسينا وصايا الرب لموسى فشردنا فى الغربة قرونا ، ونحن الآن نعود إليها ، والرب جبار وقادر وهو رحيم وعادل أيضا .

وكانت تدور بيننا وبينهم مساجلات ومناقشات حول التوراة والقرآن ، واليهودية والإسلام ، وهل اعتور التوراة تحريف ؟ وهل القرآن من عند الله ؟ والأدلة على ذلك من التوراة ، وسيرة المصطفى ﷺ من الأسفار فى كتبهم ، وجئنا بتوراة ناقشناهم فيها ، وكانت حجتنا قوية ، وحجتهم داحضة ، وكانت المساجلات من نصوص التوراة ، وكانوا يضحكون عندما يعجزون عن الرد ويغيرون موضوع الحديث ، ولكن أسلم واحد منهم وحسن إسلامه ، كان اسمه (شارل مزراحى) وتسمى باسم محمد المهدى وكان يحضر صلاة الجماعة معنا ، وكان لا يحب الحديث مع أحد خوفا من أن يفسر إسلامه تفسيراً سيئاً ، وأن يظن إنه إنما فعل ذلك من أجل التجسس ، وقالها الإخوان علانية :

- احذروا الأخ محمد اليهودى .
- وانبرى له الشيخ عارف :
- لماذا ؟
- لقد أسلم ليتجسس علينا ويعرف عوراتنا .

وانفجر الشيخ عارف ضاحكا :
 - ياأستاذ عبد اللطيف نحن فى السجن منذ سنين ، ولم تعد
 لنا أسرار ، وعوراتنا كلها مكشوفة ، وليس عندنا ما نخفيه .

وقال الأستاذ عبد اللطيف محتدا :

- أسرار الجماعة ياشيخ عارف ، هل أنت نائم ؟
- أسرار الجماعة ياسيادة اللواء طرف المباحث العامة ، والظن
 أنهم على صلة وثيقة بهم ، فإن كانوا يريدون شيئا فسوف يعرفونه
 ممن يعرفون ، والرجل صامت لايتكلم مع أحد ، ولايمثل علينا ،
 فهذا حاله لايتغير ، فكر فى شىء مفيد بامولانا . وكان الشيخ
 عارف على صواب ، فهذا الرجل لم يتحدث مع أحد حديثا يذكر
 حتى انقطع الزمن بيننا وبينه ، ولأعرف الآن عنه شيئا .

وكانت العنابر تقفل فى الساعة السادسة قبل الغروب صيفا أو
 مع الغروب شتاء ، حتى يخرج جمع من اليهود - من رؤسائهم - إلى
 الإدارة ، ويعودون مع الفجر أو مع إشراقة الشمس ، كان هذا يتم
 كل يوم تقريبا ، ويقولون : إنهم يجتمعون مع ضباط كبار ، من
 هم ؟ لست أدرى ! فيم يتكلمون ؟ الله وحده يعلم !
 حتى جاء يوم أخرجوهم على دفعات إلى فرنسا فأسرائيل ،
 ورفض أربعة هذا الأمر ، وظلوا حتى أفرج عنهم إلى يوتهم فى مصر
 معهم الأخ محمد اليهودى ، ومنهم الدكتور موسى جبلى ،
 ولاتزال عيادته ومنزله بروكسى بمصر الجديدة ، على مقربة من
 منزل الرئيس حسنى مبارك ، ولأدري هل هو من الأحياء أم من

الأموات . وكان اليهود أثناء فترة الاعتقال التى عشناها معهم يتوعدوننا ، ويصرحون أننا الخطر الحقيقى على دولة إسرائيل ، ويقولون عن حكوماتنا الرشيدة : إنهم سفهاء لا يفهمون ، ويسيروا فى طريق مقيد ، أما الخطر الحقيقى فيكمن فى المد الدينى الذى يتوقعونه عقب هزيمة العرب المنكرة ، ويقولون : ليت قادتنا فى إسرائيل يفهمون هذه الحقيقة ، ويتركوا للعرب بعضا من كرامتهم التى ضاعت قبل أن تنقلب المنضدة عليهم ، ويعودون فيقولون : - هم بالتأكيد حكماء ويعرفون ماذا يفعلون ، والخطر لن يأتى قبل ثلاثة أجيال بعد أن تنتهوا أنتم بكثير .

عشنا أياما حافلة فى مهرجان الحرية والاعتقال بمعقل طرة السياسى . وكانت تدور المناقشات والمساجلات حول كل شىء وفى كل موضوع ، وذهب الخوف من قلوب من كان فى قلبه خوف ، حتى إن البعض تنبأ أن هذا المهرجان لن يدوم ، وكيف يدوم ؟ وجاءت الشائعات أن عبد العال سلومة قادم إلى المعتقل . ومرت الأيام رويدا والشائعة تتأكد حتى صارت حقيقة واقعة فى صباح أغبر من أيام الشتاء ، وكأن من عادته أن يأتى مع البرد والصقيع .

ورأيت يمر ومن حوله الضباط ، وعلى وجهه ابتسامة ظافرة كنتلك التى جاء بها يوم رأيته أول مرة فى أبى زعبل ، وتذكرت اعتذاره لمن أساء إليه قبل حضورنا إلى طرة ، ورأيت منظره مختلفا ، فقد كان الرجل ممتلئا بالعدوانية والتشفى ، وقد بدا ذلك فى عينيه اللامعتين ، وفى ضغطه على شفته السفلى ، وكان يمر بين الناس ثم يقف عند واحد له معه تاريخ وحساب ينبغى أن يصفيه ، فينظر طويلا إليه ولا يقول شيئا ، ثم يتركه ويتحول إلى الآخر ثم عاد راضيا منصورا إلى مكتبه الذى كان به القديس ناصف مختار فى الليلة البارحة .

تغير قانون اللعبة منذ قدوم عبد العال بك .
وكان الشيوعيون والنشاط المعادى يعجبون من اهتمامنا به
ويقولون :
- لم كل هذا الاهتمام لن يتعدى كونه حمارا من الحمر التى
مرت علينا ؟

ونقول لهم :
- الأمر أعظم وأكبر من حمار يذهب وآخر يجيء ، وسوف
ترون بأنفسكم . كان قد مرّ شهر تقريبا منذ إطلاق شائعة أن
عبد العال سلومة قادم حتى لحظة قدومه ، وفى هذا الشهر تغير كلام
الناس وفكرها ، فقد ترك الجميع الحديث فى السياسة ، ولم يعد
لأحد من حديث إلا عن عبد العال سلومة وماذا سيفعل ؟ ولماذا
جاءوا به ؟ وماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟ وكيف نلقاه ؟ وقال
البعض :

- أنا سوف اضرب عن الطعام !

وقلب وجهه فينا ليرى أثر ذلك علينا ، فلم يجد غير السخرية
الصامتة .

- يبدو أنكم لم تسمعوني فى وضوح .
ورد عليه آخر فى تناقل :
- لسنا صما ، قد سمعناك فى وضوح .
- وماذا يجدى إضرابك عن الطعام ؟
- اتفلق !
وقال مشجعا :
- افهمونى ، لو أضربت مجموعة عن الطعام فسوف تستجيب
الحكومة لطلباتنا .
وقال واحد :
- وأين هذه الحكومة ؟

- الحكومة يسرها ويرضيها أن نموت جميعا ، ولعلها تبيت
تصلى وتدعو الله أن يخلصها منا .

- انس قصة الحكومة ، فهي لن تعرف بقصة إضرابك عن
الطعام هذه .

هكذا يدور الحديث يوما بعد آخر ، واتفق الجميع أن ينتظروا
حتى يجيء ، ثم يكون التصرف معه حسبما يقتضيه المقام .

وتبدل الأمن خوفا ، وصارت الراحة شرودا وقلقا ، وأضحت
المناقشات طوال النهار ، وجزءا كبيرا من الليل ، حول الموضوع
نفسه ، ولعل هذا كان بعض ماتريده الحكومة أن ينصرف
تفكيرنا إلى شيء آخر غير الخيبة الكبيرة التي كانت تعيشها البلاد ،
وتبدد الخوف والقلق يوم جاء عبد العال سلومة مقدما بعد أن كان
رائدا ، وصار وجوده أمرا عاديا من اللحظة التي جاء فيها .

وتحفزت النفوس في انتظار ماذا يفعل بنا أو معنا ، وماذا أعدت
لنا المباحث العامة ؟ وقال البعض : هذه خطط الرائد فؤاد علام ،
وقال البعض الآخر : الأمر أكبر من فؤاد علام لعلها أفكار الغمراوي
أو زهدى ، أو ... وعدادوا أسماء لامعة في « لاطوغلى » ، ووصل
الأمر إلى حسن طلعت وأنه صاحب فكرة إرسال عبد العال .

وبدأ عهد عبد العال سلومة الزاهر بمنعه دخول الطعام مع
الزائرين للمعتقلين ، ويبدو أن الرجل قد هاله هذا القدر من الحرية
والنعمة الذي يعيشه أهل طرة ولم يكن معتادا على هذا ، وتقبل
الناس ذلك بشورة عارمة سرعان ما انطفأت فهم عقلاء جدا ، واقترن
ظهور عبد العال بالحوادث الجسام منذ حادث استشهاد الإخوان
في الليمان عام ١٩٥٧ ، وعلموا أن حضوره للاستفزاز ، وربما هذه
هي المقدمة وليس من المناسب الشهادة في سبيل دجاجة محمرة
أو حلة من الأرز وعلى العاقل أن يوفرها لشيء أكبر ، وكان هذا

مجرد جس نبض من عبد العال سلومة ، كان يريد أن يعرف ردود الأفعال ، وقد عرفها ، الصمت الشديد بعد الثورة العارمة ، ومن ثم لا بأس من إجراء التدريبات من جديد ، وليعوض شهور الكسل التي قضاها حيث لا يعلم أحد فتألقه وازدهاره مرتبط بالإخوان ، وربما يصل من خلال التضييق عليهم وإيذائهم إلى منصب كبير .

وبدا (البروجرام) السمج المتكرر !
برقيات التأييد والامتناع عن التوقيع عليها .
عزل اثنين وتسعين معتقلا إلى عنبر « الخطرين » وهو عنبر اثنين ، غرفة واحد واثنين وثلاثة وأربعة ، والزنازين الداخلية .
وانتقلت مع سكان العنبر الجديد ، وكنت في جوار الأستاذ أحمد عادل كمال كالعادة في غرفة رقم أربعة ، وكان معنا جمع طيب لم يكن معظمه خطرا من قبل ، ولكنه اختلاف الليل والنهار .

وأشهر من كان معنا في هذه الغرفة الأستاذ اسماعيل النشار والمهندس محمد الشافعي ابراهيم واللواء عبد اللطيف راشد والشيخ محمد عبد الفتاح عارف والمرحوم الدسوقي المراكبي والأستاذ محمد فهمي راشد وآخرون .

وفي الغرفة رقم ثلاثة كان الأستاذ محمد قطب ومصطفى كامل وعزمي بكر وعلى حمدي وفوزي نجم ولقيف من تلامذة الشهيد سيد قطب الذين أمضوا معه في الماضي مدة العقوبة بالتمام والكمال دون تأييد أو إفراج ، وانتقل إلى هذه الغرفة شقيقي محمود حلمي .
وفي الغرفة رقم واحد كان المرحوم شكرى أحمد مصطفى ، وعبد الله بن أحمد السماوى والمرحوم الشيخ على اسماعيل ومجموعة من الشباب قدر لهم أن يكونوا زعماء بعد ذلك . وكان المرحوم أحمد نصير قد أقسم قسما مغلظا أن يضرب عبد العال سلومة بالحذاء عندما يراه ، ولذلك حرص البعض أن يبعده عن أماكن زيارته عندما جاء للمرة الأولى ، ومازال خطر القسم قائما .

وذهبنا إلى الرجل زرافات ووحدانا نشده الله والإسلام وإخوانه
ألا يفعل ويكفر عن قسمه ، وليدعه إلى الله سبحانه وتعالى ، فأمره
معه أشد من ضرب الحذاء ، ونؤكد له أنه سيذهب فردا إليه في
يوم « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ،
واستجاب الرجل مشكورا بعد ضغط والحاح وتوسل حرصا على
الجو العام .

وكان عبد العال سلومة قد استدعاني والأخ عبد الحليم خفاجي
وسألني عن هذه الواقعة فقلت :
- في المعتقلات والسجون تكثر الشائعات وتنقل على أنها
أخبار .

- ألم يقسم أحمد نصير علي ضربني بالحذاء عندما يراني ؟
- أنا أقسم أنني لم أشهده أو أسمعه يفعل هذا .
- ألم تسمع بهذه القصة ؟
- ياسيادة القائد هذا لا ينبغي ، ولا يجوز أن تحقق في هذه الأشياء
لأنها تهز هيبتك ، حتى لو صحت في رأيك فمن الأوفق أن
تجاهلها كأنها لم تحدث .

وأيد الأخ عبد الحليم خفاجي كلامي واقترح أن يدعو أحمد
نصير لشرب القهوة في مكتبه ، وأن يتحمل بعضنا بعضا تلك الأيام
التي كتب علينا أن نقضيها سويا . وعدنا إلى أحمد نصير وقال له
عبد الحليم :

- قد تورطت واتفقت على شرب القهوة في مكتب عبد العال .
وقال له أحمد نصير عليه رحمة الله :
- أنت حر فيما تفعل يا عبد الحليم .
وقال عبد الحليم بلهجته المحببة الودود :
- المشكلة أنني صاحب الاقتراح والمعنى به أنت لا أنا فلا
تخذل أخاك ، ومازلنا به حتى وافق عليه رحمة الله .

وجلسنا عنده وأغلظ له المرحوم أحمد نصير القول ، واشتد عليه وعلى الحكومة فى كلام كثير بليغ موجه ، وكنا نستمع صامتين ، وربما أيدناه فى أقل القليل إن لم تخنى الذاكرة ، وكان عبد العال سلومة ينظر إلينا فى دهشة عندما يسمع منا مايؤيده .

واستدعانا فى اليوم التالى وقال :

- هل أعجبكم مقالته أحمد نصير بالأمس ؟ والله لقد سكت خوفا أن ينفذ قسمه ! وكتمنا ضحكاتنا أنا وعبد الحليم ، فقد كنا فى خوف بالأمس من السبب نفسه . وتكلم عبد الحليم كثيرا واشتركت معه ، وشرح لعبد العال «بك» كيف أن الظروف قد تغيرت ، وماكان بالأمس مقبولا لم يعد اليوم كذلك ، فقد اختلفت الدولة واختلف موقعها ، واختلف الناس كذلك ، وليس من الحكمة الدعوة إلى تأييد حكومة فى ظروف مثل التى تمر بها حكومتنا . فهو إساءة إليها وامتهان لعقول الناس ، فالحكومة مجروحة مهزومة .

وانتفض عبد العال بك :

- أتسمى النكسه هزيمة ؟ ألم تقرأ الصحف ؟
قلنا :

- الكلام فى الصحف شىء والواقع شىء آخر ، ونحن هنا نتكلم بالحقيقة ولا نريد أن تشق على نفسك وعلى الناس ، فدعهم وماهم عليه ، وحتى تستريح فلا تصدق أن هناك إنسانا واحدا يحب هذه الحكومة ، ولو وجد هذا الشخص لكان مختلا فى عقله ، فليس من العقل أن يحب أحد جلاده ، ودعنا نواجه الحقائق فى وضوح وصراحة ، أنت تطلب أشياء تتناقض مع المنطق السهل البسيط ، وكل شىء سوف ينتهى يوما ، طال الزمن أو قصر ، فلماذا لانعمل حسابا للذكرى الطيبة ؟

واستمع الرجل طويلا إلينا ، وكانت الأمور واضحة ، الموقف مختلف والناس على استعداد للتحدى وهم متحفزون مستفزون ، ومستقبل الحكومة بيد الله سبحانه وتعالى ، وارتفع الهمس فى الشارع المصرى حتى صار صرخا ، وخرجت المظاهرات من العمال ومن الطلبة ، وهان أمر الحكومة على الشعب ، ولم تعد تخيف أحدا .

كانت التدريبات التى يجريها عبد العال سلومة على المعتقلين تستدعى مناخا ذا طبيعة خاصة لنجاحها ، ولم يكن هذا المناخ متوفرا فى معتقل طره السياسى .

وحتى يحدث الأثر المطلوب يجب أن يكون المكان مغلقا تماما فلا أخبار ولا زيارات ولا كتب . ولاراديو ولا تليفزيون ، وهذا كان الأسلوب فى أبى زعبل ولكن الحال فى معتقل طره السياسى كان مختلفا ، وحاول عبد العال سلومة أن يقنع الإدارة العليا بأن تلغى هذه الامتيازات بلا فائدة ، فالمكان به اليهود ، وهم يأخذون حقوقهم رغم أنف الحكومة اعتمادا على نفوذهم فى الداخل والخارج ، وكانت الإدارة العليا منشغلة بأمر كثيرة أهم من الاستجابة لطلبات عبد العال ، ويكفى أن يقوم بواجبه فى مضايقتهم ، وتظل أفكاره سيفا مصلتا عليهم ، ولعل الأمور تتغير ، ومن ثم يستطيعون الاستجابة لمطالبه ، ذلك بعد أن ينتقل اليهود والنصارى والنشاط المعادى والشيوعيون إلى مكان آخر ويفرغوا بعدها للاخوان عدوهم اللدود ، وحتى يأتى هذا الحين ليفعل عبد العال سلومة بهم مايشاء .

كان يطلب أخبارا عن المعتقلين فلا يستجيب أحد ولا يحصل على شىء إلا أقل القليل مما لا يضر ولا ينفع ، وكنا نقول للناس : لانهتموا بهذه الأشياء ، فقوم قد مضى على اعتقالهم سنوات لم يعد عندهم ماينبغى أن يعرفوا من أنباء وأخبار ، وكان كل تركيزه على

المعتقلين من الإخوان ، أما غيرهم فهم ضيوف لا يطلب منهم شيئا ، وليقولوا ما يشاءون ، لأحساب عليهم ولا مساءلة ، ومن الطبيعي أنهم ضد الحكومة ، ومن الطبيعي أنهم يشتمونها صباحا ومساء ، وكان يتقبل منهم هذا أما الإخوان فلا . وكان المعتقلون من غير الإخوان يتعجبون لعدم اهتمام الحكومة بهم ، ممثلة فى شخص عبد العال "بك" ، ويفسر « النشاط المعادى » هذه الظاهرة بقوة الإخوان وبالمضمون الدينى والسياسى الذى تحمله الجماعة ، أما الشيوعيون فيفسرونه بضعف الإخوان وتهافتهم سياسيا ، وينصحون بنحدي الحكومة وعمل إجراءات لاستفزازها ، وكانوا يفعلون هذا ، ويتهزون الفرص والظروف لإثارة الشغب وإعلان تحديهم للسلطة وأملهم أن يعمل لهم أى اعتبار بلا فائدة ، وهو أمر كان يغیظهم كثيرا ، وأذن الإدارة « من طين والأخرى من عجین » كما يقول المثل ، فيمتنعون مثلا عن استقبال زوارهم فلا تهتم الإدارة ولا تسألهم لماذا فعلتم ؟ ويمتنعون أحيانا عن استلام الطعام فلا يأتى من يحاول اقناعهم باستلامه ، يجلسون ويسبون الحكومة سبا علنيا على رءوس الأشهاد ، ويصل الأمر إلى قائد المعتقل فيضحك وكأنه لم يسمع شيئا ، هل كانت الأوامر تقضى بهذا ، أم أنها قوة لاتخيفهم ؟ ربما كان الإثنان معا .

والأمر يختلف مع الإخوان ، لو حدثت مشادة بين واحد من الإخوان وأحد الحراس أثناء الزيارة فإن الدنيا تقوم وتقع ، وتغلق الأبواب ، وتعلن حالة الطوارئ ، ويستدعى القائد الناس ، ويسأل عن دوافع هذا الحادث وأبعاده وصداه ، بين غیظ الشيوعيين . وضحك « النشاط المعادى » .

كانت الكتب تدخل للشيوعيين ، ويمنع منها الإخوان المسلمون ، عيانا بيانا فى رابعة النهار . وذكر واحد حكاية الشيوعى الكبير الذى أفرجوا عنه قبل خمسة يونيو بيومين ، وكيف ذهب إليه بعض الإخوان يسلمون عليه قبل خروجه من معتقل طره :

- كنا نود أن نخرج معك لنحارب اليهود في معركة فلسطين القادمة .

وقال الشيوعى :

- لست خارجا للحرب في فلسطين ، هذه ليست قضيتى ، بل هى قضيتكم ، ولو نظرتم لرأيتم أنها قضية خاسرة ، ليتكم تلحقون بالزمن وتنسون قصه الجهاد فى سبيل الله لأنها لاتنفيد .

ومصمص الإخوان شفاهمم استنكارا ، وخرج الشاعر الشيوعى الكبير (ع . أ) ليقابل وزير الداخلية شعراوى جمعة ، فبهنته على الإفراج ويقول له :
- مصر كلها تحت أمرك .

تعرفنا على الشيوعيين المقيمين فى عنبر واحد عندما نقلونا إلى عنبر اثنين الملاصق ، فقد كانت دورة المياه مشتركة قسمناها قسمين ، واحد لهم وآخر لنا ، وكان يشترك فى دورة مياههم اليهود والنصارى والنشاط المعادى ، ثم جاء الصحفى على محمود رئيس مكتب « الاسوشيتد برس » فى القاهرة ، والمفروض أنه تابع للنشاط المعادى بحكم تصنيف المباحث العامة ، ولكنه رجا الناس أن يسمحوا له باستعمال دورة مياه الإخوان وقال قولته المشهورة :

- الفرق بين الإخوان والشيوعيين كالفرق بين دورتى المياه ، واحدة نظيفة جدا ، والأخرى على العكس من ذلك .

وكنا نذهب إلى زيارتهم ، وكانوا يأتون لزيارتنا ، ونتناقش أحيانا كثيرة فى القضايا القومية والوطنية والدينية ، وكانوا يتكلمون فى وضوح وصراحة فتجدهم مثلا يقولون :
- « الدين أفيون الشعوب » .

فنقول لهم :

- هذه قولة قد قيلت عن أوروبا وأثر الكنيسة فى تاريخها ، أما الإسلام فهو شىء يختلف واقرءوا التاريخ .

ويقولون :

- قضيتنا هي حكم الكادحين (البروليتاريا) .

ونقول لهم :

- قضيتنا هي العدل والحق والحكم بالقرآن .

فيقولون :

- قد ذهب أوان القرآن ، إن أنتم إلا في ضلال مبين .

ويستمر الحوار على هذا النحو شهورا وسنين بلا فائدة . وكانوا يقولون أشياء غريبة ويعلنون مبادئ عجيبة ، وهم في واد والأمة في واد آخر ، فكل القضايا الهامة التي تشغل الناس لا يفكرون فيها ولا يلتفتون إليها ، ورغم الاختلافات البينة فقد كنا نتعامل معهم في ود وأدب ، رغم أنهم لم يكونوا هكذا معنا :

نحن نتابع الموقف مع إسرائيل والحرب بيننا وبينهم وأخبار حرب الاستنزاف رغم اتفاق الجميع على كراهية الحكومة والزعيم بينما هم يتابعون في اهتمام أخبار حرب فيتنام !

ونقول لهم :

- ينبغي أن يكون اهتمامكم بفلسطين أكبر من اهتمامكم بفيتنام .

فيقولون :

- فلسطين نزاع حول أرض أما في فيتنام فهي حرب المبادئ .

وأهتف لهم في عجب :

- سبحان الله ! أنتم ترون الدنيا بالملقوب !

ويرد واردهم في سماجة :

- هي وجهة نظر على أى حال يازمبل .

وكانوا لا يغسلون وجوههم وأيديهم وملابسهم ، ولا يستحمون إلا نادرا ، وكنت إذا دخلت عنبرهم شممت رائحة (النوشادر)

والعفن كأنك قد دخلت حظيرة للخيل ، وكنا نسد أنوفنا ونتنفس من أفواهنا حتى نتحمل الرائحة ، أو نطلب إليهم أن نخرج فنجلس في الطرقات ، فتكلم ونعطيها حقها .

وكانوا يحبون استخدام الكلمات الفخيمة الضخمة ، وينطقون الكلمات الأوربية في عظمة ، وتجد نصف كلامهم مصطلحات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وعندما يضيق ذرعنا بهم نقول :

- يا جماعة تكلموا معنا بالعربية فلعلكم تفهمون ماتقولون !
وكانوا يتجرءون على الله سبحانه وتعالى وعلى الإسلام ، ويقولون قولا عظيما . وكنا نتحملهم ونجادلهم بالتي هي أحسن .
وكانوا يذكروننا بالمشركين والكافرين الذين خاطبهم رسول الله ﷺ فعندما نقول لهم إن القرآن يقول كذا ، نجدهم يقولون :
- « إن هذا إلا إفك افتراه » .
هكذا كان الأمر بيننا وبينهم ، ونقول لهم : أنتم تنتمون إلى أمة أخرى وتنبون قضايا لاتهم بلادنا ، وتعيشون في غير عالمكم ، فيقولون لنا :
- هذا صحيح .

وكان يغيظهم عدم اهتمام قائد المعتقل بهم ، وعدم اكترائه بما يقولون . لم يكن قائد المعتقل يرى في طره غير الإخوان المسلمين ، وربما كان يراهم في أحلامه بالليل ، كان اهتمامه بهم كبيرا عظيما ، كأنه في معركة مع ذاته ويريد أن يثبت لنفسه شيئا يؤرقه في صحوه ونومه ولايستطيع الفكاك منه .

وكان الضباط مثل قائدهم يكون اهتمامهم وفقا لاهتمامات قائدهم ، لايعرفون أحدا من الشيوعيين ، ويحفظون كل واحد من الإخوان ، ويحاولون التقرب منهم ، والمرور في عنابرهم والاحتكاك بهم سلبا أو ايجابا .

ولم نكن نعرف قضايا مميزة للشيوعيين ، ولانعرف أسبابا واضحة للقبض عليهم ، مهما كان السبب ضعيفا ومتهافنا ، ولأدري لماذا أتذكر تلك الكلمة التي قالها واحد من الإخوان وهو يودع واحدا من الشيوعيين الذين خرجوا قبل خمسة يونيو بأيام :
- نلتقى فى فلسطين .

- سوف ندع لكم الجهاد فى فلسطين ، هذا أمر لا يعيننا .
كلام شبيه بقول آخر قد قلته قبل ذلك فى صفحات سبقت .
ولله فى خلقه شؤون !

كان النشاط المعادى مزيجا من شخصيات مختلفة وأنماط متعددة ولا يربط بينها رابط ماغير رابط الزمان والمكان ليس أكثر .
كان هناك عبد عزيز خميس الصحفى الذى اتهم فى الأربعينيات مع أنور السادات فى قضية اغتيال أمين عثمان باشا ، ثم فى عام ١٩٦٥ فى قضية اغتيال عبد الناصر والمتهم الرئيسى حسين توفيق ، وهو يرتدى الروب (الكاروهات) من أيام الحربى فى الزنزانة التى تقع فى الركن عند البئر ، ثم فى الانفرادى الموجود فى عتبر واحد أمام غرف الشيوعيين ، والرجل فاضل وطيب ، ولاعلم له بالسياسة كثيرا ، وهو متشائم رغم مايدو عليه من بشاشة وضحكات عالية ودود ، وقد برىء من قضية الاغتيال ، ثم جاء إلى المعتقل ليقضى بقية أيامه ، أو أيام عبد الناصر فى ضيافة عبد العال بك الذى لم يكن يعرفه ، فهو كما قلت لايهتم بغير الإخوان المسلمين .

وكان هناك عتبر الشعراء وبه جمع غفير منهم ، أذكر الشاعر محمد بدر الدين وكان ينتمى إلى مدرسة الإخوان المسلمين فى الأصل ، ولكنه أمسك به بهذه التهمة ، وقد اعتدى عليه أحد الشيوعيين بالضرب بمقص فى بطنه ، وظل يعالج من هذا الجرح القاتل لمدة أسابيع ، وحفظ التحقيق فالمسألة فى نظر الإدارة مجرد

مشاجرة عوقب عليها الشيوعى بالحبس الانفرادى أسابيع ، وهذا الحبس الانفرادى نعمة كبيرة فى تلك الأيام ، وكان الأستاذ محمد بدر الدين سيداً صاحب كلمة مسموعة فى عتير الشعراء ، فهو عاقل كريم ، بليغ فصيح ، له علم بالفقه وأصوله ، ويقول الشعر فى المناسبات فيجلجل صوته كريماً قوياً شجياً ، يملأ القلوب نشوة وراحة ، من جمال ما ينظم ومن صدق مايقول .

وكان هناك الشاعر محمود الماحى عليه رحمة الله الذى ألف قصائد فى سب النظام ووصف هزيمة يونيو ، وكان يقوم على أداء قصائده مغناة مع بعض أهل الشهرة من الفنانين ، وكان يقول لأظن أن هذا هو سبب اعتقالى وإلا أحضروا من كان يغنى معى .

وكان هناك الأستاذ على شلش ، وهو من النقاد المهمين بالأدب الأفريقى فى ذلك الوقت ، وكانت له بعض الكتابات فى كشكول أحمر عن ترجمات لقصائد أفريقية لأذكر منها الآن شيئاً ، وكان مهذباً ودوداً لطيفاً .

والأستاذ عبد اللطيف أبو السمع الشاعر الشارد ، وكانوا قد وجدوا فى جيبه ورقة بها بعض الأرقام عبارة عن التالى :

« ١٨ خطوة ثم تتجه يسارا ٥٤ خطوة ، وتكرر العملية فى عكس الاتجاه فتصل إلى ماتريد بالضبط » .

وعذب الرجل تعذيباً شديداً ليفسر معنى كلامه ، وكل مايقوله مرفوض ، فتفسير هذا هو خطوات يسلى بها الرجل نفسه فوق كوبرى الجامعة ، يحسب طوله وعرضه وأبعاد أخرى فيه ، ولم يرحموا من العذاب حتى ذهب أحد الخبراء من المخبرين وقاس المسافات كما حكاها الأستاذ عبد اللطيف أبو السمع ، وضربوه على شئ آخر بعدها . وكان هناك الأستاذ كامل أمين الشاعر

صاحب المزاج الحاد ، والشعر الأبيض الفضى والبايب الذى لا يفارقه ، وهو من ألف ملحمة (السموات السبع) ، وكان رساما يجيد الرسم ، ورسم لوحة رائعة عن معركة القادسية كما تصورها بخياله .

وكان معهم الشاعر وجدى شبانة ، وكان فنانا صاحب خط جميل ندر أن يوجد مثله . أكثر من ثلاثين شاعرا منهم من يعرف الآخر ، ومنهم من يلتقى بزملائه للمرة الأولى ، ويجمع بينهم سبب غريب عجيب ، مؤداه أنهم حضروا ندوة شعرية فى منزل شاعر سعودى اسمه « على غسال » ، وقال كل شاعر فى هذه الندوة شعرا مما يمكن أن يقال فى الحب والغزل والمديح والهجاء ، وكافة أغراض الشعر قديمه وحديثه ، ولم يتعرضوا للسياسة فى قليل أو كثير حسبما رروا ، وأودعوا جميعا معتقل القلعة السياسى حيث ضربوا ضربا مبرحا بالنعال وبغير النعال ، وهم يحاولون تأليف تنظيم يجمعهم ، واستحال ذلك رغم كافة المحاولات ، ولما تعذر جاءوا بهم إلى معتقل طره السياسى ، وصار شغلهم الشاغل أن يتبينوا سبب اعتقالهم دون فائدة .

واستقطب الإخوان معظم هؤلاء الشعراء إلى صفوفهم ، وكانت النتيجة أن غرقوا جميعا فى السياسة ، وصارت لهم مواقف إيجابية من قضايا الوطن والدين ، وصاروا يؤلفون الشعر فى المشاكل العامة بعد أن تحرروا جميعا من الخوف داخل المعتقل .

كان معنا فى المعتقل الصحفى على محمود ، والوزير المفوض أمين سوكة ، وكان هناك أيضا سعيد حبيب أحد وكلاء وزارة الداخلية فى العهد الماضى ، والمحامى محمد شوكت التونى ، والمستشار محمود عبد اللطيف ، ونخبة كبيرة من رجال المجتمع المصرى فى كافة التخصصات ، فتجد قوما من وزارة الخارجية والثقافة والعدل وقضاة ومستشارين ومحامين ومدرسين وأطباء ومن

كل مهنة وعلى كل لون ، وكافة الأديان كانت ممثلة فى معتقل طره السياسى ، واليهود والفلسطينيون فى عتبرين متجاورين !

وكان هناك عبد الفتاح حسن باشا الوزير الوفدى السابق عليه رحمة الله وكان مهذباً ودوداً متحفظاً فى حديثه ، ولكنه سرعان مات أقلم وصار يتكلم كما يتكلم بقية الخلق فى كافة الموضوعات ، ويدلى برأيه فى صراحة ودون خوف .

سألته مرة :

- يا باشا .. لقد كنت وزيرا قبل الثورة .

- هذا صحيح .

- ألم يكن هناك فساد فى الحكم فى تلك الأيام ؟

وصمت الرجل برهة ثم أجابنى :

- بلى قد كان هناك فساد قبل الثورة ، وهذا أمر طبيعى ، حيث يكون الحكم يكون هناك ضرب من الفساد ، ولكن السؤال كم يكون حجم هذا الفساد الذى كان ؟ يابنى نحن فى حاجة إلى خمسين أو مائة عام من الإصلاح لنصل إلى درجة الفساد التى كنا عليها قبل الثورة ، هناك فرق بين حكم يشوبه فساد ، وحكم سمته الفساد . لقد قضى عبد الناصر على أمل الإصلاح لأجيال قادمة ، لقد أفسد أخلاق الناس وقتل فيهم روح الشهامة والمروءة والمثل الأعلى .

وتذكرت وأنا أستمع إلى كلام عبد الفتاح حسن باشا عند ما كنت فى معتقل القصر العينى أجرى عملية الزائدة ، كيف أرسل الطبيب الشهم إلى أسرتى فجاءت أمى عليها رحمة الله لزيارتى ، وكان هذا ممنوعاً ، وكنت أثناء العملية الجراحية أعيش مع باقى المرضى فى العنابر العامة ، ونظراً لكونى معتقلاً فقد وضعونى فى غرفة بها سريرين ، أنا على واحد ، والآخر لعبد المسيح أفندى وهو موظف بالشركة الشرقية للدخان فرع شبين الكوم ، وكان هو الآخر

يجرى جراحة لأذكر طبيعتها الآن ، وأقاموا على سريري جنديين للحراسة ، وجاءت الوالدة عليها رحمة الله وأفهمناها أن تتظاهر بأنها قادمة لزيارة عبد المسيح أفندي هذا إذا فاجأنا ضابط المعتقل ، والذي كان لسخرية القدر أحد الزملاء القدامى في المدرسة ، وكان يعرفني جيدا بطبيعة الحال ، وكنت عندما رأيته لأول مرة قد شعرت بفرحة غامرة سرعان ما تبددت :

- هل أنت فلان ؟

فاجابني بغلظة شديدة :

- نعم هو .

وتعجبت وشككت في نفسي !

- ألم تكن في مدرسة شبين القناطر الثانوية ؟

وانفجر غاضبا :

- نعم كنت كذلك ، ولكن الزم جانب الحذر وتكلم مع السادة

الضباط بما يليق !

وقلت له بصوت مسموع :

- وهل تراني أخطأت ؟ سبحان من يغير ولا يغير !

وصارت وطأة هذا الزميل القديم شديدة ، فهو يتسلم نوبته لمدة

اثنتي عشرة ساعة ، كان يفتش علي فيها أكثر من خمس مرات ،

ويضيق الخناق كأني بيني وبينه ثارا ، رغم العلاقة الطيبة التي كانت

بيننا أيام الدراسة .

وتكررت زيارات أمي عليها رحمة الله ، وكنا نختار الوقت الذي لا يتواجد فيه ذلك الزميل النذل ، ورأيت فجأة في غير نوبته يدخل علي الغرفة ، وماهي إلا دقائق وتأتي الوالدة ، ترى ماذا يحدث من هذا الزميل النذل ، وفوجئت به وهو ينظر إلي منتصرا متشفيا ، وكان لديه (إخبارية) عن وصول الأم بعد قليل ، والله يعلم ماذا يمكن أن يحدث ، فهي حالة فريدة لم يسبق لها مثل من قبل .

واقترب منى متشفيا :

- سمعت أن لديك زواراً .

ووجدتني أجيبه :

- هذا صحيح .

وصار وجهه خنزيريا وهو يقول :

- من أرسلته فى طلب أهلك ؟ وكيف تم الاتصال ؟ لن تستطيع

تنبيه أحد ، لقد صنعت لك كمينا ، وأنت لاتعرف عقوبتك وعقوبة

من سيأتى ، هيا أجب على سؤالى ، من أرسلت فى طلب أهلك ؟

وصرت أقلب النظر بينه وبين عبد المسيح أفندى الذى كان

يتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه من الخوف ، وقلت له فى هدوء :

- لقد أرسلت لهم زميلا قديما فى المدرسة صار الآن ضابطا

واسمه محمد عبد الخالق ... (وذكرت بقية اسمه) وهو يعرفنى

ويعرف بيتى ، وهذا ماسوف أقوله فى التحقيق ، وقد أفهمت أُمى

هذا عند سؤالها .

واصفر وجهه من الخوف فقد كنت أعنيه :

- سوف يعرفون الحقيقة .

- بالتأكيد سوف يعرفونها ، ولكن بعد نقلك إلى مديرية أمن

أسوان . وكاد قلب عبد المسيح أفندى يتوقف من الخوف ، وهو

يتوسل للضابط النذل :

- يابخت من قدر وعفى ياسعادة البيه ، أنت الكبير ، ياشيخ

فى عرضك سيه . ووقف الضابط قليلا متأملا مشدوها ، ثم غادر

المكان ، ولم يعد يضايقتنى بعد ذلك ، ثم نقل من المعتقل بعد أيام

أخرى ، ولم أره بعد ذلك أبدا ، لقد صدق عبد الفتاح باشا حسن ،

لقد أفسدوا أخلاق الناس ، وقتلوا فيها الشعور بالعزة والكرامة

والوفاء حتى لزملاء الصبا والدراسة !

وحكت لى أُمى (عليها رحمة الله) كيف تنكر لها الأهل والأصدقاء ، ولم تعد تدعى إلى عرس ، وإن ذهبت تؤدى واجباً فى عزاء فر الناس منها وتأففوا من لقائها حتى أصحاب الميت الذين ذهبت تعزيهم ، وقرت فى دارها لاتزور أحدا ، ولا يزورها أحد ، وكيف أطلقوا الشائعات عن صناديق القنابل التى كنت أخفيها وشقيقى محمود حلمى ، وكيف أنهم أمسكوا بنا ونحن نحاول نسف القناطر الخيرية ، وهكذا : حكومة من السفاحين لابد وأن يتولد منها شعب من الخائفين ، فقد كان الشعار أيامها من يفتح فمه يضرب بالحذاء ويلق فى السجن ، ولست أدري أيهما قبل الأخرى .

وتوفيت (عليها رحمة الله) ونحن بمعقل طره السياسى بعد أن زارتنا زيارتها الأخيرة وقالت لنا :

- هذه هى زيارتى الأخيرة ولأظن أنى أراكما بعد الآن !
وكان منزلنا يقع على مقربة من محطة القطار ، وقالوا لنا بعد ذلك انها كانت تهرع إلى النافذة كلما سمعت صفير القاطرة لعلها ترى ولديها ، وكانت تدخر مبلغا صغيرا لتعد لنا احتفالا عند الإفراج عنا ، ولم تفرط فى هذا المبلغ حتى توفاه الله ، ولم يقدر لنا أن نراها بعد تلك الزيارة .

وعندما جاء النعى بها ، فرشت البطاطين فى الطرقات ، ووقفنا نتقبل العزاء مع أهل عنبرنا ، حيث هرعت إلينا جميع العنابر والغرف ، وجلس من يقرأ القرآن كأى مأتم يكون خارج الأسوار ، وكانت هذه من العادات فى السنين الأخيرة فى الاعتقال ، إن أصيب أحد فى أهله فنحن نقيم له مأتما ونتقبل العزاء ونقدمه ، وكانت هذه من مآثر ناصف مختار قائد معتقل طره الذى استبعدوه وجاءوا بعبد العال بدلا منه .

مالبثنا حتى جاءوا لنا بزعماء الطلبة الذين قادوا المظاهرات ضد عبد الناصر يطالبون ببحث مسئوليته عن الهزيمة العسكرية ، وكانوا جميعا من منظمات الشباب التي أقامتها الحكومة ، ومن أهل الثقة ، ومن الذين كتبوا التقارير فأسرفوا فيها على أنفسهم وعلى زملائهم ، ولم يكونوا يصدقون بوجود المعتقلات ، ولم يعقلوا قصص التعذيب الوحشي التي سمعوها من هنا وهناك ، وكانوا يسألوننا عن سائر الترهات التي سمعوها عن ترسانة السلاح التي ضبطوها لدى الإخوان ، وسألونا عن الاغتيالات ، وقتل شادية ونجاة الصغيرة ، وسائر ما أعلنوه على الناس من بلاهات ، وعرفوا الحقائق بحكم معيشتهم معنا ، وأحصوا عدد المحكوم عليهم ، فهم لا يتجاوزون بضعة عشرات ، قد سجنوا بتلفيق ظاهر وقادر ، وأحصوا عدد المعتقلين فوجدوهم ألاف لا ذنب لهم إلا كلمة « لا إله إلا الله » وقال قائلهم : « تالله لقد كنا في ضلال مبين » .

وكانوا شباباً في العشرين من كل جامعات مصر ، قد ملقوا رءوسهم بالكاذيب وأفاقوا على الحقائق في المعتقل ، وكانوا يطالبون الإخوان بالتصدي للمشكلات الجسام التي تمر بالبلاد ، وينظر الإخوان إليهم في عجب ولا يتكلمون ، فتاريخهم كله قصد لكافة ما يصلح البلاد والعباد ، وأكثر من ثلاثين عاما وهم يضربون ضربا مبرحا دون هوادة .

كان هذا الشباب يعشق عبد الناصر ويرى فيه منقذ مصر ، ثم غيروا رأيهم بعد ذلك تماما ، فقد أحاطوا بمالم يحط به غيرهم ، وجاءوا من المعتقل بنباً يقين ، وكان حماسهم عظيماً فهم لم يضربوا ولم يعذبوا ، وما زالت لديهم أفكار الإصلاح والتغيير .

وكان يقول قائلهم :

- لا بد من حكومة تشكل من الإخوان المسلمين لانقاذ البلاد وإصلاح الأوضاع المتردية . وكنا نستمع إليهم ويقول لهم قائل الإخوان :

- أنتم تحدثون إلى قوم خارجين على القانون من وجهة نظر من صنع القوانين . وكانت لهم وجهات نظر عجبية وغريبة ممتلئة بالفتوة والشباب والحماسة والرغبة العارمة لإحداث شيء ، التحرك إلى الخارج ، أن تخرج جماعة الإخوان من خارج المعتقل في مظاهرة وطنية ضخمة تتسلم الحكم من أيدي الفجرة والكفرة (هكذا كان تعبيرهم بالضبط) ولكن كيف يمكن الخروج ؟ لم يخبرونا بهذا !

وكانوا قد دربوا وأعدوا في معسكر حلوان الاشتراكي إعدادا وتدريباً اشتراكياً يتناقض مع الدين ، ويتأسس على السخرية من العبادات والتهاون بكل القيم الدينية ، وتغير حالهم في المعتقل ، صاروا يقيمون الصلاة معنا ، ويقرءون القرآن ، وبدعوا يؤكدون أن حل كل مشاكل مصر يكمن في اعتناق المصريين للإسلام من جديد ، فالتناس ليسوا مسلمين على الوجه الصحيح ، وهم بعيدون عن الإسلام في كل تفصيل وإجمال من حياتهم ، ونظام الحكم جاهلي بالمعنى الدقيق الصحيح ، الأمة كلها بعيدة عن الإسلام ، ونجاتهم في اتباعه .

وقال قائل الإخوان في هدوء :

- لم يقل سيد قطب الشهيد أكثر من هذا .
واستدعى عبد العال سلومة واحد من هؤلاء الطلبة الذين ربوا في المنظمات الشبابية الحكومية ، وكان عضوا لاتحاد طلاب الجمهورية عن كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وكان اسمه نادر إن لم تخنى الذاكرة ، ولما احتدم النقاش بينهما أرسل في استدعاء زميل له إن لم تخنى الذاكرة أيضا فقد كان اسمه أحمد عبد العزيز وجرى الحوار كئيبا ضجرا مملا ، فيبدأ عبد العال :
- أنتم رجالى ومن يمكن أن اعتمد عليهم فى السيطرة على هؤلاء المجرمين .

- نحن نسنا رجالك ، ولكننا شباب مصر ، وهؤلاء الذين تتكلم عنهم ليسوا بمجرمين .
- لماذا تشغل نفسك بأمور لا فائدة منها ؟ الحكومة لا تدرى عنك شيئا ، وقد نسيت كل من فى المعتقل ، ولا يهتمها أمرهم .
- أنا أريد أن أعرف فيم يفكر هؤلاء الناس وماذا ينتوون ، وأنتم أصحاب خبرة فى كتابة التقارير وقد دربتم على قراءة الأفكار ، ويجب أن تساعدونا .

- كنا نكتب التقارير على ظن منا أن هناك قيادة حكيمة تصلح المعوج ، وتقوم الأمور ، ثم فهمنا أنهم ينتقمون من أعدائهم ، ويتخذون التقارير وسيلة للبطش بمعارضيههم ، ولم نكن نعرف بما يدور فى المعتقلات وراء الأسوار .
- أصبحتم إذن من الإخوان المسلمين !
- ياليتهم يقبلوننا فى صفوفهم .

وانفجر عبد العال سلومة غاضبا كالبركان :
- يقبلوكم فى صفوفهم ؟ سوف ترون ماذا أصنع ! لم تعد للإخوان صفوف . وأجابه أحمد عبد العزيز ساخرا :
- مثل جيشنا الذى انهزم ومزقته السرقة وأنهكه تعاطى الحشيش ، وهدد قوى قاداته الفساد والنساء .
- أنتم ترفضون التعاون معنا إذن ؟
- نحن نود أن نشترك فى القضاء عليكم ولو بأقل القليل .
وعادوا وحكوا القصة ، واستمعنا إليها دون تعليق يذكر ، ثم انصرف كل واحد إلى شأنه من قراءة أو كتابة أو تسميع للقرآن الكريم .

كان المعتقل كالبحر الزاخر تتقاذفه الأمواج ، ممثلة فى التيارات المختلفة ، والحوادث الكبيرة التى تمر بالمعتقلين ، أو تحدث فى مصر .

وأعلنت حالة الطوارئ في المعتقل .

وهذا تمهيد لمعتقل كبير في طريقه إلى القيدوم ، أو زائر كبير من رجال الأمن .

وكان المعتقل الكبير هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين العالمية المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي .

وكانوا قد حكموا عليه بالسجن خمس سنوات ثم تدخل بعض رؤساء الدول ، فغيروا مكان سجنه إلى بيته بدلا من الليمان ، وسجنوه في بيته بينما بقية أسرته في المعتقل .

وقالوا : إن تصريحنا قد نشر في جريدة أجنبية لأحد الإخوان الذين يعيشون في الخارج أن مؤتمرا قد عقد في المغرب حضره بعض كبار الإخوان الذين استطاعوا النجاة من بطش عبد الناصر ، وإنهم حددوا لجنة تقوم بعمل المرشد العام حتى يتمكن من ذلك بعد انتهاء محنته .

وقالوا : إن ضابطا كبيرا ذهب إلى زيارة المرشد في بيته وهو الشيخ الكبير الذي لا يترك الدواء لحظة ، وسأله عن رأيه في هذه الأخبار ، وقال لهم الرجل :
- لأعرف شيئا من هذا .

فقال له الضابط الكبير وكانوا قد قالوا إنه أحمد صالح داود :
- عظيم ! عليك إذن أن تصدر بيانا تستنكر فيه هذه التصريحات ، وسوف ننشرها في الصباح في كافة الصحف اليومية ، وسوف تطيرها وكالات الأنباء إلى كافة أنحاء العالم .

ثم أضاف مهديدا :

- ومن ثم تظفر بالراحة في بيتك ، وتنعم بالدفء فقد اقتررب الشتاء .

وقام المرشد العام مثقلاً بوطأة المرض والضعف والشيخوخة
وقال :

- استأذنك لحظة .

وغادر صالون بيته وظن أحمد صالح داود أنه قد ذهب ليأتي
بورقة وقلم . وبعد برهة عاد الرجل وقد ارتدى ملابسه وفي يده
حقيبة صغيرة تحمل بعض حاجياته . وقال لهم في هدوء شديد :
- إني على استعداد .

وقام الضابط الكبير ومن معه واصطحبوا المرشد العام لجماعة
الإخوان العالمية إلى باب العمارة ، حيث كانت سيارات تملأ
المكان ، وانطلقت وأمامها واحدة تملأ الشارع بالعويل الصادر من
صفارتها .

ولانعرف أين ذهبوا به قبل أن يأتوا إلى معتقل طره السياسى .
وأودعوا الرجل فى مستشفى المعتقل ، وفرض حظر التجول فى
جميع العناير حتى تم دخوله بسلام ، وظهر الجند و (الشاوشية)
فى كل مكان ومع كل تحرك ، فكل من له عمل يسير وفى صحبته
أحد الشاوشية الذين زاد عددهم بشكل ملحوظ . ومنع الاتصال
بالمرشد العام تماما من جانب المعتقلين ، ولا يتصل به إلا الموظفون
الرسميون من معرضين وأطباء وغيرهم ، ثم سمحوا لأبنائه الثلاثة
بزيارته واحدا بعد الآخر ، المهندس أحمد أسامة الهضيبى ،
المستشار محمد المأمون الهضيبى ، إسماعيل الهضيبى المحامى ،
واستطاع الأستاذ المأمون الهضيبى أن يدبر لى لقاء مع فضيلته فى
المستشفى ، وتم هذا اللقاء بتعاون جميع الموظفين الرسميين الذين
يقومون بالاتصال به .

وكان الغرض من هذا اللقاء أن نعرف وجهة نظره فى كثير من
الأمر ، فالجميع يريدون الاستفسار منه عن أشياء ويستحيل ذلك .

ودخلت الحجرة ورأيت الرجل الجالس على سريره البسيط المتواضع ، ويرتدى (روبا) أكثر بساطة ، وطاقية على رأسه ، ونظارة طبية تبدو من خلفها عينان حادتان تدلان على قوة الشكيمة وشدة البأس ، روح عظيمة تطل منهما ، رغم وهن الجسد وضعفه وكثرة الأمراض . كأن الرجل هو آخر الرجال العظماء ، فقد كان الوحيد الذى صمد أمام الإرهاب وشدة البأس ، ولم تلن قناته لحظة ، ولم يعرف الضعف طريقه إلى روحه أبدا ، ورفض مهادنة الطاغية رغم منطقية كافة الضغوط التى فرضت عليه ، رجل وضعته الظروف على رأس أكبر جماعة إسلامية فى العالم فى وقت ضربها ومحاولة القضاء عليها ، وصدرت ضده أحكام مختلفة من سجن إلى إعدام ثم إلى سجن ، وتخلل ذلك كله الاعتقال والإهانة والتعذيب أخيرا ، والرجل هو هو لم يتغير .

وكان للرجل سمات عديدة عجيبة : فهو حكيم فيلسوف ، صاحب نظر ورأى فى الكون والحياة والإنسان ، وهو فقيه قد درس الفقه وله فيه نظر واجتهاد ، وكان أدبيا بليغا يتذوق الشعر ويحفظه ، ويستشهد به فى المناسبات ، وكان ساخرا يستملح النكتة فى بديهة حاضرة وذهن يقظ .

ومرة فى السجن الحربى ، والحرس يطارده حتى وهو يغسل وجهه ، التقى بولده الأستاذ اسماعيل الهضيبي خلسة ، فابتسم له معزيا ومخففا وهمس له بأبيات من شعر أحمد شوقى فى مسرحية مصرع كيلوباترة :

يا شرميون تعلمى الدنيا ويا هيلانة اختبرى الزمان القاسى
إن التى حرست بأبطال الوغى باتت تصانع سفلة الحراس
ثم ذهب إلى زنزانته بعد أن أظهر روحا عالية ليشجع أولاده
جميعا من المسلمين . وكان متواضعا ، ألوفا ، ودودا ، مع جميع
الناس ، لين الجانب رقيق الحاشية إذا تخاطب معه أحد ، ولكنه

شديد الاستعلاء والأنفة عظيم الكبرياء إن اضطر للتعامل مع أعدائه أو سجانیه ، وهو يخاطبهم بلهجة من يقدر ويملك ، وكأنه المنتصر أو هو المحقق الذى يجرى معهم التحقيق وليس العكس ، وكانوا يهابونه مهابة شديدة رغم كونه أسيرا عندهم ، وهو أكبر من أن يُساوَم على شىء مهما عظم ، وأظنه من قلة عرفوا أن الدنيا معبرة إلى الآخرة ، وأن السلوان الأعظم فى ظل العرش ، حيث لاجلبة ولاضوضاء ولاملك ولاسلطان ، ولايوجد إلا ديان واحد : هو الله سبحانه وتعالى .

وكان الناس جميعا يحبونه حبا ملك عليهم قلوبهم فهو أبوهم الروحي ، ومنه يستمدون طاقتهم فى الصمود ، ومن روحه يأخذون القبس الأعظم فيستعينون به على مرارة الحبس والاعتقال ، ولم يكن يعد بنتائج ولكنه كثيرا مايقول : إن المسلم الحق هو الذى يؤدى واجبه كاملا ، ولايفكر فى نتيجة ما على هذه الأرض .

أذن لى الرجل بالجلوس ، وجلست خاشعا عند طرف السرير أنظر فى وجهه ، ولأعرف كيف أتكلم ، أتأمل تقاطيعه وأفكر كيف استطاع هذا الرجل أن يغيظ جمال عبد الناصر الذى دوخ الناس جميعا ، ويطول الصمت ولا أجد ما أقول ، وأنا الذى جئت لأسأل ثم أخرج للمعتقلين فأحكي لهم ماسمعت .

وقطع المرشد حبل الصمت سائلا :

- كيف حال جميع الإخوان ؟

- بخير يسلمون على فضيلتكم ويدعون لكم .

وسرح الرجل ببصره قائلا :

- قد مضت أيام التعذيب والأجر ووفيت كل نفس ماكسبت ،

وهذه هى أيام العبادة والاستغفار وذكر الله ، قل هذا للإخوان وقل لهم أيضا إنها أيام قد لاتعود فتزودوا منها وخير الزاد التقوى .

ورأيها فرصة للحديث وتشجعت وقلت له :

- هل أقول هذا للمؤيدين أم للمعارضين .

وأنا أقصد بهذا الذين يكتبون برقيات التأييد والذين يمتنعون .

وقال الرجل :

- « هم جميعا من الإخوان المسلمين ، وهذه ظروف غير عادية ، ولا تحكموا على الناس وهم يحملون أثقالا ، انتظروا حتى يخفف الله عنهم وعنكم ، وهم جميعا من الذين امتحنوا » وما كان الله ليضيع إيمانكم . »

- لو كنت مكان الحكومة ماذا كنت تفعل ؟

- كنت لا أفعل شيئا واحدا مما فعلوه .

- ماذا ينبغي على الحاكم أن يفعل لخدمة الشعب والبلاد ؟

وتأمل الرجل قليلا ثم أجاب :

- « الحاكم المخلص في هذه البلاد هو الذى يحكم بالإسلام ، هو الذى يكون قدوة للناس في كل أحواله ، والناس على دين ملوكهم ورؤسائهم ، يكفي أن تتوفر النية في قلبه فيتحسن كل شيء ، لن يجتمع حوله إلا أهل الخير مادام لا يظلم ولا يسرق ولا يستأثر بمال أو برأى » .

- ماهو مستقبل الإسلام في رأيك ؟

- تقصد مستقبل المسلمين ؟

- نعم .

- سوف يتحقق الإسلام في يوم قريب في نفوس المسلمين ، ولعل الهزيمة التي حدثت في يونيو تدفع الناس إلى الدين كحل لمشكلاتهم ، ولتخلصهم من الهوان الذى لحقهم ، ربما لو أذن الله لك في الخروج من هذا المعتقل فستجد أحوال المصريين قد اختلفت سوف تجدهم أقرب للإسلام مما تركتهم ، مستقبل المسلمين في مصر يبشر بالخير .

- إلى أى مدى يافضيلة الأستاذ فى رأيك ؟
- وسرح الرجل بخاطره قليلا ثم أجاب ببسمة ودودة :
- سوف يحكمون هذه البلاد يوما ، ولعله قريب .
- تقصد أنك سوف تكون على رأس حكومة فى مصر ؟

وزادت ابتسامة الأستاذ الهضيبى :

- « أنا شخصيا ؟ لأظن . وماالفرق لو حكم واحد من إخوانى أو أبنائى ؟ هذا لايمهم . المهم أن تسود الأفكار التى تؤمن بها ، عقيدتنا تظلل الناس ، وشرعية الإسلام تنير لهم الطريق فى المدهمات ، لايمهم شخص الحاكم ، ولكنى أؤكد لك ، لقد ضاع سلطان عبد الناصر بعد هزيمة يونيو ، وظهر نظامه عاريا للناس ، والبديل هو الأصل ، والأصل هو الإسلام ، والإسلام هو طوق النجاة ، وهزيمة إسرائيل لن تأتى على غير يد المسلمين ، ربما تشهد هذا فى حياتك قبل أن تموت ، وعندها سوف تدرك أن أيام السجن والاعتقال التى قضيناها لم تذهب عبثا ، نحن ندفع ثمن المستقبل ، ونضحى من أجل الأجيال القادمة بحق ، وسوف يسود الإسلام ، ويرتفع شأن المسلمين ، لقد بدأت خطوات كثيرة من الألف خطوة التى تنتهى بسيادة الإسلام ، ولاتعجب فهذه الحكومة الفاسدة ومايمكن أن يأتى بعدها من حكومات مثيلة ، تدفع عجلة الإصلاح بفسادها ، وتقرب المسلمين من دينهم بفسق رجالها ، هم يقدمون خدمة عظيمة من حيث لا يدرون ، المشكلة أننا مسلمون ، نعم نحن مسلمون قد ابتعدوا عن دينهم ، لم يعد للدين فاعلية فى حياة الناس ، وهم فى حاجة إلى صدمات كبيرة حتى يفيقوا ، وقد بدأت الزلازل والحوادث العظيمة » .

- بماذا تنصح الإخوان ؟
- « أن يحب كل واحد منهم الآخر ، وليعكفوا على قراءة القرآن ، وليتجملوا بالصبر ، وأخبرهم بقول رسول الله ﷺ : طوبى

لمن أمسك الفضل من قوله . ولاشك أنهم يعرفون هذا الحديث الشريف ، وأخبرهم أيضا أن أشد ساعات الليل ظلمة هي أقربها لطلوع الفجر » .

وسألت الرجل أسئلة كثيرة وأجاب عنها واستفاض في الحديث ، وخرجت وحكيته للناس ماسمعت ، وقد سطرت ماوعته الذاكرة ، وقد كان الرجل على يقين كامل وإيمان عظيم ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، لا يداهن في دينه ، ولا يقبل الدنية ، ويقف كصخرة صلبة تعيها المعاول وقد قال لي في عزة وشموخ :

— أنا الإخوان المسلمون : لو استسلمت لاستسلموا ، وأنا واقف على أمر هذه الجماعة لأنها بقية ممن ينهون عن الفساد في الأرض . وكان ذلك تعليقا على ذكر من يؤيد الحكومة ويسير في ركابها .

وقضى الرجل سنين في المعتقل ، يحجب عن الرؤية أحيانا ، وفي غفلة من الحراس أو في لحظة من فوضى ، يذهب إليه جميع المعتقلين ليهنئوه بالعيد ، جميعهم بلا استثناء ، وكان غير الإخوان ينظرون إليه في نزهته اليومية وحيدا عدا الحرس ، ويتأملون الشيخ في إعجاب واحترام ، أهذا الرجل الضئيل استطاع أن يقف وحده في وجه نظام طاغ عنيد ؟ استطاع أن يقول : « لا » بملء فمه دون خوف من قتل أو سجن .

وقال له واحد من الإخوان مرة في مرح ودعابة :
— يا فضيلة المرشد ، نحن نبتي بالسجن والفقر ونقص الأنفس والثمرات ، ألا نبتي بالغنى والثروة والجاه ، لماذا لا نجرب في هذا الابتلاء ؟

وقال الرجل بحكمة السنين التي يحملها :
— سوف تبتلون بهذا ، نعم سوف تبتلون بهذا ، ولكن هل تصيرون ؟

ومرت السنون وابتلى كل من شهد هذا الحديث ببلاء الغنى والثروة كأن الرجل كان يقرأ في كتاب الغيب المفتوح !

وجاء يوم أصابته نوبة قلبية ، وارتفعت الأصوات بالدعاء في كل مكان بالمعتقل أن يخلص هذا الشيخ الفاني من آلام المرض والحبس ، وعز الدواء وكان لابد من نقله إلى مكان مناسب لعلاج ، واشترط الشياطين أن يتقدم المرشد العام بورقة إلى الحكومة يطلب فيها العلاج ، ورفض الرجل ذلك وقال : المريض لا يتقدم بورقة إلى أحد يطلب فيها علاجه ، وعلى السجان أن يعالج مسجونيه ، ومكثوا حوله طوال الليل يسأومونه على صحته ، والرجل يتلو القرآن متحملاً آلامه في هدوء ، وأذن الله له بشفاء ، وشاءت إرادة الله أن يبقى حتى يشهد موت خصمه المبين .

﴿ ... ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين .
ويذهب غيظ قلوبهم ... ﴾

• التوبة آية ١٤ ، ١٥ •

كانت حلقات التعليم تنتشر في كل مكان بالمعتقل ، جميع العلوم والتخصصات كان هناك من يتقنها أو هو أستاذ فيها ، فيجلس إلى ناحية ويقوم بتدريس المقرر في علوم اللغة العربية مثلاً ، أو في نظرية (الكمبيوتر) ، فهو يقوم بتدريس المنهج كاملاً في أيام معدودة ، ويقوم الناس من عند الأستاذ ويأتى آخرون وهو واقف في الوقت المخصص يقدم العلم ويشرح ويفسر .

وكان هناك منهج نحو أمية من لا يتقنون القراءة والكتابة ، ولم تنته أيام المعتقل حتى أتقن كل الأميين القراءة والكتابة .

وكان هناك من يدرس الموطأ للإمام مالك ، والفقه على المذاهب الأربعة ، وشرح كتاب الخراج لأبي يوسف ، وسائر أمهات الكتب في الفقه والعلوم الإسلامية .

وكان الشيوعيون ينظرون إلى نشاط الإخوان بكثير من الغيرة والحسد المزوجين (مع ذلك) بالإعجاب الشديد .

وصار معظم أصحاب « النشاط المعادى » من الإخوان المسلمين .

ولم تكن الأمور هادئة في هذا الجو العلمى ، بل كانت القلاقل تثار والتدريبات الممسوخة التى يجرىها عبد العال سلومة فى يأس قائمة على حالها ولكن كانت قد فقدت فاعليتها وتأثيرها على الناس .

وكان عنبر اثنين هو أعظم العنابر خطرا على الإدارة والحكومة ، وكان فى تسلسله يبدأ بغرفة اثنين حيث بها شكرى مصطفى ومحمود حلمى ، والشيخ على اسماعيل ، وعبد الله بن أحمد السماوى وآخرون، يبلغ عددهم حوالى العشرين حيث الحدة فى تناول الأمور من وطأة الاعتقال الرهيب والتعذيب البشع الذى كان .

تم انتقل محمود حلمى وآخرون إلى غرفة ثلاثة حيث محمد قطب « والعشرات » وهى طبقة الذين قضوا عشر سنين كاملة فى السجن دون تأييد ، وهؤلاء أقل حدة .

ثم غرفة أربعة فى العنبر نفسه حيث كنت هناك فى جوار أحمد عادل كمال ، وهذه طبقة الذين يقرعون ويكتبون ويكتفون بهذا .

ففى هذه السنين : عكف أحمد عادل كمال على إعادة كتابة مؤلفه الضخم « الطريق إلى المدائن » وكانت المباحث العسكرية قد استولت عليه عند الاعتقال ورآه ورقا يتبدد فى الهواء أمام عينيه ، بعد أن قضى فى أعدامه سنين ، وأعاد الرجل الكتابة من جديد فى صبر وجلد ومثابرة، وكان يقوم على تهريب الورقيات التى ينتهى من كتابتها فى أثناء الزيارة ، وكم هوجم العنبر مرات كثيرة للتفتيش عن هذا البحث لإعدامه ، وكانت هناك نوادر كثيرة تحدث فى هذا المجال : فمثلا هاجم العنبر ضابط ومعه الجند ، وتوجهوا مباشرة إلى « نمرة » أحمد عادل كمال وطلب التفتيش وكان عادل

كمال يخفى أوراق بحثه فى مسند كرسى فى حيازته ، وتظاهر
بالارتباك والحيرة وسأل الضابط :

- ماذا تريد ؟

- التفتيش !

وصارت عينا أحمد عادل كمال تدوران فى المكان ليلفت نظر
الضابط إلى بعض الأماكن التى يمكن أن يكون بها شيء ، هكذا
أوحى إليه .

وتعجل الضابط :

- نريد التفتيش ، لاوقت لدينا .

وبسرعة قدم أحمد عادل كمال الكرسى وبه البحث المختبىء
وقال :

- تفضل استرح ودع الجند يفعلون مايشاءون .

وجلس الضابط على الكرسى وبه مايبحثون عنه ، ووضع ساقا
فوق ساق ، وأشعل سيجارة ، وقلب الجند المكان بلا فائدة .

وكانت غرفة اثنين حيث شكرى مصطفى ومن معه تضطرم
بالثورة العارمة ، شكرى يريد أن يعلنها حربا على العالم أجمع ،
ومن ليس معه فهو من الكافرين ، وعنبره هو سفينة نوح والناجى
من ركب فيها ، ومن ليس معه فهو عليه ، كانت نفسه تضطرم
بالغضب والرغبة فى الانتقام ، ويعلن هذا فى كل مكان ولكل
شخص ، وكلمه العقلاء والحكماء بلا فائدة ، وصار الغضب يغلى
فى صدره حتى جافاه النوم فهو يقطع الليل جيئة وذهابا فى الممر
الطويل صامتا متأملا يفكر كيف يبدأ ومتى يخرج ، واستثمرت
الإدارة هذه الروح فى إجراء التدريبات السمجة .

وانتقل محمود حلمى بغضب أقل ، وتعقل أكثر إلى عنبر
ثلاثة ، وكانت الأفكار تضطرم وتتأجج .

وكان محمود حلمى يرى أن سبب فساد هذا العالم هو عبد
العال سلومة.

وفى يوم من أيام الصيف القائل ، وعند إشتداد الظهيرة حيث
عكف الناس فى داخل الغرفات يحتمون من الحر ، جاءنى الأستاذ
محمد هلال المحامى وكان رجلاً فاضلاً صاحب دين وورع وله
معرفة قديمة بعبد العال سلومة ، وهو يستخدم هذه المعرفة القديمة
لتخفيف وطأة السجن والحبس على الناس ، ونجح الرجل فى ذلك
كثيراً ، وتعجبت من زيارته ، وهمس لى :
- أريدك فى الخارج .

وقلت متعجباً :

- فى هذا القبط ؟

- نعم .

وخرجت معه مستسلماً ، وكانت الشمس تشوى المكان ،
ولا يوجد مخلوق واحد فى الفناء ، ومشى الرجل صامتاً لا يتكلم ،
ورابى صمته وأقلقنى ، وكنت أسأله ولايرد :

- ماذا هناك ؟

ولما وصلنا إلى مكان آمن خلف العنابر وقف ووقفت ، وأخرج
من جيبه مظروفاً ناوله لى :

- اقرأ هذا .

وأمسكت بالمظروف وهو من النوع الذى يستخدم فى البريد
النجوى ومكتوب عليه من الخارج العبارة الآتية :
« إلى السفاح الأكبر عبد العال سلومة المجرم » .

وتجمد الدم فى عروقى فقد كان هذا خط شقيقى محمود
حلمى ، وأسرعت بفتح الخطاب وقراءته ، والأستاذ محمد هلال
يرمقنى صامتاً وأنا أقرأ الكلمات النارية ومضمونها : إن محمود
حلمى يخبر القائد أنه سوف يقتله لشروره ولن يجديه أى شئ
فقد أعد سكينا قد سنّها فهى حامية ، وسوف يغرسها فى كرشه
إن لم يكن اليوم ففى الغد بالتأكيد ، ولكنه لن يفلت منه مهما فعل .

ونظرت إلى محمد هلال في ذهول لا أكاد أصدق وقال لى :
- مارأيك ؟

وقلت :

- كيف عثرت على هذه الرسالة ؟
- أعطائها شقيقك للمراسلة الذى يقف على مكتب عبد العال
وقال له هذه الرسالة له ، ولكن الرجل أعطائها لى .

- ولم يقرأها عبد العال ؟
- ولم يقرأها عبد العال ، ولكن ليست هذه هى المشكلة ،
ليست الرسالة هى المشكلة بل هو فحواها ، حاول أن تفكر معى ،
محمود حلمى يريد قتل عبد العال سلومة ، ويعلن هذا فماذا نفعل ؟
- فى الحقيقة لست أدرى .
- ماذا لو ذهبت إليه وتكلمت معه ؟
- وماذا أقول له ؟ هل أقول له لانتقل عبد العال ؟
وأجاب الأستاذ محمد هلال فى ضيق ظاهر :
- لأعرف ماذا ستقول له ولا أقترح عليك شيئاً ولكن يجب
أن تقابله .

ووافقته وعدت واجماً إلى العنابر ، وكانت أفكارى تزعجنى ،
ويد ثقيلة تعصر قلبى ، فهذا الشاب الغض مثل شقيقى محمود
حلمى الطيب القلب ، وكيف حولته قسوة السجن والسجان إلى
إنسان عصبى المزاج يفكر فى القتل ، أما كان يكفى مانحن فيه
من عذاب فيأتى واحد مثل عبد العال سلومة ، فيزيد فى وطأة
مانحن فيه ، وهؤلاء الذين أمسكوا بنا قد نسوا الآخرة ولم يعد
يعنيهم شأنها فى قليل أو كثير ، وهم جبابرة متعطرسون وينظرون
إلينا كدمى يحركونها كيف شاءوا ، ولكنهم يخافوننا أكثر من
خوفنا منهم فى نفس الوقت ، يشعرون بجرمهم وينهايتهم السوداء
فى الدنيا أو الآخرة ، فهم يحاولون أن يوجّلوا هذه النهاية المرة
بالضغط علينا وإيذائنا ، وإفساد نفوس غضة بريئة لم يكن لها من
ذنب إلا أن تقول ربنا الله . دخلت غرفة ثلاثة فى عنبر اثنين ،

عنبر الخطرين حيث أعيش ، ولكن ليس فى الغرفة نفسها ، وكانت
الغرفة يلفها جو رمادى ، ففى هذه الأثناء كان يمكن لكل واحد
أن يصنع لنفسه « كايينة » من البطاطين بحيث يستطيع أن ينفرد
بنفسه داخلها ، فهى شىء أقرب إلى معسكرات الحجيج عند
« مطوف » غادر آكل للحقوق فى موسم قد ازدحم بالناس .
ووقفت أمام خباء محمود حلمى وناديت :

- ياأخى محمود .

وأتانى صوته برما من داخل الخباء :

- نعم . ماذا تريد ؟

واقتحمت عليه المكان فوجدته يتناول طعام الغداء وقد غرس
سكيناً فى قطعة من الخشب بجانبه وتوجست شراً :

- هل أستطيع أن أتكلم معك قليلاً ؟

وأجاب زمجراً :

- لست أصماً ، تكلم بما تشاء ؟

وهمست :

- لعلنى أريد أن أفضى لك بسر ولاأريد أن يسمعه أحد .

وأجابنى بصوت كأنه يأتى من العالم الآخر :

- اسمع . لاوقت عندى ، إن كان عندك ماتود قوله فأنا أسمع ،

ولاأخفى شيئاً عن الإخوة هنا ، وأنوى أمراً عظيماً أريد أن أنهياً له .

- تنوى قتل عبد العال بهذه السكين ؟

وأجفل وتوقف عن الطعام :

- من أخيرك ؟

- ألم ترسل إليه خطاباً بهذا المعنى ؟

- وكيف عرفت ؟

- لاشىء يخفى فى هذا المعتقل .

وبدت عليه الحيرة قليلاً ثم زمجر قائلاً :

- لا يهتم على أى حال أن تعرف أو لا تعرف ، سوف أفتح كرشه
إن شاء الله بهذه السكين .

- لماذا ؟

والتفت إليّ دهشاً :

- لماذا ؟ ألا تعيش معنا فى المعتقل ؟ ألا ترى مايفعل ؟

- هبه يستحق القتل . هل تظن أنهم يمكنونك منه ؟ .

- قد فكرت فى الأمر وخطتى واضحة فى ذهني .

- ولكن لماذا أرسلت إليه تخبره ؟ لقد نبهته وهو يأخذ حذره .

وضحك محمود حلمي ساخراً :

- قد أعددت الخطة ، وعملت حساباً لهذا ، سوف يحيط نفسه

بالحرس ولكنى أعرف كيف أصل إليه .

- سوف يقبضون عليك قبل أن تراه .

وضحك عالياً فى سخرية :

- يقبضون على ؟ أين تظننا نعيش ؟ نحن مقبوض علينا منذ سنين .

- لماذا أرسلت إليه الخطاب ؟

وكان قد فرغ من الطعام فاعتدل إليّ وهو يلعب بسكينه :

- سوف أسليك بالقصة .

- هذه قصة غير مسلية على الإطلاق .

- هذا من وجهة نظرى على الأقل .

- تفضل .

- لو وضعت هذا السكين فى قلبه فسوف يموت فى لحظة

واحدة .

- ماالضرورة إذن فى إرسال الخطاب إليه ؟

- انتظر . سوف اشرح لك . لو مات فى لحظة فلن يتعذب

طويلاً ، ولكنى أرسلت إليه الخطاب ليعيش ساعات من الرعب

والفرح ، هذه واحدة .

- والأخرى ؟
- لن أضع السكين في قلبه ، سوف أمزق بها كرشه ليتعذب
- أياما قبل أن يموت ، ونحرق قلبه على الدنيا التي يغادرها ، والآمال
- التي ضاعت منه ، وقلب أهله عليه .

وشعرت بمرارة وتعاسة لاحد لها وقلت له :

- هذا جميل والله .
- هل رأيت ؟ كنت على يقين من أن القصة سوف تعجبك .
- هذه ليست قصة ، هذه مأساة إغريقية ، ولكنها تحدث
- الآن .

- ماذا تعنى ؟
- أخبرنى . وكيف ستمكن منه رغم تحذيرك له ؟
- هذا هو السر الذى لأستطيع البوح به لأحد .
- وقلت له مراوغا :
- وهل تظن أننى أشئ بك أو أفشى سرى ؟
- ليست المسألة هكذا ، ولكنى أود نجاح العملية ، وأريد أن
- تمر بنجاح .
- وقلت له ببطء :
- وهل تعرف مصيرك بعد هذا الحادث ؟
- وأجاب ببداهة :
- بالطبع . سوف أقتل ، إما برصاص الحرس ، أو المحاكمة
- ثم الإعدام .
- جميل والله . شئ جميل جدا !
- سوف أقدم حياتى فداء لكل الأخوة من المعتقلين .
- وتفرس فى وجهى قليلا :
- لا يبدو عليك السرور لمقتل عبد العال سلومة .
- وكان صدرى يبور بالغيط والشفقة ولكنى كتمت هذا
- وتظاهرت بعدم الاكتراث :

- بالفعل لست سعيدا لهذه الفكرة . هي غير مضمونة أولا .
- وقال بسرعة :
- اطمئن سيموت مائة في المائة . وماذا عن ثانيا ؟
- ماذا يفيد قتله ؟ ألف عبد العال سلومة عندهم .
- وقال باستككار شديد :
- لا .. لا يوجد مثل هذا الخنزير في الدنيا ، هذا ليس له مثيل ،
- ومن يأت بعده فسيسير مثل الكلب وإلا ظهر له محمود حلمي آخر .

- وتملكنتني حيرة شديدة فالفتى يتكلم بهدوء وثقة وإطمئنان
- ولكنني قلت :
- قص عليّ الخطة حتى يمكن لنا أن ننقحها .
- واعترض بسرعة :
- لا تدخل لك بشيء ، ولا علم لك بالموضوع ، لأريد أن
- أشرك أحدا في هذه القصة ، يكفي شهيد واحد عوضا عن هذا
- الكلب .
- في الحقيقة أنا غير واثق من نجاحك .
- وأجاب في بساطة :
- سوف نرى على أي حال .
- وتظاهرت بالتفكير قليلا ، وقد كنت أفكر بالفعل :
- اسمع . عندي فكرة .
- ماهي ؟
- لماذا لا نتركه لله سبحانه وتعالى ليحاسبه ؟
- وأجاب محمود حلمي :
- هذا مأسأفعله بالضبط .
- وشعرت بالفرحة :
- هل غيرت رأيك ؟
- كلا . أنا لا أستطيع حسابه ، ولكنني أرسله إلى الله سبحانه
- وتعالى في سرعة ليتولى هو حسابه .

- ولماذا لا تنتظر عليه قليلا ؟ ماوجه العجلة ؟ فليحاسبه الله في الوقت الذى يريد ، لماذا نتدخل فى إرادة الله ؟
- نحن ننفذ إرادة الله .

وشعرت بعقم الحديث فتكلمت معه بحدة شديدة وبحزم بالغ :
- اسمع . ماتنوى فعله ضرب من ضروب العبث ، وهى محاولة لن تنجح ، وسوف يسقط فيها شهداء كثيرون ، لست وحدك الذى يضرب برصاص الحرس ، سوف يطلقون الرصاص دون تمييز ، والله وحده الذى يعلم النتيجة فرفقا بى وبإخوانك ، والصبر أولى وأجدى .

- الحياة فى المعتقل سخيصة لا يتمسك بها عاقل .

وصرت أتوسل إليه وأناشده الله والرحم أن يصرف من ذهنه هذه الفكرة ، ورفض مناقشة العدول عن قتل عبد العال رفضا تاما .

وخرجت من الغرفة أبحث عن بعض أصدقائه ، ومن يرتاح إليهم ويثق فيهم ، ووجدت الأستاذ عبد الحليم خفاجى ، والدكتور فاروق عباس الذى أيقظته من النوم ، وأريتهم الخطاب وطلبت منهم المعونة ، وأسرعوا معى إلى لقاء محمود حلمى ، وفى الطريق وجدنا الأستاذ محمد هلال يقف فى ناحية من الظل وسألنا متلهفا :
- ماالأخبار ؟ هل وصلتكم إلى نتيجة ؟

- ليس بعد .

ودخلوا إليه وجمعوا له آخرين ، ومازلنا نزاوره ساعات حتى هدأت نفسه ، ولم نتركه حتى عاهدنا جميعا عن عدوله فى قتل عبد العال سلومة .

وكان المراسلة قد أخبر عبد العال سلومة بقصة الخطاب وماهو مكتوب عليه من الخارج ، وعاتب فى هذا الأستاذ محمد هلال ، لأنه حجب الخطاب وفهم من الحديث أنه مجرد خطاب غاضب من شخص مضيق عليه ، واستدعانى عبد العال :

- ماذا كان في الخطاب ؟
- لم أقرأه . وماذا يمكن أن يكون فيه ؟ شخص غاضب مضيق عليه ، قد حبس بغير ذنب فهو يعبر عن سخطه وضيقه .

وسرح عبد العال سلومة فقد كان جبانا :

- شخص مثل هذا خطر جدا ، هذا يمكنه أن يرتكب جريمة ،

يعنى كان خطابا مليئا بالسياب مثلا ؟

- اسمع يا عبد العال بك أنا أشير عليك ، محمود حلمى شاب صغير وقد تم اعتقاله دون سبب مثل الآخرين ، وهو مندفع ومتهور ، والطريقة الوحيدة لتجنب المشاكل أن يصدر أمرك باشتراكه مع مجموعة الخدمات فى المعتقل ، فيعمل طول النهار ومن ثم يأتى الليل وهو منهك فينام وينسى أفكاره المزعجة .

واستحسن عبد العال سلومة الفكرة وقال :

- أحسن مكان هو المطبخ ، سوف يكون مسئولاً عن المطبخ من الغد . وأمنت على كلامه وأنا أشعر بالقلق والتوتر ، فالمطبخ معناه سكاكين كثيرة وسواطير لاحت لها ، والمطبخ على مقربة من مبنى الإدارة ، وعبد العال سلومة يذهب إلى هناك وحده بين الحين والآخر للتفتيش .

وعمل محمود حلمى فى المطبخ ، وتحسن الطعام ، وزادت كمية اللحم المقدمة لنا ، وعرفنا السر فقد كان العساكر (والشاوشية) يأخذون نصفها ولما جاء محمود حلمى منع كل هذا فى قصة طريفة ؛ فقد جاءه فى أول يوم من حكمه فى مملكة المطبخ العسكرى الذى يأخذ طعام حضرة الصول ، وقدم له محمود حلمى الأرز وفوقه قطعة من اللحم وبقية الطعام ، ونظر العسكرى فى دهشة وقال :

- ماهذا ؟
- هذا طعام حضرة الصول .

واستنكر العسكرى هذا وقال :
- لا . هو يأخذ أكثر من هذا !! قروانة لحمة كاملة ، وكذلك
سائر (الشاويشية) ليس أقل من قروانة .
وكلمه محمود حلمى فى حدة وفى يمينه السكين ، فقد كان
يعمل وقتها :
- انت عارف قروانة لحمة يعنى إيه ، يعنى أكثر من اثنين كيلو .
واحتدم النقاش بينهما وأنهاه قائلاً :
- اسمع أرسل حضرة الصول ليأخذ طعامه بنفسه .

وكان حضرة (الصول) قد استبطأ حضور الطعام ، فجاء بنفسه
إلى المطبخ وسمع الحوار ورأى الطعام الذى صرفه له محمود وهاج
وماج ، فما كان من محمود حلمى إلا أن أمسك بتلابيه وضربه
(علقه) ساخنة ، وانقذوه من يده بصعوبة بالغة ، واجتمعنا على
الرجل واتفقنا معه ألا يخبر أحدا بهذه العلقه ، وألا يصل أمرها إلى
الإدارة العليا ، وأرضيناه نظير مبلغ دفع له !

وحسنت الأحوال وزادت كمية اللحم للمعتقلين بعد أن حرم
العساكر والشاويشية والصول من الكمية الزائدة المصروفة دون وجه
حق .

وكان عبد العال سلومة يأتيه بالشاى الذى يرسل ضباطه للبحث
عنه لأنه من الممنوعات ، ولكنه تناول محمود حلمى الشاى
ويوصيه همسا :

- لاتدع أحدا يراك وأنت تصنعه وتشربه .
ويطمئنه ثم يوزعه على من يعرف ومن يريد ومن يحتاج .

أخذوا صلاح الأنور إلى مستشفى القصر العيني لإجراء جراحة الزائدة الدودية ، وأجريت العملية بنجاح ، وفي اليوم التالي لإجرائها غافل حراسه وهرب من المستشفى ، وهو في حاجة شديدة إلى العناية والرعاية ، ولم يكن في جيبه غير جنيهين ، وكان قد مكث في السجن عشر سنوات دون تأييد ، وكان أيضا من تلامذة الشهيد سيد قطب المخلصين ، وبعد السجن جاءوا به إلى المعتقل ، فرؤية المدينة غريبة جدا بالنسبة له ، وقد بهره منظرها وتذكر السجن والاعتقال الطويل فقام من سريره وجرحه ينزف ، وخرج من عنبر الجراحة أمام نظر الحارس الذى ظنه ذاهبا إلى الحمام ، وغادر وركب الأتوبيس ، وكان فى طريقه إلى شبرا .

وقامت الدنيا وقعدت ، وجاءت سرية من الجند على رأسها أحد الضباط وسألونا عن أمتعة صلاح الأنور ، وحملوها فى تحفظ شديد كأنما لا يريدون للبصمات أن تضيع ، وتم هذا بين دهشة الجميع ، ماذا هناك ؟ لأحد يجيب ، هل مات صلاح الأنور ؟ للإجابة . وماهى إلا أيام حتى شاع خبر هروب صلاح الأنور من المستشفى . وصار بطلا فى نظر جميع المعتقلين ، ورويت الأساطير عن قصة هروبه ، وأصبح الآخرون يفكرون فى الهرب ويرسمون الخطط الساذجة ، وكلها لاتؤدى إلى شىء فخارج بوابة المعتقل مجهول لايعرفه أحد إلا أقل القليل ممن خرجوا لسبب ما ، أما جغرافية المكان ، وكم يبعد عن الطريق العام ، وماذا يمكن أن يلقاه الهارب إن نجح فى الخروج من البوابة ، فكل ذلك طلاس لايمكن لأحد فكها أو فهم أسرارها .

وكان هناك حوذى يأتى مرة فى الأسبوع ومعه عربية عبارة عن خزان كبير للجاز ويجر هذه العربية حمار ، وصار من يفكر فى الهرب يتودد إلى ذلك الحوذى تمهيدا لتنفيذ هذه الفكرة ، وبعد قليل من الوقت فاتحوه فى أمر الهرب ، ورحب الرجل بالفكرة ،

فهو سيكسب من ورائها المال الكثير كما أفهموه ، وقال لهم: عليكم بالتخطيط والتفكير وعلى التنفيذ ، والتمن تدفعونه بعد خروجكم .

ونمي الخير إلى علمي ، فقد كان هناك من يصطفي بعض الإخوان ويسر له بالموضوع ليكون شريكا معهم ، واستحسنتم الفكرة ساخرا ، وهي (كوميديا) ينبغي ألا تفوتني في هذا الجو الخائق ، ثم سألت عن أسباب التعطيل في التنفيذ فقالوا: لا شيء ، مجرد رسم الخطة ، وقلت لهم: هذه النقطة هي أصعب شيء في الموضوع على الإطلاق ، فقالوا : بسيطة جدا فقلت كيف ؟ فقالوا: بعض التفكير ، وسألت عن عدد الذين سينفذون الفكرة ووجدتهم يزيدون على الخمسين ، وانتظرنا موعد وصول الحمار وصاحبه ، وجاء ليفرغ الجاز المطلوب ، وكانت هناك بوابة جانبية يدخل منها تحت حراسة مشددة، وبعد تفتيش دقيق ، ويخرج بالطريقة نفسها . ووقفنا على مقربة من البوابة في داخل المعتقل لنعاين أداة الهرب الوحيدة ، وندرس المسألة من كافة جوانبها ، ورأينا الحمار وهو يدخل جارا خزان الجاز وهو ينوء من التعب وصاحبه يلهبه بسوط في يده بلا فائدة ، ويبدو أنه حمار قد تجاوز الثمانين ، فهو ضعيف مريض ، مثقل بالأحمال ، ومر بنا صاحبه :

- السلام عليكم .

ورددنا عليه السلام ، وكل واحد يتحسس الحمار وخزان الجاز في فرح ظاهر وأمل مرتقب وسأل الرجل في دهشة :
- كل هؤلاء الواقفين في العملية ؟
وأجابه الذي اتفق معه بالإيجاب ، وبدت الدهشة شديدة في وجه الرجل وعاد يسأل :

- كل هؤلاء ؟

وأكدوا له نعم ، وعاد الرجل يسأل :

- ولكن كيف يخرجون مع هذا الحمار ؟

- لا تشغل بالك ، نحن نعد العدة لكل شيء ، وسوف يخرجون على دفعات .

- على دفعات ؟ معقول على أى حال .

وبدت على الرجل أمارات عدم الفهم ولكنه عاد يقول :
- أنا تحت أمركم على العموم ، فكروا أنتم وعلى التنفيذ .
وتعجبت من شجاعة الرجل وشهامته ومروءته البالغة ، وظننت أنه أبله أو متخلف ، ولكنى بالحديث معه لم أجده كذلك ، فقد كان رجلا من أولاد البلد يريد أن يقدم خدمة هؤلاء الأسرى الذين يراهم كلما يأتى يصلون ويقرءون القرآن ، فهو يريد إنقاذهم وخدمتهم على أى صورة وبالكيفية التى يرونها ، ويتمنى لو يخرجهم من الحبس ، وهو يتعجل تنفيذ الخطة .

وما إن عاد بعد أسبوع حتى تضاعف عدد الذين يريدون الهرب على الحمار المسكين ، وقمنا باحصاء العدد ، عدد المشتركين فى الهروب فوجدناهم جاوزوا المائتين ، واتفقنا على الاجتماع فى موعد حضور الحمار وصاحبه لنضع الخطوط النهائية للهرب .

وكانت مظاهرة ، الرجل يفرغ الجاز الذى أتى به ، بينما المعتقلون يقدمون شيئا من الشاى له ، وبعض الطعام للحمار ويدورون حوله إعجابا وأملا راقصا مرتعشا يداعب القلوب فى غموض لانهاية له .

والرجل يقوم بعمله وهو يقلب النظر إلى الجمع بين الفينة والأخرى ، ويهز رأسه فى عجب شديد :
- كل هؤلاء .

وتأتية الإجابة حاسمة ومطمئنة :

- نعم .

وارتفع اللفظ من سيخرج أولا ، وكم شخصا فى المرة الأولى ،

وارتفع صوت يقول :
- لا توجد إلا مرة أولى .
وأكد آخر :
- لن تسمح الحكومة بتكرارها ، فصاحب الحظ هو من يقع عليه الدور في المرة الأولى .
واقترب واحد من صاحب الحمار وسأله هامسا :
- أرجو أن تقدم لنا بعض المعلومات ليتسنى لنا رسم الخطة بأحكام .
- تحت أمرك .
- كم شخصا يستطيع الحمار حمله وهو خارج ؟
وبدا على الرجل أنه لا يفهم :
- كم شخصا ؟ الحمار أمامكم ، اركبوه وجربوا قوته ، لقد قلتم لاشأن لى بالتفكير .

أنا شخصا لا أعرف كيف يمكن أن يخرج هذا الجمع مع هذا الحمار الهزيل أنتم تحتاجون إلى (ونش) وعدد كبير من « طواقى الإخفاء » لأن هذا العدد من الحرس ليس مصابا بالعمى .

- سنختفى داخل خزان الجاز .
- وكيف تدخلون فيه ؟ له فتحتان كما ترون ، واحدة بأعلى للملء ، وأخرى بأسفل للتفريغ ، وكلتاها لا تكفى أكثر من يد للدخول أو الخروج .
- اطمئن . لقد عملنا حسابا لكل شيء .
- أنا تحت أمركم .
وفجأة أعلنت حالة الطوارئ في المعتقل ، وغلقت الأبواب ، وصار الخروج والدخول بإذن بين الغرفات والعناير ، وقال واحد :
- لقد اكتشفوا خطتنا للهرب . ماذا سنفعل ؟
وضحكت ساخرا :

- اطمئن هذه خطة محكمة لن يصلوا إلى سرها أبداً .
وجاءت الأخبار فقد أمسكوا بصلاح الأنور ، وجاءوا به مخفورا
إلى المعتقل وهو في حالة صحية سيئة ، واستطعت أن اجتمع به
في غرفته الانفرادية بالمستشفى حيث كان يعالج ، وكانت
التعليمات أن لا يتصل به مخلوق ، يريدون أن تظل الأمور في أذهان
الناس طلاسماً وألغازاً ، فهم قوة هادرة قاهرة ظافرة ، وقد أمسكوا
بالهارب في بساطة ويسر .

وحكى لى صلاح الأنور ماجرى له :

خرج من المستشفى يمسك أسفل بطنه بيده ، وركب
(الأتوبيس) ، وسأله قاطع التذاكر :

إلى أين ؟

وكان لا يعرف شيئاً بطبيعة الحال فأجاب :

- آخر الخط .

وكانت الأتوبيسات وقتها تمكن الراكب من الجلوس في بعض
الأحيان ، وجلس صلاح الأنور بجوار النافذة يرقب الطرقات
والمارة في دهشة وانبهار ، ورأى ميدان رمسيس ومحطة السكة
الحديدية وهو معلم يذكره ولا ينساه ، وتجاوز الأتوبيس المكان
فخاف من الضياع فنزل عندما توقف الأتوبيس ، ورأى مسجداً كبيراً
في أول شارع شبرا ، وكان رجلاً قلبه معلق بالمسجد ، التي لم
يرها منذ كان غلاماً حدثاً ، فبعدها سجنوه ثم اعتقلوه ولم يعرف
من الأماكن غير العنابر والزنازين ومكاتب الإدارة حيث التحقيق
بالسياط . ودخل المسجد وأدى صلاة العصر ، ثم خرج متلهفاً
يشترى طعاماً وشيئاً من المضادات الحيوية للعلاج ، وعاد مرة ثانية
إلى المسجد ، وبقي فيه حتى أدى صلاة المغرب ، ثم غادره راكباً
أتوبيساً وهو يفكر في أهله وبيته يريد أن يراهم ولكنه كان يعرف
أن كلاب الصيد تنتشر حول البيت ، فعاد حزينا خائبا وانتابته نوبة

قئء فى (الأؤبئس) ، وفزع الناس فقد كانت الكولئرا منتشرة فى تلك الأيام . وأغمئى عله وحملوه إلى مستشفى القصر العئنى القرب ، وهناك قابلوه باهمال شديد وأفاق وسأل فعرف أين هو ، وخرج فزعا من المكان ، وعاد إلى المسجد الذى كان فىه بأول شبرا وكانت أبوابه قد أغلقت ، فقضى اللئل على عئته ، وعند الفجر دخل وتوضأ وأدى الصلاة ، وجلس يفكر فى تصاريف القدر . لم تكن فى رأسه فكرة محددة أو هدف واضح ، جاءته رغبته للهرب فجأة ونفذهها دون تمهيد ، وكان غاية أمله أن يظفر بشئء من الحرية ولو لساعات قلئل ، كان يعرف أن مصر المحروسة تعج بالحرس وأنها محروسة بالفعل ، وكان مريضا به جرح غائر يحتاج إلى عناية ، ولكن أمله فى الحرية ولو لساعات غطئ على كل تفكير ، وألغئ من رأسه كل حذر ، وصار منتهئ ما يريد أن يسير فى الأسواق ، ويأكل الطعام ، ويتصرف كيفما يشاء فى حدود الجنئهن اللذين فى حوزته ، وقد فعل .

انتهت نقوده ولم يبق معه إلا قروش لاتكفى إلا للعودة بصعوبة إلى المعتقل .

وبالفعل سأل عن الطريق إلى طره ودله أهل الخير ، وصار يركب تراما مرة ، ثم (أتوبئسا) مرة أخرى فالقطار من محطة باب اللوق ونزل فى محطة طره .

وصار يسأل الناس عن مكان المعتقل فهو لايعرفه إلا من الداخل ، ودله الناس وكان عله أن يسير عدة كيلو مترات ، وهو الجريح المريض المثل ، فكان يشير لعربات الشرطة والسجن حتى تحمله معها بلا فائدة !

وكان حول المنطقة بوابة كبيرة علهها الحرس والجنء يحملون البنادق الآلية والرشاشات الفتاكة ، وألقى علهم صلاح الأنور السلام ، وطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول فقالوا :

- لا بد من تصريح .
- وحاول أن يشرح :
- هذا للزيارة وأنا لست كذلك .
- وسأله الشاويش متhekما :
- وأنت تريد الدخول للإقامة ؟!
- وأجاب صلاح الأنور فى بساطة :
- بالضبط .
- وسأله الشاويش متhekما فى دهشة :
- تريد أن تدخل لتقيم فى المعتقل ؟!
- فى الحقيقة المسألة ليست هكذا بالضبط ، فى الواقع أنا أقيم فى المعتقل منذ سنوات عديدة ثم ، ثم
- ثم خرجت لتشم الهواء أو لتشتري بعض الأشياء أليس كذلك ؟

- كلا . فى الحقيقة لقد هربت من المعتقل ، ألم تسمعوا عن شخص اسمه صلاح الأنور قد هرب من المعتقل ؟
- وصار الشاويش يتأمله كمجنون ، وكان لم يسمع بهذه القصة :
- هربت من المعتقل ؟
- نعم .
- وهو يشير ناحية المعتقل الذى يقع بعيدا عند الأفق :
- هذا المعتقل ؟
- نعم . معتقل طره السياسى .
- وتعرف اسمه ؟

- ألم أقل لك أنا أقيم هناك .
- وبدت اللعبة مسلية للشاويش :
- كنت تقيم هناك لمدة وهربت .
- هذا صحيح .
- ولماذا عدت ؟

- من الطبيعي أن أعود . أين أذهب ؟ وأين أعيش ؟
وتأمل الشاويش قليلا ، ورأى وجهه الذى أرهقه الجرح الذى
بيطنه ، ورأى قذارة ملابسه ، فقد كان يرتدى جلبابا لم يغسل ،
ونعلا قديما باليا ، ويبدو فى هيئة الشحاذين بالإضافة إلى تصور
الشاويشية أنه مجنون ، وضرب الرجل يده فى جيبه وأخرج قطعة
من النقود وأعطاهما لصلاح الأنور وقال :

- اذهب يا بنى . ربنا يسهل لك !
وتعجب صلاح الأنور ، وامتلأ حيرة ، ولم يدر ماذا يفعل هو
يريد الدخول إلى المعتقل ليظفر ببعض الراحة من ذلك التعب
الشديد الذى يشعر به ولكن (الشاويش) يرفض أن يسمح له
بالدخول ، وانتحى ناحية ليفكر .

وتغيرت الوردية وجاء شاويش آخر وحدثت نفس القصة ودار
نفس الحوار تقريبا ، ولكن الشاويش الجديد كان أكثر غلظة من
سابقه فنهر صلاح الأنور بقسوة ورد عليه صلاح بشدة :

- إن لم تفعل ما أمرك به فسوف يعتقلونك ، حاول أن تفهم أنا
معتقل هارب وأريد العودة ، ولو بلغ الرؤساء هذا فقد يؤذونك .
وفكر الشاويش قليلا :

- معتقل هارب يريد العودة إلى المعتقل !! أمر لا يدخل عقلا !
- ماذا لو اتصلت بالمعتقل من هذا التليفون ؟ تطلب القائد عبد
العال بك .

وعاد الشاويش للتفكير من جديد :
- عبد العال بك هو قائد المعتقل بالفعل .
وأسرع إلى التليفون واتصل بالمعتقل .
- شخص يدعى صلاح الأنور يطلب الحديث مع عبد العال
بك .

وسمع الشاويش الإجابة على الطرف الآخر ، واصفر وجهه ،
وألقى بالسماعة ، ونادى بأعلى صوته يجمع الجند ، وهو يمسك
بصلاح الأنور المسكين !

- حرس سلاح .
 واجتمع الجند من كل حذب وصوب ، وأمسكوا بصلاح الأنور
وطرحوه أرضاً وهو جريح ينزف ونسوا أنه قد جاء بنفسه .
وماهى إلا ساعة وكانت سيارة تقطع الطريق وهى ترفع عويلها ،
ومن خلفها سيارة أخرى بها صلاح الأنور وقد قيدت يده ورجلاه
بالحديد وبجواره عبد العال سلومة يسبه سبا قبيحا :

- يا ابن الكلب . ظننت أننا لانمسك بك ؟ عيوننا يقظة ، ونحن
نهيمن على البلد .

- ياسيدى القائد لقد جئت بنفسى إلى المعتقل .
وتتوالى عليه اللكمات والرفسات من الجند الذين يمسكون به
فى العربة التى يقودها عبد العال بك بنفسه .

وأمام حسن طلعت مدير المباحث العامة ، وأحد حماة حمى
الزعيم وقف صلاح أنور يحكى له حكايته وحسن طلعت يقاطعه :
- أريد أن أعرف لماذا هربت ؟

- حتى أقف أمامك وأعرض عليك مشكلة الإخوان المسلمين .

وبصوت كالرعد يرد عليه حسن طلعت :

- لا يوجد شيء اسمه الإخوان .

ويرد عليه صلاح الأنور وهو ييلع ريقه :

- أقصد مشكلة المعتقلين .

- ياسيادة مدير المباحث كل من فى المعتقل مظلوم ويستحق

الرحمة من هذا الحبس الطويل ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، وهو
يسهل مهمة العدو فى القضاء علينا .

- اسكت يا كلب . هل جئت لتلقى علينا موعظة ؟ أنتم سبب هزيمتنا أمام اليهود .

أنتم الذين صنعتُم النكسة ، شغلتم بال الحكومة ، وأزعجتم الرئيس .

- نحن ياسيدى المدير ؟

- اسكت . هيا خذوه إلى المعتقل .

ويسرعون بجره إلى الخارج . وما إن يقتربوا من الباب حتى يستوقفهم المدير :

- انتظروا ، ماذا قلت عن اسمك ؟

- اسمى صلاح الدين عبد الخالق الأنور .

- سيكون اسمك بين المفرج عنهم فى الكشف القادم .

ويسأله صلاح الأنور فى فرحة :

- ومتى يكون ذلك ياسيادة المدير ؟

- هذا فى علم الغيب . هيا .

اشتدت الوطأة على المعتقلين بعد هرب صلاح الأنور وعودته ثانية ، وأسرفوا فى تفتيش الأطعمة التى تأتى فى الزيارات ، ومنع الرسائل الواردة والصادرة ، وتفتيش العنابر بحثا عن الممنوعات ، وكانت كثيرة ، فالممنوع فى المعتقلات والسجون شىء غير محدود ولا واضح ويمكن أن يندرج تحته أى شىء ، نعم أى شىء حتى الملابس ، ولا يبقى بعد أخذ الممنوعات غير البطانية الصوف ، والرداء الذى نرتديه ، والذى أخذناه عهدة من الدولة المضيفة ، وزاد الضيق والكرب بالناس ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، وابتل المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا .

ولم يكن هناك مانهرع إليه فى هذه المدلهمات غير الصلاة وقراءة القرآن .

وكان عبد العال مايكاد يصدق أن تأتيه إشارة يسيرة من المباحث حتى يعيث في المعتقل فسادا ، وكما قلت كانت له أساليبه وطرقه التي يضيق بها على الناس ويغيظهم ولو استطاع لقتلهم كما فعل في مذبحه طرة عام ١٩٥٧ ، وقد فعلها ثانية في طرة .

كان هناك أخ كريم من المسجونين الذين قضوا عشر سنين دون تأييد للحكومة في سجون مصر المختلفة ، وكما قلت هي طبقة من الطبقات ، أو هو باللغة الحديثة « كادر » إسلامي له أهميته الحركية الفائقة ، فهؤلاء هم الذين صمدوا أمام كافة وسائل الضغط الذي وصل إلى درجة القتل ، ورغم هذا لم يوقعوا ورقة ولو من الناحية الشكلية ، فقد كان صمودهم عظيما ، وكانوا يخيفون الحكومة بالفعل ، ولم يكونوا في درجة ثقافية واحدة فمنهم الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، ومنهم أستاذ الجامعة ، ولكنهم جميعا مؤمنون مسلمون ، أخذوا على أنفسهم واجبا واحدا محددا وهو الصمود أمام كافة ماتصنعه الحكومة لتبقى جماعة الإخوان المسلمين ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير ، وعندما دارت الأيام دورتها ، وبقي على حاله من بقي ، وتطرف من تطرف وزاد في عداوته لعبد الناصر فهو سبب كل مصيبة ، وهناك ذلك الأخ الكريم الذي فقد عقله في هذه الدياجي التي لأول لها ولا آخر ذلك هو الأخ (س . ب) .

صار يظن أن الناس جميعا قد خانوا الأمانة وضيعوا عهد الله وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ومن ثم لابد لهم أن يموتوا ، فهو يأتي بالأدوية السامة ثم يطحنها ويضعها للناس في الطعام ، وكثرت حالات القيء والإسهال ، وعرف كل المسجونين بهذه القصة بعد أن ذهب البعض ضحية لهذا ، ومضت أيام السجن وجاءت أيام المعتقل وجاءوا بالأخ (س . ب) والكل يعرف سره والإدارة كذلك ، ووضعوه مع الناس ، ولم يكن الأمر في أوله يخيف ،

فليس هناك مايمكن أن يحصل عليه ، ليس هناك شىء على الإطلاق ، ثم تطورت الأمور وانفتح المعتقل على الزيارات وكثرت الممنوعات ، ومن هنا ظهر خطر هذا الأخ المسكين واستفحل ، فهو يستطيع الحصول على مايريد من أدوية وسموم ، والمكان مفتوح ولاحراسة على أحد ، وطلب العقلاء من قائد المعتقل أن يعزل ذلك الأخ خوفا من خطره فقال باستهانة :

- ولماذا لا تنبهون وتأخذون حذرکم .

وكنا نقيم عليه نوبات للحراسة حتى لايدس سما فى طعام لأحد من الناس ، وكان البعض يظن أنها مبالغة ، فالرجل ودود حلو المعشر والكلام ، ولاتبدو عليه علامات الجنون ، ولكن من يعرفه يؤكد ذلك ومن عاشوا معه فى السجن قبل المعتقل أكدوا لنا أن هناك من مات بسببه ، وهو غير مسئول عما يفعله فقد ذهب عقله ، ومن ثم فهو معذور .

ووطدت علاقتى به أنا والمهندس أحمد أسامة الهضيبي ، واستراح إلينا ، وقص علينا مايرى من آراء ، وكيف خان الجميع وغدروا ، وصرح لنا أن علينا واجبا مقدسا لامندوحة من أذائه وهو تطهير الأرض من هذه الأرجاس التى تشوه وجهها .

وقلت له لأسبر غوره :

- ولكن . لعل الإخوان المسلمين يختلفون عن غيرهم ؟

وقال فى صوت كالفحيح :

- هؤلاء كانت فى أيديهم الفرصة كاملة للقضاء على عبد الناصر وضيعوها بحجة أنهم لا يريدون إراقة دماء ، انظر كم من دماء أريق فى هذا السبيل ، لو كانوا قد تخلصوا من عبد الناصر لتغير حال مصر والعرب والمسلمين . هؤلاء هم أئمة الكفر ويجب أن نبداً بهم .

وتظاهروا بالافتناع وقال له المهندس أحمد اسامة الهضيبي :
- ولكنهم جميعا يشكون فى أنك تضع السم لهم ، ومن ثم
فهم يحذرونك .
وبدت عليه الحيرة :
- وما العمل ؟
فقلت له :
- الرأى أن ترسم أنت لنا الخطة ونقوم نحن على تنفيذها .
وبدا عليه الافتناع الكامل :
هذا كلام معقول جدا .
وكان يأتينا بدواء مسحوق لاندري كنهه فعدمه ، ونخبره أننا
قد وضعنا السم لفلان ، وتمضى الأيام ويسألنا :
- لم يمت الرجل .
وأكدنا له أننا وضعنا له المسحوق ولا نفهم تفسيراً لعدم موته ،
ويعطينا من جديد ، ونفس الإجابة ، وأذهب إلى القائد عبد العال
واسأله باسم الإنسانية أن يعزل ذلك الأخ المسكين الذى ذهب
عقله ، ويضحك عبد العال سلومة ويقول بوضوح :
- وجوده يثير الذعر بين الناس ، ولعلنا نستفيد منه يوماً ما .
وأعجب ، هل إلى هذا الحد تجرد الرجل من كل مشاعر
الرحمة .
وكان الأخ (س . ب) شديد الذكاء فبدأ يشك فينا فقلت له :
- انهم يستخدمون السحر فى التخلص من السم .
وأصر وقال :
- سوف أفعل بنفسى ما فشلتهم فيه .

وصار يعد الطعام الجيد الفاخر ويضع فيه مايصل إليه من سموم ،
وكان يدبر موت الشيخ محمد عبد الفتاح عارف ، فكان يصنع
الطعام الشهى ونحذره بلا فائدة ، وفى ليلة بات يتقيأ طوال الليل
وعمل له غسيل لمعدته ونجا من الموت .

وجاء الأخ أحمد نصير عليه رحمة الله يخبرني أنه يسعى إليه
ليدعوه إلى طعامه ويسألني الرأي وقلت له :

- وهل هناك رأى ؟ لاتذهب .
- أنتم تبالغون فى الأمر . الرجل طيب ومسكين .
- هو طيب ومسكين ولكن عقله قد ذهب ، وهو يعمل على
موت الجميع .
- سوف أذهب إلى طعامه .
- وقلت له محذرا :
- لاتفعل أرجوك .

وذهب المرحوم أحمد نصير إلى طعام الأخ (س . ب)
وتناوله ، وهناك من قال إنهم رأوه يتردد على عبد العال سلومة ،
ومأسهل إغراء مجنون وساءت أحوال أحمد نصير ، ولم يفهم أحد
ماذا أصابه ، وعجز الأطباء فى التشخيص ، ونقل إلى القصر العيني
حيث المعتقل الذى هناك ، وقال من كان معه :

- عندما حانت منيته قال : لقد وضعوا لى السم ، فعلها
عبد العال سلومة ، ولما سألوه كيف قال لهم :

- انصتوا هل تسمعون الأذان ؟ رددوا معى . الله أكبر الله
أكبر .. وظل يردد الأذان الذى لا يسمعه سواه حتى فاضت روحه !
وجاء الخبر إلى المعتقل وأقيم المأتم . وكان (س . ب)
يضحك فى جنون ، ويقذف بأشيائه هنا وهناك وهو يصرخ بأعلى
صوته .

- قد نجحت . الحمد لله .
وصار يقولها حتى انهيار من التعب مغشيا عليه .

صدق جميع نبوءات محمد قطب عما تفعله الصهيونية وأمريكا
بالعالم ، والعالم الإسلامى بوجه خاص ، كان يحكى لنا ما يكون

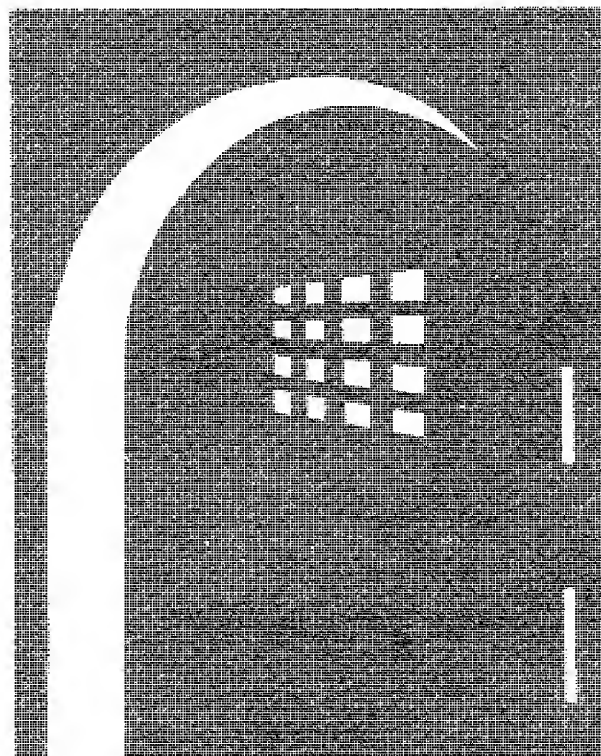
ونحن فى أبى زعبل ، وجئنا إلى طرة فوجدنا ماكان يقوله صحيحا ،
وحكى لنا فى طرة ، ماوجدناه حقيقيا بعد ذلك ، وكأن الرجل كان
يقراً من كتاب مفتوح .

وكان فكره متشعبا له آراء كلية فى الكون والحياة والإنسان ،
وتفسيرات تفصيلية لكل ما يحدث من تحركات سياسية ترسمها
أمريكا ووكالة الاستخبارات المركزية لينفذها الفراعين الصغار ،
فيحتفظون بكراسيهم ، وينفذون إرادة من يحمونهم ويحرسونهم ،
ثم يستغنون عنهم ويقذفون بهم فى غياهب النسيان أو المجهول ،
وكان يقول : أمريكا هى التى تحكم العالم ، وإسرائيل تحكم أمريكا
واليهود هم الذين يحركون القوى فى الاتجاه الذى يريدون ،
وتفصيلات مخططاتهم لايفهمها سواهم ، ولاملجأ من هذا كله
يكون إلا بالرجوع إلى الإسلام من جديد ، وأن تتجرد فى قولة
« لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، عندها يشرق فجر جديد ،
ونبصر آفاقا رحبية ، ويكون لنا مكان فى عالم الأقوياء ، ونحظى
بنصر الله ، وتبوأ المكانة التى نستحقها كمسلمين .

والحديث عن مهرجان الحرية والاعتقال فى معتقل طرة السياسى
طويل لاينتهى ، كيف تكونت الأفكار والتيارات الجديدة ، وكيف
كان الضغط والإرهاب سببا فى توجيه بعض العقول إلى منزلقات
التطرف ونتائجه ، ولكن لامناص من الانتهاء من الحديث عن معتقل
طرة السياسى .

الفصل الثاني والعشرون

محكمة التظلمات



وهي حكاية من الحكايات العجيبة والقصص الغريبة التي
حدثت لبعضنا أيام أن كنا هناك في المعتقل . وكنا أيامها في
معتقل طره السياسى ، بعد أن انتهت أيامنا في أبى زعبل ،
وغادرناه بعد هزيمة يونيو .

وكانت هناك ضغوط شعبية ومظاهرات طلابية تطالب
بالتغيير ، وهو مطلب غامض غريب .

تغيير من ؟

من يريدون تغييره ، لا يتغير إلا بالموت أو القتل ، وهما
شيئان في علم الله سبحانه وتعالى وحده .

المهم كان مطلبنا ساذجا انتشر بين الناس انتشار النار في
الهشيم ، وتظاهر الناس من أجل إعادة محاكمة قادة الطيران
في أثناء هزيمة يونيو؛ لأن العقوبة كانت خفيفة لا تتفق مع جلال
المصيبة التي حدثت والشئ الذى لم يعرفه الناس أن قادة
الطيران هؤلاء مساكين مظلومون ولا دخل لهم بهذه الهزيمة
المنكرة ، أو دورهم فيها ضعيف ، وأن المسئول عنها هو
السلطان ونائب السلطنة ، ولكن هذين فوق الشك ، ولا
يمكن لوطنى مخلص أن يمد إصبع الاتهام تجاههما .

وكان لابد من صدور عدة شائعات وقرارات جمهورية
حتى يمكن أن يستوعب النظام هول الهزيمة ، ويحكم قبضته
قوية من جديد ، على ذلك الشعب المسكين الذى بدأ في
التمرد .

كانت الشائعة القوية التى أطلقتها أجهزة المخابرات فى
ذلك الحين أن أربعة من كبار قادة الجيش يجبرون عبد الناصر
على البقاء فى الحكم حتى يزيل آثار العدوان .
إى والله ! هذا ما سمعناه فى ذلك الحين !

وصدر بيان ٣٠ مارس ، وألقاه علينا عبر الإذاعة . وكنا
نبتسم ضاحكين من الشعارات الطنانة العظيمة التي تضمنها
البيان الشهير . وكان الناس يظنون أن كل حرف تضمنه البيان
سوف يترجم إلى أعمال عظيمة تغير الحياة في مصر . وصار
الجميع يتوقعون عهدا من الحرية والانفراج .

أما نحن فقد كنا نداری ضحكائنا في أكمائنا من هذا
الشعب الطيب الذي اعتاد الكلام وأدمنه ، وعرف هذا جلادُه
منه ، فصار يقدمه له كل حين .

وامتلأت الصحف بالتعليقات على بيان ٣٠ مارس ،
وناقشته الندوات الأدبية والفكرية ، واجتمع القضاة في ناديهم
يتدارسونه والمهندسون والأطباء والمدرسون في نقاباتهم ،
وامتلأت البلد بالكلام تعليقا على الكلام .

ودار همس على استحياء عن المعتقلين المساكين في
معتقلات مصر واستجابت القيادة السياسية الحكيمة لهذا
الهمس ، فقد كانت تشعر بنبض الشارع ، كما كانت تدعى
في تلك الايام .

وصدر القرار الجمهوري رقم ١٥١٤ لسنة ١٩٦٨ وأنا
أكتب من الذاكرة وليس من مذكرات ، ويقضى هذا القرار
العجيب باعتقال المعتقلين الموجودين بمعتقل طره السياسي ،
ويمكنهم أن يتقدموا بطلب تظلم من قرار الاعتقال أمام
محكمة أمن الدولة العليا حيث توجد دائرة للنظر في تظلمات
المعتقلين . وأعلنوا بين المعتقلين :

من أراد الخروج فليكتب تظلما من اعتقاله الذي دام
سنوات . وأقسم قائد المعتقل بشرف الحكومة أن من يكتب
تظلما سوف يخرج ، وبطبيعة الحال لم نكن لنصدقه ،

فالإفراج عن معتقل لا يستدعيه أن يكتب تظلمًا من اعتقاله ،
ولكن عدم كتابة التظلم معناه أننا نعلن عدم الثقة في الحكومة
وفى شرفها ، ولم يكن هذا من الحكمة ، هكذا كان يظن
العض ، وكنت منهم ، وكان هناك فريق من المعتقلين لا
يكتبون أى شيء يقدم باسم أية جهة من جهات الحكومة ،
وأثبتت الأيام أنهم كانوا على حق ، وأنهم أفهم لطبيعتها منا
جميعا .

وأذكر أنني التقيت بالمرحوم شكرى مصطفى ، وقد
أعدهم السادات فيما بعد بتهمة قتل المرحوم الشيخ الذهبى ،
وقلت له :

— يا شكرى .. قائد المعتقل أقسم بخروج من يكتب
تظلمًا . ما قولك ؟ فأجابنى عليه رحمة الله ساخرا :

— إنهم قالوا وخير القول قول العارفين

مخطيء من ظن يوما أن للظالم دينا

ومشى إلى شجرته المعتادة ، حيث كان مجلسه لقراءة
القرآن . المهم تقدم الكثير بطلبات متظلمين من قرار
الاعتقال ، الذى مضى عليه سنوات ، والكل به أمل فى
«القشة» كما يفعل الغريق ، وكما قلت فإن العقلاء هم الذين
ازدروا الحكومة ولم يثقوا فيها ولا فى وعودها ، وأراحوا
أنفسهم من العناء الشديد .

وكانت نوعيات المعتقلين فى معتقل طره السياسى مختلفة
ومتباينة فمن المسلمين بمتطرفيهم ومعتدليهم إلى اليهود
بطائفيهم (القرائين) و(الربانيين) ، ثم القبط ، فشهدود يهود ،
فالشيعيين ، وبعض أهالى غزة وسينا ، وبعض رجال
الأحزاب التى كانت من الوفد والحزب الوطنى «ليس الحزب

الوطني الحالي ابن الاتحاد الاشتراكي وحزب مصر الذي مات أيام السادات» ومن لم تكن له تهمة واضحة المعالم كانوا يضعونه في غير سموه «النشاط المعادي» ، وكانت هناك أشكال وألوان من المعتقلين ، وكل من يحاكم في قضية ما ، ويحكم عليه بالبراءة يذهب إلى المعتقل ليقضى فترة ما بعد البراءة في ضيافة الحكومة الرشيدة بمعتقلاتها ذائعة الصيت .

وكان عهد الضرب والكي بالنيران قد انقضى ، وكانوا يسمحون بقدر من الحرية يسمح لكل هذه الفئات أن تلتقي ببعضها البعض ، ويتبادلوا الأفكار ، ويتصادقوا ، وقد يتشاجرون في بعض الأحيان ، ولكنهم في معظم الأحيان كانوا يتفاهمون ، ومن خلال الجدل تنشأ أفكار جديدة هذه هي سنة الحياة .

وصارت المجموعات تذهب إلى محكمة التظلمات تباعا يأتي البلاغ في المساء ، أن من حُددت أسماؤهم سوف يذهبون غدا إلى محكمة التظلمات ، ويبدأ المعتقل يعد ثيابه المدنية «المكرمشة» التي امتلأت برائحة النفثالين لزوم المحافظة عليها ، ويأتيه الزوار من العنابر الأخرى ، فهذا يوم من الأيام المشهوددة . وقد يجلس إلى بعض من يثق بهم يتداول معهم الأمر في جدية ، ماذا يقول للقاضي ، وما النقاط التي ينبغي عليه أن يثيرها ، والنقاط التي يهملها ولا يفتح الحديث عنها مع هيئة المحكمة . وكان بعض المعتقلين يهتم كثيرا بمثل هذه المداولات ، فقد كانوا يعرفون بموعد الجلسة قبلها بأيام ، بل يقدمون له اتهامات مكتوبا عليه أن يذهب به ويستطيع أن يعد دفاعا إذا رفض تظلمه ، أما عند المشول أمام المحكمة فلا يقبل غير الكلام الشفوي ، إجراءات تتسم بقلّة الحياء . وفي يوم من الأيام نادوا على وآخرين .

وكان موعد الذهاب إلى محكمة التظلمات .

وتسلمت خطابا من السيد «حسن طلعت» مدير مباحث
أمن الدولة .

— «وهو في خدمة الأمن السياسى من مايو ١٩٣٩ إلى
مايو ١٩٧١» — إلى السيد المحامى العام وهذا نصه :

السيد المحامى العام رئيس المكتب الفنى للتظلمات .

تحية

بشأن التظلم من اعتقال أحمد رائف والمقيد برقم ٣٠٢
لسنة ١٩٦٩ حصر عام تظلمات (اعتقال) نفيد سيادتكم
بالبينات الآتية :

١ — رقم وتاريخ صدور أمر الاعتقال .

١ — القرار ٢٧٣٥ لسنة ٦٥ بتاريخ ٨/٢٦/١٩٦٥

٢ — القرار ١٥١٤ لسنة ٦٨ بتاريخ ١٠/١٠/١٩٦٨

٢ — القانون الذى يستند إليه أمر الاعتقال .

١ — القرار ٢٧٣٥ لسنة ٦٥ استنادا للقانون ١١٩ لسنة ٦٤

٢ — القرار ١٥١٤ لسنة ٦٨ استنادا للقانون ١٦٢ لسنة ٥٨

٣ — الأسباب التى أنبأت بخطورته وأدت إلى اعتقاله :

١ — اعتقل عام ١٩٦٥ للتحقيق معه فى التحقيقات

الإخوانية — واعترف أنه يتعاطف مع أفكار جماعة

الإخوان المتعصبة والمناهضة لسياسة الدولة وأنه

اتصل بالشيخ عبد الفتاح عبده إسماعيل (حكم عليه

بالإعدام) الذى كان يردد أن مصر دولة غير إسلامية

ويجب التغيير بالقوة إلا أنه اعترض على ذلك وكون

وآخرون أسرا الإخوانية مستقلة بهم من سنة ١٩٦٠ إلى

سنة ١٩٦٤ واشترك فيها عدد كبير من أفراد
الجماعة .

٤ — هل يخشى من إتيانه أعمالاً ضد أمن الدولة تتعارض
مع المصالح القومية للبلاد في الوقت الحاضر ؟

الإجابة : مازال على أفكاره ومبادئه المناهضة لسياسة
الدولة ويخشى من الإفراج عنه حالياً ، وتنصح بعدم ذلك .

لواء
حسن طلعت

١٩٦٩/٣/٢٢

هذا هو نص الخطاب كما نقلته في ورقة احتفظت بها
كل تلك السنين التي مرت . والنص كما رأيتم ، حتى لا توجد
فيه تحية يختم بها الخطاب كالعادة . يعني عليك أن تؤيد
اعتقال من يحمل هذا الخطاب ، وهذا ما كان من جناب
القاضي بالضبط كما سأحكي لكم .

كانت فكرة الخروج من المعتقل ورؤية الشوارع والناس
والمركبات ، والحركة والنشاط فكرة رائعة تداعب مخيلتي
وانتظر اليوم الذي يسمح لي فيه بالخروج ولو لساعات قليلة ،
وكنا نتخيل المحكمة بمنظرها المهيّب ورئيسها وعضو اليمين
وعضو اليسار ، والأبهة والعظمة والعدل المفقود ، وسائر
هذه التصورات المليئة بالرؤى المبهرة والمزعجة في آن
واحد .

وتحدد يوم عرضنا على محكمة التظلمات وكنا خمسة
من المعتقلين على ذمة قضايا الإخوان المسلمين أذكر منهم
الاستاذ محمد فهيم راشد موجه اللغة العربية في التعليم

الثانوى ، وتسلمت عليه فكرة أيامها أن يكتب التماسات بالإفراج عن المعتقلين ويرسلها الى كل من يعرف ولا يعرف ، فبعد أن كتب المئات من التماسات إلى المسؤولين كبارا وصغارا ، صار يكتب إلى الصحفيين والفنانين ليوسطهم لدى الرئيس عبد الناصر ، وكان البعض يداعبه ويقول له لو كتبت التماسا إلى شادية المطربة فربما تستطيع بنفوذها التدخل لدى الكبار وإن لم يفرجوا عنا جميعا ، فسوف يفرجون عنك على أقل تقدير ، وكان الأستاذ فهم راشد يتحمس لمثل هذه الأفكار ويكتب لشادية ولنسجاة الصغيرة ولصباح ولسائر مغنيات مصر والعالم العربى لعل قلوبهن الرحيمة تتسع للتدخل فى الإنقاذ .

ولم تسفر كتاباته للمغنيات عن نتيجة ، وقيل له اكتب لراقصات مصر فهن بالتأكيد أكثر نفوذا ، وكان الرجل يدور على المعتقلين يسألهم عن اسم الراقصة التى يمكن أن تفتح أبواب المعتقل بين الضحكات والمداعبات ، والمرارة التى تغلف الكلمة والابتسامة ، فى حبس طويل مفتاحه فى يد سجان قاسر وخائن ، وقد أخذ على نفسه عهدا أن يفسد كل شيء ، وقد كان له ما أراد .

اجتمعنا فى زمرانة الشيخ عارف - حيث كان يقضى فترة حبس انفرادى للتأديب وكان كثيرا ما يذهب للتأديب - وجلسنا نتداول فيما ينبغي علينا قوله فى المحكمة غدا ، وكان محمد فهم راشد شديد التحمس للمحكمة ويظن أن فى يدها أمر الإفراج عنه ، أما نحن فقد اهتزت ثقتنا فى إمكانية هذا .

كانت قد مضت أسابيع على ذهاب مجموعات المعتقلين ، بملاحظة النتيجة وجدنا أن الذين كانوا يذهبون

إلى المحكمة كانوا يختارون بعناية من غير الإخوان المسلمين ، اثنين من غير الإخوان ، أو ثلاثة أحيانا ، ويستكمل الخمسة من الإخوان .

وتعود المجموعة المعروضة على المحكمة ، فيقبل تظلم غير الإخوان ، ويفرج عنهم بعد يومين أو ثلاثة ، ويطلب من الإخوان أن يتقدموا بذاكرة دفاع ، ويؤجل النظر في تظلم أى فرد من الإخوان حتى يفصل فى المذكرة ، وعرفنا بعد ذلك أنهم لا يفصلون فى شيء ، وينسى الأمر بعد حين

قريب .

وعرفنا أن القاضى يسأل المتظلم من غير الإخوان :

— ما هى طلباتك ؟

— الإفراج عني .

ويقبل تظلمه ويفرج عنه ، أما المتظلم من أفراد جماعة الإخوان فيقول له القاضى العادل النزيه :

— ما هو دفاعك ؟

ثم يتركه يقول أى كلام يشاء ، ثم يصرفونه فى هدوء إلى المعتقل بعد مذكرة بالدفاع ، يسلمها بعد ذلك إلى إدارة المعتقل ، والظن أنهم يلقون بها فى سلة المهملات ، فقد كان الإخوان غولا رهيبا يخشاه الزعيم الخالد ، ولايقبل أن يسرى عليهم شيء مما يسرى على غيرهم .

عرضنا هذه الامور على الأستاذ محمد فهميم راشد ، وصرنا نهز رءوسنا بين الشك واليقين ، وما ينبغى علينا فعله . وكانت لفهميم راشد مشكله حية لما يمض عليها يومان .

لعلكم فهمتم مما سبق أننا كنا نعيش فى المعتقل بعد سنوات التعذيب الأولى على حسابنا ، طعام المعتقل لا يصلح لاستخدام الآدميين ، وعلينا شراؤه من (كاتين) المعتقل ،

وكانوا يتاجرون فيه ويكسبون منا الكثير ، وكان الكثير ليست لديهم القدرة على شراء هذا الطعام ، وفي نفس الوقت بعضهم من كبار السن وأصحاب الأمراض المستعصية ، فكانوا يصرفون للقليل منهم غذاء طيبا ، وليس السبب الرحمة ، ولكنه الاتجار بهذا الغذاء الطيبى ، فيصرفون نصفه ويبيعون النصف الآخر ، وكان هذا الغذاء الطيبى مكوناً من قطعة لحم تصلح للاستخدام الآدمى وكوبا من اللبن وحبّة من فاكهة الموسم .

وكان الذى يقرر من يستحق هذا الغذاء الطيبى طبيب أمضى عمره فى العمل بالسجون والمعتقلات ، لا يعرف عن الطب أكثر من سماعة يضعها على صدر الذى يعذبونه فيسمع دقات القلب ، فيقول مازال يتحمل العذاب ، ميت الإحساس بليد الشعور ، فاقد الضمير ، اسمه (خليل) ولا داعى لإكمال اسمه حرصا على الوحدة الوطنية ، وكان هذا الطبيب يأتى يوم الجمعة ، ويعرض عليه أولئك المساكين أصحاب الغذاء الطيبى ، فيؤيد الغذاء لبعضهم ، ويلغى البعض الآخر من قوائم الذين يستفيدون من هذه الميزة التى لامتعى لها لولا الزمن الصعب ، وكانوا يسمونه (يوم العرض) ، وكان الشيخ عارف يدعو فى صلاته « اللهم لاتخذلنا يوم العرض على خليل » .

وتأيد رفض الأستاذ فهميم راشد عدة أسابيع ، وكانت بالفعل مشكلة تؤرقه وتهدد تهديدا حقيقيا ، والطبيب الجبان لايهتم بهذا .

وتكلم فهميم راشد فى زنزانة الشيخ عارف الانفرادية وقال :

- لقد تكلمت مع كل رجال القانون فى المعتقل وعلى

رأسهم الأستاذ شمس الشناوى والدكتور عبد الله رشوان
والأستاذ عبد القادر حلمى وغيرهم وأكدوا أن نشاط الإخوان
المسلمين شرعى وسليم ، وليس هناك نص قانونى يحرمه ،
ومن هنا تكون حجتنا أمام محكمة التظلمات .

ويضحك الشيخ عارف ملء شذقيه :

— «نقول طور يقول احلبوه» يافهمم لايوجد قانون فى مصر ،
بعد كل هذه السنين لم تفهم هذا ؟ أنا أشير عليك بشيء
هام .

ويبتبه فهمم راشد :

— وما هو ؟

ويعتدل الشيخ عارف فى جلسته .

— عندما تذهب غدا إلى محكمة التظلمات انس موضوع
الاعتقال .

ويمتلىء وجه فهمم راشد بالدهشة :

— وفيم أتكلم إذن ؟

— تكلم عن الغذاء الطبى ، واطلب من القاضى أن يصرف
لك الغذاء بحكم المحكمة وهى أكبر من (خليل)
بالتأكيد .

وخيم الوجوم على وجه فهمم راشد ، بينما تعالت
ضحكاتنا غير العابثة فى سكون الليل .

جاء الصباح بعد ليلة ساهرة ، حلقنا فيها ذقوننا ، وارتدينا
ملابسنا المدنية وخلعناها عشرات المرات ، سعادة وجورا
برؤية الشارع المرتقبة ، وتوافدنا إلى مبنى الإدارة ، وكان يقع
على بعد مائة متر من عنبر اثنين حيث كان الخطر من الإخوان
فى زعمهم ، وسار معنا جمع غفير من المعتقلين ، بين ناصح
بما ينبغى علينا أن نقول ، أو ساخر من نتيجة ماسوف يكون ،

أومهنىء بتلك الرحلة التى جاءت على غير انتظار عبر شوارع
القاهرة التى جثم على صدرها شىء هو أعظم هولا وخطرا
من الكابوس .

وضعوا القيود الحديدية فى أيدينا وأركبونا سيارة
الترحيلات بين حراسة متجهمه غبية ، وضابط سمين كذكر
الخنزير يجلس مغمض العينين معتمدا على الجند والحراسة
والمخبرين .

وانقطعت ضحكاتنا وتوقف الكلام عندما غادرت السيارة
فناء المعتقل الى الخارج ، واعترانا الذهول ورؤية النيل
والشوارع والعربات ، وملأ الأسى وجوهنا ، وغرق كل منا
فى أفكاره ، ولف السيارة صمت عميق . وفى منطقة «جاردن
سيتى» انفجر إطار السيارة فأوقفونا فى مكان ، وكانت هناك
سيارة جيب مزودة بأجهزة اللاسلكى تسير فى مقدمة
الركب التى سرعان ما اتصلت بمكان ما وجاءت قوة من
العسكر أحاطت بالسيارة أنزلونا حتى يتم استبدال الإطار .
ومازلت أفكر إلى اليوم لماذا لم يأتوا بسيارة أخرى بدلا من
هذا اللورى المحمل بالعسكر ، ألم يكن هذا أسهل وأيسر ؟
ولا أدري لماذا تذكرت فى هذه اللحظات هزيمة يونيو
والجيش الذى شرد فى سيناء ولم يعد منه أحد . لم يكن
التفكير من طبيعة النظام فى تلك الأيام . استبدلوا إطار السيارة
تحت الحراسة المكثفة ، وبعض المارة يرقبون المتظر فى
دهشة واستغراب ، ويشيرون بأيديهم من أنتم ؟ ونحن نجيب
بابتسامة باهتة غامضة مريرة .

واصلت السيارة رحلتها حتى وصلنا دار القضاء العالى .
وتهيأنا للمثول أمام محكمة أمن الدولة العليا للنظر فى
تظلمات المعتقلين .

اسم كبير عظيم يوحى بالأفكار الكثيرة ، من يكون هؤلاء الناس ؟ وكيف يفكرون ؟ وكيف ينظرون إلينا ؟ وما رأيهم فى الضياع الذى اجتاح مصر صباح الخامس من يونيو ؟ ووقفنا أمام باب القاعة غارقين فى التفكير ، وفى أيدينا القيود الحديدية ، وحولنا حرس شديد وشهْب ، وجلس ذلك النقيب السمين على مقعد خشبى قريب وأغلق عينيه وربما نام ، ومر عقيد من ضباط الشرطة للتفتيش ولمح فى أعيننا نظرات الازدراء ، فوقف قليلا وعيناه تتقلان بين وجوهنا القيود الحديدية ، واتسمت نظرتة بعدم الرضا وأصدر أمره :

— ارفعوا هذه القيود الحديدية أين الضابط المسئول ؟
واتفضل النقيب من نومه وهو يلقي التحية :
— تمام يا أفندم .

وأشار له بيده ورفعت القيود ، ودخلنا إلى المحكمة اثنين اثنين وكنت مع الأستاذ محمد فهمي راشد .

وكانوا قد أخذوا الورقة الموجهة من حسن طلعت مدير المباحث إلى القاضى ووضعوها أمامه ، وصار يتظاهر أنه يقرأها باهتمام ، وكنت أتأمل المكان والأشخاص ، لم تكن قاعة محكمة مثل التى نراها فى الأفلام ، كانت منضدة كبيرة قد جلس عليها سبعة أشخاص ، رئيس المحكمة الذى عرفناه من تصدره للمجلس ومن قراءته للأوراق بين يديه ، ومن الوهلة الأولى تدرك أنه ليس قاضيا ، ولا ينبغى له أن يكون ، له صلعة خفيفة ، وشارب قد رسم بعناية فوق شفثيه كأنه من صنع (ماكبير) ماهر ، ووجه شاحب غامض التعبير ، لا يعانى من قلق ما ، ومن حوله أشخاص قد اعتادوا هذا الموقف ، فكانوا يتحدثون فى أمور بصوت خافت ، وواضح من شكل وجوههم وطريقة حديثهم ، أنها أمور لاعلاقة لها بالموقف .

وكان واحد أو اثنان من الجالسين من ضباط مباحث أمن الدولة قد سبق أن رأياهما في معتقل ما وفي موقف ما مر منذ سنين ، وكان هذان الضابطان ينظران إلينا بتشف وسخرية وقسوة وهمس إليّ فهمم راشد :
— هذا الضابط أعرفه .

ولم أرد عليه فقد كنت منشغلا بالمشاهدة والتأمل .
ورفع القاضي غير التزيه وجهه إليّ ، وربما لم يكن قاضيا وقال موجها كلامه إليّ :

- ماهو دفاعك ؟

وكان يهز الورقة في يده ويشير بها .
وفهمت أنه الاعتقال الطويل وأن استنتاجاتنا كلها صحيحة ،
والتفت إليّ فهمم راشد فوجدت وجهه وقد غشاه هم وغم عظيمان ، وابتسمت .
وقال القاضي :

— أهنك ما يدعو إلى الابتسام ؟

— هل ترى غير ذلك ؟

واربد وجهه وقال :

- هذه محكمة لها قدسيته وهذا تصرف غير مقبول .

— ابتسامتي تصرف غير مقبول أم اعتقالي كل هذه السنين دون سبب ؟

- ادخل في الموضوع مباشرة . هل عندك دفاع عن اعتقالك ؟

— سيدى القاضي . أنت قاض هذه الورقة في يدك لا معنى لها . ولو كان هناك سبب جدى لاعتقالي لسجنوني ، فقد أعدم من لم يفعل شيئا ، وعندنا فى المعتقل قضاة مثلك ، وهم فى سلم القضاء أعلى منك رتبة ومركزا ، وقد يأتيتك

بعضهم بعد أيام وفى يده مثل هذه الورقة ، وقد يأتون بك شخصيا إلى المعتقل وتعود إلى نفس هذا المكان يوما ما وفى يدك ورقة مثلها ، فلا تغضب ربك وترض الناس وحاول أن تنظر بجديده إلى موقفك وأن تحسن التصرف .

— هل عندك شىء آخر ؟

— كلا .

وانتفت إلى الاستاذ فهيم راشد الذى كان قد أدرك الموقف .

— وأنت ؟

ولم يلتفت فهيم راشد إلى القاضى بل وجه كلامه إلى ضابط المباحث الذى حضر الجلسة وكان يعرفه :

— سيدى أنت تعرف أننى رجل على المعاش ، وهو مبلغ لا يكفى أسرتى ، فالأسعار غالية كما تعرف .
وتدخل القاضى فى حدة :

— وجه كلامك لى أنا . أنا رئيس المحكمة .

وصار فهيم راشد يوزع حديثه بين القاضى وبين ضابط

المباحث :

— ظروف الأسرة لاتسمح بإرسال مبلغ من المال كل شهر لأشترى به طعاما من (الكاتين) وهذه هى المشكلة .

واهتمت المحكمة بهذا الحديث غير المفهوم ، وتبادلوا الهمسات ثم تكلم القاضى :

— ما الذى تريد قوله ؟

وتشجع فهيم وقال :

— أنا أتكلم عن (الغذاء الطبى) الذى منعه (خليل) .

وظن القاضى أن الرجل به لومة فأشار إلى واحد بجانبه وهمس إليه فأجلسوا الأستاذ فهيم راشد وقال القاضى :

— بهدوء . ما الذى تريد قوله ؟

وحكى لهم فهيم قصة (الغذاء الطبى) وضرورته له وكيف

منعه (خليل) ويطلب من المحكمة أن تتدخل مشكورة ،
وترفع هذا الاختصاص من (خليل) على الأقل بالنسبة للأستاذ
فهيم راشد .

وقال القاضي ونظرة أسيفة مرت عبر وجهه للحظة أو
تكاد :

— والاعتقال ألم تكتب تظلما منه وجئت إلى هنا من أجل
ذلك ؟

وايتسم فهيم راشد :

— لقد كانت خدعة منى حتى أصل إلى جنابكم وأحصل على
الغذاء الطبي بأمر من محكمة أمن الدولة العليا .

— هذا خارج عن اختصاصنا .

— لا تستطيع الإفراج عنى فلا أقل من أن توصى بعلاجى .

وعدنا إلى المعتقل وفى الطريق كدنا نموت من الضحك
من عبث ما رأيناه فى دار القضاء العالى .

كانت محكمة التظلمات أول ما بدأت لم تنتهج نهجا
محددا واضحا ، ثم تبلورت تجاربها إلى سؤالين محددين .
ماهو دفاعك ؟ أو ماهى طلباتك ؟ وعلى ضوءها يتقرر
المصير . وعندما عدنا من محكمة التظلمات جلس إلينا كثير
من رجال القانون المعتقلين الذين يأملون فى نجاح المحكمة
ويشجعون الناس فى التقدم إليها بطلبات التظلم ، وحكى
للدكتور عبد الله رشوان ولأستاذ شمس الشناوى ماحدث
فقالا لابد من كتابة مذكرة رداً على التهم ونحن لم نخسر
شيئا ، وبطبيعة الحال لن نخسر شيئا ، وكانا مشكورين
وغيرهما من رجال القانون يشرحان النقاط التى ينبغى أن
تتضمن فى كل مذكرة من هذا النوع ونكتبها ونعرضها عليهم
للتصويب والتصحيح .

وكان نص مذكرة الدفاع كالتالى :

محكمة أمن الدولة العليا

مذكرة

بدفاع أحمد رائف (متظلم)

ضد

وزير الداخلية بصفته

فى التظلم رقم ٣٢ لسنة ٦٩ المحددة

لتقديم المذكرة والمرافعة فيها

جلسة ٢٨ يوليو سنة ١٩٦٩

الطلبات

يطلب المتظلم صدور الحكم بإلغاء قرار الاعتقال والإفراج

عنه

الموضوع

نوجز تفصيل المسألة فى النقاط الآتية :

أولا : عدم جدية الاتهامات المقدمة من المباحث العامة
والتي أخذتها النيابة نقلاً عنها دون ماتصرف من جانبها :

١ — قد نسبت المباحث العامة فى قضية لمتظلم آخر
أمورا أكثر بكثير مما نسبته إالى ، ومع ذلك فقد أفرجت عن
المتظلم ، الأمر الذى يحدونا إلى وجوب عدم التعويل إطلاقا
على ماتذكره المباحث العامة فى الأوراق التى تسطرها
وتقدمها للقضاء .

٢ — فالاستاذ سمير حمزة المحامى صاحب قضية
المتظلم رقم ٩١ ج سنة ١٩٦٩ نظرت دعواه أمام ذات
المحكمة بجلسة ١٩٦٩/٤/٢٠ وتأجلت الدعوى لجلسة
١٩٦٩/٥/١٠ لتقديم ملفه وبين الجلستين أفرج عن المتظلم

وقضى بجلسة ١٠/٥/١٩٦٩ بانهاء التظلم للإفراج عن المتظلم .

٣ - وقد تم إفراج المباحث العامة عن الأستاذ سمير محمود حمزة المحامى رغم اتهامه من قبلها بالعمل التخريبي ضد الوطن مع عناصر أجنبية فضلا عن عمله لقلب نظام الحكم وهو العامل الذى يشترك كل أفراد الشعب المصرى فيه .

٤ - وقد جاء فى مذكرة المباحث العامة عن الأستاذ سمير حمزة المحامى والمودعة فى ملف تظلمه الذى نرجو الرجوع إليه ما يأتى :
نرى استمرار اعتقاله لأن فى الإفراج عنه خطورة على أمن الدولة للأسباب الآتية :

● ينتمى إلى حركة القوميين العرب وأصبح من قادتها فى الجمهورية العربية المتحدة (كان هذا هو اسم مصر زمان) .

● بالرغم مما ادعته الحركة بتجميد نشاطها بين المصريين فى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٣ إلا انه ظل على اتصال بقيادة الجناح الماركسى لهذه الحركة فى الخارج ويتلقى منهم توجيهات لتنفيذ مخططاتهم التخريبية داخل الجمهورية .

● وتنفيذا لهذا المخطط فقد استغل المذكور مركزه فى اللجنة المركزية لمنظمات الشباب باعتباره أمينا مساعدا لها فى العمل على تنظيم سرى داخل المنظمة يلتزم بالماركسية وكان يرأس هذا التنظيم والتقى أعضاؤه فكريا على أن القيادة السياسية فى الجمهورية غير قادرة على السير بالبلاد فى الطريق الاشتراكى الصحيح ، وأنه يجب أن تحل محلها قيادة جديدة ، وعملوا على استقطاب العناصر الصالحة من أعضاء

منظمات الاتحاد الاشتراكي، وخصوصا منظمة الشباب وتتقيفهم بالثقافة الماركسية ، ورفع هذه العناصر وإعطائها مسئوليات قيادية ، وتصعيدها إلى المراكز العليا بتنظيمات الاتحاد الاشتراكي حتى تصل إلى مواقع السلطة والسيطرة ويتحقق هدف التنظيم إلى قلب نظام الحكم .

● اعتقل لهذا النشاط في ١٩٦٦/١٠/٤ وفصل من عضوية الاتحاد الاشتراكي كل هذه التهم التي وجهت للأستاذ سمير محمود حمزة المحامي من واقع ورقة الاتهام التي مثل بها بين يديكم ، وقبل أن تفصل محكمة أمن الدولة العليا التي تشرف برئاستكم في قضية اعتقاله أفرجت عنه مباحث أمن الدولة ، بعد أن نسبت إليه هذه التهم الواضح خطورتها ، ألا يعتبر هذا دليلا على عدم جدية الاتهامات ، لأنه لايفترض في جهاز أمن الدولة أنه يفرط في أمن الحكومة ، وهو الغرض الذي أنشئ الجهاز من أجله .

أما كان من الأولى والأجدر أن تفرج عني — لو كان الأمر أمر عدل ولكنه ليس كذلك — علما بأن الاتهامات التي مثلت بها أمامكم بالورقة إياها ليس فيها اتهامات تذكر قياسا على ماوجهته إلى الأستاذ سمير حمزة المحامي .

٥ — ثم يأتي بعد ذلك دور السيدين سليمان موسى سالم صباح وعامر عميرة موسى صباح وقد اتهمتهما المباحث العامة بالتجسس لحساب إسرائيل ورفضت محكمتكم الموقرة طلب تظلمهما من أمر الاعتقال بتاريخ ١٩٦٩/٥/١٨ ، وهذا أيضا ينهض دليلا على أن التهم التي وجهت إليهما لم تكن ذات طابع جدى ، وإلا لما كان في مقدور مباحث أمن الدولة أن تفرج عنهما وهما في نظرها وطبقا لأوراقهما الرسمية يعملان لحساب إسرائيل ، وإلا كان في ذلك أبلغ الضرر بمصلحة الوطن ، والمفروض في مباحث أمن الدولة أنها تحافظ على أمن الجمهورية وسلامتها ، فهل

تعمل مباحث أمن الدولة لحساب إسرائيل ، لاشك أن هذا غير صحيح فإذا أحسنا الظن فإن جهاز مباحث أمن الدولة يعيث بكم وبنا وبكل مصالح الوطن العليا ، أو لديهم توجيهات يعجز عقلنا عن فهمها . ونربأ بكم أن تكونوا عوناً لهم في تخريب البلاد في أيام خُرْجه من تاريخها .

ثانياً : الأسباب التي أنبأت بخطورتى وأدت إلى اعتقالى :

١ - وناقش كلام مباحث أمن الدولة الذى جاء فى مذكرتهم .

تقول المذكرة «إنه يتعاطف مع أفكار جماعة الإخوان المسلمين المتعصبة والمناهضة لسياسة الدولة» وإن صح هذا فهو ليس عيباً ولا يشكل جريمة فى القانون الذى يحكمكم . بالإضافة إلى أنها ذكرت التعاطف ولم تذكر الانتماء إلى الجماعة ، وإلا كنت حوكت وصدر ضدى حكم بالسجن كما حدث مع الكثير .

٢ - ودليل آخر من نفس مذكرة أمن الدولة ينفى تهمة التعاطف ويددعها فى الهواء فقد قالت المذكرة فى فترة لاحقة «وأنه اتصل بالشيخ عبد الفتاح عبده إسماعيل (حكم عليه بالإعدام) الذى كان يردد أن مصر دولة غير إسلامية ويجب التغيير بالقوة إلا أنه اعترض على ذلك» .

فإذا كان فكر الإخوان المسلمين ممثلاً فى كلام الشيخ عبد الفتاح إسماعيل فعبارة مباحث أمن الدولة واضحة (إلا أنه اعترض على ذلك) .

٣ - تقول المذكرة الصادرة من مباحث أمن الدولة بعد ذلك (وكون وآخرون أسرا إخوانية مستقلة بهم من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٤ واشترك فيها عدد كبير من أفراد الجماعة) وهو كلام واضح التناقض وبطلانه هين وبسير

ويتبينه أى قارىء ، فكيف لانتهمنى مباحث أمن الدولة بالانتماء إلى الجماعة ، بل تنفى هذا ، ثم تتهمنى بتكوين أسر إخوانية ، فكيف يستقيم هذا ؟

فلما هو واضح ومعروف أن (أسراً إخوانية) عبارة عن مجموعات تكونها جماعة الإخوان المسلمين ، وتتبع فى النهاية إلى المرشد العام للإخوان المسلمين ، وتنتهج هذه الأسر بمنهج الإخوان فى الفكر والتثقيف والحركة . ولما نفت المباحث العلاقة بينى وبين مسئولى الإخوان ، فهى تنفى بالتالى الصلة التنظيمية .

٤ - والمباحث تقول إننى اعترضت على تغيير الحكم بالقوة فى أول المذكرة وتقول فى آخرها إنه أنشأ أسراً إخوانية تهدف تغيير الحكم بالقوة وكأن الذى كتب أول المذكرة شخص يختلف عن الذى كتب آخرها .

٥ - ورد فى مذكرة مباحث أمن الدولة أن هذه الأسر تكونت من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٤ وهناك حقيقة تقول إننى قد اعتقلت فى ٢٥/٨/١٩٦٥ وينتج عن هذا تساؤل ، ما هو مصير هذه الأسر بعد عام ١٩٦٤ ؟ ولم تذكر مباحث أمن الدولة شيئاً عن هذه النقطة .

٦ - كل هذا يؤكد عدم جدية الاتهامات المذكورة فى خطاب السيد حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة .

ثالثاً :- هل يخشى من إتيانى اعمالاً ضد أمن الدولة تتعارض مع المصالح القومية للبلاد فى الوقت الحاضر ؟ وتجب مذكرة مباحث أمن الدولة . « مازال على أفكاره ومبادئه المناهضة لسياسة الدولة ويخشى من الإفراج عنه حالياً » .

١ — تبين مما سبق عرضه في المذكرة ، حسب صياغة مباحث أمن الدولة ، أنني لم أكن منضمًا في جماعة الإخوان المسلمين قبل اعتقالى ، وأننى عارضت فكرة تغيير نظام الحكم بالقوة ، وقد بينت للمحكمة الموقرة فساد زعم المباحث أن التشكيلات التى نسب إلى تكوينها لم تكن تابعة لتنظيم الإخوان المسلمين وإلا فلماذا لم أقدم للمحاكمة مثل غيرى .

٢ — ومن صيغة التساؤل الذى ورد فى مذكرة مباحث أمن الدولة نفهم أن كل إنسان معرض لأن يأتى أفعالاً ضد أمن الدولة تتعارض مع المصالح القومية للبلاد وأن هناك احتمالاً لأن يسلك هذا السلوك .

فإن كان الأمر على هذا النحو ، فهل يكون من المنطقى درءاً لهذا الخطر المظنون أن نقوم باعتقال أفراد الشعب جميعاً ؟ لاحتمالات غير مؤيدة بدليل أو شبهة ما . أظن أن هذا ينافى المنطق والعدل وطبيعة الأشياء ، وربما ضد أمن الدولة وسلامتها .

٣ — وتقول المذكرة ذاتها أنني ما زلت مصراً على أفكارى المناهضة لسياسة الدولة ونفس المذكرة تنفى موافقتى على تغيير نظام الحكم بالقوة . وأرجو مراجعة المذكرة .

رابعاً : عدم توافر دليل قانونى ضدى :

١ — ليس من العدل وليس من الأمن ، أمن الدولة وسلامتها ، أن تقبض المباحث على شخص أمن مطمئن فى بيته ثم ترسله إلى المعتقل ويحدث له ما يحدث من تعذيب وتنكيل وبعد أربع سنوات ترسله بقصاصة من الورق مكتوب فيها بعض الاتهامات التى يناقض بعضها بعضاً إلى محكمة أمن الدولة العليا — والمعتقل هنا أمانة فى عنقها — وتطلب من

المحكمة ان توافق على استمرار اعتقال هذا البريء !
٢ - وليس تجاوزا إن طلبت من المحكمة الموقرة أن
تطلع على الملف الخاص بي ، وعلى أوراق التحقيق الذي
أجرى معي ، ونظرة واحدة إلى هذا الملف وإلى أوراق
التحقيق تكفي للحكم ببطالان ماتقدم ذكره من كلام
المباحث .

خامسا : تضارب ادعاءات المباحث :

قد بنيت وشرحت للسيد المستشار رئيس المحكمة
ولحضررات المستشارين أعضاء المحكمة ما في الادعاءات من
تضارب وتعارض ، ولا يمكن أن يكون هناك حق متضارب
متعارض على هذه الصورة إلا أن يكون ضرباً من الهوى
والتلفيق والافتراء على الناس بغير حق .

سادسا : عدم جواز التعويل على الاتهامات العامة :

فلتغفر لي المحكمة الموقرة إذ أقرر لها أنني لا أفهم في
القانون ، ولكني أتكلم بما يعتدل في نفسي من أحاسيس ،
فيخيل لي أن روح القانون والقواعد العامة التي وضعها الفقهاء
والمشرعون لاتوافق على جواز التعويل على الاتهامات العامة
التي تلقى جزافا ضد الأفراد دون دليل أو برهان أو حتى شبهة
مثل ما هو قائم في حالتنا هذه .

سابعا : ماذا يتوقع مني عند الإفراج عني وخروجي من المعتقل ؟

لكي أجيب على هذا السؤال أطلب من المحكمة الموقرة
أن تفسح صدرها لكي استطرد قليلا فأشرح لها بعض ماوقع
لي في المعتقل ، ومن خلاله يمكن أن نتصور السلوك الذي
يمكن أن أسلكه مستقبلا .

منهج صلاح نصر مدير المخابرات السابق

وهو منهج تخريبي الغرض منه تخريب نفسية المواطن والقضاء على المصريين ذهنيا ومعنويا ، وقد طبق على وعلى غيرى أثناء جولتى فى معتقلات الجمهورية العربية المتحدة المختلفة طيلة السنوات الأربعة الماضية ، وقد ذكره بتفصيله فى كتابه (الحرب النفسية) واسمحوا لى أن اتقدم لحضراتكم بتلخيص دقيق لما جاء فى الفصل الثانى من الجزء الثانى تحت عنوان :

اصطلاح جديد . غسيل المخ

«ويمكن أن نطلق هذه العبارة على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفرد الإنسانى أو العمل الإنسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد إرادته وعقله» .

«وتختلف الأساليب المتبعة فى تقويم الفكر تبعا للظروف وتبعا للجماعة التى تكون هدفا لهذا التقويم ، ولكن الأصول الأساسية واحدة متماثلة فى كل الحالات فهى تهدف إلى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة الاجتماعية والجسمانية للفرد لإثبات أن الأفكار الفردية غير صحيحة ويجب أن تتغير ، كما تهدف إلى تنمية الطاعة والإخلاص لعقيدة معينة» .

«وللسيطرة على بيئة الشخص الاجتماعية تبذل كل محاولة لتحطيم ولاءه لأى فرد أو جماعة خارجة ، ونقل هذا الولاء إلى جهة أخرى بعد ذلك ، ومن الأساليب التى تتبع لتحقيق هذه الغاية ما يأتى :

١ - عزل الشخص عن الحياة العامة : وذلك بأن يزوج بالفرد وراء الأسوار بعيدا عن كل معارفه القدامى ، وعن كل مصادر المعلومات ، وصور الحياة العادية ، دون أن توجه له أية اتهامات ، فيشعر الفرد بأنه قد أصبح وحيدا فى هذا

العالم ، كما يصبح فريسة سهلة للتقلبات والوساوس ،
والتحذيرات المفزعة .

٢ - الضغط الجسماني : وهو يتفاوت من التجويع
والحرمان من النوم إلى التصفيد بالأغلال والتعذيب وما إلى
ذلك .. والهدف من هذا كله هو الوصول بالفرد إلى درجة
من الإعياء والانهيار بحيث يكون عقله قابلا لتقبل أى توجيه ،
والاعتراف بما اقترف وما لم يعترف .

٣ - التهديدات وأعمال العنف : ويتخذ هذا الأسلوب
شكلين متناقضين ، فإما أن يكون مباشرا كاستخدام العنف
والضرب والركل لدرجة الإشراف على الموت ، وإما أن
يكون التهديد والعنف بشكل غير مباشر كان يستجوب
بمنطق هادئ للغاية فى الوقت الذى يسمع فيه صراخ زميل
له فى الغرفة المجاورة .

٤ - الإذلال والضعفوط : تعتمد هذه الوسيلة على اتباع
كل نظم السجن التى تتطلب الخضوع التام مع الإذلال فى
أسلوب تناول الطعام والنوم والاغتسال وما إلى هذا طبقا لنظم
محددة فى جو مفعم بعبارات السب والتوبيخ ، والإيحاء
باستخدام أساليب التملق والمداهنة ، وذلك عن طريق الأفراد
الأكثر تقدما .

٥ - الدروس الجماعية : وتأخذ هذه الدروس شكل
قراءات أو محاضرات تتبعها أسئلة ليثبت كل فرد هضمه
للدراستات التى يتلقاها ، ومناقشات يعيد فيها الفرد تقييم
ماضيه من وجهة نظر الأفكار الجديدة وممارسة النقد الذاتى ،
والنقد المتبادل الذى يصل أحيانا إلى درجة التشهير .

انتهى التلخيص بدقة ، ويمكن الرجوع إلى التفاصيل في الجزء الثاني الباب الثاني من كتاب صلاح نصر «الحرب النفسية» .

هذا هو المنهج الذى طبق على جميع المعتقلين وزيادة على ذلك ، وأما عن ضرره النفساني والعقلي والجسماني فأتترك لحضراتكم تصوره .

ماحدث لى شخصيا خلاف ماتقدم

أثناء وجودى بمعتقل القلعة فى الفترة ما بين ١٩٦٥/٨/٢٥ ، ١٩٦٥/٨/٢٨ ، ثلاثة أيام فقط ، أخرجت من الزنزانة عاريا ومعى أربعة آخرون من المعتقلين ، وسلمنا نحن الخمسة للمعذبين ، وظلوا يضربونا بالتناوب ثلاثة أيام كاملة دون نوم ، حتى فارق واحد منا الحياة ، ولحقه آخرا فى يومين على التوالى ، ولم أكن أستجوب فى هذا الوقت ، ولم أكن أسأل عن شىء حينذاك .

ويمكن لحضراتكم أن تتخيلوا الاستجواب الذى تم بعد ذلك .

شاهدت عددا من المعتقلين فى السجن الحربى يفقدون أبصارهم وأطرافهم من التعذيب ، ورأيت النساء يجلدن بالسياط ، وكذلك الأطفال دون السابعة . رأيت الآباء يضربون أبناءهم ، والأبناء يجلدون آباءهم ، أمام سمع ونظر السادة المحققين وبأمرهم بحثا عن أشياء لا يعرفها أحد . ورأيت أكثر من ذلك يا حضرات المستشارين أتعفف عن ذكره حتى لا أسيثكم بذكره .

ماذا يتصور من شخص مر بكل هذا أن يفعل بعد أن يخرج من هذه الأماكن إن قدر له الخروج ؟
أتترك لحضراتكم الإجابة .

ما أرجوه من المحكمة

لا أتوقع من حضراتكم الموافقة أو الرضى على فعل هذا مع أى مواطن مصرى أو غير مصرى مهما كانت جريمته ، ناهيك عن الأبرياء ، ولا يمكن للمحكمة الموقرة أن تتخذ أداة لتحقيق أهداف المباحث العامة الشيطانية من سحق المواطنين والقضاء عليهم .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر شيئا هاما .

نحن نعرف أن كل هذه الأعمال الرهيبة التى اتخذت معنا لاعلم للسيد رئيس الجمهورية بها ، فإن القاصى والدانى يقول عنه إنه رحيم وشفيق وصاحب قلب كبير جدا ، ولا شك أنهم يفعلون هذا من خلف ظهره ، وعندما يعلم بهذا فى مستقبل الأيام سيعاقبهم عقابا شديدا كما فعل بالضبط مع حكومة شمس بدران ، التى كانت تحكم مصر من وراء ظهره — حفظه الله — وقد علمتنا حكمة الأيام أن الباغى تدور عليه الدوائر .

وأنيّه حضراتكم — لو أذنتم لى — أنه مخطط خبيث الغرض منه هو القضاء على سمعة القضاء المصرى بأن يزج به فى هذه المؤامرة القذرة ليستصدر قرارات بالموافقة على استمرار اعتقال الأبرياء فتضيع سمعته إلى الأبد .

وإني أذكر المحكمة أنني إذ أقف أمامها متظلما من قرار
اعتقالي مدافعا عن نفسي فإن المحكمة نفسها — هيئتكم
الموقرة — تنعقد لها في نفس الوقت محاكم ثلاث
لمحاسبتها :

الأولى : محكمه الله سبحانه وتعالى ويصدر حكمها يوم
القيامة في حيثيات لاتغادر صغيرة ولا كبيرة ، وهو حكم لا
استئناف فيه ، ولا نقض أو إبرام .

الثانية : محكمة ضمائركم ، ولاشك أنكم تتمتعون
بضمائر مرهفة .

الثالثة : محكمة التاريخ التي لاتهمل حكما ، وأحكامها
باقية على مر العصور ولاشك أنكم تعرفون أن إبراهيم
الهلباوى المدعى العام فى قضية دنشواى قد أصبح اسمه
علما على الخيانة الوطنية لاستجابته إلى مطالب المحتلين
الفاصين من الإنجليز . والتاريخ لاينسى شيئا .

بناء عليه

أرجو الحكم بالإفراج عني .

التوقيع

أحمد رائف

صورة طبق الأصل

وقمت بتسليم نسخة من المذكرة إلى قائد المعتقل عبد
العال سلومة البرى وبعد عدة أسابيع جاءنى الخير بتأييد قرار
الاعتقال مع غيرى من المعتقلين فى قضايا الإخوان
المسلمين .

لم تأمر المحكمة الموقرة بالإفراج عن شخص واحد فقط
من الإخوان .

وبعد وقت وجيز لم يعد أحد يقبل الخروج للمثول أمام
هذه المحكمة ، وبعد وقت آخر نُسي الأمر وطوينا الصفحة .

كانت محكمة أمن الدولة العليا للنظر فى تظلمات
المعتقلين من العجائب التى رأيناها فى ذلك العصر ، محكمة
لها رئيس بدرجة مستشار ومعه عضو اليمين وعضو اليسار
وأمين السر وبعض ضباط المباحث واختلط الجالسون فلا
تعرف رجال القانون من رجال السوط وكأنهما شئ واحد ،
وتستطيع أن تميز القاضى من نظرتة القلقة المتلفته وأصابه
المرتعة التى تقلب ورقا بين يديه لا يفهم منه شئنا .

وقد بدأت هذه المحكمة دون تقاليد سابقة أو تعليمات
محددة لرئيسها فكان المسكين يجتهد فى أداء الدور ، وكان
يخرج فى أغلب الأحوال ركيكا مفككا ، وكأنه نص هزيل
لمسرحية فاشلة لمؤلف مغمور لم تجر عليها «بروفات» من
قبل .

قبض على على محمود صحفى بمكتب الاسوشيتد برس
فى القاهرة ، وحقق معه وحوكم بتهمة التخابر مع العدو
وصدر الحكم ببراءته ورحل من المحكمة إلى معتقل طره
السياسى فهو المكان الذى يودع فيه الأبرياء .

وجاء دوره في العرض على محكمة أمن الدولة العليا للنظر
في تظلمات المعتقلين .

وكان على محمود من أوائل من عرض على المحكمة ،
حيث لم تستقر التقاليد ولم تتضح طبيعة الأوامر والتعليمات .
ونظر إليه القاضي حائرا ثم قال :

- أنت متظلم من أمر اعتقالك ؟

- نعم .

- لماذا ؟

- لأنني لا أستحق الاعتقال ، وهو عقوبة غير محدودة
لتهمة غير واضحة المعالم .

وهرش القاضي في رأسه قليلا وبدت عليه علامات الحيرة
وتلفت يمينا وشمالا كأنه يستنجد بمن حوله ثم قال :
- وماهي تهمتك ؟

وفكر على محمود قليلا وهو يتأمل القاضي فقد كان السؤال
غريبا :

تهمتي أنني تخابرت مع العدو وقد حوكت بهذا السبب
وصدر الحكم ببراءتي وأظن أن الورقة أمام سيادتكم تفيد
هذا .

وقلب القاضي في الأوراق ورفع رأسه وهو يشير بيديه نفيا :
- لا . ليست هذه التهمة !

وازدادت حيرة على محمود فقد كانت الأسئلة على غير
مايتوقع ولكنه استدرك :

- نعم قد فهمت . التهمة هي الإساءة إلى شخص السيد
رئيس الجمهورية بمقالات أعدتها للنشر في بعض المجلات
الأجنبية ، وقد تم دفع هذه التهمة أثناء المحاكمة التي
برأتني ، فهناك فرق بين كتابة مقال يشتمل على تحليل سياسي

وعسكري للأوضاع المصرية ، وبين التخابر مع العدو والإساءة إلى شخص رئيس الجمهورية .

وغرق القاضي والمعتقل في حيرة شديدة ، وصار كل واحد ينظر إلى الآخر وهو لا يفهمه ، ولا يدرك لماذا يقفان أمام بعضهما على هذا النحو ، وبدأ على القاضي أنه يبحث عن كلام ، يفتش عنه فلا يجده ، وتخونه الحروف والألفاظ والكلمات وكأن غمامة قد غطت عقله ونفسه فهو لا يكاد يبين ، ثم فتح القاضي فمه أخيراً :

- لا . ليست هذه التهمة !

وفتح على محمود فمه عجباً ودهشة :

- لا أعرف تهماً أخرى .

وقال القاضي باصرار :

- عليك أن تخبرني .

ولم يستطع على محمود جواباً ولكنه قال :

- سيدي القاضي . عليك أن تواجهني باتهام ما لأدافع عن نفسي .

وكان يجلس على المنضدة أحد المشاركون في هذه المحاكمة الهزلية وهو شاب متأنق النظرة ، كأنما يريد أن يخلع جلد وجهه ليرفعه عالياً ، وكانت سيجارته الأمريكية يشعلها من (الولاعة) الفرنسية في ترفع واستعلاء ، وهو يرقب الحديث في احتقار بالغ لكل الموجودين ، وعندما وصل الحوار بين القاضي والمتهم إلى هذا الحد أطفأ سيجارته في عظمة وكبرياء ، ثم قام إلى القاضي الذي بدا عليه الارتباك وهمس في أذنه كلاماً ، هز القاضي رأسه عليه مؤمناً وموافقاً .

ثم تكلم القاضي موجه حديثه إلى على محمود :

- الحكم آخر الجلسة . اللي بعده .

وخرج على محمود من القاعة وقد وصلت به الحيرة مداها ، تهمة لا يعرفها ودفاع لم يسمح له به ، وقاض لا يملك

من أمر نفسه شيئاً ، ورجل متأنق هو كل شيء فى القاعة ،
يهمس ، فيعلن أن الحكم فى آخر الجلسة .

ودخل المعتقلون واحداً بعد الآخر ، ثم يخرجون
وضحكاتهم الساخرة تجلجل فى قاعة العدل الكبرى ، وعلى
محمود لا يستطيع أن يجاريهم فى ضحكهم ، كان الأمر فى
نظره مروعاً وعجيباً ويدعو إلى الغضب ، وهو غاية ما يستطيعه
وقد أمسكت بتلابيه هذه الآلة الضخمة المفزعة المليئة
بالأسرار والطلاسم .

وأعلن الحكم فى آخر الجلسة .

كان حكماً بالإفراج عنه .

ونفذ الحكم بعد ثلاثة أيام من معتقل طره السياسى .

ومازال سره لغزاً فى ضمير مصر ، بماذا همس الضابط
أو الرجل المتأنق ؟

لا أحد يعرف ، ماهى القواعد التى كانت تحكم هذه
اللعبة ، لا أحد يعرف . وهل يرضى قاض أن تهان كرامته
إلى هذا الحد ؟

وإن رضى وقبل ، ما هو الثمن المدفوع فى هذه الكرامة
المهدرة والمهانة البالغة ؟

وقف اسماعيل النشار من الإخوان المسلمين أمام
المحكمة الموقرة ، ولما استبان له الأمر صرخ فيهم :

— عرف القضاء المصرى بالنزاهة والعدل ، وكانت
صفحته بيضاء مشرفة ، ولم يخضع لأية قوة مهما كانت ،
بل كان ضميره هو الذى يملئ عليه قراره ، ولم تشب صفحته
النقية إلا محكمة دنشواى التى كانت فى ظل الاحتلال
الإنجليزى ، وكانت هى النقطة السوداء فى تاريخه ، وبعد
وجودكم سيكون فى تاريخه نقطتان سوداوان حكموا
ضمائركم قبل أن يكنسكم التاريخ .

واستمعت إليه المجموعة فى صمت وبلادة ونطق
القاضى :

— هل انتهيت ؟

وأجاب اسماعيل النشار :

— نعم .

واشعل القاضى سيجارة وهو يطوى الأوراق :

— التلى بعده .

واقفاد الحرس اسماعيل النشار إلى خارج القاعة ، وتأيد
أمر الاعتقال .

صور مختلفة ونماذج كثيرة متباينة وكلها تقول شيئا
واحدا ، قد هانت مصر على أبنائها ، والكل يعمل على
خرايبها ، انهزمت عسكريا فى حربها ، هزيمة هزت العالم
وكانت حديث الناس ، وأسباب الهزيمة ماضية لانزال تنخر
فى جذورها ، وتكاتف الجميع على الاستمرار فى طريق
الانزلاق ، الكرامة التى قال عنها الزعيم الخالد إنه قد خلقها

فينا ، لاوجود لها ، والناس يعاملون معاملة أقل ما توصف به
أنها غير آدمية .

وجاء فى يوم من الأيام السوداء رجل عظيم ومعه حاشية
وقالوا إنه رئيس نيابة جنوب القاهرة ليفتش على المعتقل
والمعتقلين ، وتجول الرجل وحاشيته وحولهم جمع غفير من
المعتقلين ، والحاشية ممسكة بأقلام وأوراق يسجلون ما يرون
من مهازل كأنهم يرونها للمرة الأولى ، وعلى وجوههم
أمارات الرثاء والجزع ، وقال رئيس النيابة بصوت سمعه
الجميع :

- لم أكن أظن أن هذا يحدث فى مصر . أعدكم أن ينتهى
هذا من الغد بمجرد وصولى فى الصباح إلى مكتبى .

وكان عبد العال سلومة قائد المعتقل يسير معنا فى هذه
المسيرة الساخرة عبر مبانى المعتقل ومرافقه ، ولم يكن يقول
شيئا فى هذا السير ، ولكن وجهه كان معبرا بكل معانى
السخرية من ذلك العظيم الذى يعيش فى مصر .

وانصرف الرجل وحاشيته مشيعين بالابتسامات الساخرة
من الجميع ، بينما هم فى حماسة شديدة ، أنهم سيقومون
بدور عظيم فى خدمة مصر والمصريين ، وإزالة هذه
الرواسب ، على حد تعبيره ، حتى تكون هناك آفاق جديدة
فى خدمة الوطن والقومية ، وفى ظل قيادة الرئيس جمال عبد
الناصر الحكيمة ، حفظه الله ، هكذا قال .

ولم نسمع عنه بعد ذلك أبدا حتى هذه اللحظة .

بعد محكمة التظلمات خرج جميع من بالمعتقل باستثناء
الإخوان المسلمين ، وأفراد لايتجاوزون الخمسة من الأقباط ،
وأربعة من اليهود ، أسلم واحد منهم وكان يصلى معنا ،

وكانوا - كما ذكرت من قبل - يطلقون عليه الأخ « محمد اليهودي » ، بعد أن غير اسمه من « شارل مزراحي » إلى محمد ، وبعد هذه السنوات الطويلة يبدو أن الرجل كان صادقاً في إسلامه . وتهيأ الإخوان لاعتقال طويل المدى .

وقد تأكد هذا المعنى في نفوسهم عندما أعلنت الصحافة في صفحاتها الأولى أن الرئيس جمال عبد الناصر سوف يلقي خطاباً تاريخياً هاماً ، وكانت كل الخطابات التي يلقيها الرئيس توصف بأنها خطابات تاريخية هامة . ولكن الوضع مختلف هذه المرة ويرجع الاختلاف إلى ظروف البلد المحتل من أرذل خلق الله وضياح الدولة ، واكتشاف أن الذين كانوا يحكمون كلهم سراق ولصوص ، هذا ماقرأناه في الصحف والمجلات المختلفة .

وفي الحقيقة أن المعتقلين كانوا ينظرون نظرة خاصة إلى مثل هذه الخطابات لحساسية وضعهم وموقفهم ، فهم رهن لاعتقال طويل ، في دولة لا يوجد بها رشيد . وكانت إدارة المعتقل تعلن على المعتقلين عن طريق مكبرات الصوت موعد إذاعة خطاب الرئيس ، ويتوتر الجميع ويستعدون للاستماع من باب الفضول والإيمان بالغيب المجهول ، ماذا يمكن أن يقوله هذا الرئيس على الناس ، بعد أن أضاع بتصرفاته جيش مصر بكافة أسلحته واحتل اليهود بلاده وبلاد العرب ، وأعلن في قوة أنه مسئول عن هذا ، وماذا تعني هذه المسؤولية ؟ ليس للمسئولية معنى غير الحساب والعقاب ، وكان الناس يتلقون اعترافه بالمسئولية عن هذا الضياع بالتصفيق الحاد والتهتاف الذي يجاوز عنان الفضاء .

بالروح بالدم نفديك يا جمال !
بسيئات التي ضاعت بطولها وعرضها نفديك يا جمال .
بالأسلحة التي تجاوز ثمنها عشرة آلاف مليون من

الدولارات والتي أخذها اليهود نفديك يا جمال .

بالجولان ، بالضفة الغربية ، بآلاف القتلى التي اختلطت
دمائهم برمال سيناء نفديك يا جمال .

بالكرامة المهذرة وبآلاف المسجونين نفديك يا جمال .

فليذهب كل شيء ولتبق بطلعتك البهية وبالوحي الذي
ينزل عليك ، بالفساد والإفساد في الأرض نفديك يا جمال .

فليأخذ اليهود كل شيء أموالنا وأرضنا ونساءنا وكرامتنا
ولتبق أنت حاكما لشعب من التعاج ، وهذا هو غاية مانريد ،
وهي الأمنية العزيزة فمكنا منها ، وتجاوز عن سيئاتنا ، فنحن
نعبدك وأنت إلهنا ، وليس للعبد أن يناقش إلهه الحساب .

هذا هو الموقف يوم خطاب الرئيس الأخير الذي لم
يخطب بعده أبدا . وبدأ الرئيس خطابه ، وتنقله كل مكبرات
الصوت في العنابر والزنازين ، والناس على رءوسهم الطير في
داخل السجن ، وفي السرايق الذي حضره رجاله وحشد
كبير .

ثم أعلن ولم يخجل من كذبه الذي يعرفه الكثير ، لا يوجد
في المعتقل أحد ، قد أفرجنا عن جميع المعتقلين .

وضجت الجماهير المسحورة بالتصفيق والهتاف .

ثم أردف .

بقيت فئة قليلة ، ضالة مضلة ، هم الجهاز السري للإخوان
المسلمين وهؤلاء لن يخرجوا من المعتقل مادمت حيا .

وضجت الجماهير المسحورة بالتصفيق والهتاف .

يصفقون للشيء ونقيضه في وقت لا يتجاوز الدقيقة من
الزمن الصعب وتلفتت الوجوه لترى التعبير على الأخرى ،

وكانت التعابير مزيجاً من المرارة واليأس والتحدى ، وبرقت
العيون بالقوة .

وكان يوماً من أيام المعتقل ، لم يكن المعتقلون من
الإخوان أكثر قوة منهم في هذا اليوم ، صارت القضية بين
يدى الله سبحانه وتعالى .

حاكم متغطرس قد داس بقدميه على كل شيء ، وأعلن
أنه رب البلاد والعباد ، وأن لانجاة منه ولامهرب .

وقد صدق في قوله هذه المرة ، فلم نخرج من المعتقل
إلا بعد أن مات وقد هلك بعد شهرين من هذا الخطاب .

وخرجت أول دفعة من الخمسائة المعتقلين المجتمعين
بطرة — ولم يكونوا مائتين كما قال — بعد الأربعين ، أربعين
الزعيم الخالد .

كان على واحد أن يموت ، إما مصر وإما الزعيم .

وكان اختيار الله سبحانه وتعالى وذهب الزعيم ، وصار
ذكرى مقبلة مريرة نراها في كل ما مر بالمسلمين والعرب
والمصريين من ويلات لاندري متى تنتهى .

انتهى الخطاب ، وسرت في الإخوان روح جديدة ، كان
البعض يمالئ السلطة من أجل الخلاص من هذا السجن
الرهيب ، ولما أعلن الزعيم عزمه على عدم الإفراج عن أحد
منهم ، برزت إرادة التحدى والاستهانة بكل ما يدور خلف
الأسوار في عالم التعاج والمسحورين .

بدأ الكل يهيب نفسه لاعتقال طويل ، وظهر الرضا
والراحة بقضاء الله ، ولكن لا أقل من احتقار سجانينا
وجلاديننا .

وكان هذا السلوك الجديد هو الذى فرض نفسه على نفوس الناس ، وبعد أن كانوا يسبون الحكومة سرا ، صار ذلك جهرا وفى كل مجلس وأمام أى مخلوق . واستفاق الناس .

وانتهى هذا الفصل من المهزلة بأن أعلنوا أن حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة قادم للاجتماع بالمعتقلين .

وجاء حسن طلعت ببذلته « الموهير » اللامعة وساعته الذهبية وقميصه الحريري ، وبخذاء « ساكسون » وجورب لعله اشتراه من المريخ فقد كان يجلس على كرسى أنيقا جميلا بهى الطلعة ، كأنه مصنوع فى مصنع ، وبدأ حديثا سقيما سخيفا ، تحدث فيه عن عظمة الإله - إلهه هو - الزعيم الذى لا يقهر ، وكيف نجاه الله من المهالك ، وكيف تغلب عليها وما زال يحكم ويأمر وينهى ويقتل ويحمى ويميت ويفعل بالعباد ما يشاء .

كنا جلوساً أمامه على الأرض بملايس الاعتقال المصنوعة من « الخيش » والكل مستغرق فى أفكاره وقال :

— تأمرتم عليه بنحريض من الاستعمار عام ١٩٥٤ فلم تفلحوا فجاء غزو سنة ١٩٥٦ لإنجاح ما فشلتم فيه ، ونجاه الله ، وتأمرتم عليه فى عام ١٩٦٥ ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو ١٩٦٧ لإنجاح ما فشلتم فيه ، ونجاه الله . ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لا يموت ؟

وتستم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف :
— سبحان الحى الذى لا يموت .

وقال حسن طلعت الذى سمع تمتته :

— ماذا تقول ؟

وانفجر الشيخ عارف :

— ألا تستحي أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذي تقوله ؟
واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم
بالتك بمن يتمرد ، وصوبت الرشاشات ، وكل من الجالسين
أعزل لا يحمل سلاحا إلا «شيشب» قديم مهترى يضعه في
رجليه ، ويصعب استخدامه في الضرب . وأشار حسن طلعت
إلى الحرس في شجاعة أن كفوا ، فكفوا واستأنف الشيخ
عارف كلامه :

— ظلمتم الإخوان عام ١٩٥٤ فعاقبكم الله عام ١٩٥٦ ،
وظلمتموهم في عام ١٩٦٥ فمسح الله بكم الأرض عام
١٩٦٧ ، وجعلكم سخرية العالم ، ولو كان عند الرئيس
كرامة لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص . ولو كان عندكم
إحساس ماقلتم هذا الكلام .

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاما
شبيها بهذا ، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنون قد تربعوا
الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى
ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء ، يرقبون مايدور ولا
تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون .
ثم قام إليه **شكري مصطفى** ووجه الكلام إليه كلاما سريعا
حاسما قاسيا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكي حديث
الصنع :

— أنت كافر . ورئيس جمهوريتك كافر . ولئن أحياني
الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالا شديدا . ولئن مت
فسوف يأتي من بعدنا من يقضى عليكم ويدبل دولتكم . ولئن
هربتم من عقابنا في الدنيا فلن ينجو أحد منكم يوم القيامة .

وامتلأت الوجوه بالاستحسان رغم أن أغلبية الموجودين
لا يدينون بهذا الفكر ولا يكفرون أحدا ، إلا أنهم سرورا
عظيما لوجود من يوجه هذا الكلام إلى الطاغية الصغير وفي

وجهه . لم يعد شيء يخيف لا السوط ولا البندقية ، ولا
الرشاشات أو الكي بالنار وصرير الأسنان في زنزانة المياه
المثلجة . بل شاب صغير ضعيف أعزل استطاع أن يوجه هذه
الكلمات النارية إلى حسن طلعت ، وما أدراك ما حسن طلعت
في ذلك الزمن البغيض

وبطبيعة الحال تحركت الرشاشات والتف الجند حول
شكري مصطفى ، بإشارة سيرة من مدير المباحث تركوه ،
وبدأ حسن طلعت كلاما مختلفا هذه المرة :

— لاشك أنكم فئة من المؤمنين المظلومين ، وأنتم
تقرعون القرآن ، وتعرفون أجر الصابر على البلاء ، وأن هذا
مما يكفر الذنوب ، وأنتم في محنة الله وحده الذي يعلم متى
تنتهي ، وأقسم لكم بالله العظيم غير حاث أنني أتمنى الإفراج
عنكم ، ولكن هذا ليس في وسعي ، ولا أعرف كل مايدور
في دهاليز السياسة ، هناك دواع عند رئيس الدولة تجعله
مصرأ على اعتقالكم ، ولو كان الأمر في يدي لأفريت
عنكم ، فأسألكم الصبر لتناولوا منزلة الصابرين يوم القيامة .

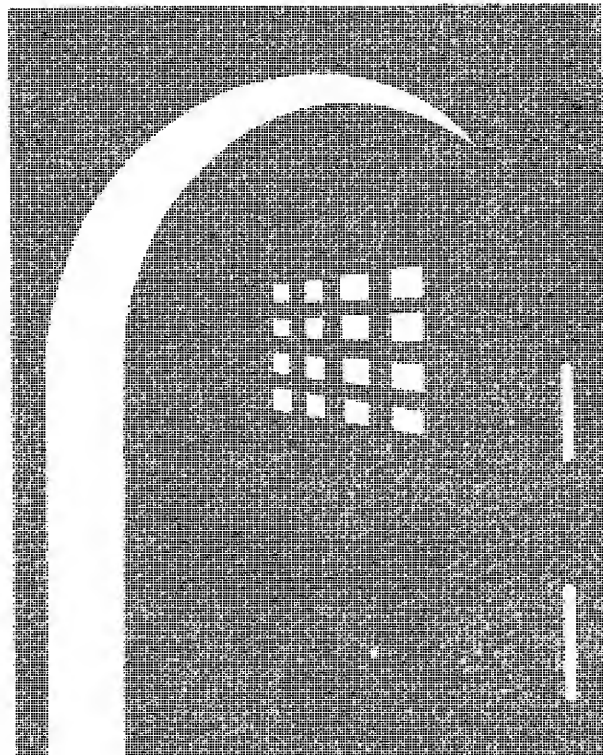
هناك ظروف ندعو الله أن تتغير فيصدر أمر الرئيس بالإفراج
عنكم ، ولعلكم لا تعرفونه ، فهو صاحب قلب كبير ويحب
الخير ، ويبحث عما يفيد شعبه ، ولكنه يعلم أمورا لانعلمها ،
وليس بيننا كلام بعد هذا ، وأوصيكم بالصبر ، والصبر
الجميل .

وقام الرجل إلى مبنى الإدارة وصحب معه شكري مصطفى
الذي غاب ساعات وأدخلنا الجند العنابر ، وكانت الأحاديث
أمامهم ، فكانوا يتكلمون معنا كلاما ودودا طيبا وقال واحد
من الشاوشية :

— يكفي أن مدير المباحث قد شهد لكم بالإيمان ،
وأقر أنكم مظلومون . وانطوت صفحة محكمة التظلمات ولم
يعد أحد يتكلم عنها إلا نادراً وتندراً .

الفصل الثالث والعشرون

موت الزعيم



كان الجو العام في معتقل طره السياسى عام ١٩٧٠ جوا ثقيلا
بغيضا ، فقد ملأ الضجر نفوس الناس مما يرون حولهم داخل
المعتقل ، وما يسمعون من أخبار عن الوطن ، وكيف ضاعت كرامة
البلاد في هزيمة ساحقة ، بعد سنين طويلة من النجاح في
ميكروفونات الإذاعة ، والطنطنة بأننا أقوى جيش في العالم ،
والشجع في الكلام ، والدعاوى العظيمة العريضة بالوصاية على
شعوب العالم الثالث . ثم جاء اليهود وأرونا مركز النابحين الحقيقي
في أقل من ست ساعات ، كل هذا كان يملؤنا بالحسرة والحزن
على هذا الوطن سيء الحظ .

وكنّا نقرأ الأخبار كل يوم في الصحف ، وكانوا قد سمحوا
لنا بالصحف بعد هذه السنين الطويلة من الاعتقال ، ونقرأ أخبار
الحرب والسياسة فيزداد ألمنا ، إسرائيل تضرب أهدافا عسكرية
وبترولية ومدنية ، كبارى ، ومصانع ومدارس ، ومصافي الزيت
وسماء مصر مفتوحة لطيرانهم وإذاعتنا ، ونحن نضرب في
الصحراء ، وقالوا إنهم فتحوا المدافع على طول الجبهة ، وهو طول
قناة السويس ، وأية أهداف نضرب ؟ ليس غير تلال من الرمل ،
وصحراء جرداء ، والعسكر اليهود يستحمون في مياه القتال
ضاحكين ساخرين من شعب فقدت حكومته عقلها ،
ثم يقبل الزعيم الملهم مبادرة روجرز ، وأصبح الصلح مع إسرائيل
على انفراد قاب قوسين أو أدنى ، ثم دنا فندلى فأوحى إلى الأردن
مأوحى ، واشتعلت النيران وحميت المعارك بين الأشقاء الفلسطينيين
والأردنيين ، والعالم يضحك والعدو قاهر وقادر ، ويعرف ضعفنا ،
أكثر مما نعرف ولعلنا لانعرف وهي مصيبة المصائب ، وزادت
أسعار السلع واشتد الغلاء ، وقمعت الحريات أكثر ، وارتفع شعار من
مصنع الشعارات الجاهزة « لاصوت يعلو فوق صوت المعركة »
وقالوا انتصرنا عليهم في يونيو عندما أرادوا تغيير القيادة السياسية ،
وسوف نتنصر عليهم بطردهم من سيناء .

واشتد بطش الحكومة وطغيانها ، ويأتينا معتقلون جدد مع كل
طلعة شمس ، أو كلما انتصف الليل ، وأغلبهم وطنيون مخلصون
يستحقون التقدير والإعجاب .

وتخرج الصحف وتصف صانع الهزيمة ، ومضيع الأرض بالزعيم
الخالد والرئيس الملهم ، وينزل الكوماندوز اليهودي ، ويقوم بفك
محطة للرادار ، محطة للرادار !! ويحملها على طائراته ويعود إلى
بلاده ، والعالم يضحك ، ونحن نصفق بإعجاب بسيادة الرئيس
الملهم ، واختلطت الأمور في الأذهان ، هل نحن مع اليهود أم
ضدّهم ؟ نسبهم ونلعنهم صباح مساء ، ثم نفعل كل مايقويهم ويشد
من عودهم ويقوى من دولة اغتصبوها ، ونجحنا في تحويلها إلى
أعظم دولة في المنطقة ، صاحبة الذراع الطويلة ، والشرطي الذي
يؤدب الجميع .

والرئيس يخطب والناس تصفق ، وصارت الأمور كسوق كبيرة
في بلد من الأرياف وبجانب السوق « مولد » لرجل دجال قدسه
الناس بعد موته .

وكانوا كثيرا مايفرجون عن المعتقلين من غير الإخوان
المسلمين . الأمر الذي كان يزيد الغيظ في نفوس الناس .

وكان المعتقلون من أتباع المشير عبد الحكيم عامر الذي قتل
أو انتحر في صراع السلطة يحكون لنا الحكايات الطويلة عن فظائع
كانت تحدث ، ويقصونها ليس من باب الاستنكار ، ولكن
كحكايات عادية ، قصوا عن الشقق التي كان يتخذها كبار رجال
السياسة والجيش : شقق لتدخين الحشيش وشرب الخمر واللعب
مع النسوان ، حكوا لنا كيف كانوا يستخدمون بعض الفنانات
للدعارة معهم ومع الضيوف ، ونحن نعجب من قولهم ، هل تدبر
حكومة بيوتا للدعارة والفسق ، وتشرف على أندية القمار ؟!

ويستوردون الحشيش والمخدرات الأخرى « ليتسلطن » القائمون على الأمر ، لو كانت هذه السلطنة تؤدي إلى النصر لما قبلنا فكيف الحال وقد أدت بهم إلى خراب أمة جاهدت أكثر من مائة عام ليكون لها وجود ودور ثم هاهي النتيجة مؤلمة ميكية محزنة .

رئيس دولة سرق الحكم في غفلة من شعبه الطيب ، ووعدهم بمستقبل مشرق ، وقال لا بد أن يكون لنا دور على المستوى العربي ، والأفريقي والإسلامي ، ومزق العرب ، وفتح أبواب التجارة بين أفريقيا وإسرائيل ، حيث صار لها النفوذ والوجود بقرارات مرتجلة عصبية حمقاء ، والبعض يقول إنها قرارات واعية متعمدة مدروسة ومقصودة ، وهو رجل ناجح يحقق مايريده في نجاح ، ومايريده عكس مايعلنه .

كان مع أعداء المسلمين ضد المسلمين ، ناصر الهند ضد الباكستان ، أرسل الأسلحة الفتاكة التي دفع ثمنها الشعب المصري إلى الأسقف « مكاريوس » ليبيد بها المسلمين في قبرص الإسلامية ، وأذكر مرة كنت في لقاء « دنكتاش » رئيس قبرص الإسلامية وأمر أحد مساعديه أن يذهب بي ليريني الأسلحة المصرية التي قتلت آلاف المسلمين القبارصة ، أسلحة لا تفتك بغير المسلمين ، وجيش لا يقوى على غير شعبه ، ورئيس يقول ما يشاء بالحق أو الباطل ، وليس أمامه من يقول له لا ، وكل من استطاع قولها تراه إما في العنابر أو المستشفى أو عنبر الملاحظة .

انتهى الناس من تأملاتهم في حزن ، وكانوا يجترونها في أحاديثهم ومناقشاتهم ، وقال الذين أوتوا العلم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا .

ضاع الأمل في خروج الناس من المعتقل البغيض ، الشعب لا يستطيع ، والحكومة لا تريد ، ونسى أمر المعتقلين حتى قائد المعتقل القاسي القلب صار يشعر بالملل هو الآخر ، ويترك المعتقل

فى إجازات كثيرة ، فالصورة ثابتة لاتتغير كثيرا ، وانتقل نشاطه قليلا إلى غير الإخوان ، يحذرهم وينبههم من خطر الإخوان ، وقال مرة لواحد :

- أعداء مصر صنفان إسرائيل من الخارج والإخوان المسلمون من الداخل .
مثل ماكان يكرره لنا حسن طلعت المدير الذى كرس نفسه لخدمة مايسمى بالأمن السياسى :

- حاولتم قتله عام ١٩٥٤ ففشلت فجاء الاستعمار فى عام ١٩٥٦ ليحقق ماعجزتم عنه ، وحاولتم قتله فى عام ١٩٦٥ وفشلت فجاء الاستعمار فى عام ١٩٦٧ ليحقق ماعجزتم عنه ، العناية تحرسه ولكنكم لاتفهمون ، وسوف تموتون بعد حين وينساكم الناس .
وكان الشيخ عارف الحكيم الساجر يرد عليه فى كلام كثير ذكرت بعضه فى الصفحات السابقة :

- افترى علينا فى عام ١٩٥٤ بعد أن مكناه فى الأرض ليحكم بالإسلام كما وعد فسلط الله عليه اليهود فى عام ١٩٥٦ ، وهو الذى استدعاهم بارتجاله وحمقه ، وكاد لنا فى عام ١٩٦٥ ليؤدب الشعب فسلط الله عليه عقله ومنطقه الذى جاء بالمدرعات اليهودية فى عام ١٩٦٧ ليفتضح كذبه ويظهر فساد المستبد ، والظالم له منطقته الذى يسويه بالأرض بعد حين .

كان المعتقل هو الرحم الكبيرة التى نضجت فيها كل المذاهب والتيارات ، والظلم يبيد الأمم ، حكمة قرأناها فى كتب المطالعة ونحن أطفال ، الاستبداد يمنع صاحب الرأى السديد من ذكر رأيه ، وكان هذا ماحدث فى مصر .

وكانت الأفكار تمور وتصطرع فى نفوس المعتقلين كل على حسب مايستوعب من دروس التاريخ وثقافة الأمم وتجاربها هذا من خلال الارتباط الإسلامى المستمر بالتراث وبالأصلين العظميين: الكتاب والسنة ، وظهر بين الناس من يقول إنهم كفرة والواجب

قتالهم وجهادهم ، والأصل في حياة المسلم هو طلب الشهادة ، فإن حصل عليها في أى موقع فهو الفائز .

وشجعتهم الحكومة على هذا ، وأذكى هذه الروح الفراعين الصغار ، وكان مهندسو الإرهاب الحكومى لا يعدمون وسيلة فى إذكاء العداوة ، وهى قائمة فى النفوس وليست فى حاجة إلى من يزيد من أوارها .

نادى شكرى مصطفى بأعلى صوته بضرورة جهاد الظالمين وحربهم والخروج عليهم ، ويجب أن يبحث المسلمون عن الشهادة فى سبيل الله ولو بين طرقات العنابر وظلمة الزنزانة ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وقال له العقلاء : الدولة فى عنفوانها وهى كالقطار السريع أو العاصفة المدمرة ، فلندعها تمر والقرآن الكريم يقرر ﴿ أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ وكان يرد بمرارة : لاصلاح بغير جهاد فى سبيل الله ولو حسن تصوركم لعلمتم أن الشهادة هى الباب الصعب إلى عالم الله الرحيب والآلاف يموتون فى الزلازل وفى البراكين أو على رمال سيناء فى صيف قانظ حيث تتكوم الجثث كالثلال ، ثم تهوى بها الريح فى مكان سحيق . والرصاص فى الصدور خير للإنسان من أن يأتيه فى ظهره وهو يولى . وكانت مناقشات ومحاورات .

نجحت فترة الاعتقال فى طرده أن تعدل من مفاهيم الناس ونظرتهم إلى واجبه الإسلامى المقدس ، وإن اختلفت الوسائل والطرق ، وأكدت لهم أن الله سبحانه وتعالى قد اختارهم على قدر ، وأنهم « ملح الأرض » كما يقول المسيح . واستعاد الناس حيويتهم ونشاطهم وعلموا أن المستقبل لهم ، وأن الناس ينتظرون جهادهم ليخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وأن الأجراس تدق مؤذنة بفجر الإسلام من جديد ، فى ساعة قد اشتدت فيها ظلمة الليل ، وعصر قد حكم

فيه الفجرة والكفرة وكل الطواغيت ، وعلى رأسهم المعهم اسما وأدناهم مكانة فى قائمة الرؤساء والزعماء ومن على شاكلتهم من الأدعياء .

استعد المعتقلون لاعتقال طويل ، لا يعرف أحد متى ينتهى ، فالمتسلط قد انعدم الحياء من نفسه ، وفقد النخوة والمروءة منذ زمن ليس بالقريب .

وكان البعض يؤكد أن الفرج قريب ، وهو آت لامحالة ، وأن سنوات فى عمر الأمم والشعوب لاتساوى شيئاً فى ميزان الآخرة والتاريخ .

وكان الأخ سعد - وقد نسيت بقية اسمه - يدور على العنابر والزنازين بقولته المشهورة المرححة :

- والله لتفرجن قبل أن نجن .

وكان المرحوم شكرى مصطفى يؤكد :

- والله إن كتب الله لى الخروج من هذا الجب لأقاتلهم قتالا ضروسا بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيدا .

وكنت أرى العزم فى نظره ، وتحرقه شوقا لحرب الظالمين والكفرة .

وبقية الناس يجترون أفكارهم فى صمت ويقرءون القرآن صباحا ومساء ، وقد توازنوا مع أنفسهم وبطل السحر ، وفقدت دورات « غسيل المخ » مفعولها .

واستدعى قائد المعتقل أحد المعتقلين يوما وهو يفعل ذلك بين الحين والآخر ، وكان هذا المعتقل أحد ضباط الشرطة الكبار فى الماضى وقال له القائد :

- مارأيك فى الحكومة ؟

ورد عليه الضابط القديم فى حدة وتهكم واستنكار :

- وما رأيك أنت ؟ والله إنك لقليل الحياء .
ويحتاج القائد ويغتاظ ويأمره بالعودة إلى العنبر ، ويخرج الضابط
الكبير وهو يرفع صوته :

- لاتستدعني إليك مرة أخرى .

أمن الناس بعضهم بعضا بعد أن ضاعت ثقتهم في بعضهم في
الأيام الخوالي . وكانت الإدارة لها أساليب عجيبة - كما قلت -
في الماضي فمثلا في أول أيام طره . وكانت هناك مكبرات صوت
تتصل بجميع العنابر ، والنفخ فيها يؤذن بخير سوف يعلن ، والخير
الأكبر الذي ينتظره جميع الناس هو الافراج ، وكان ذلك في وقت
التعتيم ، وعدم فتح العنابر ، ومنع التجول والاختلاط ، ويعلن عن
اسم من الأسماء المعروفة للناس ممن لهم مكانه وحضور ويطلب
منه الوقوف على باب العنبر حتى يأتي الشاويش ليفتح له لانه
مطلوب للإدارة كما يقول النداء .

ويذهب الرجل فيستقبله أحد الضباط ، ويكون هذا في العادة
بعد الظهر وقبل الليل ، ويسأل المعتقل :

- خيرا إن شاء الله .

ويطمئنه الضابط. ويقول له قائد المعتقل يريد أن يراك .

ويسأل المعتقل صاحب المكانة .

- وأين قائد المعتقل :

- اطمئن سوف يأتي بعد قليل .

وينتظر الرجل ساعات طويلة ، ويتململ ثم يعتذر له الضابط بأن
القائد قد اتصل تليفونيا واعتذر عن الحضور ويؤجل اللقاء إلى الغد .

ويعود المعتقل إلى العنبر فيجد جميع المعتقلين في قلق وتوتر
ويسألونه جميعا سؤالا واحدا :

- ماهي الأخبار ؟ لماذا طلبوك ؟

ويشعرون بخيبة الأمل عندما يقص عليهم القصة ، ويذهبون إلى النوم .
ويتكرر هذا الحادث عدة مرات بالتفاصيل نفسها حتى يرتاب الناس ولا يصدقوه . وآخر هذا التدريب يتم كالتالي :
يستدعى المعتقل ويقابله قائد المعتقل بالفعل ، ويقول له :
- مطلوب منك طلب إلى المصلحة التي تعمل بها بخصوص درجة متأخرة والطلب سوف يجعلهم يعطونها لك .

ويأمر أحد الضباط بإعطائه ورقة وقلمًا ويجلسه في غرفة من غرفات الإدارة بحيث يراه وهو يكتب أى إنسان قادم من عنبر المعتقلين ، ويستدعى غيره ، وفي هذه المرة يكون فى الاستدعاء أكثر من فرد ، فيمرون على ذلك الذى يكتب ، ويسرعون بهم إلى مكتب قائد المعتقل الذى يحاضرهم فى ضرورة التعاون فى الحكومة ، وكتابة التقارير عن سائر المعتقلين من أجل مستقبل مصر والعرب والمسلمين ، ويستمعون فى صمت أو احتجاج ثم يعودون من حيث أتوا .

وفى العنبر يسألون ذلك الذى كان يكتب :
- ماذا كنت تكتب ؟
ويحكى لهم القصة بالصدق . ومن يصدقه ؟
وتتوالى عليه التهمات والتهكمات ، وهو صاحب المكانة القديمة فى نفوس الناس .
- كل هذه الأيام وأنت تكتب الطلب ؟
- لولا أن رآك فلان وفلان لقلت لنا الرواية القديمة .
- ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .
وتتوالى الآيات والأحاديث :

(•) الكهف : الآية : ١٠٣ ، ١٠٤

- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) .

- قال رسول الله ﷺ : « أتدرون من الأحقق ذلك الذى باع آخرته بدنياه » .

- ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢) .

ذهب ذلك الجو الكتيب الرهيب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، وصاروا يفكرون فيما عليهم أن يعملوه لو قدر لهم خروج . وحدثت اجتماعات سرية فى مسجد مهجور بفناء المعتقل بين كافة الاتجاهات والتيارات تحت رعاية المرشد العام للتوحيد بين المذاهب والآراء .

وكلف الأستاذ محمد المأمون الهضيبي بكتابة بحث يُفند ويُناقش الآراء الحادة العنيفة التى ظهرت فى جو الإرهاب والضغط والتى تبناها الشباب ، وجلس إليهم العلماء والفقهاء ينورونهم ويصرونهم وارتفع شعار حسن الهضيبي العظيم :

- نحن دعاة لاقضاة .

وتلففته الأفواه ورددته فى أرجاء المعتقل . وقال القائلون :

- لا يجب أن نشغل أنفسنا فى الحكم على الناس ، بل يجب أن نشغل بدعوتهم وتبصيرهم بأمور دينهم ، والتجمع خير وأبقى من التفرق . ولنبحث فى النصوص على ما يشهد الهمم النائمة ، ويجعل إيمان الناس حيا فى نفوسهم ، ويفهمون دعوتنا ويعوها ويصبرون جندا فى صفوفنا .

وكان المؤمنون أصحاب النظرة المتفائلة يتوقعون الإفراج بين لحظة وأخرى ، والمؤمنون أصحاب النظرة المتشائمة يتوقعون اعتقالا طويلا ، ويشبهون الحال فى مصر كالحال فى روسيا

(١) سورة المجادلة : الآية : (٢٢) .

(٢) سورة الفرقان : الآية : (٢٣) .

الشيوعية ، ويقولون الحكومة فى مصر قد تكونت من عصابة من الناس صارت لهم مصالح ومكاسب ولن يفرطوا فيها أبدا .

وفى يوم من الأيام أعلنت الصحف أن « الزعيم الملهم » سيتحدث إلى الأمة بعد أيام ، وصارت الصحف تنشر كل يوم عن أهمية هذا الخطاب الخالد الذى لم يلق بعد ، كما كانت تفعل دائما مع كافة خطابه ، وقالت إن هذا الخطاب به حجم من الكلام المركز المفيد الذى يحل كافة المشكلات ، وقالوا إن الخطاب سيحرر سيناء والجولان والضفة الغربية لأن به كلاما جديدا غريبا سيكون له مفعول السحر .

وقال المتفائلون من المؤمنين :

- لقد أفاق ورجع إلى الله وسيصدر أمره بالإفراج عن المعتقلين .

والصحف توالى نشر أصداء الخطاب الذى لم يلق بعد ، ومما قالته : إن الرئيس جونسون قد قطع إجازته ليستمع إلى خطاب « الزعيم الملهم » . ويبدو أن الرئيس جونسون كان يقضى إجازته فى أحد الكواكب السيارة حيث لا إذاعة ولا تليفزيون ولا صحافة ، والناس تصدق وتصفق .

وجاء الموعد ، وتهيأ الناس ، وافترشوا المكان بجانب مكبرات الصوت ، وأرهف الجميع سمعهم قبل موعد الخطاب بساعتين . وتكلم « الزعيم الملهم » .

وكالعادة حكى للناس التعساء عن عظمتهم وقدرته وحسن إدراكه للأمور ، وأنه خير من يمشى على قدمين ، وأن الحكام قبله كلاب أولاد كلاب ، وهون من شأن الهزيمة وسخر من أولئك الذين لا يعطونها حقها ولا يضعونها فى حجمها الأمل ، وتكلم عن هزيمة فرنسا أمام الألمان ، وعن « دنكرك » وانسحاب البريطانيين ، وحكى قصة « بيرل هاربور » وكيف حطم الأسطول الأمريكى فى

ساعة ، وأن الدول العظيمة هي التي تهزم ، وكلما كانت الهزيمة منكرة كانت الدولة أعظم وأكبر ، وقال كفى حقدا وتظاولا على الثورة العظيمة التي خلقت مصر وغرست فيها العزة والكرامة ، والذين كانوا يستمعون إليه يقاطعون بالتصفيق والهتاف ، وكأنهم صم لا يسمعون .

كل هذا الكلام لم يكن يهم المعتقلين في قليل أو كثير ، كانوا يريدون شيئا عنهم ، كلاما يحدد مصيرهم ويحيى الأمل في نفوسهم .

ولم يخيب الزعيم رجاءهم .

وفي آخر الخطاب ، وقبل الانتهاء منه بقليل قال الآتي أو شيئا قريبا منه :

- يقولون في مصر معتقلات ، وهذا كذب وافتراء ، لا توجد في مصر معتقلات (تصفيق) . هناك قلة قليلة جدا (تصفيق) من الإخوان المسلمين (تصفيق) هم الجهاز السري للإخوان المسلمين (تصفيق) هؤلاء (تصفيق) لن يخرجوا (تصفيق) أبدا (تصفيق) من المعتقل (تصفيق) لأن معنى خروجهم هو عودة الإخوان من جديد (تصفيق) كل واحد منهم يستطيع أن يجمع حوله ألفا (تصفيق) وهم أقل من خمسمائة شخص (تصفيق) وأؤكد أنهم لن يخرجوا مادمت حيا (تصفيق طويل) .

وقام الناس من حول مكبرات الصوت ولم يسمعوا بقية الخطاب .

كان هذا آخر خطاب ألقاه « الزعيم » .

ازداد المؤمنون المتفائلون تفاؤلا وقال لى واحد منهم :

- والله إن خروجنا لو شيك وسوف ترى .

وازداد المؤمنون المتشائمون تشاؤما وقال واحد منهم :

- لقد قلنا لكم وطنوا أنفسكم على اعتقال حتى الموت .

- وقال واحد من المتفائلين :
- معك حق ولكنه ليس موتنا إن شاء الله .
- وقال المهتاجون من أهل الحدة وهم يشتمون بالآخرين :
- قد سمعتم بأذانكم لم يقل كلمة واحدة صادقة ، وقد توعدكم وهو يعلن رأيه فيكم .
- ورد واحد ظريف :
- نحن لم نقل لكم إننا نستمع إلى عمر بن عبد العزيز .
- وقال آخر :
- لم يشك واحد من المعتقلين جميعا أنه حاكم مستبد ظالم .

- كافر يحارب الإسلام والمسلمين .
- ورد الأخ الظريف على صاحب الحدة :
- الظلم والكفر أبناء عم .
- وردد واحد بيتا لسامي البارودي :
- وعما قليل ينتهي الأمر كله فما أول إلا ويتلوه آخر .

عم الهدوء المعتقل بعد الخطاب الجامع المانع الذي سمعه الناس من « الزعيم » . وانصرف كل واحد إلى ما بهتهم له وبه ، فكل شيء يمكن أن يكون في هذه الأيام ، وعين الإدارة تغفو طويلا وتستيقظ قليلا ، وتدور المناقشات كالعادة .

- وكان لي صديق كله أمل في المستقبل ، وأن الشمس ستشرق وسنخرج ويقول :
- ماذا ستفعل بعد الإفراج ؟
 - في أي شيء ؟
 - في أي شيء ؟
 - لست أدري . هذا حديث سابق لأوانه على أي حال .
 - هل تظن أنه يفرج عنا قريباً ؟

- من يدري .
- لو أفرج عني فسوف أسافر إلى الكويت وأعمل هناك وأبتعد عن مصر ومابها ، فالحياة فيها كثيفة كالحبة . وأنت ؟
- لو أفرج عني فسوف أعيش فيها لن أغادرها فهي أحوج ماتكون إلينا .

وكان الكل يحلم بالإفراج حتى يغادر مصر للعمل بالسعودية أو الكويت أو الإمارات وكان منهم من يتعلم اللغة الألمانية ، وهناك من أجادها ، على أمل أن يخرج يوما فيهاجر إلى ألمانيا ، ويقول :
- شمس الإسلام سوف تشرق من أوروبا وهي في حاجة إلى دعة ، أما هذه البلاد فأهلها زاغوا وفسدوا ولايفيد معهم شيء .

وكانت الحياة تسير على وتيرة واحدة ، يفعل الناس مايشاءون طوال النهار وعندما تغرب الشمس تغلق العنابر من الخارج ، ويستطيع المعتقلون أن يتنقلوا بين الغرفات ، أما فناء المعتقل فيخلو من المارة ، وكانوا يأتون بجهاز تليفزيون ويضعونه في الفناء ليتمكنوا أهل المستشفى من المرضى من مشاهدته ويتم هذا مرة كل اسبوع ، يخرجونهم في الهواء الطلق ، ويضعون الجهاز على منضدة ويفترش الناس الأرض ثم يجلسون ذاهلين أمام الصورة المتحركة والأصوات المبهمة ، فأكثرهم لايفكر أو يركز فيما يرى ويسمع ، بل يجدها فرصة ليغوص في أعماقه ويفتش في ذاته .

وفي ذلك اليوم الذي أتحدث عنه كانت نوبة ضابط لطيف المعشر اسمه عصام ، ولأذكر بقية اسمه ، وكان يدعو البعض بعد إغلاق العنابر في يوم خروج أهل المستشفى للمشاهدة التليفزيونية ، ونجلس في حديقة صغيرة بجوار مبنى الإدارة ، ويقدم لنا شايًا وتكلم حول مختلف الأمور ، وفي ذلك اليوم جلسنا كالعادة ، وكان الحديث يدور حول مؤتمر القمة العربي المعقود في الهيلتون بمناسبة حوادث « أيلول » في عمان بالأردن ، وانتهى المؤتمر

وغادرت الوفود تباعا إلى أوطانها ، ولاندرى إلام انتهت أعمال هذا المؤتمر ، فلا يأتيها إلا ماتكتبه الصحف وهو قليل لايشفى غليلا ، ودار الحديث مملا مضجرا وعلى مقربة كان أهل المستشفى يتفرجون على برامج التلفزيون .

وكان يجلس يومها في مجلس الشاي هذا عدد أذكر منهم حلمى الفيومى ، نجيب الهضيبي وسمير الهضيبي وكاتب هذه السطور وعدد آخر لاأذكرهم .

وكانت الساعة تقترب من الساعة والنصف مساء .

وكان اليوم هو (٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠) .

وضجر نجيب الهضيبي وقال :

— إنى عائد إلى الغرفة ، لعلنا ننام فتنسى مانحن فيه .

وحاولنا إثناؤه عن عزمه فرفض فقد كان الضجر قد بلغ به منتهاه .

وقام متاقلا إلى العنابر مارا بأولئك الذين يتفرجون على التلفزيون .

وقال واحد متنهدا :

— أما لهذا الليل من آخر ؟

وقال آخر :

— لا بد من صنعا وإن طال السفر . (تحذف الهمزة لضرورة الوزن الشعري) .

وقلت :

— يبدو أن الكل قد سيطر عليه هم عظيم ، فلنعد إلى عنابرنا .

وقال الضابط عصام :

— يا جماعة وحدوا الله . أنتم مؤمنون ، والصبر على البلاء من صفة الأنبياء ، والشاي فى الطريق .

وجلسنا من جديد بعد أن هممنا بالانصراف .
وجاء الشاى .
وعن بعد وفى عتمة الغسق شاهدنا نجيب الهضيبي يعود إلينا .
ورحب واحد به :
- اجلس معنا يارجل ، ليالى الحظ لاتعوض .

ولكننا وجدنا وجهه جامدا قد علتة دهشة :
- قطع التلفزيون إرساله ويذيع القرآن الكريم .
وانتبهنا جميعا لهذه العبارة ، واسرع واحد إلى التلفزيون وعاد يؤكد هذا الخبر ، وأسرع الضابط عصام إلى داخل الإدارة وعاد معه جهاز راديو صغير ، والتفتنا جميعا حوله ، وهو يدير المؤشر .
جميع محطات الإذاعة المصرية تذيع قرآنا .

كل الوجوه تلتفت إلى بعضها متسائلة ، ولاإجابة نتخيلها أو نتصورها .
وقال واحد :
- ربما مات أحد الرؤساء الذين حضروا المؤتمر .
ورد واحد من الحاضرين :
- لو مات جميع الرؤساء مرة واحدة ماقطعوا الإذاعة وأذاعوا القرآن .
- ماذا حدث إذن ؟
لا أحد يدرى . وأسرع الضابط عصام وقال :
- سوف أتصل بالإدارة وأعرف ماذا حدث ، وأسرع داخلا وتركنا نفكر .

وأشرت إلى سمير الهضيبي وانتحيت به جانبا وبأدركني :

- ماذا تظن ؟

وهمست له :

- قد مات « الزعيم » !

والتفت إليّ متبها دهشا :

- هل تظن هذا ؟

- بالتأكيد هو الشخص الوحيد الذي يفعلون له هذا إن مات .

- هل هذا معقول ؟ هل يمكن أن يموت ؟

- كل حي يموت ، المشكلة هي طريقة موته .

- ماذا تعنى ؟

- لو كانت حادثة اغتيال فسوف يلصقون بنا التهمة ويفرمونا

فرمأ .

وتمتم سمير :

- ياخفى الألفاظ نجنا مما نخاف .

وعاد الضابط عصام ونحن نسرع إليه :

- لأأحد يرد فى الإدارة .

- ماذا تظن يا عصام بك ؟

- لست أدرى . على أى حال سوف ينتهون من إذاعة القرآن

الكريم ثم يعلنون على الناس خبرا ما فلننتظر .

ويقلب مؤشر الراديو على المحطات المختلفة بلا فائدة ، الأمور

خارج مصر فى المحطات المختلفة عادية جدا ، وسرت الهمسات

بيننا بعيدا عن الضابط :

- مات الزعيم :

- مات الزعيم !

- معقول :

- وكيف مات ؟

وانتقلت أخبار إذاعة القرآن الكريم إلى العنابر واستيقظ من نام ، وترك الفراش من كان يتهيا ، واتفق الجميع أن الزعيم قد مات ، وكان الوجل والقلق من طريقة موته ، فالكمل يخشى أن يكون قد اغتيل ، لأن اغتياله معناه أن ندفع نحن الثمن ، ولأحد يدري كم يكون هذا الثمن .

ومضت الساعات بطيئة كأنها الدهر ، وانتهت إذاعة القرآن الكريم قبل نشرة أخبار الساعة الحادية عشرة ، وأذيع اللحن المميز للنشرة ، والكمل يكاد قلبه أن يتوقف من الصمت . وقال المذيع :
- السيد أنور السادات نائب رئيس الجمهورية يلقي عليكم بيانا هاما .

وتلفت كل واحد إلى الآخر ، ولمعت العيون بصدق الخبر .
وانبرى السادات يقول :
- فقدت مصر اليوم رجلا من أعظم الرجال وأعز الرجال ..
وصار يصفه بأعظم الصفات إلى أن قال :
- هو السيد الرئيس محمد جمال عبد الناصر !

هاج الناس وماجوا ، وفرحوا فرحة غامرة ، وأعلنت حالة الطوارئ في البلاد ، وأدخلونا العنابر بعد أن جاء عبد العال سلومة وطلب إعداد سرير في غرفته حتى يظل تحسبا للظروف .
دخلنا العنابر والجميع في حالة من البهجة والسرور لا يستطيع الإنسان أن يصفها أو يصورها .

وقال قائل يخطب :
- أيها الإخوان المسلمون ، لاشماتة في الموت فكلنا سيموت .
ورد عليه آخر :
الشماتة شيء والفرح شيء آخر ، لقد توعدنا قبل أن يموت ، وقال : إننا نظل في المعتقل حتى موته ، وقد مات وهذا يؤذن بخروجنا إن شاء الله ، فالفرحة هي فرحة الإفراج .

كان هذا يوم الاثنين أو الثلاثاء لأذكر على وجه التحديد .
ولكنهم أعلنوا أن الجنازة ستكون يوم الخميس ليتيحوا للعظماء
السير فيها .

وظل الناس في فرحة غامرة وفي شك شديد من موته ، وهناك
من صرح أن إعلان موته هذا خدعة وشائعة أطلقتها المخابرات
والمباحث ليعرفوا من يؤمن ، ومن يتقلب على عقبيه ، ومن الحكمة
عدم إعلان هذه الفرحة التي قد تذهب بنا في داهية ، ويؤكد آخر :
- نحن في داهية بالفعل .

وجاء يوم الجنازة وجلس الناس الساعات الطويلة يشاهدون
سيرها دون ملل أو حديث ، وخشعت الأصوات فلا تسمع حتى
الهمس ، ولا يوجد في المكان غير أصوات المذيعين الذين يتعاقبون
في وصف الجنازة .

وجاءت لحظة وضعه في القبر .

وحبس الناس أنفاسهم .

وصرخ المذيع بأعلى صوته :

- أيها المواطنون .

وقام كل المعتقلين وقفا ، وخاطر واحد في رعوس الجميع .
أن الزعيم لم يمت ، وأن الخدعة قد أدت غرضها ، وهم يعلنون
حياته . أو أنه قد قام من الأموات !

أقام قائد المعتقل عبد العال سلومة مأتما وجلس يتلقى العزاء في
الزعيم ، وهناك من يحصى من حضر ومن لم يحضر ، وظل الرجل
أياما صامتا لا يتكلم ، وكأنه لا يصدق هو الآخر بوفاته .

تأكد موت « الزعيم » بعد أسابيع ، وصار موته حقيقة
لا يناقشها أحد ، وذلك بعد أن كنا نفزع الشيخ عارف من نومه
في الأيام الأولى من الوفاة ونخبره أنهم أحيوه ، وأنهم أحضروا أطباء

من روسيا وأحدثوا له تدليكا حديثا للقلب ، وأذيع هذا فى النشرة .
وظل أياما يفرع من هذا الخبر .

وجلس أنور السادات على أريكة السلطنة ، والتف حوله
المماليك يؤيدونه وينصرونه ، وتهيا الناس لمغادرة المعتقل فقد
انتفى شرط بقائهم .

غادرت المعتقل بعد عدة شهور من موت « الزعيم » ، وبعد أن
سمعت قائد المعتقل يسب الزعيم ويصفه بوضاعة الأصل وأنه ضيع
الوطن وسرق الثورة من السلطان العظيم أنور السادات القائد
الحقيقى للثورة المباركة ، ولكن الله يمهل ولا يهمل !
وتسير الأمور بنا وبالناس من المجهول إلى المجهول . ورحا
الإسلام دائرة ، وافترق الكتاب والسلطان ، والعقل من دار مع
الكتاب حيث دار ، والدنيا سوق كبير ينفذ بالموت ، والربح
والخسارة لارجعة فيهما بعده ولا فوت !

والحمد لله من قبل ومن بعد .

ملاحق

المتمم

الذين قدموا للمحاكمة
في سنة ١٩٦٥ من أعضاء جماعة

الإخوان المسلمين

نشرت جريدة الأهرام بعددها رقم ٢٨٩١٠ الصادر في ١٩٦٦/٢/٤

قدمت النيابة إلى محكمة أمن الدولة أمس ٤٣ متهما في قضية

« قيادة التنظيم السري للإخوان المسلمين »

وهم :

- ١ - سيد قطب إبراهيم
- ٦٠ سنة - كاتب
- ٢ - محمد يوسف هواش
- ٤٣ سنة - مراجع صرف طلبات الجمعية التعاونية للبتروول
- ٣ - علي أحمد عبده عشناوى
- ٢٨ سنة - كاتب حسابات بالشركة المصرية العامة للأساسات
- ٤ - عبد الفتاح عبده إسماعيل
- ٤١ سنة - قباني بكفر البطيخ
- ٥ - أحمد عبد المجيد عبد السميع
- ٣١ سنة - موظف بوزارة الحربية
- ٦ - صبرى عرفة إبراهيم الكومى
- ٣٥ سنة - مدرس علوم بدار المعلمين بالمنصورة
- ٧ - مجدى عبد العزيز متولى
- ٢٨ سنة - مدير إنتاج بشركة النصر لصناعة الأفلام ومنتجات الجرافيت
- ٨ - عبد المجيد يوسف عبد المجيد الشاذلى
- ٢٨ سنة - كىماوى بشركة مصر للحرير الصناعى بكفر الدوار
- ٩ - عباس سعيد السيسى
- ٤٧ سنة - صاحب محل ألبان بشارع النيل برشيد
- ١٠ - مبارك عبد العظيم محمود عباد
- ٣٠ سنة - مدرس ثانوى
- ١١ - فاروق أحمد على المشاوى
- ٢٣ سنة - مهندس كىماوى
- ١٢ - فايز محمد إسماعيل يوسف
- ٢١ سنة - خريج كلية الهندسة

- ١٣ - ممدوح درويش مصطفى الديري
٢٥ سنة - طالب بيكالوريوس العلوم عين شمس
- ١٤ - محمد أحمد محمد عبد الرحمن
٢٤ سنة - مهندس مناجم بالهيئة العامة للتصنيع « مشروع الفحم »
- ١٥ - جلال الدين بكري ديساوي
٢٥ سنة - مهندس بشركة النصر للأسمدة والصناعات الكيماوية
- ١٦ - محمد عبد المعطي إبراهيم الجزار
٢٩ سنة - معيد بمؤسسة الطاقة الذرية
- ١٧ - محمد المأمون يحيى زكريا
٢٥ سنة - موظف بمؤسسة الطاقة الذرية
- ١٨ - أحمد عبد الحليم السروجي
٢٧ سنة - معيد بقسم الطبيعة النووية بمؤسسة الطاقة الذرية
- ١٩ - صلاح محمد محمد خليفة
٢٦ سنة - معيد بقسم الكيمياء النووية بمؤسسة الطاقة الذرية
- ٢٠ - السيد سعد الدين السيد شريف
٢٥ سنة - مهندس
- ٢١ - محمد عبد المعطي عبد الرحيم (شهرته محمد رحيم أحمد كمال)
٢٤ سنة - رئيس قسم الزخرفة بشركة صناعة الخزف
- ٢٢ - إمام عبد اللطيف عبد الفتاح غيث
٢٣ سنة - مهندس بشركة حلوان لصناعة الديزل
- ٢٣ - كمال عبد العزيز العرفي سلام
٢٦ سنة - ملازم أول مهندس بالقوات المسلحة
- ٢٤ - فؤاد حسن علي متولى
٢٤ سنة - ملازم أول مهندس بالقوات الجوية . المعمل الكيماوى بالمركز القومى للبحوث
- ٢٥ - محمد أحمد البحيرى
٢٢ سنة - مهندس كيمائى بشركة النصر لصناعة الكوك والكيمائيات بحلوان

- ٢٦ - هدى حسن صالح
٢٨ سنة - معاون مجلس قروى أبو زعل
٢٧ - مصطفى عبد العزيز الخضرى
٣٣ سنة - محقق بالمصنع ٢٧ الحرى
٢٨ - السيد نزيلى محمد عوضية
٢٧ سنة - أخصائى اجتماعى بالوحدة الاجتماعية
٢٩ - مرسى مصطفى مرسى
٢٣ سنة - باحث مساعد بالمركز القومى للبحوث
٣٠ - محمد بديع عبد المجيد محمد سامى
٢١ سنة - معيد بكلية الطب البيطرى
٣١ - محمد عبد المنعم شاهين (شهرته عاطف)
٢٣ سنة - باحث اقتصادى بوزارة التخطيط
٣٢ - محمود أحمد فخرى
٢١ سنة - طالب بيكالوريوس تجارة عين شمس
٣٣ - محمود عزت إبراهيم
٢١ سنة - طالب بكلية طب عين شمس
٣٤ - صلاح محمد عبد الحق
٢٠ سنة - طالب بكلية طب عين شمس
٣٥ - حلمى محمد صادق حتوت
٢٣ سنة - معيد بكلية هندسة الإسكندرية
٣٦ - إلهام يحيى عبد المجيد بدوى
٢٥ سنة - مهندس بتفتيش المساحة بالإسكندرية
٣٧ - عبد المنعم عبد الرؤوف يوسف عرفات
٣١ سنة - مدرس بالمرقسية الثانوية بالإسكندرية
٣٨ - محمد عبد الفتاح رزق شريف
٥٦ سنة - وكيل تفتيش ترع الملكية بطنطا

٣٩ - زينب الغزالي الجبيلي

٤٨ سنة - رئيسة جمعية السيدات المسلمات (سابقا)

٤٠ - حميدة قطب إبراهيم

٢٩ سنة - آنسة (شقيقة سيد قطب)

٤١ - محيى الدين هلال

مقيم بالخارج وغير معلوم محل إقامته

٤٢ - عشناوى سليمان

مقيم بالخارج وغير معلوم محل إقامته

٤٣ - مصطفى العالم

مقيم بالخارج وغير معلوم محل إقامته

* * *

نشرت جريدة الأخبار بعددها رقم ٤٢٥٣ الصادر في ١٦/٢/١٩٦٦
« أعضاء التنظيم السرى في القاهرة »

أذاع صلاح نصار رئيس نيابة أمن الدولة العليا أمس تقرير الاتهام الثانى فى قضايا جماعة الإخوان المسلمين المنحلة . يشمل ٤٦ متهما وهم أعضاء الجهاز السرى بالقاهرة ويتزعمه المتهم على عشاوى الذى أذيع تقرير اتهامه فى قضية سيد قطب ..

والمتهمون ال ٤٦ هم :

- ١ - كمال محمد محمود القراموى
٢٧ سنة - باحث قانونى بشركة الأزياء الحديثة . ومقيم ١٢ شارع الشهاب بالعجوزة - القاهرة
- ٢ - محمد عبد الله الخطيب
٣٦ سنة - خطيب مسجد خورشيد بجزيرة بدران . ومقيم ٤٥ حارة صفى مرزوقى شارع طوسون قسم روض الفرج - القاهرة
- ٣ - جابر رزق جابر القولى
٢٩ سنة - أمين مكتبة مدرسة الهاشمية الإعدادية بشبرا . ومقيم ٨ شارع محمد الخلفاوى بشبرا مصر
- ٤ - عبد المنعم مصطفى عثمان دحروج
٣٠ سنة - قمصانجى . ومقيم ٤ حارة بركات بدير الملاك البحرى بحداثق القبة
- ٥ - منصور عبد الظاهر منصور
٢٧ سنة - كيميائى بشركة النصر للكيماويات الدوائية بأبى زعبل . ومقيم بشارع ٢٣ بوليو بالخانكة
- ٦ - عبد العزيز طلبة عبد المطلب
٣٥ سنة - كهربائى بمصنع ١٨ الحرى ومقيم بشارع النيوستة ، بالخانكة
- ٧ - محمد ضياء الدين عباس الطوبجى
٢٨ سنة - مساعد طيار بشركة الطيران العربية المتحدة . ومقيم ٣٤ شارع السيد المرغنى شقة ١٢ مصر الجديدة

- ٨ - محمد عبد الرسول حسن الخرووي
٤٢ سنة - مبيض معمارى . ومقيم ٦ شارع البقل بالمرج - قسم المطرية
- ٩ - عبد الحميد نصرى على عفيفى
٤٣ سنة - سائق بهيئة النقل العام بمدينة القاهرة . ومقيم ببلدة عرب الحصن قسم
المطرية
- ١٠ - يحيى أحمد حسين
هارب
- ١١ - إسماعيل الفيومى
هارب
- ١٢ - فاروق عباس سيد أحمد
٢٥ سنة - طبيب امتياز بمستشفى الدمرداش . ومقيم ٦ حارة الحسينى شارع عبد
الخالق وصفى حدائق شبرا الساحل
- ١٣ - وهبة عبد الحميد سالم الفيشاوى
٤٠ سنة - موظف بشركة الدار القومية للطباعة والنشر . ومقيم ٢٦ شارع عبد
القادر طه - قسم الساحل
- ١٤ - أحمد توفيق أحمد محمد
٣٤ سنة - عامل بمحل خردوات مؤسسة توفيق التجارية . ومقيم ١٥ شارع نجيب
الريحاني - قسم الأريكية
- ١٥ - عبد الكريم حسن محمود الطويل
٤٢ سنة - كاتب بهندسة السكة الحديد بإمبابة . ومقيم ٤٥ حارة الهرمى - ميت
عقبة قسم إمبابة - جزيرة
- ١٦ - أحمد محمد أحمد الشيخ
٤١ سنة - ساعى بمصلحة الضرائب . ومقيم حارة سعيد الشاهد ميت عقبة مركز
إمبابة - الجزيرة
- ١٧ - أنور أمين محمد على نور الدين
٢٩ سنة - عامل تليفونات بالدار القومية للطباعة والنشر . ومقيم ٢٧ شارع
الشيخ محمد الحلبى بأرض شريف قسم الساحل

- ١٨ - علي محمد سيد أحمد جريشة
٣٠ سنة - نائب سابق بمجلس الدولة . ومقيم ٥ شارع الحريري المتفرع من شارع
جعفر والي ، قسم المطرية - القاهرة
- ١٩ - عبد المنعم خليفة محمد الحنفى
٤١ سنة - مساعد مهندس بلدية القاهرة . ومقيم ٨ حارة المستشفى قسم الظاهر
- ٢٠ - رشدى مصطفى حسن حبلى
٢٨ سنة - سكرتير مندوب صرف الوحدة الاجتماعية بسرياقوس . ومقيم ببركة
الحاج ، تبع قسم المطرية
- ٢١ - عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم العدس
٤٧ سنة - مزارع . ومقيم ببركة الحاج ، شارع عبد المجيد - قسم المطرية
- ٢٢ - محمد إبراهيم حسنين بكير
٣٥ سنة - عريف بسلاح الحدود . ومقيم ٧ شارع عبد الحميد بدر - عين شمس
- ٢٣ - محمد عبد العزيز علي الصروى
٢٢ سنة - بكالوريوس هندسة كيمياوية . ومقيم ١٥ شارع "تمير المتفرع من شارع
المخطة شقة ٣ قسم أول جيزة
- ٢٤ - محمد عبد الحميد حسين خفاجى
٢٤ سنة - طالب بكلية الهندسة - قسم الهندسة الكيماوية ومقيم ١٨ شارع ماهر
بالطالبة تبع مركز الجيزة
- ٢٥ - عز الدين عبد المنعم علي
٢٣ سنة - طالب بكلية الهندسة قسم الهندسة الكيماوية . ومقيم ٢٧ شارع عبد
الحميد محمود باليكنية الجديدة - قسم الدرب الأحمر
- ٢٦ - علي بكرى بدوى جاد الله
٢٤ سنة - طالب بكلية الهندسة - قسم الهندسة الكيماوية . ومقيم ٢٠ حارة
الدويدارى بالأزهر . قسم الدرب الأحمر
- ٢٧ - أحمد عبد الستار عوض كيوان
٢٩ سنة - مهندس كيماوى بمصنع الخشب المضغوط بفارسكور . ومقيم بعزبة
البرج - محافظة دمياط

- ٢٨ - عبد الفتاح على حسن
٢٩ سنة - كاتب بالمؤسسة المصرية العامة للائتمان الزراعى والتعاونى . ومقيم ٤٤
شارع مذكور قسم أول الجيزة
- ٢٩ - إمام سمير ثابت توفيق
٢٤ سنة - مدرس بمعهد متوف الدينى . ومقيم ٥ شارع مديولى - قسم أول
الجيزة
- ٣٠ - إبراهيم منير أحمد مصطفى
٢٨ سنة - موظف بالمؤسسة الزراعية التعاونية العامة . ومقيم عمارة ١ بشارع ٣
شقة ٤ مساكن أوقاف ميت عقبة
- ٣١ - حبيب محمد عثمان
٣٤ سنة - صاحب ورشة سباكة . ومقيم ٩ شارع الزهرية . شبرا - قسم
الساحل
- ٣٢ - محمدى محمود إسماعيل فرج
٣٤ سنة - ساعى بوزلرة الحربية . ومقيم ٣٣ شارع خيرى مدينة
الدخاخنى - شبرا الخيمة
- ٣٣ - محمد محمود إبراهيم محمود
٣٥ سنة - عامل بمخبز وحلوانى الإخلاص . ومقيم ١٥ شارع الجزائرلى
بالروضة - قسم مصر القديمة
- ٣٤ - محمود مصطفى عامر
٣٠ سنة - نساج بشركة اتحاد وادى النيل . ومقيم ٩ شارع فؤاد العش بعزبة
عثمان بك شبرا الخيمة
- ٣٥ - جمال شوق أحمد النشوق
٣٤ سنة - موظف بالمؤسسة المصرية العامة للإسكان والتعمير . ومقيم ١٦١
شارع عيىد بساحل روض الفرج - قسم الساحل
- ٣٦ - أسعد محمد محمود كالى
٢٦ سنة - محاسب بتوكيل أسيوط للملاحة بور سعيد . ومقيم ٢٣ شارع الوفدية
بالسيده زينب

٣٧ - جودة أحمد أحمد غمرة

٢٤ سنة - مساعد باحث بالجهاز المركزى للتنظيم والإدارة . ومقيم ١٤ شارع
رستم المتفرع من شارع مستوصف الكرامليات بشبرا

٣٨ - عبد الفتاح محمد عبد الوهاب فايد

٢٩ سنة - مدرس بمعهد القاهرة الدينى الإعدادى . ومقيم ٣ شارع إدريس
بالمطرية - القاهرة

٣٩ - حسن عامر أبو طالب

٣٧ سنة - عريف بسلاح الحدود : ومقيم بكرداسة مركز إمبابة محافظة الجيزة

٤٠ - مصطفى عيسى غزال

٣٧ سنة - فراش بالمصنع رقم ٥٤ الحرى . ومقيم بكرداسة مركز إمبابة - محافظة
الجيزة

٤١ - عبد العزيز على أحمد

٧٠ سنة - وزير الشؤون البلدية والقروية سابقا . ومقيم ٢١ شارع الدكتور أحمد
أمين - مصر الجديدة

٤٢ - معروف أحمد الحضرى

٤٧ سنة - عضو مجلس إدارة بالشركة المصرية للأساسات . ومقيم ٣٧ شارع
القياسى بالروضة قسم مصر القديمة

٤٣ - عوض عبد العال عوض

٣٠ سنة - مدرس بمنطقة المنصورة التعليمية . ومقيم شارع شعيب خلف مدرسة
المعلمين القديمة بالمنصورة

٤٤ - نصر عبد الفتاح محمد نصر

٣٣ سنة - مدرس بمدرسة فاقوس الثانوية للبنين . ومقيم ٢٠ شارع أبو زيد
بفاقوس - محافظة الشرقية

٤٥ - توفيق حسن أحمد عبد البارى

٥٠ سنة - مقاول أنقاض بطنطا . ومقيم شارع حلقة القطن القديمة - قسم ثان
طنطا

٤٦ - محمد منلوه محمد الغرباوى

٣٠ سنة - مدرس بمدرسة حصه شيشير الابتدائية مركز طنطا . ومقيم ٧٢ شارع
الشورى بطنطا

نشرت جريدة الأهرام بعدد رقم ٢٨٩٣٣ الصادر في ١٩٦٦/٢/٢٧
« أعضاء التنظيم السرى للإخوان عن الأقاليم »

أحالت نيابة أمن الدولة إلى المحاكمة أمس ٥٠ متهما جديداً من التنظيم السرى
الإرهابى للإخوان ، وصف قرار الاتهام الذى أذاعه صلاح نصار رئيس نيابة أمن
الدولة المتهمين بأنهم يشكلون ٤ مجموعات :

١ - أعضاء تنظيم فى الإسكندرية . ٢ - أعضاء تنظيم فى البحيرة .

٣ - أعضاء تنظيم فى الشرقية . ٤ - أعضاء التنظيم الخاص .

وهم :

- | | |
|----------------------------|------------------------------------|
| ١ - محمد هلال على سالم | ٢ - عز العرب محمد عبد الواحد شاهين |
| ٣ - محمد إبراهيم أحمد سالم | ٤ - عبد الله محمد رمضان أبو سن |
| ٥ - السيد إسماعيل أبو شلوع | ٦ - محمد حلمى منصور |
| ٧ - محمد محمد بدير زينة | ٨ - عبد الغنى حسن سيد أحمد موسى |
| ٩ - حافظ مصطفى خليل أيوب | ١٠ - فاروق عبد الغنى الصاوى |
| ١١ - يحيى أنور توفيق يياض | ١٢ - طاهر عبد العزيز سالم |
| ١٣ - محمد عواد سليمان | |

واتهمت النيابة (٣١) من الإرهابيين بأنهم اشتركوا - والثلاثة عشر الأول
وآخرون - فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جريمة محاولة تغيير دستور الدولة وشكل
الحكومة فيها بالقوة ، وهى الجناية المنصوص عليها فى المادة ٨٧ عقوبات وقد
وقعت هذه الجناية نتيجة محتملة لهذا الاتفاق .. وهم :

- | | |
|---------------------------------|---------------------------|
| ١٤ - عبد الحميد السلامونى | ١٥ - السباعى الروكى |
| ١٦ - محمد طه هداية | ١٧ - على حتحوت |
| ١٨ - عادل مطاوع سعد | ١٩ - عبد الفتاح الجندى |
| ٢٠ - أحمد الزفناوى | ٢١ - محمد صدق عطية |
| ٢٢ - عبد المجيد محمد عبد المجيد | ٢٣ - عبد الرحمن عبد الصمد |

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| ٢٤ - محمود سلامة سليمان | ٢٥ - مجدى عبد الحق |
| ٢٦ - جمال هاشم | ٢٧ - محمد العريشى |
| ٢٨ - محمد الفار | ٢٩ - أحمد الجندى |
| ٣٠ - أمين محمد | ٣١ - عبد العزيز شعلان |
| ٣٢ - عبد العظيم سلطان | ٣٣ - سيد عوض |
| ٣٤ - محمد المدنى | ٣٥ - حسن عليوة |
| ٣٦ - محمد حسين خليل | ٣٧ - عبد العزيز إبراهيم |
| ٣٨ - عبد القادر الشرقاوى | ٣٩ - السيد فرج جبر |
| ٤٠ - أحمد إدريس | ٤١ - محمد بدر |
| ٤٢ - محمد خليل | ٤٣ - عبده حسن |
| ٤٤ - يوسف ندا | |

واتهمت النيابة الستة الباقين وهم :

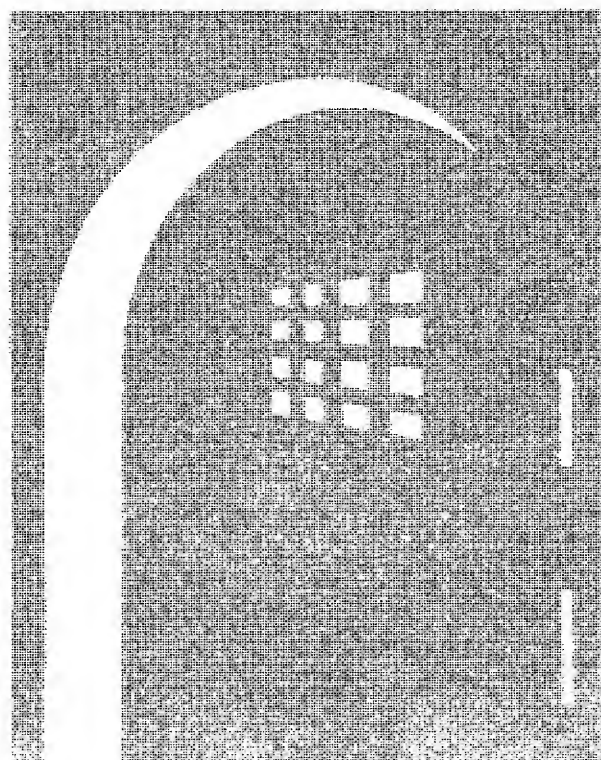
- | | |
|-----------------------|--------------------------|
| ٤٥ - عبد الجواد غربية | ٤٦ - عبد الخالق الغرباوى |
| ٤٧ - محمد الحلوجى | ٤٨ - إبراهيم الأحمر |
| ٤٩ - أحمد المراسى | ٥٠ - محمد خليفة |

بأنهم أحرزوا أسلحة نارية من مدافع رشاشة وبنادق « مششخنة » وخرطوش
ومسدسات وذخائر قبل الحصول على ترخيص .

* * *

ملاحق

شهر
المذبحكة



شهود المذبحة*

١ - شهادة الدكتور ماجد حمادة

طبيب السجن الحرى

النيابة العامة :

صورة طبق الأصل من أقوال الدكتور ماجد حمادة فى البلاغ رقم ١١٧
سنة ١٩٧٥ حصر تعذيب .
فتح المحضر يوم الخميس الموافق أول يناير سنة ١٩٧٦ الساعة ١,٢٥
صباحا بسراى النيابة .

بالمهينة السابقة

حيث حضر المتهم المذكور ماجد حمادة إلى سراى النيابة فدعونه داخل
غرفة التحقيق وسألناه بالآتى قال :

اسمى : عقيد طبيب أركان حرب ماجد عبد الهادى حمادة سن ٤٨ .
عقيد طبيب بالخدمات الطبية بمستشفى القوات المسلحة بالمعادى . مولود
بالقاهرة ومقيم ١٠ ش الشهيد إسماعيل فهمى الحى الخامس مصر الجديدة .

حلف اليمين

س : هل يدخل من ضمن اختصاصات عملك كشف على المرضى النزلاء
بالسجن الحرى وعلاجهم ؟

ج : كان ذلك يدخل ضمن اختصاصى عندما كنت طبيب مستشفى
السجن الحرى الموجود داخل السجن الحرى .

س : ما هى الفترة الزمنية التى باشرت خلالها العمل كطبيب بمستشفى
السجن الحرى ؟

« نقلا من كتاب « مذابح الإخوان فى سجون ناصر » للمرحوم جابر رزق ص ٢٤١ وما بعدها .

ج : أنا باشرت العمل كطبيب بمستشفى السجن الحرى حيث كنت أعمل بصفة دائمة بهذا المستشفى أكشف على المرضى والنزلاء بالسجن الحرى وأعالجهم وذلك خلال مدة زمنية بدأت من منتصف عام ١٩٦٥ واستمرت باقى عام ١٩٦٥ وطوال أعوام ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ إذ باشرت هذا العمل منذ عام ١٩٦٥ حتى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

س : ماهى الاختصاصات التى كنت تباشرها أثناء عملك كطبيب بمستشفى السجن الحرى فى المدة الزمنية التى أشرت إليها ؟
ج : كنت أمر أحيانا على الزنازين وكان ذلك بصفة دورية مرتين فى الأسبوع على الأقل وكان ذلك يحدث بالنسبة للمتواجدين بالسجن الكبير داخل السجن الحرى وكان يحضر إلى بعض النزلاء إلى المستشفى ذاته وفى الحالتين أقوم بالعلاج إذا تبين أن هناك مقتضى للعلاج أو لحجزه بالمستشفى فأنا كنت أكشف على المرضى النزلاء بالسجن الكبير بالسجن الحرى وأقوم بفحصهم وأعطهم العلاج اللازم .

س : أين كان يتم الكشف على النزلاء بالسجن الحرى ؟
ج : كنت أكشف عليهم داخل الزنازين عندما كنت أمر عليها إذا قال لى أحد المتواجدين بالزنازين إنه مريض أو متألم أو إذا شاهدت بنفسى إصابات به وإذا ما تبين لى أن الأمر يحتاج إلى نقل النزلاء من المرضى أو المصابين إلى مستشفى السجن الحرى كنت أمر بنقلهم إلى هناك لمواصلة العلاج وهكذا وإننى كنت أكشف على النزلاء فى الزنازين عند مرورى عليهم فى الحالات التى ذكرتها كما أنى كنت أكشف على من يحضر إلى مستشفى السجن الحرى إذ كان يحضره البعض إلى المستشفى بأمر من المسئولين عن التحقيق بالسجن الحرى فى ذلك الوقت ، فالكشف على النزلاء كان يتم إما بداخل الزنازين وإما فى المستشفى بالسجن الحرى وكان ذلك يتم بمعرفةى وكان ذلك تيسيرا لى لأننى كنت أرتاد الزنازين مرتين فى الأسبوع على الأقل .

س : هل كنت تمر وأنت في طريقك من المستشفى إلى الزنانات بفناء السجن الحرى ومكاتب الضباط الذين يباشرون التحقيق ؟

ج : أيوه كنت أمر بفناء السجن أثناء النهار والليل وكانت الزنازين تطل على هذا الفناء طوال مدة عملي من منتصف عام ١٩٦٥ حتى أكتوبر أو نوفمبر ١٩٦٧ كنت أمر بفناء السجن وأمام مكاتب التحقيق عندما كنت أباشر عملي العادي في السجن الحرى وعندما كنت أدخل إلى الزنازين لفحص المسجونين بها .

س : هل لاحظت أى ملاحظات غير عادية أثناء مباشرتك لعملك كطبيب بالسجن الحرى في الفترة الزمنية التي أشرت إليها وأثناء مرورك بفناء السجن وأمام مكاتب الضباط وكشفك على النزلاء بالزنانات وبالمستشفى ؟

ج : أيوه لاحظت ملاحظات عادية ولأعرف المقصود بالملاحظات غير العادية .

س : هل لاحظت أثناء قيامك بعملك وجود إصابات بالمسجونين والمعتقلين بالسجن الحرى ؟

ج : أيوه أغلب المعتقلين كان بهم إصابات عديدة بعضها يحتاج لعلاج وبعضها لا يحتاج لعلاج .

س : هل يمكنك تحديد طبيعة وقوع الإصابات التي لاحظتها بالمسجونين والمعتقلين أثناء عملك كطبيب بالسجن الحرى ؟

ج : أيوه كان فيه إصابات وأغلبها يحدث من ضرب السياط هذا بالنسبة للمعتقلين . أما مفهومي أنا عن المسجونين من الجنود فلم تكن بهم أى إصابات ولكن الإصابات التي شاهدها كانت في المعتقلين من غير الجنود وكان المصابون في وقت عملي أغلبهم من جماعة الإخوان المسلمين المنحلة وكانت الإصابات التي بهم عبارة عن جروح نتيجة ضرب بالسياط وكانت في القدمين واليدين والظهر بصفة أساسية .

س : هل كانت تلك الإصابات التي شاهدها بالمعتقلين وقت عملك كطبيب للسجن الحرى إصابات حديثة ؟

ج : أيوه جميع الإصابات التي شاهدها بالمعتقلين كانت إصابات حديثة في وقت معاصر لتاريخ كشفى عليها وكان ذلك خلال كشفى على إصابات المعتقلين خلال عملي بالسجن الحرى خلال الفترة من منتصف عام ١٩٦٥ وحتى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

س : ماتعليك لتلك الإصابات التي شاهدها بنفسك بالمعتقلين بالسجن الحرى خلال الفترة من منتصف عام ١٩٦٥ حتى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٧ ؟

ج : كان المعتقلون يضربون بالسياط أثناء التحقيق معهم وكانت هناك أوامر من شمس بدران شخصيا لصفوت الروى أن يعرض كل معتقل بعد التحقيق معه على أنا كطبيب للسجن الحرى قبل دخوله إلى الزنزانة .

س : وما سبب صدور ذلك الأمر من شمس بدران إلى صفوت الروى ؟
ج : الأمر ده صدر من شمس بدران لى شخصيا أمام المساعد صفوت الروى لأن شمس بدران قال لى تشوف حالات المعتقلين بعد التحقيق معهم وقبل دخولهم إلى الزنازين و صفوت الروى كان موجودا أثناء كلام شمس بدران معى و صفوت الروى قال لشمس بدران حاضر يا أفندم .. يعنى هو يقوم بعرض جميع الحالات على ، وقد صدر هذا الأمر إثر تواتر الحديث من أشخاص لا أذكرهم الآن بأن أحد المعتقلين مات داخل زنزانة فكان شمس بدران يريد التأكد من أن حالة المعتقلين تسمح بتواجدهم فى زنزانة مغلقة عليهم طوال الليل دون تعريض حياتهم للخطر وكان شمس بدران يريد علاج المعتقلين من الإصابات الموجودة بهم ونظرا لموت أحد المعتقلين داخل الزنزانة فلهذا السبب أصدر شمس بدران أمراً بمرور جميع المعتقلين بعد التحقيق معهم

علىّ لعلاجهم من الإصابات التي تلحق بهم من ضربهم بالسياط أثناء التحقيق .

س : هل أنت متحقق من أنه كان يتم ضرب المعتقلين بالسياط أثناء التحقيق معهم بالسجن الحرى ؟

ج : أيوه أنا متأكد من ذلك بالنسبة لمعظم المعتقلين .

س : ماهى الأسباب التي دعتك إلى التاكّد من أنه كان يتم ضرب معظم المعتقلين بالسياط أثناء التحقيق معهم بالسجن الحرى ؟

ج : أنا تأكدت من أنه كان يتم ضرب معظم المعتقلين بالسياط أثناء التحقيق معهم بمعرفة بعض ضباط المباحث الجنائية العسكرية وذلك معرفتى كطبيب بالسجن الحرى وشاهدت بنفسى إصابات متعددة لمعظم المعتقلين لحقت بهم نتيجة ضربهم بالسياط وأقصد بذلك أن معظم من كشفت عليهم من المعتقلين كانوا مصابين نتيجة ضربهم بالسياط . من هؤلاء من أبلغنى أثناء الكشف عليه أن الإصابات حدثت له أثناء التحقيق معه من ضربه بالسياط بمعرفة المحققين من المباحث الجنائية العسكرية ولم يحددهم لى .

س : هل شاهدت بنفسك قيام بعض رجال السجن الحرى بالاعتداء بأية صورة علىّ أى من المعتقلين بهذا السجن ؟

ج : أنا ماشفتش حد بيضرب ولكن كنت ساعات استدعى من أحد ضباط المباحث الجنائية العسكرية لفحص أحد المعتقلين لبيان إمكانية استمرار التحقيق معه . وكنت غالبا أمنع استمرار التحقيق معه إذا كانت حالة المعتقل سيئة .

س : ماهى حالة المعتقل عند استدعائك لفحصه على النحو الذى أشرت إليه الآن ؟

ج : أحيانا كان المعتقل فى حالة اضطراب عصبى شديد وأحيانا كان به إصابات تنتج عن ضربه بالسياط وكنت أشاهد هذا المعتقل داخل

مكاتب الضباط الخاصة بالتحقيق إما جالسا على كرسي أو جالسا على الأرض مرتديا ملابسه أو عاريا إلا من الكالسون وكان بعض العساكر يسكنون الكراييج في فناء السجن أمام مكاتب التحقيق ولا أذكر من المحققين إلا شمس بدران .

ملاحظة : رأينا إرجاء التحقيق لمدة ربع ساعة التماسا للراحة . تمت الملاحظة ووقع الماضى . وكيل النيابة . وأقفل المحضر على ذلك عقب إثبات ماتقدم الساعة ١٢ ظهرا وتعرض . وكيل النيابة . أعيد فتح المحضر في تاريخه الساعة ١,١٥ مساء بسراى النيابة بالهيئة السابقة .

حيث حضر الآن السيد العقيد طبيب ماجد حمادة فدعونه داخل غرفة التحقيق وسألناه بالآتى فقال :

اسمى : محمد ماجد عبدالهادى حمادة .. سابق سؤاله .

حلف اليمين

س : هل شاهدت بنفسك أى شخص يقوم بالاعتداء بأية صورة على أى معتقل أثناء ارتيادك للزنايات أو أثناء مرورك بفناء السجن الحرى وجميع أرجائه ؟

ج : حدث أن شاهدت بنفسى عسكريا لا أذكره حوالى مرتين يقوم بالاعتداء على أحد المعتقلين بالضرب باليد وبالإهانة فأنذرته بأننى سأبلغ عنه ومن هنا لم أشاهد أحدا بعد ذلك يقوم بالاعتداء على أى معتقل بعد أن عرف عنى من الجميع أننى لا أسكت عن مثل هذه الوقائع ولكن مؤكدا أنه كانت هناك اعتداءات وإهانات تحدث داخل السجن الحرى ضد المعتقلين وهو ما عرفته من كلام بعض المعتقلين معى وأيضا كان يحدث ضرب المعتقلين بالسياط أثناء التحقيق معهم

بمعرفة الضباط ودليلي على ذلك هو مشاهدتي بنفسى لآثار الضرب بالسياط بأجسام معظم المعتقلين الذين تيسر لى الكشف عليهم ولكن الاعتداءات لم تكن تحدث أمامى فى أى مكان بعد أن علم عنى أننى لا أرضى بذلك .

س : هل يمكنك تحديد أسماء المعتقلين الذين قمت بالكشف عليهم ولمست بنفسك آثار ضربهم بالسياط !؟

ج : لا . وذلك لأنه لم تكن توجد دفاتر بالمستشفى تثبت بها أسماء المصابين وكان يعرض المصاب على برقم زنارته التى يتواجد بها ، وكان غير مسموح لأى معتقل أن يدلى لى باسمه وأنا مكنتش بأسألمهم لأن ذلك ضد التعليمات التى صدرت لى شخصا من شمس بدران الذى قال لى لا تحاول أن تعرف اسم أى مصاب من المعتقلين وماحدث من المعتقلين قال لى عن اسمه . ولم تكن هناك أى أوراق علاج رسمية ولكن أى مصاب يدخل المستشفى أكتب ورقة بيضاء بها رقم الزناراة الموجود بها بالمستشفى وتشخيص الحالة والعلاج المفروض أن يأخذه ونظام أخذ العلاج وبعد خروج المصاب من المستشفى تمزق هذه الأوراق وعلى ذلك فلا توجد حاليا أى أوراق رسمية خاصة بعلاج المصابين لأن حمزة البسيونى كان قد أمرنى بحرق الأوراق التى أكتب فيها العلاج أولا بأول لأن هذه الفترة كانت فترة مظلمة والمسئولون عنها شمس بدران وغيره كانوا يريدون عدم وجود أى أوراق رسمية تثبت ما يحدث فى السجن . وأضيف إلى ذلك أن عدد من كشفت عليهم من المصابين من المعتقلين كان كبيرا لدرجة أننى طلبت الاستعانة بأطباء لعلاج المصابين وقد طلبت ذلك من حمزة البسيونى عندما زاد عدد المصابين عن إمكانياتى المنفردة ومثلا حضر اثنان من أطباء رئاسة الجمهورية أحدهما إبراهيم الشعراوى والثانى عبدالمعطى .. وأعتقد أنهما مازالا فى رئاسة الجمهورية وعاونانى فى علاج المصابين وفى صرف

الأدوية والمهمات الطبية اللازمة للعلاج وأذكر الآن أنه كانت حالات إصابية جسيمة منها حالة من يدعى (البطل) ولا أعرف اسمه كاملا وأنا الذى كشفت عليه فى عيادة مستشفى السجن الحربى وتبين لى أن لديه إصابة فى العمود الفقرى وكان مضروبا وعنده مبادئ شلل فى رجله وهذا ينتج عن ضربه أو وقوعه على ظهره أو أى سبب آخر ويمكن تحدث من ركلة بالرجل أو التهاب بعظام العمود الفقرى نتيجة أى حاجة وقمت بتحويله إلى مستشفى الحلمية العسكرية خلال عملى فى التاريخ الذى ذكرته وحولته فى يوم لا أستطيع تحديده حيث تم وضعه فى مستشفى الحلمية العسكرية بحجرة مخصوصة وقد مات داخل مستشفى الحلمية العسكرية إذ كنت أمر عليه بالمستشفى ولذلك علمت بموته فى المستشفى بعد نقله إليها بحوالى ثلاثة أيام وأنا عرفت أن هذا الشخص يسمى (البطل) رغم أن مافيش أوراق علاج رسمية فى السجن الحربى أو دفاتر لأنه عند نقله إلى مستشفى الحلمية العسكرية رحت معه هناك سأله الدكاترة عن اسمه فقال أمامى إنه يدعى (البطل) ولم يسأله أحد أمامى عن سبب إصابته ولم أسأله أنا عن ذلك ولكنه قال لى بأنهم كانوا يحققون معه وبأنه لا يعرف شيئا عن جماعة الإخوان المسلمين ولكنه لم يذكر من الذى كان يحقق معه من الضباط ، ومعنى أنهم كانوا يحققون معه أنهم كانوا يضربوه حيث إن الضرب كان يحدث فى مكاتب السجن الحربى أثناء التحقيق وهذا علمته من مشاهدتى لإصابات معظم المعتقلين الذين كشفت عليهم ومن كلام المعتقلين معى وكانت هناك حالات أخرى قليلة تم فيها نقل المصابين لخارج مستشفى السجن الحربى ولكن لا أذكر شيئا عنها أو عن ظروفها ولكل ذلك فأنا لا أعلم أسماء المعتقلين الذين كانوا مصابين وكشفت عليهم بنفسى ولا أعرف من أحدثوا إصاباتهم .

س : ألم يتيسر لك معرفة أى شخص من شخصيات المعتقلين الذين لحقت

دائما أقرر للضباط أن هؤلاء المعتقلين غير لائقين حاليا للتحقيق مستهدفا بذلك تخلص هؤلاء المعتقلين من الضرب الذى كنت أشاهد آثاره على أجسامهم وكان منظرا عاديا بالسجن الحربى مشاهدة عساكر السجن الحربى ممسكين بالسياط ولكن الضرب لم يكن يحدث أمامى بعد أن عرف عنى أننى أرفض قيام عساكر السجن الحربى بالاعتداء على أى معتقل لأننى نهرت العساكر الذين شاهدتهم أكثر من مرة يضربون المعتقلين ولكن لم يكن لى سلطان على الضباط وما يفعلون داخل مكاتب التحقيق لأنى لا أملك حق الاعتراض عليهم لأن العهد كان أسود أو لم أكن أملك إلا تأدية واجبى الطبى فقط فى محاولة تخفيف حالات المصابين نتيجة الضرب بالسياط وهو ما عرفته بحكم عملى كطبيب وسمعت من المعتقلين الذين كشفت عليهم وتلك هى الصورة العامة التى أعرفها لما كان يجرى بالسجن الحربى لأننى لا أستطيع الآن بيان كل حالة على حدة لفوات مدة طويلة على ما حدث ولأنه صدرت أوامر صريحة من شمس بدران لى بعدم معرفتى لأى اسم من أسماء المعتقلين المصابين وبعدم تحرير أوراق علاج رسمية أو إثبات ما يجرى فى دفاتر مستشفى السجن الحربى وحرقت كل الأوراق المتضمنة العلاج أولا بأول لإخفاء كل ما كان يجرى داخل السجن الحربى عليها ، أعتقد وقد نفذت هذه الأوامر بنفسى لأننى لم أكن أملك الاعتراض على شمس بدران يضاف إلى ذلك ضخامة عدد المصابين الذين كشفت عليهم ولكل ذلك لا أستطيع إلا الإدلاء بمعلومات العامة لما كان يجرى دون الإدلاء بمعلومات تفصيلية عن كل حالة على حدة .

س : هل تعرف معروف أحمد الحضرى ؟

ج : أيوه .

س : ما هى صلتك به ؟

ج : ده بالذات عرفته عندما حضر إلى مصابا في مستشفى السجن الحرى وقال لى أنا معروف الحضرى وأنا ضابط فى الجيش ولذلك فأنا أذكره لهذا السبب .

س : ماهى الإصابات التى شاهدتها فى معروف أحمد الحضرى ؟
ج : لا أذكرها الآن على سبيل الدقة ولكن يمكننى أن أذكر أنه كان مصابا فى قدميه وغالبا نتيجة ضربه بالسياط عليها .

س : متى شاهدت معروف الحضرى على هذه الحالة ؟
ج : فى وقت ما لا أستطيع تحديده أثناء عملى فى السجن الحرى خلال الفترة من منتصف عام ١٩٦٥ حتى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٩٦٧ .

س : وأين شاهدت معروف الحضرى على هذه الحالة ؟
ج : شاهدته فى مستشفى السجن الحرى .

س : وكيف تسنى لك رؤيته ؟
ج : عند قيامى بالكشف عليه فى مستشفى السجن الحرى وعند الغيار على إصابته بعد ذلك .

س : ما الذى تكشف لك من فحص معروف الحضرى والكشف عليه ؟
ج : على ما أذكر كان مصابا فى قدميه وغالبا نتيجة ضربه بالسياط لا أذكر الآن عنه أكثر من ذلك .

س : ألم يدر أى حديث بينك وبينه بخصوص ما شاهدته به ؟
ج : لا أذكر ويمكن دار حديث بينى وبينه ولكن أنا لا أذكر الآن مضمون هذا الحديث ولأذكر الآن أى تفاصيل أخرى عن الإصابات التى كانت بقدمى معروف الحضرى .

س : قرر معروف أحمد الحضرى أنه بعد نقله إلى المستشفى وقيامك بالكشف عليه سمعك تقول أنا قلت لهم بلاش الطريقة دى أهو رجله حاقطعها !

ج : لا أذكر ولكن محتمل أن يكون هذا الكلام قد دار بينى وبين أحد

المرضين وأن الكلام نقل إليه فيما بعد وبعد شفاء رجله ، ولكنني
لأذكر حالياً أية تفاصيل عن إصابة السيد معروف الحضري أكثر مما
ذكرت .

س : هل تذكر أسماء الضباط الذين قاموا باستدعائك للكشف على بعض
المعتقلين أثناء التحقيق معهم في مكاتبهم ؟

ج : تم استدعائي بمعرفة بعض الضباط إلى مكاتبهم للكشف على المعتقلين
الذين كان يتم استجوابهم وشاهدت هؤلاء المعتقلين الذين كان يتم
استجوابهم وشاهدت هؤلاء وآثار الضرب على أجسادهم في مكاتب
هؤلاء الضباط ولكن لا أذكر من أسماء هؤلاء الضباط حالياً إلا اسم
شمس بدران فقط .

س : هل تذكر أسماء العساكر الذين شاهدتهم يعتدون على بعض المعتقلين
بالسجن الحرى ؟

ج : لا أذكر الآن أسماءهم ولا أعرفهم .

س : هل تبادر إلى سمعك أصوات استغاثة أو أى حركة مستفاد منها
حدوث اعتداءات ؟

ج : أبوه أحياناً كنت أسمع بعض الأصوات أثناء مرورى بجوار مكاتب
الضباط بتقول آى .. وعلى العموم أنا قلت إنه كان يتم ضرب المعتقلين
فى السجن الحرى وأنا شاهدت ذلك بنفسى عند الكشف على بعض
المعتقلين المصابين وشفيت آثارالسياط فيهم .

س : هل لديك أقوال أخرى ؟

ج : لا

تمت أقواله ووقع وكيل النيابة

ثم رأينا إعادة سؤال السيد الحاضر فدعونا وسألنا بالآتى قال :

اسمى : محمد ماجد عبدالهادى حمادة .. سابق سؤاله .

حلف اليمين

س : ما هي معلوماتك بخصوص كل من سيد قطب وزينب الغزالي وحميدة قطب وعبدالفتاح إسماعيل والمدعو البطل الذين أشرت في أقوالك أنك عرفت شخصيتهم وقمت بالكشف عليهم وعلاجهم ؟

ج : بالنسبة للمرحوم سيد قطب قضى بمستشفى السجن الحربى مدة طويلة وكان مخصصا له حجرة خاصة بالمستشفى ، ولم أشهد بتاتا أى آثار لاعتداءات عليه ولكنه كان يشكو من مرض القلب . وبالنسبة لزينب الغزالي كانت نزيلة بإحدى حجرات السجن هي وحميدة قطب فى حجرة واشتكت لى زينب الغزالي بأنها قد ضربت على قدميها وكشفت عليها ولكن لم أجد أى إصابات ظاهرة ولكنها كانت تعالج بمعرفة لى لأن لديها اضطرابات فى الهضم أما حميدة قطب فكانت راضية بقضاء الله ولم تأخذ أى علاج ولم تشتك من أى شىء طول مدة إقامتها فى السجن وتعرفت عليها بمناسبة علاجى لزينب الغزالي التى كانت معها فى حجرة واحدة . أما عبدالفتاح إسماعيل فقد شاهدته فى المستشفى أو فى زنزانه ولا أذكر شيئا عنه الآن ومعروف الحضرى سبق لى بيان حالته أما المدعو البطل فقد سبق لى ذكر حالته وأضيف الآن أننى سمعت من أشخاص لا أذكرهم أنه لم يكن هو الشخص المطلوب اعتقاله ولكن تم اعتقاله لتشابه اسمه مع اسم شخص مطلوب اعتقاله ثم لحقت به الإصابة على النحو الذى شرحته قبل ذلك ثم نقل إلى مستشفى الحلمية العسكرية حيث مات وعلى العموم فإننى حاليا لا يمكننى الإدلاء إلا بالصورة العامة التى سبق لى بيانها وهى أنه كان هناك ضرب أثناء التحقيق فى السجن الحربى بالسياط أحدث إصابات فى مواضع مختلفة من أجسام المعتقلين من الإخوان المسلمين وخصوصا القدمين والساعدين والظهر وهو ما تبين لى من كشفى عليهم ومما سبق لى بيانه تفصيلا ولا علم لى حاليا بتفاصيل كل حالة

على حدة ولا يمكنني الإدلاء إلا بهذه الصورة العامة للأسباب التي ذكرتها في التحقيق اليوم .

س : هل تذكر شيئا عن إسماعيل الفيومي ومحمد عواد ومحمد منيب والشناوى أو أى أشخاص آخرين من الذين كانوا متواجدين بالسجن الحرى أثناء عملك به ؟

ج : أنا لا أذكر إلا الصورة العامة التي شرحتها في التحقيق لما كان يجرى في السجن الحرى من ضرب بالسياط ولكنى أذكر واقعة معينة بالذات بالنسبة للأستاذ شمس الدين الشناوى وذلك نتيجة لقراءتى لكتاب محاكمات الدجوى للأستاذ شوكت التونى وهو يذكر فيه أى شمس الدين الشناوى نفسه أننى استدعيت يوما لرؤيته فى مكتب شمس بدران وكان مصابا بإصابات جسيمة وطلبت فوراً إيقاف التحقيق معه ونقله إلى مستشفى السجن الحرى وقد تم ذلك وهذا ماقرأته فى الكتاب الذى أشرت إليه الآن وأقرر أن هذه الواقعة حدثت فعلا من حيث إنه تم استدعائى إلى مكتب شمس بدران فى يوم من أيام عملى فى السجن الحرى ليلا فوجدت فى هذا المكتب ضابطا لا أذكره ومعه المساعد صفوت الروى ولكن شمس بدران لم يكن موجودا فى المكتب فى ذلك الوقت ووجدت أحد المعتقلين مصابا بجروح متعددة وفى حالة إغماء وطلبت نقله إلى مستشفى السجن الحرى وقد تم ذلك وأسعف بالعلاج ولكننى فى الوقت الذى أقرر فيه أن هذه الواقعة حدثت لا أستطيع أن أجزم بأن هذا الشخص الذى شاهدته مصابا فى هذه الليلة كان هو الأستاذ شمس الشناوى خصوصا وأنه تم استدعائى أكثر من مرة لمكتب شمس بدران بالسجن الحرى وفى كل مرة منها كنت أشاهد أحد المعتقلين مصابا بهذا المكتب وأقول إن حالته لا تسمح باستمرار التحقيق معه ولكن رغم تكرار مرات توجهى لمكتب شمس بدران فإن هذه المرة أتذكرها بالذات لأن شمس بدران لم يكن موجودا فى

هذا المرة فقط وكان موجودا في باقي المرات وفي هذه المرة أيضا قال صفوت الروي أمامي عبارات مفادها أنه متردد في نقل هذا المصاب إلى مستشفى السجن الحربى بحجة أنه عاوز يكمل معه لأن المصاب حيتكلم ، ولهذا أنا متذكر هذه الواقعة ولأن صفوت الروي عندما تردد في تنفيذ أمرى بإحضار عربة لنقل المصاب إلى المستشفى اشتكته لحمزة البسيونى وأنا صممت على نقل المصاب إلى المستشفى ونقل فعلا على نقالة ولكنى لا أستطيع الجزم بأن هذا المصاب هو الأستاذ شمس الدين الشناوى لأن الحادثة موجودة في محي ولكن المصابين جميعهم لا أذكرهم لغوات مدة زمنية طويلة ولكن أنا قرأت في كتاب محاكمات الدجوى الذى ألفه الأستاذ شوكت التونى أن الأستاذ شمس الشناوى يحكى قصته ولما قرأت قصته في هذا الكتاب ارتبطت القصة التى أذكرها في ذهني باسم شمس الدين الشناوى وده نتيجة الى قرأته في كتاب الأستاذ التونى وربطت للواقعة الى في محي نتيجة رفض صفوت الروي لتنفيذ أمرى باسم الأستاذ شمس الدين الشناوى ولكن أنا لم أكن أعرف هذا الاسم قبل قراءتى لهذا الكتاب . قد يكون الشخص الذى شاهدته في مكتب شمس بدران وصممت على نقله إلى المستشفى رغم تردد صفوت الروي شخصا آخر غير الأستاذ شمس الدين الشناوى خصوصا وأننى عاجلت مجموعة كبيرة من المصابين ولا أذكر حالة كل مصاب على حدة على سبيل الدقة للأسباب التى ذكرتها في التحقيق وخصوصا فوات مدة زمنية طويلة ولأأذكر أى شىء غير الذى ذكرته الآن .

س : ألدك أقوال أخرى ؟

ج : لا .

وكيل النيابة

تمت أقواله ووقع

٢ - شهادة الأمباشى المراكبى

محضر تحقيق

صورة طبق الأصل من أقوال محمد المراكبى فى البلاغ ٢١٨ / ١٩٧٥
فتح المحضر اليوم الثلاثاء ٦ أبريل سنة ١٩٧٦ الساعة ١٢,٢٠ مساء
بسراى النيابة .

بأهية السابقة

عدا سكرتير التحقيق فهو عبد العزيز وهبى لإثبات أنه حضر الآن سراى
النيابة محمد على المراكبى فدعونا إلى داخل غرفة التحقيق وسألناه بالآتى :

قال اسمى : محمد على المراكبى سنى ٣٧ من مواليد ٧ نوفمبر سنة
١٩٣٩ خفير بينك التسليف فى ساحل سليم مركز ساحل سليم بأسىوط
ومقيم حاليا بناحية بويط مركز البدارى سابقا ساحل سليم حاليا بمحافضة
أسىوط . بطاقة عائلية رقم ٣٨٠٨٢ سجل مدنى البدارى بأسىوط فى ١٧ /
٣ / ١٩٧٣ .

س : هل كان لك صلة بالسجن الحربى سنة ١٩٦٥ ؟
ج : أيوه أنا جندت من ١٩٦٢ وقعدت فترة فى منقباد وبعدين جيت
أساسى ٧ هنا فى المعادى وبعدين خدمت فى السجن الحربى لغاية ١/١
١٩٦٦ وكنت موجودا طبعاً فى السجن الحربى بمدينة نصر ١٩٦٥
وكنت عسكري لغاية ماترقيت أمباشى قبل ما اطلع بحوالى أسبوع .
س : ما العمل الذى كنت تقوم به خلال فترة تجنيدك بالسجن الحربى ؟
ج : أنا كنت فى سرية حراسة من ضمن سرايا الحراسة بالسجن وبعدين
انتقلت من السرية ورحت قوة المعتقلات فى السجن الحربى .
س : هل كنت ضمن قوة المعتقلات بالسجن الحربى سنة ١٩٦٥ ؟
ج : أيوه .

س : ما هي اختصاصات عمالك كفرد من أفراد قوة المعتقلات بالسجن الحرى ؟

ج : آخذ المعتقلين من الزنانات وأذهب بهم إلى المكاتب علشان الضباط يسألوهم وأرجعهم تانى بعد سؤلهم إلى الزنانات وكان العمل ده أقوم به أنا وزملائى الآخرون من أفراد قوة المعتقلات .

س : ما الحالة العامة التى كان عليها السجن الحرى سنة ١٩٦٥ ؟
ج : كان فيه معتقلون كثير لأن كان فيه ماشى فى الأيام دى قضية الإخوان المسلمين وكان شمس بدران يشرف على التحقيقات التى كان يجريها مع المعتقلين بنفسه ، وكان معه ضباط آخرون يحققون مع المعتقلين وكان بعض المعتقلين يعذبون بأمر من شمس بدران والضباط الآخريين الذين كانوا يحققون معه وكان ينفذ أوامرهم بضرب المعتقلين قوة المعتقل داخل السجن الحرى بما فيهم أنا لأننا لم نكن نقدر نخالف أوامر الضباط وكنا نضربهم علشان يتكلموا ويقولوا التهم الموجهة إليهم . والضباط كانوا يقولون لنا :

- اضربوهم لغاية ما يتكلموا !

وفيه ناس من المعتقلين دول ماتوا فى سنة ١٩٦٥ نتيجة ضربهم بأمر الضباط علشان ما اتكلموش واللى أنا فاكره دلوقت حكايتين :
الحكاية الأولى : كان واحد معتقل بينضرب عند مكتب شمس بدران وكان قدام المكتب ده نافورة ميه . والجدع ده كان بينضرب بالكراييج وهو مربوط على الفلكة وكان بيضربه صفوت الروى وعساكر ثانية مش فاكرها وأنا كنت موجود فى الوقت ده بس الجدع ده ما ضربتوش وفضل صفوت الروى والذين معه يضربون المعتقل ده بالكراييج وهو مربوط فى الفلكة لغاية ما أغمى عليه فالعساكر أنزلوه من على الفلكة وجابوه على النافورة وقعد صفوت الروى يخلى العساكر يفرغوا ميه من النافورة اللى قدام مكتب شمس بدران

ويدلقوها على المعتقل علشان يفوق ولكنه ما فاقش واتضح أنه مات من الضرب . وصفوت قال أمامي لشمس بدران :
- الجدع ده مات .

والحقيقة أنا مش فاكِر ده أنا غسلته ولا لأ ، لأنى أنا كنت عارف ربنا وكنت باخالف التعليمات واللى يموت من الضرب كنت بأغسله وأتشهد عليه وكان خرجت مع صفوت الروى وبعض زمائى الى مش فاكِرهم دلوقتى دفنا بعض الجثث ومش فاكِر الجدع ده كان من الجثث اللى دفتها ولا حد تانى من زملائى هو اللى دفنها) واللى أنا واثق منه أنه مات قصادى عند النافورة من الضرب اللى حصل له من صفوت الروى وبعض عساكر تانيين مش فاكِرهم بأمر من شمس بدران وبعض الضباط التانيين اللى ما اعرفهمش وضرب الجدع ده بالكراييج على الفلكة لأنه ما كانش بيتكلم باللى عاوزينه منه وكل ده شفته بنفسى لأنى كنت من ضمن حرس المعتقلات الموجودين عند المكاتب فى الوقت ده وسمعت منهم وهم بيضربوه إنهم عاوزينه يقول إنه من الإخوان المسلمين ومش فاكِر أكثر من كده .

والحكاية الثانية : اللى أنا فاكِرها دلوقت أن العسكرى بتاع حمزة البسيونى وكان زميلى من قوة السجن ومش فاكِر اسمه تأخر شوية فى مشوار ولما رجع حمزة البسيونى أمر بضربه عشرة كراييج وصفوت الروى خلانى أنا اللى أضربه ، ولكن العسكرى بتاع حمزة ده ماماتش من ضربى له ، والحقيقة ما حدث مات قصادى من الضرب إلا الجدع بتاع الإخوان المسلمين ده اللى كان صفوت الروى والعساكر اللى معه ضربوه بالكراييج وهو متعلق على الفلكة لغاية ما أغمى عليه وحبوا يفوقوه بمية النافورة ولكنه مات زى الناس التانيين اللى ماتت من الضرب لما مارضيتش تتكلم وأنا اشتكرت فى الضرب ده لأنى كنت بأضرب لما ما اضربش المعتقلين والعسكرى بتاع حمزة البسيونى كما

أمر بضربه وصفوت الروى خلاى أضربه ورأفت بحاله وشافنى أنا
بارأف بحاله ضربنى صفوت الروى بأمر حمزة البسيونى عشرة كراييج
وكل ده كان غصب عنى لأنى كنت عسكرى وأنفذ الأوامر وأنا
كنت بارأف بحال الناس الى يموتوا وكنت أغسلهم وأتلو عليهم
الشهادة وخرجت مع صفوت الروى ودفنا بعض الجثث فى الجبل بعد
ما غسلتها وناس زمائلى دفنوا جثث تانية .

س : أين حدث كل ذلك ؟

ج : فى السجن الحرى بمدينة نصر .

س : متى حدث كل ذلك ؟

ج : سنة ١٩٦٥ أيام الإخوان المسلمين وقضيتهم الى كان يسألهم فيها
شمس بدران وضباط تانيين وكان سؤا لهم لهم يحصل بضرب بعضهم
لما ما يرضاش يتكلم وكان سؤا لهم وضربهم يحصل عند المكاتب
وكانت جنب بعضها دور واحد وكان قصاد باب مكتب شمس بدران
نافورة على بعد مسافة بسيطة منه وسؤال المعتقلين وضربهم فى المكاتب
دى وفى المنطقة دى .

* * *

٣ - شهادة المساعد نجم مشهور

محضر تحقيق

في البلاغ رقم ٢١٨ / ١٩٧٥ حصر تعذيب ٧٦٥ / ١٩٧٦ مدينة
نصر ٩٦ / ٧٦ كلى شرق القاهرة ٥ / ٧٦ ج تعذيب . الخاص بأقوال
نجم الدين حلمى مشهور
فتح المحضر يوم الأربعاء ٢٥ / ٢ / ١٩٧٦ الساعة ١٠ بسراى النيابة .

بالمهية السابقة

حيث حضر المساعد نجم مشهور فدعونه داخل غرفة التحقيق وسألنا

بالاقي قال :

السمى : نجم الدين حلمى مشهور سن ٣٠ سنة مساعد تعيين بالسجن
الحربى بمدينة نصر مولود بكفر طرفان مركز الصف جيزة ومقيم ٢٢ شارع
حسنى فخرى بالزهراء مصر القديمة أو ٢١ شارع عبادة بن الصامت أرض
السادات قسم مصر القديمة ويحمل بطاقة شخصية للمساعدين صادرة من
القوات البرية رقم عسكرى ٤٠٧٠٧٤٠ بتاريخ يونيه ٧٥ وتاريخ انتهائها
يونه سنة ١٩٨٠ .

س : ما العمل الذى كنت تقوم به خلال سنة ١٩٦٥ ؟

ج : أنا كنت عريف كاتب فى السجن الحربى ؟

س : منذ متى باشرت هذا العمل ؟

ج : أنا باشرت عملى كعريف بالسجن الحربى فى الفترة من أول مايو
سنة ١٩٦٤ حتى اليوم ولكننى رقيت من عريف إلى رقيب سنة
١٩٦٦ ومن رقيب إلى رقيب أول سنة ١٩٧٠ ومن رقيب أول إلى
مساعد سنة ١٩٧٤ وأنا مساعد حتى الآن وعملى طوال هذه الفترة
كان بالسجن الحربى .

س : أنت كنت تقوم بعملك خلال عام ١٩٦٥ داخل السجن الحرى ؟!
ج : أنا كنت شغال فى ا ، ت الوحدة يعنى فى الإمداد والتموين وكان
مكتبى فى الوقت ده فى مواجهة البوابة وبعدين فى شهر سبتمبر سنة
١٩٦٥ نقلنى القائد حمزة البسيونى إلى قسم المعتقلات فكنت بحكم
إنى فى شئون المعتقلات بين مكتبى الى كان فى هذا الوقت داخل
السجن الكبير أستقبل المعتقلين من الإخوان المسلمين الوافدين إلى
السجن الكبير وكنت أقوم باستدعائهم واصطحابهم إلى مكاتب
الضباط لأخذ أقوالهم فكانت وظيفتى فى ذلك الوقت هى استقبال
المعتقلين وإدخالهم إلى السجن الكبير وتسكينهم فى الزنازين واخذهم
كما قلت إلى مكاتب الضباط لأخذ أقوالهم والعودة بهم مرة أخرى
إلى السجن الكبير وكانت هذه هى كل وظيفتى .

س : ما الحالة التى كان عليها السجن الحرى بصفة عامة فى ذلك الحين ؟!
ج : كان فيه معتقلين كثير قوى من الإخوان المسلمين كان عددهم فى
البداية حوالى ألف معتقل وكثروا بعد كده وكان فيه ضباط من بتوع
المباحث الجنائية العسكرية وكانوا بيقعدوا فى المكاتب اللى فى آخر
السجن الحرى من ناحية كتيبة الحراسة لأن هذا المكان فيه خمس
حجرات جنب بعضها ، الحجرة الأولى منها بالنسبة للى جاى من
السجن الكبير ومتجه ناحية كتيبة ١ حراسة كانت سكرتارية
والثانية والثالثة كانوا فاتحين على بعض وكان بيقعد فيهم العقيد شمس
الدين بدران مدير مكتب المشير فى هذا الوقت وكان بيبقى معه
مجموعة من الضباط بتوع المباحث الجنائية العسكرية أذكر منهم الرائد
هانى إبراهيم وضابط بيقولوا عليه الجنزورى وما عرفش بقية اسمه
وكانوا بيقولوا عليه إنه رائد والمكتب اللى بعد كده كان بيقعد فيه
العميد سعد زغلول عبدالكريم مدير الشرطة العسكرية والمباحث
العسكرية وكان العقيد حسن خليل مدير المباحث العسكرية بيقعد

في أى مكتب من المكاتب دى وآخر مكتب كان بوفيه . وكان يتردد على هذه المكاتب أيضا الرائد رياض إبراهيم والرائد حسن كفافي وإحسان العجاني ورائد كان اسمه رجائي ومش عارف اسمه والضابط نور عفيفي وبعدين خصص لهؤلاء الضباط مكاتب في مواجهة السجن رقم ٢ كان فيها الأربعة ضباط دول إحسان العجاني وعاصم العتر وحسن كفافي ونور عفيفي وكان كان يبقى معهم ضابط اسمه رجائي ومش عارف اسمه أما الضابط رياض إبراهيم كان قاعد في ميس الضباط اللي كان في مواجهة المعتقل رقم ١ وكان الضباط اللي في المكاتب بتاعة الإدارة واللى في المكاتب والميس اللي أمام المعتقلين ١ ، ٢ كانوا بيعتوا لى مندوبين من عندهم من بتوع المباحث العسكرية بكشف أسماء المعتقلين المطلوبين علشان يحققوا معهم فكنت أجيب المعتقلين المطلوبين من السجن الكبير وكنت أسلمهم في بعض الأحيان لهؤلاء المندوبين وكنت أقوم بنفسى في بعض الأحيان بتوصيل المعتقلين المطلوبين إلى الضباط في المكاتب وجميع المعتقلين كانوا يطلعوا من السجن الكبير للتحقيق بمعرفة الضباط دول وحالتهم سليمة وليس بهم إصابات اللي هم مطلوبين في أول مرة وكانوا يرجعون مضروبين على رجليهم بواسطة الكراييج لأنهم كانوا بيعضروا أثناء التحقيق معهم بمعرفة الضباط اللي قلت عليهم قبل كده وشفتهم بيعضروا جوه المكاتب وكان بيعضروا أمامها بره المكاتب ففي المكاتب الأخيرة كانوا بيعضروا أمام مكتب شمس بدران وأمام مكتب سعد عبدالكريم وأمام المكاتب دى وكان فيه فسقية أمام المكتب بتاع شمس بدران على بعد حوالى أربعة أمتار انشالت لما بنوا الفيلا الجديدة للإدارة في مواجهة هذه المكاتب سنة ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ واللى المعتقلين ساهموا في بنائها لأن كان فيه مهندسين من المعتقلين ساهموا فيها ومعتقلين ثانيين اشتركوا في البناء وكنت باودى المعتقلين مجموعات مع بعضهم وكانوا بينتظروا

أمام المكاتب والميس الى في مواجهة المعتقلين ١ ، ٢ وكان الضرب يبقى داخل المكاتب وأمامها والى كان يضرب أفراد المباحث العسكرية وكنت باشوف الضباط يقولوا للمعتقلين أثناء الضرب إنهم يتكلموا أحسن لهم .

س : هل شاهدت بنفسك ضرب المعتقلين على النحو الذى ذكرته الآن ؟
ج : أيوه .

س : أين كان يتم ضرب المعتقلين ؟

ج : أمام مكاتب الضباط أو داخلها .

س : متى كان يتم ضرب المعتقلين ؟

ج : أثناء سؤال الضباط لهم بالليل وبالنهار أثناء اعتقال الإخوان المسلمين من ساعة ما جم الإخوان المسلمون من أواخر شهر يوليو ١٩٦٥ ولغاية محاكمتهم وكان الضرب يبدأ من بعد الظهر كل يوم لغاية وقت متأخر من الليل لأن كان فيه كهرباء في السجن عبارة عن لمبات كبيرة تضيء السجن كويس وكان فيه كان ماكينة ديزل كبيرة لتوليد الكهرباء كان الضباط ينوروا بها السجن لما النور ينقطع ويعيد الأشغال العسكرية عملوا سكينه على مصر الجديدة والعباسية علشان النور ما ينقطعش أبدا وكان النور ينور جوه المكاتب وأمام المكاتب .

س : كيف كان يتم ضرب المعتقلين ؟

ج : كان يتم بالفلكة والكرباج السودانى الى كان بيستورد من السودان وكان منه في السجن الحرف مجموعة كبيرة من الكراييج السودانى .

س : هل يمكنك وصف هذه الفلكة ؟

ج : أيوه هي كانت عبارة عن حديدة كبيرة أحيانا أو خشبة كبيرة في أحيان أخرى وفيها حبل من النصف يتركب في يدى المعتقل ورجليه يرفعوها اثنين فيكون المعتقل مقلوب رأسه مقلوبة لتحت ورجليه ويديه لفوق والى بيضربه بيضربه بالكرباج وهو متعلق كده على

رجليه وكان الضرب ييجى على بقية الجسم لأنى شفت بنفسى ناس
وركها كان فيه ضرب من الكراييج ورأسها متعورة من الكراييج لأن
الكرباج اللى كان يستعمل فى الضرب طويل زى « الفرقلة » بتاعة
عربجى الخنطور وما ينقطعش وكانت الفلكة بيثيلها اثنان أو تتسند
على كرسيين ويثيلوها اثنان علشان ما تقعش من على الكراسى وكان
فيه أمام المكاتب مظلة خشبية عبارة عن عواميد خشبية واقفة بالعرض
وكان فى السقف بتاعها عروق خشبية ممكن يتدلى منها حبال ساعات
تتعلق الفلكة فى الحبال دى وكان بينضرب المعتقلون وهم متعلقين فى
الفلكة بالكراييج سواء كانت الفلكة دى متعلقة فى المظلة اللى أمام
المكاتب أو مسنودة على كرسيين أو شابلها اثنان وكان أحيانا يتم
ضرب المعتقلين قبل تعليقهم على الفلكة بالأقلام وبالأيدى على وجعهم
وقفاهم وجسمهم .

س : ألم تشاهد أى صور أخرى للاعتداء على المعتقلين فى ذلك الحين ؟!
ج : كان فيه .. مثلا كانوا يجيوا الست ويدخلوها على زوجها المعتقل
فى زيارة عادية ويقيمى تحت الكرسي اللى هو قاعد عليه جهاز تسجيل
علشان يعرفوا أسرارهم وكان فيه أودة فى السجن الكبير كانت مليانه
ميه وكانوا بيحطوا فيها المعتقلين وكان المعتقلون العواجيز يسكنوهم
فى الدور الثالث علشان يتعبوا فى الصعود والنزول وكان ممكن أن
يسكنوهم فى أول دور ورغم أننى كنت أسكن المعتقلين فكان الضباط
يأمرونى أن أحط ده هنا وده هناك فى زنزانة انفرادى وكان فيه زننازين
رغم أنها فى نفس المساحة بنحط فيها مجموعة من المعتقلين وكان فيه
كان مخازن على شمال الداخل من بوابة السجن الكبير كان ينحط فيها
مجموعة كبيرة من المعتقلين مع بعضهم ، وحسن الهضيبي كان فى
السجن رقم ٣ وكان فى زنزانة فيها معه كلاب وسمعت كان إن زينب
الغزالى اتعلقت على الفلكة وضربت رغم أنها ست وهى قالت كده بنفسها

وحميدة قطب قالت لى إنها ضربت بالكرباج على جسمها وشفّت
أنا والدكتور ماجد آثار الكراييج على جسمها وسمعت أن فيه معتقلين
ماتوا من الضرب زى محمد عواد وإسماعيل الفيومى ورفعت بكر شافع
ابن أخت حميدة قطب وهى اللى قالت لى على ابن أختها ده وسمعت
إن اللى ماتوا من التعذيب دفنوا ولا أعرف أين دفنوا وده الكلام اللى
أنا سمعته من المعتقلين اللى قالوا لى إنهم شافوا الحكايات دى بأنفسهم .

س : من أى مصدر علمت بتعذيب بعض المعتقلين حتى الموت ؟
ج : من بعض المعتقلين ، قالوا لى هذا الكلام بعد انتهاء محاكمتهم زى
سليم جمعه مثلاً ومجدى عبدالعزيز ومش فاكراً أسماء تانية .

س : هل حددوا لك أسماء المعتقلين الذين ماتوا من التعذيب ؟
ج : لما هديت القضية خالص وكنت باقعد معهم فى الزنازين قالوا لى
إن فيه ناس انضربت أمامهم عند المكاتب لغاية ما ماتت وقالوا لى
إن من الناس دى محمد عواد وإسماعيل الفيومى ، وحميدة قطب قالت
لى على ابن أختها رفعت بكر شافع لأنى أنا كنت أقول لها شدى
حيلك دى حاجات كلها بتاعة ربنا فقالت :

- إزاي أشد حيلى وأنا واخده عشر سنوات وأخويا سيد إعدام
وابن أختى رفعت بكر شافع مات من التعذيب وأخى محمد وابن
أختى عزمى فى ليمان طره .

* * *

٤ - شهادة الأمباشي أبو زيد

أوشك المحققون على الانتهاء من قضايا التعذيب بعد أن اكتملت أمامهم صورة الأحداث التي وقعت في الماضي . ولكن تدور تساؤلات :

هل صحيح أن حسن كفاي ورياض إبراهيم وصفوت الروبي لم يعترفوا حتى الآن وأنهم يقسمون على الإنكار ويتفننون في أساليب التهرب ؟ إن المأثرة تضيق عليهم يوماً بعد يوم ، فقد اعترف الصول نجم مشهور على جميع الذين شاركوا في مجزرة السجن الخرنى ، كما يسميها نجم ، واعترف أيضاً صف ضابط مجند اسمه أبو زيد مرعى أبو زيد حضر المجزرة وبقي في السجن الخرنى ثمانى سنوات شاهد فيها بشاعة ما حدث !

التقيت (الكلام للمرحوم جابر رزق) بالأمباشي أبو زيد وسألته :

— متى جندت ؟

— جندت في ١٩٦٥/٤/٥ وأمضيت شهرين بمركز تدريب المعادى نقلت بعدها إلى السجن الخرنى . وعندما دخلنا إلى السجن الخرنى وجدنا أناساً مدينين في « التندبات » أمام المكاتب ، وأناساً آخرين يحمل كلا منهم اثنان من المسكر وأفراداً آخرين يضربون .

سألت البتشاويش السيد عبد المولى لماذا يعذب هؤلاء الناس بهذه الطريقة ؟ فأخذت أربعين كريباجاً على رجلي .

ويقول الأمباشي أبو زيد :

— كانت « الشلاجة » أصعب وسيلة تعذيب في السجن الخرنى وهى زنزانة بجوار دورة المياه في السجن الكبير تملأ بالماء ويلقون فيها بالشخص في عز الشتاء ويبقى بها حتى يعترف بما يريدون ، إلى جانب أن هناك حجرة الكلاب التى كانوا يحبسون فيها الممتقلين فترات طويلة وكانت بالغة القذارة نتيجة تبرز الكلاب فيها ، كما أنهم كانوا يطلقون بعض الكلاب على أحد

المعتقلين لتزقه بأنيابها .

ويضيف الأمباشي أبو زيد :

- إن بعض عساكر السجن الحرى كانوا يمعنون في تعذيب المعتقلين حتى لا يكونوا هم عرضة للتعذيب .. وكنا نعيش في عذاب بسبب ما نرى ، وأحيانا كان الواحد منا لا يملك مشاعره ، فليقى به في الزنزانة .. لقد حبست أنا نفسي ٣٢ يوما في الزنزانة لأننى « مستشيخ » ولم أكن من اللون الذى يناسبهم .

سألت الأمباشي أبو زيد .. عن أبرز حدث وقع له في السجن الحرى ؟

فقال :

- ذات ليلة كنت نائما في المعتقل رقم ٢ على السرير . فوجدت في الثانية صباحا بالوصول صفوت يرفسنى بخدائه .. استيقظت مذعورا .. سألتى الوصول صفوت :
- أنت رجل أم امرأة ؟
قلت له :

- رجل يافندم .

فوجدت بمسحبه الأمباشي رشاد عبداللطيف يحمل رشاشين .. أعطاني أحدهما وأخذاني وركبنا عربة يجلس بها رجل يرتدى الملابس المدنية جلس الوصول صفوت مكان السائق وقاد العربة وكنت أنا ومحمد خاطر ورشاد عبداللطيف والرجل المدنى راكبين في الخلف .. وكان في قلب العربة لغة بطاطين مكومة وعدد من الفئوس .. وعدد من « الكوريكات » لا أعرف عنها شيئا .. سارت بنا العربة في الطريق الذى يقع خلف الإستاد حتى تجاوزنا مدينة نصر ودخلنا في الجبل عندئذ وقفت العربة ونزل الوصول صفوت ومحمد خاطر ورشاد عبداللطيف والرجل المدنى وأخذوا الفئوس والكوريكات وتركوني وحدى وغابوا عنى أكثر من نصف ساعة وكان الوقت متأخرا ، فسيطر على الخوف ، وكان الجو باردا .. فأحسست بالبرد

وأردت أن أُلَف نفسي بإحدى البطاطين المكومة في العربة .. ولكنى ما كدت أمسك ببطانية منها حتى وجدت جثة إنسان قتيل فيها فأصبت بالرعب وصرخت . ولم أدر ماذا حدث لى بعد ذلك . لأنى عندما انتهت وجدت نفسي على سرير فى مستشفى السجن الحرى . لقد أغمى على عندما رأيت الجثة . ومنذ تلك الليلة وأنا مصاب بحالة اهتزاز فى الأعصاب .

بعد أيام جاء فى الأوامر أن أحد المعتقلين هرب وأن الهارب عسكرى أو أمباشى لا أذكر لأنه هرب منى ومن الشاويش الديزل وقالوا كنا خارجين به إلى المستشفى وأنا لم أخرج فى مأموريات إلى المستشفى ولم يهرب منى أحد . فقال لى زملائى أنك أخذت جزاء لأن أحد الإخوان هرب منك . ولما قلت للوصول صفوت .. أنا لم يهرب منى أحد صرف لى عشرين كرابجا على قدمى فى حوش السجن أمام زملائى ، ووضعت فى الزنزانة بعد ذلك مدة ثم أخرجونى .

ويضيف أبو زيد :

- أقول لك إنه خلال فترة السنوات الثمانى التى عشتها فى السجن الحرى لم يهرب أحد خلالها .. كيف يهرب والحراسة مشددة والسور عال ، والأبواب من وراء أبواب ، كلها مغلقة . وعلى كل باب حرس لا يمكن أن ينام .

وقال : إننى رأيت الحاجة زينب الغزالى تعذب كالرجل تماما . كانوا يوثقونها من يديها ورجليها ويعلقونها فى « الفلكة » ويضربونها بالسياط .. وعن ذكرياته عن حمزة البسيونى .. يقول :

- كان عندما يدخل حمزة البسيونى من باب المعتقل أدخل أنا دورة المياه لأنه كان شريرا ، يحبى كل من يقابله بالسياط .. وكان إذا أمسك بفردة شنبه اليمين فإن حارسه يفهم أن هذا أمر بإعطاء من يحدثه عشرين سوطا .. وإذا أمسك بفردة شنبه الشمال ، فإن العقوبة عشرة كراييج فقط .. وهكذا

تختلف العقوبة بين فردتى الشنب اليمين والشمال !

وعن صفوت الروبى يقول :

- كانت شخصيته مهية . إذا وقف أمامه أحد تتعطل فيه لغة الكلام .. وكان صف ضباط السجن ينادوننا بالكراييج ..

وذات مرة كنت نائما فى المعتقل وكان الصول صفوت قد جمع كل القوة وأمرنا بأن نرش السجن الحرى « بالقصارى » حتى أغرقناه وكان صف ضباط السجن يمسكون بالسياط ليضربونا وكان الوقت شتاء . ظللنا نرش حتى الساعة الثانية ليلا وكنا فى شهر رمضان ولم نتناول « السحور » ، ولكنهم أفرغوه فى دورة المياة فعجزنا عن الصيام فى اليوم التالى .

- لقد كنا نعذب تماما كالمعتقلين .. وكنا نعيش فى حالة رعب حتى خارج السجن .. كانوا يؤكدون لنا أن هناك من يراقبنا .. ويقولون لكل واحد منا .. أنت أخرس .. أنت أعمى .. أنت أصم .. لاترى .. ولا تسمع .. ولا تتكلم .. سواء داخل السجن أو خارجه .. وأذكر أنه كان معنا عسكري اسمه إبراهيم ، اهتموه أنه زار نجوى قواد فجاءوا به وضربوه حتى استأصلوا له الكلية .. وكان معنا شاويش فى العيادة اسمه صلاح يعامل المعتقلين معاملة حسنة فدبروا له تهمة أنهم وجدوا معه طينجة وأنه يساعد الإخوان ، وكادوا يفتكون به ولكن صلاح اختفى ، ولا أحد يعرف عنه أى شئ حتى الآن .

ويقول أبو زيد :

- لقد رأيت متهمين كثيرين فى قضايا عديدة جاءوا إلى السجن الحرى .. رأيت رتبا كبيرة على كتف كل منهم رطل نحاس ينزعه صفوت الروبى .. ويعلق أصحابه على الفلكة .

وجاء اليوم الذى وقفت فيه حارسا على الرائد رياض إبراهيم فى مستشفى
الخلمية .. وحارسا على حسن عيسى وعصام خليل فى مستشفى المعادى ..
ورأيت قضية المشير وقضية « كمشيش » .
وعندما أردت أن استريده من ذكرياته عن تلك الفترة التى عاشها فى
السجن الحربى قال لى
- أنا لم أذق طعم النوم أمس .. لأنى عندما بدأت أشهد بما رأيت
وتذكرت ماحدث فى تلك الأيام قضيت الليل كله سهران !

* * *

الجلاد صفوت الروى !!

في كل محنة من المحن التي أنزلت بالإخوان منذ أن ظهروا كقوة هددت أمن أعداء الإسلام في الخارج (الصليبية ، واليهودية ، والشيوعية) ، وهزت كراسي الحكم في الداخل سواء في عهد الملكية ، أو في عهد الجمهورية ، اشتهر جلاد أو مجموعة من الجلادين دخلوا التاريخ من أقدر أبوابه . في المحنة التي أنزلت بالإخوان في عهد الملكية أيام حكم إبراهيم عبد الهادي صار اسم « العسكري الأسود » على كل لسان ، وصارت قصته وصمة عار على حكام هذا العهد . لقد استعمل هذا « العسكري الأسود » في التهديد بهتك أعراض الإخوان ، وأعراض أخواتهم وزوجاتهم وسجلت الصحافة بعد زوال عهد إبراهيم عبد الهادي قصص التعذيب وحكايات وأحاديث على لسان العسكري الأسود . وفي المحنة التي أنزلها جمال عبد الناصر بجماعة الإخوان المسلمين والتي أراد بها وأراد بها أسياده أن يسحقوا جماعة الإخوان المسلمين ، ويقتلعوا شجرة الدعوة الإسلامية في القرن العشرين بتمثيلية المنشية التي دبرتها أجهزة أمنه وعملاء المخابرات الأمريكية من رجال عبد الناصر بالاتفاق مع عبد الناصر نفسه ويشهد بذلك « الصديري المضاد للرصاص » والذي بسببه تأخر إلقاء خطاب عبد الناصر وقت الحادث حتى أحضر له . وكانت الطلقات التي أطلقت من مسدس غير مسدس محمود عبد اللطيف الإخواني الذي اتهم بإطلاق الرصاص ، إشارة البدء لسحق جماعة الإخوان . وقبل حادث المنشية بأشهر اختير الجلاد حمزة البسيوني ليكون « المنفذ » لمذبحة السجن الحرى الأولى وذاع صيت حمزة البسيوني وملاً الآفاق .

أما مذبحة السجن الحرى الثانية والتي كانت وراءها المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية عن طريق رجالهما أمثال شمس بدران وسامى شرف فقد كان اسم الأمباشى « صفوت الروى » والذي كوفى بترقيته إلى رتبة ملازم

شرف أشهر أسماء الجلادين في هذه المذبحة .

سيذكر تاريخ الإرهاب اسمه إلى جانب الجلادين السابقين له .. لقد كان وحشا بشريا شراسته فاقت كل تصور أو خيال !

سيبقى اسم صفوت الروبي محفورا في ذاكرة كل ضحية من ضحايا السجن الحرى طوال عهد عبدالناصر سواء كان من الإخوان أو من غير الإخوان .

كان صفوت الروبي جنديا أمضى فترة تجنيده في الفترة من ١٩٥٧ وحتى ١٩٦٠ ثم تطوع عريفا بالجيش في عام ١٩٦٠ ليعمل مع أستاذه الجلاد حمزة البسيوني . ويبدو أن حمزة البسيوني نفسه هو الذى اختار صفوت الروبي .. بقى صفوت الروبي في السجن الحرى عريفا حتى رقى في سنة ١٩٦٠ إلى رتبة شاويش وبقي كذلك حتى بدأت مذبحة الإخوان في سنة ١٩٦٥ وأذكر أننى رأيته وهو يعلق « ثلاث شرائط » فقط .. ولم تنته المذبحة حتى أصبح ملازما .. لقد رماه شمس بدران إلى هذه الرتبة مكافأة له على إصراره في التعذيب والتنكيل وجرائته في التعذيب حتى حد القتل وجسارته في دفن الضحايا في ظلام الليل وسط صحراء المقطم .

ويقول الأستاذ سيف الغزالى أحد الذين حضروا المذبحة ، كان صفوت الروبي جلاد السجن الحرى هو الحاكم بأمره يتصرف في المعتقلين بأسلوب لم يحدث له مثيل في أى عهد من عهود الظلم في العالم كانت الأوامر تصدر له من شمس بدران أو من كبار رجال الشرطة العسكرية أمثال سعد زغلول عبدالكريم فكان يطورها إلى هذا الأسلوب اللا إنسانى البشع ..

لقد كان نموذجا بشريا غريبا وشاذا ينطلق بين المعتقلين يعذب ويقتل كالمجنون .. كان التعذيب هو أسلوبه في معاملة الجميع حتى حرس السجن من العساكر قد ذاقوا على يديه ألوانا من القسوة والعذاب لا تقل عن تلك التى أوقعها بالمعتقلين .. كان يضربهم بالسوط والرأس .. والشلوت ، حتى

إننى رأيت أحد الجنود يمسح له حذاءه وهو واقف . وبعد أن مسح له الحذاء كافأه بضربه « بالشلوت » .

كان صفوت الروى نموذجاً « للسادية » التى يقول بها علماء النفس .. بل أقسى درجات « السادية » كان يتلذذ ويستمتع وينتشى بالتعذيب وتزداد نشوته إذا كان الشخص الذى يعذبه بديناً سميناً عندئذ تراه منتشياً وهو يمزق بالسوط جسد الضحية سعيداً لأنه يستطيع أن يظهر على الجسد البدين فعل السوط .. ويرسم على الجسد ما شاء له خياله المريض .. لقد صارت له شهرة فى فن استعمال السوط .. حتى كان يطلب أحياناً إلى مبنى المخبرات العامة أيام صلاح نصر لممارسة هذا الفن مع من شئت المخبرات أن تعذبه عذاباً لا يسمع به أحد من العالمين أما إذا كان جسد المعذب نحيفاً وهزيلاً فإن الجلاد صفوت الروى يمتعض لأن السوط فى الجسد النحيف لا يترك الآثار الواضحة على اللحم .. إنما يمزق الجلد سريعاً وتسيل الدماء ويغرق فيها الضحية .

كان صفوت الروى يدرّب العساكر الحرس على فن التعذيب ليخلق منهم جلادين .. وكان هذا التدريب يتم فى العساكر أنفسهم .. أذكر أنه فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس ١٩٦٥ وكانت عمليات القبض على الإخوان قائمة على قدم وساق ويرد إلى السجن الحرنى الآلاف منهم وبدأت زنانات السجن الكبير تمتلئ بالمعتقلين وكانوا يخرجوننا إلى دورة المياه بعد أذان الفجر مباشرة وكل حارس يسوق أمامه أفراد زنزانة أو زنانتين ويذهب بهم إلى دورة المياه ليقضوا حاجتهم فى دقائق أذكر أن صفوت الروى دخل إلى السجن فجأة وصرخ حارس بوابة السجن الكبير « ثابت » فوقف الجميع وثبتوا فى مكانهم وأصبحوا كالخشب المسندة وإذا بصوت صفوت الروى يصرخ ..

- المعتقلون إلى الزنازين .. أمن عليهم يا ابن الـ .. والـ ..

ثم صرخ :
- اجمع الحرس .

في لحظة دخلنا الزنازين وأغلقت علينا الأبواب ووقفت على نظارة باب الزناينة فرأيت صفوف وقد جمع أمامه الحرس وأمسك أمباشى السجن وركله وصفعه وأعطاه بالشلوت وضربه بالرأس ثم أجلسه على الأرض ومزق قدميه بالسوط وأخذ يفعل مثل هذا مع جميع الحرس ، والسبب هو أنه رأى أن معاملة العساكر- وكانوا ما زالوا جدد- ليست كما ينبغي من القسوة مع المعتقلين .. وأفاد الدرس ومنعنا الحراس لمدة ثلاثة أيام من الذهاب إلى الدورة حرمونا من الماء حتى ساءت حالتنا .. وامتألت القصرية بالبول والبراز وملأت الرائحة الكريهة الزنازين حتى أصبحت الحياة داخل الزنازين لا تطاق . لقد وعى الحراس الدرس الذى أعطاه لهم صفوف الروى فكان كل واحد من الحرس بعد ذلك يمسك سوطا في يده أو عصا يلهب بها ظهور المعتقلين وهم في الطريق إلى الدورة وفي العودة منها كذلك .

وحادثة أخرى .. وكان الوقت عصرا ولا ندرى ما السبب دخل صفوف السجن الكبير وارتجت صرخة حارس بوابة السجن بكلمة « ثابت » وجمع صفوف الحرس وبعد أن وجه لهم أقزع الشتائم أمرهم بأن يرشوا حوش السجن حتى أغرقوه بالماء وكان أحد الأمباشية الذى يشرف عليهم جاء من سجن آخر من السجون الحربية وظل يلهبهم بالسوط أثناء الرش بناء على أوامر صفوف .

وبعد أن انتهوا من عملية الرش أمرهم بالانبطاح على الأرض على بطونهم ثم أمرهم بالزحف في الطين ثم أمرهم بالوقوف ونخلع الأحذية وأن يمسك كل منهم حذاءه بأسنانه واستمر الحال على ذلك الوضع طوال طاوور التعذيب لقد كان حراس السجن الحربى يناههم من التعذيب ما يملأ نفوسهم حقداً وكراهية وغيظا فينعكس ذلك كله على معاملتهم للمعتقلين .

وكان أسلوب صفوت الروى فى تربية جلاديه الصغار هو نفس الأسلوب الذى يستعمله الحراس بعضهم مع بعض فكانت الرتبة الأعلى تعذب الرتبة الأقل .. والعسكرى القديم يعذب العسكرى المستجد !

ويقول الحاج عباس السيسى التاجر برشيد والإسكندرية :
- لأستطيع أن أنسى هذا اليوم كان أول شهر رمضان وكنا واقفين فى طابور الصباح وكان أقصى طابور ، لأننا كنا نجرى ساعة كاملة أو أكثر جريا سريعا متواصلا بقصد الإنهاك الجسمى كوسيلة من وسائل غسيل المخ العملية التى طبقوها علينا طوال ثلاثة وعشرين شهرا فى السجن الحرقى .. فى ذلك اليوم دخل صفوت الروى .. ونادى :

- فىن عبدالفتاح رزق شريف ؟
وخرج المهندس محمد عبدالفتاح رزق شريف وكان مريضا وسنه حوالى ستين عاما يجر رجله جرا .. قال له صفوت :
- تعال هنا !

ولما اقترب منه قال له :
- أنت صاحب وكالة أبشروا .. ولم يتركه يجيب ولكنه صفعه صفعة على وجهه ألقت به على الأرض فاقد النطق والوعى وأيقنا أنه مات وظن صفوت ذلك ولكنه تصرف بسرعة أمر أحد الحرس أن يحمله ويذهب به إلى المستشفى وصرخ فىنا .
- سريعا جرى ..

وبدأنا نجرى .. وأثناء الجرى إذا بالمهندس محمد عبدالفتاح رزق شريف يخرج من المستشفى صاحب الوجه يسوقه الحارس بالسوط وهو شديد الإعياء كأنه خارج من القبر .. لقد كان سبب ذلك أن المهندس محمد عبد الفتاح رزق شريف كان يفسر رؤى الإخوان على أنها إرهابيات زوال حكم جمال عبد الناصر .

ويقول الشيخ نصر عبدالفتاح مدرس اللغة العربية :

- كان صفوت الروي كثيرا ما جعل من نفسه طيبا يكشف علينا ويصرف لنا الدواء من عنده ولكن أى دواء؟! . لما طالت الطوابير واستمرت فترة طويلة أثناء عملية غسيل المخ التى أجريت للإخوان أجهدنا وأنهكت قوانا وكان طابور الصباح قاسيا ومجهدا للشيخ والمرضى من الإخوان .. فكنا نبلغ عيادة ونحكي للطبيب أمراضنا فكان يسمح للشيخ الفانى والمريض المزمّن بعدم الجرى مع الطابور السريع وأحيانا كان صفوت الروي هو الذى يتولى سؤالنا عن أمراضنا ويبدأ فى صرف العلاج وكان علاجه عشرين سوطا أو عشرة أو ثلاثين أو طابور زحف على الأرض أو الإلقاء فى مياة الفسقية !

كان صفوت الروي ينتشى من سماع صراخ المعذبين لأن صراخهم دليل على دقته وبراعته فى أداء المطلوب منه ومهارته فى فن التعذيب وكان يغيظه كثيرا أن يكف المعذب عن الصراخ والتأوه . وذات مرة كان يعذب الأخ المهندس الزراعى محمد بدير زينه وكان محمد بدير عتيدا وصلبا ، وعنده قدرة على التحمل ويرفض أن يصرخ أو يتأوه من التعذيب .. وأمره صفوت الروي أن يرفع قدميه وأخذ يضربه .. لم يصرخ بدير ولم ترتعش قدماه ولم يخفضهما وكان يمسك ساقيه بيديه .. وضرب صفوت بدير بحنق وغيظ .. والأخ بدير لم يتحرك .. فهاج صفوت الروي وأرغى وأزبد ونادى الأمباشى نجم مشهور وقال له :

- أعطه ألف كرباج !

وأخذ نجم مشهور يضرب بدير ويقول له

- اصرخ يا ابن ال .. ارحم نفسك !

وفى النهاية لم يشف صدر صفوت الروي من محمد بدير إلا أن ألقاه مرة فى مياة الفسقية ونزل العسكرى على الأسود وركب على كتفيه وأخذ يغمس رأسه فى الماء ويصفعه على وجهه !

وكانت مقاومة الضحايا لصفوت الروى أثناء التعذيب تغيظه كثيرا ..
وقد حكى لى الأخ محمد رحى عبدالرحيم أنه فى أول يوم وصل فيه إلى
السجن الحرى أراد صفوت أن يطرحه على الأرض ولكن رحى دفع
صفوت بيده فكاد يلقى به على الأرض .. لم ينس صفوت هذا الحادث
لرحى حتى ضبط رحى فى زنزانة الشهيد عبدالفتاح إسماعيل وكان محرما
على أى واحد من الإخوان أن يدخل زنزانة غير زنزانتة .. وعلم صفوت
بهذه الحادثة فأنزله إلى فناء السجن وكان اليوم يوم جمعة وأخذ يعذب الأخ
رحى بالسوط على قدميه حتى مرقهما تمزيقا مما منع الأخ محمد رحى من
حضور المحكمة أمام الدجوى لأنه لم يكن يستطيع الوقوف .. ولو حضر
لكانت فضيحة للمحكمة .. وللسجن الحرى !

لقد كان حمزة البسيونى قائدا للسجن الحرى ولكنه كان عجوزا لا يقدر
على شىء ، كان فى محنة سنة ١٩٥٤ فى عنفوانه .. يطمع أن يكون وزيرا
كزملائه من رجال الصف الثانى من ضباط عبدالناصر .. فنفذ رغبة
عبدالناصر فى إبادة الإخوان وقد ذاع صيته وبلغت شهرته الآفاق حتى
أصبح علما من أعلام الجلادين فى العالم .. أما مذبح السجن الحرى الثانية
فكان شمس بدران هو الخادم الجديد الذى نفذ رغبات أسياده وكان
المتصرف الفعلى فى المذبح والحاكم بأمره وكان حمزة البسيونى كالوحش
العجوز الذى خارت قواه وخمدت ضراوته ولم يعد يصلح .. ووجد شمس
بدران فى صفوت الروى بغيته حتى صار صفوت هو حمزة البسيونى
الحقيقى .. المنفذ لخطط شمس بدران فى تعذيب الإخوان وإبادتهم وغسل
مخ الباقين منهم على قيد الحياة لقد أعطاه شمس بدران نفوذا فاق نفوذ كثير
من الضباط فى السجن وكثيرا ما خالف صفوت أوامر الضباط .

لقد كان اسم صفوت الروى يدخل الرعب فى قلوب المعتقلين .. وكان
صوته نذير شر لجميع من فى السجن سواء حراس أو معتقلين ودارت
الأيام .. وعلمت أن صفوت الروى سيقف أمام النيابة للتحقيق معه حول

الانتهاكات الموجهة إليه من الضحايا الذين قتلهم .. أو عذبهم .. ذهبت ومعنى المصور الصحفي لمجلة الإذاعة والتلفزيون غريب حسن وأردنا أن نأخذ صوراً لصفوف الروى .. وعندما دخل صفوف الروى أمام النيابة بزيه الرسمي كملازم شرف .. لم تسمح له النيابة بالجلوس ووقف طوال فترة التحقيق وهي فترة تصل إلى حوالي ثلاث ساعات .. وعندما خرج كنت أنا أيضاً أمام النيابة أؤدي شهادتي في إحدى قضايا التعذيب .. وأراد المصور أن يصور صفوف الروى أثناء خروجه من النيابة ولكن محامي صفوف الروى أمسك بالكاميرا وفتحها وأخذ الفيلم .. وأنا أمام النيابة علمت بأن صفوف الروى في إحدى الحجرات المجاورة للحجرة التي أنا بها .. فاستأذنت وكيل النيابة في تأجيل سماع بقية شهادتي حتى أستطيع أن أؤدي عملي كصحفي . روى لي المصور غريب حسن حكاية فتح الكاميرا وأخذ المحامي للفيلم .. فسألته عن المحامي فقال لي إنه عند المحامي العام السيد هاشم قراعة رئيس جهاز قضايا التعذيب .. فدخلت حجرة المحامي العام وطلبت من المحامي الحصول منه على الفيلم ولكنه رفض .. فتركته وخرجت وسألت أين صفوف الروى فقبل لي إنه في الحجرة المجاورة . فقلت للمصور غريب أعد الكاميرا وفتحت الباب ولكن صفوف الروى الذي كان يرعبنى في السجن الحرى ويزلزلني صوته وجدته يرتعد ويرجوني ..

- يايبه .. احميني من المصور .. يساعدني اليه أنا أريد وكيل النيابة .. دخلت على صفوف الروى ودفعته بيدي وقلت له ..

- مالك خائف .. لقد أخذت إذناً بالتصوير أمسك صفوف الروى بالبيري ليخفي وجهه .. وأخذ يصرخ .. وتمكن المصور أن يلتقط صورتين له وهو يمسك البيري ليخفي وجهه . وكان نصرًا حققه المصور لأن جميع الجرائد والمجلات نقلت عنا هذه الصورة .

وعندما نشرت مجلة الإذاعة والتلفزيون تحقيقاً عن شخصية صفوف الروى وعلم صفوف بذلك بكى لوكيل النيابة واتهمه بأنه هو الذي سهل لنا تصويره (نفس المصدر السابق)

ملاحق

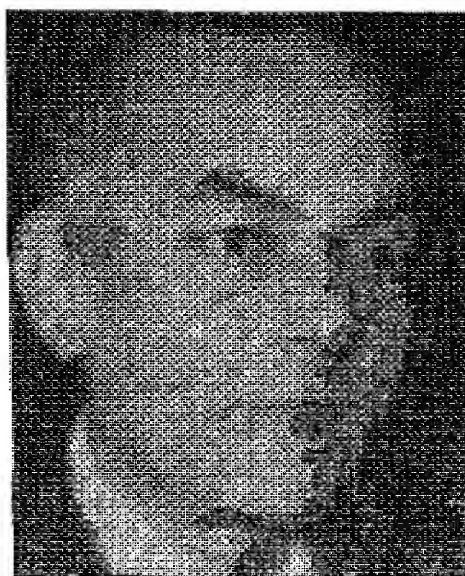
القائمة السوداء

تضم أسماء أشهر الجلادين الذين ساهموا في هزيمة
يونية سنة ١٩٦٧ وخراب مصر بالتشكيل والتعذيب
البشع الذى صنعوه بالمعتقلين من الإخوان المسلمين سنة
١٩٦٥ وغيرهم. وقد كتبت الأسماء حسب الحروف
الأبجدية .

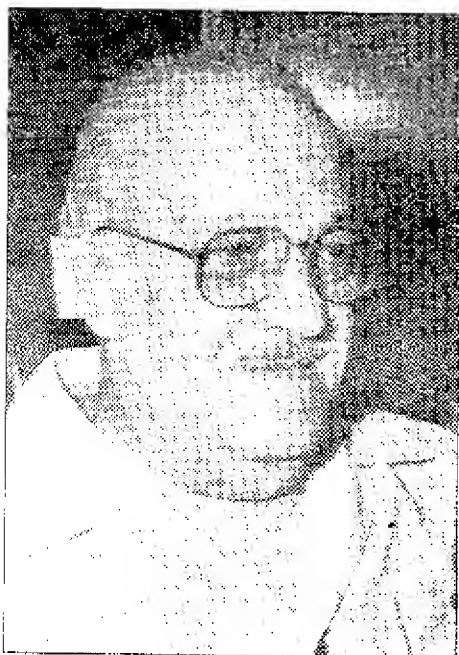
والغرض من هذه القائمة ألا ينسأهم الناس، وقد يأمر
النائب العام بالتحقيق مع الأحياء منهم وتقديمهم
للمحاكمة .



أحمد راسخ



أحمد رشدي



حسن أبو باشا



فؤاد علام

أسماء الجلادين

١٢ - حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة السابق	١ - إحسان العجاني موظف بالرقابة الإدارية الآن
١٣ - حسن علي حسن خليل ضابط مباحث عسكرية سابق	٢ - أحمد رشدي وزير داخلية سابق
١٤ - حلمي محمد الصاوي أومباشي سابق	٣ - أحمد زكي راسخ مساعد وزير الداخلية الآن
١٥ - حمزة البسيوني مدير السجن الحرى السابق (متوفى)	٤ - أحمد صالح داود ضابط متوفى
١٦ - رشاد عبد اللطيف نصر أومباشي سابق	٥ - أحمد صلاح بدر عميد بحرى ورئيس محكمة سابق
١٧ - رشاد غالى برسوم مجنّد سابق	٦ - أحمد عبد الحميد وشهرته أحمد أبو ودان
١٨ - رشاد غالى اليومى مفراک مجنّد سابق	٧ - تقى الدين سليمان شرف الدين وشهرته سامبو
١٩ - رياض أحمد إبراهيم ضابط مباحث عسكرية سابق	مجنّد سابق
٢٠ - زغلول مجاهد عبد الحليم مجنّد سابق	٨ - جلال عمر مصطفى الديب ضابط مباحث عسكرية سابق .
٢١ - زكريا عمار ضابط مباحث أمن دولة سابق	وهارب من حكم القضاء فى أسبانيا
٢٢ - زكريا محيى الدين نائب رئيس ورئيس وزراء ووزير سابق	٩ - جمال عبد الناصر حسين الزعيم ورئيس الجمهورية السابق
٢٣ - سامى خضير محافظ بورسعيد الحالى	(متوفى)
٢٤ - سراج الدين محمد محمد على مجنّد سابق	١٠ - حسن أبو باشا وزير داخلية سابق
	١١ - حسن التيمى لواء سابق ورئيس محكمة

٢٥ - سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث العسكرية السابق (متوفى)	٣٨ - فتحى عبد الغفار التلمة أمباشى سابق
٢٦ - سعد شعبان درويش مجنّد سابق	٣٩ - محمد رجب محمد بكر مجنّد سابق
٢٧ - سعيد محمود محمد بدوى مجنّد سابق	٤٠ - محمد السيد متولى خاطر مجنّد سابق
٢٨ - شعراوى جمعة وزير داخلية سابق (متوفى)	٤١ - محمد صفوت خليل الروى مساعد أول سابق
٢٩ - شمس الدين على يدران وزير حربية سابق	٤٢ - محمد عبد القصود الجنزورى ضابط مباحث عسكرية سابق
٣٠ - صلاح الدين إبراهيم سعد مجنّد سابق	٤٣ - محمد عصمت محمد مصطفى ضابط مباحث عسكرية سابق
٣١ - عبد الحكيم عامر نائب رئيس ومشير سابق (متوفى)	٤٤ - محمد على طه وشهرته النوى مجنّد سابق
٣٢ - عبد السلام حامد المدعى الاشتراكى الخالى	٤٥ - محمد على المراكبى رقيب سابق
٣٣ - عبد المنعم الصيرفى ضابط أمن دولة سابق	٤٦ - محمد فؤاد توفيق علام وشهرته فؤاد علام أو الباشا ضابط أمن دولة سابق
٣٤ - عصام الشوكى ضابط أمن دولة سابق (متوفى)	٤٧ - محمد فؤاد الدجوى فريق متوفى وسلم قطاع غزة سنة ١٩٥٦
٣٥ - على حافظ رقيب سابق	٤٨ - محمد موافى محمد شاهين مجنّد سابق
٣٦ - على صبرى رئيس وزراء سابق	٤٩ - محمدى المطرقة مجنّد سابق
٣٧ - على عبد الله وشهرته على الأسود أمباشى سابق	٥٠ - مختار صالح محمد ضابط مباحث عسكرية سابق

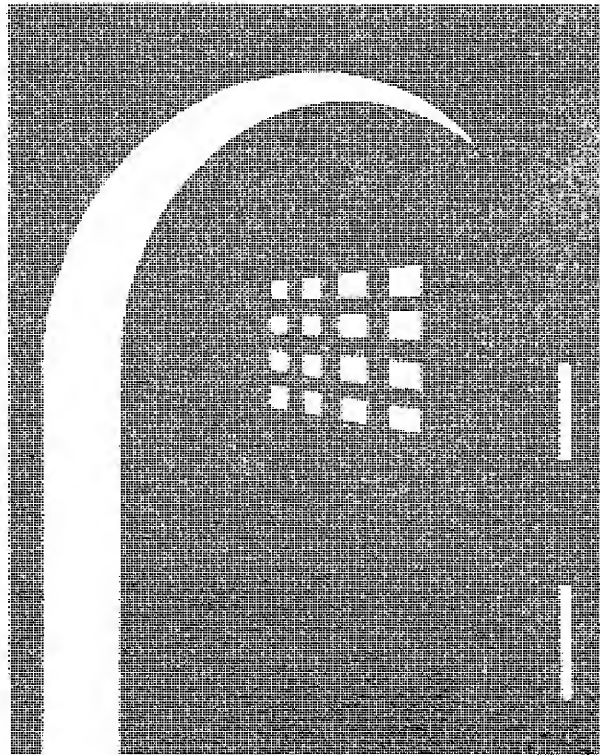
٥١ - ممدوح البتاجى رئيس الهيئة العامة للاستعلامات الحالى	٥٤ - نصر عبد السميع عبد العزيز مجنّد سابق
٥٢ - نجم الدين على مشهور رقيب سابق	٥٥ - نور الدين عفيفى محافظ جنوب سيناء الحالى
٥٣ - نديم حمدي ضابط أمن دولة سابق	٥٦ - هانى إبراهيم ضابط مباحث عسكرية سابق .

* * *

ملاحق

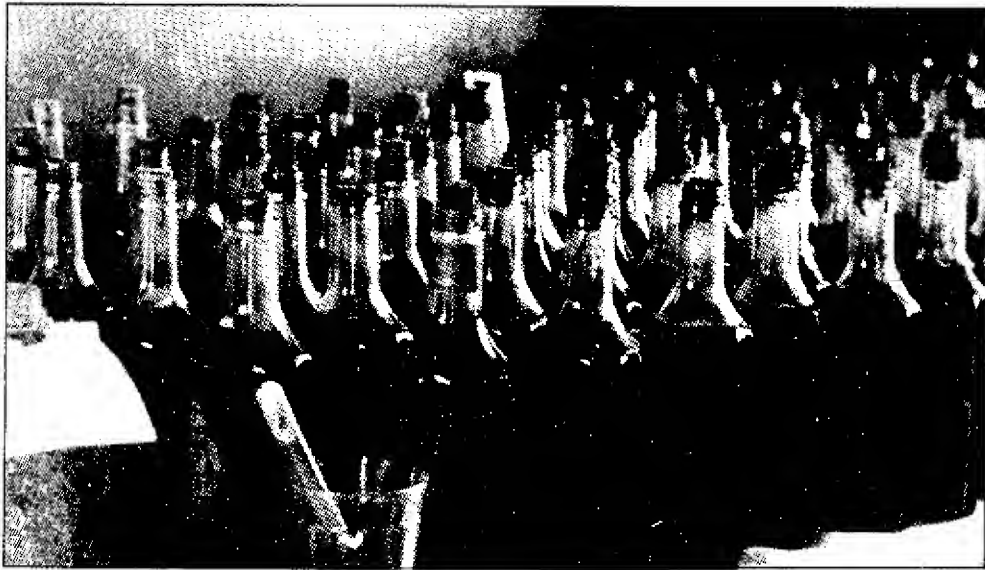
«البر لا يبلى»
والذنب لا ينسى
والديان لا يموت»

نكبة الإخوان المسلمين
عام ١٩٦٥ بالصُّور





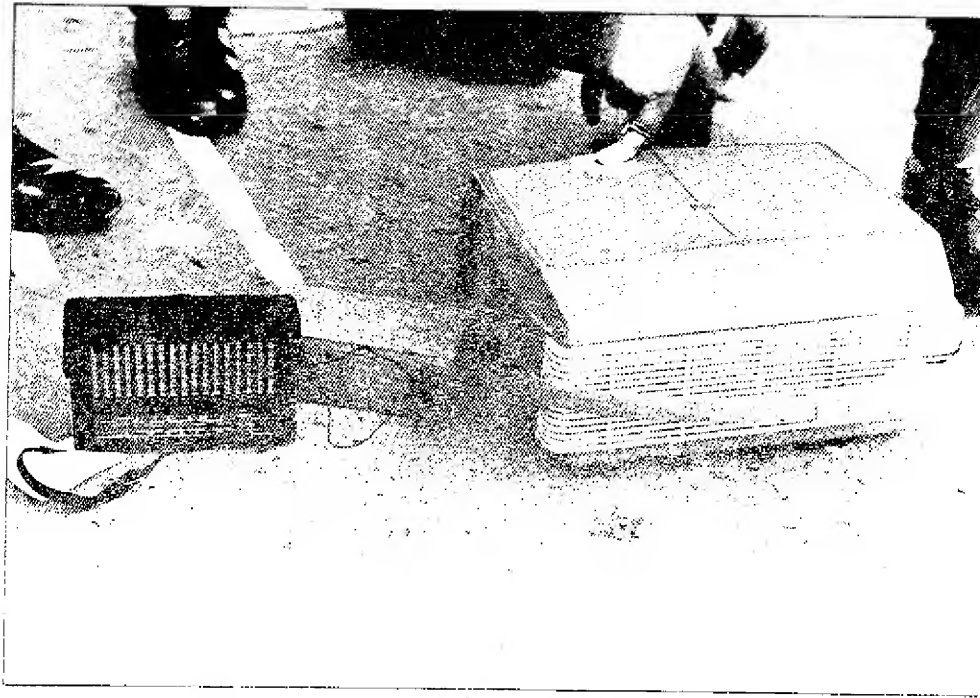
المؤلف (أحمد رائف) بعد ربع قرن من الأحداث



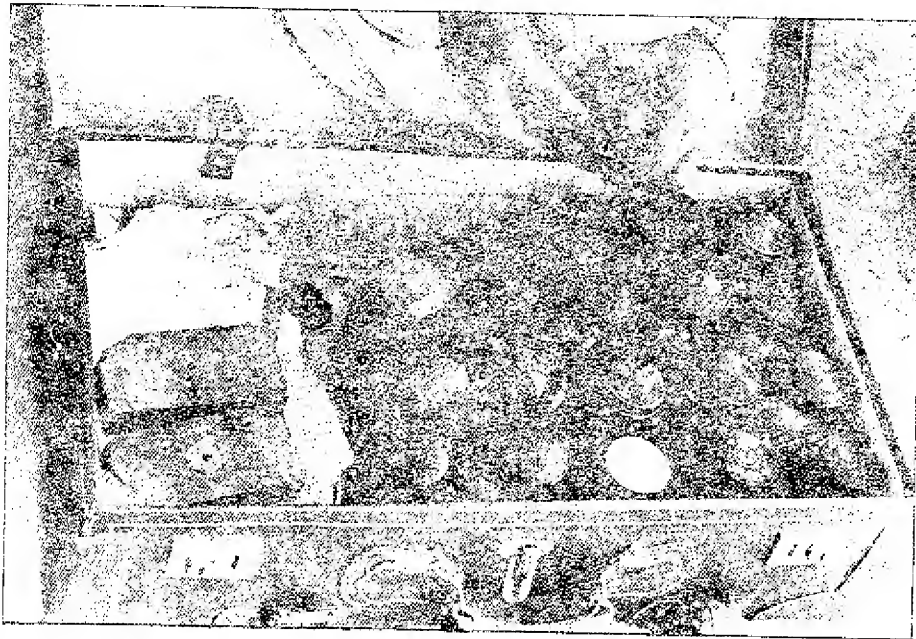
زجاجات خل لزوم نجاح الانقلاب



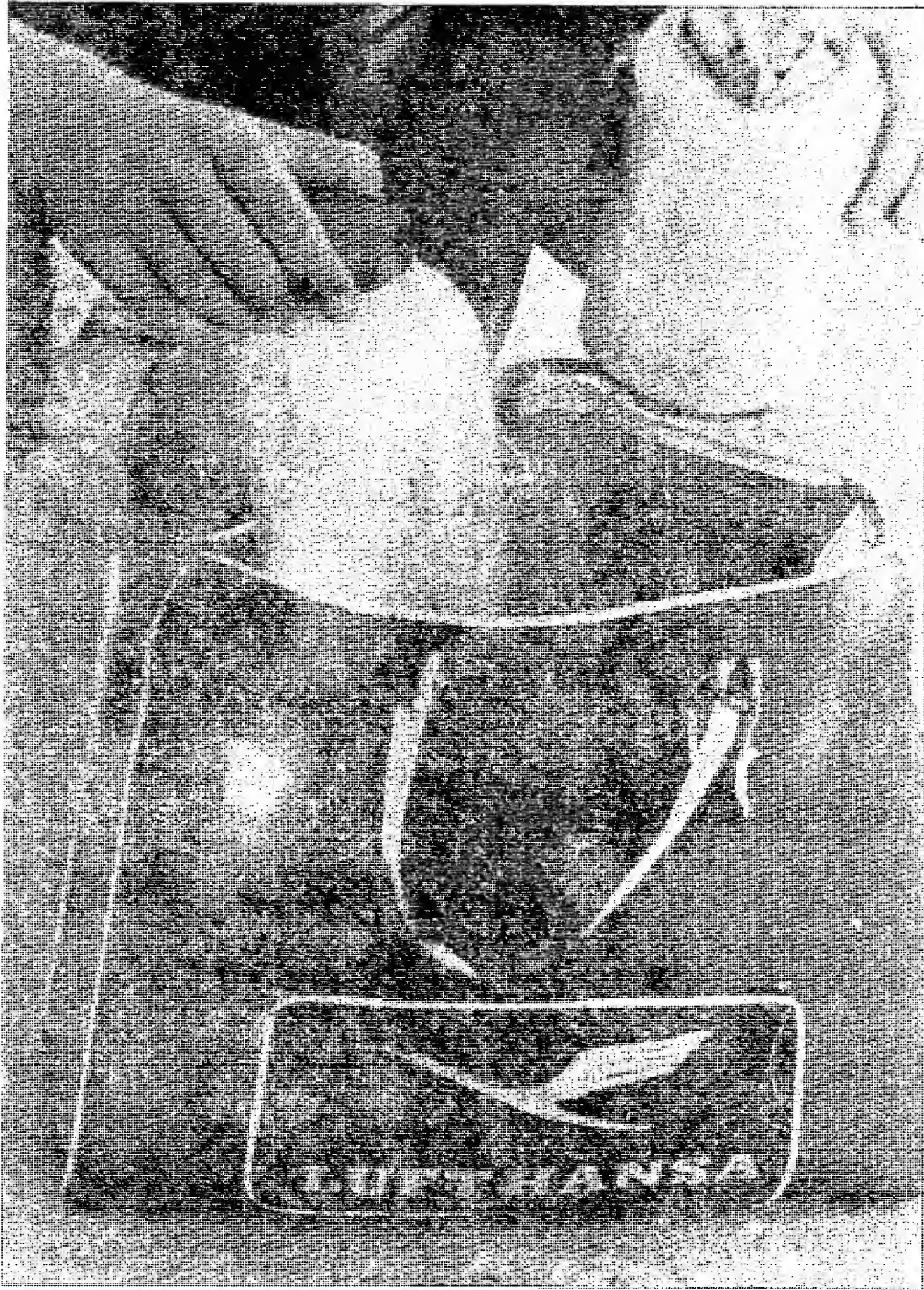
أدوات غير مفهومة قالوا إنها مضبوطات



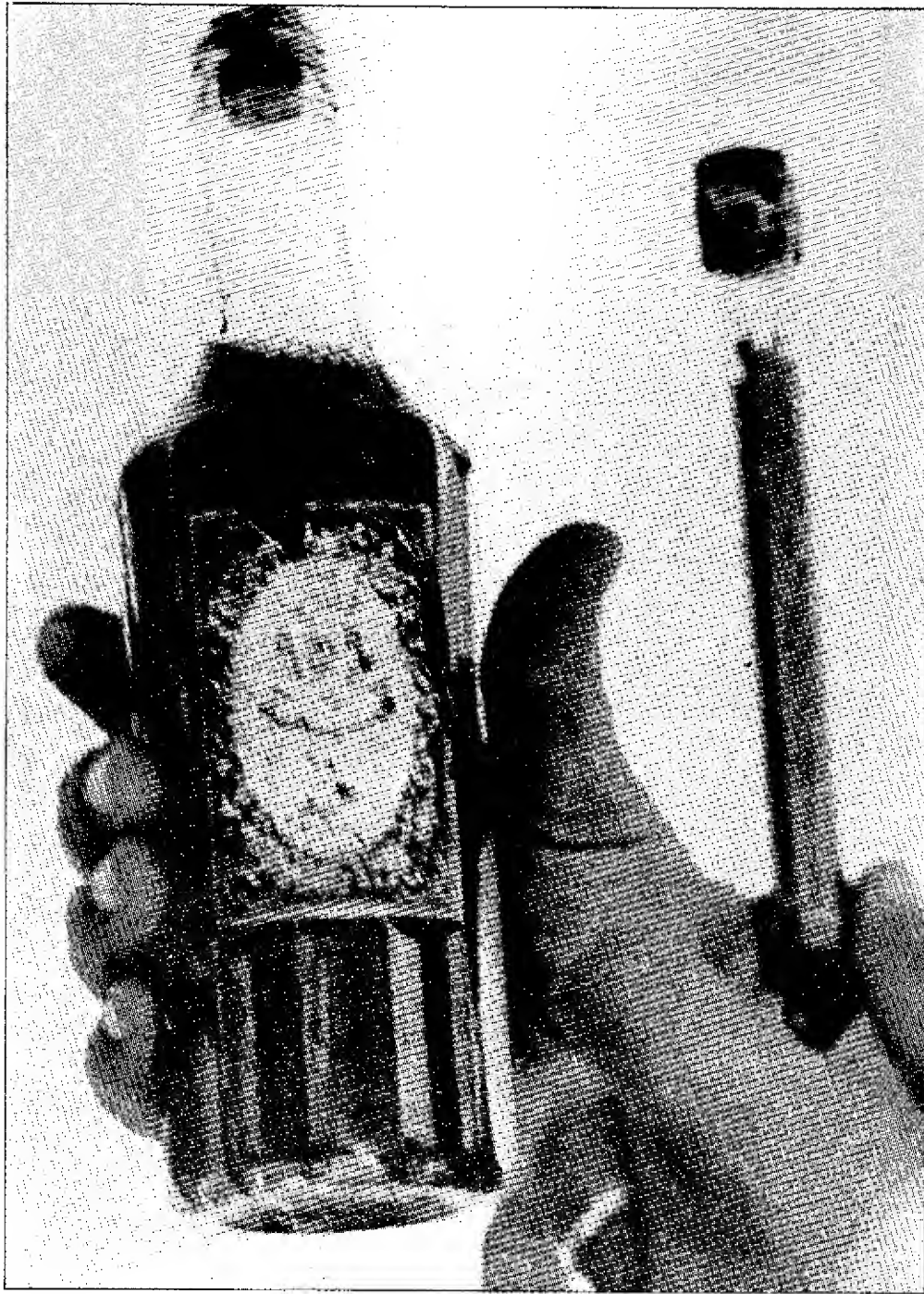
مسجل وراديو قاتلوا إنها أدوات إرسال .. لمن ؟



برطمانات مربة من ضمن المضبوطات



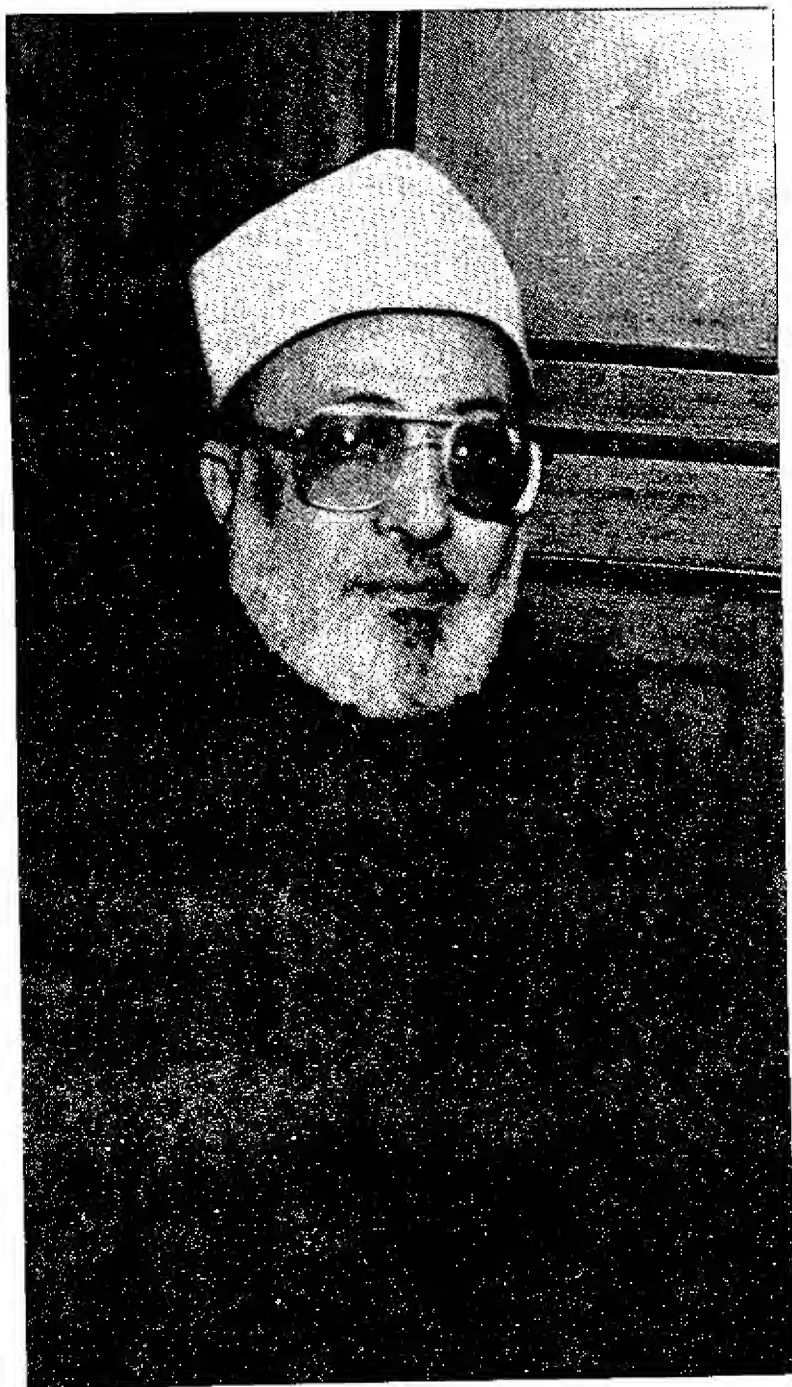
فلفل وكمون وحبهان لزوم قتل جمال عبد الناصر



كولونيا من نوع متوسط في الصفحات الأولى



أحمد عادل كمال



المرحوم الشيخ محمد المطراوى



الدحوي يتأمل



الدحوي يضحك



الشهيد في مواجهة الجلاد



فؤاد الدجوى ألقى بيانا ضد مصر في إذاعة إسرائيل



محكمة دائرة ثانية لزوم تأديب المصريين



المرشد العام للإخوان حسن المصيطبي يستمع إلى الحكم



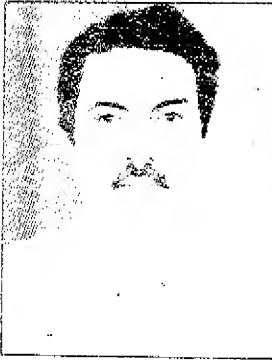
المرحوم حسن المصيطبي يتكلم عن الصبر والتحمل



حسن مراد



عبد الفتاح زمرغام



سمير الحضيبي



حدي إسماعيل



محمد الغنام



ولنصبرن علی ما آذیتموننا



تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد.



عبد الفتاح إسماعيل يستمع إلى الحكم



الإعدام شنقا صبرى عرفة الكومى

الطريق إلى المحكمة





تفضل الجلاد على الشهيد بكوب من الماء



في قاعة المحكمة



سيد قطب (صورة قديمة)



حميدة قطب تنقسم إلى أحبا الشهيد



الشهيد سيد قطب ومن خلفه الشهيد يوسف هوش



لحظات من التأمل والاعتبار



متى ينتهى هذا المهرجان



رجوع يومئذ ناصرة



وعما قريب ينتهي الأمر كله ..



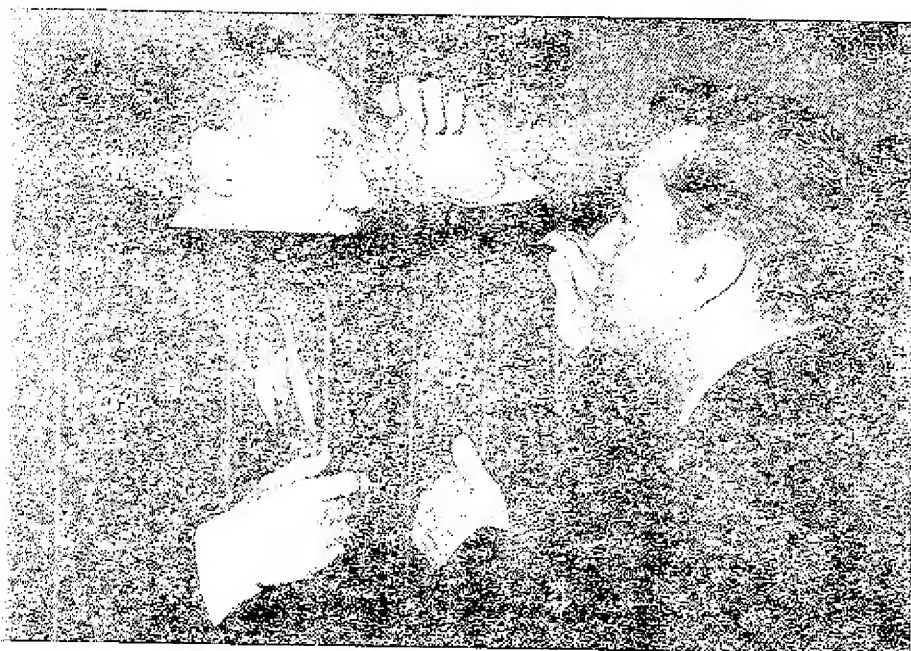
ولدت عيسى بن أمية



بسملة وعودة بين الآلام



هسة في أذن الشهيد سيد قطب



سيد قطب : إنهم كادون مضنون



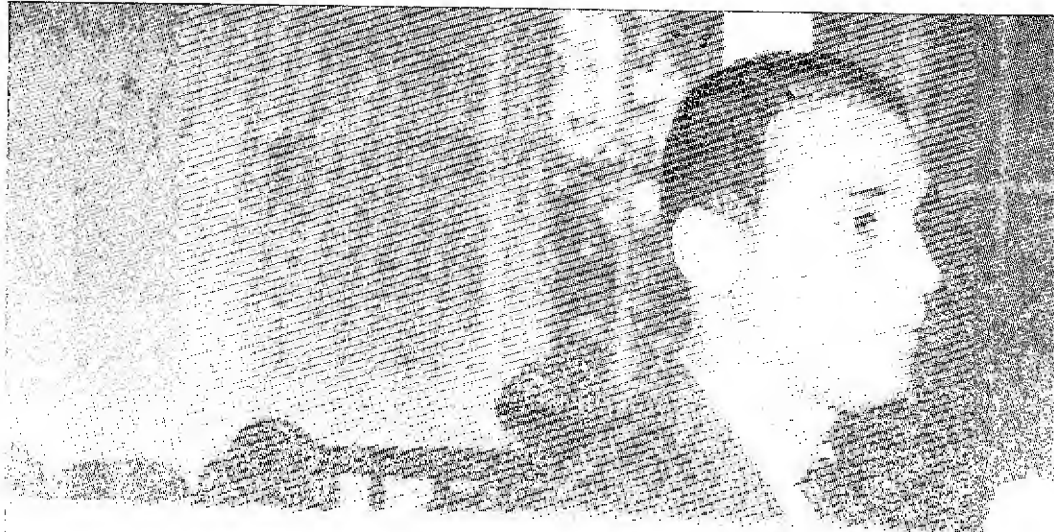
شهيد ميم فطيم يسجل بعض النقاط



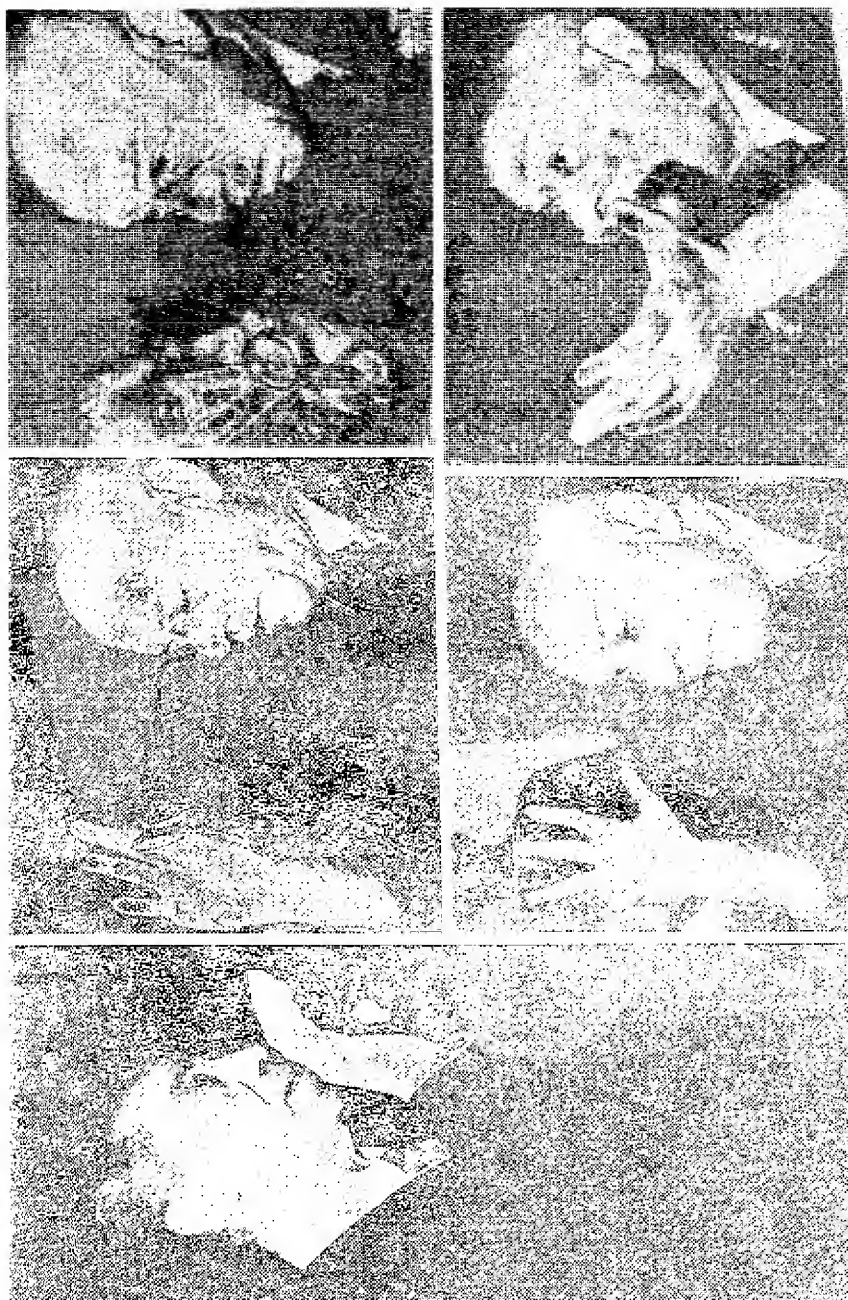
مازلنا في انتظار الفرج



بالغ النصب منها !



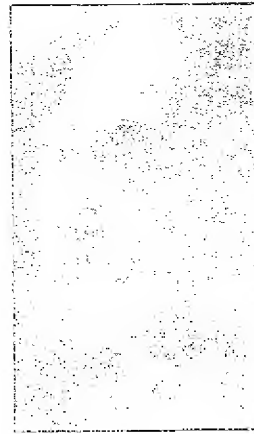
الذى اتيناه اياتنا فانسلخ منها (على عشاوى أمام المحكمة)



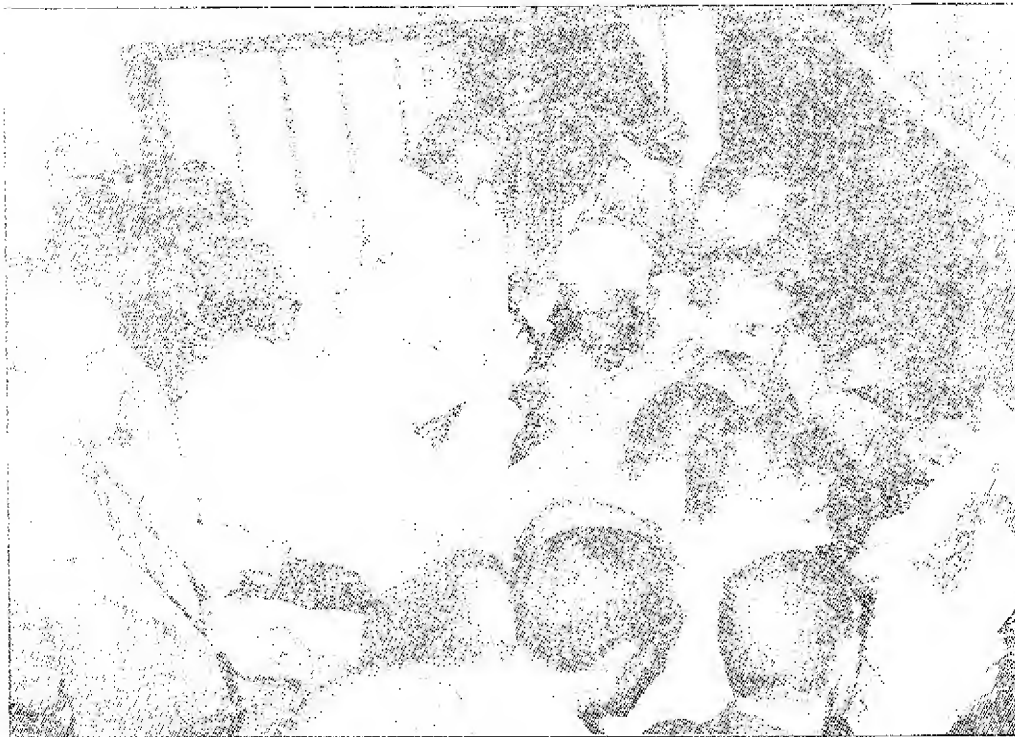
عندما يكون السفاح هو القاضي



شبهان يمارس أحد القمص



نظرة إلى المستن



فرصة للاطلاع على الصحف



الشهيد عبد الفتاح إسماعيل

الشهيد عبد الفتاح
إسماعيل يقرر

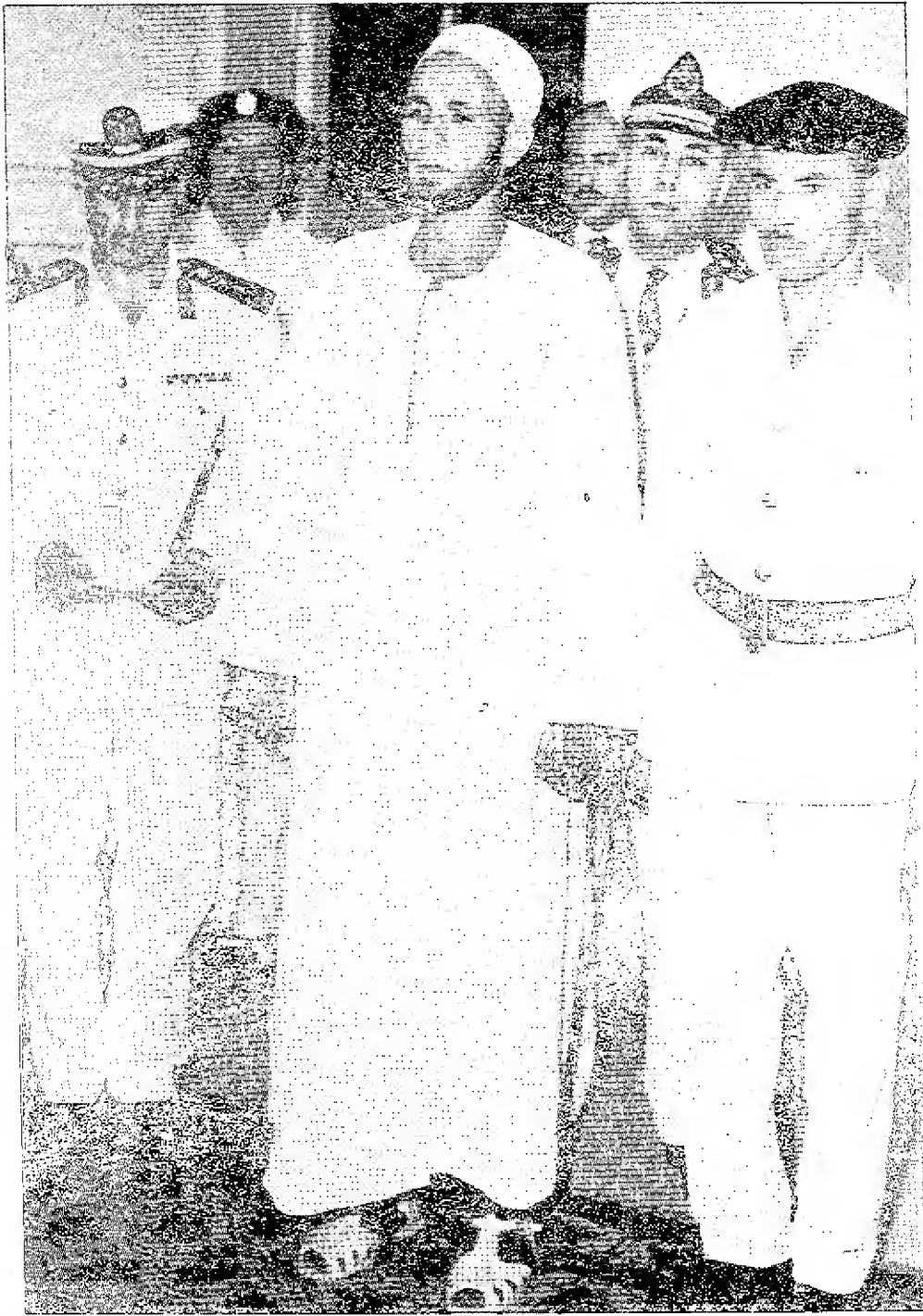


يؤكد بعض النقاط



مستمرا في بيانه





الشهيد عبد الفتاح إسماعيل يستمع إلى حكم الإعدام



زينب الغزالي ومن خلفها حميدة قطب



زينب الغزالي تستمع إلى حكم المؤبد



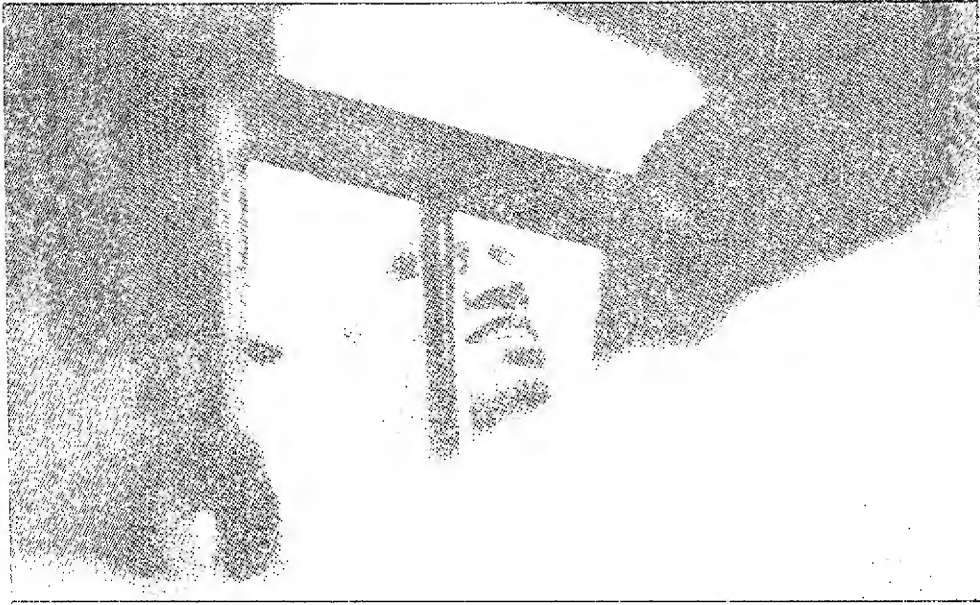
لا إله إلا الله محمد رسول الله



تأييداً والحمد لله



في انتظار المطر بالحكم



من خلف القفص (زينب الغزالي)



بعض الملاحظات (زينب الغزالي)



القاضي يطردها من القاعة



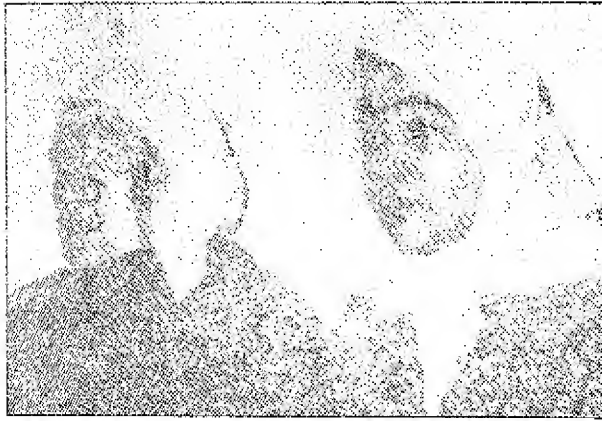
زينب الغزالي



قبل الدخول لسماع الحكم



أمام مبنى المحكمة



في قفص الاتهام



عند سماع الحكم أيضا



مجدى عبد الحميد



صلاح نصار



عبد السلام حامد



على عشموى



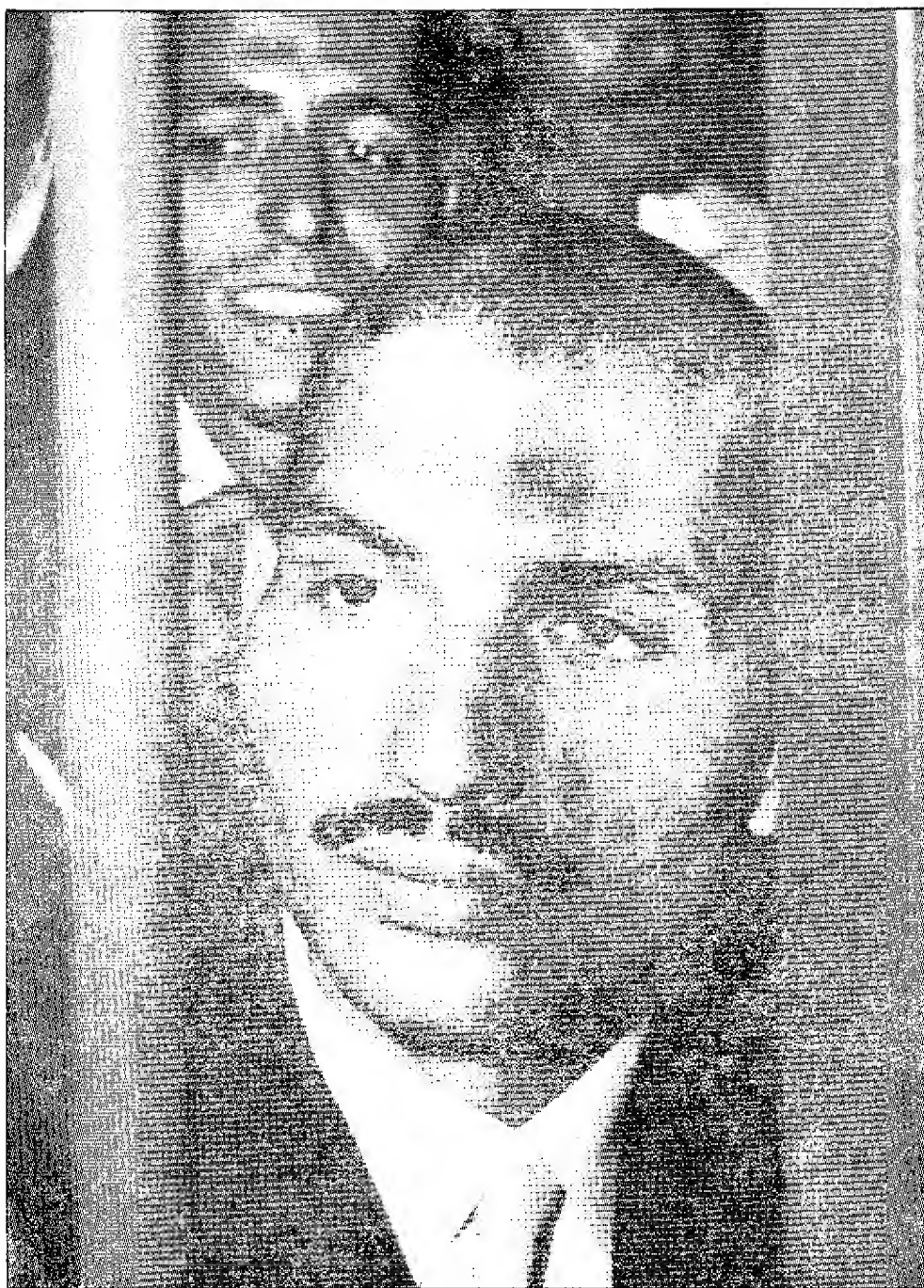
أحمد عبد الوهيد



محمد يوسف هوش



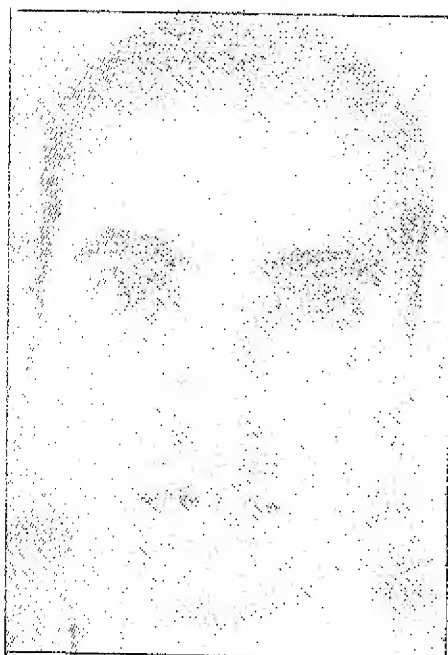
صبرى عرفة



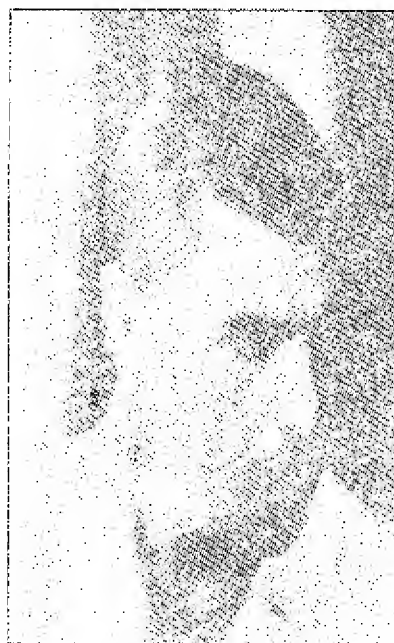
عبد المجيد الشاذلي



في القفص



الشهيد فاروق المنشاوي



مجدى عبد العزيز



محمد رحمنی



مجدی عبد العزيز



ممدوح الديري



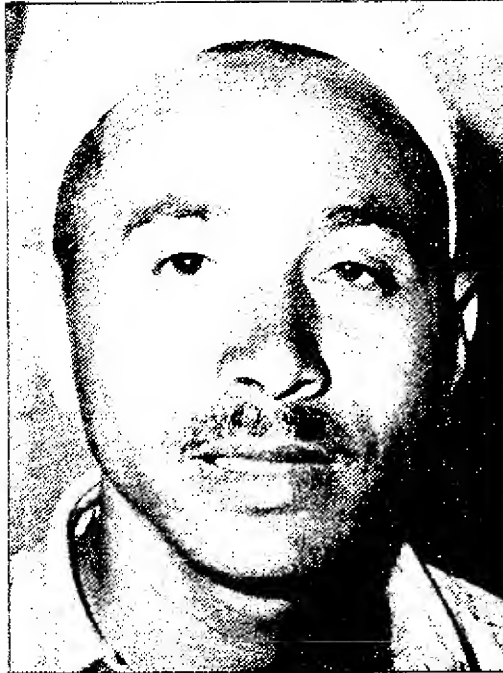
إمام غيث



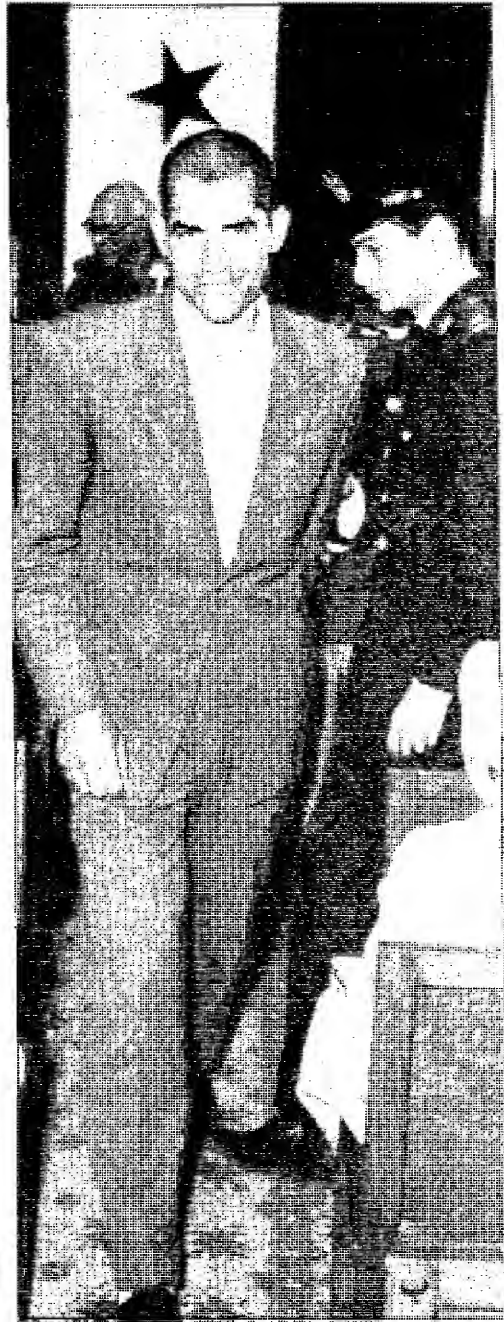
فایز اسماعیل



فؤاد حسن علي



محمد عبد الرسول الخروبي



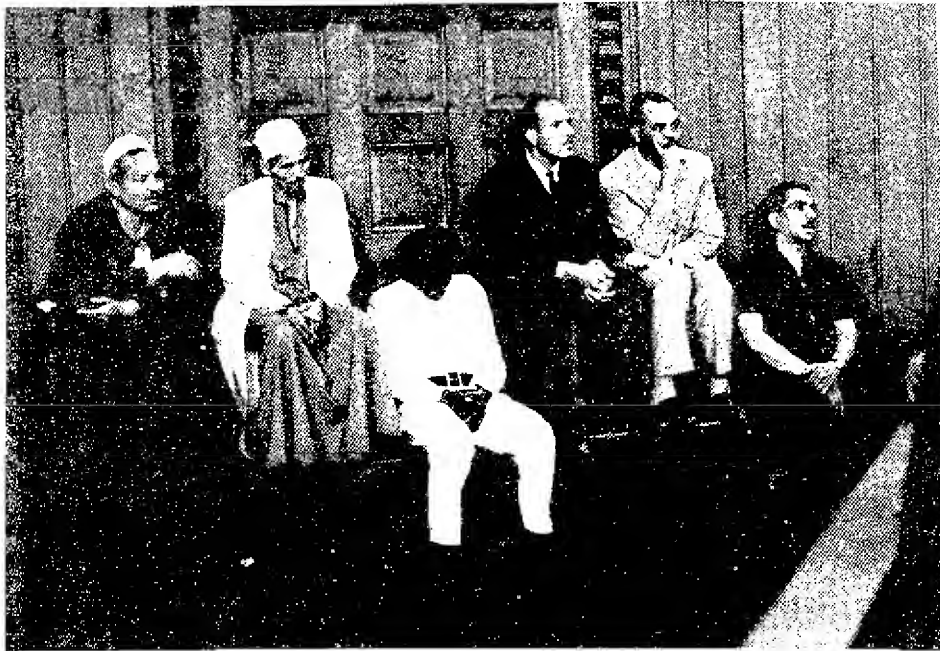
المأمون زكريا



محمد عبد المعطي الجزار



الحاج عباس السيسى فى شبابه



فى انتظار النتيجة



أهالي المتهمين



حمدي قنديل يستأسد على حلمي ختخوت
في مقابلة تليفزيونية تمت بالسجن الحرى



جلال الدين بكرى



محمد عبد المعطى الجزار



بن سته والدفاع



القضية الثانية في القفص



مبارك عبد العظيم



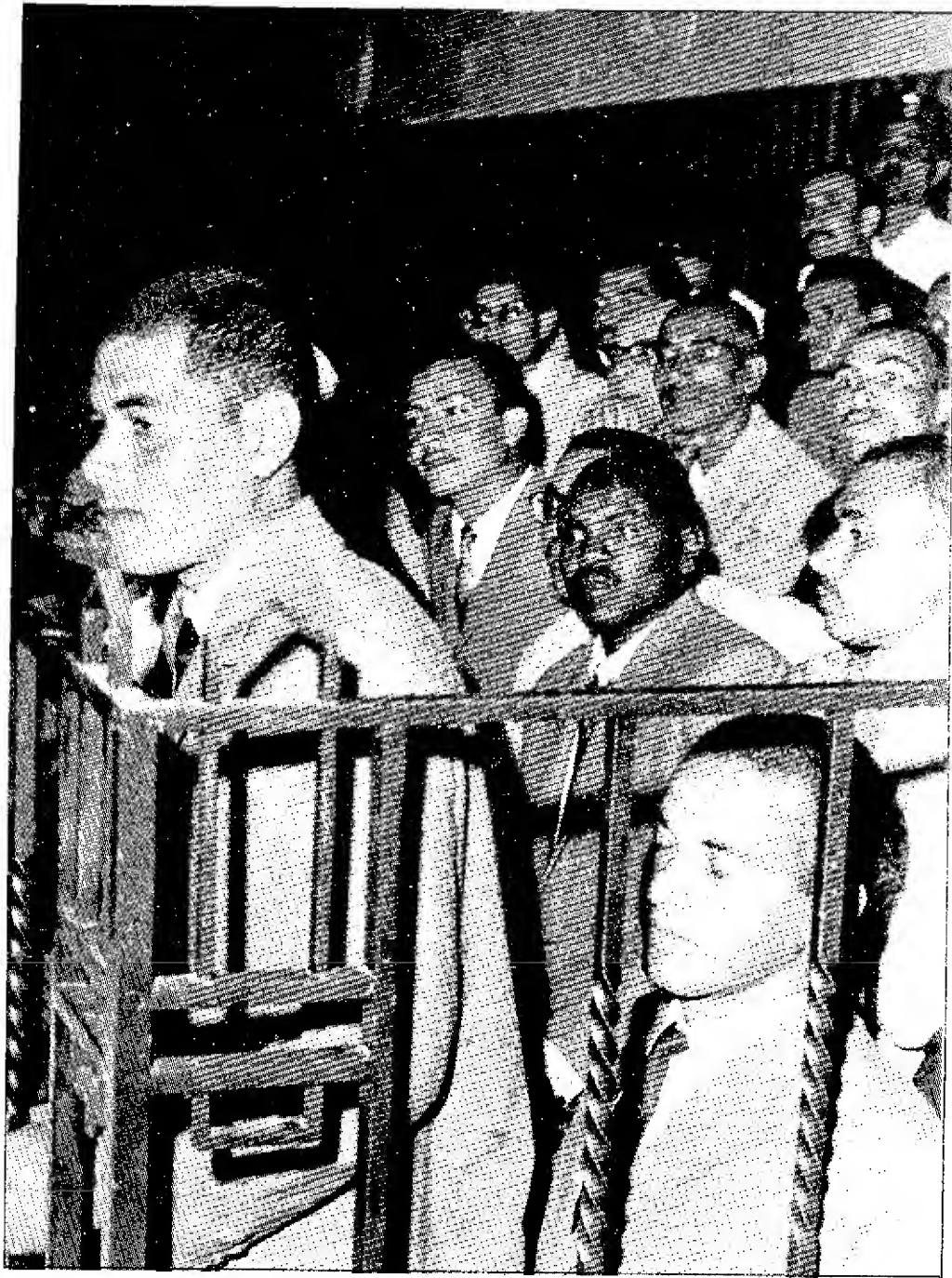
محمد عبد الفتاح شريف في التلفزيون



علي بكري



أحمد عبد السطار



کمال الفرماوی وفاروق عباس وآخرون



صادق المزيني



الشيخ الأودن لا يستطيع
الوقوف فقد جاوز الثمانين



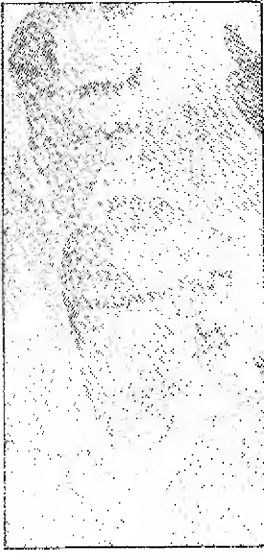
أسد عظيم رضى الله عنه



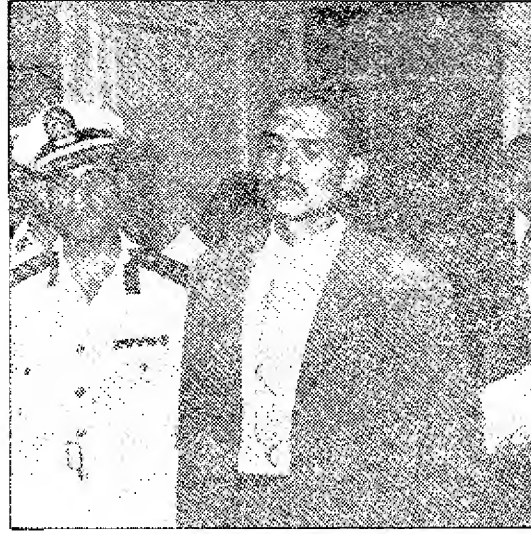
القضاة الذين يهربون في المعارك



خرج من القفص ليمثل أمام القاضي



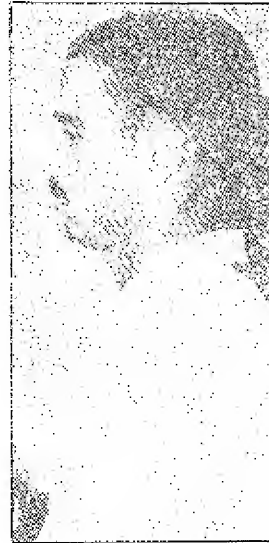
مأمون الهضيبي
وخلفه إسماعيل الهضيبي



عبد المجيد الشاذلي
أثناء النطق بالحكم



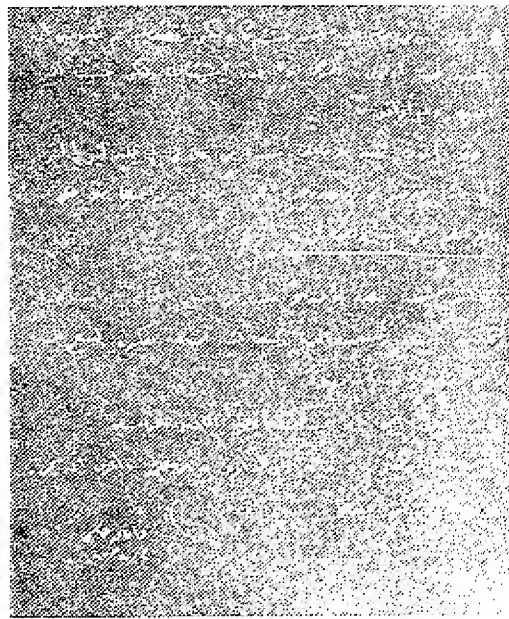
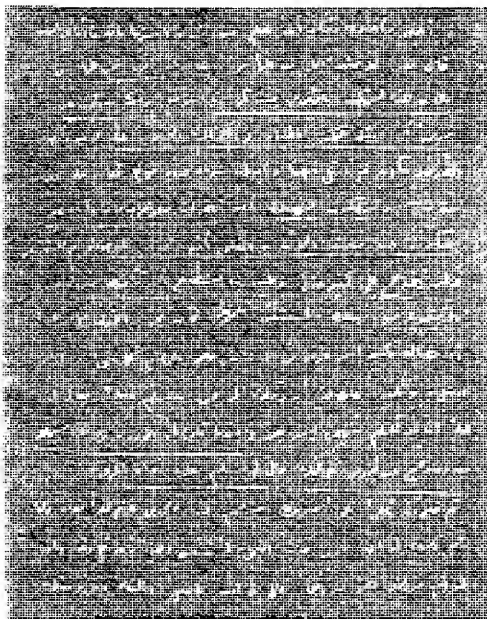
أحمد محمد ضاهر



أحمد عبد المجيد
الإعدام شنقا



الدكتور فاروق عباس



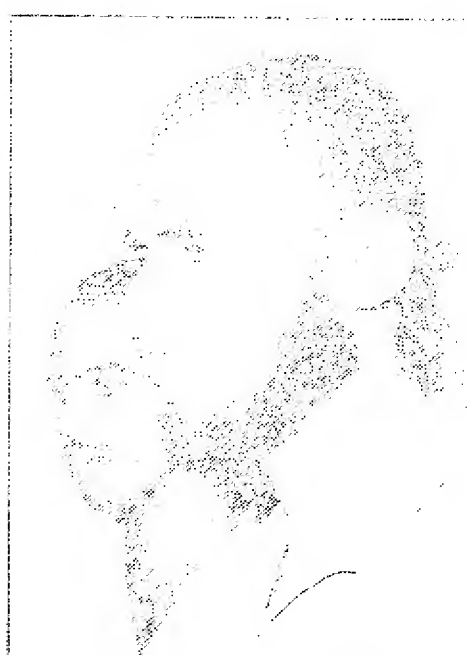
اعترافات مضحكة نشرت في الصفحات الأولى وحصل صاحبها على البراءة منها



١٠٠٠



هناك وتصميم



إيمان بالله



خليفة على الله !



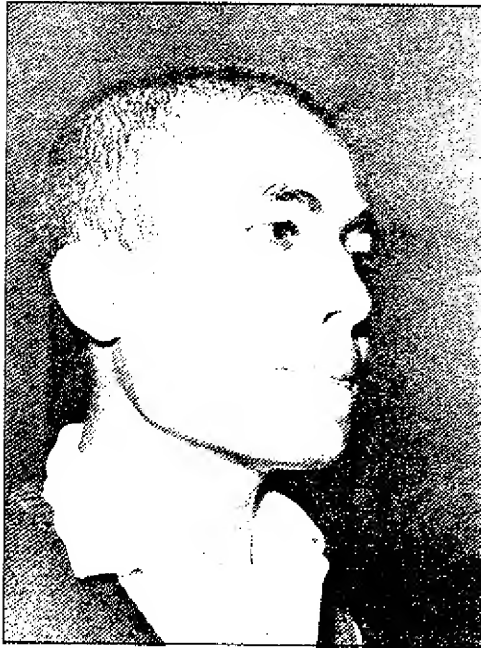
عائز حاجة ؟



أحمد عبد الستار



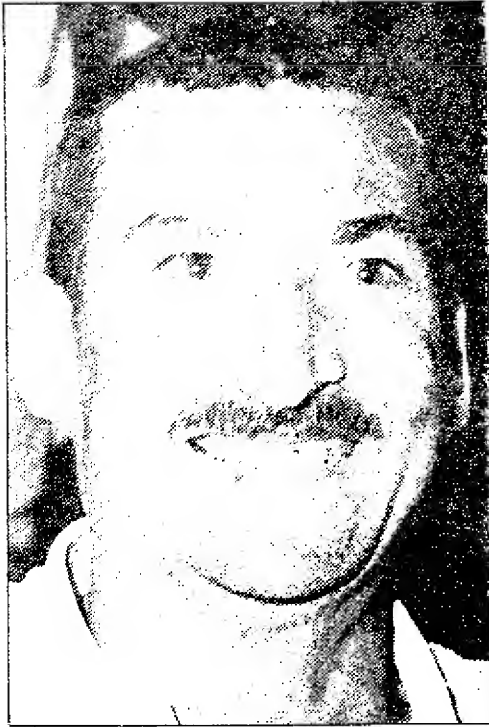
مملوح الديري



.....



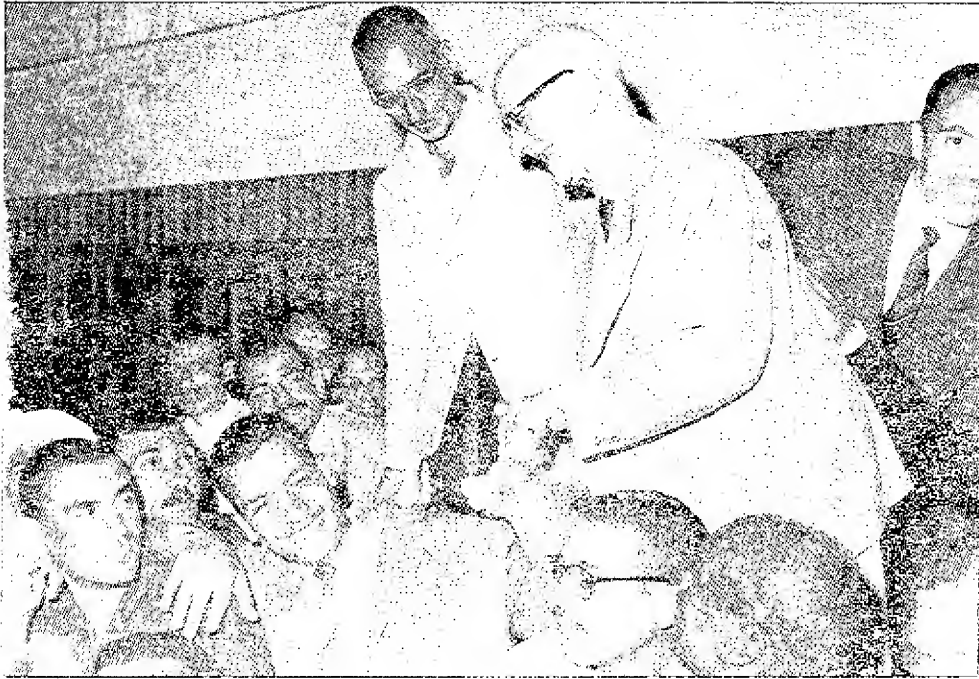
.....



.....

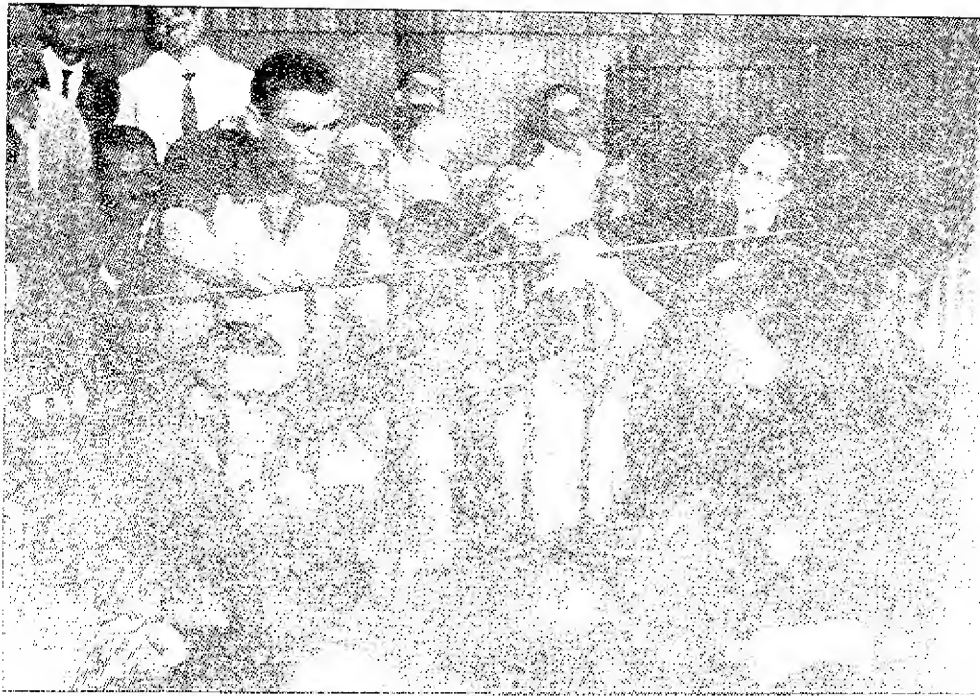


أحمد عبد المجيد



عبد العزيز العلي وفاروق عباس وضياء الطوبجي





عميد الطباطبائي يتحدث إلى الصحافة



استراحة



القضية الثانية (تنظيم القاهرة)



حمدي قنديل يستأسد على محمد عبد الفتاح شريف



حمدي حسن صالح



وايه يعنى ؟



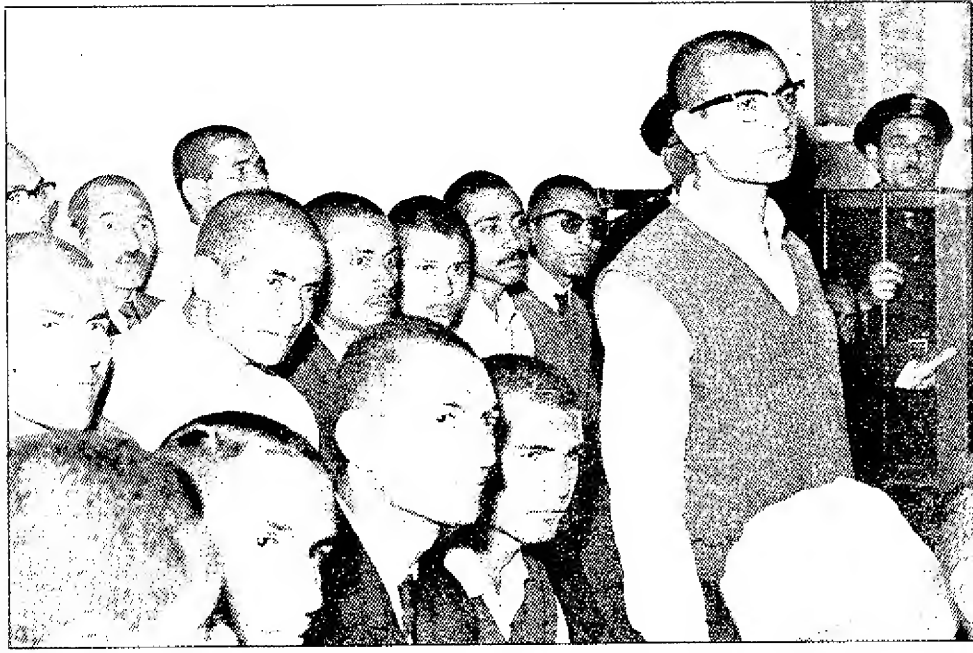
حبيب عثمان



مشهد من المحكمة



المتهم يذكر المحكمة بالآخرة



القضية الأولى (قيادة التنظيم)



مصطفى الحزيري يتحدث إلى الدفاع



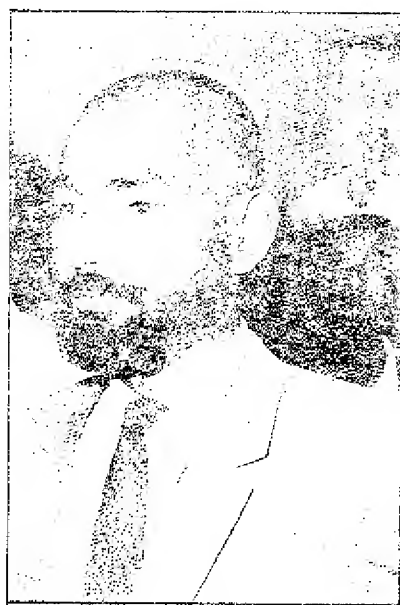
المرحوم جابر رزق



فايز إسماعيل عند الحكم



الشهيد فاروق المنشاوي

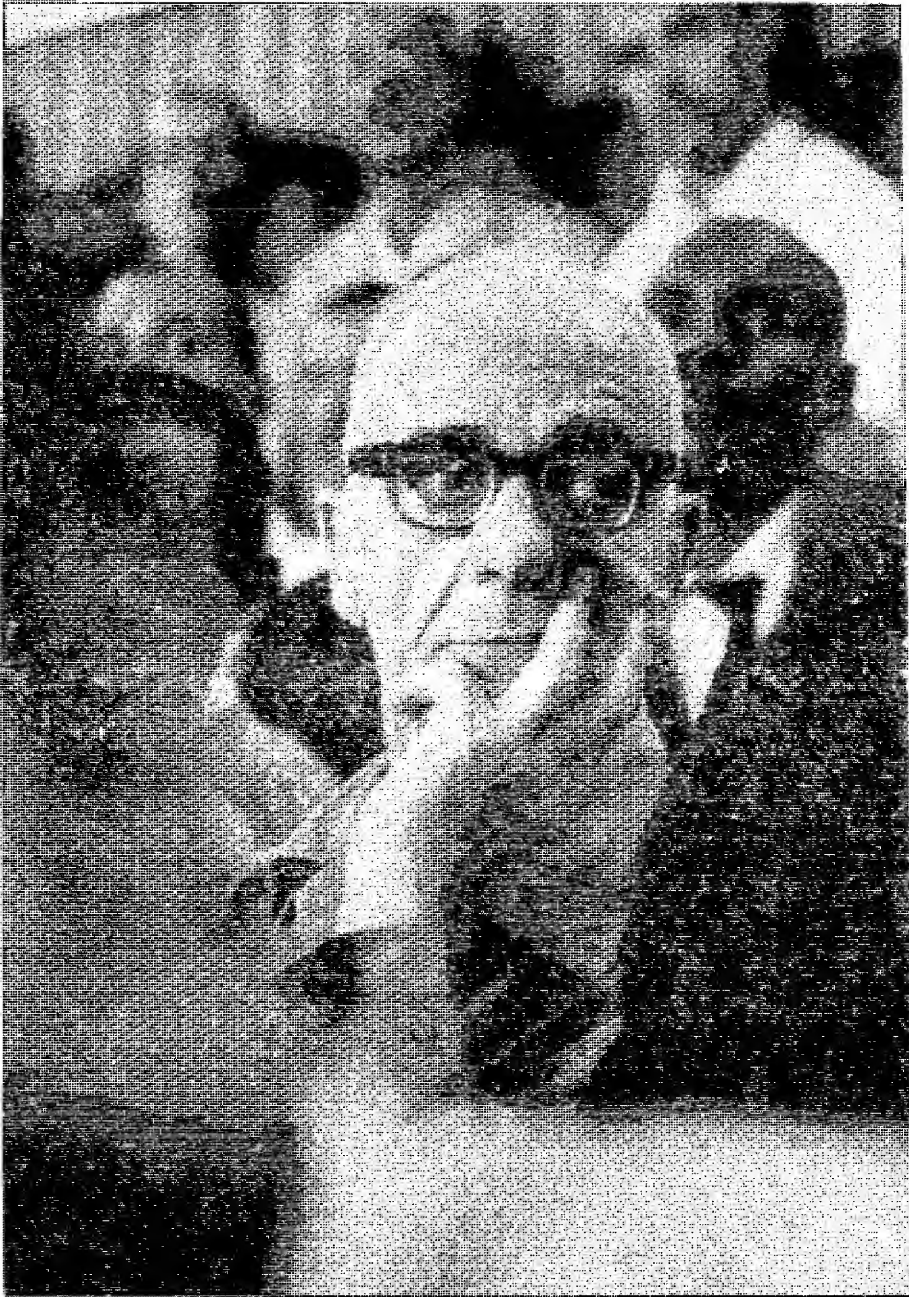




معروف الحضري



الحاج عباس السيسى



عبد العزيز علي يتأمل



سمير ناجي يعرض على المهرج بعض الأوراق



عبد القادر عودة ومحمد نجيب ويظهر في الصورة صلاح نصر في أقصى اليسار



العودة إلى السجن



معروف الحضري الذي حاصر قصر عابدين يوم الثورة المشنوم



الشهيد محمد يوسف هواش أمام المهرج



أحمد توفيق



الدكتور فاروق عباس في شبابه



المرحوم المفضي وابنيه مأمون وإسماعيل وبقية الإخوان في القفص



محمد عبد الله الخطيب



زينب الغزالي وحميدة قطب بعد أن تكرموا عليها بكوب من الماء



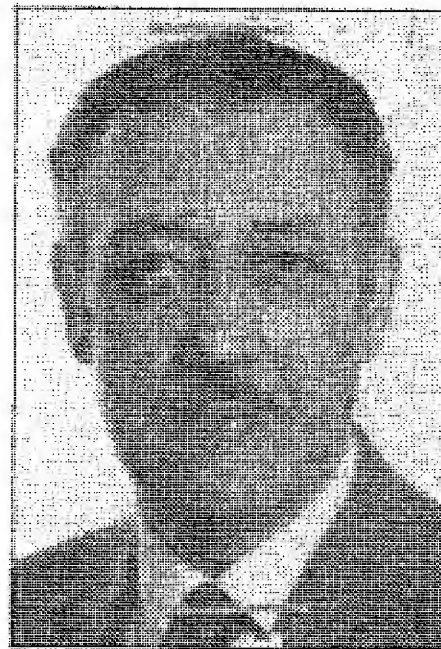
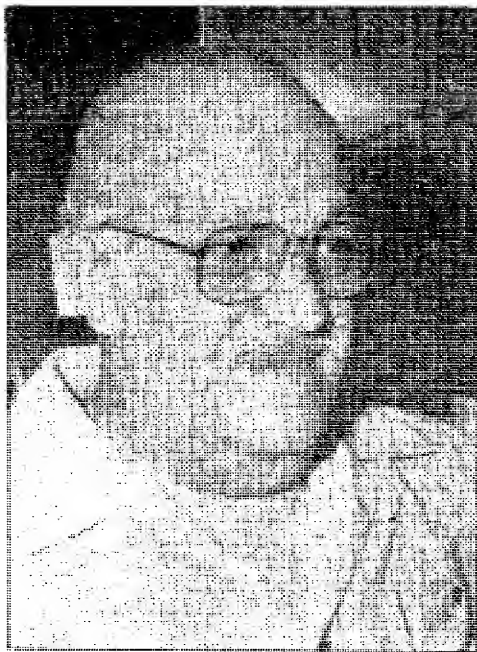
الطريق إلى الجنة



ومالى لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون



سيب دراعى



فؤاد علام وزميله حسن أبو باشا مرة أخرى



مصطفى أمين
في طريقه للمحكمة



مصطفى أمين في
الطريق إلى اليمان



مصطفى أمين يتها لسماع الحكم



مصطفى أمين بعد سماع الحكم

نقد و بیرون

هذه
بعض
نکات
مکتوبه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .

أدعى والدني والدني وارثي وزوج والدني .. أنه يعبدوا الله وحده

لا شريك له .. ناطق السوات والارضه الذي ليس كخلق شيء ..

و أن يعجبوا بصلوه ويؤثروا الزكاه ويعجبوا بصفاته .. و يحبوا إلى البيت

الحرام من استغاث إليه سبيلاً .. وأن لا يهتفوا إلا وهم مسلمون ..

و أن يعجبوا بالله في كل ما أمرهم .. لا يفرص فيه الله الزمان .. والناس

.. والعرف والعاده .. وسبق نوازلهم الكتاب والمسنه ..

و إلى حال نرج أخت .. مذهب الخلق .. والمصلاه ..

و أنك تكلم لا بأسلامك لكن لا صلاه لك .. فصاروا على أن يأتي ملك الموت ..

كثير جيباً باطوا .. لأن مخرج من الموت أم مخرج .. فصاروا على أن يفرص

منهم كيف يشاء .. على أنه فكل بعضهم المساجد .. عداً تدين كونه فربهم ففهم ..

لوالدي .. وإذا لم يفرصوا عليهم فخرج على المصالحه ..

ومذهب كلهم فكلهم ففهم ..

و دعي هذه ففهم .. ففهم ما أسمع .. ففهم كانت هذه الأشياء التي ذكرتها

ففهم ما أسمع ففهمنا ففهم كما ذكرته .. ففهم كانت أكثر ففهمنا ففهم

على نوما بيته ..

وعلموا أنه لله الحق الله ففهم ففهم ففهم ..

و فرحاً من أهل .. و فرحاً من أهل .. و فرحاً من أهل ..

والحمد لله الذي لا يفرص عنه مثقال ذره في السموات والارض

الارض ..

و أخذ رداي أن الحمد لله رب العالمين .

المبد الذليل : محمود أحمد فخرى

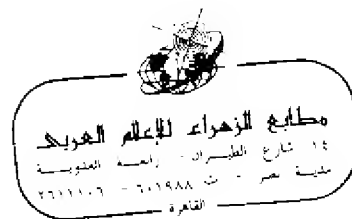
الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٧
بقلم الأستاذ حسن التل	٩
تقديم المؤلف للطبعة الأولى	١٣
مقدمة الطبعة الثانية الشرعية	٢٣
مقدمة الطبعة الثالثة الشرعية	
الفصل الأول :	
خمس دقائق ثم تعود	٢٥
الفصل الثاني :	
حقوقك أيها المواطن إذا اعتقلت	٣٧
الفصل الثالث :	
أيام الاعتقال الأولى	٥٥
الفصل الرابع :	
معتقل القلعة	٦٣
الفصل الخامس :	
معتقل أبي زعبل	٧٣
الفصل السادس :	
عودة إلى التحقيق	٩١
الفصل السابع :	
ذكريات من معتقل أبي زعبل	١٠٥
الفصل الثامن :	
المذهاب إلى السجن الحربي	١١٣
الفصل التاسع :	
المخزن رقم ٦ الرهيب	١٢٩
الفصل العاشر :	
الزنزانة ٢١٠ في انتظار التحقيق	١٥٣

الصفحة	الموضوع
	الفصل الحادى عشر :
١٧٩	الاستجواب على الطريقة الروسية
	الفصل الثانى عشر :
٢٠١	ما بعد التحقيق
	الفصل الثالث عشر :
٢١٧	القانون والقضاء فى أجازة
	الفصل الرابع عشر :
٢٣٣	قصة تنظيم الإخوان
	الفصل الخامس عشر :
٢٥٩	صحافة تلك الأيام
	الفصل السادس عشر :
٣٠٩	الخروج من الحربى إلى أبى زعبل
	الفصل السابع عشر :
٣٣٩	التوعية فى أبى زعبل
	الفصل الثامن عشر :
٣٨٣	زنازين شمال
	الفصل التاسع عشر :
٤٠٧	إذا جاءت الصاخة (٥ يونيو)
	الفصل العشرون :
٤٣٩	مصر تحكمها عصاية
	الفصل الواحد والعشرون :
٤٥٩	مهرجان الحرية والاعتقال معتقل طره السياسى
	الفصل الثانى والعشرون :
٥٣٥	محكمة التظلمات
	الفصل الثالث والعشرون :
٥٧٧	موت الزعيم

الموضوع	الصفحة
المتهمون الذين قدموا للمحاكمة في سنة ١٩٦٥ من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين	٥٩٩
ملاحق	
شهود المذبحة	٦١٣
القائمة السوداء	٦٥٣
أسماء الجلادين	٦٥٥
نكبة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥ بالصور الوصية	٦٥٩
صدر للمؤلف	

رقم الايداع : ١٩٨٥ / ٥٦٧٤
الترقيم الدولي : ٩ - ٠١ - ١٤٧٠ - ٩٧٧



« البوابة السوداء » تعلق بمصراعيها على شعوب بأكملها ، فتحول بينهم وبين رؤية الحقائق ، وتحجب عنهم حقهم في عيش كريم ، وكرم العيش أن يكون للإنسان رأى في حياته ، كيف يعيش ، ومن يحكمه ، وأن يُسمع له إن أراد الحديث ، ويمنح الفرصة الكاملة ليدل برأيه فيما يشاء من أشياء . حرية في اختيار من يحكمه . حرية في اختيار من يمثله . حرية في التعبير عما يراه . حرية في اختيار النظام الذى يرتضيه . على الأقل بالرأى والكلمة !

« البوابة السوداء » قد أوصدت على الحاكم والمحكوم على حد سواء .

« البوابة السوداء » قد أغلقت على شعب مسكين لا يكاد يجد قوت يومه ، يريد أن يصل صوته إلى من يحكمه ، فلا تجيبه غير صرخات المُعذِّبين ، وصفير السياط ، وأصوات الرنازين وهى تعلق فى عنف وصرامة .

وخلف هذه البوابة اللعينة نمت وترعرعت جرائم التعذيب التى لا مثيل لها بين سائر الجرائم فلا توجد جريمة فى هذا الكون تعادل تعذيب برىء والتشيل به ، ولا حتى مأسىء . وإن النظام الذى يهدر كرامة الإنسان ، لا يقوى أمام أى هجمة مهما كانت يسيرة . وإذا أردنا أن نصنع بلدا قويا وشعبا عظيما فلنعط كل واحد حقه فى حياة كريمة ، ولنجعلهُ يأمن من طرقة الليل المفزعة ، ومن زيارة الفجر التى تبعث الخوف والدعر فى قلوب الجميع ، الرجال والنساء والأطفال . ولن يتحقق أمن فى دولة مهما ظنت نفسها قوية وقادرة إلا بقدر الحرية الذى يأخذه أفراد شعبها .

المحرران

الزعماء لإعلاء الحرية